المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الآثار السياسية والحضارية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام (١٣٤٢-١٣٥٩هـ/١٩٢٤-١٩٣٩م)

بحث مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة :
جهان بنت إبراهيم شار علي عبد الرحيم

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد اللطيف عبد الله بن دهيش

١٤٣٢هـ/٢٠١١م


تمهيد


"الأوضاع السياسية في بلاد الشام قبيل الانتداب"

الموقع الجغرافي:

بلاد الشام([1]): هي البلاد الواقعة شمال الجزيرة العربية، وقد كان العرب في الجنوب يطلقون اسم الشام على جميع أجزاء المنطقة الشمالية من البلاد العربية. وتشمل حدود بلاد الشام، بحسب ما أورده الجغرافيون العرب الأوائل هي تقريباً سوريا الحالية ولبنان وفلسطين والأردن، وبذلك يحدها من الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق بادية الشام من أيلة ــ وهي آخر الحجاز وأول الشام ــ إلى الفرات، ومن الشمال تمتد حدوها من الفرات إلى بلاد الأنضول، ومن الجنوب يحدها سيناء، ويتركز في العصر الحديث اسم الشام في مدينة واحدة هي دمشق([2]). وأحياناً يطلق اسم الشام على كامل سوريا الحالية.

وتقع بلاد الشام في الطرف الغربي من قارة آسيا على شاطئ البحر المتوسط وهي بين خطوط الطول ٣٤.٣٠° و ٣٧.٣٠° شرقاً ، ودوائر العرض ٣١.١٠° و٤٣.٣٠° شمالاً. وموقعها الاستراتيجي هذا جعلها همزة الوصل بين الغرب والشرق([3]). وهذا ماجعل الدول الأوربية تطمع فيها وتتنافس في السيطرة عليها.

لقد كانت بلاد الشام عبارة عن كتلةً واحدةً لا تتجزأ منذ أن فتحها المسلمون، وعندما دخلت بلاد الشام في ظل الدولة العثمانية التي كانت في ذلك الوقت دولة إسلامية كبرى، ومقراً للخلافة الإسلامية، فقد تقدمت فتوحاتها في أوروبا بل ووصلت إلى أواسطها وحاصرت جيوشها الاسلامية فيينا عدة مرات([4]). وعندما ضمت الدولة العثمانية بلاد الشام في عام٩٢٢هـ/١٥١٦م بعد معركة مرج دابق، قسمتها من الناحية الإدارية إلى ولايات تابعة للدولة العثمانية مباشرة، وكانت([5]) تشكل الولايات الآتية:

ولاية دمشق: وهي القسم الجنوبي من سوريا الحالية، وكانت تضم أقضية حماة وحمص ودمشق وحوران وجبل الدروز([6])، والأردن الحالي كله تقريباً وقضاء البقاع.

([1]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ١.

([2]) محمد كرد علي: خطط الشام (مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ج١، ص٧ــ٩.

([3]) يسرى الحنفي: الإرساليات الأجنبية إلى بلاد الشام خلال القرن الثالث عشر الهجري وحركة التصدي الإسلامي لها (١٢٠١ــ١٣٠٠هـ/١٧٨٥ــ١٨٨٢م) دراسة تاريخية تحليلية نقدية (رسالة لنيل درجة الماجستير بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، (غير منشورة) ،ج١، ص٣٨.

([4]) حاصر العثمانيون فيينا مرتين في عهد السلطان سليمان القانوني أول مرة عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م، والمرة الثانية في ٩٣٩هـ/١٥٣٢م. انظر: محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق:إحسان حقي (دار النفائس، بيروت، ط٧، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ص٢١٦ــ٢١٧.

([5]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ٢.

([6]) الدروز: فرقة باطنية تؤلِّه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، تعود هذه التسمية إلى أوائل القرن الخامس الهجري نسبة إلى محمد بن إسماعيل الدرزي والذي يعرف بـ(بنشتكين)=

ولاية بيروت: وكانت في تلك الفترة تشمل المناطق الساحلية من لبنان الحالي، ومنطقة اللاذقية التي هي جزء من سوريا الحالية، والقسم الشمالي من فلسطين.

ولاية حلب: وكانت تضم القسم الشمالي من سوريا الحالية، وقضائي عينتاب([1]) وأورفة، اللذين بقيا جزءاً من تركيا، وتبعها لواء الاسكندرونة([2]) الذي ضم إلى تركيا في٥ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ/٢٣ يونيو ١٩٣٩م([3]).

بالإضافة إلى سنجق([4]) جبل لبنان المستقل إدارياً، والذي كان يشمل المناطق الجبلية الداخلية من لبنان المعاصر، وكذلك سنجق القدس الذي كان يشمل القسم الجنوبي من فلسطين،

= الدرزي أحد دعاة الحاكم بأمر الله الفاطمي حاكم مصر، وقد قصد وادي التيم ــ نسبة لتيم الله بن ثعلبة اليماني ــ وهي منطقة وجود الدروز وقاعدة بلدتي راشيا وحصبيا في جنوب لبنان اليوم، وقد خدم بنشكتين الحاكم بأمر الله الفاطمي ونادى بألوهيته، ويقال أن الشيخ عبد الله التنوخي حاول العودة بالدروز إلى المذهب السني لكنه توفي. نشأت هذه الفرقة في مصر لكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام. انظر: أمين سعيد : سيرتي ومذكراتي السياسية (١٣٢٦ــ١٣٨٧هـ/ ١٩٠٨ــ١٩٦٧م)، توثيق وتحقيق: عبد الكريم إبراهيم السمك، (ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، الحاشية١، ج١، ص٢٧٣ ؛ مانع حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، (دار الندوة العالمية للنشر والتوزيع، الرياض، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج١، ص٣٩٧؛ عبد الله محمد الغريب: وجاء دور المجوس الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية، (ط٦، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج١، ص٨٦ــ٨٧.

([1]) عينتاب: بلدة جنوب تركيا احتلتها القوات البريطانية سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٩م، ثم القوات الفرنسية في ٥ نوفمبر في السنة نفسها، لكن الأتراك حاصروا البلدة سنة١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، عندما وقعت تركيا مع فرنسا معاهدة أنقرة في ١٨ صفر ١٣٤٠هـ/٢٠ أكتوبر ١٩٢١م انسحبت القوات الفرنسية من عينتاب ومرعش وأورفة ومردين وألحقت جميعها بتركيا: انظر: ميشال اسطفان: تاريخ الطوابع سوريا أيام الانتداب، (مجلة تاريخ العرب والعالم، دار النشر العربية، بيروت، العدد١٠، السنة الأولى، رمضان ١٣٩٩هـ/ أغسطس ١٩٧٩م)، ص٩٣.

([2]) الاسكندرونة: منطقة زراعية خصبة ، وتعد الميناء الطبيعي لحلب وشمال سوريا، دخلت تحت النفوذ الفرنسي منذ سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٩م، وكان على فرنسا أن تحافظ عليها بوصفها جزءاً من المنطقة التي ائتمنت عليها بموجب صك الانتداب، لكن فرنسا وهبتها دون حق إلى تركيا بموجب صفقة سياسية عقدتها معها، وعندما علا الاحتجاج السوري والعربي أجري استفتاء صوري لعب فيه الترهيب والترغيب دوراً فاعلاً، فإذا بهذه البلاد الغنية بشتى مواردها، وبمساحتها الواسعة تنضم إلى تركيا سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م. انظر: ميشال اسطفان: المرجع السابق،ص٩٢.

([3]) فلاديمير لوتسكي: الحرب الوطنية التحررية في سوريا ١٩٢٥ــ١٩٥٧م صفحة مشرقة من النضال العربي ضد الإمبريالية الفرنسية، نقله إلى العربية: محمد دياب، راجعه وقدم له: مسعود ضاهر،(الفارابي للنشر، ١٩٨٧م)، ص٢٤ ؛ عبد الله التل: الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، (المكتب الإسلامي، بيروت ــ دمشق، ط٢، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص١٤٤ــ١٤٦ .

([4]) سنجق: السنجق هو العلم ، وهو مركز إداري كان يسمى متصرفية أيضاً، فقد كان العثمانيون يقسمون المراكز الإدارية المدنية إلى أربع مراتب الأولى هي رتبة الوالي ومركزه الولاية، والثانية هي رتبة المتصرف ومركزه

أما قضاء دير الزور وقضاء الجزيرة اللذان يشكلان القسم الشرقي من سوريا المعاصرة فقد كانا جزءاً من ولاية الموصل العراقية([1]).

لقد رأت التيارات الأوربية المعادية للعرب والمسلمين في الوحدة العربية الإسلامية في بلاد الشام قوة للإسلام والمسلمين، لذلك قامت تقاتل الدولة العثمانية لإخراجها من بلاد الشام والعمل على تجزئتها وتدعم كل حركة تقوم فيها ضدها، وتضفي عليها صفة الإخلاص والوطنية، فأخذت تدعم الطائفية في الشام، في حين بدأت تمد يدها للنصارى في لبنان، وتؤسس المدارس لهم حتى قوي أمرهم. وتلا ذلك أن أوجدت أوربا لهؤلاء النصارى فكرة القومية العربية يتسترون وراءها، فعمل رواد القومية العربية على بث سمومهم وأفكارهم الهدامة بالدعوة إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، فكان الصراع بين عرب بلاد الشام و السلطات العثمانية على أشده، وعندما سيطر الاتحاديون على مقاليد الحكم في الدولة، وجدت قوميتان متصارعتان، هما: القومية العربية، والقومية التركية أو الطورانية([2])، واستفاد مروجوا هذه القوميات من هذا الصراع([3])، وذلك عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى(١٣٣٣هـ/١٩١٤م)، ودخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور(ألمانيا ـ النمسا ـ المجر). ووقف القوميون العرب ودعاة الانفصال عن الدولة العثمانية بزعامة الشريف حسين بن علي([4]) حاكم

المتصرفية أو السنجق، والثالثة هي رتبة القائم مقام ومركزه القضاء، والرابعة هي رتبة مدير الناحية ومركزه الناحية وهؤلاء الموظفون الإداريون يرتبط الأصغر منهم بالأكبر بحسب الترتيب المذكور ويرتبط الوالي بوزارة الداخلية.= =وهناك مراكز كانت تسمى سنجق مستقل أو متصرفية مستقلة وهي مثل الولاية يرتبط حاكمها بوزير الداخلية وكانت القدس كذلك. انظر: محمد فريد بك المحامي: المرجع السابق، الحاشية رقم ٢ ، ص٢٢٥ـ٢٢٦.

([1]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٢٤ـ٢٥ ؛ وللمزيد من المعلومات حول التقسيمات الإدارية في بلاد الشام انظر: عبدالعزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ـ١٩١٤م، تقديم: أحمد عزت عبدالكريم، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م)، ص٦١ـ٨١.

([2]) القومية الطورانية :حركة تركية قومية تهدف إلى تتريك رعايا الدولة العثمانية، وكان يراد لها أن تصبح مصدر حياة وقوة للدولة العثمانية المتهاوية، لكن رد فعل رعايا الدولة العثمانية كان في غير صالح الاتحاديين فقد أخذوا ينفضون من حولهم لاسيما العرب، وهذا أدى إلى ظهور جمعيات وأندية تحمل أسماء القوميات العثمانية غير التركية مثل العربية الفتاة والمنتدى العربي والجمعيات الأرمنية وغيرها من الجمعيات التي انبثقت عن الحركة الطورانية، والتي أدت في النهاية إلى انهيار الدولة العثمانية. انظر: أحمد عطية الله: القاموس السياسي، (دار النهضة العربية، القاهرة ط٣)، ص٧٦٤ـ٧٦٥.

(٣) محمود شاكر، إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر(٩٨٧ـ١٤٠٠هـ/١٤٩٢ـ١٩٨٠م) قارة آسيا، (مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ج١، ص١١٧ـ١١٩.

([4]) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين من أحفاد أبي نمي بن بركات(١٢٧٠ـ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٤ـ

الحجاز آنذاك في صف أعداء الدولة العثمانية (بريطانيا ــ وفرنسا)([1])، مما أدى إلى هزيمتها، وما أن وضعت الحرب أوزارها، حتى خرج العثمانيون من المنطقة نهائياً في ٨ صفر ١٣٣٧هـ/١٢ نوفمبر ١٩١٨م([2])، وقامت الدول الاستعمارية بريطانيا وفرنسا بتقسيم الغنيمة([3]) بينهما فاقتطعت فرنسا(سوريا ولبنان)، واقتطعت بريطانية(فلسطين وشرق الأردن) بموجب اتفاقية سايكس بيكو (١٣٣٥هـ/١٩١٦م)([4]). وهذا يدل على أن الأمر خطط له من قبل بموجب الاتفاقية السرية السالفة الذكر، ولم يكن الأمر وليد صدفة.

١٩٣١م): ولد باسطنبول، ثم جاء إلى مكة، وعندما كبر وتولى عمه عون الرفيق إمارة مكة لم يحتمل تدخله في شؤون الإمارة فطلب إبعاده من الحجاز فاستدعاه السلطان عبدالحميد الثاني في عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م إلى اسطنبول وعين عضواً في مجلس المبعوثان(الشورى) في الدولة، ثم أميراً لمكة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م. قاد الثورة العربية في= =الحجاز عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، وأعلن نفسه ملكاً على الحجاز، وفي عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م وبعد دخول الملك عبد العزيز آل سعود إلى الحجاز تنازل عن عرشه لابنه علي وغادر الحجاز إلى العقبة، لعل ابنه علي وأعيان مكة يعيدون الحكم إلى أسرة الهاشمية، لكن لم يحصل ذلك، أمرت الحكومة البريطانية بنفي الشريف حسين إلى قبرص ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، ولما اشتد عليه المرض أذن البريطانيون بسفره إلى الأردن التي ظل بها ستة أشهر، ثم توفي وحمل إلى القدس ودفن هناك. انظر: خيرالدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،(دار العلم للملايين، بيروت، ط١٢، ١٩٩٧م)، ج٢، ص٢٤٩ــ ٢٥٠ ؛ أحمد السباعي: تاريخ مكة، (مطابع الصفا، مكة المكرمة، ط٨، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ج٢، ص٥٦١ ؛ فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب، (مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ط٢، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص٣٢٤ ؛ أمين الريحاني: ملوك العرب، (دار الجيل، بيروت، ط٨)، ص٥٨.

(1) F.O 371 / 2140 / NO (604) From : Sir Rain ,To Sir Louis Mallet, 22 September 1914 ,P.174 .

(2) يوسف الحكيم: سوريا والعهد الفيصلي، ذكريات ٣ ، (دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م)، ص١٥ ؛ علي سلطان: تاريخ سورية(١٩١٨ــ١٩٢٠م) حكم فيصل بن الحسين، (دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧م) ، ص٣١ــ٣٢ ، جهان عبد الرحيم: الثورة العربية في الحجاز وأثرها السيئ في بلاد الشام والعراق بالمشرق العربي، (رسالة لنيل درجة الماجستير بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، (غير منشورة)، ج٢، ص٣٩٥ــ٣٩٦.

(3) انظر خريطة تقسيم بلاد الشام حسب اتفاقية سايكس بيكو في ملحق الخرائط الملحق رقم ٣.

(٤) الوثائق الرئيسية في القضية الفلسطينية، المجموعة الأولى ١٩١٥ـ١٩٤٦م،(جامعة الدول العربية، القاهرة، الأمانة العامة شعبة فلسطين)، الوثيقة رقم ٢٣، ص٨٤ــ٨٦ ؛ جورج أنطونيوس: يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م)، ص٣٥٠ــ ٣٥١ ؛ زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، (دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م)، ص٧٠ ؛ ياسين سويد: مؤامرة الغرب على العرب، محطات في مراحل المؤامرة ومقاومتها، (المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، ط١، ١٩٩٢م)، ص٣٥.

الوضع في بلاد الشام أثناء الحرب العالمية الأولى(١٣٣٣ــ ١٣٣٧هـ/١٩١٤ــ١٩١٨م):

عند قيام الحرب العالمية الأولى كانت بلاد الشام تحت الحكم العثماني وكانت تشكل كتلة سياسية واحدة تابعة لاسطنبول، وقد ساند أهل الشام الدولة العثمانية في حربها ضد الحلفاء واستجاب عدد كبير منهم لدعوة الجهاد[١]، ما عدا عدد قليل من بعض النصارى وأغلبهم من لبنان،حيث كانوا يفضلون الحكم الأجنبي وخاصة الفرنسي على الحكم العثماني، وعندما اكتشف أحمد جمال باشا[٢] بعض الوثائق التي تدين بعض العرب الذين اتصلوا بالسلطات الفرنسية، وطلبوا منها التدخل لإخراج العثمانيين من المنطقة، فقام بإعدامهم[٣] في عامي١٣٣٣ــ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥ــ١٩١٦م ، وكان عددهم ٣٢ شخصاً[٤].

---

[١] توفيق برو:القضية العربية في الحرب العالمية الأولى(١٩١٤ــ١٩١٨م)، (دار طلاس، دمشق،ط١٩٨٩،١م)، ص٨١ ؛ زبير سلطان قدوري: العسكريون والثورة العربية الكبرى، (اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٨م)، ص٩٦ــ٩٧.

[٢] أحمد جمال باشا (١٢٧٨ــ١٣٤١هـ/١٨٧٢ــ١٩٢٢م): الملقب بالسفاح ، عين والياً عسكرياً في أضنه عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وبغداد عام ١٣٢٩هـ/١٩١١م، ثم اسطنبول. لما نشبت الحرب العالمية الأولى عين وزيراً للبحرية وقائداً للجيش الرابع ووالياً عسكرياً في سوريا في الفترة بين ١٣٣٣هـ/١٩١٤م حتى ٢٧ صفر ١٣٣٦هـ/١٢ ديسمبر ١٩١٧م، ولما انتهت الحرب بخسارة الدولة العثمانية هرب مع طلعت وأنور عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م إلى ألمانيا، ثم انتقل إلى أفغانستان وقام بتنظيم قواتها المسلحة، واغتيل في عام ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م في مدينة تفليس. انظر: صالح الجاسر: أعلام في دائرة الاغتيال، (مطابع الخالدي للأوفست، الرياض، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ص٣١ــ٣٢ ؛ علي سلطان: تاريخ سورية (١٩٠٨ــ١٩١٨م) نهاية الحكم التركي، (دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧م)، ص٢٨٢.

[٣] هناك إختلاف في الآراء حول حقيقة من أعدمهم أحمد جمال باشا فهناك من قال أنهم شهداء أحرار العرب، وهناك من قال أنهم خونة وكانوا على اتصال بأعداء الدولة العثمانية من أجل القضاء عليها ، وإننا نعتقد أن أحمد جمال باشا والدولة العثمانية كانت في فترة حرب وفي الحروب لابد من اتخاذ الحيطة والحذر وأن تكون الشدة الغالبة على اللين حتى يمكن مواجهة كيد الأعداء ، وأن ماقام به أحمد جمال قد يكون خطأ ً، لكن هذا ما فرضته عليه ظروف الحرب. وهو الضرب بيد من حديد على من يحاول الاتصال بالحلفاء.

[٤] توفيق برو: القضية العربية ، ص٨١ــ٨٣ ؛ وص١٨٤ــ١٨٥؛ أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، (مكتبة مدبولي، القاهرة)، ج١، ص٩٠ــ٩٦ ؛ جلال يحيى: العالم العربي الحديث والمعاصر، المدخل، (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٨م)، ج١، ص٥١٩ــ٥٢٠ ؛ الثورة العربية، تاريخ القومية العربية، (دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م)، ص١٦٥.

كان بعض القومين العرب يقفون موقف المتفرج في بداية الحرب، ويعملون في الخفاء ضد الدولة العثمانية مع الشريف حسين بالتعاون مع بريطانيا، وعندما قامت ثورة الشريف في الحجاز انضموا إليها([1])، وكانت هذه بداية النكسة في بلاد الشام، فقد تسلط اليهود والنصارى الذي صدقهم الشريف حسين والقوميين العرب على الدولة العثمانية.

وعلى أية حال فقد سارت القوات العربية من الحجاز إلى الشمال باتجاه العقبة ومعهم البنادق والمتفجرات و٢٠ ألف ليرة ذهباً، لشراء ولاء القبائل على الطريق، وتمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على العقبة في ١٧ رمضان ١٣٣٥هـ/٦ يوليو ١٩١٧م، وأخذت القوات العربية في نشر قواتها على طول الطريق بين العقبة ومعان([2]). ومن العقبة بدأت مرحلة احتلال بلاد الشام.

فقد قرر المسؤولون البريطانيون في مصر بعد سقوط العقبة أن يجعلوا عمليات العرب فيها، وفي جهات معان ضمن مسؤولية الجنرال أدموند هنري اللنبي Edmond Henry Allenby General([3])، وأن تصبح القوات العربية في العقبة هي الجناح الأيمن لقوات الاحتلال البريطاني في توغلها نحو الشام([4]). وأنه لولا وجود الثورة العربية وتكوين الجيش العربي في الحجاز والذي وقف موقف العداء من الدولة العثمانية لما تم للجيش البريطاني إحراز ما أحرزه من نصر بهذه السرعة([5]).

([1]) عمر الديراوي: الحرب العالمية الأولى عرض مصور، (دار العلم للملايين، بيروت، ط١٤، ١٩٩٤م)، ص٤٠٦ ؛= =جمال باشا: مذكرات جمال باشا السفاح، عرّبه عن التركية : علي أحمد شكري، تحقيق: عبد المجيد محمود خالد، (الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١ ،١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ص٢٣٢ـ٢٣٥ ؛ وللمزيد من التفاصيل انظر: زبير سلطان قدوري: المرجع السابق، ص١٢٩ـ ٢٣٥.

([2]) سليمان موسى: الحركة العربية المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة(١٩٠٨ـ١٩٢٤م)، (دار النهار، بيروت، ١٩٧٧م)، ص٣٠١ـ٣٠٤؛ سليمان موسى: مذكرات الأمير زيد الحرب في الأردن (١٩١٧ـ١٩١٨)، (مركز الكتب الأردني، عَمان، ط٢، ١٩٩٠م)، ص٦٦ـ٦٧.

([3]) الجنرال أدموند هنري اللنبي General Edmond Henry Allenby (١٢٧٧ـ١٣٥٤هـ/ ١٨٦١ـ١٩٣٦م): قائد وسياسي بريطاني، أصبح في عام ١٣٣٥هـ/١٩١٧م قائداً عاماً للقوات البريطانية في المشرق العربي، جعل القاهرة مركزاً لقيادته وكانت مهمته الاستيلاء على فلسطين بمساعدة العناصر العربية الثائرة على الحكم العثماني في عام ١٣٣٦هـ/١٩١٨م، وفي الفترة (١٣٣٧ـ١٣٤٣هـ/ ١٩١٩ـ١٩٢٥م) أصبح مندوباً سامياً فوق العادة لمصر والسودان، خلفاً لسير وينجت، ففي عهده شهدت مصر الكثير من الفظائع من قتل وتدمير وحرق للقرى وإقامة المحاكم العسكرية. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٠٩.

([4]) جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٣٢٤ ؛ توماس إدوارد لورنس: أعمدة الحكمة السبعة، (المكتب التجاري، بيروت، ط٢، ١٩٦٥م)، ص٢١٥ ؛ T0 E0 Lawrence: A Triumph seven pillars of wisdom,(London, 1935),p. 270.

([5]) أمين سعيد : الثورة العربية..، ج١ ، ص٢٦٢.

زحف الجيش البريطاني من مصر إلى فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي الذي اجتاز بجيشه صحراء سيناء ووصل إلى رفح[1] في١٧ ربيع الأول ١٣٣٥هـ/ ١٠ يناير ١٩١٧م وهي الحد الطبيعي بين سيناء و فلسطين وتابع الجيش البريطاني سيره نحو غزة التي احتلها بعد قتال عنيف[2]، في ٢١ محرم ١٣٣٦هـ/٦ نوفمبر ١٩١٧م[3].

وعندما دخل الجنرال اللنبي غزة استدعى قائد القوات العربية الأمير فيصل بن الحسين[4] للمثول أمامه، وتم الاتفاق بين الطرفين على ضرورة قيام القوات العربية بنشاطات في فلسطين وشرقي الأردن وسوريا، على ألا يكون لأي من الفريقين العربي والإنجليزي حق الاحتفاظ بالمنطقة التي يحتلها ويدير شؤونها إلى أن يبت في مصيرها في مؤتمر الصلح في نهاية الحرب، لأن في ذلك تطبيقاً فعلياً لاتفاقية سايكس بيكو[5]. ومن هنا بدأت رحلة التفريط الفعلي في البلاد العربية الإسلامية في الشام.

---

(1) رفح: هي المدينة الواقعة بين مصر وفلسطين تبعد عن العريش بثمانية وعشرين ميلا وعن غزة ثمانية عشر ميلا وبينها وبين خان يونس خمسة أميال. انظر: جريدة القبلة: العدد ٤٤ ، ٢٠ ربيع الأول ١٣٣٥هـ، ص٤.

(2) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، (دار الجليل للنشر، عَمان، ط٣، ١٩٨٦م)، ص ٤٣. لمزيد من المعلومات عن كيفية دخول القوات البريطانية غزة. انظر: جريدة المقطم: العدد ٨٧١٦ ، الجمعة ٢٣ محرم ١٣٣٦هـ/٩ نوفمبر ١٩١٧م، ص٦ـ٧.

(3) جريدة المقطم : العدد ٨٧١٦ ، الجمعة ٢٣ محرم ١٣٣٦هـ/٩ نوفمبر ١٩١٧م ، ص٦ ؛ جريدة القبلة: العدد ٤٤ ، ٢٠ ربيع الأول ١٣٣٥هـ ، ص١ ؛ عمر الديراوي: المرجع السابق، ص٤١٠.

(4) فيصل بن الحسين(١٣٠٠ـ١٣٥٢هـ/١٨٨٣ـ١٩٣٣م): الابن الثالث للشريف حسين ولد بالطائف وانتقل مع والده إلى اسطنبول حيث تلقى تعليمه هو وإخوانه (علي وعبد الله وزيد) باللغة العربية والتركية، عاد مع والده إلى الحجاز عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وانتخب نائباً عن مدينة جدة بمجلس المبعوثان العثماني عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م، وعندما ثار والده على الدولة عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م تولى هو قيادة الجيش المتجه إلى الشام، أصبح ملكاً على سوريا عام ١٣٣٨هـ/مارس ١٩٢٠م، هزم في معركة ميسلون فغادر دمشق إلى إيطاليا واجتمع مع تشرشل في القاهرة وتم الاتفاق بينهما على أن يصبح ملكاً على العراق عام ١٣٣٩هـ/أغسطس ١٩٢١م ، توفي الملك فيصل في سويسرا ودفن في بغداد. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٥، ص١٦٥ـ١٦٦ ؛ مير بصري: أعلام السياسة في العراق الحديث، (دار رياض الريس للنشر، لندن، ١٩٨٧م)، ص١٥ ؛ أمين الريحاني: المرجع السابق،ج٢، ص٨٣٣ـ٨٣٤ ؛ محمد علي الكردي: شرقي الأردن والعهد الفيصلي(١٩١٨ـ١٩٢٠م)، (دار عمار، عَمان، ١٩٩٣م)، ص٣١ـ٣٤.

(5) توفيق برو: القضية العربية ، ص٤٣٤ عمر الديراوي : المرجع السابق، ص٤١٠.

بعد الاجتماع الذي عقد بين الجنرال اللنبي والأمير فيصل أصبح جيش الثورة بقيادة الأمير فيصل هو الجناح الأيمن لجيش الحلفاء الزاحف من مصر إلى الشام بقيادة اللنبي الذي أخذ في الزحف شمالاً فاحتل الخليل ويافا وبيت لحم([1])، وأخذ في الاستعداد للهجوم على القدس([2])، لأن العثمانيين قد اضطروا إلى الانسحاب من غزة إلى المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس للدفاع عنها، وقد شن الجنرال اللنبي هجوماً عنيفاً على القوات العثمانية التي أخذت في التقهقر أمام القوات الإنجليزية التي أخذت في التقدم لاحتلال المعاقل الجبلية الواحدة تلو الأخرى،حتى استطاعوا تطويق القوات العثمانية من ثلاث جهات، وحينذاك أمر المارشال فون فالكنهاين Von Falkenhayn([3]) قائد القوات العثمانية الألمانية بالانسحاب من القدس في ٢٣ صفر ١٣٣٦هـ/٨ ديسمبر ١٩١٧م لاعتبارات دينية وسياسية، وفي ٢٤ صفر ١٣٣٦هـ/٩ ديسمبر ١٩١٧م تم تسليم القدس إلى القائد البريطاني([4])، ومنذ ذلك التاريخ خرجت آخر دولة إسلامية حكمت القدس، ولم يدخل إليها أي حكم إسلامي حتى اليوم، فقد ضاعت فلسطين والمقدسات الإسلامية فيها بعد أن ظلت تحافظ عليها الدولة العثمانية أربعة قرون(١٥١٧ـ١٩١٧م). وعلى الرغم من أن حكومة شرق الأردن كانت تحكم القدس والضفة الغربية إلى عام ١٩٦٧م إلا أن السيادة الفعلية في البلاد كانت للبريطانيين وحلفائهم اليهود.

وفي صباح يوم٢٥ ذو الحجة ١٣٣٦هـ/١ أكتوبر ١٩١٨م، دخلت القوات العربية والبريطانية إلى دمشق ووجدت أن الحاكم العثماني قد هرب، وأمسك بزمام الأمور في المدينة الأخوان عبد القادر([5]) ومحمد سعيد الجزائري([1]) اللذان قاما برفع علم الثورة العربية في

([1]) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية ، ص٤٣.

([2]) جلال يحيى : العالم العربي ، ج١، ص٥٣٩.

([3]) المارشال فون فالكنهاين Von Falkenhayn (١٢٧٧ـ١٣٤١هـ/١٨٦١ـ١٩٢٢م): قائد ألماني، في عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م أصبح رئيس أركان الحرب الألمانية. وتولى قيادة الجيوش العثمانية والألمانية في عام ١٣٣٦هـ/نهاية عام ١٩١٧م إلى بداية عام ١٩١٨م، انهزم أمام الحلفاء في الشام في١٣٣٦هـ/ بداية عام ١٩١٨م فترك قيادة الجيش العثماني، وخلفه للجنرال ليمان فون ساندرز. انظر: المنجد في الأعلام، (دار المشرق، بيروت، ط٢٢، ١٩٩٧م)، ص٤١٦.

([4]) Yusuf Hikmet Bayur : Türk Inkilabi Tarihi 1914 - 1918 Genel SavaŞi,(Türk tarih kurumu basimevi , Ankara , 1991) Kisim 3, p. 387 ممدوح الروسان : حروب الثورة العربية الكبرى في الحجاز وبلاد الشام (١٩١٦ـ١٩١٨م)، (مكتبة الكتاني، أربد، ١٩٨٦م)، الحاشية رقم ١٦، ص٦٧ ؛ جورج أنطونيوس : المرجع السابق، ص٣٣٠ـ٣٣١.

([5]) الأمير عبدالقادر بن علي بن عبدالقادر الجزائري: حفيد المجاهد الكبير الأمير عبدالقادر الجزائري، وشقيق الأمير محمد سعيد الجزائري، ساهم هو وأخوه في حفظ الأمن في مدينة دمشق بعد خروج القوات العثمانية منها وكانت له ولأخيه شعبية كبيرة، اغتيل في محرم ١٣٣٧هـ/أكتوبر ١٩١٨م على يد أحد أعوان الأمير فيصل بن

دمشق([2])ـ على الرغم من ولائهم للعثمانيين([3]) ـ ويذكر الأمير محمد سعيد الجزائري أنه تعمد رفع علم الثورة قبل دخول لورنس([4]) مع طلائع القوات العربية والبريطانية،حتى يعلن استقلال سوريا باسم الحكومة الهاشمية،لوضع بريطانيا وفرنسا أمام الأمر الواقع، لأن أهل الشام كانوا قد اكتشفوا مؤامرة الحلفاء لاقتسام البلاد العربية في اتفاقية سايكس بيكو([5]).

وعندما أعلن الأمير محمد سعيد الجزائري الحكم العربي في سوريا أبرق إلى جميع رؤساء بلديات المدن الداخلية والساحلية،يطلب منهم رفع العلم العربي وإعلان الحكم باسم الشريف حسين، وفي يوم ٢٥ ذو الحجة ١٣٣٦هـ/١ أكتوبر ١٩١٨م تم تسليم جميع شؤون

الحسين. انظر: سليمان المدني: هؤلاء حكموا سورية ١٩١٨ـ١٩٧٠م، (دار الأنوار، دمشق، ط٤، ١٩٩٩م)، ص١٧.

([1]) الأمير محمد سعيد بن علي بن عبدالقادر الجزائري: حفيد الأمير عبدالقادر الجزائري، ولد في دمشق عام١٣٠٠هـ/١٨٨٣م، وتلقى تعليمه فيها، ثم انتقل إلى اسطنبول ودرس في المدرسة العليا، تولى رئاسة الدولة في سورية بعد خروج القوات العثمانية عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م، رشح لعرش سوريا عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م بعد سقوط الملك فيصل بن الحسين، لكن فرنسا عارضت هذا المشروع وقامت بمحاربته، ترأس العديد من الجان والجمعيات بسوريا ، ويمكن اعتباره أول رئيس للحكومة العربية بدمشق. انظر: أنور الرفاعي: جهاد نصف قرن لسمو الأمير سعيد آل عبد القادر الجزائري،(المطبعة العمومية، دمشق)، ص٦ـ١٠ ؛ سليمان المدني: المرجع السابق ص١٢ـ١٥.

([2]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق(١٩١٨ـ١٩٢٠م)، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م)، ص٣٣ و ٤٧ ؛ دافيد فرومكين: سلام ما بعده سلام ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ـ١٩٢٢م، ترجمة : أسعد كامل الياس، (دار رياض الريس للنشر، لندن، ط١، ١٩٩٢م)، ص٣٧٦.

([3]) يذكر محمد كرد علي أنه قبيل سقوط دمشق عقد العثمانيون في دمشق مجلس حربي قاموا بموجبه بتسليم زمام الأمور في دمشق إلى أهل الشام وطلب منهم جمال باشا الصغير أن يعلنوا استقلال الشام ورفع العلم العربي على دار الحكومة يوم ٢٤ ذو الحجة ١٣٣٦هـ/٣٠ سبتمبر ١٩١٨م ، وبعد أن هنأ جمال باشا الدمشقيين باستقلالهم غادر دمشق. انظر: محمد كرد علي: خطط الشام، (دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ج٣، ص١٥٣.

([4]) توماس ادوارد لورنس Tomas Edouard Lawrence (١٣٠٧ـ١٣٥٣هـ/١٨٨٨ـ١٩٣٥م): درس الآثار الصليبية في الشرق، وعمل في المكتب العربي بالقاهرة ـ أو مركز المخابرات والجاسوسية في الشرق العربي ـ الذي انشأ عند نشوب الحرب العالمية الأولى، توثقت علاقة لورنس بالشريف حسين ولاسيما بابنه فيصل الذي أصبح فيما بعد صديقه ومستشاره وصحبه كترجمان إلى مؤتمر الصلح ، توفي في إنجلترا بحادث سيارة. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٠٦٩ ؛ نجدة صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز) ١٩١٦، (دار الساقي، بيروت، لندن، ط٢، ٢٠٠١م)، ج٢، ص٨٩ـ٩٠.

([5]) موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الإسلامية، (دار البيارق، بيروت، ط٨، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص٢٩٢ـ٢٩٥ ؛ سليمان المدني:المرجع السابق، ص١٥.

ولاية بيروت والساحل السوري إلى الحكومة العربية وإنهاء وظائف الحكومة العثمانية، وكانت صلاحيات الحاكم العسكري في بيروت تشمل جميع الساحل السوري حتى لواء الاسكندرونة([1]).

ولكن عندما دخل الأمير فيصل دمشق اجتمع في ظهر يوم ٢٧ ذي الحجة ١٣٣٦هـ/٣ أكتوبر ١٩١٨م مع الجنرال اللنبي وأعضاء المكتب العربي وضباط البعثة البريطانية التي كانت في الحجاز،وقام اللنبي يشرح للأمير فيصل ما اتفقت عليه بريطانيا وفرنسا ــ أي اتفاقية سايكس بيكو ــ بأن فرنسا سوف تكون الدولة التي تتولى الحماية على لبنان،وأنه سوف يتولى الإدارة في سوريا الداخلية ما عدا فلسطين ولبنان، غضب فيصل لأجل لبنان التي سوف تكون تحت حماية فرنسية، لكنه لم يُبدِ اهتماماً بفلسطين، وقد ادعى فيصل ولورنس عدم معرفتهما باتفاقية سايكس بيكو([2])، رغم أن لورنس قد اخبره بها من قبل في أثناء وجودهما في العقبة في ١١ صفر ١٣٣٦هـ/٢٦ نوفمبر ١٩١٧م،حيث يقول لورنس : "لحسن حظي أنني كنت قد كشفت لفيصل قبل هذا التاريخ عن وجود مثل تلك الاتفاقية ــ يقصد اتفاقية سايكس بيكو ــ وأقنعته بأن أفضل وسيلة لكسر مفعول الاتفاق هي تقديم عون فعّال للإنكليز"([3])، وأنهى الجنرال اللنبي هذا الاجتماع في دمشق بقوله لفيصل:أنه هو القائد العام،وأن فيصل لواء تحت إمرته،وعليه القبول بأمر رئيسه إلى أن تسوى الأمور كلها بعد الحرب، قَبِلَ فيصل هذا القرار وغادر الاجتماع([4]).

وفي أواخر شهر ذي الحجة ١٣٣٦هـ/مطلع شهر أكتوبر ١٩١٨م وصل شكري الأيوبي([5]) إلى بيروت مندوباً عن الفريق علي رضا الركابي([6])، وأعلن انضمام لبنان إلى

([1]) صبحي العمري : ميسلون نهاية عهد، أوراق الثورة العربية (٣)، (دار رياض الريس للنشر، لندن ــ قبرص، ط١، ١٩٩١م)، ص١٧ــ١٨ ؛ خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق، ص٥٦ــ٥٧.

([2]) دافيد فرومكين:المرجع السابق، ص٣٧٧ــ٣٧٨ ؛ علي سلطان : تاريخ سورية ١٩١٨ــ ١٩٢٠م، ص١٧ــ١٨.

([3]) لورنس: أعمدة الحكمة السبعة، ص٣٥٤ ؛ T0 E0 Lawrence : Op. Cit , p.402.

([4]) دافيد فرومكين: المرجع السابق، ص٣٧٨ــ٣٧٩.

([5]) شكري الأيوبي(١٢٦٧ــ١٣٤٠هـ/١٨٥١ــ١٩٢٢م): ولد بدمشق، وتخرج من الكلية الحربية باسطنبول، ساعد القوات العربية ضد الدولة العثمانية عندما كان في الجيش العثماني، اتهمته الدولة العثمانية بالخروج عليها فسجن في دمشق، وبعد الحرب عينه الأمير فيصل بن الحسين نائباً عنه في بيروت، وبعد دخول القوات الفرنسية لبنان عاد إلى دمشق، وعين حاكماً عسكرياً في حلب. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٧١ــ١٧٢.

([6]) علي رضا الركابي(١٢٨٢ــ١٣٦١هـ/١٨٦٦ــ١٩٤٢م): ولد وتوفي بدمشق ، تعلم وتخرج من المدرسة الحربية باسطنبول، تولى وظائف عسكرية في الدولة العثمانية، انتسب إلى الجمعية العربية الفتاة وجمعية العهد السريتين، انضم إلى ثورة الشريف حسين ، ولما دخل الجيش الشريف دمشق عام١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م عين حاكماً عسكرياً ثم رئيساً للوزراء، استقال قبل معركة ميسلون ، ولزم بيته بعد الاحتلال الفرنسي لسوريا، وعندما أنشئت إمارة شرق الأردن ارتحل إليها وتولى رئاسة الوزراء فيها مرتين، ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها. انظر: ناجي عبدالنبي بزي: سورية صراع الاستقطاب دراسة وتحليل لأحداث الشرق الأوسط والتدخلات الدولية في

الحكومة العربية،وعين حبيب باشا السعد([1]) حاكماً مدنياً،وبُلّغ هذا الإعلان إلى باقي مدن الساحل السوري من صيدا وطرابلس وإنطاكية واللاذقية وصور وبقية المدن الساحلية التي رفعت العلم العربي على ساريات دوائرها، ولكن ما أن علم الفرنسيون بهذه الإجراءات حتى هبوا ثائرين يطالبون بريطانيا بتنفيذ اتفاقيتها معهم([2])، ونتج عن ذلك أن جاء في ٤ محرم ١٣٣٧هـ/٩ أكتوبر١٩١٨م إلى بيروت الكولونيل الفرنسي دوبياباب معيناً من قبل الجنرال اللنبي حاكماً عسكرياً على المنطقة الغربية([3]) بمساندة القوات البريطانية عن طريق البر وقوات الأسطول الفرنسي عن طريق البحر، وطلب قائد القوات البريطانية التي وصلت إلى بيروت من شكري الأيوبي أن ينزل العلم العربي وينسحب، لكن الأيوبي رفض أن يقوم بذلك قبل أن يصله أمر مباشر من الأمير فيصل، وأبرق اللنبي إلى الأمير فيصل أن يهتم بشؤونه الداخلية في المنطقة الشرقية التي أسندت إليه إدارتها وأن يترك لبنان وشأنه، ولم ينتظر اللنبي جواب الأمير،بل أمر في ليلة ٦/٥ محرم ١٣٣٧هـ الموافق١٠/١١ أكتوبر١٩١٨م بإنزال الأعلام العربية عن بيروت والمدن الساحلية([4])، فأنزل العلم العربي بالفعل عن ساريته ورفع العلم الفرنسي([5]) في حفل

الأحداث السورية من ١٩١٧ــ ١٩٧٣م،(دار ابن العربي، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ص٥٠٨ ؛ سليمان المدني: المرجع السابق، ص١٦.

([1]) حبيب باشا السعد(١٢٨٢ــ١٣٦١هـ/١٨٦٦ــ١٩٤٢م):سياسي لبناني، ماروني المذهب، ين حاكماً مدنياً في بيروت عام١٣٣٦هـ/١٩١٨م،ورئيس الجمهورية الثاني(١٣٥٢ــ١٣٥٤هـ/١٩٣٣ــ١٩٣٦م).انظر: المنجد، ص٣٠٠.

([2]) صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٨ ؛ محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣ ، ص١٥٥.

([3]) يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص٤٧ ؛ صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٨ ؛ سليمان موسى: مذكرات الأمير زيد، النهضة العربية، بقلم:السير اليك كركبرايد، ص٢١٠ ؛ محمد كرد علي:المرجع السابق، ج٣، ص١٥٥.

([4]) سليمان موسى: الحركة العربية، ص٣٩٨ــ٣٩٩ ؛ محمد كرد علي:المرجع السابق، ج٣، ص١٥٥ ؛ محمود حسن صالح منسي: الشرق العربي في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ــ١٩٢٠م)، (رسالة لنيل درجة الدكتوراه بجامعة الأزهر، القاهرة ، ١٩٦٩م)، (غير منشورة)، ص٤٢٨.

([5]) ويذكر وليم ييل أن العلم العربي في بيروت قُطع وأنزل عن ساريته من قبل الجنود البريطانيين، كما عبر الأمير فيصل في برقيته عن حادثة إنزال العلم بقوله " إنني لا أرى لزوماً لشرح وإيضاح ما حصل على الراية العربية ببيروت من الحقارة...". كما قال في رسالة أرسلها لوالده يشرح فيها هذا الحادث : "وحصلت منازعات شديدة بينهم. بالأخير أنزلوا الراية جبراً واستلموا الحكومة...". بينما يقول كلايتون أن الأعلام العربية الثلاثة أنزلت دون حوادث وبكل احترام. انظر: نجدة صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز) ١٩١٧ــ١٩١٨م، (دار الساقي، بيروت، لندن، ط١، ١٩٩٨م)، الوثيقة رقم ١٩٣ و ١٩٥،ج٣، ص٥٥٣ و ص٥٥٦ ؛ سليمان موسى:الحركة العربية، الحاشية رقم ١، ص ٣٩٩ ؛ حكمت فريحات: السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى، (دار المستقبل، عَمان، ط٢، ١٩٨٧م)، ص٢١٧.

رسمي مهيب([1])، وأبرق اللنبي إلى وزارة الحربية البريطانية محذراً الأمير فيصل. أنه إذا حاول السيطرة على المنطقة الزرقاء التي يجب أن يبتّ مؤتمر الصلح في أمرها، فإنه بذلك لن يجني سوى الإساءة إلى القضية العربية في مؤتمر الصلح، كما أبلغ اللنبي الأمير فيصل أن الأوامر والتصريحات الصادرة عنه (أي اللنبي) باعتباره القائد العام تعتبر نافذة المفعول دون سواها([2]).

وبناءً على ذلك أصدر الأمير فيصل أمره إلى الأيوبي بإخلاء مدينة بيروت والعودة إلى دمشق،وتجنب الاصطدام بالفرنسيين وإسداء النصيحة إلى أهالي بيروت لتجنب الاصطدام أيضاً بجيوش الحلفاء في هذا الوقت، وإفهامهم أن مقدرات هذه المنطقة سَيُبَتّ فيها بعد عقد الهدنة([3])، وانتهت بذلك مهمة شكري الأيوبي في بيروت قبل أن تبدأ وعاد إلى دمشق. وبذلك سقطت أولى أجزاء الدولة العربية المزمع إقامتها تحت لواء الشريف حسين قبل أن تقوم، فصارت لبنان لفرنسا،ويظهر من تهديد اللنبي لفيصل أنه عرض عليه خريطة سايكس بيكو ووضح له موقعه بالضبط،وذلك عندما حذره من ألا يقترب من "المنطقة الزرقاء"، وبذلك يقتطع الحلفاء لبنان لفرنسا، وفلسطين (وتشمل شرق الأردن) لبريطانيا، وسوريا تبقى إلى إشعار آخر لفيصل، كما سنرى فيما بعد.

الوضع في بلاد الشام بعد الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤:

انعقد "المؤتمر السوري العام" بدمشق بعد الحرب في ٩ رمضان ١٣٣٧هـ/٧ يونيو ١٩١٩م وقد افتتح الأمير فيصل([4]) أول جلسة للمؤتمر الذي ضم ١٢٠ عضواً([5]) من جميع

([1]) يوسف الحكيم: المرجع السابق ، ص٤٧ ؛ صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٨ ؛ سليمان موسى: مذكرات الأمير زيد، النهضة العربية، بقلم: السير اليك كركبرايد ، ص٢١٠.

([2]) سليمان موسى: الحركة العربية، ص٣٩٩ ؛ دافيد فرومكين: المرجع السابق، ص٣٧٩.

([3]) نوري السعيد: مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي، (الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م)، ص١٠٢.

([4]) علينا أن نشير هنا إلى أن الأمير فيصل كان قبل افتتاح المؤتمر وبالتحديد في ٤ربيع الأخر ١٣٣٧هـ/ ٦ يناير يناير ١٩١٩م قد عقد اتفاق بينه وبين الحكومة الفرنسية يؤكد فيه موافقته على الانتداب الفرنسي لسوريا ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر :"الوثائق الرسمية ، في المسألة العربية"، (مجلة المنار: ج٣، المجلد ٢٥، ٢٩ شعبان ١٣٤٢هـ/ مارس١٩٢٤م)،ص٢٠٥ــ٢٠٨.

([5]) ضم المؤتمر ٨٥ مندوباً منتخباً، و٣٥ مندوباً عن زعماء القبائل ورؤساء الأديان، وقد انتخب السيد هاشم الأتاسي رئيساً للمؤتمر، وفي الأشهر الثلاثة الأخيرة من عمر الدولة الفيصلية أنتخب الشيخ محمد رشيد رضا رئيساً للمؤتمر. انظر: سليمان موسى: الحركة العربية، الحاشية رقم ٢، ص٤٩١ ؛ يوسف الحكيم: المرجع السابق، ص٩٠ــ٩٥ ؛ حكمت فريحات:المرجع السابق، ص٢٣٠.

فئات وطبقات الشعب السوري الدينية والسياسية[1]،وهو أول مؤتمر تشريعي منظم يمثل الشعب العربي في بلاد الشام في الفترة الزمنية القصيرة التي فصلت بين خروج الدولة العثمانية والانتداب الفرنسي. والجدير بالذكر أن أعضاء هذا المؤتمر كانوا يمثلون كافة مناطق بلاد الشام من طرطوس شمالا حتى خليج العقبة جنوبا، و من البحر الأبيض المتوسط غربا حتى نهاية حدود بادية الشام شرقا[2].

وقد صدر عن هذا المؤتمر عدة قرارات نورد فيما يلي بعضا منها بإيجاز:

١. إعلان استقلال سوريا الكبرى (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن)والاعتراف بها دولة موحدة.
٢. رفض المادة ٢٢[3] الواردة في ميثاق جمعية الأمم والقاضية بفرض الانتداب على البلاد العربية.
٣. رفض اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور، وكل المشاريع الهادفة إلى تقسيم البلاد العربية.

---

[1] جورج أنطونيوس:المرجع السابق، ص٤٠٤ــ٤٠٥ ؛ سليمان موسى:الحركة العربية، ص٤٩١ ؛ قدري قلعجي: الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ــ١٩٢٥م، جيل الفداء يوماً بيوم مع كامل الأسماء والوثائق والأدوار،(شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م)، ص٣٠٤ ؛ أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٥٥ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٢، ص٥١.

[2] نجدة صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز) ١٩١٩م، (دار الساقي، بيروت، لندن، ط١، ١٩٩٩م)، الوثيقة رقم٢٩٠، ج٤، ص٥٢٠ــ ٥٢١

[3] المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم: في ٢٨ ربيع الآخرة ١٣٣٧هــ/٣٠ يناير١٩١٩م اتُّخِذَ قرار بسلخ أرمينيا= =وبلاد العرب عن الدولة العثمانية الاعتراف بأن هذه البلاد قد بلغت من التطور ما يمكن معها الاعتراف مؤقتاً باستقلالها شرط أن تكون تحت حماية دولة منتدبة حتى يأتي الوقت الذي تستطيع فيه هذه الدول أن تقف وحدها، كما قال القرار أن سكان هذه البلاد يعتبرون وديعة مقدسة في ذمة المدنية (ويقصد بالمدنية الدول الأوربية) وأن رغبتهم يجب أن تكون عاملاً رئيساً في اختيار الدولة المنتدبة، وأصبح هذا القرار هو مضمون المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم الذي وقع عليه في٣٠ رمضان ١٣٣٧هــ/٢٨ يونيو ١٩١٩م وأصبح نافذ المفعول في ١٩ ربيع الآخرة ١٣٣٨هــ/١٠ يناير ١٩٢٠م، وبموجب هذه المادة بَنت بريطانيا وفرنسا فيما بعد صك الانتداب في مؤتمر سان ريمو الذي وزعت فيه الدول المنتدبة على البلاد العربية في الشرق في ١٣٣٨هــ/أبريل ١٩٢٠م. انظر: الوثائق الرئيسة..، الوثيقة رقم ٢٥، ص١١٤ ؛ أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٥٦ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٢، ص٢٥ــ٢٦ ؛ سليمان موسى: الحركة العربية،ص٤٦٨ ؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق، الحاشية رقم١، ص٩٤.

٤. مد يد الصداقة لكل دولة، وقبول المعونة منها شريطة ألا تنتقص هذه المعونة من استقلال البلاد و استقلال قرارها، وألا تؤثر على الوحدة الوطنية للشعب مع رفض أية معونة فرنسية مهما كان شكلها([1]).

وفي تلك الأثناء كان وصول لجنة كنج ــ كرين ([2]) والتي أطلق عليها اسم "الهيئة الأمريكية من اللجنة الدولية لشؤون الانتدابات في تركية، والمعروف باسم لجنة كنج ــ كرين"([3]). وصلت اللجنة إلى يافا في ١٢ رمضان ١٣٣٧هـ/ ١٠ يونيو ١٩١٩م وقضت(٤٢ يوماً) أي ستة أسابيع في زيارة فلسطين وسوريا، وقامت بتحقيق واسع في تلك الفترة التقت خلالها بعدد كبير من الوفود في ما يقارب من ست وثلاثين إلى أربعين مدينة وقضاءً ريفي، وتلقت ما يزيد على ١٨٠٠ عريضة([4]) رفضت ١٠٣٣ عريضة أي نوع من الانتداب وطالبت بالاستقلال التام، بينما طالبت ١٥٠٠ عريضة بسوريا الموحدة، وهي ما يعادل ٨٤% من مجموع العرائض([5])، ورضيت ١٤١ عريضة فقط بانتداب أمريكي أو بريطاني على سوريا،

([1]) انظر نص القرارات في: نجدة صفوة : الجزيرة العربية، الوثيقة رقم ٢٩٠، ج٤، ص٥٢١ــ ٥٢٣؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٠٨ــ٣١٠.

([2]) ولتضارب المصالح الفرنسية والبريطانية والعربية واليهودية في الشام، اقترح الرئيس الأمريكي ويلسون تشكيل لجنة تحقيق من قبل الدول الأربعة (بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحد الأمريكية، وإيطاليا) لاستطلاع رأي الأهالي وتقديم تقرير إلى مؤتمر السلم. وفي٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ/٢٥ مارس ١٩١٩م تمت الموافقة رسمياً على إيفاد اللجنة الرباعية على أن تنتدب كل دولة عضوين يمثلانها. تألفت اللجنة من الأعضاء الأمريكيين فقط برئاسة كنج وكرين وعدد من المستشارين هم : ألبرت ليبير مستشار فني، والدكتور جورج مونتجمري مستشار فني، والكابتن وليم ييل ملحق باللجنة ، والكابتن رونالد يرودي أميناً للصندوق ، والمستر لورنس مور مدير أعمال. وقد رفضت فرنسا وبريطانيا وايطاليا إيفاد مندوبين عنها، ولكن انضم إلى اللجنة الكولونيل ويلسن السكرتير العسكري للورد اللنبي البريطاني. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٢، ص٥٢ ؛ حكمت فريحات: المرجع السابق، الحاشية ٤٠٣، ص٢٢٦ ؛ جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٣٩٩ــ٤٠٧ ؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق، ص١١٢ــ١١٣ ؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٠٥ــ٣٠٦.

([3]) جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٤٠٦ــ٤٠٧ ؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق، ص١١٢ــ١١٣ ؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٣٠٥ــ٣٠٦.

([4]) الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٥، ص١١٦ــ١١٧ ؛ جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٤٠٧ــ٤٠٨ ؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق، ص١١٣ــ١١٥ ؛ علي محافظة: مواقف الدول الكبرى من الوحدة العربية: موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ــ١٩٤٥م،(مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٥م)، ص٧٠.

([5]) للمزيد من المعلومات حول العرائض انظر: أمين سعيد سيرتي ومذكراتي..، ج١، ص١٩٩ــ٢٠٦ ؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربية ، الحاشية ١ ، ص١١٥.

وكانت هذه رغبة الأمير فيصل بن الحسين، لكن هذا الطلب رفض من قبل بريطانيا، لمعرفتهـا السابقة، برغبة فرنسا في المنطقة، أما الولايات المتحدة الأمريكية، لم تكن متحمسة في منافسـة بريطانيا وفرنسا في المنطقة([1]). وقد تكون هذه المبادرة الأمريكية الأولى للتدخل في المنطقـة، هي التي فتحت لها الطريق لتغلغل في منطقة المشرق العربي فيما بعد.

وفي ٥ شوال ١٣٣٧هـ/٣ يوليو ١٩١٩م زارت اللجنة دمشق، وقام وفد المؤتمر السوري العام برئاسة الأستاذ هاشم الأتاسي بتسليمها قرارات المؤتمر الذي كان يعبر عن رغبات الأمـة السورية([2]). وبعد أن استكملت اللجنة عملها كتبت تقريرها([3])، الذي جـاء فيـه رصـد الآراء المتفق عليها في سوريا كلها،وهي المطالبة بالاستقلال والوحدة تحت حكم الأمير فيصل، ورفض الحماية تحت ظل الانتداب الفرنسي،على أن يعهد لأمريكا أو بريطانيا بهذا الانتداب، وفيما يتعلق بفلسطين فإن اللجنة أعربت عن اقتناعها بأن الصهيونية اعتداء شـنيع علـى حقـوق الشـعب الفلسطيني، وأوصت بايقاف الهجرة نهائياً وأن تُنبذ فكرة جعل فلسطين دولة يهودية([4]).

وفي يوم الجمعة ٣٠ جمادى الأولى١٣٣٨هـ/ ٢٠ فبراير ١٩٢٠م صـدر أول إعـلان رسمي في فلسطين عن وعد بلفور عندما دعا الجنرال بولز Bols([5]) رؤساء الطوائف والأعيان إلى اجتماع في بيته وتلا عليهم التصريح التالي :" قرر مجلس الحلفاء انتداب دولة لفلسطين وأن يدمج وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في معاهدة الصلح مع تركيـا. وقـد عُـرض هـذا الانتداب على بريطانيا فقبلته وهي تحكم البلاد لخير سكانها.."([6]).

([1]) أنيس الصايغ : الهاشميون والثورة العربية الكبرى، (دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٦٦م)، ص ١٣٨.

([2]) يوسف الحكيم : المرجع السابق ، ص١٠٢ـ١٠٣.

([3]) انظر تفاصيل التقرير في: الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٥، ص١١٦ـ١٢١ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٢، ص٥٢ـ٨٨ ؛ جورج أنطونيوس : المرجع السابق، ص٦٠٠ـ٦٢١ ؛ قدري قلعجي : المرجـع السـابق، ص٣١٣ـ٣٤١.

([4]) الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٥ ، ص١١٦ـ١١٨ ؛ خيرية قاسـمية : الحكومـة العربيـة فـي دمشـق، ص١١٨ـ١٢٠ ؛ وليد الخالدي: الصهيونية في مئة عام من البكاء على الأطلال إلى الهيمنـة علـى المشـرق العربي ١٨٩٧ـ١٩٩٧م، (دار النهار، بيروت، ط١، ١٩٩٨م) ، ص٤٥.

([5]) الجنرال بولز Bols : كبير إداريي حكومة فلسطين في تنظيم الشؤون المالية والإدارية. انظر: أحمد طربين:= =الاحتلال والانتداب البريطانيان ومقاومة الفلسطينيين لهما(١٩١٨ـ ١٩٤٨م)، ضمن أبحاث صدرت من الأمانة العامة لاتحاد الجامعات في الموصل عن القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، (جامعـة الموصـل، الموصل، ١٩٨٣م)، ج١، ص٤٢٢.

([6]) بيان نويهض الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسـطين ١٩١٧ــــ١٩٤٨م ، (مؤسسـة الدراسـات الفلسطينية، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م)، ص١١٩.

ونتيجة لذلك انعقد المؤتمر السوري مرة أخرى في يومي السبت والأحد ١٥ــ ١٦ جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ/٦ــ٧ مارس١٩٢٠م وأعلن قراره الخطير المتضمن إعلان استقلال سوريا بحدودها الطبيعية بما فيها فلسطين استقلالاً تاماً لا شائبة فيه، مع مراعاة الإدارة الخاصة التي يختارها اللبنانيون في مقاطعتهم بشرط عدم السماح لتدخل أي تأثير أجنبي في هذه الإدارة، وتنصيب الأمير فيصل ملكاً على سوريا، ورفض وعد بلفور ومزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود أو محل هجرة لهم، وأن تدار هذه البلاد على أساس اللاّمركزية. كما طالب المؤتمر باستقلال العراق، على أن يكون هناك اتحاد سياسي بين الشام والعراق([١]).

وظل هذا المجلس بحالة انعقاد دائم لمراقبة أعمال الحكومة التي هي مسؤولة أمامه، بعد أن تم تعيين فيصل ملكاً على سوريا، حتى يتم إنجاز الدستور،والذي سماه المؤتمر (القانون الأساسي)([٢]) ومن ثم يتم انتخاب مجلس تمثيلي جديد وفقاً لما سيتضمنه الدستور([٣]).

وفي الوقت الذي كان فيه المؤتمر يناقش مواد مشروع الدستور، أقرت عصبة الأمم نظام الانتداب،وأدمج ضمن ميثاق الجمعية في المادة ٢٢،وهذه المادة التي تمسكت بها كلٌّ من بريطانيا وفرنسا،لفرض سيطرتها على البلاد العربية([٤]) في مؤتمر سان ريمو **San Remo** الذي عقد في الفترة ١ــ٧ شعبان ١٣٣٨هـ/ ١٩ــ٢٦ إبريل ١٩٢٠م وقد زاد هذا الانتداب من حدة مطالبة البلدان العربية بالاستقلال السياسي والحرية في تقرير مصيرها([٥]).

ويمكن أن نوجز قرارات المؤتمر في النقاط التالية :

([١]) صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١١٢ــ١١٣ ؛ نجدة صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية (نجد والحجاز) ١٩٢٠م، (دار الساقي، بيروت، لندن، ط١، ٢٠٠١م)، الوثيقة رقم ٣١ ، ج٥ ، ص١٦٧ ؛ أحمد الشوابكة : محمد رشيد رضا، ودوره في الحياة الفكرية والسياسية، (دار عمار، عَمان، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٢٨٩ ؛ نجلاء عز الدين: العالم العربي ، ترجمة محمد عوض إبراهيم وآخرون، (دار إحياء الكتب العربية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة ــ نيويورك، ط٢، ١٩٦٢م)، ص١٤٥ ؛ ذوقان قرقوط: المشرق العربي في مواجهة الاستعمار قراءة في تاريخ سوريا المعاصر، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م)، ص٩٥.

([٢]) وللمزيد من الملعلومات عن نص القانون الأساسي الذي وضعه المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م. انظر:ذوقان قرقوط: المشرق العربي..، ص٩٧ــ١١٢ ؛ محمد. م . الأرناؤوط: دراسات حول الحكومة/الدولة العربية في دمشق ١٩١٨ــ١٩٢٠م،(دار الشروق للنشر، عَمان)، ص١٣٣ــ١٣٥.

([٣]) ناجي بزي : المرجع السابق ، ص٥٧

([٤]) سليمان موسى: الحركة العربية، ص٤٦٨ ؛ عبد الله علي المسند: المنظمات الدولية والإقليمية وأثرها على العالم العالم الإسلامي، (دار المنار، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ص٨٩.

([٥]) زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، (دار النهار، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م)، ص١٤٠ ؛ علي محافظة: مواقف الدول الكبرى، ص٨٦.

١ــ وضع القطاع العربي الشمالي الممتد من البحر المتوسط إلى الحدود الفارسية تحت الانتداب. مع تقسيم سوريا أو بلاد الشام إلى ثلاثة أجزاء منفصلة: فلسطين ولبنان وما تبقى من سوريا. على أن تبقى العراق كما هي دون تقسيم.

٢ــ توزيع الانتداب بين بريطانيا وفرنسا،بحيث يتلاءم مع مطامع الدولتين، بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.

٣ــ وأن تتولى بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين (والتي تتضمن شرق الأردن)، على أن تلتزم بريطانيا بتطبيق وعد بلفور. دون أن ينظر المؤتمر إلى رغبة الشعوب التي يعنيها الأمر([1]).

في ١٧ شعبان ١٣٣٨هــ/٥ مايو ١٩٢٠ أعلنت على الملأ قرارات مؤتمر سان ريمو فولّد إعلانها شعوراً باحتقار العرب لدول الغرب، كما أن خبر الانتداب الفرنسي على سوريا نزل كالصاعقة على الشعب السوري، فاندلعت في البلاد مظاهرات صاخبة قامت بها الجماهير الغاضبة ضد الانتداب، وراح الشعب يطالب الحكومة باتخاذ إجراءات فورية وفعالة لحماية استقلال البلاد([2]). واعتبرت وزارة هاشم الأتاسي([3]) إعطاء فرنسا حق الانتداب على سوريا استفزازاً وتحدياً للشعب السوري، فكان أول قرار اتخذته هذه الحكومة جعل الخدمة العسكرية إجبارية شاملة تطبق على جميع السوريين([4]).

بعد صدور قرارات سان ريمو أصبح الهدف الملح لفرنسا القضاء على الإدارة العربية ومؤسساتها في سوريا. وكانت الأحداث تتلاحق والموقف يتحرج،والعلاقات بين فرنسا وسوريا

([1]) جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٤١٩.

([2]) جورج أنطونيوس:المرجع السابق، ص٤١٩ ؛ زين نور الدين زين:الصراع الدولي..، ص١٦١.

([3]) هاشم الأتاسي(١٢٩٢ــ١٣٨٠هــ/١٨٧٥ــ١٩٦٠م): ولد وتوفي في حمص تعلم في المدرسة الملكية في اسطنبول، من أصل تركماني عرفت أسرته بالأطاسي ثم خففت الطاء تاء، تولى عدد من المناصب الهامة في الدولة العثمانية، وبعد خروج العثمانيين من الشام انضم إلى حكومة فيصل وشكل أول وزارة في تلك الحكومة، استقال بعد معركة ميسلون، اعتقلته الحكومة الفرنسية عام١٣٤٤هــ/١٩٢٦م، ثم أطلق سراحه عام ١٣٤٥هــ/١٩٢٧م، ترأس الكتلة الوطنية عام١٣٤٦هــ/١٩٢٨م، وترأس الوفد السوري في باريس عام ١٣٥٥هــ/ ١٩٣٦م في مفاوضات المعاهدة السورية الفرنسية، انتخب رئيساً للجمهورية السورية ثلاث مرات في عام١٣٥٥ــ١٣٥٨هــ/١٩٣٦ــ١٩٣٩م، وترك منصبه عندما نقض الفرنسيون المعاهدة، ثم أعيد انتخابه رئيساً للجمهورية مابين١٣٦٩ــ١٣٧٠هــ/١٩٥٠ــ١٩٥١م، ثم عام١٣٧٣هــ/١٩٥٤م ولم تطل مدة رئاسته فقد اعتكف في حمص حتى وافته المنية. يقال أنه كان نقي السيرة عفيف اللسان واليد. انظر:الزركلي: الأعلام، ج٨، ص٦٥ ؛ ناجي بزي : المرجع السابق ، ص٥٧

([4]) زين نور الدين زين : الصراع الدولي...، ص١٦٢.

تسوء يوماً بعد يوم([1]). في تلك الفترة كانت القوة العربية وحدها في مواجهة القــوات الفرنســية بعد انسحاب الجيش البريطاني من سوريا إلى فلسطين، وفي الوقــت نفســه قــررت الحكومــة البريطانية قطع المعونة الاقتصادية عن فيصل ورجاله في سوريا، بدعوة أنهــم خـــارج النفــوذ البريطاني([2]).

وفي مساء ٢٨ شوال ١٣٣٨هـ/١٤ يوليو ١٩٢٠ أرسلت الحكومة الفرنسية عن طريــق الجنرال غورو([3]) إنذاراً يتضمن خمسة شروط لابد من الامتثال لها وقبولها كمجموعة لا تقبــل التجزئة خلال أربعة أيام تنقضي في منتصف ليلة ٢ ذي القعدة ١٣٣٨هـ / ١٨ يوليو ١٩٢٠م، وأن الحكومة الفرنسية بعد هذه المدة تكون مطلقة اليد في العمل([4]). وهذه الشروط هي :

١ــ وضع سكة حديد رياق ــ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي.

٢ــ قبول الانتداب الفرنسي على سوريا قبولاً غير مشروط.

٣ــ قبول العملة التي فرضتها الإدارة الفرنسية والتي أصدرها البنك السوري الذي أسسته فرنسا وجعله نقداً رسمياً في البلاد، وسحب العملة الفيصلية.

٤ــ معاقبة المجرمين. ويقصد بهم أعداء فرنسا الذين قاموا بمقاومة الاحتلال الفرنسي في سوريا، وملاحقتهم قضائياً.

٥ــ إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين، وتخفيض عدد الجــيش العربـــي ونـــزع السلاح من أهالي دمشق ومن الجنود الذين سيسرحون([5]).

([1]) صبحي العمري : ميسلون نهاية عهد، ص١٢١ ؛ "الحقائق الجلية في المسألة العربية مقالة للعبــرة والتــاريخ" ، (مجلة المنار : ج٦ ، المجلد ٢٢ ، ٢٩ رمضان ١٣٣٩هـ/٦ يونيــو ١٩٢١م)، ص٤٦٦ ؛ ömer Osman .Umar: Türkiye – Suriye IliŞkileri (1918-1940),(ElAZIĞ, 2003), p.73.

([2]) جلال يحيى: العالم العربي ...، ج٢ ، ص٢٣٨ــ٢٣٩.

([3]) الجنـــرال هنـــري جوزيـــف يـــوجين غـــورو General Henry Gouraud (١٢٨٤ـــــ١٣٦٥هـــــ/ ١٨٦٧ــ١٩٤٦م): قائد فرنسي اتصلت سيرته بأحداث سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الأولى بتــرت ذراعــه اليمنى في أول الحرب، عين عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م مندوباً سامياً في سوريا ولبنان على أثر فــرض الانتــداب عليهما خلفاً لجورج بيكو،واستمر في هذا المنصب مدة أربع سنوات كانت حافلة بالثورات الدامية. انظر: أحمــد عطية الله: المرجع السابق، ص٨٣٩.

([4]) جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٤٢١ ؛ مجلة المنار: ج٦، المجلــد ٢٢، ص٤٦٧ ؛ خيريــة قاســمية: الحكومة العربية في دمشق، ص١٩٨ ؛ ذوقان قرقوط: المشرق العربي...، ص١٢٢ــ١٢٣.

([5]) أمين سعيد: الثورة العربية...، ج٢، ص١٧٧ ؛ صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٢١ــ ١٢٢ ؛ مجلــة المنار: ج٦، المجلد ٢٢، ص٤٦٦ــ٤٦٧ ؛ جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٤٢١ــ٤٢٢ ؛ محمد كــرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٦ــ١٧٧ ؛علي محافظة : مواقف الدول الكبرى...، ص٨٩ ؛ أنيس الصايغ :

وعند الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم السبت ٨ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٤ يوليو ١٩٢٠م هاجم الجنرال غورو دمشق حيث جرت معركة ميسلون([1])، وقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم وعند الساعة الحادية عشر توقف الجيش العربي عن كل مقاومة فقد استولى الجيش الفرنسي على جميع الخطوط الأمامية، وأخذت القوات الفرنسية تزحف نحو دمشق،تساندها الدبابات والسيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة والطائرات([2]). واستشهد القائد يوسف العظمة([3]) وزير الحربية آنذاك، وعلى هذه الصورة انتهت معركة ميسلون في نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً([4])، بعد أن دافع الجيش العربي ومن سانده من المتطوعين عن البلاد بكل قوة وشراسة رغم قلة العدد والعدة([5]) في الجيش العربي، بعد أن استعجل الملك فيصل في تسريح الجيش وتشتيته. مما أثر على معنويات الجيش، وكانت تلك أحد أهم أسباب الهزيمة ودخول الجيش الفرنسي البلاد.

المرجع السابق، ص١٥١ ؛ ذوقان قرقوط: المشرق العربي..، ص١٢٣.

([1]) لمزيد من المعلومات حول هذه المعركة انظر : صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٦٥ـ١٦٨ ؛ علي سلطان: تاريخ سورية(١٩١٨ـ١٩٢٠)، ص٣٨١.

([2]) صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٦٩ ؛ زين نور الدين زين: الصراع الدولي..، ص١٧٦ ؛ علي سلطان: تاريخ سورية (١٩١٨ـ١٩٢٠)، ص٣٨١.

([3]) يوسف العظمة(١٣٠١ـ١٣٣٨هـ/١٨٨٤ـ١٩٢٠م): ضابط سوري ولد في دمشق، وكان ضابطاً في الجيش العثماني، وعين رئيساً لأركان حرب الجيش الأول في اسطنبول، رفض خيانة الدولة العثمانية والمشاركة في ثورة الشريف حسين ضدها. ولما وضعت الحرب أوزارها وغادر الجيش العثماني البلاد العربية في الشام والعراق، عاد العظمة إلى دمشق فاختاره الأمير فيصل مرافقاً له، ثم رئيساً لأركان الحرب العامة برتبة قائم مقام في سوريا، وفي عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م أصبح وزيراً للحربية في حكومة الملك فيصل في دمشق، دافع عن دمشق ضد الفرنسيين واستشهد في معركة ميسلون. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٨، ص٢١٣ـ٢١٤ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٤٣١.

([4]) صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٦٩ ؛ زين نور الدين زين: الصراع الدولي..، ص١٧٦ ؛ منير المالكي: من ميسلون إلى الجلاء سيرة سياسية ، قضايا وحوارات النهضة العربية(٨)، (منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م)، ص٩١ـ١١١.

([5]) لقد اختلفت المراجع التاريخية في تحديد عدد القوات العربية التي خرج بها يوسف العظمة في ميسلون فمنهم من قال أن العظمة خرج بأربعة آلاف جندي و مئة هجانة ، يتبعهم جيش من الأهالي والعربان يقدر عددهم بأربعة أو خمسة آلاف لنجدة بقية اللواء ، بينما يذكر أحمد قدري : أنه لما ذهب إلى ميسلون لم يجد سوى ألف متطوع ، ويؤكد الزعيم جميل البرهاني الذي اشترك في المعركة وكان مساعداً لأمر اللواء حسن الهندي أن النظاميين كانوا ٢٠٠ والمتطوعين ٨٠٠ جندي. وقيل٦٠ أو١٦٠، و١٦ ضابطاً، ٢٥٠ متطوعاً دمشقياً منهم ١٥٠ دون سلاح.= =انظر: خيرية قاسمية: الحكومة العربية في دمشق، الحاشية رقم ١، ص٢٠٥ ؛ حكمت فريحات: المرجع السابق، الحاشية رقم ٤٤٩، ص٢٤٩ ؛ صبحي العمري: ميسلون نهاية عهد، ص١٧٠.

ومن أعظم المجازر التي ارتكبها الفرنسيون بعد المعركة أنهم أعدموا خمسة وأربعين جندياً عربياً وقعوا في الأسر، كما قاموا بقتل كل الجرحى حتى لو كان بهم خدش طفيف[1]. وهذا يدل على الحقد الدفين تجاه المسلمين، ومدى تأثر الفرنسيين بالروح الصليبية ضد العرب والمسلمين.

لقد كانت هذه المعركة خاتمة لحكم الملك فيصل بن الحسين القصير لسوريا، فقد أرغم الملك فيصل وحاشيته على مغادرة بلاد الشام كلها في١٦ ذي القعدة ١٣٣٨هـ/١ أغسطس ١٩٢٠م متوجهاً إلى حيفا[2] ومنها إلى إيطاليا ومن ثم أوربا[3] حيث يبدأ من هناك مرحلة جديدة من البحث عن السلطة. ويفتح التاريخ صفحة مريرة وقاسية في حياة بلاد الشام وكفاحها، من أجل استقلالها وعزتها دامت حوالي ربع قرن من الزمان.

بلاد الشام بعد موقعة ميسلون:

بعد موقعة ميسلون كان أول عمل قام به الجنرال غور أن قسم سوريا إلى أربع دويلات منفصل بعضها عن بعض تماماً، عرفت باسم "دول المشرق"[4]: وهي دولة سوريا في دمشق، ودولة العلويين في اللاذقية[5] ، ودولة جبل الدروز أو جبل العرب في السويداء[6]، ودولة حلب حلب التي تم ربطها بلواء الاسكندرونة[7]. ثم تم عزل سوريا عن سواحلها بسور طبيعي مكون

---

[1] عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: نجديون وراء الحدود"العقيلات" ودورهم في علاقة نجد العسكرية والاقتصادية بالعراق والشام ومصر (١٧٥٠ـ١٩٥٠م)، (دار الساقي، بيروت ـ لندن)، ص٢٣٤.

[2] حيفا: مرفأ في فلسطين المحتلة من أكبر مدنها على ساحل البحر المتوسط، وهي ميناؤها الرئيسي بسفح جبل الكرمل، وهي مدينة صناعية وثقافية مهمة. انظر: المنجد، ص٢٢٧.

[3] حكمت فريحات: المرجع السابق ، ص٢٥٠ ؛ عبد العزيز إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية، ص٢٣٤.

[4] انظر خرائط هذه الدول في ملحق الخرائط الملحق رقم ٤ .

[5] للمزيد من المعلومات حول دولة سوريا ودولة العلويين انظر: محمد هواش: تكون جمهورية سوريا ولانتداب، مكتبة السائح، طرابلس ـ لبنان، ٢٠٠٥م، ص١٢٣ـ١٣٢ ؛ الأب لويس شيخو اليسوعي: دولة في الدولة العلوية، مجلة المشرق، مجلة كاثوليكية تصدرها كلية القديس يوسف ، بيروت، السنة ٢٢، ١٩٢٤م، ص٤٨١ـ٤٩٥.

[6] للمزيد من المعلومات حول دولة جبل الدروز. انظر: نجيب الأرمنازي: سوريا من الاحتلال حتى الجلاء، (دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ١٩٧٣م)، ص٢٤ ؛ محمد هواش:المرجع السابق، ص١١٧ـ١٢١ وص٢٥٩ـ٢٦٠.

[7] للمزيد من المعلومات حول دولة حلب ولواء الاسكندرونة انظر: نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٢٤ـ٣١؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٢٢١ـ٢٢٧ ؛ محمد هواش: المرجع السابق، ص٩٥ـ١١٦ وص١٤٢ـ١٥٧.

من دولة لبنان الكبير، ودولة العلويين، ولواء الاسكندرونة الذي فصل عن ولاية حلب التي انضمت فيما بعد إلى دمشق عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م([1]).

وبعد تقسيم بلاد الشام عقد مؤتمر القاهرة في ٣ رجب ١٣٣٩هـ/١٢ مارس ١٩٢١م برئاسة ونستون تشرشلWinston Churchill ([2])، وزير المستعمرات للنظر في أوضاع المنطقة بعد احتلال فرنسا لسوريا، ونشوب الاضطراب في فلسطين وشرق الأردن والعراق([3]). ويعتبر هذا المؤتمر مكملاً لاتفاقية سايكس بيكو وقد ضم موظفين وعسكريين بريطانيين بينهم المندوب السامي البريطاني في فلسطين هربرت صموئيلHerbert Samuel([4]) وقرر المؤتمر تنصيب الملك فيصل ــ المبعد من سوريا ــ على عرش العراق للقضاء على الـ

ـــــــــثورة العراقية([5])، ولضمان ولائه

([1]) أمين سعيد:الثورة العربية..، ج٣، ص٢٢٠ــ٢٢٧ ؛ أحمد طربين: التجزئة العربية كيف تحققت تاريخياً؟، سلسلة الثقافة القومية ١٤، (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط١، ١٩٨٧م)، ص١٥١ــ١٥٢ ؛ آندرو راثمل: الصراع السري على سورية من ١٩٤٩ــ١٩٦١م، الحرب السرية في الشرق الأوسط، ترجمة: محمد نجار، (الأهلية للنشر والتوزيع، عَمان، ط١، ١٩٩٧م)، ص١٢ ؛ سليمان المدني: المرجع السابق، ص٣٣.

([2]) ونستون تشرشل Winston Churchill(١٢٩٠ــ١٣٨٤هـ/١٨٧٤ــ١٩٦٥م): سياسي إنجليزي زعيم حزب المحافظين تولى عدداً من الوزارات من ضمنها وزارة الذخيرة عام ١٣٣٥هـ/١٩١٧م، ووزارة المستعمرات، ساعد القوت الروسية ضد البلاشفة، وسعى إلى القضاء على اتحاد سوريا وبلاد الشام، وفي عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ناهض السياسة الداعية للسلام، وعند نشوب الحرب العالمية الثانية اختير وزيراً للبحرية، وتولى رئاسة الوزراء في الفترة ما بين عام (١٣٥٩ــ١٣٦٤هـ/١٩٤٠ــ١٩٤٥م) و (١٣٧٠ــ١٣٧٤هـ/١٩٥١ــ١٩٥٥م)، اشتهر بصموده الذي أسهم في انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، نال جائزة نوبل في الآداب عام ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م. انظر:أحمد عطية الله : المرجع السابق، ص٢٩٦.

([3]) جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٤٣٢ ؛ أحمد طربين:الاحتلال والانتداب..،ج١، ص٤٢٥ــ٤٢٦.

([4]) هربرت صموئيل Herbert Samuel (١٢٨٦ــ١٣٨٢هـ/١٨٧٠ــ١٩٦٣م): سياسي بريطاني يهودي ولد في مدينة لفربول، كان في وزارة اسكويث، وعين رئيساً للجنة المالية خلال الحرب العالمية الأولى، كان أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين(١٣٣٨ــ١٣٤٤هـ/١٩٢٠ــ١٩٢٥م) وأقام فيها جهازاً مدنياً بريطانياً ضم عدداً من اليهود، وباشر في تطبيق صك الانتداب ووعد بلفور، فأصدر قوانين تسهل الهجرة اليهودية واعترف بالوكالة اليهودية ممثلة لليهود في فلسطين، واعتبر اللغة العبرية لغة رسمية ثالثة ــ إضافة إلى العربية والإنجليزية ــ شجع عمليات بيع الأراضي للمستوطنين اليهود وإقامة المستوطنات. انظر: جميل عطية إبراهيم، صلاح عيسى: صك المؤامرة وعد بلفور ١٩١٧/١١/٢م، (دار الفتى العربي، القاهرة، ١٩٩١م)، ص٥٠ ؛ أحمد عطية الله : المرجع السابق، ص٧٢٦ــ٧٢٧.

([5]) الثورة العراقية: قامت الثورة العراقية في ١٤ شوال ١٣٣٨هـ/٣٠ يونيو ١٩٢٠م وكانت القوات البريطانية ترتعد خوفاً من عمليات القتل بالجملة التي كان الشعب العراقي يواجه بها الاستعمار البريطاني، وقد واجه

لبريطانيا([1]).

وفي أثناء انعقاد مؤتمر القاهرة ظهر في شرق الأردن الأمير عبدالله بن الحسين([2]) ونسب إليه أنه كان يريد أن ينتقم من فرنسا لطرد أخيه من سوريا([3]). وأثناء وجود الأمير عبدالله في شرق الأردن أرسل إليه والده برقية يخبره فيها بأن الحكومة البريطانية تشكو من امتناع أهل شرق الأردن من دفع الضرائب ويأمره بأن لا يربك الحكومة المحلية(أي البريطانية)، كما تلقى برقية من أخيه فيصل يطلب منه أن لا يتعرض للفرنسيين، وأنه سوف يعرض القضية العربية

المندوب السامي البريطاني آرنولد ويلسون هذا الهياج الشعبي بوسائل خرقاء كانت سبباً في الكثير من الإضطرابات، لم يتمكن البريطانيون بسبب تلك الثورة من الاحتفاظ بغير المدن الرئيسية الثلاث في العراق= =(البصرة ــ بغداد ــ الموصل)، أما بقية الأقاليم فقد أنقذتها الثورة العراقية من سيطرتهم، وقد تكبدت الحكومة البريطانية خسائر فادحة في الأرواح والأموال تقدر بـ٤٥٠ قتيلاً وألفي جريح تقريباً، وفقدت أكثر من أربعين مليون من الجنيهات الإسترلينية في خلال أربعة أشهر تقريباً، مما اضطرها إلى إبعاد ويلسون عن العراق وأسندت منصب المندوب السامي إلى سير برسي كوكس ليعمل على إخماد الثورة العراقية، لذلك أصدر في ١٤ صفر ١٣٣٩هـ/٢٧ أكتوبر ١٩٢٠م أمراً بإلغاء الاحتلال وإحلال الانتداب محله، وإنشاء حكومة مؤقتة تتألف من عراقيين يعملون وزراء، ويلحق بهم مستشارون بريطانيون، وبذلك قامت أول وزارة في العراق برئاسة عبدالرحمن الكيلاني. انظر: خيري حماد: عبدالله فيلبي قطعة من تاريخ العرب الحديث،(المكتب التجاري للطباعة، بيروت، ١٩٦١م)، ص٨٢ ؛ دافيد فرومكين:المرجع السابق، ص٥٠٧ ؛ نجلاء عز الدين:المرجع السابق،ص٢٥٦ ؛ جورج أنطونيوس:المرجع السابق، ص٤٣١.

([1]) سليمان موسى: الحركة العربية، ص٥٧٨ــ٥٧٩ ؛ نجلاء عز الدين: المرجع السابق، ص٢٥٦ــ٢٥٧.

([2]) عبد الله بن الحسين(١٢٩٩ــ١٣٧٠هـ/١٨٨٢ــ١٩٥١م):الابن الثاني للشريف حسين ولد بمكة وتلقى علومه في الأستانة أثناء إقامته مع والده فيها. وعين نائباً عن مكة في مجلس المبعوثان "النواب" العثماني عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، قام مع والده في الثورة على الدولة العثمانية ١٣٣٤هـ/١٩١٦م،أصبح أميراً لشرق الأردن عام ١٣٣٩هـ/١٩٢١م، وأطلق عليه لقب ملك عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٧م . وفي معركة فلسطين عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م أُخذ عليه تخلي جيشه الذي كان يقوده الضابط البريطاني جون جلوب (جلوب باشا) عن بلدتي "اللّد والرمله" لليهود وبسبب ذلك تصدى له بعض الشباب من عرب فلسطين وأطلقوا عليه النار على ملأ من الناس يوم الجمعة في المسجد الأقصى فقتل في الحال. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٤، ص٨٢؛ عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة للملك عبدالله، حقبة من تاريخ الأردن، (الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م)، ص٣٩ ؛ صالح الجاسر: المرجع السابق، ص٧٣ــ٧٤ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٧٨٢ ؛ مصطفى طلاس: الثورة العربية الكبرى، (دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م)، ص١٢٥.

([3]) علي المحافظة : العلاقات الأردنية ــ البريطانية من تأسيس الأمارة حتى إلغاء المعاهدة (١٩٢١ــــ١٩٥٧م)، (دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣م)، ص٣٦.

على الحكومة البريطانية في لندن([1]). ومن هنا يتضح لنا تأييد الشريف حسين وولديـه(فيصـل وعبدالله) للاحتلالين البريطاني والفرنسي للمنطقة.

وعلى أية حال فقد أعلن مؤتمر القاهرة أن بريطانيا مسؤولة عن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بموجب شروط الانتداب. وأوصى بأن تشكل المنطقة الواقعة إلى شرق نهـر الأردن مقاطعة عربية من فلسطين، يكون أميرها عبد الله بن الحسين مسئولاً أمـام المنـدوب السـامي البريطاني. مقابل المعونات التي يتلقها الأمير ويتعهد باحترام التزامات بريطانيـا الدوليـة نحـو فرنسا في سوريا ونحو الصهاينة في فلسطين. وكان الهدف الرئيسي من إنشـاء إمـارة شـرق الأردن هو إيجاد مأوى لعرب فلسطين الذين اضطروا مغادرة بلادهم في أعقاب تنفيذ البرنـامج الصهيوني([2]).

من ذلك نرى أن مؤتمر القاهرة خرج بثلاثة قرارات رئيسية أدت إلـى تفتيـت وتجزئـة المشرق العربي وذلك على النحو التالي:

١ــ تنصيب فيصل بن الحسين ملكاً على عرش العراق تحت الانتداب البريطـاني، حتـى يتمكن من السيطرة على الثورة العراقية وتأمين البلاد في ظل الاحتلال البريطاني.

٢ــ تنصيب عبد الله بن الحسين أميراً على منطقة شرق الأردن تحـت ظـل الانتـداب البريطاني، حتى يتمكن من قمع الثورات التي يقوم بها الشعب الأردني ضد الاحتلال.

٣ــ عمل بريطانيا على تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين فـي منطقة غرب نهر الأردن، وذلك بالعمل على تشجيع هجرة يهود العالم إلى فلسطين، والعمل على تهجير الفلسطينيين إلى شرق الأردن حيث توجد الحكومة العربية([3]).وفي هذا إعتداء على حـق الشعب الفلسطيني وبلاده، مما يمكن اليهود الصهاينة مـن احـتلال فلسـطين وإقامـة دولـتهم الصهيونية فيها.

لقد منح صك الانتداب الذي وضع في يوم الاثنين ٢٩ ذو القعـدة١٣٤٠هــ/ ٢٤ يوليـو ١٩٢٢م وبدأ تطبيقه العملي في يوم السبت ١٨ صفر١٣٤٢هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٩٢٣م من قبـل بريطانيا بوصفها الدولة المنتدبة على فلسطين وشرق الأردن، وفرنسا بوصفها الدولـة المنتدبـة على سوريا ولبنان، كامل السلطة على المناطق التي يسيطرون عليها، وأقـر الانتـداب نظـام الاحتلال بأن سمح لهاتين الدولتين بنشر قواتهما في المناطق التي يسيطرون عليهـا فـي بـلاد

([1]) عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٥٩ــ١٦٠ ؛ عبد الله بن الحسين: مذكراتي، (الأهلية للنشر والتوزيـع، عَمان، ط٢، ١٩٩٨م)، ص١٧٩.

([2]) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب ، ج١،ص٤٢٥ــ٤٢٦.

([3]) جهان عبد الرحيم: المرجع السابق، ج٢، ص٤٨٥.

الشام، وفرض على الدول الواقع عليها الانتداب(سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) دفع نفقات سلطات الانتداب وقوات الاحتلال. كما وضعت نشاطات الدول المنتدبة تحت رقابة الدول الأخرى في عصبة الأمم وألزمتها،بتقديم تقرير سنوي إلى لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم حول إدارة شون البلاد الواقعة تحت سيطرتهم.بيد أن هذه التقارير لم تحد أبداً من سياسة الاستغلال والعنف، ولم تحمِ سكان البلاد الأصليين من تعسف السلطات الاستعمارية([1]).

ومن هنا بدأ الفصل الدامي للصراع بين الشعب العربي في بلاد الشام و سلطات الانتداب، فاندلعت الثورات الشعبية في كل أنحائها. فبعد الحرب العالمية الأولى وتكشف خداع بريطانيا للعرب وطمعها هي وفرنسا في بلاد الشام، نتيجة لمعاهدة سايكس بيكو وما تبعها من وعود صهيونية، ظهرت أسماء ودويلات جديدة في بلاد الشام ، فقد ظهر اسم سوريا ليشمل الجمهورية العربية السورية بحدودها الحالية وعاصمتها دمشق، وظهر لبنان وعاصمته بيروت، ثم إمارة شرق الأردن وعاصمتها عَمان، كما ظهرت فلسطين بحدودها التي رسمها الانتداب البريطاني تمهيداً لتسليمها لليهود وعاصمتها القدس.([2])، وأصبح لكل جزء من هذه الأجزاء تاريخ نضال خاص، ومن المؤسف أن هذه الدويلات قبلت تقسيم الغرب لها، وتعصبت له وغدت الشام أجزاء يفاخر أبناء كل جزء بجنسيته التي يحملها نتيجة عمل الصليبيين المستعمرين([3]).

فكان هذا الضغط الاستعماري السبب في قيام العديد من الثورات في بلاد الشام ضد الاستعمارين الفرنسي والبريطاني من أهمها:

أولاً: سورية:

ثورة الشيخ صالح العلي([4]) والتي بدأت عندما نزلت الجيوش الفرنسية على الشواطئ السورية،وأنزلت العلم العربي عن الدوائر الرسمية ورفعت العلم الفرنسي مكانه. فقام الشيخ

([1]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١١٧ــ١١٨.

([2]) يعقوب كامل الدجاني: الدور الذي لعبه أبناء شرقي الأردن في مؤازرة عرب فلسطين في نضالهم ١٩٠٨ــ١٩٤٩م، (الدراسات الفلسطينية الأردنية، عَمان ، ١٩٩٢م)، ص١٨؛ بول جونسن: رحلة إلى أرض المتاعب، (دار القاهرة للطباعة ، القاهرة، ١٩٥٨م)، ص١١.

([3]) محمود شاكر، إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ج١، ص١٢٠ ؛ محمد كامل ليلة: المجتمع العربي، (مطبعة نهضة مصر، القاهرة)، ص٤٠١.

([4]) صالح العلي(١٣٠٢ــ ١٣٦٩هــ/١٨٨٥ــ١٩٥٠م): هو صالح بن علي بن سلمان، ولد في قرية المريقب التابعة التابعة لمحافظة طرطوس في سوريا. كان والده زعيماً يتمتع بحب عشيرته واحترامها. ولما توفي الشيخ علي سلمان أجمعت كلمة العشيرة على مبايعة ولده صالح بالزعامة،رغم أنه لم يكن قد بلغ العشرين من عمره. شارك في ثورة الشريف حسين ضد الدولة العثمانية. وقاوم الاستعمار الفرنسي بشراسة حتى رصد الفرنسيون مائة ألف فرنك فرنسي مكافأة لمن يلقي القبض عليه أو يدل على مخبئه ولكن دون جدوى. وأصدرت محكمتهم حكماً

صالح العلي في يوم الأحد ١٢ربيع الأول١٣٣٧هـ/ ١٥ ديسمبر ١٩١٨م بعقد مؤتمراً ضم عدداً من زعماء وشيوخ جبل العلويين (بالقرب من اللاذقية) وتقرر عدم الاستسلام للفرنسيين والدفاع عن الوطن وحريته، ومبايعة صالح العلي بالقيادة. وحين علم الفرنسيون بأنباء هذا المؤتمر، دعوا صالح العلي للاجتماع به فرفض لقاءهم، وعند ذلك جهزوا أولى حملاتهم ضده في ربيع الأخر ١٣٣٧هـ/ يناير ١٩١٩م، لكنه انقض عليهم برجاله وهزمهم شر هزيمة وغنم من الفرنسيين أسلحة وعتاداً وذخيرة([1]).

وفي الأحد ١ جمادى الأولى ١٣٣٧هـ/٢ فبراير ١٩١٩م، كرر الفرنسيون هجومهم على مقر الثورة وكانت (معركة الشيخ بدر)([2]) حيث هُزم فيها الفرنسيون من جديد، وسقط منهم عشرون قتيلاً وثلاثة أسرى، كما استولى الثوار على كميات من الأسلحة والذخائر. ثم كانت معركة (مخفر بابنا) شرقي اللاذقية في يوم الأربعاء ١٥ رجب ١٣٣٧هـ/١٦ ابريل ١٩١٩م فقد هاجم الثوار هذه القاعدة لمدة أسبوع كامل وخسر الفرنسيون ١٥ جندياً وضابطين، فانتقمت السلطة الفرنسية لخسارتها بإحراق ٦٠ شخصاً من بابنا وهم أحياء، ثم خاض الثوار عدداً من المعارك مع الفرنسيين، لم يوقفها إلا توسط الجنرال اللنبي البريطاني فعقد في قرية الشيخ بدر مؤتمراً عربياً ـ فرنسياً ـ إنجليزياً، تمكن فيه من التوصل إلى اتفاق لوقف الصراع، ثم نقضت فرنسا الاتفاقية فتجدد القتال، وكانت معركة (وادي ورور) في رمضان١٣٣٧هـ/ يونيو ١٩١٩م، وهي من أكبر معارك المدن الساحلية حيث اشتركت فيها قوة للفرنسيين تزيد على ألفي مقاتل انتهت بسقوط ٨٠٠ قتيل من الجيش الفرنسي مقابل عشرات الشهداء من الثوار، ثم حدثت معركة قلعة المريقب في يوم الإثنين ٢٣ شوال ١٣٣٧ هـ/ ٢١ يوليو١٩١٩م وكانت القلعة تضم سريتين للفرنسيين، فانتهت المعركة بسقوط ٦ قتلى وإصابة ٢٢ منهم بجروح بليغة وانسحاب الباقين([3]).

بإعدامه، وألقت الطائرات صورة الحكم في مختلف قرى الجبل، وبقي صالح العلي مختبئاً عاماً كاملاً في الكهوف، ثم أصدر الفرنسيون قراراً بالعفو عنه، فظهر مستسلماً، اعتزل شؤون الحياة العامة حتى توفي في يوم الخميس ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٦٩هـ/ ١٣ إبريل ١٩٥٠م. للمزيد من المعلومات انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٩٣ ؛ محمد فاروق الخالدي: المؤامرة الكبرى على بلاد الشام دراسة تحليلية للنصف الأول من القرن العشرين، (دار الراوي، الدمام، ط١٤٢١،١هـ/٢٠٠٠م)، ص٣٤٣ــ٣٤٤ ؛ سميح حمودة: الوعي والثورة دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام١٨٢٨ــ١٩٣٥م، (دار الشروق للنشر، عَمان)، ص٣٠ــ٣٢.

([1]) الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٩٣.

([2]) انظر خريطة الثورات السورية في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

([3]) عبد اللطيف اليونس: ثورة الشيخ صالح العلي،(سلسلة رواد التحرير العربي، دمشق)، ص١٨٢ــ١٨٨.

وبعد هزيمة ميسلون في ذي القعدة ١٣٣٨هـ/يوليو ١٩٢٠م قامت في حلب شمال سوريا ثورة إبراهيم هنانو[١]، فاتصل صالح العلي به، وأخذ هنانو يمده بما توفر لديه من سلاح، وراح العلي يوسع حملاته شمالاً، والتي دامت ما يقارب ثلاثة أعوام ونصف، فحقق انتصارات كبيرة وألحق خسائر فادحة بالفرنسيين، وتوالت الوقائع إلى أن قل ما عند صالح من ذخيرة، واشتد المستعمرون في قتاله، واستطاعوا في النهاية تركيز ثلاث حملات كبرى نجحت بواسطتها في تصفية الثورة واحتلال قاعدتها ذاتها (قرية الشيخ بدر) في ١ ذو القعدة ١٣٣٩هـ/ ٧ يوليو ١٩٢١م، بعد أن استمات الثوار في الدفاع حتى آخر رصاصة يملكونها واضطروا في النهاية للتفرق[٢]. وفي يوم الثلاثاء ١٠ شوال ١٣٤٠هـ/٦ يونيو ١٩٢٢م أذاعت السلطات الفرنسية بلاغاً رسمياً بأن الشيخ صالح العلي قد خضع لها بعد أن كان متوارياً عن الأنظار قرابة السنة[٣].

أما ثورة إبراهيم هنانو[٤] فقد استمرت في حلب، فقد لجأ هنانو وجماعته إلى جبل الزاوية وهو موقع متوسِّط بين حماه وحلب، واتخذه مقراً له، وقاعدة لأعماله العسكرية، كما ضمّ إليه الجماعات التي كانت قد تشكّلت هناك لمواجهة الفرنسيين، وتولّى قيادتها بنفسه. كثرت جموعه واتّسع نطاق نفوذه، فلجأ إلى تركيا لطلب الدعم من الأسلحة وعتاد الحرب. تمكن من أسر عدد كبير من الجنود الفرنسيين، وكبدهم خسائر كبيرة في الأرواح، وكذلك في الأسلحة والدواب والذخائر والمواد التموينية مما ساعد هنانو على الاستمرار في ثورته، إلا أن الفرنسيين عززوا

---

(١) إبراهيم بن سليمان آغا بن محمد هنانو(١٢٨٦ـ١٣٥٤هـ /١٨٦٩ـ١٩٣٥م) ولد في كفر حارم غربي حلب، ونشأ في أسرة ميسورة الحال. وبعد أن أتم تعليمه الأوّلِي أُرسل إلى اسطنبول، والتحق بالمدرسة الملكية للحقوق والإدارة، وبعد التخرج تقلب في مختلف الوظائف الإدارية متنقلاً في بعض المدن العثمانية، حتى انتهى به الحال رئيسًا لديوان ولاية حلب سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٨م. وبعد الاحتلال قاد"هنانو" المقاومة الشعبية في دمشق وحلب منذ شوال ١٣٣٨هـ/يوليو ١٩٢٠م، واعتصم هو ورجاله بالجبال، وشنوا الهجمات المتتالية على قوات الاحتلال، ألف حكومة وطنية ولقب بـ(المتوكل على الله). كثرت جموعه واتّسع نطاق نفوذه، وخاض سبعاً وعشرين معركة، لم يهزم فيها.= =وفي أخريات حياته أُصيب بمرض السل تُوفِّي على إثره، ودفن في حلب في ٢٤ شعبان ١٣٥٤هـ/٢١ نوفمبر ١٩٣٥م. انظر: الزركلي: الأعلام، ج١، ص٤١ـ٤٢ ؛ ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥٠٩ـ٥١٠ ؛ سميح حمودة: المرجع السابق، ص٢٩ـ٣٠.

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣،ص٢٤٣ـ٢٤٤ ؛ الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٩٣ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.183-184.

(٣) أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، ص٢٤٣ ؛ محمد هواش: المرجع السابق، ص١٢٥.

(٤) انظر خريطة الثورات السورية في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

قواتهم في مناطق ثورة هنانو بثلاثين ألف مقاتل، وضيّقوا الخناق على الثوار، فضعُفت إمكانيات الثورة المادية، مما دفع بقادتها إلى التفرق([1]).

اطّلع هنانو على بيان أذاعه الشريف عبد الله بن الحسين يقول فيه:أنّه جاء من الحجاز إلى الأردن لتحرير سوريا، فكاتبه هنانو ثم قَصده في ٦ ذي القعدة ١٣٣٩هـ/ ١٢ يوليو ١٩٢١م ومعه ٥٥ جندياً وضابطاً للاتفاق معه على توحيد الخطط. وفي طريقه إلى الأردن اعترضته قوة كبيرة من الجيش الفرنسي، فقاتلهم ونجا، بعد أن أسر أربعة من أعوانه، وتابع سيره إلى الأردن ووصلها في يوم الأحد ٢٥ ذو القعدة ١٣٣٩هـ/ ٣١ يوليو ١٩٢١م فلم يتفق مع الشريف عبد الله، فتوجه إلى فلسطين، وهناك اعتقلته الشرطة البريطانية في القدس، وسلموه للفرنسيين فنقل إلى حلب لمحاكمته بتهمة القيام بأعمال مخلة بالأمن. حوكم هنانو محاكمة شغلت سوريا عدة شهور([2])، وانتهت بإخلاء سبيله باعتبار ثورته ثورة سياسية مشروعة. تولى هنانو زعامة الحركة الوطنية في شمال سوريا خصوصاً أثناء الثورة السورية الكبرى(١٣٤٤ـ ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٥ـ ١٩٢٧م)([3]) التي قادها سلطان باشا الأطرش([4]) والتي سوف نتحدث عنها بالتفصيل في الفصل الأول.

([1]) ömer Osman Umar: Op. Cit , p.178-180 ؛ نصوح بابيل : صحافة وسياسة سورية في القرن العشرين، (دار رياض الريس للنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م)، ص٣٩ ؛ محمد فاروق الخالدي: المرجع السابق، ص٣٤٣ـ٣٤٤.

([2]) لمزيد من التفاصيل حول محاكمة إبراهيم هنانو انظر : نصوح بابيل: المرجع السابق، ص ٣٩ـ٤٠ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.180-183.

([3]) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣،ص٢٤٣ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٣٩ ؛ ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥٠٩ـ٥١٠ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٤٤.

([4]) سلطان باشا الأطرش أو سلطان ذوقان الأطرش(١٣٠٩ـ١٤٠٢هـ/١٨٩١ـ١٩٨٢م): قائد ومناضل درزي، ولد في قرية (القرياّ) قضاء صلخد في جبل العرب، تزعَّم الثورة السورية الكبرى على الفرنسيين عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م وسجل انتصارات عديدة عليهم، كان من أنصار الإنجليز أسوة بجميع من شارك وأيد ثورة الشريف حسين في الحجاز، بعد توقف الثورة السورية١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م نزح سلطان الأطرش بجماعات من الثوار إلى الأزرق في الأردن، وبعد توقيع معاهدة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م بين سورية وفرنسا عاد الأطرش إلى سوريا بعد إعلان العفو العام عن الثوار، كان له دور كبير في الحياة السياسية حيث أطاح بأديب الشيشكلي عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م. انظر: محمد خير رمضان يوسف: تتمة الأعلام للزركلي وفيات (١٣٩٧ـ١٤١٥هـ/ ١٩٧٧ـ١٩٩٥م)، (دار ابن حزم، بيروت، ط١،١٤١٨هـ/١٩٩٨م)،ج١، ص٢١٠ ؛ صالح زهرالدين: موسوعة رجالات من بلاد العرب، (المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، ط١، ٢٠٠١م)، ص٢٦٦ – ٢٧٧.

أما ثورة حوران[1] فقد بدأت في شهر ذي الحجة ١٣٣٨هـ/أغسطس ١٩٢٠م،حيث قام أهل حوران بقتل علاء الدين الدروبي[2] لأنه بعد معركة ميسلون تلقى إنذاراً من السلطات الفرنسية،تتضمن دفع غرامة حربية مع نزع سلاح القوات السورية،وتسليم الوطنيين لمحاكمتهم. قَبِلَ الدروبي الإنذار ودعا الدروبي أهل حوران للتفاهم معهم حول الغرامات المفروضة عليهم إلا أن شيوخ حوران رفضوا دفع الغرامة الباهظة التي فرضها الفرنسيون، عندئذ ذهب الدروبي إليهم على رأس وفد حكومي فثار عليه أهل حوران، وقتلوه مع بقية أعضاء الوفد في يوم السبت ٦ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/٢١ أغسطس١٩٢٠م، كما قتل في أثناء الحادث وحيد عبدالهادي من نابلس، وكان من بين المسافرين لأنه حاول الفرار، وقتل ضابط إيطالي ظنه الثوار فرنسياً، وكاهن مسيحي وجنود فرنسيون[3]، لذلك جهزت السلطات الفرنسية حملة عسكرية كبيرة لإخضاع أهل حوران، واشتبكت مع أهل حوران في معارك عديدة استمرت حتى أواخر أكتوبر،فأعلن أهل حوران خضوعهم بعد أن ضربت قرى حوران بالقنابل، وأحرق الجيش البيادر والبيوت ونهبها، فقبل بشروط الفرنسيين وهي :

١. إعادة المنهوبات التي نهبت من القطار الذي كان يقل الوزراء.
٢. دفع دية الوزراء المقتولين وقدرها ١٠ آلاف ليرة ذهباً عن كل وزير ٧ آلاف للضابط الإيطالي و٢٥٠٠ ليرة للكاهن ومثلها لوحيد عبد الهادي و ٥٠٠ ليرة عن كل عسكري مقتول. ودفع مئة ألف ليرة ذهباً غرامة .
٣. إعطاء الضمانات الكافية بعدم ارتكاب اعتداءات جديدة.

وفي٢٨ محرم ١٣٤١هـ/٢٠ سبتمبر ١٩٢٢م أعدم في دمشق ثلاثة من أهل حوران[4] بتهمة اغتيال الوزراء[5].

ثانياً: لبنان:

---

(1) انظر خريطة الثورات السورية في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

(2) علاء الدين الدروبي: سياسي سوري، عينه فيصل بن الحسين رئيس وزراء بعد معركة ميسلون(١٣٣٨هـ/١٩٢٠م)، في محاولة منه لكسب رضي الفرنسيين، فقد عرف الدروبي بميله للفرنسيين. قتل في ثورة حوران في ٦ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/٢١ أغسطس١٩٢٠م. انظر: صالح الجاسر: المرجع السابق، ص٢٧ـ٢٨.

(3) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣، ص٢٤٠ـ٢٤١ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٤٤.

(4) الثلاثة الذين أعدموا هم : عوض صلاح الدين المصري ، وحسين الحاج يوسف عيسى ، وزعل يوسف. انظر: أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣، ص٢٤١.

(5) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣، ص٢٤١ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٣٧ـ٣٨.

أما في لبنان فقد كان الوضع مختلف بعض الشيء، نظراً لوجود الطوائف المسيحية المارونية([1])، فمعظم هؤلاء يميل إلى الفرنسيين، ويعتبرون لبنان جزء من فرنسا، خاصة عندما ضعفت الدولة العثمانية وبدأت الدول الأوربية تتصل بالأقليات وتحرضهم ضد العثمانيين، فكانت فرنسا توطد علاقتها مع الموارنة المسيحيين، وبريطانيا توطد علاقتها مع الدروز المسلمين الشيعة، ونتج عن هذه العلاقات خلافات كبيرة بين هذه الطوائف اللبنانية أدت إلى قيام اشتباكات دموية مسلحة بين الطرفين، مما اضطر الدولة العثمانية في عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م إلى تقسيم جبل لبنان إلى قسمين: شمالي وعينت عليه حاكماً مارونياً، وجنوبي وعينت عليه حاكماً درزياً([2]).

ومع ذلك فقد تجددت الإضطرابات بين الطائفتين وكانت أعنفها عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م([3])، التي منحت لبنان بعدها حكماً ذاتياً، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى١٣٣٣هـ/١٩١٤م،وضع أحمد جمال باشا لبنان تحت الإدارة العثمانية المباشرة([4])،

([1]) الموارنة: طائفة مسيحية كاثوليكية مرتبطون بالكرسي البابوي في روما وجبل لبنان مركزهم الرئيسي، ومعظم هؤلاء كانوا يعملون على انفصال لبنان عن المشرق العربي الإسلامي، والانضمام تحت راية الغرب الفرنسي، واشتق إسمهم من مارون وهو قديس وأحد كبار بطاركتهم، وقد شكل الموارنة الخلية الكاثوليكية الوحيدة في آسيا. انظر: عبد الله محمد الغريب: المرجع السابق، ج١، ص٤١٨ـ٤١٩ ؛ نجيب عازوري: مؤسس جامعة الوطن العربي في مطلع القرن العشرين " يقظة الأمة العربية "، ترجمة: أحمد أبو ملحم، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م)، ص١٤٤ـ١٤٥ ؛ المنجد: ص٥٥٢.

([2]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، تاريخ ومذكرات وتعليقات، (منشورات المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، ج١، ص١٥ ؛ محمود شاكر، إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ج١،ص١٤٧.

([3]) فتنة عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م: لقد كان الموارنة المسيحيون يحاولون أن يجعلوا من لبنان وطنا قوميا للمسيحيين بمساعدة فرنسا، وما كان ذلك ليرضى عنه الدروز الذين قاموا بإحراق دير القمر، فقامت في لبنان عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م فتنة كبيرة تدخلت فيها الدول الأوربية صاحبة النفوذ وأرسلت فرنسا حملة مؤلفة من ستة آلاف جندي، إلا أن الدولة العثمانية أسرعت وحلَّت الموضوع بشكل يرضي النصارى قبل وصول القوات الفرنسية. وكان وزير الخارجية العثمانية فؤاد باشا قد وصل إلى المنطقة وأخذ في معاقبة المذنبين وشكل لجنة لإصلاح أحوال الحكم في لبنان، وكان ذلك أساساً للتنظيمات الأساسية التي صدرت عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م والتي قسمت سوريا إلى ولايتين، منحت بمقتضاه لبنان حكماً ذاتياً. انظر: جورج أنطونيوس: المرجع السابق ، ص٢٩٩ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج١ ، ص١٩٥ـ١٩٧ ؛ وص ٥٢٦.

([4]) جورج أنطونيوس: المرجع السابق ، ص٢٩٩ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج١ ، ص١٩٥ـ١٩٧ ؛ وص ٥٢٦ ؛ محي الدين قدورة: تاريخ لبنان من عام ١٩١٤م إلى عام ١٩٢٠م ، (مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد السادس، جمادى الأولى ١٣٩٩هـ/إبريل ١٩٧٩م)، ص٦٢ ؛ عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية حتى عام ١٩٥٨م، الأزمة اللبنانية، (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨م)،

وعندما انتهت الحرب ١٣٣٧هـ/١٩١٨م رأينا كيف احتلت فرنسا لبنان، وكيف خرجت القوات العثمانية والعربية منها، وكيف تقدم الجنرال غورو من لبنان إلى دمشق واسقط الملك فيصل وقضى على الحكومة العربية.

ولكن مع ذلك فقد قاوم اللبنانيون وخاصة المسلمون الانتداب الفرنسي، وقامت بعض القوات العربية في شرق الأردن بزعامة أحمد مريود([١]) بدعم الثوار في لبنان الذين كانوا يعملون على طرد المستعمر الفرنسي من بلادهم، ففي ذي القعدة ١٣٣٧هـ/أغسطس ١٩١٩م حاول الثوار قتل بيكو في راشيا، لعلمهم بمحاولة ضم هذه المنطقة إلى منطقة نفوذ الفرنسي، لكن بيكو نجا، وقامت السلطات الفرنسية بحملة كبيرة على المنطقة، اعتقلت فيها كثير من الأهالي وقتلت عدداً منهم، وضربت القرى بالمدافع، ولم تهدأ الثورة هناك حتى عام١٣٤٠هـ/١٩٢٢م([٢]).

وحاول الجنرال غورو في يوم الأربعاء ٣ ربيع الأول ١٣٣٨هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٩١٩م احتلال منطقة البقاع، ولكنه بعد مفاوضات ومناوشات([٣]) لم يتمكن من احتلال الأقضية الأربعة إلا في ٨ ربيع الأول ١٣٣٨هـ/الأول من ديسمبر ١٩١٩م([٤]).

مما أدى إلى اشتعال المقاومة من الإسكندرونة حتى طرابلس وقد سمح الفرنسيون بتكوين عصابات مسلحة من بعض مسيحي لبنان وأمدوهم بالسلاح والذخيرة، وساعدهم الجنرال غورو على إثارة الإضطرابات في المنطقة الشرقية، وسلح القرى المسيحية الموالية للاستعمار الفرنسي في عكار ولبنان الجنوبي والإسماعيلية([٥]) في بانياس. ووجد النزاع الطائفي طريقه للظهور، فقام

ص٥٤٥ـ٥٤٧.

([١]) أحمد مريود(١٣٠٣ـ ١٣٤٥هـ/١٨٨٦ـ١٩٢٦م): ولد واستشهد في قرية جباثا الخشب، وينتمي مريود إلى قبيلة المهيدات التي كانت تقبض على إمارة وزعامة البلقاء في الأردن، أخواله من قرية شبعا التابعة إلى العرقوب في لبنان، كان مريود من المعارضين للحكم العثماني، والمؤيدين لثورة الشريف حسين، كما أنه قاوم الاستعمار الفرنسي والبريطاني وشجع الثوار في الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن على مقاومته. انظر: محمود عبيدات: أحمد مريود ١٨٨٦ـ١٩٢٦م قائد ثورة الجولان وجنوب لبنان وشرق الأردن، (دار رياض الريس للنشر، لندن ـ بيروت، ط١، ١٩٩٧م)، ص٢٥ـ٤٩.

([٢]) علي سلطان: تاريخ سورية(١٩١٨ـ١٩٢٠م)، ص٢٤٣.

([٣]) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر:علي سلطان تاريخ سورية(١٩١٨ـ١٩٢٠م) ص٢٤٣ـــ٢٤٥ ؛ محمود عبيدات: المرجع السابق،ص١٦٣ـ١٦٨.

([٤]) علي سلطان: تاريخ سورية(١٩١٨ـ١٩٢٠م)، ص٢٤٤ـ٢٤٥ ؛ هدى رزق: لبنان بين الوحدة والإنفصال (١٩١٩ـ١٩٢٧م)، (بيسان للنشر والتوزيع، بيروت ، ط١، ١٩٩٨م)، ص٥٦ـ٦٠.

([٥]) الإسماعيلية: إحدى الفرق الشيعية. وتعد الإسماعيلية ثاني أكبر جمهور الشيعة بعد الاثني عشرية. وتسمى بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ومنهم الحشاشين حيث روى البعض أن زعيمهم كان

النصيرية([1]) وهاجموا الإسماعيلية الذين يقعون في الجانب الفرنسي. وبهذا أصبح المسيحيون في المناطق الجنوبية من لبنان هدفاً لأعمال المقاومة الوطنية المسلحة،لانحياز أصحاب هذه المنطقة للفرنسيين، وقد اتخذت أعمال المقاومة هناك شكلاً طائفياً تحركه فرنسا([2]).

وفي يوم ١٦ ذو الحجة ١٣٣٨هـ/ ٣١ أغسطس ١٩٢٠ تم إعلان دولة لبنان الكبير([3]) فقد استعملت فرنسا في الدول العربية المستعمرة سياسة (فرق تسد) بإنشاء دول المشرق التي ذكرناها سابقاً، ومن ضمنها دولة لبنان الكبير([4])، وذلك بتوسيع متصرفية جبل لبنان([5]) بضم الأقضية الأربعة إليها وهي :حاصبيا ــ راشيا ــ بعلبك ــ البقاع. التي كانت تابعة لحكومة

يقدم الحشيش لأنصاره وفدائييه، لكي يتمكنوا من القيام بالأعمال الفدائية التي تتطلب ثباتا وفداء، ومن الفرق الإسماعيلية النزارية ومستعلية أو البهرة ، والدروز والحافظية والسبعية. انظر: مانع حماد الجهني: المرجع السابق، ج١، ص٣٨٣ ؛ موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا (الإسماعيلية).

([1]) النصيرية: من الفرق الباطنية الشيعية عرف أتباعها بالنصيريين،نسبة إلى محمد بن نصير النميري،الذي كان من معاصري الإمام الحادي عشر للشيعة، إلا أنه نظرا لخدماتهم الجليلة للفرنسيين أثناء الاستعمار الفرنسي لسوريا، أطلق عليهم الفرنسيون لقب "علويين" كناية عن الولاء، من أشهر العلويين في المشرق العربي عائلة الأسد السورية وصالح العلي، ويتجمع معظم العلويين في سلسلة الجبال الممتدة من عكار جنوباً إلى طوروس شمالاً، ويتوزع بعضهم في محافظات حمص، حماة ودمشق وحوران كيليكيا ولواء الاسكندرونه في سوريا، النصيرية فرقة منفصلة عن بقية المذاهب الإسلامية، ويعتبرها البعض فرقة خارجة عن الإسلام نظرا للمعتقدات والعبادات المختلفة لديها. استطاع العلويون (النصيريون) أن يدخلوا إلى التجمعات الوطنية في سوريا، واشتد نفوذهم في الحكم السوري منذ سنة١٣٨٥هـ/١٩٦٥م بواجهة سنية ثم قام حافظ الأسد بانقلاب عسكري في يوم الاثنين ١٧رمضان١٣٩٠هـ/١٦ نوفمبر ١٩٧٠م وتولى رئاسة الجمهورية. انظر: محمد إبراهيم الحمد: رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، (دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٢٧هـ)، ص٢٣٤ ؛ موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا (النصيرية) ؛ عبدالله محمد الغريب: المرجع السابق ج١،ص٨٥ــ٨٧ والحاشية ١، ص٣٩٧.

([2]) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ،ص٥٦٦.

([3]) دولة لبنان الكبير: دعي لبنان الكبير تميزاً له عن حدود متصرفية جبل لبنان، التي كانت تعد ولاية مستقلة عن الدولة العثمانية منذ سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م ويحكمها حاكم مسيحي عثماني تعينه الدولة العثمانية بموافقة من الدول الأجنبية (فرنسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا والدولة العثمانية)، ويعمل هذه الحاكم على تصريف أمور البلاد عن طريق مجلس يمثل فيه الطوائف اللبنانية ويكون مسؤولاً أمام الباب العالي، وقد قسم جبل لبنان إلى سبعة أقضية هي: الكورة والبترون وجبيل وزحلة والمتن والشوف والبقاع. ولم تشمل المتصرفية وادي التيم والشمال والجنوب ومدن الساحل طرابلس وبيروت وصور وصيدا حيث ظلت هذه المناطق تابعة لولاة الدولة العثمانية مباشرة. انظر ملحق الخرائط الملحق رقم ٤، والملحق رقم ٥. انظر: زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث، (دار النهضة العربية، بيروت)، ص٢٩٨ــ٣٠١.

([4]) انظر نص قرار إعلان دولة لبنان الكبير في ملحق الوثائق الملحق رقم ١.

([5]) انظر خريطة متصرفية لبنان في ملحق الخرائط الملحق رقم ٥.

دمشق، كما شمل الساحل بما فيه من مدن مثل:ولاية بيروت وملحقاتها ومدينة طرابلس وصيدا وصور والتي تسكنها أغلبية من المسلمين السنة([1]).

وقد قسمت فرنسا لبنان إلى أربع متصرفيات ومدينتين ممتازتين:

ــ متصرفية لبنان الشمالي ومركزها زغرتا.

ــ متصرفية جبل لبنان ومركزها بعبدا.

ــ متصرفية البقاع ومركزها زحلة.

ــ متصرفية لبنان الجنوبي ومركزها صيدا.

ــ مدينة بيروت الممتازة. ــ مدينة طرابلس الممتازة.

وأصبحت مساحة لبنان الكبير ١٠٤٠٠ كم٢ بعد أن كانت المساحة في أيام الدولة العثمانية حوالي ٣٥٠٠كم٢ محصورة في جبل لبنان ([2]).

استقبل إعلان الدولة الجديدة (لبنان الكبير) وسط غبطة قسم كبير من السكان المسيحيين،لأنهم شعروا بأن كيانهم الوطني الذي طالما نادوا به في ظل الدولة العثمانية قد تحقق في ظل الانتداب الفرنسي، وأن إنشاء دولة لبنان الكبير سيكون ضماناً للنصارى اللبنانيين ــ الذين كانوا يحلمون بقيام وطن قومي للنصارى في لبنان تحت ظل الحراب الفرنسية ــ ، فيما رأى المسلمون في هذا القرار خيبة أمل كبيرة، وظلت آمالهم متعلقة بتحقيق الوحدة مع سوريا وهو ما طالبوا به في المؤتمر السوري ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م، ولكن الجنرال غورو على الرغم من تقسيم سوريا إلى دويلات صغيرة،وعين عليها حكاماً محليين،إلا لبنان الكبير التي لم يولّ عليها إلا حكاماً فرنسيين وظل هذا المنصب حكراً عليهم حتى عام١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م([3]).

وفي هذه الفترة (١٣٣٨ــ١٣٤٣هـ/١٩٢٠ــ١٩٢٤م) حكم لبنان مفوضون عسكريون([4])هم:

([1]) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣،ص٢٢٠ــ٢٢١ ؛ عبد العزيز إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٦٧ ؛ صلاح العقاد : المشرق العربي المعاصر،(مكتبة الأنجلو ، القاهرة)، ص٢٧.

([2]) زاهية قدورة : المرجع السابق، ص٢٧٤ ؛ زهير الشلق: من أوراق الانتداب، تاريخ ما أهمله التاريخ، (دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص١١٦.

([3]) علي عبد المنعم شعيب: تاريخ لبنان من الاحتلال إلى الجلاء (١٩١٨ــ ١٩٤٦م)، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٢٨ ؛ جوزيف أبو خليل: لبنان وسوريا مشقّة الأخوة، (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ، ط٣، ١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص٩.

([4]) انظر جدول المفوضين الفرنسيين في ملحق الجداول الملحق رقم ١.

أ ــ الجنرال غورو(١٣٣٨ــ١٣٤١هــ/١٩٢٠ــ١٩٢٣م) وقد واجهته الثورات، وخاصة في جبل عامل وحوران، كما تعرض لمحاولة اغتيال على يد أدهم خنجر [1] ورفاقه، وطلب من حكومته مده بالقوة اللازمة فرفض طلبه، فاستقال من منصبه[2].

ب ــ الجنرال ويغاند Weygand(١٣٤١ــ ١٣٤٣هــــ/١٩٢٣ــــ ١٩٢٤م): هــدأت الأحوال في عهد بعـــــض الشيء خاصة وأنه وعد اللبنانيين بدراسة مطالبهم[3].

ثالثاً: فلسطين:

أما في فلسطين فبعد أن احتلها الجنرال اللنبي في٢٤ صفر١٣٣٦هــ/٩ ديســمبر١٩١٧م، أنشأ في البلاد إدارة عسكرية بريطانية، ومنذ ذلك الحــين نشــأ شــعور قــوي بالنقمــة علــى البريطانيين،لأنهم عملوا على تطبيق سياسة لا شعبية لها ويستحيل تنفيذها وهــي سياســة خلــق وطن قومي يهودي في فلسطين وفقاً لوعد بلفور[4]، هذا وقد احتجت الجمعية الإسلامية بنــابلس في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٣٨هــ/١٥ فبراير ١٩٢٠م على تسليم أراضى عرب يافا إلى اليهــود الصهيونيين المستعمرين،على الرغم من أن أهالي يافا كانت لديهم الوثائق الرسمية التــي تثبــت ملكيتهم لهذه الأراضي، واعتبرت الجمعية أن هذا العمل ضربة عملية مــن حكومــة الاحــتلال لسكان البلاد الأصليين وأن عليها أن تعيد الحق إلى أصحابه[5]. من هنــا نــرى أن الحكومــة البريطانية قامت بظلم الأهالي وانتزاع حقوقهم وممتلكاتهم وتنفيذ وعد بلفور حتى قبل أن تصــدر قرارات سان ريمو.

---

[1] أدهم خنجر: ثائر شيعي من عائلة آل الأسعد المشهورة في لبنان (من جبل عامل)، يقال أنه من الذين حاولوا اغتيــال الجنرال غورو في١٦ شوال ١٣٣٩هـ/٢٣ يونيو ١٩٢١م بالقرب من القنيطرة، اعتقلته القوات الفرنسية في ذي القعدة ١٣٤٠هـ/يوليو ١٩٢٢م وقامت بإعدامه في نفس السنة ببيروت، ويذكر محمود عبيدات أن أدهم خنجر لم يكــن مــن ضمن الجماعة التي حاولت اغتيال الجنرال غورو، ولكن نظراً لنشاطه في مقاومة الاستعمار الفرنسي قامت القــوات الفرنسية بالقبض عليه وإعدامه دون محاكمة. انظر: محمود عبيدات: المرجع السابق، ص٢٦١ــ٢٦٢ ؛ أمين سعيد: الثــورة العربيــة، ج٣، ص٢٥٣ـــــ٢٥٤ ؛ حســن البعينـــي: دروز ســوريا ولبنـــان فـــي عهــد الانتــداب الفرنسي١٩٢٠ــ١٩٤٣م، (المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، ١٩٩٣م)، ص١٥٩.

[2] أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣، ص٢٤٠ــ٢٥٤ ؛ فارس زرزور: معارك الحرية في سورية قصة الكفــاح الشعبي من أجل جلاء القوات الأجنبية، الكتاب الفائز بجائزة قائد الجيش العربي الســوري للبحــوث العســكرية والقومية لعام ١٩٦٢م ، (دار الشرق للنشر، دمشق)، ص١٩١ــ١٩٢.

[3] أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣، ص٢٤٣ــ٢٥٤ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٢٦٠.

[4] دافيد فرومكين : المرجع السابق ، ص٤٩٩.

[5] عبدالوهاب الكيالي:وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني(١٩١٨ــــ ١٩٣٩م)، سلسلة الوثائق العامة(١)، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٨م)، الوثيقة رقم ٧ ، ص١٤.

ومنــذ أن أذاع الحاكم العسكري في فلسطين الجنرال بولــز Bols نبأ قبــول الحكومــة البريطانية الانتداب على فلسطين،وعزمها على تطبيق وعد بلفور وفقاً لقرارات سان ريمو، حتى هبت جماهير الشعب العربي الفلسطيني في شعبان ١٣٣٨هـ/ إبريل ١٩٢٠م عند ســماعها هذا البيان تستنكر ذلك وتحتج عليه([1])، وقد احتج أعضاء الجمعيات الإسلامية والمســيحية الممثلــة لعموم عرب فلسطين على فرض الانتداب ودمج وعد بلفور فيه، وطالبــت باســتقلال ســوريا المتحدة من طوروس إلى رفح وعدم فصل فلسطين عن سوريا، ورفضت الهجرة اليهودية رفضاً تاماً،لما في ذلك من إجحاف بالحقوق المقدسة لكل من المسلمين والمسيحيين([2]). وقد نشبت فــي القدس مظاهرات عنيفة أدت إلى اصطدام العرب باليهود أدى إلى مقتل١٥٠ فلسطيني وعدد من الجرحى علي يد القوات البريطانية([3]). وفي هذا بيان بأن بريطانيا صــانعة الكيــان الصــهيوني والعدو اللدود للعرب والمسلمين.

وألفت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق في أسباب هذه المظاهرات، وأعدت هذه اللجنــة تقريراً بينت فيه أن أسباب المظاهرات هو خيبة أمل العرب لعــدم تنفيــذ الوعــد باســتقلالهم، واحتجاجاً على تنفيذ وعد بلفور الذي يتضمن إنكاراً لحق عرب فلسطين في تقريــر مصــيرهم، وأن زيادة الهجرة اليهودية سيؤدي إلى استعبادهم اقتصادياً وسياسياً من قبل اليهــود، وتوصــلت اللجنة إلى استنتاج نهائي مفاده أن سياسة الإدارة الفلسطينية يعرقلها تدخل السلطات البريطانيــة المباشر لصالح الصهاينة([4]).

وقد أرسل الحاكم العسكري في فلسطين الجنرال بولز إلى رئاسة الجيش البريطــاني فــي القاهرة تقريراً تحدث فيه عن اللجنة الصهيونية([5]) ورفضها الانقياد لأوامــر الحكومــة، كونهــا

([1]) أكرم زعيتر:القضية الفلسطينية، ص٦٥ ؛ أحمد طربين:التجزئة العربية كيف تحققت تاريخياً؟،ص١٦٢.

([2]) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم ٨، ص١٥.

([3]) الوثائق الرئيسية...، الوثيقة رقم ٢٦، ص١٢٢ــــ١٢٣ ؛ دافيــد فرومكيــــن: المرجــع الســابق، ص٥٠١ ؛ Roberto Mesa : Aproximacion Al Cercno Oriente,(Akai editor, Madrid ,1982) , p 89.

([4]) الوثائق الرئيسية..،الوثيقة رقم ٢٦، ص١٢٢ــ١٢٣ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب، ج١، ص٤٢١.

([5]) اللجنة الصهيونية : جاءت هذه اللجنة إلى فلسطين بعد أن دخلت قوات اللنبي إليها، وكان الهدف من إرسالها هو هو أن تنجز أي خطوات تستدعيها مقتضيات وعد بلفور بشأن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وفي الوقت نفسه تعمل على تهدئة شكوك العرب بشأن النوايا الحقيقية للصهيونية. وقد ترأس اللجنة الدكتور حاييم وايــزمن يرافقه الكابتــن أورمبسي غور بصفــته ضابط ارتباط بين الصهاينة والســلطات العســكرية البريطانيــة فــي فلسطين، وفي خريف١٣٤٨هـ/١٩٢٩م تم إنصهار اللجنة الصهيونية في الوكالة اليهودية التي كانــت عنصــراً رسمياً من عناصر الحكم في فلسطين منذ عام ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م. انظر: أحمد طربين: الاحــتلال والانتــداب، ج١، ص٤٨١ ؛ وللمزيد من المعلومات انظر: محمد عبد الروؤف سليم: نشاط الوكالة اليهودية لفلســطين منــذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل ١٩٢٢ــ١٩٤٨م، (المؤسســة العربيــة للدراســات والنشــر، بيــروت، ط١،

تطلب المحاباة والتحيز لليهود ــ ولا نعتقد أنها في حاجة إلى مثل هذا الطلب ــ وإدخـــال اللغـــة العبرية كلغة رسمية وإقامة قضاء يهودي، كما وضح التقرير أن الامتيازات الممنوحة لأعضـــاء اللجنة الصهيونية في السفر، والانتقال تشكل استفزازاً لعرب فلسطين([١])، لأنها في الوقت نفســه حظرت سلطات الاحتلال البريطاني على العرب التجول والتنقل بحرية، ومنعتهم من إبداء رأيهم في إدارة بلادهم. وحالت دون وصول أصواتهم إلى خارج فلسطين لعزلهم سياسياً، وقطع وشائج الاتصال التاريخي مع إخوانهم العرب والمسلمين من ناحية. وحتى لا يطلع الرأي العام العـــالمي على حقيقة موقفهم من الصهيونة وأخطارها من ناحيـــة أخـــرى([٢])، كـــل هـــذا القهـــر حمـــل الفلسطينيون العرب من مسلمين ومسيحيين إلى الاعتقاد الثابت أن الحكومة البريطانيـــة تحـــابي الصهاينة، لذلك أوصى التقرير البريطاني أن تُلغى اللجنة الصهيونية في فلسطين([٣]).

لم ينفع تقرير اللجنة وتقرير الحاكم العسكري في تغير الوضع في فلسطين، فلم تمضِ عدة أسابيع حتى حلت لندن الإدارة العسكرية في فلسطين، وأقامت مكانها إدارة مدنية. عينـــت علـــى رأسها اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل بصفته أول مندوب سامي بريطاني فـــي فلســـطين، وأعلن في شوال ١٣٣٨هــ/ أوائل يوليو ١٩٢٠م انتهاء الإدارة العسكرية وقيام الإدارة المدنيـــة، علماً بأن صموئيل قد جاء قبل تعيينه بعدة شهور إلى فلسطين، لذلك ظل تقرير لجنـــة التحقيـــق والتقرير العسكري في طي الكتمان([٤]).

أدرك أهل فلسطين بسرعة مضمون الوفاق الاستعماري البريطاني الصهيوني الذي ابتُلِيتْ به بلادهم، ولكنهم رأوا أنه من الحكمة عدم مواجهة البريطانيين بعداء سافر في هذه المرحلـــة، طمعاً في أن تؤدي موجة احتجاجاتهم المتعاظمة، وبوادر القلق والتمرد التـــي أظهروهـــا ومـــا صاحبها من اضطرابات دامية. إلـــى أن تُعـــدل الحكومـــة البريطانيـــة عـــن دعـــم البرنـــامج الصهيوني([٥]). وقد رفع أهل فلسطين العديد من مذكرات الاحتجاج إلى الحكومة البريطانية فـــي ١٣٣٩هــ الفترة من أواخر ١٩٢٠ إلى ١٩٢١م([٦]) تعترض فيه علـــى وعـــد بلفـــور وسياســـة

١٩٨٢م)، ص١٦ــ٢٦.

([١]) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية، ص٦٦.

([٢]) أحمد طربين : الاحتلال والانتداب،ج١، ص٤٢٠.

([٣]) أكرم زعيتر : القضية الفلسطينية، ص٦٦.

([٤]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٧ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتـــداب،ج١، ص٤٢١ــــ٤٢٢ ؛ دافيـــد فرومكين: المرجع السابق،ص٥٠٢.

([٥]) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب،ج١،ص٤٢٢ــ٤٢٣.

([٦]) انظر نص هذه المذكرات في عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلســـطينية، الوثـــائق رقـــم ١٠ و١١ و١٢ ص١٦ــ٢٢.

بريطانيا الصهيونية في فلسطين، وتطالب بوقف الهجرة اليهودية إليها[1]، لكن كل هذه الاحتجاجات لم تجد آذاناً صاغية، لأن الحكومة البريطانية كانت تجد أن مصلحتها مع الصهاينة أصحاب المال والنفوذ والقادرين على حماية مصالحها في المنطقة من أي اعتداء فرنسي أو روسي.

في غضون ذلك انعقد مؤتمر القاهرة (١٣٣٩هـ/١٩٢١م) برئاسة تشرشل وزير المستعمرات للنظر في أوضاع المنطقة بعد احتلال فرنسا لسوريا ونشوب الاضطراب في فلسطين وشرق الأردن والعراق[2]. وأعلن المؤتمر أن بريطانيا مسؤولة عن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بموجب شروط الانتداب. وأوصى بأن تشكل المنطقة الواقعة إلى شرق نهر الأردن مقاطعة عربية من فلسطين يكون أميرها عبد الله بن الحسين مسئولاً أمام المندوب السامي البريطاني. ومقابل المعونات التي يتلقاها الأمير يتعهد باحترام الالتزامات البريطانية الدولية نحو فرنسا في سوريا ونحو الصهاينة في فلسطين. وكان الهدف الرئيسي من إنشاء إمارة شرق الأردن هو إيجاد مأوى لعرب فلسطين الذين يغادرون بلادهم في أعقاب تنفيذ البرنامج الصهيوني[3].

شرع هربرت صموئيل في تهويد فلسطين وتهيئة الظروف السياسية والاقتصادية والإدارية التي تسهل قيام وطن قومي يهودي فقام بتهويد الدوائر الحكومية والإدارية وجعل اللغة العبرية لغة رسمية إلى جانب العربية والإنجليزية، وفتح أبواب الهجرة اليهودية على مصراعيها، كما قام بفرض ضرائب باهظة على الفلسطينيين حتى يجبر الفلاح الفلسطيني على بيع أرضه للصهاينة[4]، مما أدى إلى قيام اضطرابات شديدة في البلاد فاندلعت في يافا ثورة عنيفة في ٢٣ شعبان ١٣٣٩هـ/١ مايو ١٩٢١م دامت ١٥ يوماً انقض فيها أهل فلسطين على مراكز الهجرة الصهيونية،حيث قتلوا بعض اليهود، ثم هجم الثوار على بعض المستعمرات اليهودية بين يافا وطولكرم[5]، وكانت القوات العسكرية والشرطة البريطانية تقف في كل مرة إلى جانب اليهود. وأسفرت هذه الثورة عن مقتل ٤٧ يهودياً وجرح ١٤٦، أما عرب فلسطين فقد قتل منهم ٤٨ عربياً وجرح ٧٣ معظم إصاباتهم كانت بيد القوات العسكرية والشرطة،وقد

---

(1) عبد الوهاب الكيالي : وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقتان ١١ و ١٢ ، ص١٩ــ٢٠.

(2) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ، ص٤٣٢.

(3) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب،ج١،ص٤٢٥ــ٤٢٦.

(4) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٧ــ٦٨ ؛ محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية، ج١، ص٣٢ــ٣٣ ؛ محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص١٦٦ــ١٦٧ ؛ أحمد طربين: الاحتلال ولانتداب،ج١،ص٤٢٤.

(5) محمد دروزة : القضية الفلسطينية ، ج١،ص٣٨.

فرضت على العرب غرامات باهظة. وانتشرت الاضطرابات والمظاهرات في فلسطين كلها([1]).

ونتيجة لذلك تشكلت لجنة تحقيق بريطانية برئاسة توماس هايكرافت Thomas Haikrafft رئيس قضاة فلسطين للبحث عن الأسباب التي أدت إلى هذه الثورة،وكانت نتيجة التحقيق مشابهاً للتحقيق السابق([2]) فقد شكا العرب من محاباة الحكومة البريطانية للصهاينة، الذين قاموا بتوسيع مستعمراتهم وزيادة هجرتهم إلى فلسطين، إضافة إلى إساءة اليهود المهاجرين للعرب بتعجرفهم واحتقارهم للعادات الاجتماعية العربية، هذا فضلاً عن أن سلطات الاحتلال الإنجليزي تتخذ من الجمعية الصهيونية هيئة استشارية وتعمل على مراعاة مصالحها على مصلحة الفلسطينيين([3]).

عندئذ شعر صموئيل بتدهور الوضع بعد ثورة يافا، لاسيما بعد أن انتقد تقرير لجنة هايكرافت تحيز بريطانية للصهاينة عندما خصهم التقرير بكثير من اللوم، وخشي صموئيل من أن يؤدي تسرع الصهاينة إلى نسف البرنامج الصهيوني برمته فعزم على إتباع سياسة مرحلية أكثر مرونة، وطلب من حكومته وقف الهجرة اليهودية مؤقتاً، ثم تنظيمها على أساس أشد صرامة، مع النظر في موضوع إقامة مؤسسات تمثيلية لكلٍ من العرب والصهاينة([4]).

لكن تشرشل وزير المستعمرات البريطاني ونصير الصهيونية القوي رفض استرضاء الزعماء الفلسطينيين، وعارض المطالب العربية بشأن إقامة مؤسسات الحكم التمثيلي([5]). وأصدر في ٥ رمضان ١٣٤٠هـ/ ١ يوليو ١٩٢٢م بياناً باسم الكتاب الأبيض لسنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م([6]) (حوّل حياة الشعب الفلسطيني إلى سواد)،لأنه حاول أن يفسر فيه وعد بلفور تفسيراً يطمئن العرب،ولكنه خيب آمالهم ويلخص بما يلي: " إن الحكومة البريطانية تؤكد ثانيةً تصريح بلفور الذي لا يقبل التغيير، وسيؤسس في فلسطين وطن قومي لليهود، ولكن ذلك لا يعني أن تكون فلسطين برمتها وطناً قومياً لهم، وسيكون الشعب اليهودي موجوداً في فلسطين كحق من حقوقه، لا كمنة، ولكن حكومة جلالته لا ترمي إلى جعل فلسطين يهودية...وهي لا

([1]) الوثائق الرئيسية..،الوثيقة رقم ٢٦،الحاشية رقم ٢، ص١٢٤ ؛ محمد كرد علي : المرجع السابق، ج٣،ص٢١٨ــ٢١٩ ؛ أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٨.

([2]) الذي أصدرته الجنة البريطانية المكلفة للتحقيق في أسباب مظاهرات رجب ١٣٣٨هـ/إبريل ١٩٢٠م. انظر: الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٦، ص١٢٢ــ١٢٣ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب، ج١، ص٤٢١.

([3]) الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٦، ص١٢٤ــ ١٢٥ ؛ واصف عبوشي: فلسطين قبل الضياع قراءة جديدة في المصادر البريطانية، (دار رياض الريس للنشر، لندن، ١٩٨٥م)، ص٤٢ــ٤٣.

([4]) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب، ج١، ص٤٢٧.

([5]) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب،ج١،ص٤٢٧ ؛ واصف عبوشي: المرجع السابق،ص٤٨.

([6]) انظر نص الكتاب الأبيض: محمد دروزة : القضية الفلسطينية، ج١، ص٢٥٨ــ٢٦٢.

تفكر في إفناء الشعب العربي..."([1]). يتضح من هذا الكتاب أن بريطانيا لم تكن تمن على الصهاينة بإعطائهم وطناً قومياً لهم،بل هي تمن على العرب للسماح لهم بالإقامة في بلدهم وعلى أرضهم، وأن عليهم أن يقبلوا بهذا الوضع كأمر واقع لا يقبل الجدال، والغريب أو الطريف في الموضوع أنها أرادت من هذا الكتاب الأسود تطمين الشعب العربي الفلسطيني. لكن العرب لم يكونوا مغفلين على هذه الدرجة، بل إنهم كانوا ولازالوا قوة مدافعة عن وطنها مهما كلفها الأمر، وعلى الرغم من قلة الموارد الحربية لديهم.

رابعاً: شرق الأردن:

أما منطقة شرق الأردن([2]) التي تعود نشأتها إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى والتي كانت تشكل جزءاً من الدولة العثمانية وقد كانت موزعة على لوائين ضمن ولاية سوريا هما:

١ـ لواء حوران (ويسمى قضاء عجلون) ويتبع له أراضي شرق الأردن الواقعة بين نهر اليرموك والزرقاء أي المنطقة الشمالية من الأردن.

٢ـ لواء الكرك([3]) وتضم أقضية السلط([4]) والطفيلية([5]) ومعان وناحية عَمان([6]).

ولكن أثر دخول القوات الفرنسية إلى سوريا وإبلاغهم الملك فيصل مغادرة البلاد في شوال ١٣٣٨هـ/يوليو ١٩٢٠م، حيث كانت القوات الفرنسية المحتلة تقف عند حدود شرق الأردن مع سوريا عندئذ جاء المندوب البريطاني هربرت صموئيل إلى الأردن، حيث كانت المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن جزءاً من الإدارة العربية التي يتولاها الملك فيصل في سوريا، إلا أنها بعد إبعاده من دمشق لم تقع تلك المنطقة تحت الاحتلال الفرنسي. لذلك قام صموئيل بإقناع الحكومة الفرنسية بالموافقة على ضم تلك المناطق إلى منطقة الانتداب

([1]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٧٣ـ٧٤.

([2]) انظر خريطة شرق الأردن في ملحق الخرائط الملحق رقم ٦.

([3]) الكرك: مدينة أردنية تقع شرق البحر الميت، مدينة مشهورة منذ عهد المؤابيين، ومركز حربي تنازع عليه الصليبيون مع صلاح الدين الأيوبي. انظر: المنجد، ص٤٦٠.

([4]) السلط: مدينة في الأردن وهي قاعدة محافظة البلقاء، عبارة عن كتله صخرية تمتد بين وادي الموجب ونهر الزرقاء. انظر: المنجد ، ص٣٠٥.

([5]) الطفيلية: بلدة أردنية تقع جنوب شرق البحر الميت وبها مرتفعات مشهورة بالبساتين والكروم. انظر: المنجد، ص٣٥٧ ؛ انظر خريطة شرق الأردن في ملحق الخرائط الملحق رقم ٦.

([6]) محمد عبد القادر خريسات: الأردنيون والقضايا الوطنية والقومية، دراسات في الموقف الشعبي الأردني ١٩١٨ـ١٩٣٩م، (الجامعة الأردنية ، عَمان، ١٩٩٢م)، ص١١.

البريطاني([1]). وفي أثناء تواجد الملك فيصل في اللّد بعد خروجه من دمشق وهو في طريقه إلى إيطاليا تمكن هربرت صموئيل من أن يأخذ منه توقيعاً على وثيقة يتنازل بموجبها عن منطقة شرقي الأردن([2]) للسلطات البريطانية في فلسطين([3]). وبذلك أصبحت منطقة شرق الأردن منطقة منفصلة عن سوريا وتابعة لفلسطين، مع العلم أن منطقة غرب نهر الأردن (فلسطين) كانت أغنى وأخصب من منطقة شرق الأردن ، لذلك زرعت بريطانيا اليهود في فلسطين، وأوجدت الحكومة العربية بزعامة الأمير عبد الله في شرق الأردن، وطلبت من الملك فيصل التوقيع على تنازله عن شرق الأردن وكأنه ملكٌ خاصٌ له.

وأعلن هربرت صموئيل تأسيس إدارة محلية في شرق الأردن بمعزل عن إدارة فلسطين وأعلن بالمقابل ان حكومته ستقوم بإرسال عدد من المعتمدين السياسيين ورجال القضاء للمساعدة في تنظيم قوات الدفاع عن شرق الأردن ضد أي اعتداء خارجي، واشترط عدم إدخال أي سلاح إلى فلسطين، وعلى اثر ذلك تحولت الإدارات السابقة في عهد الدولة العثمانية إلى حكومة محليه مقسمة على النحو التالي : حكومة عجلون ، وحكومة السلط وعَمان ، وحكومة الكرك([4]). بيد أن الحكومات المحلية لم تستطيع إثبات جدارتها في فرض سيطرتها وسلطاتها على المواطنين، حيث احتفظت العشائر البدوية باستقلالها العشائري، وسادت الفوضى والانقسامات وعدم الاستقرار السياسي والأمني في البلاد([5]).

فبعد معركة ميسلون توجه الأمير عبدالله إلى شرق الأردن لمحاربة الفرنسيين، وأعلن ذلك في منشور رسمي أذاعه هناك([6])، وعندما وصل الأمير عبد الله إلى معان في ١١ ربيع أول ١٣٣٩هـ/٢١ أكتوبر ١٩٢٠م، أعلن أنه سوف يحارب الفرنسيين فانهال عليه عدد كبير من شيوخ العشاير والضباط العرب ورجال البلاد، لم تطل إقامة الأمير في معان أكثر من أربعة شهور، ثم توجه إلى عَمان في يوم الإثنين ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ/٢٨ فبراير ١٩٢١م، وما أن وصلها حتى استقبله شيوخ الأردن وفي مقدمتهم شيخ الحويطات([7]) عودة أبوتايه([1])

([1]) جورج انطونيوس: المرجع السابق، ص٤٣٤.

([2]) لقد عاون الشريف فيصل الحكومة البريطانية بقوة على الرغم من تخليها عنه، حتى بعد ميسلون وخروجه مطرود من بلاد الشام يوقع على وثيقة تنازل عن أرض لا يملكها وليس من حقه التنازل عنها.

([3]) خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق، الحاشية رقم ٢، ص٢١٠.

([4]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص١٣ـ١٤؛ محمد خريسات : المرجع السابق،ص٣٣ـ٣٧.

([5]) دافيد فرومكين : المرجع السابق ، ص٥٦٧.

([6]) انظر نص المنشور في ملحق الوثائق الملحق رقم ٢ ، وفي عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٥٦ـ١٥٧ ؛ مذكراتي، ص١٧٦ـ١٧٨.

([7]) الحويطات: هي من أكبر القبائل في بادية الشام وتقع في الجزء الجنوبي الشرقي من الأردن، وتسيطر على

زعيم القبيلة، وفي هذه الأثناء كان يعقد مؤتمر القاهرة، لتقرير مصير شرق الأردن والعراق([2])، الذي أقترح فيه تشرشل فكرة استمالة الأمير عبدالله وأن يعرض عليه منصباً في شـرق الأردن إذا ما أظهر استعداده في عدم التعرض للفرنسيين في سوريا. والمنصب الذي رأى تشرشـل أن يعرضه على الأمير هو منصب "حاكم مؤقت مكلف باستعادة النظام في منطقـة شـرق الأردن". وكانت بريطانيا ترى أنها بذلك تستطيع أن تفي بتعهداتها لليهود والعرب في وقت واحـد وذلـك بإقامة وطن قومي لليهود في غرب نـهر الأردن، وكيان عربي في شرق نهر الأردن([3]). وقد حذر الشريف حسين والملك فيصل الأمير عبدالله مـن القيـام بـأي هجـوم أو مقاومـة ضـد الفرنسيين([4]). وهذا التحذير لا مكان له فلا يعقل أن يقوم الأميـر عبـد الله بمهاجمـة الجـيش الفرنسي بأكمله بالعدد القليل الذي اصطحبه معه من الحجاز، وبدون تأييد مـن بريطانيـا أولاً، ومن والده ثانياً، هذا فضلاً عن أن الجيش الفرنسي في نهاية المطاف لم يكن بحاجة إلـى هـذا التحذير، فقد أطلق الفرنسيون يدهم في العبث بمقدرات الشعب السوري وسلب حقوقه في مقاومة المعتدين.

وأقر مؤتمر القاهرة السالف الذكر تعين الأمير عبد الله حاكماً على منطقـة شـرق الأردن فعقد على إثره مؤتمراً بين الأمير عبدالله ووزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل ممـثلا للحكومة البريطانية ــ ولم يحضر الاجتماعين أي شرق أردني ــ وأسفر هذا اللقاء الذي عقد في مدينة القدس في الفترة من (١٩ــ٢١ رجب ١٣٣٩هـ/ ٢٨-٣٠ مارس ١٩٢١م) عن اتفاق بين الطرفين عرف باتفاق القدس جاء فيه:-

١. عدم السماح للأمير عبدالله بن الحسين بالقيام بأعمال عسكرية ضد الفرنسيين، مع الحفاظ على حدود سوريا وفلسطين من كل اعتداء([5]).

المنطقة الواقعة بين وادي السرحان والنفود الكبير شرقاً، وساحل خليج العقبة وشبه جزيرة سيناء غرباً. انظـر: فؤاد حمزة: المرجع السابق، ص١٥٢ ؛ سليمان موسى: إمارة شـرق الأردن نشـأتها وتطورهـا فـي ربـع قرن(١٩٢١ــ١٩٤٦م)، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ط١، ١٩٩٠م)، ص٣١.

([1]) عودة أبو تاية (١٢٧٤ــ١٣٤٣هـ/١٨٥٨ــ١٩٢٤م): زعيم قبيلة التوايهة في الحويطات الذين يقيمـون عـادة حول معان. كان من أشهر فرسان البدو في تلك الفترة، قام بدور مهم في العمليات العسكرية للثورة ودعم الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل. انظر: نجدة صفوة: الجزيرة العربية، ج٣، ص٧٦.

([2]) محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٩ ؛ عمر المدني: عبد الله بن الحسين "الملك المؤسس"، (مجلـة آفـاق الإسلام : العدد ٣ ، سبتمبر ١٩٩٥م)، ص٢٠٥ــ٢٠٦.

([3]) دافيد فرومكين : المرجع السابق ، ص٥٦٧.

([4]) محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٩ ؛ عمر المدني: المرجع السابق، ص٢٠٥ــ٢٠٦.

([5]) أي حماية الاستعمار الفرنسي في سوريا، والاستعمار البريطاني الصهيوني في فلسطين.

٢. تتعامل الحكومة البريطانية مع الأمير عبداالله بن الحسين لإدارة وتنظيم المنطقة والمحافظة على الأمن في شرقي الأردن.
٣. الاعتراف بالانتداب البريطاني على شرقي الأردن وتؤسس لذلك حكومة عربية.
٤. تساعد بريطانيا هذه الحكومة مادياً لسد نفقات القوة العسكرية على أن تنشئ بريطانيا مهبطين للطائرات في عَمان وزيزيا([1]). وقد لعب وجود المطارين دوراً في قمع الانتفاضات المحلية التي قامت عشية تأسيس الإمارة، واسهمت في ترويض القبائل وتوطينها ضمن الحدود التي رسمت للدولة الأردنية([2]).

وبذلك تقرر تعين الأمير عبد الله بن الحسين حاكماً على شرق الأردن والذي وصل إلى عَمان في أواخر رجب ١٣٣٩هـ/أوائل إبريل ١٩٢١م، ولكن لم يكن موقف الأهالي موحداً بالنسبة لتولي إمارة شرق الأردن للأمير عبداالله، الذي وجه دعوة إلى أعيان الكرك والسلط وعجلون للبحث في كيفية توحيد المناطق وإدارة البلاد وجباية الأموال، وسعى لضمان الولاء والتأييد من الشيوخ والوطنيين، وتوجه لتنظيم شؤون الإدارة وبمجيئه إلى عَمان انتهت الحكومات المحلية([3]).

عمل بعض الوطنيين مع الأمير عبد الله بن الحسين على تثبيت أركان حكمه في شرق الأردن على أساس جعل الأردن مركز تجمع الوطنيين العرب، ومن ثم الانطلاق منها لاستعادة سوريا وإنقاذها من براثين المستعمر الفرنسي، لكن الأمير اكتفى بمنصبه بإمارة شرق الأردن، فسعى للتساهل مع الفرنسيين والتعاون مع البريطانيين، وكان هذا سبب الخلاف بينه وبين رفاقه السوريين، الذين ساعدوه لتثبيت أركان الحكم العربي في شرق الأردن، على أمل أن يساعدهم هو في دعم الثورة السورية([4]). لكن الحكومة البريطانية أجبرته على التخلي عن الثوار ومساعدة فرنسا وبريطانيا في محاصرتهم والقضاء على الثورة كما سنرى في الفصل الأول عندما نتحدث عن الثورة السورية.

وفي ١١ ربيع الأول ١٣٤١هـ/١ نوفمبر ١٩٢٢م قام مصطفى كمال بإلغاء السلطنة العثمانية مما أثار الرأي العام العربي والإسلامي، حيث أعتبر هذا الإجراء خطأً كبيراً، خاصة

([1]) زيزيا: منطقة في شرق الأردن تبعد عن عَمان عشرة أميال، وكانت توجد فيها القوة الجوية البريطانية. انظر: غلوب باشا: مذكرات غلوب باشا حياتي في المشرق العربي، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، (المطابع الأهلية للنشر والتوزيع، عَمان، ط١، ٢٠٠٢م) ، ص١٨٣.

([2]) عبداالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٦٣ــ١٦٦ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص١٨.

([3]) محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٩ ؛ عمر المدني: المرجع السابق، ص٢٠٥ــ٢٠٦.

([4]) خيرية قاسمية: الرعيل العربي الأول حياة وأوراق نبيه وعادل العظمة، (دار رياض الريس للنشر، لندن، ط١، ١٩٩١م)، ص٣١.

وأن الأتراك العثمانيين هم الذين كانوا يدعمون الثورات التي كانت تقوم في شمال سوريا ضد الفرنسيين على وجه الخصوص،لأنها الأقرب إليها، بعد أن تخلى الشريف حسين وأولاده عنهم، وعلى الرغم من هذا الاستنكار فقد قام مصطفى كمال في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ/٣ مارس ١٩٢٤م بإلغاء الخلافة الإسلامية رسمياً وخلع السلطان العثماني([1]). وبذلك تتم نهاية فصول الخلافة العثمانية ويسقط الرمز الذي ظل أكثر من أربعة قرون يلتف حوله المسلمين في جميع أرجاء العالم الاسلامي.

بعد ثلاثة أيام من إلغاء الخلافة أعلن الأمير عبدالله في عَمان أثناء زيارة والده له هناك بمبايعته والده بالخلافة، وفي ٥ شعبان ١٣٤٢هـ/ ١١ مارس ١٩٢٤م أعلن الشريف حسين قبوله لمنصب الخلافة([2])، لم يعترف بهذا اللقب سوى أبناء الشريف حسين في شرق الأردن والعراق وفلسطين، والحجاز بطبيعة الحال، والتزمت بريطانيا الحياد تجاه هذا الإعلان، بينما اعترضت عليه فرنسا فمنعت ذكر اسم الحسين في المساجد أو مبايعته، كما أعدوا بيان يرفضون فيه خلافة الشريف حسين وقع عليه عدد من علماء الشام. وقد قوبل هذا الإعلان بسخط شديد في الأوساط العربية والإسلامية([3]). لأن الشريف حسين كان من الذين أسهموا في هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى بمساعدة بريطانيا، كما أن الثورة التي قام بها في الحجاز كانت من الأسباب التي أدت إلى دخول الاستعمار الفرنسي والبريطاني إلى بلاد الشام والعراق.

لقد اعتبر الملك عبدالعزيز هذا التصرف من قبل الشريف حسين وأبنائه تحدياً مباشراً له، وخاصة بعد أن منع الشريف حسين أهل نجد من أداء فريضة الحج لمدة خمس سنوات متتالية فاجتمع أعيان نجد مع الملك عبدالعزيز في الرياض، وطلبوا منه أن يقوموا بأداء فريضة الحج ولو بالقوة فزحف جيش الملك عبدالعزيز من نجد إلى الحجاز ودخل الطائف في أول صفر

([1]) ömer Osman Umar: Op. Cit , p.193-194.

([2]) عبدالله بن الحسين: مذكراتي، ص٢٠٦ ؛ أحمد الشوابكة: المرجع السابق، الحاشية ٣ ، ص٢٠٨ ؛ موضي بنت منصور: الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت (١٣٤٢هـ/١٩٢٣ـ ١٩٢٤م)، (رسالة لنيل درجة الماجستير بجامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ص١٣٩.

([3]) طالب وهيم: مملكة الحجاز(١٩١٦ـ ١٩٢٥م) دراسة في الأوضاع السياسية، (منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، ط١، ١٩٨٢م)، ص٣٤٣ـ٣٤٥ ؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، (دار مكتبة الحياة، بيروت)، ج٢، ص٢٦٨ـ٢٦٩ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.194.

١٣٤٣هـ/ ١ سبتمبر ١٩٢٤م واستولى على معسكر الأمير علي في الهدا([1]). وأبرق أعيان جدة إلى الشريف حسين في ٤ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/٣ أكتوبر ١٩٢٤م يطلبون منه التنازل عن العرش لابنه علي وبعد مداولات وافق الحسين على ذلك. وتنازل عن حكم الحجاز لابنه في ٥ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/٤ أكتوبر ١٩٢٤م ، وفي يوم ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/١٦ أكتوبر ١٩٢٤م خرج الهاشميون من مكة المكرمة ودخلها السعوديون بملابس الإحرام ينادون بالأمان([2]).

أما فيما يتعلق بالشريف حسين فقد توجه إلى العقبة للإقامة فيها والتي كانت تابعة للحجاز، لكن الحكومة البريطانية قامت بضم العقبة إلى إمارة شرق الأردن التي كانت تحت الانتداب البريطاني وطلبت من الشريف حسين في ٦ ذي القعدة ١٣٤٣هـ/٢٨ مايو ١٩٢٥م مغادرتها خلال ثلاثة أسابيع([3])، وعرضت عليه الحكومة البريطانية الإقامة في قبرص، وكان الشريف قد طلب منها أن تسمح له بالإقامة في حيفا أو يافا أو العراق أو جدة، لكنها رفضت طلبه واضطر الشريف للرضوخ لرغبة بريطانيا وقام بمغادرة العقبة إلى قبرص في٢٧ ذي القعدة ١٣٤٣هـ /١٨ يونيو ١٩٢٥م([4]). التي ظل فيها ست سنوات وعندما اشتد عليه المرض أذنت له الحكومة البريطانية بالسفر إلى الأردن التي ظل بها ستة أشهر،ثم توفي عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م وحمل إلى القدس ودفن في المقابر المجاورة للمسجد الأقصى([5]).

وبهذه النهاية المأسوية أسدل الستار على الخلافة الاسلامية وتفككت الدول العربية الإسلامية التي كانت واقعة تحت رعاية الدولة العثمانية، وأصبحت بلاد الشام ترزح تحت نار الاستعمار الأجنبي (الفرنسي والبريطاني)، وأصبحت كل دولة من الدول العربية تواجه مصيرها بنفسها ولا تجد من يمد لها يد المساعدة بعد أن قُضي على الدولة العثمانية التي كانت تمثل رمز الخلافة الإسلامية، كما أن العرب في بلاد الشام تفككوا وتخلى عنهم القادة الذين أطلقوا على أنفسهم (قادة الثورة العربية) وأصبح كلٌّ منهم يبحث له عن مجد بعيد عن الحرب والدخول مع

([1]) خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز،(دار العلم للملايين، بيروت،ط٥، ١٩٩٢م)، ج٢، ص٣٢٩ ـ٣٣٢ ؛ حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين، (دار الأفاق العربية، القاهرة، ط٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص٢٦٤.

([2]) الزركلي : شبه الجزيرة..، ج٢، ص٣٢٩ـ٣٣٢ ؛ فؤاد حمزة :المرجع السابق، ص٣٩٢ـ٣٩٤ ؛ صلاح الدين المختار، المرجع السابق، ج٢، ص٣٠٢ـ٣٠٣.

([3]) عبد الله بين الحسين : الآثار الكاملة، ص١٧٩ـ١٨٠ ؛ طالب وهيم : المرجع السابق ، ص٣٥٠ـ٣٥٥.

([4]) F.O 371 / 8946 NO(5175)Secret, From: Acting Consul Grafftey Smith (Jeddah), To : the Marquess Curzon , 22 May 1923 p529 ؛ أمين سعيد: أسرار الثورة...، ص٣٨٥

([5]) الزركلي : الأعلام ، ج٢ ، ص٢٥٠.

المستعمر في خلافات لن يحصل من خلالها على أي مجد او سلطة. وبذلك دخلت بلاد الشام في ثورات وحروب منفرده،سعياً وراء الاستقلال من سلطة المستعمر الأجنبي.



"أثر الانتداب الفرنسي على الحالة السياسية في سوريا ولبنان (١٣٤٢-١٣٥٩هـ/١٩٢٤-١٩٣٩م)"

المبحث الأول: الانتداب الفرنسي وأثره على الحالة السياسية في سوريا ولبنان.

المبحث الثاني: الكفاح الوطني في بلاد الشام ضد الاستعمار الفرنسي منذ سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

المبحث الثالث: مشكلة الاتصال والانفصال بين سوريا ولبنان وموقف فرنسا منه.

المبحث الأول: الانتداب الفرنسي وأثره على الحالة السياسية في سوريا ولبنان.

أ ــ الانتداب الفرنسي وأثره على الحالة السياسية في سوريا:

بعد معركة ميسلون انتقل مقر الحركة الوطنية من دمشق إلى القاهرة،حيث وحدوا قواهم ونظموا صفوفهم لاستئناف النضال السياسي من هناك بعدما تسلط على بلادهم الاستعمار الأجنبي واستولى عليها، ونفذوا مشروعهم الخاص بتقسيم سوريا إلى دول وحكومات. أرسل قادة الحركة الوطنية في سوريا في يوم الأربعاء غرة صفر ١٣٣٩هـ/١٣ أكتوبر ١٩٢٠م ثلاث برقيات: الأولى احتجاجية باسم الاتحاد السوري وقعها الأمير ميشيل لطف الله([١])، والثانية باسم المؤتمر السوري ووقعها رئيسه السيد رشيد رضا([٢])، والثالثة باسم المحكوم عليهم من الأحرار، وقد تضمنت البرقيات نقداً للدول الاستعمارية التي عاملت سوريا كغنيمة حربية تقاسمتها بينها، واحتجاج على قلب حكومة دمشق الوطنية إلى حكومة عسكرية أجنبية، تمزق وحدة البلاد وتعمل على تجزئة سوريا المتحدة بحجج واهية، وهي إجابة رغبات عدد قليل من الشعب([٣]) الذي لا يمثل الأغلبية([١]). ولكن هذه البرقيات لم يكن لها أي صدى أو أثر لدى الدول الكبرى، فمصلحة فرنسا كانت فوق كل إعتبار.

([١]) الأمير ميشيل بن حبيب بن جرجس لطف الله(١٢٩٧ــ١٣٨١هـ/١٨٨١ــ١٩٦١م): أصل أسرته من طرابلس الشام، ثم انتقلت إلى اللاذقية، وهو من العائلات الأورثوذكسية المهاجرة من الشام إلى مصر، سكن أبوه القاهرة ونجح في تجارته هناك حتى انه اشترى قصر الخديوي إسماعيل باشا، أنعمت الحكومة المصرية على أبيه بلقب باشا، خدم ميشيل الشريف حسين فمنحه لقب أمير سنة ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، شارك ميشيل في قضايا سوريا وثوراتها وترأس المؤتمر الفلسطيني السوري سنة١٣٤٠هـ/١٩٢٢م في جنيف، توفي في القاهرة. انظر: أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية، الحاشية ١، ج١، ص٤٣٧ــ٤٣٨.

([٢]) السيد رشيد رضا محمد رشيد رضا (١٢٨٢ــ١٣٥٤هـ/١٨٦٥ــ١٩٣٥م): ولد في طرابلس الشام أحد رجال الإصلاح الإسلامي، أصدر مجلة المنار، توفي في القاهرة. انظر: الزركلي: لأعلام، ج٦، ص١٢٦؛ أحمد الشوابكة: المرجع السابق، ص١٣.

([٣]) يقصد بذلك موارنة لبنان الذين كانوا يطالبون بفصل سوريا عن لبنان، وسوف نفصل في هذا الموضوع في سياق هذا الفصل.

ففي١٦ ذو الحجة ١٣٣٨هـ/ ٣١ أغسطس ١٩٢٠ تم إعلان دولة لبنان الكبير بعد أن فصلت سوريا عن لبنان، وترتب على ذلك توسيع متصرفية جبل لبنان بضم الأقضية الأربعة إليها وهي: حاصبيا ـ راشيا ـ بعلبك ـ البقاع. التي كانت تابعة لولاية دمشق، كما شمل الساحل بما فيه من مدن مثل ولاية بيروت وملحقاتها ومدينة طرابلس وصيدا والتي تسكنها أغلبية من المسلمين السنة والشيعة([٢]). وكان في هذا التقسيم خطأ جسيم ارتكبته فرنسا، إذ حولت الغالبية العظمى المسيحية في هذه الدولة الجديدة إلى أقلية بسيطة، مما ينذر بقيام صراع جديد داخل لبنان بين العناصر المسيحية والعناصر المسلمة، كما أن ضم موانئ بيروت وطرابلس إلى دولة لبنان الكبير يعتبر حرماناً لسوريا من مخارجها البحرية الطبيعية، وكان أخطر شيء في هذا التقسيم هو إذكاء الروح الطائفية داخل حدود هذه الدولة الجديدة، لأن المسيحيين شعروا بأنهم أقلية في هذه الدولة، وشعر المسلمون بأنهم فصلوا عن أقاليم كانوا مرتبطين بها. إن هذه السياسة كانت تهدف فعلاً إلى خلق صراع داخلي على أساس طائفي بين العرب أنفسهم داخل لبنان الكبير([٣])، لذلك نجد أن هذا العمل أدى إلى تجدد الصراع بين المسلمين والمسيحيين،بين فترة وأخرى في داخل لبنان الكبير،الذي أوجدته فرنسا، وفي كل مرة تتدخل فرنسا لصالح المسيحيين أو أن المسيحيين يستنجدون بحليفتهم فرنسا، وتدخل سوريا لصالح المسلمين أو يستنجد المسلمون بهم.

وإننا هنا نختلف مع دافيد فرومكين([٤]) الذي يرى أن توسع لبنان على هذا النحو، والذي أدى إلى سفك الكثير من الدماء بين العرب مسلمين ومسيحيين في السبعينات والثمانينات بأنه عمل لم يكن متعمداً من فرنسا، لأنها لم تقدر الأخطار الكامنة وراء هذا التوسع([٥])، وهذا في الحقيقة مغالطة تاريخية كبيرة، ففرنسا كانت على علم مسبق بما سيترتب من هذا التوسع الخطير

([١]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣،ص٢٥٧ـ٢٥٨ ؛ حسن القيسي نصر: قبسات من التراث الشعبي معارك وقصائد قراءات في تاريخ جبل العرب والثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥م، (ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م)، ص١٠١.

([٢]) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣،ص٢٢٠ـ٢٢١ ؛ عبد العزيز إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٦٧ ؛ صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٢٧.

([٣]) جلال يحيى: العالم العربي...، ج٢ ، ص٢٥٤ـ٢٥٥ ؛ دافيد فرومكين: المرجع السابق، ص٤٩٢.

([٤]) دافيد فرومكين: محام أمريكي متخصص في القانون الدولي. صدر له كتابان "استقلال الأمم" و"مسألة الحكومة". كتب في القضايا الدولية في مجلة "فورين آفيرز" وغيرها. يعيش في نيويورك، وهو عضو في " مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية". انظر: دافيد فرومكين: المرجع السابق، مقدمة المترجم أسعد كامل إلياس، الغلاف.

([٥]) سلام ما بعده سلام، ص٤٩٢.

من مشكلات وصراعات كانت قد ظهرت في السابق قبل توسع متصرفية جبل لبنان(أيام الدولة العثمانية)، وستزداد حدة وشراسة بعد توسع هذه المتصرفية، وفصلها عن بلاد الشام الكبرى.

ففي ١٢ ربيع الآخر ١٣٣٩هـ/٢٣ ديسمبر ١٩٢٠م تم الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على تحديد الحدود بين سوريا وفلسطين ووقعت بينهما معاهدة بذلك، على الرغم من اعتراض اللجنة المركزية لحزب الاتحاد السوري ورفضها فصل فلسطين عن مشروع سوريا الكبرى لما في ذلك من تعدى على حقوق العرب المشروعة في الوحدة والاستقلال(١).

وما أن وصل الجيش الفرنسي إلى سوريا بعد معركة ميسلون في ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م حتى فرض عليها الاحتلال العسكري حتى قبل صدور صك الانتداب، فألغيت صلاحيات الحكومة السورية، وسيطر الاحتلال العسكري على الجيش والأمن العام والجمارك والشركات، وخط سكة حديد الحجاز، وتحكمت بالتشريع غير الديني، وأخضعت الأوقاف لسلطتها المباشرة، وفرضت اللغة الفرنسية على الإدارات والمحاكم، والأهم من ذلك كله إثارة النعرات الإقليمية والطائفية ومنع الحريات، وزجوا في السجون كل من كان يطالب بالوحدة والاستقلال ومحاربة الاستعمار، وحكم المفوض السامي الفرنسي البلاد حكماً مطلقاً، ففرض الأحكام العرفية التي ظلت سارية حتى عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م(٢).

وفي٤ شعبان ١٣٤٠هـ/٢ إبريل ١٩٢٢م عاد إلى دمشق كراين رئيس اللجنة الأمريكية التي أجرت إبان العهد الفيصلي استفتاءً في بلاد الشام خرجت بنتيجته أن الشعب السوري يرفض الانتداب الفرنسي، وقام السيد كراين بزيارة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر(٣) وأبلغه أن

---

(١) أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، ص٢٥٨ــ٢٥٩.

(٢) زاهية قدورة: المرجع السابق، ص٢٦١ ؛ محمود شاكر ، إسماعيل ياغي:المرجع السابق،ص١٣٢.

(٣) الدكتور عبد الرحمن الشهبندر(١٢٩٦ــ١٣٥٩هـ/١٨٧٩ــ١٩٤٠م): ولد في دمشق تلقى علومه الابتدائية في مدارس الحكومة أيام الدولة العثمانية، درس الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت، عين أستاذاً وطبيباً في الجامعة نفسها، كان من أعضاء الجمعية العربية في دمشق، فر من دمشق عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى خوفاً من الإتحادين، استقر في مصر، أعطته بريطانية هو وستة من السورين ما عرف بعهد السبعة سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٨م، عاد إلى دمشق في١٣٣٧هـ/١٩١٩م وعهد إلية الملك فيصل بوزارة الخارجية، وبعد ميسلون غادر البلاد إلى القاهرة، وفي عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م عاد إلى دمشق لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وألقى القبض عليه الفرنسيون وظل في السجن سنة وسبعة أشهر تقريباً خرج من السجن في١ ربيع الأول ١٣٤٢هـ/١٢ أكتوبر ١٩٢٣م، سافر إلى أوربا وأمريكا لحشد الدعاية ضد الاحتلال الفرنسي، عاد إلى دمشق وألف حزب الشعب، وشارك الثورة السورية سنة١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، وعندما ضيق عليهم الفرنسيون غادر الجبل والغوطة إلى الأزرق في ربيع الأخر ١٣٤٥هـ/أكتوبر ١٩٢٦م ، ثم استقر في مصر، حكمت عليه الحكومة الفرنسية بالإعدام غيابياً لاشتراكه في الثورة، يطلق عليه السوريون لقب الزعيم، وعندما صدر العفو عنه عاد إلى البلاد في ٤ ربيع الأول ١٣٥٦هـ/١٤ مايو ١٩٣٧م، اغتيل في٣٠ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ/٦

الغاية من زيارته هي الاجتماع بأبناء البلاد ليطلع على ما حدث في آرائهم من تطورات، وعقد كراين عدة اجتماعات مع وجهاء دمشق كان أهمها الاجتماع الذي دعا إليه الدكتور عبد الحمن الشهبندر وحسن الحكيم[1] وسعيد حيدر، إذ اجتمع المدعوون في حديقة حسن الحكيم في٦ شعبان ١٣٤٠هـ/ ٤ إبريل ١٩٢٢م وبسطوا شكواهم عن الحال الحاضرة ومن التمادي في تجاهل حقوق الشعب السوري، وفي صباح٨ شعبان ١٣٤٠هـ/ ٦ إبريل ١٩٢٢م عندما عزم كراين على الرحيل اجتمع الآلاف لوداعه وهم ينشدون:

نحن لا نرضى الحماية   لا ولا نرضى الوصاية

نحن أولى بالرعاية   لبني العرب الكرام[2]

كان رد فعل الفرنسيين عنيفاً،بسبب هذا الموقف الشعبي ففي ٩ شعبان/ ٧ أبريل،قبضت السلطات الفرنسية على الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر...وغيرهم. وقد كان هذا الاعتقال بمثابة الشرارة التي أشعلت الفتيل، فهاجت الجماهير في دمشق بالمظاهرات، مما حمل السلطة على إعلان الأحكام العرفية، وبرغم ذلك استمرت المظاهرات، وفي ٢١ شعبان/١٩ إبريل بدأت محاكمة المعتقلين وأصدرت ضدهم أحكام بالسجن لمدد تتراوح من بين و الخمس سنوات والعشرين سنة، فقد حكم على الدكتور الشهبندر بالسجن مدت عشرين

يوليو ١٩٤٠م، واتهم رجال الكتلة الوطنية بتدبير حادث الاغتيال مع الفرنسيين. انظر: أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، الحاشية١ ، ج١، ص٥٢٢ ؛ دعد الحكيم: رسائل عبد الرحمن الشهبندر ١٨٧٩ــ١٩٤٠م تاريخ أمة في حياة رجل، (منشورات وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية سلسلة الدراسات التاريخية، دمشق، ٢٠٠٢م) ، ص٧ــ١٣ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٦٩٢ ؛ الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣٠٨.

[1] حسن الحكيم (١٣٠٣ــ١٤٠٢هـ/١٨٨٦-١٩٨٢): سياسي سوري. ولد في دمشق، ودرس فيها وفي الأستانة. عين مفتشاً عاماً للمالية في العهد الفيصلي١٣٣٧هـ/١٩١٨م ثم مديراً عاماً للبرق والهاتف. اتهم بتأخير البرقية التي تضمنت قبول الحكومة السورية لإنذار غورو، والذي اتخذته فرنسا ذريعة لاحتلال سوريا ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م، لكن= =ثبتت براءته من التهمة أمام ديوان الحرب العرفي السوري. هاجر إلى مصر ثم شرقي الأردن حيث عين وزيراً للمالية فيها سنة١٣٤٠هـ/١٩٢١م. لدى عودته إلى سوريا، اشترك في الحركة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي وحكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات١٣٤١هـ/١٩٢٢م، لكن أطلق سراحه عام١٣٤٢هـ/١٩٢٣م. عين أميناً لحزب الشعب١٣٤٣هـ/١٩٢٤م. شارك في الثورة السورية الكبرى١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، وحكم عليه بالاعدام، فهرب إلى الأردن ومصر وفلسطين والعراق حيث عمل في مجال المالية. عاد إلى سوريا١٣٥٦هـ/١٩٣٧م وعين مديراً عاماً للأوقاف ثم وزيراً للمعارف ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م. عين رئيساً للوزراء١٣٦٠ــ١٣٦١هـ/١٩٤١-١٩٤٢م ومرة أخرى سنة١٣٧٠هـ/١٩٥١م لمدة أربعة أشهر. انظر: الموقع على الانترنت: http://www.damascus-online.com/Arabic/se-a/bio/hakim_hassan.htm

[2] أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، ص٢٤٥ــ٢٤٦ نصوح بابيل : المرجع السابق ، ص٤١.

سنة، وحسن الحكيم بعشر سنوات، وسعيد حيدر بخمس عشرة سنة، وكان جواب دمشق على هذه الأحكام إضراب شامل استمر أسبوعاً، وانتقلت فيه روح التمرد إلى جميع المدن السورية، وقد تم نقل المحكوم عليهم إلى جزيرة أرواد([1]) ودام اعتقالهم حتى١٢ ربيع الأول ١٣٤٢هـ/٢٣ أكتوبر ١٩٢٣م، حيث أفرج عنهم تحت ضغط الشعب السوري الذي هاج وماج بسبب هذه الأحداث([2]).

ونظراً لمقاومة الشعب السوري لسياسة الانتداب الفرنسي والتجزئة صدر في ٢٦ شوال ١٣٤٠هـ/٢٢ يونيو ١٩٢٢م قرار بإنشاء اتحاد بين دمشق وحلب واللاذقية(دولة العلويين)، ولكن للأسف ظلت هذه الحكومات الثلاثة منفصلة في شؤونها الداخلية جميعها([3])، نظراً لقوة قبضة المستعمر عليها، ولكونها حكومات جديدة ناشئة لم تتعود على أن تحكم نفسها بعد خروج العثمانيين من بلاد الشام.

وفي٢٨ ذو القعدة ١٣٤٠هـ/٢٤ يوليو ١٩٢٢م،أقر مجلس جمعية عصبة الأمم في لندن صك الانتداب الفرنسي([4]) على سوريا ولبنان([5]). وقد واجهت الجنرال غورو الثورات المتتالية،بسبب معارضة الشعب السوري للانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، وخاصة في جبل عامل وحوران، حيث تعرض الجنرال غورو لمحاولة اغتيال في القنيطرة ١٣٤١هـ/١٩٢٣م، فأرسل غورو حملة عسكرية دمرت العديد من القرى، ولم يكتف بذلك بل طلب من حكومته مده بقوة إضافية فرفض طلبه([6])، فقد احتج الشعب السوري على السياسة الفرنسية وأرسلوا إلى عصبة الأمم يستنكرون أساليب الحكم الفرنسي الذي لا يتقيد حتى بنظام الانتداب، حينئذ قرر غورو إنشاء مجلس تمثيلي لكل دولة، لكن دولة دمشق قاطعت هذه الانتخابات وأضربت عشرة أيام، فعين غورو أعضاء المجلس دون انتخاب، واستدعت الحكومة الفرنسية الجنرال غورو الذي استقال من منصبه في ٢ رمضان ١٣٤١هـ/ ١٩إبريل ١٩٢٣م، وأرسلت مكانه الجنرال

([1]) جزيرة أرواد: جزيرة سوريا تجاه طرطوس قرب الشاطئ ، طولها ٨٥٠م، وعرضها ٤٥٠م، ومساحتها ٢٠ هكتار، فيها آثار فينيقية وصليبية. انظر: ميشال اسطفان: المرجع السابق ، ص٩٢ـ٩٣ ؛ المنجد، ص٤٠.

([2]) حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر حياته وجهاده، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٩ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٤٦ـ٢٤٩ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٤١ـ٤٢ ؛ نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٣٧.

([3]) أمين سعيد : الثورة العربية،ج٣، ص٢٢٨ـ٢٢٩ ؛ محمود شاكر ، إسماعيل ياغي:المرجع السابق، ص١٣٣.

([4]) انظر صك الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان في ملحق الوثائق الملحق رقم ٣.

([5]) أمين سعيد : الثورة العربية، ج٣، ص٢٢٩.

([6]) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣، ص٢٤٠ـ٢٤٥ ؛ الجنرال أندريا: ثورة الدروز وتمرد دمشق، ترجمة وتعليق: حافظ أبو مصلح، (المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م)، ص٧٣.

ويغاند Weygand (١٣٤١ــ١٣٤٣هــ/١٩٢٣ــ ١٩٢٤م) الذي هدأت الأحوال بعض الشيء في عهده، وفي ٨ جمادى الأولى ١٣٤٣هــ/٥ ديسمبر ١٩٢٤م ألغى الاتحاد الذي كــان قائمــاً بين دول دمشق وحلب واللاذقية، وأعلن في الوقت نفسه عن تأليف الدولة السورية من دمشــق وحلب وعهد برئاستها إلى صبحي بركات(١) لأنه من الموالين لفرنسا، ولم تمنحه ســـــــلطات الانتداب أي صلاحيات(٢).

ولكن على الرغم من هذه الإجراءات فإن الشعب السوري لم يقبل ببقاء الاســتعمار، ولــم يستسلم أو يستكن بل استمر في نضاله وثوراته في وجه الانتداب حتى قيــام الثــورة الســورية الكبرى في١ محرم ١٣٤٤هــ/٢٢ يوليو ١٩٢٥م والتي قامت في عهد الجنرال ســـرايSarrai (١٣٤٣ــ١٣٤٤هــ/١٩٢٤ــ١٩٢٥م) بعد أن تسلم اليســاريون(٣) الحكــم فــي فرنســا ســنة ١٣٤٣هــ/١٩٢٤م فعزلوا ويغاند،وعينوا بدلاً عنه الجنرال سراي الذي وصل إلى بيروت يــوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هــ/٢٢ ديسمبر ١٩٢٤م(٤)، وأن أهم الإنجازات التي تمت في

---

(١) صبحي بن رفعت آغا بركات الخالدي(١٣٠٧ــ١٣٥٩هــ/١٨٨٩ــ١٩٤٠م): كان من زعماء الثورة في أنطاكية ضد الفرنسيين عند ما دخلوا سوريا عام١٣٣٨هــ/١٩٢٠م، تولى رئاسة دولة حلب ودمشق بناءً علــى ترشــيح الكردينال بتوني وهو سرياني من أبناء ماردين كان يعمل في خدمة السلطة الفرنسية، تركي الأصل ولــم يكــن يحسن العربية. ونلاحظ أنه متقلب في إتجاهاته السياسية فهو تارة مع الفرنسيين وتارة ضــدهم. انظــر: أمــين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية، الحاشية ٢، ج١، ص٣١٨ــ٣١٩ ؛ ظاهر محمد الحسناوي : شكيب أرسلان الدور السياسي الخفي، ودوره في حركة النهضة العربية الحديثة ١٨٦٩ــ١٩٤٦م، (دار رياض الريس للنشــر، لندن، ط١، ٢٠٠٢م)، الحــــــــــاشية ٢٨ ، ص١٢٨ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.178.

(٢) أمين سعيد: الثورة العربية،ج٣، ص٢٤٣ــ٢٥٤ ؛ منير الريس: الكتاب الذهبي للثورات الوطنية فــي المشــرق العربي الثورة السورية الكبرى، دار الطليعة، بيروت ، ط١، ١٩٦٩م، ص١٥٣ــ١٥٤ ؛ مصــطفى الشــهابي: محاضرات في= = الاستعمار، (جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٦م)، ج٢، ص١٤٢ــ١٤٣ ؛ والحاشية رقم ١ ، ص١٥١ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٢٦٠.

(٣) اليساريون: أو الجناح اليساري هو تعبير نشأ مع قيام الجمعية الوطنية الفرنسية إبــان الثــورة الفرنســية عــام ١٢٠٣هــ/١٧٨٩م إذ كان الأشراف من أعضاء الجمعية يجلسون على اليمين رئيس المجلــس، بينمــا يجلــس ممثلوا الشعب إلى اليسار، وتوسع استخدام هذا الاصطلاح بقيام الأحزاب السياسية، فأصبح المؤيدون للحكومــة القائمة يعرفون باليمين، والمعارضون باليسار. وبالنسبة للمفوضين الفرنسيين الذين كانوا في سوريا كان غــور وويغان من العناصر اليمينية التي علا شأنها في فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى. أما الجنرال سراي فقد كــان من الأحزاب اليسارية. للمزيد من المعلومات عن الأحزاب اليمينيــة واليســارية فــي فرنســا انظــر: نجيــب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٢٥ وص٥١ــ٥٤ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٤٢٢.

(٤) أسعد الكوراني: ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفعلت، (دار ريــاض الــريس للنشــر، بيــروت، ط١، ٢٠٠٠م)، ص٩١.

في عهد هذا الجنرال هو إنشاء حزب الشعب([1]) وهو أول حزب سياسي أنشئ رسمياً في سوريا بعد الاحتلال الفرنسي لقيادة الحركة الوطنية وتنظيمها، وأنشئ لهذا الحزب فـروع فـي حلـب وحمص وحماة واتصل باللجنة التنفيذية في مصر وبالوفد السوري في أوربا وبرجـال سـوريا العاملين في الساحل وزعماء جبل الدروز وبذوي الرأي والفكر من أبنـاء الـبلاد، وعلـى يـد أعضاء هذا الحزب انتعشت الحياة السياسية والحركة الوطنية في سوريا([2]).

لقد كانت السلطة في سوريا ولبنان بكاملها محصورة في يد المفوض السـامي الفرنسـي سراي الذي عمل فيما بعد على حل حزب الشعب، واعتقال عـدد مـن أعضـائه، وأصـدرت الجمهورية الفرنسية في ٦ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/٢٣ نوفمبر ١٩٢٥م مرسوماً جمهورياً حدد فيه صلاحيات المفوض السامي، حيث جاء فيه:" تشرف فرنسا على الإدارة المحلية عبر ممثلهـا المسمى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان" ويقصد بـ " الإدارة المحليـة" تلك الحكومات التي شكلتها فرنسا في مختلف مناطق البلاد، وكانت تخضع كلها للمفوض السامي الفرنسي، الذي ينظم إدارة البلاد ويوافق على قرارات الحكومات المحلية أو يرفضها، كما يـدير دوائر "المفوضية العليا"([3])، ويمثل المفوض السامي سوريا في الخارج، ويعتبر الوسيط الوحيـد بين الحكومات المحلية والقناصل الأجنبية. ويعين مستشارين فرنسيين مطلقـي الصـلاحية فـي

([1]) أسماء أعضاء لجنته الإدارية: حسن الحكيم ، لطفي الحفار ، فوزي الغزي ، سعيد حيدر ، إحسـان الشـريف، توفيق شامية ، فارس الخوري ، عبد المجيد الطباخ ، أبو الخير الموقع ، أديب الصفدي. وأسندت زعامة الحزب للدكتور عبد الرحمن شهبندر وتولى حسن الحكيم أمانة السر، وأبو الخير الموقع أمانة الصندوق. أما أهداف هذا الحزب فكانت كالآتي:١ـ الاعتراف بالسيادة الوطنية لسوريا؛ ٢ـ وحدة سوريا بحدودها الطبيعية ؛ ٣ـ حريـة الفرد والصحافة والجمعيات ؛ ٤ـ حماية الصناعة الوطنية وتطوير مصادر البلاد الاقتصـادية ؛ ٥ـ تربيـة الشعب بروح الديموقراطية الاجتماعية والوحدة المدنية ؛ ٦ـ إصلاح نظام التعليم الشعبي. انظر: أمين سـعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٨٦ـ٢٨٧ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١٦٠.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٥٥ـ وص٢٨٤ـ٢٨٧ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٤٨ـ٤٩ ؛ محمد هواش: المرجع السابق، ص١٥٦.

([3]) المفوضية العليا: المفوض الأعلى هو ممثل قوة الانتداب وهو المسؤول الأساسي عن الإدارة في سوريا ولبنان، والمفوضية العليا مؤلفة من الموظفين والضباط الفرنسيين، ولجنة استشارية سياسـية وعسـكرية واقتصـادية، وتعليمية، بالإضافة المباحث والمخابرات وما يسمى بـ "القسم السياسي" وإدارة الجمارك والبريد والتلغراف، كما كانت تسيطر على الشركات ذات الامتياز. وكانت المفوضية العليا تذيع مراسيمها وتوجيهاتها دون تشـاور مـع الحكومات المحلية أو المجالس التمثيلية. انظر: مصطفى الشهابي: المرجـع السـابق، ج٢، ص١٣٥ـ١٣٦ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجـع السـابق، ص١١٨ـ١١٩ ؛ A. H. Hourani: Syria and Lebanon A Political Essay,(Oxford University Press, London), p.170.

مختلف دوائر الحكومات المحلية. ويحكم المفوض السامي في النزاعات بين الحكومات المحليــة، ويشرف على عقد الاتفاقات فيما بينها، ولديه القدرة على إلغائها([1]). ومــن هنــا نلاحــظ مــدى السيطرة التي فرضها الانتداب الفرنسي على البلاد، فقد سادت القوة والجبروت العقل والحكمــة، مما أدى إلى تذمر الشعب السوري ووقوفه في وجه الانتداب الفرنسي، ومواجهته علــى الــرغم من قلة إمكاناته المادية والعسكرية، ومحاصرة سلطات الانتداب له.

إن هذه السياسة التعسفية كانت الســبب فــي اشــتعال نــار الثــورة الســورية الكبــرى عام١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، وسبباً في إنهاء عهد الجنرال سراى وعهد الحكم العسكري، لتبدأ مرحلة جديدة من الحكم عين لها مندوب سامي جديد غير عسكري لكنه سفاح وهو هنري دي جوفنيل Henry De Jouvenel([2])، وهذا التغير يدل على رغبة فرنسا في قمع الثــورة عــن طريــق التفاوض إذا لم تنجح القوة، وقد وصــل دي جوفنيــل إلــى بيــروت فــي جمــادى الآخــرة ١٣٤٤هـ/ديسمبر ١٩٢٥م، وعمل على تهدئة الأوضاع في البلاد([3])، حيث قال في بيروت يوم وصوله كلمته المشهورة: " أود العمل مع السوريين في أقصى الحدود الممكنة، فالسلم لمن يريــد السلم والحرب لمن يريد الحرب"([4]). وكان أول عمل قام به عند وصوله أن طلــب مــن وزارة الحربية إرسال ٥٠ ألف عسكري على جناح السرعة لإخماد الثورة فلبت الحكومة طلبه وبــدأت ترسل النجدات إليه تدريجياً([5]). وبهذا برهن هذا المندوب عن نوع السياسة التي تدير بها فرنسا المناطق الخاضعة لها، واتباعها سياسة القتل والدمار للشعوب العربية الاسلامية في بلاد الشــام وغيرها.

([1]) مصطفى الشهابي : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٣٦ــ١٣٨ ؛ فلاديمير لوتســكي : المــــــرجع الســابق ، ص١١٨ــ١١٩.

([2]) هنري دي جوفنيل Henry De Jouvene : رابع مندوب سامي فرنسي في سوريا ولبنان، وهو عضو مجلس الشيوخ الفرنسي، كما أنه أول مندوب سامي مدني، ظل في منصبه مدة ستة أشهر أي مــن جمــادى الأولــى ١٣٤٤هـ/ديسمبر١٩٢٥م إلى ١٦ ذي القعدة ١٣٤٤هـ/ ٢٨ مايو ١٩٢٦م، حاول قمع الثورة الســورية عــن طريق التفاوض، لكن هذه الطريقة لم تروق للحكومة الفرنسية التي استبدلته بعد ستة أشــهر، بهنــري بونســو. انظــر:= Philips Khouria: Syria and the French man date The politics of Arab = nationalism 1920-1945 ,(Princeton University Press, New Jersey- Princeton), p.245.

([3]) سلمى الحفار الكزبري: لطفي الحفار(١٨٨٥ــ١٩٦٨م) مذكراته حياته وعصره، (دار رياض الــريس للنشــر، لندن، ط١، ١٩٩٧م)، ص١٤٣ ؛ سليمان المدني: المرجع السابق، ص٣٤.

([4]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٤٤ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٦١.

([5]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٤١ــ٣٤٢.

وعلى الصعيد السياسي فقد قدم صبحي بركات استقالته من رئاسة الحكومة السورية في٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ/٢٢ ديسمبر١٩٢٥م([1])، لأنه رأى " أن هذه البلاد لا يستقر قرارها الحقيقي ...إلا إذا أجيبت مطالبها العادلة، مثل تأليف مجلس تأسيسي يضع قانونها الأساسي على أساس السيادة القومية وإنشاء حكومة دستورية تكون وحدها مسؤولة عن سيادة البلاد.."([2]). وعلى الرغم من أن الاستقالة لم تأتي في وقتها فكان يجب على رئيس الحكومة الصمود ومحاولة الوقوف في وجه الانتداب.

وعلى أية حال فإن سلطات الانتداب لم تهتم بموضوع الاستقالة، حيث دعا المندوب السامي الفرنسي جوفنيل الشيخ تاج الدين الحسني([3]) وطلب منه تأليف حكومة مؤقتة في ٨ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ/٢٤ ديسمبر ١٩٢٥م، كما قام جوفنيل بوعد السوريين بتوقيع معاهدة سورية فرنسية تحصل سوريا بموجبها على الاستقلال، وذلك عندما زار دمشق لأول مرة في ٢٣ رجب ١٣٤٤هـ/٧ فبراير ١٩٢٦م([4])، ثم قام بتعين الداماد أحمد نامي([5]) رئيساً للدولة والحكومة في ١٣شوال ١٣٤٤هـ/٢٦ ابريل ١٩٢٦م([6])، وقد عمل الدماد أحمد نامي على تأليف وزارة جديدة نصفها من الوطنيين المعروفين بالمتطرفين أو المعارضين للانتداب ومنهم حسني البرازي([7]) وفارس الخوري([1]) ولطفي الحفار([2])، ونصفها الآخر من المعتدلين الذين لهم

([1]) انظر نص الاستقالة في أمين سعيد: الثورة العربية: ج٣، ص٣٨٦ والتي يذكر أسعد الكوراني في كتابه: "ذكريات وخواطر" ص٩١ أن الذي كتب هذه الاستقالة لصبحي بركات هو نجيب الأرمنازي. بينما نجيب الأرمنازي لم يشير إلى ذلك في كتابه:"سوريا من الاحتلال إلى الجلاء"، ص٥٨.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣،ص٣٨٦.

([3]) الشيخ تاج الدين الحسني المراكشي(١٣٠٧ـ١٣٦٢هـ/١٨٩٠ـ١٩٤٣م): من رجال السياسة في سوريا قام بتشكيل حكةمة مؤقتة في ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، ثم شكل الوزارة في(١٣٤٦ـ١٣٤٩هـ/١٩٢٨ـ١٩٣١م) وفي (١٣٥٣ـ١٣٥٥هـ/١٩٣٤ ـ١٩٣٦م)، أصبح رئيساً للجمهورية عام١٣٦٠هـ/١٩٤١م ومات وهو في منصبه، ودفن بجانب أبيه العالم والمحدث محمد بن بدر الدين في مسجد صغير ضمن مقابر الباب الصغير. انظر: ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥١٢ـ٥١٣ ؛ دعد الحكيم: المرجع السابق، الحاشية١ ، ص١٥٠.

([4]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٣٣٨ ؛ الثورة العربية ج٣،ص٣٨٦ـ٣٨٧ ؛ نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص ٥٨ ؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٩١ـ٩٤.

([5]) الداماد أحمد نامي: ولد في بيروت عام١٢٩٥هـ/١٨٧٨م، تعلم في اسطنبول وتزوج الأميرة عائشة ابنة السلطان عبد الحميد الثاني، لذلك يطلق عليه لقب داماد وهي كلمة تركية تعني الصهر وهي تطلق على كل من يتزوج من إحدى الأميرات بنات سلاطين بني عثمان. انظر: سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٤٨ـ١٤٩.

([6]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٤٢٣ ؛ عبد الرحمن الكيالي: الجهاد السياسي، مطبعة المكتبة العصرية، حلب، ط١، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م، ص٧١ ؛ سليمان المدني: المرجع السابق، ص٣٤.

([7]) حسني البرازي: ولد بمدينة حماة سنة١٣١٠هـ/١٨٩٣م، درس في اسطنبول وتولى متصرفية حمص في العهد الفيصلي، ساهم في تأسيس الكتلة الوطنية،وشارك في وضع الدستور السوري، تولى رئاسة الوزراء والداخلية

لهم علاقات حسنة مع سلطات الانتداب الفرنسي ومنهم شاكر نعمة الشعباني، وواثق المؤيد، وذلك بناءً على اتفاق تم بين الوطنيين والحكومة الفرنسية([3]).

وقد أعدت الحكومة الجديدة برنامجاً([4]) عملت على تنفيذه وعرضته على المسيو دي جوفنيل ومن أهم بنود البرنامج:

١. دعوة الجمعية التأسيسية لتتولى سن دستور البلاد على قاعدة السياسة القومية.
٢. تحويل الانتداب إلى معاهدة تعقد بين فرنسا وسوريا لمدة ثلاثين سنة تحدد فيها الحقوق والواجبات وطبيعة العلاقات المتبادلة بين الطرفين.
٣. تحقيق الوحدة السورية.
٤. توحيد النظام القضائي على قاعدة السيادة القومية.
٥. تأليف جيش وطني بحيث تتمكن القوات الفرنسية من الجلاء التدريجي من البلاد.
٦. طلب إدخال سوريا في عصبة الأمم.
٧. إصدار عفو عام عن جميع المعتقلين السياسيين.

في١٣٦١هـ/١٩٤٢م، عين محافظ حلب في ٧ جمادي الأخرة ١٣٦٨هـ/٥ إبريل ١٩٤٩م أصدر جريدة الناس، وعندما توقفت سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م سافر خارج البلاد، ويقال أنه كان على صلة بالوكالة اليهودية. انظر: أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، الحاشية ٢، ج١، ص٥٥٥ـ٥٥٦.

([1]) فارس الخوري(١٢٩٠ـ١٣٨١هـ/١٨٧٣ـ١٩٦٢م): ولد في قرية الكفير التابعة لقضاء حصبيا ـ الواقعة حالياً في جنوب شرق لبنان ـ، كان من النواب المسيحيين في مجلس المبعوثان العثماني، عين في عدد من المناصب المهمة بعد خروج العثمانيين من الشام. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٥، ص١٢٨ ؛ أحمد عطية الله : المرجع السابق، ص٨٤٦.

([2]) لطفي الحفار(١٣٠٣ـ١٣٨٧هـ/١٨٨٥ـ١٩٦٨م): من مواليد دمشق، درس فيها العلوم الدينية والتاريخ الإسلامي، ولكنه على الرغم من ذلك كان من المؤمنين بالمبادئ القومية، ففي عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م أسس جمعية النهضة العربية السرية التي كانت تعمل لبث مبادئ القومية العربية، تعرض للسجن والنفي عدة مرات في ظل الانتداب الفرنسي، فهو من رجال الاقتصاد ومن مؤسسي الكتلة الوطنية في سورية، وعمل على تنفيذ مشروع المياه الفيجة وجرها إلى منازل دمشق، كما تولى العديد من المناصب في سورية في ظل الانتداب، أتهم باغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عام١٣٥٩هـ/١٩٤٠م. توفي في ٥ ذي القعدة ١٣٨٧هـ/٤ فبراير ١٩٦٨م عن عمر يناهز ٨٤ سنة. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٢٤٣ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٣ـ٣٨.

([3]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٤٤ـ١٤٩ ؛ نصوح بابل: المرجع السابق، ص٦٤ـ٦٥.

([4]) انظر أعمال البرنامج في ملحق الوثائق الملحق رقم ٤.

٨. إلغاء الغرامات المالية عن دمشق وتعويض منكوبي ثورة عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م([١]). ويظهر من هذا البرنامج رغبة الحكومة في إخراج فرنسا من البلاد وتوحيدها.

في١٦ ذو القعدة ١٣٤٤هـ/٢٨ مايو ١٩٢٦م سافر المندوب السامي هنري دي جوفنيل إلى باريس ليعرض على حكومته الوضع الداخلي في سوريا وبنود الاتفاق الذي عقدة مع الوطنيين هناك، ووعد بأن يعود سريعاً ومعه التفويض المطلق لتطبيق هذا الاتفاق، كما أنه تعهد بتحقيق الوحدة السورية وبحق سورية في الحصول على مرفأ بحري، وسلخ الأقضية الأربعة وطرابلس وعكار على طول خط سكة الحديد إلى بعلبك فتتصل طرابلس بدمشق مباشرة، دون أن تمر سكة الحديد بأرض لبنانية([٢]). وبعد أن قطع دي جوفنيل هذه العهود على نفسه في وثيقة رسمية محفوظة عند الداماد أحمد نامي في شوال ١٣٤٤هـ/أواخر شهر إبريل ١٩٢٦م، أعلن الدستور اللبناني في يوم ١١ ذو القعدة ١٣٤٤هـ/٢٣ مايو ١٩٢٦م([٣]) والذي ينص على أن لبنان وحدة لا تتجزأ ولا يمكن التنازل عن أي جزء منها([٤])، والذي سوف نتطرق إليه في حينه عندما نتحدث عن لبنان الكبير.

ونظراً لتناقض الوعود التي قطعها المسيو دي جوفنيل فإنه بدلاً من أن يعود سريعاً اضُطر للاستقالة وهو في باريس، لخلاف حصل بينه وبين الوزارة الفرنسية حول بنود الاتفاقية، التي رأت فيها الحكومة الفرنسية أنها تضر بمصالحها الاستعمارية في سوريا ولبنان([٥])، وعينت الحكومة الفرنسية المسيو هنري بونسوHenri Ponsot([٦]) بدلاً عن دي جوفنيل([٧]).

([١]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٢٦ــ٤٢٧ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٤٩ــ١٥٤.

([٢]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ٨.

([٣]) هناك خطأ في التاريخ عند أمين سعيد وإننا لا ندري هل هو من المؤلف أم من الناشر فالتاريخ الصحيح هو ٢٣ مايو ١٩٢٦م، وليس كما هو موجود في كتاب الثورة العربية ٢٥ مايو ١٩٢٥م. انظر: ج٣، ص٤٢٩.

([٤]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٢٨ــ٤٢٩ ؛ نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٦١ــ٦٣.

([٥]) فلا يمكن أن تتم الوحدة السورية بعد أن أوجدت فرنسا دولة لبنان الكبير الذي تعهدت برعايته لتواجه به المسلمين الذين يسعون للوحدة ولم الشمل.

([٦]) المسيو هنري بونسوHenri Ponsot: خامس مندوب سامي فرنسي في سور يا ولبنان ظل في منصبه مدة سبع سنوات من صفر ١٣٤٥هـ/أغسطس ١٩٢٦م إلى جمادى الأخرة ١٣٥١هـ/ أكتوبر ١٩٣٢م، قضى سنواته السبع متمسكاً بالتريث والانتظار، ولم يكن متعجلاً في إيصال الانتداب إلى غايته المرسومة، خوفاً اشعال ثورات جديدة في وجه الاستعمار. انظر:أحمد طربين: الوحدة العربية بين(١٩١٦ــ١٩٤٥م) بحث في تاريخ العرب الحديث منذ قيام الثورة العربية حتى نشؤ جامعة الدول العربية، (معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية القاهرة ، ١٩٥٩م)، ص٤٠ــ٤١.

([٧]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٥٥. ؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٩٤.

أما في سوريا فقد تعرض الداماد أحمد نامي ووزارته إلى إنتقادات كبيرة، فالشعب السوري وجد أن سياسته كانت في خدمة الانتداب الفرنسي الذي قمع الثورة السورية ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م بقوة جيشه، وكان الداماد إذا زار إحدى المحافظات أغلقت الشوارع واحتجب الناس، وظل الوضع كذلك إلى أوائل سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، حيث استغنى الانتداب الفرنسي عن خدمات الدماد أحمد نامي، وجاء بالشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للوزارة للمره الثانية([1]). ويظهر من ذلك أن الحكومة الفرنسية كلما وجدت نفسها في مأزق أتت بالشيخ تاج الدين الحسني ريثما تعيد ترتيب أوراقها، فكما هو معروف عند الشعوب العربية وخاصة الاسلامية أنهم يرحبون بكل من أطلق عليه لقب شيخ لأنهم يتوسمون فيه الخير ولاصلاح.

وفي شوال ١٣٤٦هـ/إبريل ١٩٢٨م استجابت السلطة الفرنسية المحتلة لمطالب الشعب السوري بإجراء انتخابات عامة، وإنشاء المجلس التأسيسي الذي انعقد في ذي الحجة ١٣٤٦هـ/يونيو ١٩٢٨م، وقام بوضع أول دستور للبلاد، لكن المندوب السامي الفرنسي المسيو بونسو اعترض على مضمون هذا الدستور وعطل المجلس التأسيسي([2])، وأضاف إلى مواد الدستور ما يجعل كل الأمور في يده، مما دفع برجال الكتلة الوطنية([3]) إلى عقد اجتماع في حلب دعوا فيه إلى عقد عدد من المؤتمرات انتخبوا خلالها إبراهيم هنانو زعيماً للكتلة الوطنية،

([1]) أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٩٤.

([2]) أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٩٦ ؛ جميل إبراهيم باشا : نضال الأحرار في سبيل الاستقلال ، (مطبعة الضاد، ١٩٥٩م)، ص٤٣ـ٤٧؛ زهير شلق: المرجع السابق، ص١١٧؛ Philips Khouria:Op.Cit.pp.245–246 .

([3]) الكتلة الوطنية: هم رجال حزب الاستقلال العربي الذي نشأ في دمشق إبان العهد الفيصلي، والذين ألفوا= =حزب الشعب في ظل الانتداب الفرنسي وقادوا الحركة الوطنية في دمشق، ومن أهم أعضائها عبد الرحمن الشهبندر، وحسن الحكيم، ولطفي الحفار، وفارس الخوري، ..وغيرهم، لكن الفرنسيين عملوا على شق صفوف حزب الشعب فكون هؤلاء المنشقين الكتلة الوطنية بزعامة هاشم الأتاسي، وقد حلت هذه الكتلة محل حزب الشعب في قيادة الحركة الوطنية في سوريا ولبنان، وكان من أعضائها بعض الشخصيات اللبنانية مثل عبد الحميد كرامي، ورياض الصلح، وعبد اللطيف البيسار، ومحمد عارف الحسن الرفاعي (طرابلس)، وعبدالرحمن بيهم(بيروت)، والأميران أمين أرسلان وشكيب أرسلان(جبل لبنان)، وسعيد حيدر (بعلبك)، وكانت هي الجانب المفاوض للسلطات الفرنسية من أجل وضع الدستور والتوقيع على المعاهدات. انظر: سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٣٥ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، الحاشية ٢، ج٣، ص٢٤٠ ، وللمزيد من المعلومات حول مبادئ الكتلة الوطنية انظر: نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٩٠ـ ٩٣ ؛ أحمد محمودي : الأحزاب والتنظيمات السياسية في سورية إبان عهد الانتداب الفرنسي (بين أواخر العشرينات ومنتصف الثلاثينات)، (مجلة تاريخ العرب والعالم ، دار النشر العربية، بيروت، العدد ٢٢١، السنة ٢٦، مايو ـ يونيو ٢٠٠٦م)، ج٣٠، ص٧٩ـ٨٢.

وهاشم الاتاسي رئيساً لها وسعد الله الجابر([1]) نائباً للـرئيس. أمـا الأعضـاء فكـانوا شـكري القوتلي([2])، وعبد الرحمن الكيالي([3])، وفارس الخوري ، واتفق المجتمعون على تعطيل الدستور قبل أن يرى النور([4]). ونلاحظ هنا هدوء الأحوال لمدة عامين في سوريا، وهنا نعتقد أن السـبب في ذلك هو العنف الذي سلكه الفرنسيون في قمع الثورة السورية الكبرى(١٣٤٤ــ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٥ــ١٩٢٧م)، والذي أدى إلى إضعاف قوة الشعب السوري وإحباط لروحهم المعنوية.

فبعد حوالي عامين في ٢٣ ذي الحجة ١٣٤٨هـ/ ٢٢ مايو ١٩٣٠م تم إعلان الدسـتور، وفي العام الذي يليه جرت انتخابات لتشكيل مجلس نيابي، ثم ألغيت بسبب تدخل سلطة الانتـداب في حرية الانتخاب([5]) وقيامهم بتزوير نتائج الانتخابات، فقد كان هناك مرشحين للكتلة الوطنيـة في جميع المناطق الانتخابية ضد المرشحين المتعاطفين مع سلطات الانتداب، ونتيجـة لتزويـر نتائج الانتخابات، حصل عصيان في دمشق نتج عنه وقوع سبعة قتلى وأربعين جريحـاً، الأمـر

([1]) سعد الله بن عبد القادر لطفي الجابري(١٣٠٩ــ١٣٦٦هـ/١٨٩٢ــ١٩٤٧م): ولد ونشأ في حلب و وتعلـم فـي اسطنبول، كان ضابطاً في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، وبعد الحرب أصبح زعيم مدينة حلـب، تولى مناصب عدة في سوريا فترة الانتداب منها رئاسة الوزراء ورئاسة مجلس النواب، سجن وطرد مـن قبـل السلطات الفرنسية، توفي في حلب ودفن إلى جانب إبراهيم هنانو. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٨٨ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، الحاشية ١، ج١،ص٣٢٧.

([2]) شكري القوتلي(١٣١٠ــ١٣٨٦هـ/١٨٩١ــ١٩٦٧م):من مواليد دمشق، كان أمين سر جمعية العربيـة الفتـاة، اعتقله أحمد جمال وحاول الانتحار حتى لا يذكر أسماء أعضاء الجمعية، وعندما احتل الفرنسيون سوريا طلبـوه وحكموا عليه بالإعدام غيابياً، فر إلى مصر ثم عاد إلى دمشق عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م وتولى عدداً من المناصب القيادية منها رئاسة الجمهورية السورية مرتين، توفي ببيروت. انظر: الزركلي: الأعلام،ج٣، ص١٧٢ــ١٧٣ ؛ ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥١٤ ؛ حبيب الزحلاوي: ما رأيت وما سمعت في سوريا ولبنـان(٢)، (مجلـة الرسالة، دار الرسالة، القـاهرة ، العـدد ٩٠٧، السـنة ١٨، ٩ صـفر ١٣٧٠هـ/ ٢٠ نـوفمبر ١٩٥٠م)، ص١٣٠٧ــ١٣٠٨.

([3]) عبد الرحمن الكيالي(١٣٠٤ــ١٣٨٩هـ/١٨٨٧ــ١٩٦٩م): طبيب من رجال السياسية في سورية، حلبي المولـد والوفاة، درس الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت، كـان رئـيس أطبـاء المستشـفى الـوطني فـي حلـب (١٣٣٦ــ١٣٣٨هـ/ ١٩١٨ــ١٩٢٠م)، نفاه الفرنسيون عام١٣٤٤هـ/١٩٢٦م إلى جزيرة أرواد لمـدة أربعـة شهور، عين نائب حلب في١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، ثـم تـولى وزارة العـدل والمعـارف(١٣٥٤ــ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٦ــ١٩٣٩م)، وتجدد انتخابه للنيابة والوزارة في(١٣٦٢ــ١٣٦٥هـ/١٩٤٣ــ١٩٤٦م)، وهو من أعضـاء المجمع العلمي العربي بدمشق وواضع كتاب الجهاد السياسي. انظر الزركلي:الأعلام، ج٣، ص٣١٠ــ٣١١.

([4]) زاهية قدورة: المرجع السـابق، ص٢٦٤ ؛ زهير الـشلق : المـرجع السـابق، ص١١٧ــ١١٨ ؛ جميـل إبراهيم باشا: المرجع الـسابق، ص٤٧ ؛ Philips Khouria:Op. Cit. pp.245–246.

([5]) أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١١٦ ؛ زاهية قدورة: المرجع السابق، ص٢٦٤ ؛ سليمان المدني: المرجـع السابق، ص٣٨.

الذي جعل استمرار الانتخابات مستحيلاً في دمشق، فتقرر تأجيل الانتخابات إلى أجل غير مسمى وتعطيل المجلس([1]). وهذا يدل على التخبط في رسم السياسة الاستعمارية وعدم رغبنهم في اجراء انتخابات نزيهة، لأنها لا تخدم مصالحهم العدوانية.

وبعد عامين أعيدت الانتخابات في دمشق في محرم ١٣٥١هـ/مايو ١٩٣٢م، وكان عليهم أن ينتخبوا أول رئيس للجمهورية وأن يعطوا الثقة لأول حكومة دستورية، وكانت نتيجة الانتخابات معروفة، نظراً لتدخل الفرنسيين فيها ضد الوطنيين، لذلك قام جميل مردم بك([2]) وهو صاحب الكلمة المسموعة في الكتلة الوطنية بالتحاور مع سلطات الانتداب([3])، واتفق معهم على أن يمنحوا صبحي بركات رئاسة مجلس النواب، لأن الشعب لن يقبلوا به كرئيس للجمهورية، وأن هاشم الاتاسي رئيس الكتلة لا يرغب في منصب رئاسة الجمهورية، لذلك يجب أن يعطى هذا المنصب إلى شخص مشهود له بالنزاهة والإطلاع والخبرة الدولية، وألاّ يكون من الكتلة الوطنية حتى لا يشكل تحدياً لفرنسا، ولا يكون مرشحاً مواليا لسلطات الانتداب الفرنسي حتى لا يكون ذلك تحدياً لرغبة الشعب، لذلك اتفق مع الفرنسيين على تولي رئاسة الجمهورية لمحمد علي العابد([4])، وفي صفر ١٣٥١هـ/يونيو ١٩٣٢م تم رسمياً انتخاب أول رئيس للجمهورية في سوريا هو محمد علي العابد([5]). نزولاً عند رغبة الشعب و تحدياً للفرنسيين المستعمرين الذين استجابوا لنصيحة جميل مردم بك، وخضعوا للأمر الواقع، ومع أن هذا الوضع لم يستمر.

([1]) أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١١٦ــ ١١٧ ؛ زهير الشلق : المرجع السابق، ص١١٨.

([2]) جميل مردم بك:(١٣١١ــ١٣٨٠هـ/١٨٩٤ــ١٩٦٠م):من مواليد دمشق تعلم بفرنسا، أصبح مستشاراً خاصاً للأمير فيصل بن الحسين في دمشق(١٣٣٧هـ/١٩١٩م) حكم الفرنسيون بإعدامه عندما دخلوا سوريا (١٣٣٨هـ/١٩٢٠م) مما اضطره للإقامة في القاهرة ١٢ عاماً، ثم عاد إلى دمشق وانتخب نائباً عن دمشق عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م، ثم تولي منصب وزارة المالية عام١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، وفي عام١٣٥٤هـ/١٩٣٦م ألف الوفد السوري الذي كان عليه أن يفاوض الحكومة الفرنسية في باريس لوضع معاهدة تضمن الاستقلال لسوريا، عام١٣٦٢هـ/١٩٤٣م تولى منصب وزارة الخارجية في سوريا، ثم ترأس الوزارة ثلاث مرات، توفي بالقاهرة ودفن في دمشق. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٢، ص١٣٨ ؛ زهير الشلق : المرجع السابق، ص١١٢ــ١١٥.

([3]) زهير الشلق : المرجع السابق، ص١١٩.

([4]) محمد علي العابد(١٢٨٤ــ١٣٥٨هـ/١٨٦٧ــ١٩٣٩م):هو ابن عزت باشا العابد الذي كان صاحب الحل والعقد في قصر السلطان العثماني، وقد تدرب محمد العابد على يد والده، هذا بالإضافة إلى ثقافته الفرنسية الرفيعة المستوى وخبرته في الشؤون الدولية، فقد كان سفيراً للدولة العثمانية في عواصم كثيرة منها واشنطن، وهو أول من سمي برئيس الجمهورية في سوريا(١٣٥١ــ١٣٥٥هـ/١٩٣٢ــ١٩٣٦م)، وهو لا ينتمي إلى الكتلة الوطنية، توفي في باريس ودفن في دمشق. انظر: دعد الحكيم: المرجع السابق، الحاشية ٢، ص١١٥ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١١٩ ؛ ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥١٣.

([5]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٥٦٤ ؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١١٧ــ١١٨ ؛ زهير الشلق :

فقد تألفت وزارة رباعية برئاسة حقي العظم[1] وجميل مردم ومظهر رسلان وسليم جنبرت[2]، وساد البلاد جو جديد استطاعت الأقلية الوطنية في مجلس النواب فرض سيطرتها على جميع النواب، وقبل الوطنيون الاشتراك في الوزارة على أساس أن الوزارة ستعقد معاهدة مع فرنسا لإنهاء الانتداب، وقد جاء بفكرة هذه المعاهدة الكونت هنري دي مارتيل Conte Henri De Martel[3] الذي حل محل بونسو في رجب ١٣٥١هـ/نوفمبر ١٩٣٢م[4]، لكن جميع المباحثات التي تمت مع الحكومة الفرنسية لم تقنع الكتلة الوطنية بأن الفرنسيين راغبون فعلياً في إنهاء الانتداب، والاعتراف بالاستقلال التام لسوريا، لذلك استقال جميل مردم ومظهر رسلان من الوزارة في٢٢ ذي الحجة ١٣٥١هـ/١٨ إبريل ١٩٣٣م[5]. واننا نجد من خلال هذه الاستقالات المتتالية مدى الخلافات السياسية بين السوريين أنفسهم، فقد نجحت فرنسا على زرع الشقاق بينهم.

ونتيجة لذلك قام المندوب السامي الفرنسي هنري دي مارتيل بإعادة تشكيل الوزارة في أواخر شهر ذي الحجة ١٣٥١هـ/ أواخر إبريل ١٩٣٣م، حيث جعل حقي العظم رئيساً للوزراء والداخلية، وذلك عملاً بسياسة الكيد التي اتبعتها فرنسا ضد الوطنيين، وقام العظم على الفور

: المرجع السابق، ص١١٩.

([1]) حقي بن عبد القادر المؤيد العظم(١٢٨٢ــ١٣٧٤هـ/١٨٦٥ــ١٩٥٥م): كان إدارياً مخضرماً بين العهد العثماني والفرنسي، أقيم حاكماً على ما سمي يومئذٍ بدولة دمشق(١٣٣٨هـ/١٩٢٠م) واستمر حاكماً اسمياً لدولة دمشق مدة خمس سنوات، وهو معروف بولائه لفرنسا، كان مع الجنرال غورو عندما تعرض لحادث الاغتيال في القنيطرة، وعندما وحدت بعض أجزاء سورية عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م زالت وظيفته كحاكم، وتولى عدد من المناصب الحكومية، ثم عاد إلى القاهرة عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م ومكث فيها حتى وفاته. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٢٦٥ــ٢٦٦ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، الحاشية ١، ج١، ص٢٣٣ ؛ ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥١١ــ٥١٢.

([2]) سليم جنبرت: نصراني كاثوليكي تولى منصب وزير المعارف في وزارة حقي العظم. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٥٧٦.

([3]) الكونت هنري دو مارتيل Conte Henri De Martel: سادس مندوب سامي فرنسي في سوريا ولبنان خلف المسيو هنري بونسو الذي رأت الحكومة الفرنسية أنه فشل في مهمته في سوريا ولبنان، وصل الكونت دي مارتيل إلى بيروت في رجب ١٣٥١هـ/نوفمبر ١٩٣٢م، حاملاً معه مشروع معاهدة أعدتها وزارة الخارجية الفرنسية وهي لا تختلف عن نظام الانتداب، ظل في منصبه حتى ذو القعدة ١٣٥٧هـ/ يناير ١٩٣٩م. انظر: أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..،ج١، ص٤٩١ ؛ سلمى الحفار:المرجع السابق، ص٢٤٣ـــ٢٤٥ وص٢٧٦.

([4]) أحمد طربين : الوحدة العربية ، ص٤١.

([5]) نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٨٤ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٤٢ــ٢٤٣ ؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١١٨ــ١١٩.

بتأليف حكومة جديدة وكان من أبرز أعضائها شاكر نعمت الشعباني الذي كان يسير في ركب السلطة الفرنسية ووقع على معاهدة عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م([1]) التي تربط سوريا بفرنسا لمدة ٢٥ سنة، وفي ٣ شعبان ١٣٥٢هـ/ ٢١ نوفمبر ١٩٣٣م أحيلت المعاهدة للتصديق عليها من مجلس النواب، لكن جميل مردم تلا عريضة موقعة من الأغلبية الساحقة للمجلس أعلن فيها رفض المعاهدة، لأنها تتعارض مع الأماني السورية في الوحدة والاستقلال، مما أدى إلى تعطيل الدستور وحل المجلس من قبل المندوب السامي الفرنسي الكونت هنري دي مارتيل([2])، وجعل من الحكومة السورية هيئة تنفيذية تنفذ ما يقوم هو بسنه ويخطط له من قوانين وأحكام، وأعلن أن الأحوال الاقتصادية في سوريا تحتاج إلى كل اهتمام، لذلك سيترك المشكلات السياسية جانباً، حتى يتمكن من التفرغ لغيرها من المشكلات([3]). نلاحظ من خلال سير هذه الاحداث مدى التعسف الذي كانت تتبعه فرنسا في سياستها، وكيف تمكنت من تشتيت شمل رجال السياسية السورية، وفق مفهومها المعروف فرق تسد. ويظهر من ذلك ان فرنسا لا تريد اقامة حكومة دستورية في سوريا، بل تريد الهيمنه الكاملة على البلاد والعباد.

استمر دي مارتيل يسير شؤون البلاد لمدة سنتين، إلى أن استجمع السوريون قواهم وأيقظوه بثورة جديدة عارمة، فقد تعاون الحزب الشيوعي السوري([4]) مع الكتلة الوطنية في عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م([5])، فقام رجال الكتلة الوطنية بإذكاء الشعور القومي، وتوجيه الشعب ضد كل تعاون مع سلطة الانتداب الفرنسي، مما اضطر الفرنسيون إلى اتخاذ عدد من الإجراءات

([1]) انظر نص مشروع المعاهدة في ملحق الوثائق الملحق رقم ٥.

([2]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٤٥ـ٢٤٦ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١١٩ـ١٢١ ؛ حسن الحكيم: الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتداب الفرنسي ١٩١٥ـ١٩٤٦م، (دار صادر ـ بيروت)، ص٣٠٦ـ٣٢٥.

([3]) جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٢٦٦ـ٢٦٧ ؛ جان سرور: كيف حاول الانتداب الفرنسي فرض معاهدة على سوريا ولبنان، (مجلة تاريخ العرب والعالم، دار النشر العربية، بيروت، العدد ٦١، تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٣م)، ص٥٥ـ٥٦.

([4]) الحزب الشيوعي السوري تزعمه خالد بكداش منذ عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م، بدأ تعاون الحزب الشيوعي مع الكتلة الوطنية منذ عام١٣٥٤هـ/١٩٣٥م حتى تفرق قادته عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، وعندما عاد شكري القوتلي في١٣٦٠هـ/١٩٤١م وتزعم الكتلة الوطنية، حافظ الشيوعيون على علاقتهم معه، وقد كان الحزب الشيوعي السوري على علاقة جيدة بالحزب الشيوعي الفرنسي، وقد عارض الحزب الشيوعي السوري مشاريع الوحدة مع العراق، لأنه اعتبره توسع لنفذ البريطاني في المنطقة. انظر: آندرو راثمل: المرجع السابق، ص١٦ـ١٧.

([5]) آندرو راثمل: المرجع السابق، ص١٦ـ١٧ ؛ سليمان المدني: المرجع السابق، ص٣٨.

ضدهم في مقدمتها إغلاق مكتبي الكتلة الوطنية في دمشق وحلب([1]). من خلال هذا التعاون بين الكتله الوطنية والحزب الشيوعي السوري نجد أن الساسة السوريين الذين كانوا يمسكون بزمام المفاوضات مع سوريا كانوا من القوميين العلمانيين، وأنهم للأسف محوا النهج الاسلامي عن مفاوضاتهم مع فرنسا بحجة المساواة بين المسلمين والنصارى على الرغم من أن الغالبية العظمى في سوريا كانت للمسلمين، وإننا نعتقد أن هذا أضر بالقضية السورية، وببلاد الشام بصفة عامة، وأدى إلى ضعفها وتجزئتها.

في ٢٤ شعبان ١٣٥٤هـ/٢١ نوفمبر ١٩٣٥م توفي في حلب الزعيم إبراهيم هنانو، فقامت الكتلة الوطنية في ١٥ شوال ١٣٥٤هـ/١٠ يناير ١٩٣٦م برثائه على مدرج جامعة دمشق، وانطلقت بعد ذلك مظاهرات وصدامات مع السلطة الفرنسية، مما أدى إلى وقوع عدد من القتلى والجرحى، فقامت السلطات الفرنسية باعتقال عدد من رجال الكتلة الوطنية ومنهم جميل مردم ونسيب البكري([2])، وفخري البارودي([3]) وغيرهم ونفيهم إلى مناطق نائية، وقد تضامنت كلُ من حمص وحلب مع دمشق، بإعلان الإضراب العام عن العمل الذي استمر خمسين يوماً، فأغلقت جميع الحوانيت والمحلات التجارية في جميع أنحاء البلاد، وكلما حاولت الحكومة استخدام الشدة للسيطرة على الموقف إزداد تشبث الوطنين بمواقفهم وبمطالبهم([4])، وأسفر هذا الإضراب عن سلسلة من المآسي أدت إلى مقتل ٦٠ شخص، ومئات من الجرحى([5]).

([1]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٤٩٢ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٥٣.

([2]) نسيب بن عطا الله البكري(١٣٠٥ـ ١٣٨٦هـ/١٨٨٨ـ١٩٦٦م): من رجال السياسة في سوريا شارك في ثورة الشريف حسين عام١٣٣٤هـ/١٩١٦م، ويعتبر من الشخصيات السياسية المهمة في سوريا. انظر: دعد= =الحكيم: المرجع السابق، الحاشية١، ص١١٥.

([3]) فخري البارودي: ولد بدمشق سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م، وهو من رجال الفكر والسياسة والأدب في العالم العربي وهو صاحب النشيد المعروف" بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغدان"،قام بمعاونة أحد زملائه باصدار صحيفة باللغة العامية تتناول أمور البلد السياسية بالتعليق الضاحك والهزلي اسمها " حط بالخرج" ، أعتقله الفرنسين بعد معركة ميسلون، كان من كبار القوميين العرب، وقد تولى عدد من المناصب في سوريا. توفي١٣٨٦هـ/١٩٦٦م. انظر: الموقع على الانترنت: صحيفة العروبة : مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر ـ دمشق ـ سورية "فخري البارودي...الشاعر والأديب والمناضل"
http://ouruba.alwehda.gov.sy/__archives.asp?FileName

([4]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٤٩٢ ، حسن الحكيم : عبد الرحمن الشهبندر، ص١٩٥؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١٢٣ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٢٦٧.

([5]) بيير فيينو: الانتداب الفرنسي في بلاد الشرق(٢)، تلخيص وتعليق: شكري فيصل، (مجلة الرسالة، دار الرسالة، القاهرة ، العدد ٣١٢، السنة ٧، ٨ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ/ ٢٦ يونيو ١٩٣٩م)، ص١١٩١.

وفي هذه الأثناء حدثت تطورات شديدة الخطورة على النطاقين الإقليمي والعالمي. فقد أخذ النظام النازي في ألمانيا، والنظام الفاشستي في إيطاليا يتحديان الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا، ويهددان مصالحهما في العالم، ولاسيما في المشرق العربي. ومن أجل مقاومة هذين الخطرين، رأت فرنسا وبريطانيا أن تفتحا صفحة جديدة في علاقتهما مع دول المنطقة وخاصة في بلاد الشام، وأن تغدق على شعوبها الوعود الواهية بالحرية والاستقلال، ومن هذا المنطلق وافقت فرنسا على المفاوضات مع سوريا ولبنان، تمهيداً لعقد معاهدتين منفصلتين بين فرنسا وسوريا، وبين فرنسا ولبنان([1]).

وفي ٢٩ ذو القعدة ١٣٥٤هـ/ ٢٣ فبراير ١٩٣٦م قدم الشيخ تاج الدين الحسني استقالته عن الوزارة، وألفت وزارة جديدة برئاسة عطا الأيوبي([2])، وشُكل وفد سوري يسافر إلى باريس ويفاوض وزارة الخارجية هناك لوضع حداً للانتداب الفرنسي بعقد اتفاقية بين الطرفين على غرار المعاهدة بين العراق وبريطانيا([3]) أو ما يطلق عليها معاهدة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م. وبناءً على ذلك لم ينته الإضراب إلا في ٦ ذي الحجة ١٣٥٤هـ/٢٩ فبراير ١٩٣٦م بعد عودة فرنسا عن غيها وإعترافها بحقوق سوريا في الاستقلال والوحدة([4]). وبهذا الاعتراف تنفس الشعب

([1]) شفيق جحا: الحركة العربية السرية (جماعة الكتاب الأحمر) ١٩٣٥ــ١٩٤٥م كتاب القومية العربية حقائق وإيضاحات مناهج، (الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م)، ص١٤١.

([2]) عطا الله الأيوبي: ولد في دمشق، وتعلم في مدارسها، وهو سياسي سوري كان وزيراً للداخلية في أول وزارة تألفت بعد ميسلون في ظل الانتداب الفرنسي برئاسة علاء الدروبي، ثم إشترك في وزارة الشيخ تاج الدين الحسيني التي ألفها عام١٣٥٣هـ/١٩٣٤م حيث أسندت إليه وزارة العدلية، وعاصرت الوزارة سلسلة من الإضطرابات مما اضطرها إلى الاستقالة، فألف عطا لله الأيوبي وزارة انتقالية في٢٩ ذي القعدة ١٣٥٤هـ/٢٣ فبراير ١٩٣٦م تمهيد لعودة الحياة النيابية، وعندما بدأت المفاوضات مع فرنسا بخصوص معاهدة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م أرسل الأيوبي وزيران من الحكومة لمشاركة أعضاء الكتلة الوطنية في المفاوضات. انظر: ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥١٢ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٨٠٣ــ٨٠٤.

([3]) المعاهدة العراقية ــ البريطانية لعام١٣٤٨هـ/١٩٣٠م: شكلت هذه المعاهدة وثيقة تحالف بين الدولتين الصديقتين بريطانيا والعراق، وأكدت على استقلال العراق وضرورة التعاون بين الطرفين في حالة الحرب، وأصبح العراق مكلفاً بالدفاع عن نفسه، وحماية المواصلات البريطانية فوق أراضيه، والموافقة على احتلال البريطانيين لقاعدتين= = جويتين تعهدت الحكومة العراقية بحمايتها، ولكن على نفقة الحكومة البريطانية، وحددت مدة هذه المعاهدة بــ(٢٥)سنة، وسمحت بدخول العراق في عصبة الأمم عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م على اعتبار أن العراق دولة مستقلة. ورغم دخول العراق عصبة الأمم، فإنه قد عاش مستعمراً في ظل معاهدة ١٩٣٠م التي سمحت للبريطانيين بالتدخل وبالسيطرة والتسلط، وإن كان هذا الاستعمار من وراء الستار، وخلفه أعوان من أبناء البلاد، وقادة العرب. انظر: جلال يحيى: العالم العربي..، ج٢، ص ١٨٦ــ١٩٢؛ أحمد طربين: التجزئة العربية..، ص١٦٧ ؛ نجلاء عز الدين: المرجع السابق، ص٢٥٩ــ٢٦٠.

([4]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٤٩٢ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٥٥ــ٢٥٦ ؛

السوري الصعداء بعد طول انتظار، وشعروا لأول مـرة بامكانيـة حصـولهم علـى الحريـة والاستقلال.

وتألف الوفد السوري من هاشم الأتاسي رئيساً، وعضوية كلٍ من جميل مـردم، وفـارس الخوري، وسعد الله الجابري...وغيرهم([1])، وقع هذا الوفد على المعاهدة السـورية الفرنسـية([2]) في باريس في٣ رجب ١٣٥٥هـ/١٩ سبتمبر عام ١٩٣٦م، بعد مفاوضات استمرت ما يقـرب من ستة أشهر، وعاد الوفد إلى دمشق في١٣ رجـب ١٣٥٥هــ/٢٩ سـبتمبر ١٩٣٦م فكـان الاحتفال بوصولهم عظيماً([3]).

وفي١١ شعبان ١٣٥٥هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٩٣٦م قام الوفد بإعلان المعاهـدة رسـمياً فـي سوريا، وقد أثارت المعاهدة ضجة كبيرة، فهي تتكون من تسع مواد ومدتها ٢٥ سنة، ويتم العمل بها بعد دخول سوريا ولبنان كعضوين في عصبة الأمم خلال ثلاث سنوات، وقد أعطـت الحـق للفرنسيين في الاحتفاظ بحاميتين عسكريين لمدة خمس سـنوات فـي منطقتـي جبـل الـدروز واللاذقية، أي الإقليم المجاور لفلسطين(جبل الدروز)، والإقليم الذي يفصل سـوريا عـن لـواء الاسكندرونة(اللاذقية)، فأصبح هذان الإقليمان مرتبطين بسوريا بعد أن كانا مرتبطين بـالمفوض السامي الفرنسي، وأعطت الحق لفرنسا باستخدام قاعدتين من القواعد الجوية في سـوريا طـول مدة العمل بالمعاهدة، كما أن هذه المعاهدة فصلت سوريا عن لبنان فصـلاً تامـاً، فقـد عقـدت الحكومة الفرنسية معاهدة مشابها مع لبنان في٢٨ شـعبان ١٣٥٥هــ/٣ نـوفمبر ١٩٣٦م([4]) وسوف نتطرق إليها عندما نتحدث عن الانتداب الفرنسي وأثره على الحالة السياسية في لبنـان. لقد كبلت هذه المعاهدة سوريا لمدة خمس سنوات تحت النفوذ الفرنسي، كما أنها أعطـت الحـق لفرنسا بإيجاد قواعد جوية عسكرية على الأراضي السورية، وهذا ما جعل معركة تحرير سوريا من الاستعمار الفرنسي مستمراً.

حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر..، ص١٩٥ ؛ Philips Khouria: Op. Cit. p.485 .

([1]) مصطفى الشهابي، إدمون حمصي(من نصارى حلب الكاثوليك) ممثلين للحكومة، وأحمد اللحـام بصـفة خبيـر عسكري، الأستاذ نعيم الأنطاكي المحامي بصفته أمين للسر، وكان يتقن العربية والفرنسية والإنجليزيـة. انظر: حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر..، ص١٩٥ــ١٩٦ ؛ أسعد الكوراني: المرجع السـابق، ص١٢٣ ؛ ظـاهر الحسناوي: المرجع السابق، الحاشية٦٤، ص١٣٠.

([2]) انظر نص المعاهدة في ملحق الوثائق الملحق رقم ٦.

([3]) دعد الحكيم: المرجع السابق، ص١٣٦ــ١٣٧ ؛ حسن الحكيم: عبد الرحمن الشـهبندر..، ص ١٩٦ ؛ الوثـائق التاريخية ، ص٣٢٦ــ٣٥٠ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٣٢ــ١٣٣

([4]) دعد الحكيم: المرجع السابق، ص١٣٦ــ١٣٧ ؛ حسن الحكيم: عبد الرحمن الشـهبندر..، ص ١٩٦ ؛ الوثـائق التاريخية ، ص٣٢٦ــ٣٥٠ ؛ جان سرور: كيف حاول الانتداب الفرنسي فرض معاهدة على سـوريا ولبنـان، ص٥٩ .

من خلال هذه المعاهدة نجد أن الانتداب الفرنسي أثر بشكل كبير في سير السياسة في بلاد الشام، فقد وافقوا على وجود الحامية الفرنسية لحماية المصالح الفرنسية أولاً، والقضاء على أي ثورات أو اضطرابات من شأنها أن تضر بالمصالح الفرنسية، كل هذه التضحيات والتنازلات قدمها السوريون على أمل الحصول على الاستقلال الذي ظل حلم يراود كل شعوب المنطقة في بلاد الشام([1]). ومن هنا بدأت تظهر النزعة القومية الإقليمية الضيقة الأفق، فبعد أن كان العرب ينادون بالوحدة العربية بين بلاد الشام بعد خروج الدولة العثمانية منها، أصبحوا يلهثون وراء الاستقلال وقيام الدويلات المستقلة الصغيرة تفصلها الحدود السياسية، التي أصبحت بعد خروج الاستعمار سبباً للخلاف بين الأشقاء العرب، نظراً لزوال أو انحصار الدعوة الإسلامية التي أصبحت في ذلك الوقت وحتى الآن كل من ينادي بها في نظر الغرب إرهابي، وفي نظر بعض العرب رجعي.

وكان من نتائج هذه المعاهدة أن جرت الانتخابات النيابية، وعلى أثرها ظهر أول مجلس نيابي أكثريته من الوطنيين، بدأ هذا المجلس أعماله في ٧ شوال ١٣٥٥هـ/ ٢١ ديسمبر ١٩٣٦م([2]) بدعوة محمد علي العابد إلى الاستقالة فاستقال فوراً، وحل محله في رئاسة الجمهورية هاشم الأتاسي، الذي ألف وزارة رباعية برئاسة جميل مردم، ضمت كلاً من سعدالله الجابري للداخلية والخارجية، وعبد الرحمن الكيالي للمعارف، ومظهر رسلان للعدلية، وشكري القوتلي للمالية والدفاع الوطني([3]).

وكان من نتائج هذه المعاهدة انقسام الشعب السوري بين مؤيد ومعارض فرجال الكتلة الوطنية اعتبروها إنجازاً كبيراً، أما أصحاب حزب الشعب وعلى رأسهم الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، فقد وصفها بأنها مخيبة للآمال الوطنية، وأنها كبلت سوريا بالقيود عندما سمحت لفرنسا بحماية الأقليات الدينية وسن القوانين، وأسس "لجنة التعاون الوطني السياسي" بهدف معارضة المعاهدة ورجال الكتلة الوطنية معاً، وقد أطلق على أنصار هذا الرأي بالشهبندريين أو المعارضة([4]).

([1]) حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر..، ص٢٠٢ـ٢٠٣ ؛ عصمت السعيد: المرجع السابق، ص٧٠.

([2]) يذكر أمين سعيد في كتابه سيرتي ومذكراتي السياسية أن مجلس النواب بدأ أعماله في ٢١ ديسمبر ١٩٣٨م وهذا غير صحيح فربما كان هذا التاريخ نتيجة خطأ مطبعي، لم ينتبه إليه المحقق عبد الكريم السمك. انظر: المرجع السابق، ج١، ص٤٩٤.

([3]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٧٠ ؛ حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر..،ص١٩٦ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٤٩٣ـ٤٩٤ ؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١٢٤.

([4]) حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر..، ص١٩٦ـ١٩٩ ؛ سليمان المدني: المرجع السابق، ص٤١ ؛ . Op. Cit. p.569 :

ومعلوم أن من المتفق عليه بموجب المعاهدة السورية الفرنسية، أن كثيراً من موادها توضع موضع التنفيذ قبل استكمال إجراءات التصديق عليها من قبل الحكومة الفرنسية، لاسيما فيما يتعلق بعودة ارتباط جبل الدروز وبلاد العلويين بدمشق، لكن فرنسا التي لم تصادق عليها أصلاً، وتتصلت من بعض بنودها بحجة أنها لا تحفظ حقوق النصارى، فإنها حرضت النصارى في جبل الدروز والعلويين في اللاذقية بالثورة على الحكومة السورية، فطردوا الموظفين السوريين وأعلنوا الانفصال عن دمشق وكان ذلك في ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م، لذلك زار جميل مردم باريس ثلاث مرات في مابين١٣٥٦ـ١٣٥٧هـ/١٩٣٧ـ١٩٣٨م، سعياً وراء إبرام هذه المعاهدة([1])، وكانت نتيجة هذه الزيارات مطالبة الحكومة الفرنسية بتعديل الاتفاق العسكري الذي يوجب جلاء الجيش الفرنسي عن البلاد، بحيث يصبح هذا الوجود دائماً، كما أضافت ملحقاً أطلق عليه قانون الطوائف([2]) وقع في باريس بين جميل مردم ووزير الخارجية الفرنسي بونيه([3]) في ٢١ رمضان ١٣٥٧هـ/١٤ نوفمبر ١٩٣٨م، وبموجبه وافقت الحكومة السورية على عدم تطبيق القوانين والتشريعات الإسلامية على النصارى([4]). ومن هنا بدأ التفريط شيئاً فشيئاً بالشريعة الإسلامية وبالحقوق المدنية والسياسة في بلاد الشام، حتى أصبحت تطبق القوانين الوضعية بدلاً من الشريعة الإسلامية، بحجة التقدم والمدنية ومواكبة العصر. مع العلم أن هذه المنطقة عندما خرجت عن حكم الدولة العثمانية كانت تدعو إلى القومية العربية، ولكن بعد أن ثبت المستعمر أقدامه في المنطقة أخذ يثير مسألة الأقليات الطائفية، حتى يثير الخلاف بين القوميين العرب أنفسهم، وأن هذا يدل على ضعف ووهن القومية العربية وغيرها من القوميات والمبادئ الهدامة، فلا يمكن أن تقوم دولة قوية ثابتة الجذور وقوية البنيان بغير الإسلام.

Philips Khouria

([1]) حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر..، ص٢١١ـ٢١٢ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٥١٢ ؛ شفيق جحا: المرجع السابق، ص١٦٩ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٥٣.

([2]) وينص هذا القانون على حق المسلم في الارتداد عن دينة، وحق المرأة المسلمة في الزواج من المسيحي أو غيرة، كما يلغي الكثير من الأحكام الشرعية التي يسير عليها المسلمون في أحوالهم الشخصية. انظر: أمين= =سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٥١٣ ؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١٢٥ـ١٢٦.

([3]) وزير الخارجية الفرنسي جورج بونيه Bonnet: سياسي فرنسي من الحزب الاشتراكي الراديكالي، ولد عام١٣٠٦هـ/١٨٨٩م، تولى عددد من المناصب منها انتخابه عضواً في البرلمان الفرنسي عام١٣٤٢هـ/١٩٢٤م، ثم سفير فرنسا في الولايات المتحدة الأمريكية، فوزيراً للمالية، ثم وزيراً للخارجية في وزارة دلادييه، تعاون مع ألمانية، وتولى الوزارة في حكومة فيشي. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٢٤٢.

([4]) حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر..، ص٢١٤ـ٢١٥ ؛ دعد الحكيم: المرجع السابق، ص١٨٥ـ١٨٦ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٥١ـ١٥٢ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٦٥ـ٣٦٦.

ونتيجة لذلك شنت جمعية العلماء المسلمين في سوريا حملة عنيفة ضد قانون الطوائف الجديد، ونادت بوجوب رفضه رفضاً تاماً، ودعت الشعب إلى الإضراب، ونظمت المظاهرات ضده، مما أدى إلى انتشار الفوضى وضياع هيبة الحكومة، فاستقال جميل مردم في ٢ محرم ١٣٥٨هـ/٢٢ فبراير ١٩٣٩م، وحل محله لطفي الحفار في ٣ محرم ١٣٥٨هـ/٢٣ فبراير ١٩٣٩م، لكن وزارته لم تستمر أكثر من ٢٠ يوماً، حيث قدم استقالته في ٢٢ محرم ١٣٥٨هـ/ ١٤ مارس ١٩٣٩م، بسبب تعنت فرنسا ومماطلتها في توقيع المعاهدة وزيادة المظاهرات الشعبية ضد الانتداب الفرنسي وقادة الكتلة الوطنية([١]).

لقد اتخذت الأحداث شكلاً مؤسفاً فوقع قتلى من الطرفين، وبدت دمشق كمدينة ميتة فأقفلت الأسواق، وقذف المتظاهرون بالحجارة على مراكز الشرطة والبنك السوري، الأمر الذي استدعى حكومة الانتداب توجيه إنذار إلى الحكومة السورية(المستقيلة) تحذرهم فيه من خطورة الموقف، وأنه في حالة عدم تمكن الحكومة من السيطرة على الوضع، فإن السلطات الانتداب الفرنسي سوف تسحب رجال البوليس المُسلّمة للحكومة السورية لاستتباب الأمن، وأن الجيش الفرنسي سوف يتولى إعادة الأمور إلى نصابها، لكن رغم التحذير إلى أن الوضع ظل على ماهو عليه، وتسلم الجيش مهمة حفظ الأمن في الثانية ظهراً يوم ٢٨ محرم ١٣٥٨هـ/٢٠ مارس ١٩٣٩م وفعلاً لجأ الجيش إلى استعمال القنابل والرشاشات للقضاء على المظاهرات([٢]). وهذا يدل على أن الحكومة الفرنسية لا تأبه بأرواح الشعب العربي المسلم في سوريا، لأن إسكات المظاهرات لا يكون بالقتل، بل بالحوار المنطقي، وعدم مصادرة حق الشعوب في تقرير مصيرها.

اتجهت سياسة رئيس الجمهورية السورية هاشم الأتاسي إلى إقامة وزارة حيادية تنال ثقة الرأي العام فأختار لهذه المهمة السيد نصوحي البخاري([٣])، فعهد إليه برئاسة الوزراء في١٥ صفر ١٣٥٨هـ/ ٥ إبريل ١٩٣٩م، وقام هذا بتشكيل حكومة جديدة تضم كلاً من خالد العظم([٤])

([١]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٧٥ــ٢٨١ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية، ج١، ص٥١٣ ؛ شفيق جحا: الرجع السابق، ص١٨٣ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٥٢ــ١٥٤.

([٢]) شفيق جحا: الرجع السابق، ص١٨٤ــ١٨٦ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٥٤ــ١٥٥.

([٣]) نصوحي البخاري(١٢٩٨ــ ١٣٨٢هـ/١٨٨١ــ١٩٦٢م): تولى رئاسة الوزراء في سوريا في صفر ١٣٥٨هـ/إبريل ١٩٣٩م استمر في منصبه حولي عشرة أيام، وفي عام ١٩٤٣م انتخب نائباً دمشق، ثم اعتزل السياسة حتى وفاته. انظر: دعد الحكيم: المرجع السابق، الحاشية ٢، ص١٨٣.

([٤]) خالد أمين بن محمد فوزي العظم (١٣١٣ــ١٣٨٤هـ/١٨٩٥ــ١٩٦٤م): من مواليد دمشق، عين عام١٣٦٠هـ/= =١٩٤١م رئيساً للحكومة السورية وظل في منصبة ستة أشهر، تولى وزارت متعددة، وتكررت رئاسته للوزارة في الأعوام التالية:(١٣٦٩هـ و ١٣٧٠هـ و١٣٨٢هـ/١٩٥٠م و ١٩٥١م و

وسليم جنبرت وحسن الحكيم ــ أحد كبار أصدقاء الــدكتور عبــد الــرحمن الشـــهبندر زعـــيم المعارضة ضد الكتلة الوطنية ــ، لكن هذه الوزارة لم تستمر أكثر من عشرة أيام، بسبب تعنــت الجانب الفرنسي وعلى رأسهم المندوب السامي غبرييل بيوGabriel Puaux ([1]) الذي تم تعينــه في ذي القعدة ١٣٥٧هـ/ يناير ١٩٣٩م ، وظلت الأمور تسير في جــو مشــحون بــالقلق علــى الصعيدين الرسمي والشعبي([2]).

ومما زاد الأمور تعقيداً قيام فرنسا في٥ جمادى الأولى ١٣٥٨هــــ/٢٣ يونيــو ١٩٣٩م بتوقيع تنازلها عن لواء الاسكندرونة لتركيا، حتى تكسبها إلى جانبها إذا ما قامت الحرب العالمية الثانية، التي أخذت غيومها بالتجمع، فمنذ أن وقعت فرنسا وســوريا معاهــدة عــام١٣٥٥هـــــ/ ١٩٣٦م اعترضت تركيا على إبقاء لواء الاسكندرونة تابعاً لسوريا([3])، لأن سكانها هــم عبــارة عن خليط من عرب وأرمن ويونان ويشكلون ٦٠%، و٤٠% منهم من أصل تركي، وقد عرفت تركيا كيف تقتنص الفرصة المناسبة للمطالبة باللواء، ففي سنة ١٣٥٦هــ/١٩٣٧م كانت فرنســا وبريطانيا تحاولان اجتذاب تركيا لتتحالف معها، أو إقناعها بالبقاء على الحياد في حــال انــدلاع الحرب العالمية الثانية، فموقع تركيا يعتبر استراتيجياً في وقوفها حاجزاً منيعاً ضــد أي هجــوم ألماني نازي على بلاد الهلال الخصيب، فطلبت تركيا لواء الاسكندرونة ثمناً لذلك([4]).

كما أعلن المندوب السامي الفرنسي بيو في ١٢ ربيــع الآخــر ١٣٥٨هــــ/أول يوليــو ١٩٣٩م فك ارتباط الوحدة السورية، وتأسيس دولتي العلويين وجبل الدروز، كل هذه الإجراءات

١٩٦٢م)، وبعد انقلاب١٣٨٣هــ/ ١٩٦٣م أقام في بيروت إلى أن تــوفي. انظر: الزركلــي: الأعــلام ، ج٢، ص٢٩٩ ؛ ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥١٣ــ٥١٤.

([1]) المندوب السامي غبرييل بيوGabriel Puaux : سابع مندوب سامي فرنسي لسوريا ولبنان خلــف الكونــت دي مارتيل وهو صاحب فكرة تنصيب أحد أبناء الملك عبد العزيز آل سعود كملك على سوريا، لإنهاء الفوضى فـــي البلاد، لكن رئيس مجلس الوزراء الفرنسي المسيو دالادييه سخر من اقتراحه. لأنه غاب عن بال بيو أن الملــك عبد العزيز لن يقبل أن يضع يده في يد أجنبي ضد عربي مهما كان الثمن. استمر بيو في منصبة من ذي القعدة ١٣٥٧هـ/يناير ١٩٣٩م حتى ذي القعدة ١٣٥٩هـ/ديسمبر ١٩٤٠م . انظر: دعد الحكيم: المرجع السابق، الحاشية ١، ص١٨٨ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٥٧ وص١٦٤.

([2]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٨٧ــ ٢٨٨.

([3]) للمزيد من المعلومات حول لواء الاسكندرونة انظر:إسماعيل ياغي: العراق وقضية الاسكندرونة، (مجلة كلية العلوم الاجتماعية، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد ٧ ، ١٤٠٣هــ/١٩٨٣م)، ص١٢٣ــ ١٤٢ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.207-211

([4]) شفيق جحا: الرجع السابق، ص١٤٨ــ١٥١. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: زهير الشــلق: المرجع السابق،ص١٧٣ــ١٨٥ ؛ نجدة فتحي صفوة: العالم العربي في وثائق، الوثيقــة رقــم ٢٦٥/١٧٣٠٧٦، ص٣١١ ؛ عبد الله النل: المرجع السابق، ص١٤٤ــ ١٤٩.

دفعت رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي إلى تقديم استقالته في ١٨ ربيع الآخر ١٣٥٨هـ/٧ يوليو ١٩٣٩م([1]). وهذا يبين مدى الوهن الذي أصاب القيادة السورية، وعدم قدرتها على الصمود في وجه تصرفات المستعمر الفرنسي.

كما أن هذه الإجراءات أضعفت من موقف الحكومة الوطنية التي لم تستطع أن تحافظ على وحدة البلاد السورية، ولم تستطع الحفاظ على لواء الاسكندرونه، حتى أنها فشلت في توقيع المعاهدة الفرنسية ــ السورية، هذا كله جعل الأمير عبد الله بن الحسين يتطلع إلى عرش سوريا، ويطلب ذلك صراحة من حليفته بريطانيا، على الرغم من أنه لم يساعدهم في الثورة السورية ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م([2]). كما سنرى عندما نتحدث عن الثورة السورية في المبحث الثاني.

ومع تجمع غيوم الحرب العالمية الثانية بدأت فرنسا إعلان حالة الطوارئ في سوريا ولبنان، فتلقى المندوب السامي الفرنسي أوامر من الحكومة في باريس باتخاذ عدد من التدابير التي يجب أن يسير عليها، فأعلن المندوب السامي الفرنسي عدول حكومته عن سياسة المعاهدة، وعودتها إلى سياسة الانتداب، كما عطل الحياة الدستورية في سوريا ولبنان بالاستغناء عن الحكومتين الدستوريتين، وإنشاء نظام حكم مباشر يكون فيه للمندوب السامي الفرنسي الكلمة العليا، لذلك أنشأ حكومة المديريين برئاسة السيد بهيج الخطيب([3]) المدير العام لوزارة الداخلية يومئذ([4]).

ومن خلال هذا العرض الموجز للحياة السياسية في سوريا نجد أن أهم أثر تركه الانتداب الفرنسي عليها هو فصل الدين عن الدولة أو ما نطلق عليه بالعلمانية، فقد خلا النضال السياسي من الصبغة الدينية التي كانت تسيطر عليه زمن الدولة العثمانية واصطبغ بالصبغة القومية وذلك بتأييد ومباركة من فرنسا التي عملت على إثارة النعرات الطائفية عند تقسيمها للبلاد لخدمة مصالحها الاستعمارية.

ب ــ الانتداب الفرنسي وأثره على الحالة السياسية في لبنان:

([1]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٨٧ــ ٢٨٩ ؛ شفيق جحا: الرجع السابق، ص١٨٧ــ١٨٩.

([2]) Mary C . Wilson : King Abdullah,Britain And The Making Of Jordan, (Cambridge University Press), p.136.

([3]) بهيج الخطيب: كان بائع زيت في بلدة شحيم اللبنانية، وصل إلى منصب المدير العام لوزارة الداخلية نتيجة تقربه للفرنسيين، حاول إلصاق تهمة مقتل عبد الرحمن الشهبندر برجال الكتلة الوطنية حتى يتخلص منهم. انظر: سليمان المدني: المرجع السابق، ص٤٣ــ٤٤.

([4]) سلمى الحفار:المرجع السابق، ص٢٨٩ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية، ج١، ص٥٢٠ــ٥٢١ ؛ شفيق جحا: الرجع السابق، ص١٨٩ــ١٩٠ ؛ محمود شاكر، إسماعيل أحمد ياغي: المرجع السابق، ج١، ص١٣٨.

المجلس التمثيلي والدستور الجديد وأول رئيس للبنان:

تعتبر لبنان معقل النفوذ الفرنسي فقد جعل الفرنسيون من أنفسهم مسئولين عن الأقليات المسيحية وتحديداً الموارنة، حتى يصبح لهم موطئ قدم على البحر المتوسط في المشرق العربي الإسلامي يستطيعون من خلاله الإشراف على مستعمراتهم في شمال إفريقيا([1])، كما يستطيعون مراقبة مناطق النفوذ البريطاني على البحر المتوسط(في فلسطين ومصر).

وعلينا أن نبين هنا أن العمل في المجال السياسي الرسمي في لبنان زمن الانتداب الفرنسي كان مشرعاً على مصراعيه في وجه خريجي معاهد التعليم الفرنسي والناطقين باللغة الفرنسية، والموالين لفرنسا عموماً، وموصداً في وجه خريجي معاهد التعليم الإنجليزي والناطقين باللغة الإنجليزية، والمنادين بنزعتهم التحررية وميولهم العربية والوحدوية، وكانت المناصب العليا، والوظائف الرفيعة كلها تقريباً من نصيب أصحاب الفريق الأول دون سواهم([2]). هذا الظلم والتفرقة أدى إلى ظهور البغض والتناحر بين بعض فئات الشعب اللبناني.

في عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م أجرت المفوضية الفرنسية إحصاء سكانياً([3]) واتخذته كأساس لتوزيع مقاعد نيابية بين الطوائف، وفي٩ رجب ١٣٤٠هـ/ ٨ مارس ١٩٢٢م صدر قرار عن المفوضية الفرنسية بإنشاء مجلس تمثيلي منتخب يتمتع بحق التشريع. وقد تألف من ثلاثين عضواً. وتعاقب على رئاسته كل من حبيب باشا السعد عام ١٣٣٦هـ/١٩١٨م، ثم نعوم لبكي([4])١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، وإميل إده([5])

([1]) رغيد الصلح: لبنان والعروبة الهوية الوطنية وتكوين الدولة، (دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م)، ص٢٢.

([2]) شفيق جحا: المرجع السابق، ص٩٥.

([3]) أمرت المفوضية الفرنسية بإجراء إحصاء لسكان لبنان سنة١٣٣٩هـ/١٩٢١م، وقد بلغ عدد المسيحيين ٣٢٣٠٥٢ نسمة موزعة على الموارنة وعددهم ١٩٩١٨١ ، وأرثوذكس وعددهم ٨١٤٠٩ ، والروم الكاثوليك وعددهم ٤٢٤٦٢ ، المسلمين فبلغ عددهم ٢٧٣٣٦٦ نسمه موزعين على المسلمين السنة وعددهم ١٢٤٧٨٦ ، والمسلمين الشيعة وعددهم ١٠٤٩٤٧ ، والدروز وعددهم ٤٣٦٣٣ . وتعتبر هذه الإحصائية بعيدة عن الدقة لدرجة كبيرة بسبب التزوير والتكتم والرشوة التي دفعتها فرنسا لبعض الطوائف.انظر:علي شعيب:المرجع السابق، الحاشية ٤٦، ص٣٠.

([4]) نعوم لبكي: صحفي لبناني ، هاجر إلى أمريكا وأنشأ صحيفة "المناظر"، ثم عاد إلى لبنان سنة١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، وتابع إصدارها في بيروت، ثم في قرية "بعبدات" مسقط رأسه. انتخب بعد الحرب العالمية الأولى نائباً في المجلس التمثيلي اللبناني، ثم رئيساً له إلى أن توفي في ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٨، ص٤٠.

([5]) إميل إده (١٢٩٩ـ١٣٦٨هـ/١٨٨١ـ١٩٤٩م): سياسي لبناني مسيحي ماروني من المؤيدين للاحتلال الفرنسي للبنان، ولد في دمشق، والده كان ترجمان القنصل الفرنسي في دمشق، أكمل دراسته في معهد الأباء اليسوعيين

١٣٤٣هـ/١٩٢٤م([1]).

وفي١٣٤٣هـ/ أوائل سنة ١٩٢٥م أقدم الجنرال سراي على حل المجلس التمثيلي مسايرة للمعارضة اللبنانية التي لم تكن مرتاحة للسيطرة الفرنسية الكاملة، فظلوا يطالبون بالمزيد من الحكم الوطني، وحدد سراي موعداً لإجراء الانتخابات في شهر يوليو. وجرت الانتخابات في الفترة من ٦ــ٢٠ ذي الحجة ١٣٤٣هـ/٢٨ يونيو ــ ١٢ يوليو سنة ١٩٢٥م وتألف مجلس تمثيلي جديد تكون من ثلاثين عضواً. وأنتخب موسى نمور([2]) رئيساً للمجلس، ولكن الحكم بالمعنى الحقيقي ظل في أيدي الفرنسيين في سوريا ولبنان، وهذا أدى إلى قيام الثورة السورية سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م([3])، ونتيجة لامتداد الثورة السورية إلى مناطق متعددة من لبنان الكبير، أخذ أنصار الكيان اللبناني الجديد(النصارى) يطالبون المفوضية العليا الفرنسية بوضع قانون أساسي للبنان، لم تأخذ سلطات الانتداب الفرنسي هذا الطلب مأخذ الجد، لأنها كانت مشغولة بتطورات الثورة السورية وانعكاساتها على المنطقة، لهذا استبدلت الحكومة الفرنسية المندوب السامي العسكري الجنرال سراي وعينت بدلاً عنه دي جوفينيل(١٣٤٤ــ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٥ــ١٩٢٦م) الذي يعتبر أول مندوب سامي مدني([4]).

عندما جاء دي جوفينيل إلى المنطقة وجد نفسه بين يدي ثورة عامة قام بها الأهالي، في الداخل والساحل ضد الانتداب الفرنسي فبادر إلى معالجة الموقف المضطرب عن طريق بعض الإجراءات التي تحمل الشكل الديمقراطي بالنسبة إلى الحكم المحلي في لبنان، وطلب من الأهالي انتخاب جمعيّة تأسيسيّة تقوم بوضع دستور ينظّم الحكم في البلاد، التي وضعت تحت إشراف الموظفين الفرنسيين، الذين أخذوا يومئذٍ صفة المستشارين في جميع الدوائر الرسميّة. بيد أن

ببيروت، في١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م إلتحق بمدرسة الحقوق في إكس إن بروفانس في فرنسا وحصل منها على الدكتوراه، عمل بالمحاماة، عاش فترة في فرنسا ثم عاد إلى لبنان بعد خروج العثمانيين منها عام١٣٣٧هـ/١٩١٨م على بارجة= = فرنسية وأقيم مستشاراً للمفوضية الفرنسية، وعينته سلطات الاحتلال الفرنسي وزيراً للداخلية، ثم تولى رئاسة الجمهورية اللبنانية في الفترة بين (١٣٥٦ــ ١٣٦٠هـ/ ١٩٣٦ــ١٩٤١م)، كان اسمه مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالوجود الفرنسي في منطقة بلاد الشام وليس فقط بلبنان. انظر: أحمد عطيةالله:المرجع السابق، ص١٢٤ ؛ رغيد الصلح:المرجع السابق،ص٣٤ــ٣٧ ؛ المنجد،ص٣٢.

([1]) فواز طرابلسي: تاريخ لبنان الحديث من الإمارة إلى اتفاق الطائف، (دار رياض الريس للنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م)، ص١٥٠ ؛ بول كوبلنز: سكوت سراي، حقائق ووثائق لم تنشر بعد عن الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م، تعريب: فريد بك زريق، (مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٦م)، ص٤٠ــ٤١.

([2]) موسى نمور: مسيحي ماروني من زحلة . انظر: فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥١.

([3]) بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٤٢ــ٥٠ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥١ ؛ زاهية قدورة: المرجع السابق، ص٣١٠.

([4]) علي شعيب: المرجع السابق، ص٣٧ــ٣٨ ؛ زاهية قدورة: المرجع السابق، ص٣١٠.

الإجراءات التي أتخذها دي جوفنيل لم تجد الاهتمام إلا من قبل بعض أعيان جبل لبنان، الذين وجدوا في التنافس على عضوية الجمعيّة التأسيسيّة فرصة ملائمة لإثبات وجودهم في مناطقهم(١) وكان هذا التغير مكافأة لسكان جبل لبنان لترحيب البعض بمبدأ الانتداب(٢).

في١٧ جمادى الأول ١٣٤٤هـ/٤ ديسمبر ١٩٢٥م دعي المجلس النيابي إلى عقد دورة استثنائية لوضع دستور لبنان الكبير، ولذلك انتخب المجلس لجنة تألفت من اثنتى عشر عضواً(٣) ستة من النواب وستة من الأعيان. وقامت هذه اللجنة باستشارة عدد كبير من رجال الفكر والسياسة والدين والموظفين حول الأسس التي يجب أن تعتمد في وضع الدستور والشكل الذي يجب أن تقوم عليه الحكومة الجديدة، وقد هال دي جوفينيل قيام أكثرية المسلمين بالامتناع عن المشاركة في وضع الدستور، ووجهت إليه عرائض وبرقيات تجدد فيها مطالبتهم بالانفصال عن لبنان الكبير والوحدة مع سوريا(٤)، فاتخذ بعض التدابير الوقائية التي تحمل صفة التهديد والوعيد لإيقاف الانفصال، فأذاع بيان رسمي في٢ رجب ١٣٤٤هـ/١٧ يناير ١٩٢٦م جاء فيه ما يلي: "تلقى منذ زمن المفوض السامي كثيراً من المضابط المعارضة بعضها بعضا. فمنها ما يرمي إلى اقتطاع هذا القسم أو ذاك من لبنان، ومنها ما يطلب إبقاء الحدود الحالية على ما هي، فهذه المضابط غير مفيدة...إن الذين يواصلون عداءهم للانتخابات أو يمتنعون عن الاشتراك فيها يتنازلون بأنفسهم عن استعمال حقوقهم...أما الذين يتعرضون للحدود فإنهم يثيرون عداوات الجنسيات والأديان ويجعلون الاتفاق بين الدول مستحيلاً"(٥). وفي هذا تهديد واضح لدعاة الوحدة مع سوريا.

كما أذاع حاكم لبنان الكبير المسيو ليون كايلا(٦) بياناً آخر على رجال حكومته، فيه تحذير تحذير وتهديد بالفصل من مناصبهم جاء فيه:

---

(١) تحت ظل حليفتهم فرنسا، وحتى يكونوا لهم قاعدة قوية بمساعدة فرنسا لا يمكن للمسلمين مواجهتها.

(٢) علي شعيب : المرجع السابق، ص٣٩ـ٤٠ ؛ irfan C. Acar: Lübnan Bunalimi Va Filistin sorunu,(Türk Tarih Kurumu Basimevt, AnKara), 1989, p. 25.

(٣) اللجنة كانت برئاسة موسى نمور، أما الأعضاء فهم : ميشال شيحا ـ شبل دموس ـ عمر الداعوق ـ يوسف الخازن ـ فؤاد أرسلان ـ يوسف سالم ـ جورج زوين ـ روكز أبو ناضر ـ صبحي حيدر ـ يوسف الزين ـ جورج ثابت ـ عبود عبد الرزاق. واختارت اللجنة ميشال شيحا مقرراً. وعينت المفوضية العليا الفرنسية كلاً من شارل دباس والمستشار القانوني مسيو سوشه لمؤازرة اللجنة. انظر: علي شعيب : المرجع السابق، ص٣٨ـ٣٩.

(٤) أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، ص٤٠٩ـ٤١٠ ؛ علي شعيب : المرجع السابق، ص٣٩ـ٤٠ ؛ زاهية قدورة : المرجع السابق، ص٣١٠.

(٥) أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، ص٤١٠ .

(٦) المسيو ليون هنري شارل كايلا حاكم لبنان الكبير من جمادى الآخر١٣٤٣هـ/يناير ١٩٢٥م إلى ١٤ ذي القعدة ١٣٤٤هـ/٢٦ مايو ١٩٢٦م. انظر: علي شعيب : المرجع السابق، ص٣٢ وص٣٨ـ٤٠ .

"انتهى إلى من جهات مختلفة أن بعض الموظفين اشتركوا في الأيام الأخيرة في الحملة التي ترمي إلى فصل بعض أراضي لبنان الكبير عنه. وبديهي أنه لا يجوز للذين يشتركون في القيام بمهام الدولة العامة أن يطرحوا على بساط المناقشة والجدل سلامة أراضي الدولة، التي يجب عليهم أن يكونوا في طليعة الذين يخدمونها..وهم على كل حال لا يمكنهم أن يبقوا في وظائفهم إلا بإتباعهم سبيل الاستقامة التامة...و...كل مسلك يخالف هذا المسلك يستوجب العقاب.. وأود أن أعتقد أن هذا التنبيه سيكون كافياً فلا أضطر إلى اتخاذ عقوبات تأديبية.."([١]). كان يقصد كايلا بشكل أساسي ومباشر المسلمين من قضاة ورجال الإفتاء الذين يتقاضون معاشاتهم من خزانة الدولة([٢]).

عندما قام دي جوفينيل بتعين الداماد أحمد نامي رئيساً للدولة والحكومة في سوريا في١٣ شوال ١٣٤٤هـ/٢٦ ابريل ١٩٢٦م، وقبل هذا بالمهمة الموكلة إليه بشرط تحقيق الوحدة بين الدويلات السورية التي خلقها الاستعمار، وافق دي جوفينيل على طلب الحكومة السورية وأرسل إلى الدماد أحمد نامي رسالتين بخط اليد الأولى، يعترف فيها بحق سوريا في الحصول على مرفأ بحري، ويتعهد بإعطاء طرابلس مع عكار على طول خط سكة الحديد إلى بعلبك فتتصل طرابلس بدمشق بدون أن تمر السكة بأرض لبنانية([٣]). والرسالة الثانية تعهد فيها بتحقيق الوحدة السورية على أساس التفاهم بين فرنسا وسوريا ولبنان. كانت هاتان الرسالتان مكتوبتين في شوال ١٣٤٤هـ/أواخر شهر إبريل عام ١٩٢٦م، وهما محفوظتان عند الداماد أحمد نامي ولم تنشر، لأن الحكومة الفرنسية لم توافق عليها([٤]). وقد أشرنا إليها سابقاً وهذا الاقتراح يعد أول دعوة من مسؤول فرنسي لتصغير لبنان الكبير.

هال أنصار الكيان اللبناني حزم أنصار الوحدة السورية في موقفهم، لذلك استعجلوا وضع دستور للبنان حتى يكرس كدولة فبدأ مجلس النواب اللبناني مناقشة مسودة الدستور من٧ ــ ١٠ ذو القعدة ١٣٤٤هـ/١٩ ــ ٢٢ مايو ١٩٢٦م، وقد استغرق ذلك جلسات طويلة كانت تعقد يومياً قبل الظهر وبعده، وفي يوم ٢٣ مايو حضر المندوب السامي الفرنسي هنري دي جوفينيل إلى المجلس وأعلن فيه وضع الدستور موضع التنفيذ، مستبدلاً تسمية " لبنان الكبير" بـ" الجمهورية اللبنانية "، ورسم العلم اللبناني الذي تتوسطه شجرة الصنوبر، واعتمدت اللغة الفرنسية لغة رسمية إلى جانب العربية، وسمي الدستور المجلس التمثيلي "مجلس النواب"([٥])،

([١]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٤١١ــ٤١٢ ؛ نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، الحاشية ١، ص٥٩.

([٢]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٤٠.

([٣]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ٨.

([٤]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٤٢٨ ؛ علي شعيب : المرجع السابق، ص٤١.

([٥]) يتكون مجلس النواب من أعضاء من جميع مناطق لبنان وكانوا على النحو التالي:

ونص على إنشاء "مجلس شيوخ"([1]) لتمثيل الطوائف والمناطق([2])، مع ملاحظة أن الدستور لم يحدد حدود لبنان للإيحاء بأنها لا تزال قابلة للتعديل، والأهم من ذلك أن الدستور اللبناني أعطى الانتداب الفرنسي الصفة الشرعية، إذ منح رئيس الجمهورية صلاحيات واسعة النطاق يساعده فيها مجلس الوزراء، وأن يكون رئيس الجمهورية والوزراء مسؤولين مسؤولية مباشرة أمام المندوب السامي الفرنسي لا غير([3])، وبعد ثلاثة أيام من إعلان الدستور، دعا مجلس النواب ومجلس الشيوخ لانتخاب رئيس للجمهورية في١٤ ذو القعدة ١٣٤٤هـ/٢٦ مايو ١٩٢٦م، وكانت سلطات الانتداب قد أعدت مرشحها سلفاً وهو شارل دباس([4]) أحد الذين أشرفوا على ولادة الدستور، والذي يعتبر أول رئيس جمهورية في أول

عن بيروت: الدكتور حليم قدورة، إميل إده ، محمد المفتي ، الدكتور أيوب ثابت ، نخلية التويني .

عن البقاع: عبدالله أبو خاطر ، شبل دموس ، إبراهيم حيدر ، أحمد الحسيني ، حسين قزعون ، موسى نمور. =

=عن لبنان الشمالي: عبود عبد الرزاق ، يعقوب النحاس ، وديع طربية ، الدكتور مسعود يونس .

عن لبنان الجنوبي: نصري العازوري ، الأمير خالد شهاب ، فضل الفضل ، رزق الله نون، نجيب عسيران ، يوسف الزين.

عن جبل لبنان: الدكتور نخلة الأشقر ، الأمير فؤاد أرسلان ، نعوم باخوس ، رشيد جنبلاط ، الشيخ يوسف الخازن ، نعوم اللبكي ، إبراهيم المنذر ، حبيب باشا السعد.

عن طرابلس : نور الدين علم الدين. انظر: زاهية قدورة: المرجع السابق، الحاشية ١، ص٣٠٩ــ٣١٠.

([1]) مجلس الشيوخ عين أعضائه بقرار من المفوض السامي الفرنسي دي جوفينيل في ٢ ذي القعدة ١٣٤٤هـ/١٤ مايو ١٩٢٦م، وفي ٤ جمادي الأول ١٣٤٧هـ/١٨ أكتوبر ١٩٢٨م انضم مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ وأصبح مجلس واحد. ويمثل أعضاء مجلس الشيوخ الطوائف اللبنانية المختلفة وهي على النحو التالي: المسلمين : ــ السنة : عبد الله بيهم ، الشيخ محمد الجسر ، الشيخ محمد الكتي . ــ الشيعة : إبراهيم حيدر الذي أقاله المفوض السامي الفرنسي في يونيو ١٩٢٦م وعين بدلاً عنه أحمد الحسيني ، الحاج حسين الزين ، فضل الفضل. الدروز : سامي أرسلان.

النصارة : ــ الموارنة: إميل إده ، حبيب السعد ، يوسف أسطفان ، ألبير قشوع ، يوسف نمور وخلفه بشارة الخوري عندما توفي سنة ١٩٢٧م. ــ الأرثوذكس: ميشال "نخلة" التويني ، جبران النحاس. ــ الرومالكاثوليك: سليم النجار. انظر: زاهية قدورة : المرجع السابق، الحاشية ١، ص٣١٠ــ٣١١، فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥٢.

([2]) فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥١ ؛ علي شعيب: المرجع السابق، ص٤١ــ٤٢.

([3]) فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥١ــ١٥٢.

([4]) شارل دباس: ولد ببيروت وهو أرثوذكسي المذهب، تعلم في المدرسة اليسوعية، درس الحقوق في فرنسا، وتزوج من فرنسية، وهو أحد الذين أشرفوا على ولادة الدستور، مدير العدل آنذاك أول رئيس لجمهورية لبنان(١٣٤٤ــ ١٣٥٢هـ/١٩٢٦ــ١٩٣٣م)، ألغى مجلس الشيوخ ١٩٢٧م ، استقال بعد تعليق الدستور،=

جمهورية عربيـــة (لبنـــان)، لمـــدة ثـــلاث ســـنوات قابلـــة للتجديـــد(١٣٤٤ـــــ١٣٤٧هـــــ/ ١٩٢٦ــ١٩٢٩م)([1])، وبعد انقضاء الثلاث سنوات جرى في عـــام ١٣٤٧هـــــ/١٩٢٩م قامـــت سلطات الانتداب بالتجدد لشارل دباس لثلاث ســـنوات أخـــرى، أي حتـــى عـــام ١٣٥١هـــــ/ ١٩٣٢م([2]). ويلاحظ أن المسلمين لم يحظوا بمنصب رئيس الجمهورية اللبنانية بالرغم من وجود عدد كبير منهم في لبنان، ويعتبر ذلك من باب التجاهل للمسلمين مـــن قبـــل المنـــدوب الســـامي الفرنسي، ولكن المسلمين لم يسكتوا بل حاولوا أن يطالبوا بحقهم طول فترة الانتداب.

شعر أنصار الكيان اللبناني بالارتياح إلى وضع الدستور موضع التنفيذ، لكن البطريركيـــة المارونية أبدت معارضتها لتعيين أرثوذكسي لمنصب الرئاسة الأولى في لبنان، وقدمت احتجاجاً بذلك إلى المفوض السامي الفرنسي هنري دي جوفينيل، الذي وعدهم بإعطاء الرئاسة المقبلة إلى الطائفة الأكثر عدداً، ومنذ ذلك التاريخ كرست رئاسة الجمهورية في لبنان للطائفة المارونية([3])، ولكننا نجد أن سلطات الانتداب جددت لشارل دباس ثلاث سنوات حتى عام١٣٥١هـــــ/١٩٣٢م وذلك لخلق نوع من التنافس والتنافر بين الطوائف اللبنانية، وخاصة بين الأرثوذكس والموارنة.

وكان هذا من أهم الآثار السلبية التي تركها الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنـــان، بـــأن اقتطع جزءاً من سوريا وضمه إلى لبنان، مما أثر على مستقبل العلاقات بين البلـــدين الشـــقيقين، فخلق في لبنان مشكلة الانتخابات وتقسيم المقاعد النيابية بـــين المســـلمين والنصـــارى، وبـــين المسلمين السنة والمسلمين الشيعة. ورئيس الجمهورية هل يكون مسلماً أو نصرانياً، حتـــى أنهـــا حرمت المسلمين نهائياً من تولي منصب رئاسة الجمهورية في لبنان.

وبقيام الجمهورية اللبنانية انتهت مرحلة الحكم الفرنسي المباشر وبـــدأت مرحلـــة الحكـــم الفرنسي اللبناني المشترك([4])، بحيث أصبحت الحكومة الفرنسية تصدر أوامرهـــا إلـــى رئـــيس الجمهورية وهو يأمر بتطبيقها، وبذلك يصبح في الظاهر أن لبنان يحكمه اللبنانيون.

فالدستور اللبناني وضع بشكل سريع ولم يلق تجاوباً إلا في الأوســـاط الشـــديدة التعصـــب للفرنسيين، في حين كان معارضو الدستور يزدادون حجماً، حتى أن المعارضة انتقلت إلى داخل مجلسي الشيوخ والنواب فأزيل مجلس الشيوخ، إذ كيف يمكن أن يكون الحكم في بلد صغير مثل

=وتوفي في باريس عام ١٣٥٤هــ/١٩٣٥م، ونقل جثمانه إلى بيروت. انظر: الزركلي: الأعـــلام، ج ، ص١٥١ ؛ المنجد، ص٢٤١.

([1]) في عام١٣٤٧هــ/١٩٢٩م جرى تمديد ولاية رئيس الدولة إلى ست سنوات . انظر: فواز طرابلســـي: المرجـــع السابق، ص١٥٢.

([2]) زاهية قدورة : المرجع السابق، ص٣١٠ــ٣١١ ؛ irfan C. Acar: Op. Cit. pp.25-26.

([3]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٤٣ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤٠٥.

([4]) زاهية قدورة : المرجع السابق، ص٣١١.

لبنان بثلاث رؤساء: رئيس الجمهورية، ورئيس مجلس الشيوخ، ورئيس مجلس النواب. ويخضع الثلاثة إلى رئيس أعلى فرنسي هو المفوض السامي([1]).

لقد كان شارل دباس ضعيفاً بالنسبة للفرنسيين الذين بالغوا في الفساد والرشـــوة، ولـــذلك واجه المفوض السامي الجديد هنري بونسو مشكلة التوفيق بين أنصار الكيـــان اللبنـــاني الـــذي تعددت أوجه الخلاف بينهم على توزيع المغانم في الدولة اللبنانية، وعلى تشكيل الوزارة، وعلـــى الصلاحيات بين مجلس النواب والشيوخ، لذلك لجأ بونسو إلى تعديل الدســـتور بإلغـــاء مجلـــس الشيوخ وإلحاق أعضائه بمجلس النواب، وأمر بالحد من النفقات وتشكيل حكومة برئاسة بشـــارة الخوري([2]) في رجب ١٣٤٦هـــ/ يناير ١٩٢٨م، لكن الطوائف غير الممثلة في الحكومة وفـــي مقدمتهم الشيعة اعترضوا على عدم وجود وزير شيعي في صـــفوف الـــوزارة، وبعـــد ثمانيـــة أشهر(أي في صفر ١٣٤٧هـــ/أغسطس ١٩٢٨م) خلف حكومة الخوري وزارة جديـــدة برئاســـة حبيب باشا السعد التي شهدت التعديل الثاني للدستور بتمديد ولاية رئيس الجمهورية شار دبـــاس من ثلاث سنوات إلى ست سنوات([3]).

وفي ٢٨ ذو القعدة ١٣٤٧هـــ/٨ مايو ١٩٢٩م تم تشكيل حكومة جديدة لرئاسة الـــوزراء تزعمها من جديد بشار الخوري للإشراف على الانتخابات التي لا يسمح بالفوز فيها إلا من كان مرخص له من المفوضية العليا الفرنسية، في جمادى الأول ١٣٤٨هـــ/ أكتـــوبر ١٩٢٩م كلـــف المفوض السامي بونسو إميل إدة بمنصب رئاسة الوزراء، وأمره بتشكيل حكومة تقشـــف لتقليـــل النفقات بسبب سوء الحالة الاقتصادية في البلاد، فكان أول ما بادر إليه هذا الماروني المتعصـــب للانتداب أن أغلق ١١١مدرسة حكومية، يقع معظمها في المناطق ذات الأكثرية المســـلمة، ممـــا

([1]) أنطوان عريضة: لبنان وفرنسا وثائق تاريخية أساسية تبرز دور بكركـــي فـــي مواجهـــة الانتـــداب الفرنســـي والاحتكارات الفرنسية، نقلها إلى العربية: فارس غصوب، راجعها وقدم لها: مسعود ضـــاهر، سلســـلة تـــاريخ المشرق العربي الحديث ٢، (دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٧م)، ص٢١.

([2]) بشارة بن خليل الخوري(١٣٠٧ـــ١٣٨٣هـــ/١٨٩٠ـــ١٩٦٤م): لبناني ماروني، ولد بقرية رشميا القريبـــة مـــن بعبدا، درس القانون في الكلية اليسوعية في ببيروت، وهو صحفي وخطيب بليغ وضليع فـــي الأدب والتـــاريخ العربيين، عين بعد الحرب العالمية الثانية أميناً عاماً لإدارة جبل لبنان ومستشاراً لدى الحاكم العسكري الفرنسي، استقال من منصبه بعد سنتين، لمعارضته تسمية حاكم فرنسي بدلاً من حاكم لبناني على لبنان الكبير، كان عضو في المجلس الاستشاري في لبنان منذ عام١٣٤٠هـــ/١٩٢٢م، احتل منصب رئيس الوزراء ثلاثث مرات، أســـس "الكتلة الدستورية" الداعية إلى تفعيل الدستور، وتوقيع اتفاقية مع فرنسا تضمن استقلال لبنان، وهو أول مـــاروني ينادي بعروبة لبنان، وبالتعاون مع سوريا وسائر الأقطار العربية. للمزيد من المعلومات انظر: رغيـــد الصـــلح: المرجع السابق، ص٣٧ـــ٤١ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥٧ـــ١٥٩ ؛ أحمد عطيـــة الله: المرجـــع السابق، ص٢٠٥؛ الزركلي: الأعلام ج٢، ص٥٢ـــ٥٣.

([3]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٤٦ـــ٤٨ ؛ irfan C. Acar: Op. Cit. p.26

زاد نقمة الناس على نظام الانتداب الفرنسي، وأدى إلى قصر عمر الوزارات اللبنانية بعد إعلان الدستور في لبنان([١])، ويرجع ذلك إلى تعدد الطوائف المذهبية في لبنان وعدم اتفاقها، وتدخل سلطات الانتداب بشكل مربك ومريب في الحياة السياسية اللبنانية، مما أثر على الحكومة وأحدث فيها خللاً جعل الساسة اللبنانيين وخاصة النصارى منهم في حاجة دائمة لسلطات الانتداب الفرنسي، لأنهم كانوا يعتبرون أقلية في لبنان الكبير الذي أوجده الانتداب، وبذلك يصبحون قوة يواجهون بها أنصار التيار الإسلامي الداعي إلى الوحدة مع سوريا، ونلاحظ أن الموارنة عملوا على إضعاف المسلمين بإغلاق مدارسهم حتى يتفشى فيهم الجهل، أو يلتحقوا بالمدارس التنصيرية فيسيروا في ركب المستعمر، ويتخلوا عن هويتهم الاسلامية.

التنافس على رئاسة الجمهورية والتوقيع على معاهدة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م:

كان لبنان في الثلاثينات في حالة فوضى سياسية كبيرة، بسبب ظهور منافسة قوية بين المرشحين المارونيين إميل إده وبشارة الخوري حول رئاسة الجمهورية، وقد تمحورت السياسة اللبنانية طول هذه الفترة حول هاتين الشخصيتين، وكان الخوري يتمتع بتأييد نيابي واسع. فلما أيقن إده المعادي للعرب والمسلمين أن معركة انتخاب رئيس الجمهورية خاسرة صرح بتأييد الشيخ محمد الجسر([٢]) الزعيم الطرابلسي المسلم، حيال هذا الوضع وإزاء تخوف سلطات الانتداب من تطور الأمور صدر في٣ محرم ١٣٥١هـ/٩ مايو ١٩٣٢م قرار عن المفوض السامي بونسو بوقف العمل بموجب الدستور([٣]) وحل المجلس النيابي، وإقالة الوزارة، وعين الدباس من جديد رئيساً للبلاد([٤]). وعاد لبنان إلى عهد السيطرة الفرنسية المباشرة، وراحت المفوضية العليا الفرنسية تصور لأنصار الكيان اللبناني أن ما جرى هو لصالحها، لأن حظ الشيخ محمد الجسر بالوصول إلى منصب الرئاسة كان كبيراً([٥]). بسبب تنافس النصارى

([١]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٤٦ـ٤٨ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥٨ .

([٢]) الشيخ محمد بن حسين الجسر(١٢٩٦ـ١٣٥٣هـ/١٨٧٩ـ١٩٣٤م): من أهل طرابلس الشام، كان من المقربين للمفوضية العليا الفرنسية التي عينته ورئيساً للمجلس النيابي اللبناني(١٣٤٧ـ١٣٥٠هـ/ ١٩٢٩ـ١٩٣٢م)، ولكن رغم كل ذلك لم يستطع الوصول لمنصب رئاسة الجمهورية اللبنانية لأنه مسلم. انظر: الزركلي: الأعلام ج٦، ص١٠٦ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤٠٧.

([٣]) علق الدستور في عهد الانتداب الفرنسي مرتين المرة الأولى كانت من٣ محرم ١٣٥١هـ/٩ مايو ١٩٣٢م وحتى ٢٠ شوال ١٣٥٥هـ/٤ يناير ١٩٣٧م ، أما المرة الثانية فكانت من ٧ شعبان ١٣٥٨هـ/٢١ سبتمبر ١٩٣٩م وحتى١١ ربيع الأول ١٣٦٢هـ/ ١ مارس ١٩٤٣م . انظر: محمد طي: صلاحيات الدستور اللبناني، (مجلة الباحث، بيروت، العدد ٣ ، السنة ١١ ، تموز ـ أيلول ١٩٩٢م)، الحاشية ٢٤، ص١٨.

([٤]) رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٣٦ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤٠٥ .

([٥]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٤٩ـ٥٠.

وتماسك الكتلة الإسلامية، فإن نجاح الشيخ الجسر سيضع فرنسا في مواجهة سياسية صعبة جداً، لأن نفوذها في المشرق يرتكز أساساً على النصارى اللبنانيين([1]). لقد استنكر المسلمون ما قامت به سلطات الانتداب الفرنسي وقاموا برفع شكوى إلى عصبة الأمم في جنيف يعترضون فيها على وقف الدستور، ويعتبرون هذا العمل تحدياً يراد منه إقصاء المسلمين عن رئاسة الجمهورية، وبالفعل فقد كشف وقف العمل بالدستور عن نية الانتداب الفرنسي في الحد من الحريات النقابية وتعطيل الحركة السياسة الدستورية في لبنان. حتى تتمكن سلطات الانتداب من السيطرة الكاملة والمباشرة على البلاد، وتستطيع تحريض الطوائف المختلفة في لبنان لتزرع بينهم الفرقة والنزاع، وبذلك تشغلهم عن الالتفات للحالة الاقتصادية المتردية([2])، وتعم الفوضى وينعدم الأمن في البلاد.

في عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م أسس بشارة الخوري "الكتلة الدستورية"، كرد فعل على تعليق الدستور، وقد طالب أعضاء الكتلة الدستورية بتفعيل الدستور وتوقيع اتفاق جديد مع فرنسا، وفي المقابل أسس منافسه التقليدي إميل إدة "الكتلة الوطنية" وطالب بإنشاء وطن قومي مسيحي في لبنان، حتى أنه قال في ملاحظة استفزازية للمسلمين الذين يرفضون فكرة تجزئة لبنان: أن من يرفضون العيش في لبنان مسيحي فعليهم أن يهاجروا إلى مكة المكرمة([3]). وكان رد المسلمين على ذلك في صحيفة لسان الحال الصادرة في ٨ شوال ١٣٥١هـ/٣ فبراير ١٩٣٣م ببيروت:" لقد تعودنا أن نسمع تصريحات عدة بأن من لا يعجبه حال لبنان فليهاجر منه وليرحل عنه، على حين أن هذه البلاد بأموالها وأملاكها، وبحق السكن فيها، هي للمسلمين كما هي لغيرهم"([4]). نلاحظ من خلال تصريحات بعض النصارى المسيئة للمسلمين أن شوكتهم اشتدت، بسبب وجود الانتداب الفرنسي، فأخذوا يهاجمون المسلمين ويستفزوهم، وهذا يبين مدى حقد بعض النصارى العرب على المسلمين، ويبين مدى بطلان الدعوة القومية التي كانوا يفاخرون بها، والتي جروا بعض العرب المسلمين بسببها لمهاجمة الدولة العثمانية ومحاربتها، فبعد خروج العثمانيين التف هؤلاء النصارى حول حليفتهم فرنسا، وتآمروا على العرب المسلمين في لبنان بهدف إخراجهم منها. وعلينا ان نبين هنا أن هناك من النصارى من كان يقبل التعايش مع المسلمين في سلام،

([1]) حسان حلاق : دراسات في تاريخ لبنان المعاصر١٩١٣ــ١٩٤٣ من جمعية بيروت الإصلاحية إلى الميثاق الوطني اللبناني، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٣٦ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤٠٦ــ٤٠٧.

([2]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٥٠ــ٥١.

([3]) فواز طرابلسي : المرجع السابق ص١٥٨

([4]) محمد الخالدي: المرجع السابق،ص٤٠٢.

لكن وجود الانتداب الفرنسي والتفاف بعض أصحاب المصالح حوله أدى إلى خلق النزاع بين المسلمين والنصارى.

وعلى أية حال فقد اعترض البطريرك الماروني أنطوان عريضة([1]) على قرار تعليق الدستور، ما نتج عنه إبقاء شار دباس رئيساً للجمهورية، وطالب في الوقت نفسه بوجوب اختيار رئيس البلاد من الطائفة المارونية، فرد عليه المفوض السامي بأنه (أي أنطوان عريضة) قد وافق على قرار تعليق الدستور، فأجاب عريضة: "أجل وافقت لكي أحول دون وصول الشيخ الجسر إلى الرئاسة". وقد شدد البطريرك عريضة وأقطاب الموارنة حملتهم ضد المفوض السامي بونسو في بيروت، والحكومة الفرنسية في باريس، وتحت هذا الضغط عين المفوض السامي الجديد دي مارتيل الذي جاء في رجب ١٣٥١هـ/نوفمبر ١٩٣٢م إلى بيروت، وتم تعين حبيب باشا السعد رئيساً للبلاد في عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م لمدة سنة ثم جدد له من جديد، لأنه كان من زعماء الموارنة المؤيدين لفرنسا([2]). والناصحين لها فمن أقواله المشهورة:"إننا نحن الشرقيين نحب المجد الكاذب فولونا أعمال البلاد الرسمية، واكتفوا بوضع مستشارين ومراقبين منكم معنا، يرشدون رؤساء الموظفين إلى ما تريدون منا ونحن ننفذه لكم بأحسن ما تنفذوه لأنفسكم"([3]). وفي هذا دلاله على التبعية العمياء من بعض الموارنة وأصحاب المصالح الشخصية لفرنسا.

عند مجيء المفوض السامي دي مارتيل أصدر قراراً في ربيع الأول ١٣٥٢هـ/يوليو ١٩٣٣م يقضي بإعادة تنظيم الإدارات في جمهورية لبنان، وفي شوال ١٣٥٢هـ/ أواخر يناير ١٩٣٤م أمر بتجديد منصب رئاسة الجمهورية لحبيب باشا السعد على أن تنتهي في ٥ ذي القعدة ١٣٥٤هـ/٣٠ يناير ١٩٣٦م في محاولة منه لإحصاء أنصار الانتداب على أمل تجنيدهم لمواجهة التدهور الاقتصادي الحاصل في البلاد([4]).

وخلال ١٣٥٤هـ/مطلع عام ١٩٣٦م انتهت ولاية السعد فدعي المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل إلى اجتماع استثنائي للمجلس النيابي لانتخاب رئيس جديد للبلاد، فحاول النائب أيوب ثابت ترشيح نفسه لمنصب رئاسة الجمهورية، غير أن المفوض السامي الفرنسي رفض ذلك بشدة لا لشيء إلا لأنه ينتمي إلى الطائفة البروتستانتية رغم موالاته الشديدة وتعصبه لفرنسا. فقد

([1]) البطريرك الماروني أنطوان عريضة(١٢٨٠ــ١٣٧٤هـ/١٨٦٣ــ١٩٥٥م): ولد في بشرى، تولى منصب البطريركية في لبنان منذ عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م. انظر: المنجد، ص٣٧٤.

([2]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٥٠.

([3]) مجلة المنار: ج٨، المجلد ٢٦، ٣٠ رجب ١٣٤٤هـ/ ١٣ فبراير١٩٢٦م، ص٥٩١ــ٥٩٢.

([4]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٥٣ ؛ حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٥.

رأى المفوض السامي أن رئيس الجمهورية يجب أن يكون مارونياً([1])، ولذلك ترشح لمنصب الرئاسة الموارنة الثلاثة: حبيب السعد وإميل إده وبشارة الخوري، ففاز إده بأغلبية ١٥ صوت مقابل ١٠ أصوات([2]) لمنافسة الخوري([3]).

في٥ ذو القعدة ١٣٥٤هـ/٣٠ يناير ١٩٣٦م تسلم إميل إده مهام رئاسة الجمهورية في لبنان واستمر في منصبة حتى عام١٣٦٠هـ/١٩٤١م، وفي عهدة تزايدت حدة التيارات السياسية والطائفية المتصارعة في لبنان، وتزعم الخوري رئيس "الكتلة الدستورية" المعارضة، وتقدم في٩ ذو الحجة ١٣٥٤هـ/٣ مارس ١٩٣٦م بمذكرة إلى المجلس النيابي يطالب فيها بتوقيع معاهدة مع فرنسا تحل محل الانتداب([4]). ولم تكن نقمت وغضب الخوري على الانتداب بسبب تكريس مذهب أو طائفة معينة لمنصب رئاسة الجمهورية، بل لأن المفوض الفرنسي وقف إلى جانب إميل إدة ضده في انتخابات الرئاسة على حد قوله([5]).

وهكذا أعيد العمل بالدستور اللبناني، وكان هذا بداية مرحلة جديدة يمر بها لبنان في ظل الانتداب الفرنسي([6])، فقد ضاق اللبنانيون ذرعاً من الانتداب، وطالبوا بتوقيع اتفاقية تخلصهم من من الهيمنة الفرنسية المباشرة، وبالفعل دخل إدة مفاوضات استمرت ثلاثين يوماً مع الفرنسيين، انتهت بتوقيع معاهدة التحالف والصداقة مع فرنسا في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ/ ١٣ نوفمبر ١٩٣٦م مدتها ٢٥ سنة والتي تعترف فيها فرنسا باستقلال لبنان داخلياً فقط وتساعده خلال ٣ سنوات لدخول عصبة الأمم([7])، مقابل أن تظل فرنسا مسيطرة على شؤون الدفاع وتحتفظ بحاميات عسكرية دائمة على الأراضي اللبنانية، وتسيطر على السياسة الخارجية([8]). وقد كان اللبناني إميل إدة يفتخر بوجود الجنود الفرنسيين في لبنان بقوله :"ونحن على كل حال بذلنا

([1]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٥ـ٢٦.

([2]) هناك اختلاف بين المراجع حول الفرق في الأصوات ففواز الطرابلسي يذكر أن فوزه على الخوري كان بفارق صوت واحد فقط. أما علي شعيب فيذكر أن إدة في الاقتراع الأول حصل على ١٣ صوتاً في مقابل ١٢ صوتاً للخوري ، أما في الاقتراع الثاني حصل على ١٤ صوتاً مقابل ١١ صوتاً للخوري. انظر: فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص١٦٥؛ علي شعيب: المرجع السابق، ص٤١.

([3]) محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤٠٧ـ٤١١ ؛ حسان حلاق: مؤتمر الساحل،ص٢٥ـ٢٦ ؛ علي شعيب : المرجع السابق، ص٥٣.

([4]) محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤٠٧ـ٤١١ ؛ علي شعيب : المرجع السابق، ص٥٣.

([5]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل،ص٢٥ـ٢٦.

([6]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٥٣.

([7]) جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٢٦٨ـ٢٦٩ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٣٢ـ١٣٣.

([8]) فواز طرابلسي : المرجع السابق ص١٥٨ ؛ جان سرور: كيف حاول الانتداب الفرنسي فرض معاهدة على سوريا ولبنان، ص٥٩

جهودنا لإلباس علاقتنا بفرنسا صفة الدوام بشكل ملموس، فبينما طالب جيراننا بسحب الجيوش الفرنسية، طلبنا نحن ببقاءها دون شرط...إن ساحل لبنان يعتبر كله قاعدة بحرية فرنسية"([1]).

ومن هنا يظهر مدى تأثير السياسة الفرنسية على بعض الساسة اللبنانيين ورجال الدولة فيها، فقد أدى هذا الارتباط بين فرنسا وبعض النصارى إلى محاولة فاشلة لاقتطاع جزء من العالم العربي الإسلامي، بحيث يصبح هذا الجزء مرتبط بفرنسا في الغرب أكثر من ارتباطه بالوطن العربي الإسلامي في الشرق.

وفي الثاني من رمضان ١٣٥٥هـ/١٧ نوفمبر ١٩٣٦م عقد المجلس النيابي اللبناني جلسة وافق فيها على المعاهدة المبرمة بين فرنسا ولبنان، مع العلم أن المجلس النيابي الفرنسي رفض التوقيع على هذه المعاهدة ـ كما هو الحال بالنسبة للمعاهدة السورية الفرنسية ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م السالفة الذكرـ، وقد احتج المسلمون على هذه المعاهدة التي تقيد لبنان لمدة ٢٥ سنة، والتي ترسخ للوجود العسكري الفرنسي على أرضها وتتحكم بمصيرها وعلاقاتها الخارجية، وأنه من حسن الحظ عدم موافقة المجلس النيابي الفرنسي على هذه المعاهدة ، لأن تطبيقها كان يعني بقاء القوات العسكرية الفرنسية إلى عام١٣٨١هـ/١٩٦١م بينما تم جلاء القوات عن لبنان عام١٣٦٥هـ/١٩٤٦م([2]).

انتخب إدة لرئاسة الجمهورية اللبنانية مرتين الأولى خلال عامي(١٣٥٥ـ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٦ـ١٩٣٨م) والثانية من انتهاء الفترة الأولى حتى عام ١٣٦٠هـ/١٩٤١م، فعقب اندلاع الحرب العالمية الثانية في رجب ١٣٥٨هـ/سبتمبر ١٩٣٩م أصدر المفوض السامي في سوريا ولبنان غبريال بيو الذي تولى منصبة في ذي القعدة ١٣٥٧هـ/ يناير ١٩٣٩م قراراً بوقف الدستور من جديد، وثبت إده رئيساً لجمهورية لبنان بالتعيين لا بالانتخاب، لكنه قلص صلاحياته. وعين إدة خير الدين الأحدب([3]) لرئاسة الوزراء، وهي أول مرة يتولى فيها مسلم رئاسة الوزراء، وذلك لاعتقاد إدة أن التعاون مع المسلمين السنة، ربما يؤدي تدريجياً إلى قبولهم

([1]) F.O.371/ 89,No E 3735, From: Sir Erik Phipps, To: Sir A. Eden, in 5 July 1937 ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤١٢ ؛

([2]) حسان حلاق: دراسات في تاريخ لبنان، ص١٧٢ـ١٧٣ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤١٠ ؛ irfan C. Acar: Op. Cit. p. 30-31.

([3]) خير الدين الأحدب رئيس الوزراء اللبناني الأسبق خلال فترة الانتداب الفرنسي. شكل حكومته الأولى في ٢٣ شوال ١٣٥٥ هـ/٥ يناير ١٩٣٧م. و شكل حكومته الثانية في ١٢ محرم ١٣٥٧هـ/١٣ مارس ١٩٣٨م. وكان من رجالات الصحافة اللبنانيين. انظر الموقع على الانترنت: الموسوعة الحرة ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org/

بالكيان اللبناني، وتخف بذلك حدة المعارضة له، ويـتخلص مـن فكـرة الوحـدة مـع سوريا([1]). ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم أصبح الذي يتولى منصب رئيس الجمهورية مارونيـاً، ورئيس الوزراء مسلماً سنياً، ورئيس مجلس النواب مسلماً شيعياً([2]).

إن الممارسات السيئة للسياسة الانتداب الفرنسي على لبنان كان لها أثرهـا السـلبي فـي الرأي العام اللبناني بصفة عامة، وفي السياسة اللبنانيـة بصـفة خاصـة، فالتعطيـل والتعـديل المستمران في الدستور اللبناني، جعلت الرأي العام اللبناني يدرك حقيقة الديموقراطية الشكلية في ظل الانتداب الفرنسي([3]). لذلك استغل المسلمون بقيادة رياض الصلح ، والموارنة بقيادة بشـارة الخوري ظروف الحرب وتمكنوا من انتزاع استقلال لبنان من فرنسا، فيما أطلق عليه فيما بعـد اسم "الميثاق الوطني"، الذي تم بين الزعيمين بصورة شفهية في عام ١٩٤٣م([4]).

ونلاحظ من خلال هذا العرض الموجز عن أثر الانتداب الفرنسي على الحالـة السياسـية لسوريا ولبنان رضوخ السوريين واللبنانيين للأمر الواقع وتخليهم عن فكرة الوحدة، التي كانـت شعارهم الأول عندما ثاروا على الدولة العثمانية وأخرجوها من بلاد الشام.

([1]) حسان حلاق: دراسات في تاريخ لبنان، ص١٧٧ـ١٧٨ ؛ محمد الخالدي: المرجع السـابق، ص٤١١ ؛ مجلـة الفكر الإسلامي، العدد ٧ ، السنة ١٢ ، رمضان ١٤٠٣هـ/ يوليو ١٩٨٣م، ص٢٨.

([2])حسان حلاق: دراسات في تاريخ لبنان ، ص٢٣٠ـ٢٣٣ ؛ irfan C. Acar: Op. Cit. p. 30

([3]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص٢١ ؛ محمد صبيح: مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية، (القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م)، ص٤١٧.

([4]) حسان حلاق: دراسـات فـي تـاريخ لبنـان المعاصـر، ص٢٣٣ ؛ John P Spagnolo: France & Ottoman Lebanon 1861-1914,(Published for The Middle East Centre St Antony's College Oxford, London, 1977),pp300-301.

المبحث الثاني: الكفاح الوطني في بلاد الشام ضد الاستعمار الفرنسي منذ سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

لما كانت الأوضاع السياسية والإدارية في سوريا ولبنان مترابطة ترابطاً وثيقاً، وكان مصير البلدين متلازماً ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لذلك كان الكفاح الوطني في بلاد الشام ضد الاستعمار الفرنسي مشتركاً بين السوريين واللبنانيين، فعلى إثر دخول الاحتلال الفرنسي بلاد الشام قامت العديد من الثورات في سوريا وسواحلها، وقد ذكرنا بعض أهم هذه الثورات في التمهيد.

ووفقاً للمعلومات الرسمية فقد خسر الفرنسيون نتيجة حرب العصابات المتواصلة هذه خلال خمس سنوات (من عام١٣٣٨ــ١٣٤٢هــ/١٩٢٠ــ١٩٢٤م) أكثر من ستة آلاف رجل بين قتيل وجريح([1]).

ويذكر الجنرال سراي أنه في عهد الجنرال غورو وبالتحديد في عام١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، قامت خمس وثلاثون ثورة في سوريا وحدها، ودفن فيها من الجيش الفرنسي خمسة آلاف جندي، أما عدد القتلى الفرنسيين في الشرق(سوريا ولبنان) من بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ١٣٣٧هــ/١٩١٩م وحتى عام ١٣٤٢هــ/١٩٢٤م فقد بلغ تسعة آلاف جندي و٢٥٠ ضابطاً([2]). وتعتبر هذه الثورات مقدمة للثورة السورية الكبرى التي انطلقت من الجبل عام ١٣٤٣ــ١٣٤٥هــ/ ١٩٢٥ــ١٩٢٧م([3])، والتي منها انتشرت الثورة إلى بلاد الشام كلها.

([1]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١٣٤.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية،ج٣، ص٢٥٥ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٤٢.

([3]) انظر خريطة الثورات السورية ضد فرنسا في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧ .

فقد بلغ النضال الوطني للشعبين السوري واللبناني ذروته ضد الاحتلال الفرنسي خلال الأعوام من١٣٤٣ــ١٣٤٥هــ/١٩٢٥ــ١٩٢٧م، حيث أخذ شكل حرب وطنية شعبية تحريرية، بسبب سياسة الاحتلال القائمة على النهب والاستعباد والتعسف وخنق الحرية والثقافة الوطنية التي اتخذتها فرنسا ضد الشعبين السوري واللبناني([١]).

وقبل أن نخوض في تفاصيل هذه الثورة وكيفية انتشارها علينا أن نوضح أسبابها وبعض الشبهات التي أثيرت حولها، فالدروز([٢]) كانوا من الذين ساعدوا بريطانيا في حربها ضد الدولة العثمانية، وعندما دخلت القوات الفرنسية سوريا تقبل حكام الجبل الانتداب الفرنسي بشرط ألاّ يمس استقلالهم([٣]). ومن منطلق هذا الشرط قامت الثورة ضد الانتداب الفرنسي كما سنرى.

فمن أسباب الثورة السورية الكبرى مداهمة القوات الفرنسية منطقة القرية بلدة سلطان الأطرش، على إثر حادث محاولة اغتيال الجنرال غورو في ذي القعدة ١٣٣٩هــ/ يوليو ١٩٢١م، فقد لجأ أدهم خنجر الذي أتهم بمشاركته في هذا الحادث إلى القرية، وقامت القوات الفرنسية باعتقال أدهم خنجر دون إذن في ٢١ ذي القعدة ١٣٤٠هــ/ ١٧ يوليو ١٩٢٢م، فغضب سلطان الأطرش من اختراق الفرنسيين للأعراف والتقاليد المرعية في الجبل([٤])، فاشتبك مع القوات الفرنسية وكانت هذه أول مواجه مسلحة بين القوات الفرنسية والدروز وأطلق عليها ثورة الدروز الأولى أو ثورة سلطان الأطرش الأولى([٥])، ومن ذلك الحين أخذ سلطان الأطرش يدعو إلى الثورة ضد الفرنسيين في الجبل([٦]).

([١]) منير الريس: المرجع السابق، ص١٥٤ــ١٦٣ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٥٨ــ٥٩ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٢٠.

([٢]) فمما امتاز به الدروز عن بقية الطوائف السورية اختيارهم السكني في رؤوس الجبال فهم ينزلون ثلاثة جبال متجاورة جبل حوران وجبل الشيخ وجبل لبنان. ويكادون يكونون منفردين في الجبلين الأوليين. أما جبل لبنان فيؤلفون الأكثرية في بعض المناطق الوسطى وبعض الجهات الساحلية. وفيما عادا ذلك فالأكثرية المطلقة للموارنة.= =انظر: أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣٤٣.

([٣]) محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٧٨ــ٣٧٩ ؛ برجيت شيبلر: انتفاضات جبل الدروز ــ حوران من العهد العثماني إلى دولة الاستقلال ١٨٥٠ــ١٩٤٩م ، دراسة انتربولوجية ــ تاريخية، (دار النهار بالتعاون مع المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، بيروت)، ص١٩٨ــ٢٠٨ وص٢٢٠.

([٤]) محمد بن عبد الغني النواوي: رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، مؤامرة الدويلات الطائفية، (حقوق الطبع محفوظة للكاتب،ط١، ١٤٠٣هــ/١٩٨٣م)،ج١، ص٥٥ ؛ فارس زرزور:المرجع السابق،ص١٩٣ــ١٩٤.

([٥]) للمزيد من المعلومات حول هذه الثورة انظر: سلطان باشا الأطرش: سلطان باشا الأطرش تاريخ وطن، مذكرات جمعها فريد عبد الكريم فياض، (منشورات دار علاء الدين)، ص٦١ــ٧٠ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق،ص٦٣ــ٦٨.

([٦]) الجنرال أندريا: المرجع السابق،ص٧٣ــ٧٧ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق،ص٦٨ــ٧٠ ؛ حسن البعيني:

كما أن أهم الأسباب التي جعلت جميع المناطق السورية واللبنانية تشارك في الثورة ضد الفرنسيين هو تغطرس الاستعمار الفرنسي منذ أن دخل بلاد الشام، والمتمثلة في خطب الجنرال غورو، فقد قال في خطبة له عندما أصبح مفوضاً سامياً:"أننا ورثنا الصليبيين، وأتينا لنكمل عملهم" كما قال في خطبة له عندما زار حمص: "من لم يعجبه البقاء في سوريا تحت انتدابنا فليذهب إلى مكان آخر"، كما قال عندما تعرض للاغتيال مهدداً أهل سوريا: "لا تحرجوا الأسد الرابض في عرينه فيخرج إليكم"([1]).

وانطلاقا من سياسة التجزئة التي فرضتها فرنسا أعطي الاستقلال لمنطقة جبل العرب، بموجب المرسوم الذي أصدره المندوب السامي الجنرال غورو بتاريخ ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٣٩هـ/٤ مارس ١٩٢١م، والذي نص بوجوب تعيين حاكم الجبل من أبنائه على أن تعطي فرنسا حق مراقبة الإدارة في أعمالها لذلك، فقد اختير سليم بن يحي الأطرش([2]) حاكما للجبل وأرسلت الحكومة الفرنسية في ذي القعدة ١٣٤١هـ/يوليو ١٩٢٣م الكابتن كاربية([3]) مستشارا للحاكم، وكان هناك بداية التنافس بين آل الأطرش على منصب الحاكم الوطني للجبل، فعلى أثر وفاة سليم الأطرش في أوئل شهر صفر ١٣٤٢هـ الموافق منتصف شهر سبتمبر ١٩٢٣م، تم اختيار عمه حمد الأطرش حاكماً للجبل، لكن عبد الغفار الأطرش رفض هذا الاختيار، وأدى التنافس بين آل الأطرش على منصب الحاكم الوطني إلى فقدانهم هذا المنصب، وهذا جعل الكابتن كاربية يستحوذ على هذا المنصب، حيث حكم بصفته حاكم بالوكالة لمدة ثلاثة أشهر، حتى يتم الاتفاق بين المتنافسين على الحكم، وفي ربيع الأول ١٣٤٢هـ/أكتوبر ١٩٢٤م جمع أعضاء المجلس الوطني وهددهم بهلاك من لا ينتخبه كحاكم على الجبل وبالفعل تم انتخابه بالإجماع([4]).

المرجع السابق، ص١٥٩ــ١٦٣.

([1]) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٧٨.

([2]) سليم بن يحي الأطرش: حاز على ثقة المندوب السامي الفرنسي، فأنعم عليه بلقب أمير وعينه حاكماً على الجبل، الجبل، على الرغم من أنه بقي مؤيداً للدولة العثمانية حتى سقوطها، ولكن عندما هزمت الدولة العثمانية ودخل الفرنسيون سوريا أعلن سليم الأطرش تأييده لفرنسا. انظر: محمد النواوي: المرجع السابق، ج١، ص٥٠ــ٥١.

([3]) الكابتن كاربيه:جاء إلى سورية في ذو القعدة ١٣٤١هـ/يوليو ١٩٢٣م بصفته مستشاراً للحاكم، وبعد وفاة حاكم الجبل سليم الأطرش في أوئل صفر ١٣٤٢هـ/ منتصف شهر سبتمبر ١٩٢٣م، استحوذ كاربية على منصبه بصفه مؤقتة، ثم أصبح الحاكم الرسمي في الجبل في ربيع الأول ١٣٤٣هـ/أكتوبر ١٩٢٤م، سافر كاربية في إجازة إلى فرنسا في شوال ١٣٤٣هـ/منتصف مايو ١٩٢٥م بعد أن ذاق منه أهل الجبل الأمرين، فطلبوا من السلطات الفرنسية إقالته وتثبيت خليفته الكابتن رينو، لكن سلطات الانتداب رفضت ذلك فكان هذا من أهم أسباب ثورة الدروز. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية، ص٢٨٨ــ٢٩٣.

([4]) كاربييه: مذكرات الكابتن كاربييه في جبل العرب، ترجمة: نبيل أبو صعب، تقديم: منصور الأطرش، تعقيب:

وقد بدأ الدروز يعانون من الظلم والاضطهاد بعد أن نقض الفرنسيون الاتفاق معهم فيما يختص باستقلال الجبل، وعينوا الكابتن كاربيه حاكماً للجبل في عهد الجنرال ويغاند، وفي هذه الفترة ازداد التذمر من أعمال الفرنسيين، حتى بلغ أشده حينما استدعت الحكومة الفرنسية في ١ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ/٢٨ نوفمبر ١٩٢٤م الجنرال ويغاند المندوب السامي في بيروت، وأبدلته بالجنرال سراي الذي وصل إلى بيروت في يوم الإثنين ٢٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ/٢٢ ديسمبر ١٩٢٤م فوجد نفسه بين يدي ثورة عامة قام بها الأهالي، في الداخل والساحل ضد الانتداب الفرنسي فبادر إلى معالجة الموقف المضطرب عن طريق مواجهة الثورة بالسلاح، مع بعض الإجراءات التي تحمل الشكل الديمقراطي بالنسبة إلى الحكم المحلي في لبنان، وطلب من الأهالي انتخاب مجلس تمثيلي يقوم بوضع دستور ينظّم الحكم في البلاد . استعمل الفرنسيون هذا المجلس لإعطاء عملياتهم العسكرية شكلاً ديمقراطياً[1].

كما قام سراي في١٩ جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ/١٥يناير ١٩٢٥م بإلغاء الأحكام العرفية المفروضة على البلاد منذ عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، والعفو عن خمسين شخصاً من المحكوم عليهم في الأحكام العرفية الفرنسية، وأصدر بلاغاً ذكر فيه: إن أبوابه مفتوحة، وأنه مستعد لسماع مطالب أهل البلاد، فألفت دمشق وفداً كبيراً ضم ١٥٠ من رجالها قصد بيروت لمقابلته في٢١ جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ/ ١٧ يناير ١٩٢٥م وسلمه عريضه[2] فيها تواقيع من مختلف أبناء الشعب السوري، يعرب فيها الشعب السوري عن مطالبه، وقد تضمنت ١٣ مطلباً ومن أهمها:

١. أن تكون البلاد السورية بحدودها الطبيعية التي كانت عليها قبل الحرب العالمية الأولى بما فيها بلاد العلويين وجبل الدروز ولواء الإسكندرونة والأراضي الملحقة بلبنان الصغير وطناً واحداً في اللغة والقومية.
٢. أن الحرية الشخصية حق طبيعي لكل فرد، لذلك يجب العفو عن المعتقلين والمبعدين السياسيين.

فندي أبو فخر،(مكتبة الأسد،دمشق، ط١٩٩٩،١م)،ص١٥٠ــ١٦٠ ؛ محمد النواوي: المرجع السابق، ص٥٥ــ٥٦ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية، ص٢٨٨ــ٢٨٩ ؛ محمد الخالدي:المرجع السابق،ص٣٧٩ــ٣٨٠.

[1] أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٨٤ ؛ عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٨٦ ؛ علي شعيب: المرجع السابق، ص٣٩ــ٤٠ ؛ زاهية قدورة: المرجع السابق، ص٣١٠.

[2] انظر نص العريضه في: أمين سعيد: الثورة العربية،ج٣،ص٢٨٤ــ٢٨٦ ؛ محي الدين السفرجلاني: تاريخ الثورة السورية صفحات خالدة من روائع كفاح العرب في سبيل الحرية والاستقلال والوحدة هي للاستعمار الفرنسي صحائف سوداء، (دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)، ص١١٨ــ١٢٠ ؛ ذوقان قرقوط: المشرق العربي..، ص٢٢٠ــ٢٢٢.

٣. الاقتصار على استخدام أهل البلاد في الوظائف الرسمية([1]).

وفي جبل الدروز اجتمع زعمائه ووضعوا عرائض، يعلنون فيها أنهم يرفضون تعيين حاكم فرنسي عليهم، ويطالبون بتعيين حاكم وطني مكانه، عملاً بالاتفاق المعقود بينهم وبين فرنسا، وحمل حسين الأطرش ومتعب الأطرش هذه العرائض إلى السلطات الفرنسية في دمشق، وشكيا من تصرفات كاربية وأعماله([2])، وطلبا إقالته. وعندما علم كاربية بهذه الزيارة قام بوضع عرائض تتضمن التأييد له، وكان يطوف بهذه العرائض على الناس ويحملهم على التوقيع عليها، كما انصرف إلى الانتقام من آل الأطرش وأنصارهم ومواليهم وعمل على إذلالهم وقهرهم على مرأى ومسمع من الناس حتى يرهبهم، شكا الدروز هذه الأعمال الشاذة إلى الفرنسيين لكنهم وجدوا الأبواب مغلقة في وجوههم مما زادهم يأساً، وزاد الحاكم الفرنسي كاربية طغياناً، ففي ١١ رمضان ١٣٤٣هـ/٥ إبريل ١٩٢٥م جاءت الأخبار بأن الجنرال سراي ينوي زيارة الجبل للاشتراك في حفلة عيد استقلاله، فاستبشر أهل الجبل واختاروا وفداً من الأمير حمد الأطرش ونسيب وعبد الغفار ومتعب الأطرش وغيرهم من الزعماء والشيوخ لمقابلة الجنرال وإبلاغه مطالبهم، فطلب منهم أن يأتوه إلى دمشق فلما جاءوه ودخلوا عليه قال لهم ماذا تريدون،فأجابوه بمطالبهم وكانت على النحو الآتي:

١. تطبيق الانتداب في الجبل طبقاً للشروط المتفق عليها بين فرنسا وزعماء الجبل والمصدق عليها من قبل الجنرال غور .
٢. فتح أبواب المفوضية لسماع شكاوى أهل الجبل من تصرفات بعض الموظفين.
٣. إزالة كل اعتداء يعتديه الكابتن كاربية على الزعماء وإبداله بحاكم وطني حسب ما هو مصرح به في الاتفاق، وإنشاء تفاهم بين الشعب الدرزي والانتداب([3]).

وأن ما يهمنا هنا هو أن نشير إلى أنه مهما كان السبب في قيام الدروز بثورتهم ضد الانتداب الفرنسي، فإن هذه الثورة كانت السبب في انتشار شرارة الثورة من الجبل إلى بلاد الشام كلها، سواء كان هذا بقصد أم بغير قصد من الدروز. فالمعاملة السيئة من كاربية لأهل الجبل لم يكن يعاني منها أهل الجبل فقط ، بل كانت تعاني منها بلاد الشام كافة وهذا الذي أدى إلى قيام الثورة السورية الكبرى كما سنرى.

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية،ج٣،ص٢٨٤ــ٢٨٦ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١١٨ــ١٢٠ ؛ ذوقان قرقوط: المشرق العربي..ص٢٢٠ــ٢٢٢.

([2]) انظر عريضة إلى الجنرال سراي بأسباب التذمر من حاكم الجبل الكابتن كاربية في ملحق الوثائق الملحق رقم٧.

([3]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٨٩ــ٢٩٠ ؛ سيرتي ومذكراتي، ج١، ص٢٧٤ــ٢٧٥ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص٧٧ــ٧٨.

لما سمع الجنرال سراى مطالب الوفد الدرزي قام بزجره وطرده من دمشق وأمهلهم ساعتين لمغادرتها أو أنه سوف يقوم بنفيهم خارج البلاد، وبعد مناقشات قصيرة خرج الوفد غاضباً، بعد أن قبض سراي على عقلة القطامي([1]) شيخ قرية خربا، وأحد الزعماء المسيحيين من جبل الدروز ونفاهم إلى تدمر، وعاد بقية الوفد إلى الجبل وهم يشتعلون غيظاً وحنقاً، ووصل ما جرى إلى الكابتن كاربية فزاد من جبروته ولقب نفسه بإمبراطور الصحراء وبالسلطان عبد الحميد([2]). حاشاه السلطان عبدالحميد أن يكون مثل هذا الفرنسي الجبار.

وبينما كانت البلاد على هذا الحال جاءت الأخبار بأن اللورد بلفور صاحب الوعد المشؤوم عزم على زيارة بلاد الشام، فتأهبت دمشق لهذا النبأ واحتشد أبناؤها ورجالها في ١٤ رمضان ١٣٤٣هـ/٨ إبريل ١٩٢٥م أمام محطة القطار للتظاهر ضده، ولحقته الجماهير الغاضبة إلى فندق فكتوريا([3]) ونادوا بسقوطه وسقوط الصهيونية والانتداب الفرنسي، وحصل اصطدام بين الجماهير وقوات الشرطة أدت إلى سقوط عدد من الجرحى وقبض على ٢٣ شاباً، وازدحم الناس في الجامع الأموي في صلاة الظهر وخطب فيهم السيد علي الطنطاوي([4]) ومحي الدين السفرجلاني([5]) وبعد الصلاة([1]) خرجوا بمظاهرة كبيرة منادين بسقوط بلفور ووعده، والانتداب

([1]) عقلة القطامي(١٣٠٦ــ١٣٧٥هـ/١٨٨٩ــ١٩٥٦م): ولد في السويداء، وهو مسيحي الديانة، تلقى دروسه في الجبل، اشترك في الثورة السورية الكبرى، نفي عدت مرات، دمر الفرنسيون داره وصادروا أملاكه، وبعد الثورة نزح مع الثوار المبعدين إلى شرق الأردن وكان يتردد بين الأزرق والنبك، ثم عاد إلى السويداء في١٣٥٥هـ/١٩٣٧م بعد صدور العفو العام. انظر: أدهم الجندي: تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب، (دمشق، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، ص٢٤٤ــ ٢٤٥ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص١٦١.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٨٩ــ٢٩٠ ؛ سيرتي ومذكراتي، ج١، ص٢٧٤ــ٢٧٥.

([3]) فندق فكتوريا: في وسط دمشق وهو الفندق نفس الذي كان يقيم فيه محمد جمال باشا وكان بمثابة مقر قيادة الجيش العثماني، وقد خرج منه بعد دخول الجيش العربي والقوات البريطانية إلى دمشق، وفيه اجتمع الجنرال اللنبي وأعضاء المكتب العربي وضباط البعثة البريطانية مع الأمير فيصل بن الحسين في ذي الحجة ١٣٣٦هـ/أكتوبر ١٩١٨م وأبلغه باتفاقية سايكس بيكو. انظر: أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، (دار الكاتب العربي، بيروت، ط٢)،ص٢٦٣ ؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربية..، ص٤٨.

([4]) الشيخ علي الطنطاوي(١٣٢٧ــ١٤١٩هـ/١٩٠٩ــ١٩٩٩م): ولد في مدينة دمشق بسوريا في ٢٣ جمادى الأول ١٣٢٧هـ/١٢ يونيو ١٩٠٩م، حصل على البكالوريا سنة ١٩٢٨م، من مكتب عنبر الثانوية في دمشق آنذاك، وسافر إلى مصر للدراسة في كلية دار العلوم التي لم يكمل الدراسة فيها، فعاد إلى دمشق والتحق بكلية الحقوق حتى نال الليسانس سنة١٣٥١هـ/١٩٣٣م، وعمل في سلك القضاء وتدرج لأعلى المناصب في المحاكم السورية. انظر: علي الطنطاوي: ذكريات، تعليق: مجاهد مأمون ديرانية، (دار المنار للنشر والتوزيع، جدة، ط٥، ٢٠٠٧م)، ج١، ص٢٧ــ٢٢٢.

([5]) محي الدين السفرجلاني: ولد في بيروت عام١٣٣٤هـ/١٩١٥م تلقى تعليمه في مدينة دمشق ونال شهادة البكالوريا قسم الآداب عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، وانتسب إلى جامعة دمشق فنال الدبلوم في الصيدلة

وحكومته، وبتحية فلسطين وأهلها، ولما وصلوا بالقرب من فندق فكتوريا صـدهم الجند ودار شجار عنيف بينهم، فأطلق الجند الرصاص على المتظاهرين فقتل اثنان وجرح نحو ٢٠ شخص([٢])، ونتيجة لذلك حدث شغب خطير خافت السلطات الفرنسية من عواقبه، فأرسل الجنرال سراي مندوباً عنه إلى اللورد بلفور يطلب منه مغادرة البلاد حالاً؛ خوفاً على حياته، وبالفعل غادر بلفور الفندق من الباب الخلفي له، وركب سيارة ذهبت به إلى بيروت تحت حماية الشرطة والدرك. وكتب الجنرال سراي في مذكراته عن هذه الزيارة يقول: "لقد استقبلت دمشق اللورد بلفور بالاحتجاجات التي اشترك فيها بعض العناصر المسيحية التي لا تستطيع الكف عن عاداتها في إدخال الديانة في كل شيء. وقد وزعت مناشير كثيرة بعنوان فلسطين للعرب. بلاد العرب للعرب...وقد كانت زيارة اللورد بلفور مقدمة لمظاهرات عديدة ليست خطيرة النتائج اقتصرت على إغلاق الحوانيت وصدور الصحف بالإطارات السوداء، وإضراب طلاب المدارس...فعمدت إلى إخمادها بسرعة دون شيء من الشدة، كما أشيع هنا وهناك"([٣]) وهو هنا يحاول أن يبرئ نفسه من الجرائم التي أرتكبها في حق أهل الشام عند إخماده للمظاهرات ضد بلفور. وهنا يظهر دور بعض النصارى الإيجابي في الوقوف في وجه الاستعمار الأجنبي.

ويذكر الشيخ علي الطنطاوي وهو من الذين عاصروا تلك الفترة أن الثورة السورية بدأت من غوطة دمشق عندما قام الشيخ بدر الدين الحسني([٤]) باستنفار الناس من على منبر الجامع

عام١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ثم الدكتوراه في الصيدلة من جامعة باريس عام ١٣٧٠م/١٩٥١م، كما حصل على عدد من شهادات الاختبار على أعمال التحاليل الطبية والغذائية والسموم من مستشفى (أوتيل ديو) في جامعة باريس، ومن مؤسسات ومعاهد القطر العربي المصري. عمل صيدلانياً ورئيس مخبر ومفتشاً عاماً للشؤون الصيدلية في وزارة الصحة. عضو جمعية البحوث والدراسات. انظر: الموقع على الانترنت تراجم أعضاء اتحاد الكتاب العرب في سورية و الوطن العربي – الطبعة الرابعة ٢٠٠٠م، http://www.awu-dam.orgm.

([١]) بالنظر إلى تاريخ ولادة السفرجلاني فإنه يستبعد أن يكون ممن خطبوا في الناس في ذلك الوقت لأن عمرة يكون عشر سنوات.

([٢]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٢١ـ١٢٢ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٤٩.

([٣]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٢٢ـ١٢٣ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٨٧ـ٢٨٨ ؛ سيرتي ومذكراتي، ج١، ص٢٧٢ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٥٥ـ٥٧.

([٤]) الشيخ محمد بدر الدين الحسني، المغربي ، المراكشي (١٢٦٧ـ ١٣٥٤هـ/١٨٥٠ـ١٩٣٥م): ولد في دمشق في دار والده المجاورة لمدرسة دار الحديث الأشرفية، أقر له جميع علماء الشام، ومن عرفه من علماء الدنيا، بقدم السبق في العلم وخاصة في علوم الحديث، وكان علماء دمشق يحضرون دروسه اليومية .وكان الأطباء والمهندسون الذين يحضرون دروسه يقولون: لقد أفنينا العمرفي تعلم مهنتنا لكنه يعرفها أكثر منا. وكان كذلك له دور كبير في تنظيم الثورة ضد الاحتلال الإفرنسي. توفي يوم الجمعة ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٤هـ/٢٨ يونيو ١٩٣٥م، وخرجت جنازته فخرجت فيها الشام كلها، ودفن في مقبرة الباب الصغير، جنوبي دمشق، حيث قبر

الأموي، يدعو إلى نهضة المشايخ، وخاصة بعد زيارة بلفور لدمشق الشام، فأخذ يحث الناس على الثورة والجهاد في وجه المستعمر الأجنبي الذي استباح البلاد والعباد، وكان المشايخ يطوفون في المدن السورية، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحثون على الجهاد، وكانت هذه الجولات هي التي أشعلت نار الثورة السورية الكبرى، وكان أول من استجاب لهذه الدعوة هم رجال الغوطة الذين قادوا حركة الجهاد في دمشق([1]). وعلينا هنا أن نشير إلى دور المسجد في إثارة الحماس في نفوس الناس، فإننا نجد أن الذي قاد الثورة السورية هم المشايخ الذين حثوا على الجهاد في سبيل الله ثم الوطن، لذلك عندما أعلن سلطان الأطرش الثورة رسمياً في ذي الحجة ١٣٤٣هـ/يوليو ١٩٢٥م، كان الناس مستعدين لها وجاهزين للمشاركة فيها، منذ أن زار صاحب الوعد المشؤوم بلفور دمشق.

على أن الأحداث في منطقة الجبل لم تكن بأحسن من دمشق فقد سافر الكابتن كاربية في إجازة لمدة شهرين وحل محله في ٢٥ شوال ١٣٤٣هـ/١٨ مايو ١٩٢٥م الكابتن رينو، فتنفس الدروز الصعداء وألفوا لجان لتوحيد الصفوف، فكانت اللجنة العليا في السويداء برئاسة سلطان الأطرش، وتفرع منها خمس لجان فرعية في المجدل وشهباء وثعلة وقيصما وسالة، وعقدت هذه اللجان اجتماعات عديدة، ووضعت مضابط وقعها سكان الجبل، طالبين فيها عزل الكابتن كاربية وتثبيت الكابتن رينو محله لما شهدوه من الفرق بين أعمال الاثنين، كما أعد موظفو حكومة الجبل كتاباً أرسلوه إلى الجنرال سراي قالوا فيه: "نرجو من الجنرال أن يقبل استقالتنا إذا رفض إبدال كربية لأننا لا نستطيع العمل معه"([2]).

ثم أرسل زعماء الجبل وشيوخه في ٢٤ ذو القعدة ١٣٤٣هـ/١٦ يونيو ١٩٢٥م برقية إلى سراي يطلبون مقابلته، ولما وصل الوفد الدرزي إلى بيروت حاولوا مقابلة الجنرال سراى، وعرض مطالبهم التي كانت تتلخص في رفضهم لعودة كاربية لحكم الجبل، وبأنهم جزء لا يتجزأ من سوريا، رفض الجنرال مقابلتهم، وعندما ألحوا في مقابلته أرسل إليهم من يبلغهم بأنهم إن لم يغادروا بيروت حالاً فإنه سوف يرسلهم إلى المنفى، لكنه سمح لهم بعد وساطة زعماء الدروز في لبنان بأن يقابلوا السكرتير العام للمفوضية، الذي أمرهم بأن يعودوا إلى الجبل وإن كانت لهم

العلامة ابن قيم الجوزية. انظر: محمد مطيع الحافظ ، نزار أباظة : تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، تقديم : شكري فيصل ، (دار الفكر ، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج١، ص٤٧٣ـ٤٩٢.

([1]) علي الطنطاوي: المرجع السابق، ج١،ص٢٨٢ـ٢٨٩.

([2]) أمين سعيد : الثورة العربية، ج٣، ص٢٩٠ـ٢٩١ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص٧٨ ؛ فارس زرزور: المرجع السابق، ص٢٥٦.

شكوى على كاربية فعليهم أن يحتفظوا بها حتى يعود، وعندها تنظر فيها المفوضـــية، فأجـــابوه بأنهم يشكون من تصرفاته من سنتين ولا من مجيب، وعاد الوفد إلى الجبل فاشلاً غاضباً([1]).

واجتمع نحو ٤٠٠ شاب درزي في السويداء وباسم الجمعية العمومية وبرئاسة سلطان بشا الأطرش وقرروا ما يأتي:

١. التضحية بكل غالي ورخيص في سبيل الاستقلال، ومواصلة السعي لإبـــدال كاربيـــة برينو.
٢. تذكير كل عضوا من أعضاء المجلس النيابي بصفته ممثلاً للأمة يجب عليه أن ينفذ ما تقرره الأمة، وأن كل نائب ينذر ولا يعمل بقرارات الأمة يهان ويضرب ويرجم.
٣. على أعضاء الجمعية العمومية بذل كل عضوا من أعضاء الجمعية العمومية دمه فـــي سبيل مساعدة أي فرد من أفراد الجمعية([2]).

وعندئذ حصلت أعمال شغب في جبل الدروز أدت إلـــى اضـــطراب سياســـة الانتـــداب الفرنسي، لذلك أصدر الجنرال سراي في ١٣ ذو القعدة ١٣٤٣هــ/٥ يونيو ١٩٢٥م أمـــراً إلـــى القائد الاستعماري الشهير تومي مارتان بأن يتولى أمر الجبل بدلاَ من الكابتن رينو الذي أصـــبح بنظر الفرنسيين أنه السبب في أعمال الشغب التي قام بها الدروز، وحتى يمهد الطريـــق لعـــودة كاربية([3]).

وفي ١٩ ذو الحجة ١٣٤٣هــ/١١ يوليو١٩٢٥م أرسل الجنرال سراي إلى مندوبـــه فـــي بدمشق كتاب ينوي فيه الغدر بزعماء الجبل باستدراجهم إلى دمشق بحجة سماع مطالبهم، ومـــن ثم إلقاء القبض عليهم ونفيهم، وكان نص الكتاب على النحو التالي:"أرجو منكم أن تـــدعوا إلـــى دمشق المحرضين الدروز وبينهم حمد بك ونسيب بك ومتعب وعبـــد الغفـــار وســـلطان باشـــا الأطرش بحجة أنكم تريدون استماع شكواهم ومطالبهم، حتى إذا حضروا ابلغناهم انني أعـــدهم مسؤولين عن كل اضطراب يقع في الجبل وأبقيهم ضـــماناً عنـــدي فـــي مكـــان يحـــتم علـــيهم الإقامة..."([4]).

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٨٩ــ ٢٩٠ ؛ سيرتي ومذكراتي، ج١، ص٢٧٦ ؛ برجيت شيبلر: المرجع السابق، ص٢١٧ــ٢١٨ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٧٣.

([2]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٢٧ــ١٢٨ ؛ أمين سعيد : الثورة العربية، ج٣، ص٢٩٢ـــــ٢٩٣ ؛ سيرتي ومذكراتي، ج١، ص٢٧٧ ؛ فارس زرزور: المرجع السابق، ص٢٥٦ــ٢٥٧.

([3]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق،ص١٣٠ــ١٣١ ؛ سلطان باشا الأطرش:المرجع السابق،ص٨٣.

([4]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٣٦ ؛ أمين سعيد : الثورة العربية، ج٣، ص٢٩٧ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٧٤ــ٧٥.

وعملاً بهذا الأمر أبلغ هؤلاء الزعماء برغبة الجنرال سراي في مقابلتهم فقبل الدعوة حمد وعبد الغفار ونسيب الأطرش، وذهبوا إلى دمشق وبمجرد وصولهم أبعدوا على تدمر، وبعد أيام تم نفي خمسة([1]) زعماء آخرين إلى الحسكة([2])، أما سلطان الأطرش فقد اعتذر عن الحضور، وعندما كرر تومي مارتان الطلب كرر الأطرش الرفض، فأرسل إليه مارتان أربعة ضباط فرنسيين مع قوة صغيرة لإقناعه بالحضور أو أنهم سيقبضون عليه، في هذه الأثناء كان سلطان الأطرش في أرساس على أتم الاستعداد لمواجهة أي حملة فرنسية، أقبل الفرنسيون على قرية الكفر في ١ محرم ١٣٤٤هـ/٢٢ يوليو ١٩٢٥م في ١٩٠ جندي وهم عازمون على دخولها([3])، وعندما علم سلطان الأطرش بذلك ــ كان خارج القرية يجمع القوة ويستنهض همم أهل الجبل للثورة ــ قام بمهاجمة الفرقة العسكرية في قرية الكفر وقتل في هذه المعركة أربعين رجلاً من الجبل من بينهم مصطفى الأطرش شقيق سلطان الأطرش، أما الحملة العسكرية التي تجاوز عدد جنودها المئتين والستين جندياً فلم يفلت منهم سوى خمسة جنود فروا، وأوصلوا الخبر لتومي مارتان في السويداء، فالتجأ هذا بمن عنده من الموظفين الفرنسيين ونسائهم في قلعة السويداء، التي حاصرها سلطان الأطرش([4]). وكان هذا الحادث في قرية الكفر بداية للثورة الكبرى التي عمت جميع أرجاء سورية.

وقد وصف شاعر الثورة السورية صالح عمار هذه المعركة بقوله:

الحملة غدت مثل الشجر	لّما غوى حطابها
ما ظل منها ولا نفر	وتشالخوها([5]) ذيابها([6])

ما كاد ينقضي يومان على معركة الكفر أي في٣ محرم ١٣٤٤هـ/ ٢٤ يوليو ١٩٢٥م، حتى أرسل سلطان الأطرش رسولاً إلى دمشق يحمل رسالة إلى قادة حزب الشعب وعلى رأسهم

([1]) برجس الحمود، علي الأطرش ، حسني صخر ، علي عبيد ، يوسف الأطرش. انظر: سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص٨٥ ؛ أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، ص٢٩٨.

([2]) انظر خريطة الثورات السورية في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

([3]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٣٧ــ١٣٨ ؛ حنا أبي راشد: جبل الدروز: بحث عام في تاريخ شعوبه، وأخلاقهم، نسبهم، وعاداتهم، واعتقاداتهم، ونوادرهم، ،أشعارهم، وآثارهم، وحروبهم، مع صحيفة أعمال، زعيمهم: سلطان باشا الأطرش، وأسباب ثورتهم الأخيرة، على دولة الاستعمار، وكشف أسرارها الغامضة، ونشر وثائقها المهمة، ووصف معاركها الدامية...وهو الحلقة الأولى من "الرحالة الشرقية العامة"، (المطبعة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٩٢٥م)، ص٢٨١ــ٢٨٣.

([4]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٣٧ــ١٣٨ ؛ منير الريس: المرجع السابق، ١٦٥ــ١٦٧ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٧٧ــ٨٣.

([5]) تشالخوها : قطعوها . انظر:حسن القيسي نصر: المرجع السابق ، ص١١٥.

([6]) المرجع السابق ، ص١١٥.

عبد الرحمن الشهبندر، من أجل التحالف معهم في الثورة ضد الفرنسيين، استجاب زعماء دمشق لدعوة سلطان الأطرش، واتفقوا على تجميد جميع الخلافات الحزبية، وتوحيد الصفوف باسم الثورة الوطنية السورية العامة، وجلاء الفرنسيين من جميع الأراضي السورية، وتشكيل وفد للاتصال بثوار الجبل، وتكليف آخرين للقيام بترتيبات الثورة داخل دمشق. وعلى هذا أخذ رجالات دمشق يتوافدون إلى الجبل للالتحاق بالثورة والمشاركة في تنظيمها وتوجيهها([1]).

لم تكن شمولية انتشار الثورة السورية الكبرى للمناطق الأخرى([2]) تشير إلى أن الأزمة في جوهرها أزمة "حكم جبل الدروز" بقدر ما كان للتسلط الفرنسي على مقدرات البلاد من أثر في زيادة حالة الفقر والبطالة التي كانت منتشرة على نطاق واسع. وكان للشعارات التي أطلقها القائمون على الثورة وخاصة مسألة وحدة البلاد السورية أثر في التقاء كل القوى الوطنية السورية واللبنانية حولها، أما بعض النصارى وخاصة في لبنان فقد انضموا إلى فرنسا([3]).

اضطرب الجنرال سراي حينما علم بنبأ الكارثة التي حلة بالحملة وبحصار السويداء فأمر بتعبئة حملة عسكرية كبيرة يزيد عدد رجالها على ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة الجنرال ميشو مزودة بالطائرات والدبابات والمدفعية، وتوجهت إلى السويداء في١١ محرم ١٣٤٤هـ/الأول من أغسطس ١٩٢٥م التقى الجمعان في اليوم الثاني حيث نصب الثوار فخاً للحملة الفرنسية في منطقة بين قريتي الدور وقصر الحرير، وكان عدد الدروز يزيد على المائتين والخمسين رجلاً، لكنهم تمكنوا من الفتك بالمشاة في الحملة والاستيلاء على ذخيرتهم، صدم فرسان الحملة الذين لجأوا إلى متاريس أقاموها للدفاع عن أنفسهم في المزرعة التي تبعد عن السويداء ١٧ كيلو متر، اشتد القتال وانهزمت القوات الفرنسية التي قتل منها ألف وخمسمائة، وغنم الدروز سلاحهم وذخائرهم ومعداتهم، كما قتل من الدروز مئتان، وحطم الدروز خمس دبابات، وعدداً من المدافع الضخمة، واستولوا على عدد كبير من الرشاشات والبنادق([4]).

كانت معركة المزرعة في محرم ١٣٤٤هـ/أغسطس ١٩٢٥م حامية الوطيس بحرارة صيف ذلك العام، فهي تعد من المعارك الأولى في بداية للثورة السورية الكبرى، والتي استمرت سنتين متتاليتين، فقد انقلبت العملية العسكرية الى كارثة عظيمة، جعلت الجنرال سراي يستنجد

([1]) حسن الحكيم: عبد الرحمن الشهبندر، ص١٩٣ـ١٩٤ ؛ رغدة نحاس: النضال القومي في سوريا ضد الانتداب الفرنسي، ضمن بحوث في الفكر القومي العربي، سلسلة دراسات الفكر العربي أعدت بإشراف: معن زيادة، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ج١، ص٢٤٠ـ ٢٤١.

([2]) انظر خريطة الثورات السورية ضد فرنسا في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

([3]) علي شعيب: المرجع السابق، ص٣٧ ؛ irfan C. Acar: Op. Cit. p. 25 .

([4]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣٠٠ـ٣٠٢ ؛ حنا أبي راشد: المرجع السابق، ص٢٨٣ ؛ منير الريس: المرجع السابق،ص١٧٧ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٨٣ـ٨٩.

بالحكومة الفرنسية في باريس يطلب منها نجدات سريعة([1])، وأرسل في٢٢ محرم/١٢ أغسطس وفداً من دروز لبنان([2]) والذي وصل إلى السويداء وقابل زعماء الجبل داعياً للوساطة والصـــلح، عاد الوفد بعد ذلك ومعهم شروط أهل الجبل وخلاصتها منع عودة الكابتن كاربية، إعطاء الشعب الدرزي حق اختيار الحاكم الذي يريدونه، مع عـــــدم معاقبة أحد منهم بجريمة العصيان، وعدم مصادرة سلاحهم، مع وضع دستور خاص بالجبل([3]).

بعدما إطلع سراى على هذه الشروط قال أنه مستعد لوقف الأعمال العسكرية بشروط هي:

١. أن يدفع الدروز خمسة آلاف جنيه إنجليزي تعويضاً عسكرياً.
٢. أن يعوضوا تجار السويداء ما لحقهم من خسائر بسبب الحوادث الأخيرة.
٣. أن يعيدوا ماغنموه من سلاح.

وفي أثناء ذلك أطلق الجنرال سراي سراح الدروز الثمانية الذين كانوا معتقلين في تـــدمر والحسكة، فعادوا إلى الجبل واشتركوا في الثورة، كما أطلق قادة الجبل سراح أســـرى الجـــيش الفرنسي في الجبل، وسمحوا للنساء والأطفال الفرنسيين المحاصرين في القلعة بالخروج منهـــا، واللحاق بمراكز الفرنسيين في حوران، وبذلك تم تبادل المبعدين بالمحاصرين([4]).

انتهت المفاوضات على الصلح بالفشل، لعلم سلطان الأطرش أن الفرنسيين يعملـــون فقـــط لكسب الوقت حتى تصل قواتهم العسكرية التي بعثوا يستقدمونها من فرنسا ومـــن المســـتعمرات الخاضعة لهم([5]).

فبعد معركة المزرعة ألقت الطائرات الفرنسية قنابلها على جميع الذين تظنهم من الثـــوار، وقد بلغ عدد القرى المصابة من قنابلها من ثمانين إلى مئة وعشرين قرية، ولكن على الرغم من ذلك فإنه بعد أن تمكن الدروز من سحق القوة العسكرية بقيادة الجنرال ميشو، ونتيجة لما حققـــوه من انتصارات كبيرة انضم إليهم في٢٢ محرم١٣٤٤هـ/ ١٢ أغسطس ١٩٢٥م حوالي عشرين ألف جندي مسلح، كما انضم إليهم حزب الشعب السوري وذلـــك فـــي١صـــفر ١٣٤٤هــــ/٢١ أغسطس ١٩٢٥م برئاسة عبد الرحمن الشهبندر فقد كانت بين زعماء دمشـــق والجبـــل عقـــود ومواثيق تقضي بتعاونهما في العمل لإنقاذ البلاد وتحريرها([6]).

([1]) بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٨٨ــ٨٩.

([2]) إن كثرة الوساطات بين دروز لبنان والحكومة الفرنسية تدل على مدى قوة العلاقة بينهما.

([3]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣٠٢ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٤١ــ١٤٣.

([4]) أمين سعيد : الثورة العربية، ج٣، ص٣٠٢ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص١٢٠ ؛ منير الـــريس: المرجع السابق، ص١٨٨ــ ١٨٩ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق،ص١٤٥ــ١٤٦.

([5]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص١٢١ــ١٢٢ ؛ منير الريس: المرجع السابق، ص١٨٨.

([6]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص٢٧ ؛ حنا أبي راشد: المرجع السابق، ص٢٨٣ــ٢٨٤.

ولما أصبحت الثورة حقيقة واقعة وتم توحيد العمل بين دمشق والجبل أذاع سلطان الأطرش يوم٣ صفر ١٣٤٤هـ/٢٣ أغسطس ١٩٢٥م منشورة الأول[١] الذي بين فيه طلبات الثورة وأغراضها والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

١. وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها، والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة، مستقلة استقلالاً تاماً.
٢. قيام حكومة شعبية، تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة مطلقة.
٣. سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش محلي لصيانة الأمن.
٤. تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء[٢].

وفي هذه الأثناء وصل وفد حزب الشعب السوري إلى الجبل للحيلولة دون عقد اتفاق بين وفد الدروز اللبناني المرسل من قبل الجنرال سراي، وعقد الوفد السوري الممثل في رئيسه عبد الرحمن االشهبندر وجميل مردم وسعد الدين المؤيد في٥ صفر ١٣٤٤هـ/٢٥ أغسطس ١٩٢٥م اتفاق بينه وبين سلطان الأطرش قائد ثورة الدروز على اتحاد الجميع في العمل، وألاّ يعقد الجبل صلحاً منفرداً عن دمشق، ولا تعقد دمشق صلحاً منفرداً عن الجبل مع الفرنسيين. تلقى الفرنسيون من جواسيسهم في الجبل تفاصيل ما دار في الجبل فأخذوا يطاردون أعضاء حزب الشعب وتم القبض على كثير من أعضائه[٣] وأرسلوا إلى دير الزور في ١٢ صفر ١٣٤٤هـ/الأول من سبتمبر ١٩٢٥م للإقامة الجبرية هناك[٤].

لقد كان لثورة الجبل نتائج مهمة على الصعيدين الداخلي و الخارجي، فقد زادت من الترابط الفكري والروحي، الذي كان قائماً بين سكان الجبل وبقية أراضي بلاد الشام، وعملت على تنمية الشعور الوطني لدى أبناء الوطن الواحد، بحيث امتدت الثورة بعد الاتفاق الذي تم بين قيادات الجبل، والقيادات الوطنية في سوريا إلى بلاد الشام كلها، فإن قيامها في الجبل وتمكن

---

[١] انظر نص المنشور في ملحق الوثائق الملحق رقم ٨.

[٢] محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٥٣ـ١٥٤ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣٠٦ـ٣٠٧ ؛ ذوقان قرقوط: المشرق العربي..ص٢٣١.

[٣] قبض الفرنسيين على: فوزي الغزي، وفارس الخوري، وإحسان الشريف، وعبد المجيد الطباخ، وتوفيق شامية، وعثمان الشرباتي، وعمر الطيبى. أما حسن الحكيم وسعيد حيدر، فتمكنا من الهروب وانضما إلى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وجميل مردم في الجبل، ولحق بهم فوزي ونسيب وأسعد البكري. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣٠٤.

[٤] سعيد العاص: المرجع السابق ، ص٢٨ـ٣٠ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣٠٣ـ٣٠٤ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٤٤ـ ١٤٦.

الثوار بأعدادهم القليلة ومعداتهم الخفية الانتصار على القوات الفرنسية، أدى ذلك إلى إحياء أمل النصر بإذن الله في نفوس أهل الشام.

في١٤ صفر/٣ سبتمبر أذاعت وزارة الحربية أنها استدعت الجنرال ميشو من سوريا للتحقيق معه، وعينت الجنرال غاملان بدلاً عنه كقائد عام للجيش الفرنسي في الشرق، الذي وصل في٢٤ صفر/١٣ سبتمبر إلى بيروت على ظهر مدفعية يحمل تعليمات تقضي بالأمر عليه بالزحف إلى السويداء والقضاء على الثورة قبل أن تتسع، وقد جهز غاملان قوة كبيرة قوامها ألفين شخص، وخمس كتائب مشاة، و٤ بطاريات مدافع، وعدد من السيارات الرشاشة وكوكبتي فرسان، وسريتي هندسة، وخمسة وعشرين طائرة([١])، وتوجه نحو أذراع، وعندما علم قادة الثورة بما يدبره الفرنسيون عن طريق الوطنيين في دمشق وبيروت الذين كانوا يوافهم بتقارير يومية مفصله، جهزوا قوة قوامها ٥٠٠ مجاهد حتى يباغتوا العدو في قرية المسيفر من قرى حوران وهم في طريقهم إلى أذراع([٢]).

معركة المسيفر([٣]): وقعت في٢٨ صفر ١٣٤٤هـ/١٧ سبتمبر ١٩٢٥م حيث تقدم المجاهدون واتفقوا على أن لا يأتوا بحركة من شأنها تنبيه العدو إلا أن إبراهيم الأطرش وهو من المشكوك في أمرهم لسابق صلته بالكابتن كاربية أطلق رصاصة أيقظت الجنود الفرنسيين، ودارت معركة بين الفريقين كانت بدايتها في صالح الثوار، لكن وصول الطائرات الفرنسية غير اتجاه المعركة، فقد ألقت قنابلها على المجاهدين الذين تشتتوا، فقد الفرنسيون في هذه المعركة نحو ٥٠٠ قتيل من ١٥٠٠ مقاتل، أما الثوار فقد خسروا ٢٥٠ قتيل، ولولا الهفوات التي وقعت من الثوار لتمكنوا من إجلاء الفرنسيين عن حوران بأكملها، ولتبدل شكل الحرب([٤]). وقد شاركت القوات البريطانية القوات الفرنسية في هذه المعركة وقامت بضرب الثوار على الحدود مع الأردن في صلخد وشهباء واللجاه([٥]) وتم تصفية الثورة في المنطقة الجنوبية([٦]).

بعد معركة المسيفر في صفر ١٣٤٤هـ/سبتمبر ١٩٢٥م ألقت الطائرات الفرنسية منشوراً

([١]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣١٥ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص١١٧ ؛ ناجي البزي: المرجع السابق، ص٩٧.

([٢]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣،ص٣١٥ــ٣١٦ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق،ص٢٧٤ــ٢٧٥.

([٣]) لمزيد من المعلومات حول هذه المعركة انظر: أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي..،ج١، ص٢٨٤ــ٢٩٠ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص١٣٠ ــ١٣٥ ؛ الجنرال أندريا: المرجع السابق، ص٩٤ــ١٠٥.

([٤]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٦٥ــ١٦٦؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص١٣٢ــ١٣٥ ، حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٩٥.

([٥]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

([٦]) ناجي البزي: المرجع السابق، ص٩٧.

تهدد فيه سكان الجبل وتدعوهم إلى نبذ الثورة والاستسلام جاء فيه ما يلي:"أيها الدروز اقتربت الساعة التي تعرفون فيها قوى جيوشنا، والتي ستتحملون فيها نتائج ثورتكم، لقد اختبرتم مضاء سلاحنا في معركة المسيفرة....عودوا إلى رشدكم وقدموا خضوعكم. إذ لا يزال لديكم الوقت للخضوع. ألقوا سلاحكم وتقلدوا بدلاً منه المحراث لإنبات أرضكم، فذلك خير لكم ولمستقبلكم"([1]).

ولقد أجاب سلطان الأطرش على الفرنسيين بالبيان الآتي: " تناولنا اليوم دعوتكم الكريمة إلى السلم مع القنابل المتفجرة من الطيارات فلم يزدنا هذا التناقض الغريب علماً بالوضعية الحاضرة... إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وقبل الوقوع في مثل هذا الفخ عليكم أن تبيضوا الصفحات السود... تدعوننا إلى إلقاء السلاح وأن نتقلد بدلاً منه المحراث، إننا ما حملنا السلاح إلا دفاعاً عن هذا المحراث الذي هو فخرنا...ولكن إذا كانت ثمرة أتعابنا تذهب إلى بطون من غرمونا آلاف القروش... فإن السلاح يكون خير ضامن لهذا المحراث...إننا نرغب في السلم من صميم الفؤاد، وإذا آنسنا في خصومنا اليوم هذه الرغبة الأكيدة فإننا نمد إليهم أيدينا، ولكن على الشروط التي أذعناها للملأ في منشوراتنا السابقة([2])"([3]).

في يوم ٤ ربيع الأول ١٣٤٤هـ/٢٣ سبتمبر ١٩٢٥م توجه الجنرال غاملان بجيشه المكون من عدد كبير من المشاة والخيالة([4]) وست مدفيات، وكتيبة دبابات مصفحة من أذراع قاصداً السويداء، فرأى قادة الثورة أن يستدرجوه إلى داخلها، فباغتوه وقتلوا من جنوده أربعين جندياً، فخاف غاملان من أن هناك خطه مدبره خصوصاً بعد أن جاءته أخبار بظهور العصابات في الغوطة([5]) وانتشارها حول دمشق، فغادر السويداء خلسة تاركاً كل ما كان معه من عتاد

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..،الحاشية رقم ١، ج٣، ص٣١٣ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص١٣٧ــ ١٣٨ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٦٧ــ١٦٨.

([2]) انظر نص منشورات الثورة في ملحق الوثائق الملحق رقم ٨.

([3]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٦٢ــ١٦٣.

([4]) كان الجيش الفرنسي مكون من أعداد كبيرة من الجنود من مختلف المناطق التي يستعمرونها مثل: تونس والمغرب والجزائر والسنغال ومدغشقر والهند الصينية. ويذكر أمين سعيد أن عدد غير قليل من أبناء الجزائر وتونس والمغرب من المجندين في الجيش الفرنسي أنضم الثوار السوريون أثناء الثورة. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣،= = ص٦٢٧ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق،ص٢٨٥ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٦٦ــ١٦٧.

([5]) الغوطة: منطقة الغوطة دمشق هي أرض مشجرة تمتد أشجارها عشرات الكيلومترات، تحيط بدمشق من ثلاث جهات ما عدا الجهة الشمالية، تبدأ من ينبوع نهر بردي بالقرب من قرية الزبداني في غرب المدينة وتنتهي عند مصبه في شرق بحيرة العيبية، فيها أكثر من خمسين قرية ومزرعة مأهولة بالسكان الذين يعمل أكثرهم بالزراعة، وبعضهم بالصناعة والتجارة، فهم فلاحون متحضرون. انظر: منير الريس: المرجع السابق، ص٣٢٨

وسلاح، وخيم في المسيفرة التي اتخذها قاعدة لأعماله العسكرية. حيث قام بالعديد من الحملات الفاشلة التي أنهكت الجيش الفرنسي، وكلفته عدداً كبيراً من الجنود والذخيرة، بسبب قيام الثورة في حماة في تلك الفترة، مما أربك القوات الفرنسية([1]).

نلاحظ هنا مدى قوة الثورة على الرغم من التهديد والوعيد الذي اتخذه الفرنسيون للقضاء عليها، فقد تكاتفة قوى الشعب السوري في وقت واحد للوقوف في وجه المستعمر على الرغم من قلة الامكانيات المالية والمادية لديهم، لكم الارادة والعزيمة القوية هي التي كانت تطغى في ذلك الوقت عليهم، لمّا رأوه من الظلم والتعسف الذي سلّطه الانتداب الفرنسي على رؤوس الشعوب.

ففي ١٥ ربيع الأول ١٣٤٤هـ/٤ أكتوبر ١٩٢٥ قامت الثورة في حماة بقيادة الضابط فوزي القاوقجي([2])، وتمكن الثوار من السيطرة على المدينة وقتل وأسر القوات الفرنسية الموجودة فيها، فيقول القاوقجي في مذكراته:" في نحو الساعة الثامنة من مساء(٤) منه([3])، وصلنا حماة وهاجمنا مخافرها وتسلمنا ما فيها من أسلحة، واعتقلنا رجالها من الشرطة والدرك. ثم اتجهنا إلى دار الحكومة، حيث كانت ترابط سرية من الجيش السوري([4]) من الدرك والشرطة فهاجمناها واستولينا عليها بعد معركة امتدت إلى ما بعد منتصف الليل، وفتكنا بمن كان هنالك

؛ عبدالعزيز العظمة: مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، (دار رياض الريس، لندن)، الحاشية رقم ٦ ، ص٤١.

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣١٧ ؛ سيرتي ومذكراتي ...،ج١،ص٢٨٨ـ ٢٩٠ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٨٩ـ ٩٠ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٦٦ـ ١٦٧.

([2]) الضابط فوزي القاوقجي (١٣٠٨ـ١٣٩٨هـ/١٨٩٠ـ١٩٧٧م): من أبناء طرابلس الشام، نشأ في اسطنبول، أنتظم في السلك العسكري في العهد العثماني، وشارك معها في الحرب العالمية الأولى، وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها عاد إلى سوريا وانضم إلى جيش الحكومة العربية في العهد الفيصلي، في أوائل عهد الانتداب عينه الفرنسيون قائداً لسرية الخيالة في حماة، ولما نشبت الثورة السورية الكبرى ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م وتخلى عن منصبة، شارك في العديد من الثورات ضد الاحتلال الفرنسي والبريطاني في سوريا وفلسطين، ومن أهمها ثورة حماة وثورة الغوطة في سوريا، عندما قضى الفرنسيين على الثورة السورية سنة١٣٤٥هـ/١٩٢٧م، لجأ القاوقجي إلى السعودية، ثم غادرها إلى العراق عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م وعندما انفجرت الثورة العربية الكبرى في فلسطين شارك فيها، كما شارك في جميع معارك فلسطين إلى عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م. انظر: سعيد العاص: صفحة من الأيام الحمراء، مذكرات القائد سعيد العاص(١٨٨٩ـ١٩٣٦م)، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٨م)، ص١٩ـ ٢١ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي، ج١، الحاشية ١ ، ص٢٩١ ؛ أكرم زعيتر: من أجل أمتي، من مذكرات أكرم زعيتر ١٩٣٩ـ١٩٤٦م، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عَمان، ط١، ١٩٩٤م)، ص٤٤ـ ٤٨.

([3]) يقصد به ١٥ ربيع الأول ١٣٤٤هـ/٤ أكتوبر ١٩٢٥م

([4]) كما هو معروف فإن السلطات الانتداب الفرنسي كانت تجند عدداً من الأفراد في الدول التي يحتلونها في الجيش والشرطة.

من الجند...وخرج فرسان العدو في الصباح، من الثكنات لمقاومتنا فرددناهم بعد معركة دامت نصف ساعة على جسر السرايا، ثم طوقنا الثكنات فبدأت المعركة تشتد، وكان النجاح حليفنا وخسارة العدو تتزايد. ووصلت طائرات العدو وبدأت تلقي قنابلها على المدينة فأسقطنا منها طائرتين، وقبل الظهر وصلت للعدو نجدات قوية فأنقذت المحصورين بعد معارك دامية."([1]). وكان من الممكن للثورة أن تغير مجرى الأمور في القطر كله لولا إحجام الزعماء والأعيان على دعمها بسبب زيادة أعداد القوات الفرنسية، مما اضطر الثوار الانسحاب نحو الشمال، بعد أن أنزلت بالعدو خسائر كبيرة في ثلاثة أيام، حيث لا تقل عن ٤٠٠ شخص بين قتيل وجريح، أما خسائر الثوار في حماة فقد زادت على ٣٥ قتيل وجريح، وفي١٨ ربيع الأول١٣٤٤هـ/ ٧ أكتوبر١٩٢٥م قام الثوار بهجوم مباغت على القوات الفرنسية في معركة امتدت نحو أربع ساعات خسر فيها الفرنسيون ٣ ضباط و٧٠ جندي، بينما غنم الثوار ٣٥ حصاناً و٤٢ بندقية([2]).

توسعت ثورة حماة حتى شملت كافة أنحاء سوريا الشمالية ومن أهم نتائجها ما يلي:

١. اضطر الجنرال سراي لأن يبرق إلى غاملان الذي أخذ يتقدم نحو السويداء عاصمة جبل الدروز، أن يخلي الجبل ويتوجه بسرعة إلى الشمال لتطويق ثورة حماة، مما أنقذ الجبل من هزيمة شنعاء كانت ستؤدي إلى انكسار الثورة.
٢. بعد انسحاب الجيش الفرنسي من الجبل لم يبق ما يمنع الثوار الدروز ومن التحق بهم من سوريا من الهجوم على الغوطة ودمشق وتوسع الثورة([3]).

لقد استمر تزايد بطش القوات الفرنسية بثورة حماة، فقد انقض الجيش الفرنسي على سكان حماة كالوحوش المفترسة فدخلت دباباتهم ورشاشاتهم وصبت نيرانها عليهم، ثم اقتحم الجند البيوت والدور ونهبوا كل ما كان فيها، واعتدوا على النساء والأطفال، وأذاعت القيادة الفرنسية في٢٠ ربيع الأول/٩ أكتوبر أن المدينة أصبحت تحت السلطة العسكرية، وأعلنت حظر التجول، وغرمة أهل حماة مئة بندقية مع قذائفها، أنه إذا لم يتم تسليمها خلال ٢٤ ساعة فان القوات الفرنسية سوف تطلق النار على جميع الأحياء بدون استثناء، لكن السكان لم يتمكنوا من جمع سوى ٩٦ بندقة وطلبوا مدة إضافية وافق عليها الفرنسيون بشرط أن يصبح عدد البنادق مئتين، ولما لم يتمكن السكان من جمع عدد البنادق المطلوبة قامت المدفعية الفرنسية بصب نيرانها صباً على مدينة حماة وشاركت الطائرات بإلقاء القنابل على البيوت التي تهدمت على رووس سكانها فقد تهدم مايزيد على ثلاثمائة محل، ومائتين بيت، كما اعتقلت القوات الفرنسية مئتين شخص من

([1]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي،ج١،ص٢٩٢ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٨٠.

([2]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي،ج١،ص٢٩٤ ؛ أدهم الجندي: المرجع السابق، ص٢٥٠ــ٢٥١.

([3]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص١٦ــ١٧ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٨١ــ١٨٢.

أهالي حماة بتهمة المشاركة في الثورة([1]). من هنا نلاحظ مدى البطش والجبروت الذي اتخذه الفرنسيون للقضاء على الثورة، والدلالة على ذلك مافعله الفرنسيون في كل المناطق التي سيطروا عليها سواء في الشام أو في شمال إفريقية.

وعلى أية حال فقد اشتدت الثورة في الجبل وبدأ ضغط القوات الفرنسية عليها رأى قادة الثورة توسيع نطاقها حتى شمل غوطة دمشق وجبل قلمون لتخفيف الضغط على الجبل، فغادر نسيب البكري الجبل إلى الصفا لتجنيد عربانها والزحف بهم لقتال الفرنسيين، وغادر حسن الخراط([2]) الجبل إلى الغوطة، ثم انضم إلية البكري ومن جاء معه، وألفوا قوة كبيرة رابطت في الزور الأعلى على مقربة من دمشق، فسيرت السلطات الفرنسية إليها قوة من الدرك السوري (الجنود) لقتالها بقيادة رفيق العظم([3])، وكانت القوة مؤلفة من ستين دركياً اشتبكت مع الثوار في معركة شديدة عرفت باسم "وقعة الزور الأولى" أو " وقعة المليحة الأولى" في٢٥ ربيع الأول ١٣٤٤هـ/١٤ أكتوبر ١٩٢٥م، انتهت باندحار الدرك تاركين قتلاهم وأسراهم ومنهم قائدهم رفيق العظمة، وغنم الثوار ٢٩ حصاناً([4]).

تتابعت بعد ذلك المعارك في الغوطة واتسع نطاقها، فطلبت القوات الفرنسية دعم الطيران لها، لمطاردة الثوار الذين اضطروا إلى الانسحاب باتجاه حران العواميد والهيجانة، وأسقط الثوار طائرة فرنسية، وقامت فرنسا بإعدام ٢٤ رجلاً من القرى المجاورة للمنطقة التي لجأ إليها الثوار، وفي٢٦ ربيع الأول ١٣٤٤هـ/ ١٥ أكتوبر١٩٢٥م قامت قوات الثوار بقيادة رمضان

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣، ص٣٢٣ــ٣٢٤ ؛ سيرتي ومذكراتي ..،ج١، ص٢٩٥ ؛ أدهم الجندي: المرجع السابق، ص٢٥١.

([2]) حسن الخراط: (١٢٧٨ــ١٣٤٤هـ/١٨٧٥–١٩٢٥م) مقاوم سوري. ولد في دمشق. كان يعمل حارساً، كان أمياً فقيراً، شارك في الثورة السورية الكبرى ضد الانتداب الفرنسي عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م وكان من أهم قادتها، وأهم المعارك التي شارك فيها معركة الزور الأولى ومعركة النبك ومعركة الشام. جرح في معركة الزور الثانية في ربيع الآخر ١٣٤٤هـ/أكتوبر ١٩٢٥، واستشهد في معركة يلدا في جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/ديسمبر من العام نفسه. انظر.ناجي بزي:المرجع السابق،ص٥١٣ ؛ سعيد العاص:المرجع السابق،ص٣١ ؛ الزركلي:الأعلام،ج٢،ص٢٢١.

([3]) رفيق العظمة(١٢٨٤ــ١٣٤٤هـ/١٨٦٧ــ١٩٢٥م): من أسرة دمشقية معروفة، أشتغل بالصحافة والسياسة، أقام فترة في مصر، ألف كتاب"أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة". انظر: المنجد، ص٣٧٥.

([4]) أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣،ص٣١٩ ؛ منير الريس: المرجع السابق، ص٢٧٨ــ٢٨٠ ؛ عبد الرحمن الشهبندر: الثورة السورية الوطنية مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر مع ٣٣ صورة لزعماء الثورة وأبطالها وشهدائها (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م)، الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم: محمد كامل الخطيب، قضايا وحوارات النهضة العربية (١١)، (منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م)، ص٢١.

شلاش([1]) ونسيب البكري بمهاجمة حامية الضمير([2])، واستطاعوا إلحاق الهزيمة بالحامية، لــولا تدخل الطيران الفرنسي مما أجبر الثوار على الانسحاب بعد أن أصابوا الحامية الفرنسية بخسائر كبيرة. وفي ٢٧ ربيع الأول ١٣٤٤هــ/١٦ أكتوبر ١٩٢٥م قرر جموع الثوار بالتعاون مع ثوار جبل العرب في اقتحام مدينة دمشق، وكان هذا من أهم الآثار التي أنجزها الثوار، حيــث زادت حروب الغوطة من روحهم المعنوية، وشجعتهم على الهجوم على دمشق والوصول إلى مــدخل المدينة([3]).

في١٩ ربيع الأول١٣٤٤هــ/١٨ أكتوبر ١٩٢٥م وصل الجنرال سراى إلى دمشق فعلــم الثوار بوصوله فقرروا أن يقبضوا عليه، وتسللوا إلى مقر المندوب السامي الفرنسي فــي قصــر العظم واشتبكوا مع الحامية التي أقيمت للدفاع عنه، وقد استشهد حسن المقبعة قائد الثوار، وكانت هذه فاتحة المعارك التي أدت إلى ضرب دمشق، فقد تمكن الثوار من دخول المدينة بقيادة نســيب البكري، حتى وصلوا باب الجابية في وسط المدينة وهددوا دار الحكومة والقلعة فلجأ الفرنســيون رجالاً ونساء إلى حي الصالحية، وأقاموا حوله المتاريس والأسلاك الشائكة وأوقفــوا الــدبابات لحمايته وحشدوا الجند للدفاع عنه، وقامت القوات الفرنسية بمحاصرة الثوار مما اضطرهم إلــى الانسحاب إلى الأزقة المجاورة، وأصيب المندوب السامي بالهلع فغادر دمشق، وأمــر بقصــف المدينة بالمدفعية واستمر القصف يومين متتاليين من ٢٩ ربيــع الأول حتــى ٢ ربيــع الآخــر ١٣٤٤هــ/ ١٨ أكتوبر حتى ٢٠ أكتوبر١٩٢٥م([4])، وأخذوا بــإطلاق القنابــل علــى المدينــة فدمروها، وقد أدى القصف الوحشي الذي استمر يوميين متتاليين يرمونهم بقنابل النفط الملتهبــة مما أدى إلى مقتل ١٤٥٦ شخصاً، بينهم ٢١٦ امرأة و١٧٧ طفلاً دون الخامسة، أمــا الضــحايا تحت الأنقاض فكانت أعدادهم تتراوح مابين ثمانية إلى عشرة آلاف من الأبرياء، كما تم حــرق ألف دار، ولم يتوقف القصف إلا بعد أن فرض سراي غرامة مقدارها مئة ألف ليــرة عثمانيــة،

([1]) رمضان شلاش (١٢٨٦ــ بعد ١٣٦٥هــ/١٨٦٩ــ بعد ١٩٤٦م): من مواليد سوريا، تخرج من مدرسة العشائر التي أنشأها السلطان عبدالحميد الثاني في اسطنبول لتحضير البدو، عندما احتل الفرنسيون ســوريا رحــل إلــى الأردن وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام غيابياً، وعندما قامت الثورة السورية عام ١٣٤٤هــ/ ١٩٢٥م شارك فيها مع السوريين وانتهى أمره بالتسليم حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية في بيروت إلى عام ١٣٦٥هــــ/١٩٤٦م حيث عاد إلى بلده. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٣٢ ؛ صبحي العمري: المعارك الأولــى الطريــق إلــى دمشق، أوراق الثورة العربية(١)، (دار رياض الريس، لندن، ط١، ١٩٩١م)، ص١٣٩.

([2]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم٧.

([3]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص٣٧ــ٣٨ ؛ عبد الرحمن الشهبند: المرجع الســابق، ص٣٤ نــاجي البــزي: المرجع السابق، ص٩٧.

([4]) سعيد العاص: المرجع السابق،ص٣٨ــ٤١ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٢٦ــ٣٣٠ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص٩١ــ١٠٦.

وجمع ثلاث آلاف بندقية، وانسحبت قوات الثورة من دمشق وتجمعت في الغوطة لتعيد تنظيم نفسها([1]). إن هذا القصف العنيف للمدنين المسلمين يدل على مدى قوة الحقد الصليبي عند الفرنسيين.

أرسل حسن الخراط بعد ضرب دمشق رسالة إلى المفوض السامي الفرنسي رسالة يستنكر فيها فعلته الشنيعة جاء فيها: "..إني كللت شرف العرب بما هو أهله واستحسن فعلي العالم كله لحسن إدارة رجالي ومحافظتهم على إخواننا المسيحيين والأجانب خصوصاً، وعلى الضعفاء عموماً. وأما أنت فقد نحرت شرف فرنسا وصوبت قنابلك إلى قلبها...أنت ممثل فرنسا وأنا حارس دمشق. أسرت جندك أسراً شريفاً وأنت ضربت النساء والأطفال والشيوخ ضرباً دنيئاً...كان بودك أن تجعلها حرب دينية إسلامية وتفرق بيننا وبين إخواننا، ولكن الله أبى. فضيعت رشدك وخربت الأحياء الإسلامية على رؤوس أهلها آملاً أن أقابلك بالمثل، وقد فاتك أننا عرب ونحافظ على الجار..."([2]). يتضح لنا من نص هذه الرسالة أن الجنرال سراي استهدف الأحياء السكنية الإسلامية فقط، بغرض إشعال نار الحرب الطائفية بين المسلمين والمسيحيين في دمشق([3])، لكن الثوار فوتوا عليه هذه الفرصة.

لقد أثرت حوادث دمشق في الدوائر السياسية في فرنسا، لأن القصف أدى إلى تدمير أحياء سكنية بكاملها، مما أثار استنكاراً دولياً([4]) كما أن نشوب الثورة في جبل الدروز وانتشارها في كل مكان في سوريا، أدى إلى استدعاء الجنرال سراى، والتحقيق معه، حيث قال عن ضرب دمشق بوحشية بالقنابل "إن ثماني قنابل أطلقت على المدينة في اليوم الأول منها أربع أطلقت بعد الظهر، ثم تقرر استئناف ضرب المدينة في اليوم التالي، لأن الثوار استمروا في إثارة الإضطرابات. ومن سوء الحظ أن بعض مطلقي المدافع لم تكن لهم الدراية اللازمة. فبسبب الخطأ في التسديد والتصويب طاشت مائة وخمسون قنبلة في المدينة فنزل العطل والضرر بمائتين وخمسين منزلاً. وأصيب ١٥٣ شخصاً([5]). ثم قال إنه لإعادة النظام في سورية...يجب أن يكون هناك سبعون ألف جندي ــ أي عدد الجيش الذي كن لدى الجنرال غورو ، ولكن

([1]) سعيد العاص: المرجع السابق،ص٤٠ــ٤٣ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٢٦ــ٣٣٩ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٢٤٤ ؛ ناجي البزي: المرجع السابق، ص٩٧ــ٩٨.

([2]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص٢٢٩ ؛ فارس زرزور: المرجع السابق، ص٢٦٥.

([3]) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق،ص٢٣٩ــ٢٤٩.

([4]) للمزيد من المعلومات حول الاستنكار الدولي لقصف دمشق انظر: فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٢٥٠ــ٢٥٣.

([5]) انظر الصور في ملحق الصور الملحق رقم ١ .

الجيش الموجود الآن وعدده عشرون ألف هو جيش لا يكفي"([1]).

أدى قصف دمشق إلى دخول مجموعات الثوار إلى الجولان وجنوب لبنان ففي ربيع الأول ١٣٤٤هـ/بداية شهر أكتوبر ١٩٢٥م تزايد عدد جيش الثوار بنسبة كبيرة بفضل انضمام فلاحي هاتين المنطقتين إليهم، كما انضم إليهم فلاحو قضاء جبل عامل الشيعة وعدد من مسيحي هذه المناطق الريفية إلى الثورة، كانت صفوف الثوار تتضاعف يومياً، ففي قضائي حمص وحماة انضم عدد كبير من الفلاحين إلى الثوار([2]).

وفي ٣٠ ربيع الآخر ١٣٤٤هـ/١٧ نوفمبر ١٩٢٥م دارت معركة الزور الثانية(أو المليحة) واشترك فيها ٨٢ مجاهد وخرج الفرنسيين بقوة كبيرة([3]) للانتقام من المجاهدين، وبعد قتال استمر ست ساعات، تمكن الثوار من ضرب القوات الفرنسية ومطاردتهم، حتى أدخلوهم دمشق، وكانت نتيجة هذه المعركة وقوع ثلاثة قتلى وأربعة جرحى من الثوار، وإصابة حسن الخراط وتوفي بعد هذه الإصابة في٥ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ/٢١ ديسمبر ١٩٢٥م، أما خسائر القوات الفرنسية فكانت بالمئات فهي لا تقل عن ٣٠٠ مابين قتيل وجريح([4]).

وتلا ذلك أن قدمت فرنسا بعض التنازلات الشكلية بعد قصف دمشق، الذي أثار الرأي العام العربي والعالمي، حيث أدى هذا العمل الوحشي المتهور إلى تهديد المصالح الفرنسية في المشرق العربي، لذلك عملت الحكومة الفرنسية على استبدال الجنرال سراي بالمسيو هنري دي جوفنيل في منصب المندوب السامي الفرنسي الذي وصل إلى بيروت في ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/٢ ديسمبر ١٩٢٥م ، وكان أول ما عمله أن كتب إلى وزارة الحربية طالباً إرسال ٥٠ ألف عسكري على جناح السرعة لإخماد الثورة، ولبت طلبه وزارة الحربية التي أخذت ترسل إليه النجدات تدريجياً([5]). فبعد جلاء الثوار عن دمشق ورجوعهم إلى الغوطة، أرسلت

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٤٢.

([2]) فلاديمير لوتسكي : المرجع السابق ، ص٢٥٦ـ٢٥٧.

([3]) لا توجد إحصائية دقيقة لعدد الجيش الفرنسي فيذكر سعيد العاص بأن القوات الفرنسية مكونة من ١٣٠٠محارب، وهم خليط من السنغال والمغاربة والبدو والشركس، ورجال الدرك وعددهم ٢٠٠ دركي، وقوة الهجانة، ٤ دبابات ومدفعية جبل. أما قوة الثوار فكانت٢٨ شخص ، معهم ٦٥ بندقية ، كما أن هناك اختلاف في تاريخ المعركة فأمين سعيد ومحي الدين السفرجلاني يذكران أن المعركة كانت في٣٠ ربيع الآخر ١٣٤٤هـ/١٧ نوفمبر بينما يذكر سعيد العاص أنها كانت في٢٧ ربع الآخر ١٣٤٤هـ/١٤ نوفمبر ١٩٢٥م. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣١٩، محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١٨٠ ؛ سعيد العاص: المرجع السابق،ص٣٦ـ٣٧.

([4]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣١٩ ؛ سعيد العاص: المرجع السابق،ص٣٦ـ٣٧ ؛ منير الريس: المرجع السابق، ص٣٤٢ـ٣٤٨.

([5]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٤٢ ؛ أنطوان عريضة: : المرجع السابق ، ص١٦.

القوات الفرنسية قوة عسكرية إلي الغوطة في محاولة منها للقضاء على الثورة، فحدثت معركة يلدا وببيلا في ١٨ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/٥ ديسمبر ١٩٢٥م، فالضرب الوحشي لدمشق وما أحدثه من آثار نفسية سيئة لم يثن من عزيمة الثوار بل زادهم قوة، حيث تمكنوا من القضاء على القوات الفرنسية التي انسحبت إلى دمشق بعد أن خسر الفرنسيون مئات القتلى، وعرفت هذه المعركة بمعركة يوم السبت، كما شهدت القرى المحيطة بدمشق معارك طاحنة بين قوات الثورة والقوات الفرنسية وكان هدف فرنسا القضاء على الثورة، وهدف الثوار استنزاف القوات الفرنسية في المناطق المحيطة بدمشق(١).

ثورة إقليم البلان(٢): لعبت هذا المنطقة، دوراً ريادياً في تاريخ الثورة السورية الكبرى. فمن تقاليد الدروز أن يتواصلوا ويتعاونوا، ويشد بعضهم أزر بعض في النائبات والملمات، فعندما كانت القوات الفرنسية مشغولة بحوادث دمشق والغوطة وحماة، قررت القيادة العليا للثورة في جبل الدروز تسير حملة إلى إقليم البلان ووادي التيم(٣)، وفي ربيع الآخر ١٣٤٤هـ/أواخر شهر أكتوبر ١٩٢٥م تم تأليف الحملة بقيادة زيد الأطرش، وقد تمكن زيد من السيطرة على إقليم البلان برفقة ثوار الإقليم، ووصل بقواته إلى مجدل شمس(٤) مركز قيادة ثورة إقليم البلان، واجتمعوا في بيت قائد الثورة المجاهد أسعد كنج أبو صالح(٥) وتشاوروا حول

---

(١) منير الريس: المرجع السابق،ص٣٦٤ـ٣٦٩ ؛ ناجي البزي: المرجع السابق، ص٩٨ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٨٨ـ ١٩٠.

(٢) اقليم البلان: يطلق هذا الاسم على المنطقة الممتدة غربي دمشق الجنوبي من قلعة جندل شرقاً إلى قلعة بانياس غرباً. وتشمل قضاء وادي العجم وعاصمته قطنا، وقضاء القنطرة، وتتبعه سفوح حرمون الشرقية وسكانها من الدروز.أما سكان السهل فهم من الفلاحين السنيين ومن النصارى والبدو والشراكسة والتركمان وغيرهم. انظر:أمين سعيد: الثورة العربية،الحاشية١،ج٣،ص٣٤٣ ؛ محي الدين السفرجلاني:المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٣) وادي التيم: الذي يترواح عرضه بين خمسمائة وثلاثة آلاف متر، يتألف هذا الوادي من عدة قرى وبلدان أشهرها حصبيا وراشيا، وهي في سفوح جبل الشيخ الغربي(حرمون) ويقطنه دروز وسنيون ومسيحيون، وقد كان تابعاً حتى سنة١٣٣٨هـ/١٩٢٠م لحكومة دمشق، ثم فصل عنها وألحق بلبنان الكبير. انظر: سعيد العاص: المرجع السابق،ص١٧١ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، الحاشية١، ج٣، ص٣٤٤ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٤) مجدل شمس: قرية درزية كبيرة في سفح جبل الشيخ(جبل حرمون) ترتفع ١٢٠٠ مترعن البحر، تكتنفها جبال صعبة المرتقى. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣، ص٣٤٤ ؛ أدهم الجندي: المرجع السابق، ص٢١٤.

(٥) أسعد كنج أبو صالح(١٢٩٦ـ١٣٥٦هـ/١٨٧٩ـ١٩٣٧م): ولد في بلدة مجدل شمس،وهو قائد ثورة الجولان واقليم البلان وهو من الأسر العريقة التي سكنت الجولان قادماً من لبنان على أثر الصراع الذي كان قائماً فيها عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م. انظر الموقع على الانترنت: الموحدون: http://raia.ba7r.org/montada-f3/topic-t1262.htm

حول كيفية توسيع الثورة([1]). وقرروا مد الثورة لتشمل وادي التيم التي بدأت فيه الثورة فعــلاً، فقد طلب دروز حصبيا الانضمام للثورة وتوسيع نطاقها لتشمل لبنان الكبير([2])، وبالفعل ســارت حملة باتجاه حاصبيا حيث غادرت الحامية الفرنسية دون قتال ودخلها الثوار في ٢٤ ربيع الآخر ١٣٤٤هــ/١١ نوفمبر ١٩٢٥م، لأن الحامية الفرنسية في البلدة استجارت بشيخ الطائفة الدرزية الشيخ حسين قيس فأجارها قبل دخول الثوار وأمن لها الطريق إلى النبطيــة، وهكــذا أصــبحت حاصبيا بأيدي الثوار([3]).

اجتمع قادة الحملة في حاصبيا وقرروا أن يستولوا على مرجعيون، واقترحوا تجنب دخول قرية كوكبا، لمرابطة قوات معاديه للثورة فيها أولاً، وتحسباً للحساسيات الطائفية بــين الــدروز والنصارى ثانياً، ولكن عندما بدأ الزحف فوجئ الجميع بقبول حمزة درويــش دعــوة الكــاهن، لتناول الغداء في كوكبا.وما أن كادت السيارة التي استقلها الكاهن وحمزة درويش تصــل القريــة حتى أمطرت بالرصاص من قبل عصابة بطرس كرم([4]) مما أودى بحياة الكــاهن وثلاثــة مــن مرافقي حمزة درويش، وباءت جميع محاولات الثوار إقناع الموالين لفرنسا فــي هــذه القريــة التوقف عن إطلاق النار عندها دخلها الثوار وأضرموا النار في منازلها وحصل سلب ونهب في هذه القرية أساء لسمعة الثورة، خصوصاً أن حمزة درويش خرق ما أتفق عليه فــي الاجتمــاع الذي عقد في حاصبيا والقاضي بعدم دخول قرية كوكبا. وفي هذه الأثنــاء أذاع زيــد الأطــرش منشوراً إلى أهالي حاصبيا وراشيا يوضح فيه أن ثورتهم موجة إلى المستعمر الفرنســي ولــيس إلى أهالي حاصبيا ولا إلى النصارى([5]). على أن الثوار حاولوا قــدر الامكــان تجنــب الفــتن الطائفية، حتى لا يدخلوا في حرب أهلية يكون ضحيتها أهل البلاد الأصليين، لذلك غلــب علــى الثورة السورية الطابع القومي الواضح جلياً في جميع المنشورات التي أذاعها سلطان الأطرش.

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣، ص٣٤٤ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص٢٦٠.

([2]) حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٩٧ــ١٩٨ ؛ حسن البعيني: المرجع السابق،ص١٧٠.

([3]) سعيد: الثورة العربية..،ج٣، ص٣٤٤ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص٢٦٠ ؛ حســن القيســي نصر: المرجع السابق، ص١٩٨.

([4]) بطرس كرم: ماروني من أهالي زغرتا شمال لبنان جاء به الفرنسيون إلى الجديدة يومئذ للدفاع عنها وألفوا لــه عصابة مارونية أمدوها بالسلاح والمال لقتال الثوار وإيقاع الشقاق بين طوائــف الــبلاد وإغــراء المســيحيين بالمسلمين والمسلمين بالمسيحيين. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..، الحاشية ١، ج٣، ص٣٤٦.

([5]) سعيد العاص: المرجع السابق،ص ١٨٨ــ١٩٦ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٤٦

بعد هذه الحادثة عاد الثوار إلى حاصبيا ليتدارسوا الأمور من جديد، ووصل إلى حاصبيا زيد الأطرش القائد العام للثورة في الإقليم، وعندما علم بما جرى قرروا عدم التوجه غرباً نحو مرجعيون، حتى لا يثيروا الفتن وحصروا نشاطهم الحربي في منطقة وادي التيم([1]).

صبر الثوار أياماً ثم قرروا الاستيلاء على إبل السقي التي تبعد عن مرجعيون نصف ساعة، فانطلقوا باتجاهها ودخلوها بالتنسيق مع وجهائها، واستقبلت الحملة أحسن استقبال، ومن هناك أرسلوا مجموعة للاستطلاع ومعرفة ماذا يجري في مرجعيون، فعادت هذه المجموعة وأبلغت الثوار أن هناك حامية صغيرة تعسكر في السرايا، فقرر الثوار إرسال وفد لمفاوضتهم من أجل الانضمام للثورة، فذهب هذا الوفد، وكادت مساعيهم تنجح لولا وصول حملة مكونة من أربعمائة جندي بمعداتهم الكاملة برفقتهم بطرس كرم على رأس قوة مارونية يبلغ عددها ثلاثمائة محارب، وكان عدد الثوار ثلاثمائة محارب، لذلك طلبوا النجدات من سكان الإقليم. وقرروا انتظار وصول قادة الثورة للبت بأمر الهجوم على مرجعيون([2]). مال قادة الثورة في البداية إلى عدم التعرض لمرجعيون. ولكن عصابة بطرس كرم لم تترك لهم مجالاً للتفكير حيث قام الأخير بالهجوم على مزرعة برغز التابعة لإحدى العائلات الدرزية وأحرقها انتقاما لما حصل مع حمزة درويش في كوكبا([3]). وأدى ذلك إلى قيام مجموعه من ثوار إقليم البلان بالتصدي لعصابة بطرس كرم وأسروا منهم ثمانية عشر رجلاً جردوهم من سلاحهم ثم أطلقوا سراحهم([4]).

تحرك الثوار في٢٦ ربيع الآخر ١٣٤٤هـ/١٣ نوفمبر ١٩٢٥م باتجاه مرجعيون وهاجموها وبعد معركة حامية الوطيس استبسل فيها الثوار أشد استبسال انسحبت القوات الفرنسية وعصابة بطرس وطاردهم الثوار حتى جسر الخردلة، لأنه أول حدود لبنان الصغير(أو القديم)، وبذلك دخل الثوار مرجعيون، وظلت بها قوة ضئيلة بقيادة أسعد كنج أبو صالح للمحافظة على الأرواح والأرزاق والأموال وتهدئة خواطر السكان، ومكث فيها حتى ٢ جمادى الأول ١٣٤٤هـ/ ١٩ نوفمبر١٩٢٥م، فمنع كل سلب ونهب بحزم ولو كان هدف الثوار النهب لنالوا ألوفاً من الذهب، لكنهم نبذوا ذلك وحافظوا على حياة السكان كمحافظتهم على رقابهم([5]). كما أنهم لم يفرقوا بين مسلم أو مسيحي وهذا ما أثار حفيظة الفرنسيين الذين قاموا بتجنيد بعض الموارنة أمثال بطرس كرم حتى يشعلوا نار الطائفية فينشغل الثوار في حرب بعضهم بعضاً، وتنشغل فرنسا بتدمير البلاد ونهب خيراتها.

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٤٦.

([2]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص ٢٠٥ــ٢١٠.

([3]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص ٢٠٥ــ٢١٠ حسن البعيني: المرجع السابق، ص١٧٠ــ١٧١.

([4]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص ٢٠٥ــ٢١٠ .

([5]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص ٢٠٥ــ٢١٠ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٩٩ــ٢٠٠.

بعد السيطرة الكاملة على مرجعيون واستتباب الأمن فيها. قرر الثوار السيطرة على راشيا وساروا باتجاهها ورأوا بأم أعينهم فرار سكانها من الأطفال والنساء والشيوخ، يحملون على الدواب أمتعتهم وبعض ما توفر من الطعام، وذلك هرباً من بطش الفرنسيين وأعوانهم. وفي صبيحة ٣ جمادى الأول ١٣٤٤هـ/٢٠ نوفمبر ١٩٢٥م اقتربت الحملة من راشيا بقيادة حمزة الدرويش، وكانت ترمي من عملها هذا التقدم نحو سهل البقاع لقطع طريق دمشق بيروت الحيوي على الفرنسيين، عندما علم الجند الفرنسيون بقدوم الحملة تحصنوا داخل القلعة وكان عددهم ٣٥٠ جندياً فرنسياً و ١٥٠ مارونياً مجند في الجيش الفرنسي، و٧٠ مسيحياً متطوعاً من أهل راشيا، أما الثوار فكان عددهم حوالي ألفين رجل([١]). انقسموا إلى ثلاث مجموعات:

١. مجموعه تقطع الأسلاك الشائكة وتتسلق السلالم الخشبية التي أحضروها من القرية وشدوها إلى بعضها للوصول إلى برج القلعة.
٢. مجموعه ترابط وراء المتاريس خلف جدران البيوت لتحمي ظهور المهاجمين.
٣. مجموعه تهاجم أبواب القلعة من أجل تحطيمها([٢]).

وبدأت المعركة بين الطرفين في٥ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/٢٢ نوفمبر١٩٢٥م وأظهر الثوار فيها شجاعه نادرة، حيث بدأ الثوار يتسابقون على صعود السلم، وكان في مقدمتهم ثوار إقليم البلان، الذين صعدوا السلم رغم وابل الرصاص الذي انهمر عليهم من متاريس الفرنسيين. فحطموا الباب وأحدثوا فتحات في الجدران، ودخل الثوار فاحتلوا ساحتها الداخلية، وبدأوا بمطاردة الفرنسيين داخل القلعة. في هذه الأثناء ألقت الطائرات الفرنسية نسخاً من رسالة تطمئن فيها الحامية الفرنسية بقرب الفرج ووصول النجدات لتطويق ثوار راشيا، ويهنئ قائد الحامية الفرنسية بصموده أمام الثوار. وبالفعل وصلت النجدات الفرنسية في٧ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/٢٤ نوفمبر ١٩٢٥م، واشتبكت مع قوات الثوار التي بقيت خارج راشيا وأنسحب على إثرها الثوار من القلعة([٣]). بدأت قوات الثوار تخرج من راشيا، فانسحبت مجموعة نزيه العظم، والتحق قسم من الثوار بالقوة المرابطة خارج البلدة، ولم يبق في راشيا، حسب مذكرات سعيد العاص([٤]) إلا ثلاثين رجلاً بقيادة أسعد كنج أبو صالح الذين اضطروا للانطلاق باتجاه

([١]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص١٦٤ــ١٧١.

([٢]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٣٥٢ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص٢٦٦ــ٢٦٧.

([٣]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص١٦٨ــ١٦٧.

([٤]) سعيد العاص(١٣٠٦ــ١٣٥٥هـ/١٨٨٩ــ١٩٣٦م): من مواليد مدينة حماة تلقى تعلميه الابتدائي فيها، أكمل دراسته الإعدادية في دمشق، تخرج من الكلية الحربية في الآستانة في عام١٣٢٥هـ/١٩٠٧م برتبة ملازم، عين في دمشق وتنقل في مراكز عسكرية شتى، أتهم بانتسابه إلى الجمعيات العربية في عهد الدولة العثمانية فقبض علية وحكم عليه بالإعدام، وخفف الحكم بالمؤبد، عاد إلى وطنه بعد دخول الأمير فيصل بن الحسين لحلب،

قـــريتهم مجـــدل شـــمس، ليـــدافعوا عنهـــا أمـــام الزحـــف الفرنســـي الـــذي بـــدأ مـــن القـــــــــــــــــــــــــــنيطره باتجاه القرية. وكانت نتيجة هذه المعركة سقوط أربعين جريحاً وعشرين قتيلاً([1]).

والجدير بالذكر أن عدد الثوار كان يتضاعف مرتين وثلاثة عند دخول أي منطقة، فعنـدما دخل الثوار حاصبيا كان عددهم يتراوح مابين ١٠٠٠ و١٥٠٠ مقاتل، انضم إليهم جميع سـكان القرية القادرين على حمل السلاح أي حوالي ألف شخص، وعلى هـذا المنـوال كانـت تسـير المعارك في بقية المناطق السورية واللبنانية التي وصلت إليها الثورة([2]).

في ٥ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/٢٢ نوفمبر ١٩٢٥م أذاع زيـد الأطـرش منشـوران([3]) الأول موجه إلى الطوائف الإسلامية في جبل لبنان، والثاني موجه إلى اللبنانيين كافة، موضـحاً فيه موقف الثوار، وأنهم لا يضمرون لهم شراً، وأن ثورتهم موجه ضد الفرنسيين. موضحاً فيهـا أن الثورة السورية ثورة قومية وطنية على جميع أبناء سوريا على اختلاف مـذاهبهم الاشـتراك فيها للوقوف في وجه المستعمر الفرنسي([4]).

طيلة شهر جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/ديسمبر من عام ١٩٢٥م حاول المنـدوب السـامي الفرنسي الجديد دي جوفنيل بعدد من المحاولات، للتفاهم مع الثوار، وإقناعهم بتسـليم أسـلحتهم، لكنه فشل بسبب تعنت الحكومة الفرنسية وتمسك الثوار بمطالبهم العادلة الداعية إلى الوحدة، ونبذ الاستعمار، ولا شك أن هذا الفشل أثر في نفس المسيو دي جوفنيل، الذي جعل القوات العسكرية تمسك بزمام الأمور، فأمعنوا في الشعب تقتيلاً وتعذيباً، وفي البلاد تدميراً وتخريبـاً، فارتفعـت الأصوات بالشكوى مما جعله يغادر البلاد وهو يجر أذيال الفشل في١٦ ذو القعدة ١٣٤٤هـ/٢٨

وتولى عدد من المناصب في العهد الفيصلي، وعندما دخل الفرنسيون دمشق قام بمحاربتهم في اللاذقية، ثم انضم إلى ثورة صالح العلي، عاش متنكراً في حماة، قبضت عليه الحكومة الفرنسية عندما حـاول الالتحـاق بثـورة إبراهيم هنانو، فر من سوريا إلى شرق الأردن، وتولى عدد من المناصب فيها، وعندما اندلعت الثورة السـورية الكبرى في عام١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م اشترك فيها، وعندما انتهت الثورة فر إلى العراق، وعندما علم بقيام الثـورة العربية الكبرى في فلسطين عام١٣٥٥هـ/١٩٣٦م اشترك فيها واستشهد فيها. انظر: أدهم الجنـدي: المرجـع السابق، ص٢٥٣ـ٢٥٦ ؛ أحمد يوسف داود: المجاهد سعيد العاص، (منشورات دار المستقبل ، دمشـق، ط١، ١٩٩٠م) ، ص٢٣ـ٣٥.

([1]) سعيد العاص: المرجع السابق، ص٢٣١ـ٢٣٣ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السـابق، ص١٧٠ـــ١٧١ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص٢٠٠ـ٢٠٨.

([2]) فلاديمير لوتسكي : المرجع السابق ، ص٢٦١ـ ٢٦٢.

([3]) انظر نص المنشورين في الوثائق الملحق رقم٩.

([4]) أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣ ، ص٣٤٧ـ٣٥٢ ؛ ذوقان قرقوط: المشرق العربي..،ص٢٣٩ـ٢٤٤.

مايو ١٩٢٦م([1]). وهذا التصرف يؤكد لنا مدى تشبع الفرنسيين بالروح الصليبية، ومـدى الحقـد والكراهية والاستعباد التي يحملها المستعمر الفرنسي للشعوب الخاضعة لحكمة، فهو يعمل جاهداً لابادة هذه الشعوب، وتدمير بلادهم، وتغير ثقافة أبنائهم.

معركة مجدل شمس الأولى([2]): استمر الثوار في مقاومة القوات الفرنسـية التـي بـدأت تزحف باتجاه حاصبيا، وفي الوقت نفسه بدأت قوة فرنسية تزحف من القنيطـرة باتجـاه مجـدل شمس، وكان الهدف من تحريكها هو إحداث فكي كماشة على الثوار الذين تفرقوا وعاد قسم كبير منهم إلى مجدل شمس من أجل الدفاع عنها. ولقد تمكنت القوات الفرنسية من دخـول حاصـبيا في٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ/٥ يناير١٩٢٦م بعد معركة ضارية أستشهد فيها ثمانية وثلاثون رجلاً من الثوار([3]).

وكان من الطبيعي أن يستثمر الفرنسيون هذا النصر بالانقضاض على مجدل شمس والتي تواجد فيها غالبية الثوار الذين وصلوا من وادي التيم، وقد بلغ عددهم ٢٥٠ محارباً. سد الثـوار مداخل البلدة عند البويب والسكره بهدف منع تقدم القوات الفرنسية. وكانت خطة الثوار تقضـي بامتصاص الهجوم الفرنسي ومن ثم القيام بهجوم مضاد. وهكذا بدأت المعركة عنـدما هاجمـت الطائرات الفرنسية المجدل، وبدأت ترميها بمدفعيتها وفي الوقت نفسه تتقدم باتجاه القرية. وكانت مجموعات من الثوار تناوش العدو المتقدم باتجاه البلدة واختار الثوار تكتيك القتال والتراجع الذي يفرضه واقع ميزان القوى بينهم وبين الفرنسيين المدججين بكل أنواع الأسلحة الثقيلة من مـدافع ومدرعات وطائرات، في حين كان الثوار يمتلكون البنادق والسلاح الأبيض فقـط. واسـتمرت هذه المعركة ستة أيام بلياليها. وخسر الثوار في هذه المعركة أحد أبرز قـادة الثـورة السـورية الكبرى وهو فؤاد سليم([4]) الذي توفي عندما سقطت قنبلة بجانبه عندما كـانوا يطـاردون فلـول الجيش الفرنسي المهزوم([5]). ويتضح لنا أن معركة مجدل شمس الأولى تسببت بخسـائر كبيـرة

([1]) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣ ، ص٣٧٦ــ٤١٥ ؛ الجنرال أندريا: المرجع السابق، ص١٣٦ــ١٤١.

([2]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

([3]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص١٧١.

([4]) فؤاد سليم(١٣١٠ــ١٣٤٤هـ/١٨٩٣ــ١٩٢٦م): ولد في بعقلين في سوريا، تخرج من الكلية الأمريكية، اشترك في ثورة الشريف حسين ضد الدولة العثمانية، استخدم في الدرك الفيصلي في سـوريا، ، بعـد سـقوط الحكـم الفيصلي في سوريا توجه إلى القاهرة، وعندما قامت الثورة السورية الكبرى عاد إلى سورية وشارك فيها، تسلم أركان حرب حملة الإقليم، وقتل في معركة مجدل شمس الأولى في جمادى الآخرة ١٣٤٤هـــ/ ينـاير١٩٢٦م، بينما يذكر أدهم الجندي أنه قتل في معركة مجدل شمس الثانية يوم السبت ٢٠ رمضـان ١٣٤٤هـــ/٣ إبريـل ١٩٢٦م . انظر: سعيد العاص: المرجع السابق، ص٢٣٧ ؛ أدهم الجندي: المرجع السابق، ص٢١٦ــ٢١٨.

([5]) سعيد العاص: المرجع السـابق، ص٢٣٣ـــ٢٣٨ ؛ سـلطان باشـا الأطـرش: المرجـع الـــــسابق،

للثوار، لكنها أبرزت استبسال الثوار السوريين في قتالهم ضد المستعمر الفرنسي، علــى الــرغم من قلة إمكاناتهم المادية والحربية في مواجهة الترسانة الحربية الفرنسية.

معركة مجدل شمس الثانية: هذه البطولات التي أبداها الثوار في إقليم الــبلان أوصــلت الفرنسيين إلى قناعة أنه لا يمكن اجتثاث الثورة إلا بالاستيلاء على مجدل شمس، التي تجمع فيها كل ثوار الإقليم وكانوا يخرجون منها لضرب الفرنسيين ثم يعودون إليها، ثــم أن الانتصــارات التي حققتها الثورة جعلتها تمتد من جبل الدروز إلى الكثير من المناطق في سوريا ولبنان. لــذلك بدأ الفرنسيون بوضع خطة جديدة للاستلاء على بلدة مجدل شمس، ولذلك تم حشد القوات التــي تمكنهم من الاستيلاء على البلدة، ويقول قائد الثورة العام سلطان باشا الأطرش بمذكراته:" أما في إقليم البلان فقد كان من الطبيعي أن يحاول الفرنسيون أيضاً تطهيره من الثوار، بعد أن سيطروا نسبياً على الموقف في المناطق الأخرى، وحدوا من الأخطــار التــي كانــت تحــدق بخطــوط مواصلاتهم الرئيسية ومراكزهم العسكرية الهامة فيها، فإذا تم لهم ذلك (أي الإستيلاء على مجدل شمس) يصبح طريق السويداء مفتوحاً أمامهم ويتفرغون لخوض المعركة الحاسمة"([1])

من هنا نستطيع أن نستنتج ثقل وحجم ثورة الإقليم وثوارها في تلــك الفتــرة، فقــد أخــذ الفرنسيون بالحسبان عدم دخولهم في مغامرة ضد جبل العرب قبل القضاء على ثــورة الإقلــيم، خوفاً من أحداث فكي كماشة على القوات الفرنسية في حال توجهها جنوباً باتجاه السويداء.

وفي رمضان ١٣٤٤هــ/نهاية شهر مــارس عــام ١٩٢٦ جهــز الفرنســيون حملتــين، الأولى([2]) انطلقت من مرجعيون غرباً، وواصلت سيرها عن طريق بانيــاس وهــدفها مهاجمــة القرية من الغرب والجنوب، والثانية انطلقت من القنيطرة شرقاً لتحكم الطوق عليها من الشــمال والشرق، وفي جملة القوات المعبأة في هاتين الحملتين عــدد كبيــر مــن المتطوعــة اللبنانيــة والسورية([3])، وقد أنيط بالجنرال كليمان غرانكور قيادة هذه الحملة([1]). التي تألفت من سريه من

ص١٧١ــ١٧٢.

([1]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص١٨٤.

([2]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ٧.

([3]) في تلك الفترة ثار الأمير عبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى وطردت قواته الجيش الأســباني، فأرســلت فرنسا قواتها لمساعدة الأسبان حتى لا تتوسع ثورة الريف ويصعب القضاء عليها، لذلك سحبت عدد كبيــر مــن جيوشها في سوريا للقضاء على ثورة المغرب، ولم يبق من جيشها في سوريا ولبنان سوى عشرين ألف جندي، أكثرهم من المحليين وأصحاب المصالح الخاصة، أطلقت على السورين منهم "الجوقة السورية" وهم يتكونون من الشركس والأرمن والعلويين والإسماعيليين، أما اللبنانيين فأطلق عليهم اسم "القناصة اللبنانية" إلى جانب الحــرس السيار بقيادة ضباط الاستخبارات وعددهم نحو ستين ضابطاً. لكن بعد نشوب الثورة أخذت القــوات الفرنســية تتدفق إلى سوريا من جميع المستعمرات الفرنسية. انظر: منير الريس: المرجع السابق، ص ١٥٥ ؛ عبدالرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٨٦.

الدبابات مع خمس كوكبات شركسيه([2]) فضلاً عن السيارات المزودة بالمدافع الرشاشة. ووصل عدد الثوار في مجدل شمس من أهل الإقليم إلى حوالي ألف مقاتل، كانوا جميعهم تحت قيادة أسعد كنج أبو صالح. وضع الثوار خطة الدفاع عن البلدة كما يلي:

١. التصدي للحملات الفرنسية قبل وصولها إلى المجدل بهدف النيل من هذه القوات واحباط معنوياتها إضافة إلى تأخير وصولها إلى البلدة.
٢. تقرر إخلاء النساء والأطفال إلى مكان آمن في جبل الشيخ، كي لا يتعرضوا إلى بطش الفرنسيين ونقمة أعوانهم إذا ما سقطت المجدل بأيدي الفرنسيين وأعوانهم([3]).

ولكن عدد القوات الفرنسية الهائل التي زجت في المعركة والمدججة بكل أنواع الأسلحة من طائرات ومدرعات ومدافع، مقارنة مع عدد المجاهدين وأسلحتهم المتواضعة من جهة، وهجوم الفرنسيين على البلدة من جهات مختلفة، الأمر الذي فرض على الثوار رغم قلة عددهم التوزع بمجموعات صغيرة على أطراف البلدة المختلفة من جهة ثانية، هذا إضافة إلى الجبهة الشمالية التي فاجأهم منها وصول المغاوير الفرنسيين، بمساعدة أحد الخونة من القرى المجاورة من المكان الذي لجأ إليه النساء والأطفال والعجزة، هذه الأسباب مجتمعة جعلت قائد الثورة أسعد كنج أبو صالح يأخذ قرار الانسحاب المنظم لحماية النساء والأطفال والعجزة. ويذكر قائد الثورة العام سلطان باشا الأطرش:" أنه لم يعد أمامهم سوى تنفيذ خطة انسحاب شامل، تولى حماية ظهورهم فيها نخبة من أبطالهم بقيادة أسعد كنج أبو صالح "([4]).

بعد هذه الموقعة ازداد انضمام ثوار الإقليم إلى ثوار الجبل وخاضوا معهم معارك ضد القوات الفرنسية المستعمرة، وأستشهد في معركة مجدل شمس ٢٠٤ من الثوار، أما الفرنسيون فقتل منهم ثمانية عشر جندياً وجرح خمسة وأربعون جندياً فرنسي([5]). لقد تحصن الثوار في اللجاه حتى تأتيهم الإمدادات من الجبل، فلما علم الثوار بقرب وصول الإمدادات إليهم خرجوا لمنازلة الفرنسيين على حافة اللجاة، وكانت المعركة على أشدها، وتمكن الثوار من تشتيت العدو تاركين وراءهم أعداداً كبيرة من القتلة الذين لم يتمكن الثوار من حصرهم ، أما عدد الشهداء فقد بلغوا ستين شهيداً، وعندما انتهت المعركة وعاد الثوار إلى داخل اللجاه، استقبلوا النجدة التي

([1]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص١٨٤.

([2]) الشركس: هم قوم مسلمون هجروا ديارهم في القفقاس لما احتلها الروس، وآثروا الهجرة إلى بلاد إسلامية للحفاظ على دينهم، لذلك لا يؤخذون كلهم بجريرة من ينضم منهم إلى الجيش الفرنسي طمعاً في المال والكسب والنهب . انظر: منير الريس: المرجع السابق، ص٣٠٣ــ٣٠٤.

([3]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص١٥٨.

([4]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص١٨٥.

([5]) أدهم الجندي: المرجع السابق، ص٢١٤ــ٢١٦.

وصلتهم من الجبل([1]).

استغلت القوات الفرنسية انشغال الثوار في اللجاة فأرسلوا قوة عسكرية بقيادة الجنرال أندريا، التي استطاعت أن تستولي على السويداء يوم١٣ شوال ١٣٤٤هـ/٢٦ إبريل ١٩٢٦م([2]). ونلاحظ من خلال سير العمليات العسكرية أن القوات الفرنسية قامت بمهاجمة الثوار في مجدل شمس بقوات أكثرها من المتطوعين المرتزقة، بينما كانت هي تجهز حملة عسكرية كبيرة للهجوم الكبير على السويداء عاصمة جبل الدروز، وفي هذه الخطة تكتيك ماكر من السلطات الفرنسية، التي جعلت أهل البلاد الأصليين يقاتل بعضهم بعضاً، حتى تقوى شوكة المستعمر ويتمكن من السيطرة على البلاد والعباد. وهذا التكتيك كانت السلطات الفرنسية تتبعة في جميع البلاد التي تسيطر عليها، حتى تزرع الفتنة بين أفراد الشعب الواحد.

وبذلك بدأ يدب الوهن في جسد الثورة السورية خاصة بعد استيلاء القوات الفرنسية على السويداء، لذلك اتخذت قيادة الثورة في اجتماع "ساله" المنعقد في شوال ١٣٤٤هـ/شهر مايو ١٩٢٦م مجموعه من الخطوات والتدابير بهدف مهاجمة العدو وإشعاره بصلابة عزيمة الثوار وتصميمهم على القتال وعدم الاستسلام([3]). وكانت أهم هذه القرارات:

١. مواصلة الحرب دون هواده في مختلف جبهات القتال.
٢. إعادة القوات النازحة من الإقليم بقيادة عادل أرسلان([4]) في محاولة لإحياء الثورة هناك من جديد.

([1]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص١٩٠ـــ١٩٣.

([2]) لمزيد من المعلومات حول معركة السويداء انظر: الجنرال أندريا: المرجع السابق،ص١٥٣ـــ ١٧٥.

([3]) أمين سعيد : الثورة العربية ،ج٣،ص٤٦٧ ؛ دعد الحكيم: المرجع السابق،ص٣٠ـــ ٣٩.

([4]) الأمير عادل أرسلان(١٣٠٤ــ١٣٧٣هـ/١٨٨٧ــ١٩٥٤م): ولد في الشويفات بلبنان، وهو من دروز لبنان، سافر إلى فرنسا للاختصاص في الأدب العالي، ثم انتسب إلى الكلية الملكية في اسطنبول ولم يتم دراسته فيها، شغل عدد من الناصب في الدولة العثمانية، عندما دخل الأمير فيصل بن الحسين سوريا عين مساعداً إدارياً لحاكم سورية العسكري، ثم مستشاراً للملك فيصل عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م واتخذه رسولاً في اتصالاته مع الإنجليز والفرنسيين، وعندما إنتهى الحكم الفيصلي في سوريا استقر في شرق الأردن فعهد إليه برئاسة ديوان إمارة الأردن من عام١٣٣٩ــ١٣٤١هـ/١٩٢١ــ١٩٢٣م، ولما قامت الثورة السورية الكبرى كان في القدس فاشترك فيها، حكم عليه بالإعدام ثلاث مرات من قبل الحكومة الفرنسية. وبعد انتهاء الثورة السورية سافر إلى أوربا مع بعض القادة الوطنيين وظل فيها مشرداً إلى أن عقدت المعاهدة السورية الفرنسية عام١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م ولذلك عاد على سورية ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م، وعندما انهارت المعاهدة اعتقله الفرنسيون وأبعدوه إلى تدمر، وعندما أطلق سراحه استقر في بيروت. منذ١٧ رجب ١٣٦٥هـ/١٧ يونيو ١٩٤٦م تولى عدد من المناصب المهمة في سوريا، حتى توفي بالنوبة القلبية في سنة١٣٧٣هـ/١٩٥٤م. انظر: أدهم الجندي: المرجع السابق ، ص٢٤٠ــ٢٤٢ ؛ الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٤٣ــ٢٤٤.

٣. عدم الدخول في مفاوضات مع الفرنسيين إلا على أساس تحقيق الوحدة والعدل والمساواة، مع إنزال أشد العقوبات بالمستسلمين لجيش العدو والمتعاونين معه([1]).

وبالفعل عادت مجموعه من المقاتلين من لبنان ومن الإقليم بقيادة الأمير عادل أرسلان وأسعد كنج أبو صالح. مع مجموعه من الثوار. وفي ذي القعدة ١٣٤٤هـ/منتصف مايو ١٩٢٦م انطلقت الحملة من الجبل، وكان هدفها التقدم باتجاه البقاع والاتصال بقادة المجاهدين في بعلبك ومناطق الشمال، هذا إضافة إلى إعادة إذكاء نار الثورة في الإقليم من جديد. وقد اقتصرت العمليات الحربية في البداية على مناوشات واشتباكات خاطفة مع الفرنسيين، لأن عدد الثوار هذه المرة لم يتجاوز المئة، ولم تنجح الحملة في إثارة الحماسة من جديد عند أهل إقليم البلان وذلك لما عانته هذه المنطقة وأهلها من ويلات في المعارك السابقة التي شاركوا بها. وكان الثوار في الإقليم قد انقسموا إلى مجموعتين: الأولى بقيادة أسعد كنج أبوصالح رابطت في مجدل شمس والثانية بقيادة الأمير عادل أرسلان ورابطت في قرية حضر([2]).

بعد أن استقرت جيوش الجنرال أندريا في السويداء في١٢ شوال ١٣٤٤هـ/٢٥ إبريل ١٩٢٦م وبدأ بتحصينها وبناء المعاقل حولها، متخذاً من السويداء قاعدة عسكرية له([3])، ولم يغادرها إلا في أواسط شهر مايو متجهاً إلى شهباء التي تمكن من إحتلالها ودمر فيها سبعة منازل للثوار بعد أن نهبوها، وما أن علم سلطان الأطرش بذلك حتى جهز حملة لمقاومة القوات الفرنسية الغازية، وفي يوم٢٤ محرم ١٣٤٥هـ/ ٤ أغسطس١٩٢٦م، اشتبكت قواته مع العدو في معارك ضارية استمرت أسبوعاً بأكمله خسر الفرنسيون خلالها نحو ٧٠٠ جندي، ولكنهم في النهاية تمكنوا من التغلب على الثوار والسيطرة على شهباء التي جعلوا منها معقلاً حربياً نصبوا فيها المدافع، وحشدوا فيها المصفحات والطائرات، وسلطوا قذائفها على القرى المجاورة فاضطر أهلها للاستسلام([4]).

أما حي الميدان([5]) الذي كان يسكنه عدد كبير من الدمشقين ومن النجديين ــ الذين كانوا يعملون بالتجارة بين نجد والشام ــ فقد أرسلت القوات الفرنسية قوة عسكرية كبيرة لاحتلاله منذ

([1]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص٢٥٤.

([2]) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص٢٥٤ــ٢٥٥ ؛ أدهم الجندي: المرجع السابق،ص٤٣٨ .

([3]) الجنرال أندريا: المرجع السابق،ص١٥٣ــ ١٧٥ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣،ص٤٦٧ــ٤٦٩.

([4]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣،ص٤٦٧ــ٤٧١ ؛ سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق،ص٢٥٥ ؛ الجنرال أندريا: المرجع السابق،ص٢٠٣ــ٢١٣ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص٢٢٧ــ٢٢٩.

([5]) حي الميدان عبارة عن ذراع جنوبي طويل يتفرع من مدينة دمشق وفيه مقر سكة حيد الحجاز تحيط به واحات النخيل من كل ناحية ويسكنه السوريون من مسلمين والقليل من المسيحيين والدروز، وعدد لا يستهان به من النجديين. انظر:عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: نجديون وراء الحدود ، ص٢٣٤.

١٣٤٤هـ/بداية عام ١٩٢٦م([1])، فأعملوا القتل فيه، وكانوا يسألون الرجل عن هويته الدينية فإن أجابهم بأنه مسلم قتلوه، وإن كان نصرانياً تركوه([2]). وفي هذا يظهر لنا مدي الحقد الصليبي من فرنسا التي تتدعي التحضر والمدنية ومراعات حقوق الانسان، فإننا نلاحظ من خلال سردنا لأحداث الثورة السورية، قمة الالتعسف وانتهاك الحقوق الانسانية من قبل فرنسا للشعب السوري وخاصة المسلمين منهم.

في ١٤ شوال ١٣٤٤هـ/ ٢٦ أبريل ١٩٢٦م فرضت السلطات الفرنسية غرامة مالية قدرها ألف جنيه ذهباً، وإلا ستقطع عن سكان الميدان المياه خلال ثمانية وأربعين ساعة، لكن السكان لم يستطيعوا دفع الغرامة المطلوبة فقطعت عنهم المياه مما جعلهم يشربون من مياه المستنقعات([3]). وهذا يؤكد لنا ماذكرناه سابقاً عن بشاعة الحكم الفرنسي الصليبي لسوريا.

كما قامت القوات الفرنسية في ٢٥ شوال ١٣٤٤هـ/ ٧ مايو ١٩٢٦م بقصف حي الميدان بالدبابات والطائرات، وقاموا بإحراق المنازل عمداً بعد أن أشبعوها بالكيروسين واستمرت النيران مشتعلة لمدة ثلاثة أيام حتى أتت على حوالي ٥٠٠ أو ٦٠٠منزل وجامعين، أما المنازل المخربة فكانت بالآلاف، وقد خشي الفرنسيون من تدخل ابن سعود لحماية النجديين الموجودين في سوريا، خاصة وأنهم علموا بتحرك قوى عسكرية قوامها ألف رجل حول قريات الملح (القريات)([4])، لكن النجديين الذين ظلوا على قيد الحياة فروا إلى جبل الدروز، وتوقفت هذه المجزرة بعد أن احتج مجلس الوزراء السوري على هذه الحوادث المشينة([5]). التي لا تمت للإنسانية بصلة، والتي يستنكرها العالم بأجمعه، كما أنها تبين مدى الترابط بين المسلمين في

([1]) للمزيد من التفاصيل حول كوارث حي الميدان انظر أمين سعيد: الثورة العربية ، ج٣، ص٤٣٠ـ٤٤٢ ؛ (IOR) F.O 371 / 11506 / From : J. R. Vaughan Russell ,To Sir Chamberlain, 27 May 1926. p.107.

([2]) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: نجديون وراء الحدود ، ص٢٣٤ـ٢٣٥.

([3]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٤٣٩ـ٤٤٢ ؛ عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم: نجديون وراء الحدود ، ص٢٣٤ـ٢٣٥.

([4]) قريات الملح (القريات) : تُعد المدينة الثانية في منطقة الجوف بعد مدينة سكاكا من حيث الحجم وعدد السكان، وهي تقع في الجزء الغربي من المملكة ، وتبعد عن الحدود الأردنية (٣٠) كلم وتقع على خط العرض ٢٠ و ٣١ شمالاً وخط الطول ٢١ و ٣٧ شرقاً وكانت تسمى قريات الملح حيث أشتهرت بإنتاجه ويزرع فيها الزيتون بكثرة ومناخها يتأثر بمناخ البحر الأبيض المتوسط ، وفيها منفذ الحديثة البري لعبور البضائع والمسافرين وتبعد عن مدينة سكاكا (٣٦٠) كلم. انظر الموقع على الانترنت: الموسوعة الحرة ويكيبيديا، محافظة القريات، http://ar.wikipedia.org/wiki

([5]) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: نجديون وراء الحدود ، ص٢٣٥ـ٢٣٦.

العالم العربي، حيث أن أهل نجد ساهموا بشكل أو بآخر في الثورة السورية الكبرى لنصرة إخوانهم المسلمين هناك.

وفي١٩ ذو القعدة ١٣٤٤هـ/٣١ مايو ١٩٢٦م جهز الجنرال أندريا جيشه في بصرى وتوجه نحو المقرن الجنوبي لاحتلال صلخد، وفي٢٣ ذي القعدة ١٣٤٤هـ/ ٤ يونيو ١٩٢٦م تمكنت القوات الفرنسية من السيطرة على المدينة رغم المقاومة الشديدة التي أبدها الثوار[١]، وبسقوط صلخد والسويداء شعر الثوار بخيبة أمل مريرة، خاصة بعد وصول الأخبار عن أن الثورة في الغوطة وإقليم البلان أصبحت في دور الاحتضار، فكان عدد المستسلمين في الجبل يزيد يوماً بعد يوم، وصل الثوار إلى "وعرة الصفا" ثم إلى اللجاه فقرية صميد، حيث شاركوا بالمعارك التي كانت تدور هناك، ونظراً لضعف موقف الثوار قرروا التفاوض مع الحكومة الأردنية، لقبول دخول بعض عائلاتهم داخل الحدود الأردنية، فاستجابت الحكومة الأردنية لهذا الطلب، وأشرف سلطان الأطرش وأخيه زيد بنفسه على ترحيل هذه العائلات إلى واحة الأزرق[٢].

عقد اجتماع "بوسان" بالمقرن الشرقي وحضره الأمير عادل أرسلان وأسعد كنج أبو صالح بعد أن تمكنا من النجاة في إقليم البلان وشارك في هذا الاجتماع قادة الثورة الفاعلين من أنحاء مختلفة من سوريا، وفي محرم ١٣٤٥هـ/ شهر أغسطس ١٩٢٦م تقرر في اجتماع بوسان تقسيم قوات المجاهدين إلى ست مجموعات. إحدى هذه المجموعات قادها الأمير عادل أرسلان وأسعد كنج أبو صالح وتألفت من مجاهدي الإقليم ولبنان وبعض المقاتلين من جبل العرب. وقد اشترك ثوار الإقليم في معركة "الرشيده" التي حاول الثوار فيها تحقيق نصر كامل على القوة الفرنسية، ليلهبوا حماسة الشعب من جديد ولكنهم لم ينجحوا، فقد أظهر العدو في هذه المعركة شراسة لا مثيل لها، فقد كانت قنابل الطائرات تتساقط عليهم من كل جانب[٣]، وفي١٤ صفر ١٣٤٥هـ/٢٣ أغسطس ١٩٢٦م تسلل الثوار إلى دمشق، فقام الفرنسيون بقصف العاصمة السورية مرة ثانية ، فإختبأ الثوار في حي الشاغور، وقامت القوات الفرنسية في٢١ صفر ١٣٤٥هـ/ ٣٠ أغسطس ١٩٢٦م بمداهمة الحي لكنهم لم يقبضوا إلا على ٢٠ شخص، وفي خريف عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م أخذت أوراق الثورة تتساقط الواحدة تلو الأخرى فأخمد الفرنسيون الثورة في الغوطة، والبقاع وجنوب لبنان[٤]، بكل ما أوتوا من قوة وبشاعة وإجرام

---

(١) الجنرال أندريا: المرجع السابق، ص٢٢٠ـ٢٣١.

(٢) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص٢٥٩ـ٢٦١.

(٣) سلطان باشا الأطرش: المرجع السابق، ص٢٧٤ـ٢٧٥ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٣٣٤ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص٢٣٩ـ٢٤٦.

(٤) فلاديمير لوتسكي : المرجع السابق ، ص٣٣٤.

ضد الشعب السوري المسلم.

أخذ الجنرال أندريا في إرسال حملات استطلاعية إلى المقرن(وهي المنطقة بين جنوب سوريا وشمال الأردن) لسبر غورها ولتطويق الثوار في هذه المنطقة ودفعهم إلى الاستسلام قبل أن يتزايد عددهم، مستعيناً بالكتائب الدرزية التي جندها بعد أن اشتراهم بالمال، وكانت هذه القوة تسير دائماً في مقدمة حملاته، فتنازل الثوار وتقاتلهم بالدسائس التي كانوا يدسونها لتفريق كلمة الدروز وتمزيق وحدته، وبسبب هذه الشرذمة تمكن الفرنسيون من توطيد أقدامهم في المقرن التي دخلوها في ربيع الأول ١٣٤٥ هـ/أواخر شهر سبتمبر ١٩٢٦م ومعهم ٤٥٠٠ جندي و١٢٠٠ جمل لحمل الماء والذخيرة و٥٠ سيارة و٨ طائرات وسبع مصفحات، وقد استمرت معارك المقرن حوالي ستة أشهر من شوال ١٣٤٤هـ إلى ربيع الآخر ١٣٤٥هـ/مايو إلى أكتوبر ١٩٢٦م وقد انتهت بتوطيد أقدام الفرنسيين في الجبل، وصادف حينئذ دخول فصل الشتاء فوقف القتال، وكانت تدور بعض المناوشات بين الثوار الذين كانوا يقاتلون على شكل عصابات وبين بعض الدروز الذين تطوعوا في الجيش الفرنسي، وما أن انتهى فصل الشتاء حتى أعد الفرنسيون حملة كبيرة قومها ١٢ ألف مقاتل وتوجهوا إلى (اللجاه) التي تحصن فيها الثوار بقيادة الأمير عادل أرسلان، الذي لم يبق معه سوى مجموعة صغيرة يتراوح عددها بين ٣٠٠ و٤٠٠ مقاتل، ودارت بين الفريقين معارك عنيفة استمرت لمدة شهر، تمكن الفرنسيون في نهايتها من التغلب على الثوار في شوال ١٣٤٥هـ/أواخر شهر إبريل ١٩٢٧م، ولكنهم عندما اقتحموا المنطقة لم يجدوا أثر للثوار الذين تمكنوا من الفرار، ولجأ الثوار الذين انسحبوا من المقرن واللجاة والغوطة إلى جبل الصفا([1]) وفي الصفا تألفت آخر حملة للزحف على الغوطة في٨ ذو القعدة ١٣٤٥ هـ/١٠ مايو ١٩٢٧م، بقيادة سعيد العاص، لكن القوات الفرنسية نصبت لهم كمين استدرجتهم فيه لدخول الغوطة ثم هاجمهم الجند الفرنسي من كل جانب، ودارت بينهم معركة عنيفة استمرت سبع ساعات، لم ينج من الثوار إلا قليلاً، وتمكن سعيد العاص من الفرار بمساعدة السكان حتى وصل إلى شرق الأردن، ولم تظهر بعد ذلك لحركة الثوار في الغوطة أي تجمع جديد([2]). وبذلك انتهت الثورة السورية الكبرى بعد أن كبدت الفرنسيين خسائر فادحة تقدر بثلاثين ألف مقاتل سواء من الذين جندوهم من أبناء الأقليات الدينية([3])، أو من الذين جاءوا بهم

([1]) أمين سعيد : الثورة العربية، ج٣، ص٤٧٢ـ٤٧٤ ؛ أدهم الجندي: المرجع السابق، ص٢٢٦ـ٢٣١ ؛ فلاديمير لوتسكي : المرجع السابق ، ص٣٣٤.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية ، ج٣، ص٤٧٢ـ٤٧٥ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص٢٢٤ـ٢٢٥.

([3]) لقد كانت من عادات السلطات الاستعمارية عند تشكيل الجيوش في المستعمرات أن تسعى لتجنيد الضباط والجنود على حد سواء من أبناء الأقليات القومية، أو من سكان الناطق النائية والأكثر تخلفاً. وكانت تهدف من وراء ذلك تأمين تركيب للجيش يتناسب مع مصالحها وأهدافها الاستعمارية، وإن كان الفرنسيين قد شجعوا في

من خلف البحار([1]).

وعلينا أن نشير هنا إلى أن فرنسا لم تتمكن من القضاء على الثورة إلا بمساعدة بريطانيا وبالتعاون مع الأمير عبدالله بن الحسين ــ مما يؤسف له ــ وذلك بعد انقطاع السلاح والذخيرة عن الثوار في ذي الحجة ١٣٤٥ هـ/يونيو ١٩٢٧م بعد أن طلبت فرنسا من بريطانيا أن تتدخل، فقد عقد اجتماع بين ضباط فرنسيين وبريطانيين في درعا على الحدود الأردنية واتفقوا على ضرورة منع الثوار من اللجوء إلى شرق الأردن، مقابل منع فرنسا لجوء قوات الثوار في شرق الأردن إلى سوريا، وأطلق على هذا الاجتماع (التضامن البريطاني ــ الفرنسي) لاستتباب الأمن ومنع وقوع الإضطرابات وحماية الحدود المشتركة([2]).

كما قام الأمير عبد الله بين الحسين بالقبض على كل من يقع تحت يده من الثوار السوريين، لأن بريطانيا أقلقها أن تصبح إمارة شرق الأردن الناشئة مقر المجاهدين السوريين الذين كان لهم دور بارز في التصدي للانتداب الفرنسي في سوريا، فأخذت تهدد الأمير عبد الله وتخيره بين ضياع عرشه وبين التخلي عن هؤلاء المجاهدين وتسليم المطلوبين، قبل الأمير عبد الله بالاختيار الثاني، حتى ينقذ عرشه من الضياع، خاصة وأن عرش والده قد ضاع في الحجاز، لأنه لم يوقع على المعاهدة البريطانية([3]). وكان نبيه العظمة([4]) يبذل كل ما في وسعه لتخليص الثوار وإرسالهم إلى القريات في السعودية، لأن الأمير عبد الله كان ناقماً عليهم، لاعتقاده أنهم أصبحوا من أتباع السلطان عبد العزيز آل سعود([5]).

البداية أبناء الأغلبية من المسلمين السنة للالتحاق بالجيش، إلا أنهم عملوا بعد ذلك على اجتذاب الأقليات مثل الدروز والعلويين والإسماعيليين والنصارى وغيرهم من الأقليات، والذين كانت تعتبرهم أفضل من غيرهم ــ أي المسلمين ــ، هذا فضلاً عن أن هذه الأقليات اعتبرت التجنيد في الجيش حرفة يمتهنونها. وكان العلويين من أكثر الطوائف التي جندوا في الجيش. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع. انظر: سيد عبد العال: الانقلابات العسكرية في سوريا ١٩٤٩ــ١٩٥٤م، تقديم: عاصم الدسوقي، (مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٧م)، ص٣٥ــ ٤٢.

([1]) أمين سعيد : الثورة العربية ، ج٣، ص٦٢٧.

([2]) إبراهيم الشريقي: المرجع السابق، ص٥٤ــ٥٥ ؛ ناجي البزي: المرجع السابق، ص٩٨ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص٢٥٨.

([3]) خيري حماد : المرجع السابق، ص١١٢ ؛ MARY C . WILSON: Op. Cit. p.89.

([4]) نبيه بن عبد العزيز العظم: ولد في في دمشق في١٣٠٣هـ/١٨٨٦م، عمه يوسف العظمة قائد معركة ميسلون، كان يعمل في خدمة الدولة العثمانية هو وأسرته، وعندما خرج العثمانيين من بلاد الشام، ظل هو في دمشق، وحاول مساعدة الدولة العربية الناشئة، حتى تتمكن من مواجهة المستعمر الأجنبي الفرنسي والبريطاني. للمزيد من المعلومات انظر: خيرية قاسمية: الرعيل العربي الأول، ص١٧ــ٣٩.

([5]) خيرية قاسمية: الرعيل العربي الأول، ص٣٩ ؛ جوانب من سياسة الملك عبد العزيز تجاه القضايا العربية

اضطر الثوار مغادرة سوريا إلى الأزرق في الأراضي الأردنية إلا أن بريطانيا، التي كانت قد وقعت اتفاقاً مع فرنسا، رفضت بموجبه إبقاءهم هناك فاضطروا إلى الرحيل إلى وادي السرحان في السعودية، بعد أن توسط لهم بذلك شكري القوتلي([1]) مع الملك عبد العزيز آل سعود. وقد أقيمت في وادي السرحان نزل (مخيمات) مثلت مناطق سورية المختلفة وقادة ثوراتها، وذلك لتقسيم المساعدات التي كانت تأتي للثوار من المهجر بالتساوي، بقي الثوار هناك يعانون الأمرين، حتى إعلان العفو العام عن الثوار سنة ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م فعادوا من جديد إلى سوريا معززين مكرمين([2]). ومن خلال موقف السلطان عبد العزيز هذا يتضح لنا مدى التعاون والترابط بين المسلمين، وعدم طمع آل سعود في أي منصب في بلاد الشام، وأن قيامه بإيواء اللاجئين كان من باب العطف وتأيد للثورة وقادتها دون أي مقابل مادي أو معنوي.

هناك من يقول أن الثورة السورية الكبرى قامت بدعم ومساندة من إنجلترا، وأنها هي التي كانت تمد الثوار بالمال والسلاح([3])، لكننا لم نجد أي وثيقة تؤكد إمداد الإنجليز للثوار بالمال والسلاح، وأن هذا الادعاء كانت تروج له فرنسا، والأمير عبد الله بن الحسين([4])، والذي يؤكد عدم صحة هذا القول رشيد رضا([5]) في مقاله في مجلة المنار حيث يقول:"ان الإنكليز لا يمكن أن يساعدوا الدروز ولا غيرهم من السوريين على قتال فرنسا، لأنهم يعلمون أن الذي يتجرأ على قتال فرنسة يتجرا على قتال إنكلترا.. وكيف يساعدونهم على ذلك وهم يطمعون في أخذ بلادهم...أنا أومن بأن الإنكليز...ليسوا هم المحركين للثورة السورية، وأنهم لم يساعدوها، وأنهم لا يرون من مصلحتهم ظفر الثوار بفرانسة،...وأنهم يتمنون لو تقلل عدد المسلمين والدروز في سورية، ولا يكرهون أن يستبدل الأرمن بالدروز في حوران ثم لبنان، كما تفعل هي في تغليب

دراسة تحليلية من خلال أوراق نبيه العظمة، (دارة الملك عبد العزيز ، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص٢٥ـ٢٧.

([1]) كان شكري القوتلي على علاقة جيدة مع الملك عبد العزيز وكان يأمل بأن يكون حليفهم بدلاً من الأمير عبدالله بن الحسين الذي كانت تميل إليه المعارضة بقيادة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، لكن الأمير عبد الله خذله وتحالف مع بريطاني وفرنسا ضد الثوار، للمحافظة على عرشه حتى لا يكون مصيره مثل والده في الحجاز. انظر: Philips Khouria: Op. Cit. p.246 ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.89.

([2]) خيرية قاسمية: الرعيل العربي الأول، ص٣٩ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص٢٥٨ـ٢٥٩.

([3]) محمد النواوي: المرجع السابق، ص٥٦ـ٥٩ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.195

([4]) للمزيد من المعلومات انظر: بول كوبلنز: المرجع السابق، ص١٠٧ـ١٠٩ وص ١٥٨ـ١٦٧.

([5]) محمد رشيد رضا (١٢٨٢ـ١٣٥٤هـ/١٨٦٥ـ١٩٣٥م): ولد في طرابلس الشام أحد رجال الإصلاح الإسلامي، أصدر مجلة المنار، توفي في القاهرة. انظر: الزركلي: لأعلام، ج٦، ص١٢٦؛ أحمد الشوابكة: المرجع السابق، ص١٣.

اليهود على العرب في فلسطين..."([1]). وإن كنا لا نستبعد تأيد انجلترا للثورة، فهي في أرض عدوتها التقليدية فرنسا التي جمعتها بها المصالح المشتركة، ولكننا نستبعد مشاركتها فيها بالمال والسلاح، إنما ربما قامت بتسهيل مرور السلاح، أو لجوء بعض الثوار إليها، حتى تستفيد منهم وقت الحاجة، كما كانت تفعل في عهد الدولة العثمانية، ولكنها في الوقت نفسه كانت تقوم بضرب الثوار عندما ترى أنهم بدءوا في تهديد حدود المناطق المسيطرة عليها كما ذكرنا سابقاً في معركة المسيفر، فالثورة السورية ساعدت على إذكاء روح المقاومة ضد الاستعمارين الفرنسي والبريطاني على حد سواء.

مميزات الثورات السورية الكبرى:

١. اكتسبت الثورة السورية الكبرى صبغة وطنية عالية وقامت الاحتفالات الكبرى لتأييدها في مصر وغيرها من الدول العربية، وجمعت الإعانات لها ونظمت القصائد في تمجيدها، ومن أشهرها قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي ومطلعها:

سلام من صبا بردي أرق   ودمع لا يكفكف يا دمشق([2]).

٢. كما اكتسبت الثورة السورية عطف تركيا التي كانت تسمح بمرور الثوار عبر الحدود ومهاجمة الفرنسيين، رغم توجسها من العرب الذين ثاروا عليها وأيدوا الشريف حسين، لذلك لم تكن تركيا متحمسة كثيراً للمشاركة الفعلية في هذه الثورة([3]).

٣. الاتصال المكاني والزماني ووحدة مسرح العمليات العسكرية، فعلى الرغم من أن فرنسا عملت قصارى جهدها من أجل تجزئة سوريا ولبنان عن طريق تقسيم البلاد إلى دويلات، لكنها لم تنجح لا في تقسيم الأرض ولا في تقسيم الروح الوطنية، والشعور بالوحدة، فقد كان الاتصال وثيقاً بين عناصر الثورة وفصائلها فزالت الحدود وتساقطت الحواجز.وتلاحمت جماهير الشعب السوري واللبناني مع فصائل الثورة، فركزت فرنسا جهدها لإثارة النعرات الطائفية بهدف إضعاف روح الثورة وإيجاد الثغرات بين فصائل الثورة.

٤. الوضوح في الرؤية وتجاوز التناقضات الاجتماعية وعمل الشيوخ والدعاة على نشر التوعية في صفوف الجماهير، وتقديم الأغنياء وأصحاب الأراضي كل دعم للثوار، رغم عدم التكافؤ الواضح بين القوات الفرنسية المجهزة بالأسلحة والدبابات والمدافع والرشاشات، والإمكانيات البسيطة للثوار.

([1]) مجلة المنار: ج٨، المجلد ٢٦، ص٥٩١ــ٥٩٢.

([2]) أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٩١.

([3]) ömer Osman Umar: Op. Cit , p.195-196.

٥. ساعدت الثورة السورية على انتشار الثورات في بلاد الشام فانتقلت من سوريا إلى لبنان وإلـــى فلســـطين وشـــرق الأردن فقامـــت الثـــورة العربيـــة الكبـــرى فـــي فلسطين١٣٥٥ــ١٣٥٨هــ/ ١٩٣٦ــ١٩٣٩م وشارك فيها الكثير من رجال الثورة فـــي سوريا مثل فوزي القاوقجي، وسعيد العـــاص وغيرهمـــا، وهـــذه الثـــورات أدت إلـــى اضطراب التوازن الدولي الاستعماري في البحر المتوسط عامة وبلاد الشام خاصة، مما أدى إلى خروج المستعمر الفرنسي والبريطاني وانتزاع بلاد الشام الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية.

لقد أدى عدم تعاون الأمير عبد الله مع الثوار في سوريا إلى انهيار فكرة القومية العربيـــة العامة التي كان يدعوا إليها إبان ما أطلق عليها الثورة العربية في الحجاز، والتي على أساســـها قامت ثورة الشريف حسين، فبعد سقوط الدولة العثمانية وقيام الانتداب الأجنبي تـــم استرضـــاء أبناء الشريف بأن تولى عبد الله شرق الأردن وفيصل العراق، وأصبحت بلاد الشام مقسمة تحت الانتداب مما جعل كل منطقة تبحث عن استقلالها بشكل مفرد، لا يعتمد على الوحدة التي كـــانوا يأملون تحقيقها بعد خروج الدولة العثمانية([1]).

في الثلاثينات حاول فوزي القاوقجي الذي لجأ إلى العـــراق مـــع بعـــض مـــن الزعمـــاء والسياسيين العرب العراقيين وضع خطة لإشعال الثورة في سوريا ولبنان مـــن جديـــد لتحريـــر البلاد من الانتداب الفرنسي، واستكملت الاستعدادات وكلف القاوقجي بقيادة هذه الثـــورة، ولكـــن عندما كانوا على وشك التنفيذ انفجرت الثورة العربية الكبـــرى فـــي فلســـطين فـــي٢٢ محـــرم ١٣٥٥هــ/١٥ إبريل ١٩٣٦م، فتقرر تأجيل تنفيذ الثورة في سوريا وتحويل الاهتمام إلى الثـــورة في فلسطين ضد الإنجليز واليهود ومدهم بما يلزم من مختلف وسائل الدعم والتأييد([2]). وإننا نجد أنه لو قامت الثورة في سوريا وفلسطين في وقت واحد لربما ساعد هذا على الضغط على الدول المعتدية(بريطانيا وفرنسا) وعجل في خروجهما من المنطقة.

([1]) MARY C . WILSON: Op. Cit. p.90

([2]) شفيق جحا: المرجع السابق، ص٢١٦ــ٢١٧.

المبحث الثالث: مشكلة الاتصال والانفصال بين سوريا ولبنان وموقف فرنسا منه

قبل الخوض في الحديث عن مشكلة الاتصال والانفصال بين سوريا ولبنان علينا أن نشير هنا إلى أن المسلمين اللبنانيين لم يطرحوا مطلقاً في العهد العثماني فكرة "القومية العربية" أو "الوحدة العربية" أو فكرة الانفصال عن الدولة المركزية العثمانية ــ باستثناء قلة منهم ــ فكان رواد فكرة القومية العربية والعاملون عليها من أجل الانفصال عن الدولة العثمانية والاتحاد على أساس المفاهيم القومية هم الطوائف المسيحية الذين نادوا بالفكر القومي العربي وضرورة التخلي عن الوحدة القائمة على أساس ديني(1). ولكننا

(1) حسان حلاق: مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة ١٩٣٦م، مناقشات جلسة المؤتمر والقرارات مع نصوص ووثائق المؤتمرات الوحدوية منذ عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٦م، (بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)،

نلاحظ أنه بعد خروج الدولة العثمانية من المنطقة ودخول الانتداب الفرنسي إليها عملت سلطات الانتداب إلى إقصاء الفكر القومي، وأخذت في تعميق الخلاف بين الطوائف المختلفة، وأعاد النصارى اللبنانيون النظر في الفكرة الدينية والتجمع على أساس ديني فأخذوا يطالبون بالانتماء إلى فرنسا على أساس أنهم إخوانهم في الدين، وأخذوا ينظرون إلى العرب المسلمين الذين غرروا بهم وأغروهم بالخروج على الدولة العثمانية على أساس قومي، من هنا يظهر ضعف مبدأ القومية العربية وضعف الداعين إليها.

فقد أنشأ الموارنة اللبنانيون الذين كانوا مسيطرين على جبل لبنان منذ القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد علاقات حسنة مع الفرنسيين استمرت حتى بعد نهاية الانتداب الفرنسي، فقد تعود بعض الزعماء الموارنة التطلع إلى الغرب وبخاصة فرنسا للمساعدة والحماية، ونما التقليد القائل إن جبل لبنان هو حصن الموارنة، والمؤيد الشجاع المخلص للنصارى وللمدنية الأوربية وسط الشعوب الإسلامية في آسيا، وفي أثناء حكم الانتداب الفرنسي حرصت الحكومة الفرنسية كثيراً على إبقاء الثوب الكهنوتي الكاثوليكي في وسط الشرق الإسلامي، وعلى الرغم من وجود كثير من اللبنانيين الذين يفضلون الانضمام للمجتمع العربي الإسلامي، إلا أن بعض الموارنة قبلوا بالدور الذي خصتهم به فرنسا واعتمدوا في سياستهم على التحالف معها([1]).

موقف اللبنانيين والسوريين من مشكلة الاتصال والانفصال عن سوريا:

عندما جاء الجنرال غورو في ١٦ ذو الحجة ١٣٣٨هـ/٣١ أغسطس ١٩٢٠م وأصدر قراراً تحت رقم ٣٢٠ جاء في مادته الأولى إن مقاطعة ولاية بيروت الإداريّة مع ما يتعلق بها في الدوائر الإداريّة المحليّة أصبحت ملغاة. وإبتداءً من التاريخ المذكور غدت بيروت تابعة لجبل لبنان بعد أن كان هذا الجبل تابعاً لها([2]). وأصبحت لبنان بحدودها الجديدة هذه جزءاً من عملية التجزئة التي تمت بين فرنسا وبريطانيا في اتفاقية سايكس بيكو. وقد إرتبطت نشأة لبنان الكبير بالدرجة الأولى بمصالح فرنسا في تجزئة سوريا والسيطرة عليها، كما هو الحال بالنسبة لغيرها

ص٧.

([1]) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط، تعريب: نبيل صبحي، (كتاب المختار، القاهرة)، ص١٦٣ـ١٦٤.

([2]) أمين سعيد : الثورة العربية..،ج٣،ص٢٢٠ـ٢٢١ ؛ عبد العزيز إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٦٧ ؛ صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٢٧.

من الولايات العربية في المشرق مثل الأردن وفلسطين والتي سيطرت عليها بريطانيا. لقد تقاسم الحلفاء الولايات العربية المنفصلة عن الدولة العثمانية، وفقاً لمصالحهم بين فرنسا وبريطانيا. أما الفرق بالنسبة للبنان فإن النصارى اللبنانيين في إقليم الجبل طالبوا بالتوسع والانفصال عن سورية في ظل الحماية الفرنسية([١]).

لقد بعث الفرنسيون العصابات، لتعيث في لبنان وسوريا فساداً فنشرت الدعاية الطائفية لتثير روح التعصب والتباغض بين السكان الآمنين، ونتيجة لذلك وقعت المذابح والفتن، مما جعل فرنسا تتخذ ذلك حجة لوجودها، ففي طرابلس الشام التي ضم أكثرية مسلمة كان الجنود المتطوعة الفرنسية تشتم العرب وكل من آزر الحركة العربية، وفي طرطوس شجع الفرنسيون بعض النصارى على أخذ جامع قديم وتحويله إلى كنيسة، فهاج المسلمون، لولا إغلاق الجامع ومنع الطائفتين من دخوله. وفي بيروت حرضت فرنسا سكان حي الجميزة وهم نصارى على سكان حي البسطة وهم مسلمون فأخذ النصارى يشتمون المسلمين يوم العيد، فصبر المسلمون ولم يتعرضوا للنصارى، فقامت الصحف اللبنانية الفرنسية بنشر مقالات شديدة اللهجة تطعن في الوحدة العربية وتخوف الرأي العام النصراني من الاتحاد العربي وتطالب بوطن قومي مسيحي([٢]) تحت الحماية الفرنسية، حتى تحميهم من المسلمين كما تزعم فرنسا.

كان مفهوم لبنان الكبير في نظر مؤسسيه وفي نظر عدد كبير من دعاته كياناً نصرانياً، ولضمان أمنه واستقراره لابد من تحالفه مع فرنسا([٣]). فعندما أكمل الجنرال غورو مهمته في القضاء على استقلال الدولة العربيّة في سوريا وإنشاء الكيان اللبناني، كان ذلك انتصاراً لكنيسة البطريرك الماروني إلياس الحويك([٤]) الذي أعرب عن تأييده المطلق لسلطات الانتداب الفرنسي([٥]) بقوله:"يكفينا أن نتأكد من وجود فرنسا بيننا، فهذا عربون نهوض بلادنا واستقلالها، فنحن ثابتون على حبها في كل الأحوال.."([٦]).

([١]) فواز طرابلسي: المرجع السابق ص١٢٨ ؛ سعيد مراد: الحركة الوحدوية في لبنان بين الحربين العالميتين ١٩١٤ــ١٩٤٦م، ضمن بحوث في الفكر القومي العربي، دراسات الفكر العربي، سلسلة دراسات أعدت بإشراف الدكتور معن زيادة، (معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٦م)، ج٣، ص١٣٧ــ١٤٥.

([٢]) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص ٦٣.

([٣]) رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٢٥ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٤٩ــ١٥١.

([٤]) إلياس الحويك(١٢٥٩ــ١٣٥٠هــ/١٨٤٣ــ١٩٣١م): بطريرك الموارنة ١٣١٦هــ/١٨٩٩م، شارك بعد الحرب العالمية الأولى في مؤتمر الصلح بباريس وطالب باستقلال لبنان. انظر: المنجد: ص٢٢٦.

([٥]) فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٣٥

([٦]) سعيد مراد: المرجع السابق، ص١٥٤.

كان هذا الكلام معبراً عن رأي فريق محدود من المواطنين الذين ينتمون بغالبيتهم إلى جبل لبنان بالذات، أما الفريق الآخر، أي سكان بيروت وطرابلس وصيدا وصور وبقية المناطق التي أُلحقت بلبنان، إن هذا الفريق كان له موقف سلبي من الإجراء السياسي الذي قام به غورو، لأنه وجد فيه عملاً تعسفيًّا من قبل دولة الانتداب التي ضربت عرض الحائط بوعود الحلفاء للعرب خلال الحرب، فعمّت الإضطرابات جميع المدن المذكورة. هذا بالإضافة إلى أن عدداً من النصارى غير الموارنة(من الروم الأرثوذكس والكاثوليك) أعربوا عن رغبتهم في الانضمام إلى سوريا، وكانوا ضد الانتداب الفرنسي([1]).

لقد جرى التعبير عن نقمة المسلمين المعارضين لسياسة فرنسا الانفصالية بالمقاطعة التي تهدف إلى التعبير عن عدم اعترافهم بالدولة اللبنانية الجديدة، فلما جرى إحصاء النفوس في سنة١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م أمتنع البيروتيون عن الاشتراك بهذا الإحصاء وأبوا قبول الهويات التي أُعطيت لهم ولم يأخذوها إلا بعد أن وافق الجنرال غورو على أن يُقص منها الجزء الذي ينص على الجنسية اللبنانيّة لحاملها([2]).

فبالرغم من أن الجنرال غورو أمسك بقبضة من حديد على سوريا بعد معركة ميسلون في ذي القعدة ١٣٣٨هـ/ يوليو ١٩٢٠م، غير أن اللبنانيين والسوريين الوحدويين استمروا في مطالبتهم وعملهم لوحدة البلاد السورية كما كانت، لاعتقادهم بمضار التقسيم من النواحي السياسية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية وحتى اللغوية، ولهذا كانت القوى الوحدوية تقدم باستمرار للمندوب السامي الفرنسي مذكرات تطالب فيها بإعادة وحدة سوريا ولبنان، ففي عام١٣٤١هـ/١٩٢٣م قدم وجهاء المسلمين من أبناء الساحل([3]) مذكرة إلى الجنرال ويغان طالبوا فيها بإعادة الوحدة مع البلاد السورية، لأن إلحاق ولاية بيروت أو قسماً منها بمتصرفية جبل لبنان تم بدون رضا الأهالي، وأن الوحدة السورية أجزل خيراً وأعم نفعاً، وأن لبنان لا يشمل أكثر من حدود المتصرفية، التي جرى تعين حدودها منذ أيام الدولة العثمانية سنة

([1]) فواز طرابلسي:المرجع السابق،ص١٣٥ــ١٣٧؛ سعيد مراد:المرجع السابق، ص١٥١ــ١٥٤ وص١٦٠.

([2]) علي شعيب: المرجع السابق، ص٣٠ــ٣١ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق،ص١٥٦ــ١٥٩.

([3]) وقع على هذه المذكرة ٤٥ شخص، ٢٠ من بعلبك، ٩ من صيدا وطرابلس، ٦ عن صور ، ١١ عن بيروت ومنهم: محمد توفيق الهبري، محمد المخزومي، حسن المخزومي، حسن الأسير، محمد عمر نجا، عثمان نجا،= =سامح فاخوري، محمد فتخوري، محمد جميل بيهم مصطفى العريسي، طه المدور، محمد جميل الداعوق، أما عن طرابلس وصيدا وصور فمن ضمن الموقعين: عبد الحميد كرامي، عبد اللطيف البيسار، محمد ملك، سعدي المنلا، محمد كمال بركة، سامي زنتون، بهجت قدورة، أحمد عارف الزين، شريف عسيران، مصطفى بلطجي، بشير نعماني، محمد مرجان، عبد الله خليل، مسعد حلاوي . انظر: حسان علي حلاق:مؤتمر الساحل..، الحاشية ٨، ص١٨ــ١٩ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، الحاشية ٣ ، ج٣، ص١٦٤ــ١٦٥.

١٢٧٧هـ/١٨٦٠م بمعرفة الدول العظمى وفي مقدمتها فرنسا، وأنه لم يظهر لجبل لبنان أي نوع من الامتيازات إلا بعد حوادث عام١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، وأن الجبل لم يكن مستقلاً بالمعنى الذي يتخيله بعض أبنائه، بل كان مقاطعة يحكمها أحد الولاة الذي كان على اتصال بحاكم الجبل، وأنه لا أحد قبل الدولة العثمانية ولا بعدها لم يستقل بحكم الجبل والسواحل(١).

على أثر قصف دمشق في يوم الأحد ٢٩ ربيع الأول ١٣٤٤هـ/١٨ اكتوبر١٩٢٥م اضطرت فرنسا إلى استبدال مفوضها السامي الجنرال سراي بمفوض مدني وهو هنري دي جوفنيل، الذي عطف على دراسة المسألة السورية على أساس عقد معاهدة تحل محل الانتداب، واتصل باللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري ـ الفلسطيني أثناء مروره بالقاهرة فقدمت له اللجنة مذكرة تطالبه بعمل استفتاءً حراً ومباشراً مع جميع سكان لبنان ومعرفة رأيهم في الانضمام إلى الدولة السورية و الانفصال عنها. إلا أن هذه المفاوضات انتهت بالفشل، بسبب تعنت الحكومة الفرنسية التي أرسلت لهنري دي جوفنيل تطلب منه عدم مجارات اللجنة التنفيذية في مطالبها، لأنها تضر بالمصالح الفرنسية في المنطقة(٢).

استمر أبناء الساحل في التعبير عن رفضهم لدولة لبنان الكبير على اعتبار أنها جزء من سوريا، وتحت تأثير صدمة الثورة السورية وقرب تكوين لجنة الانتدابات(٣) التابعة لعصبة الأمم اضطرت فرنسا إلى العمل على تزويد لبنان وسوريا بالدستور(٤) ففي عام١٣٤٤هـ/١٩٢٦م حاول المندوب السامي الفرنسي هنري دي جوفنيل إشراك جميع الطوائف اللبنانية في صياغة الدستور اللبناني المقترح للجمهورية اللبنانية، وقد أرسل إلى جميع الهيئات السياسية والدينة يطلب رأيها ومشورتها(٥)، بيد أن الإجراءات التي أتخذها دي جوفنيل لم تجد الاهتمام من معظم الزعماء المسلمين من سنة وشيعة، فقاطعوها ولم يشاركوا فيها، لأنهم رأوا الاشتراك في سن

---

(١) حسان حلاق: مؤتمر الساحل..، ص١٧ـ١٨ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٦٤ـ١٦٦ ؛ سليم الدحداح: لبنان الكبير وسورية الإنتداب والاستقلال، (مجلة المشرق، مجلة كاثوليكية تصدرها كلية القديس يوسف، بيروت، ١٩٢٣م) ، ص٤٥٤ـ٤٦٢.

(٢) سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٤ـ١٧٥.

(٣) لجنة الانتدابات الدولية: هي لجنة منبثقة من عصبة الأمم تقدم إليها الدول المنتدبة تقارير سنوية تعمل على فحصها وتبدي رأيها فيها حسب ما ترى، ولها أحقية إقالة الدولة المنتدبة إذا أخلت بشروط الانتداب، وبعد قيام هيئة الأمم المتحدة حل نظام الوصاية محل نظام الانتداب ـ ولكن لا يخفى علينا أن كلا النظامين كان يعني استعمار مقنع يهدف إلى استغلال الشعوب الضعيفة واستغلال خيراتها تحت مسميات مختلفة ـ. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٣٠.

(٤) فواز طرابلسي : المرجع السابق ص١٥١ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٥.

(٥) حسان حلاق: المرجع السابق، ص١٩ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٥ـ١٧٦.

هذا الدستور إقرار لدولة لبنان الكبير مما لا يتفق مع مصلحة البلاد. وقد حذرهم جوفنيل من مقاطعة الانتخابات وبين لهم أن هذه المقاطعة معناها التنازل عن حقوقهم([١]).

أما أعيان جبل لبنان (المتصرفيّة السابقة) الذين وجدوا في التنافس على عضوية المجلس التمثيلي فرصة ملائمة لإرضاء نزعتهم التقليديّة إلى إثبات وجاهتهم في مناطقهم([٢]) تحت ظل حليفتهم فرنسا، وبتأسيس الدولة اللبنانية التي اختارت لها سلطات الانتداب رئيسها، وبعض المواطنين من خريجي المعاهد الفرنسية والكاثوليكية، ليعاونوها في إدارة البلاد، وكان هؤلاء اللبنانيون المنتمون لفرنسا هم نواة الجهاز الإداري للدولة اللبنانية، وقد بقي عدد كبير من هؤلاء في مناصبهم طيلة عهد الانتداب وما بعده([٣]).

ولكن رغم ذلك فإن سكان بيروت وسائر المدن والمناطق التي أُلحقت بالكيان اللبناني والقوى الإسلامية والوحدوية فإنهم أعرضوا عن التجاوب مع دعوة هنري دي جوفنيل، ورفضوا الاشتراك بأي انتخابات تؤدي إلى اعترافهم بالانتداب الفرنسي وما نتج عنه من تجزئة للبلاد السوريّة إلى دويلات يغلب عليها الطابع الطائفي. وامتنعت عن المشاركة في صياغة الدستور، تعبيراً عن رفضها لواقع تقسيم البلاد السورية، وعقد في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ/٥ يناير ١٩٢٦م اجتماع مهم في مدرسة دار جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، بدعوة من المفتي الشيخ مصطفى نجا([٤])، وأصدروا بياناً أعلنوا فيه رفضهم للانتداب الفرنسي ورفض المشاركة في صياغة الدستور، وطالبوا بالإتحاد مع سوريا على قاعدة اللامركزيّة وأرسلوا نسخة من هذا البيان إلى حكومة الجمهوريّة الفرنسيّة وإلى عصبة الأمم في جنيف. وقد جاء في البيان المذكور: " قررت الطائفة الإسلاميّة في بيروت، بالإجماع...، احتجاجاتها السابقة على إلحاقها بلبنان ـــ الساحل السوري من بيروت إلى صور بدولة لبنان الكبير... وتؤيد وتكرر طلب الرجوع إلى ما كانت تحفظه لنفسها بشأن الالتحاق بالوحدة السوريّة على قاعدة اللامركزيّة في كل وقت وزمان"([٥]).

([١]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤١٠ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥١ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٩٦ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣، ص٤١٠.

([٢]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٣٩ــ٤٠ ؛ زاهية قدورة : المرجع السابق، ص٣١٠.

([٣]) عبد العزيز إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٦٨.

([٤]) المفتي الشيخ مصطفى بن محي الدين نجا(١٢٦٩ــ١٣٥٠هـ/١٨٥٣ــ١٩٣٢م): مفتي بيروت منذ عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م إلى أن توفي، ولد وتوفي ببيروت، له العديد من المؤلفات في التربية والتفسير والتجويد منها "الإيمان في التربية والتعليم"، تفسير جزء عم"، "إرشاد المريد في التجويد".انظر:الزركلي:الأعلام،ج٧، ص٢٤٦.

([٥]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٠٥ــ٤٠٦ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٦ــ١٧٧.

كما قاومت المجالس البلدية في بعض مدن الساحل المخطط الفرنسي، ومن ذلك أن المجلس البلدي في بعلبك قرر في اجتماعه ما يلي: " من المعلوم أن رغائب ومطالب الأكثرية الساحقة في البلاد التي ألحقت بمتصرفية لبنان منذ إعلان لبنان الكبير عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م هي رفض هذا الانضمام وطلب الالتحاق بالاتحاد السوري على قاعدة اللامركزية وقد كررت احتجاجاتها على هذا الانضمام الذي جرى بالرغم من إرادتها وبدون استفتائها في ظروف عديدة وقدمتها مرارا إلى المفوضية العليا وباريس وجمعية الأمم وهي حاوية لجميع الحجج القاطعة والأسباب المشروعة لرفض هذا الانضمام..."([1]).

من خلال الإطلاع على أسماء الذين اشتركوا في هذا الاجتماع (٣٧ شخص) نجد وجود شخصيات كانت على علاقة وثيقة بسلطات الانتداب. منها الدماد أحمد نامي الذي عين بعد ثلاثة أشهر من هذا المؤتمر رئيساً للحكومة السورية، وعمر الداعوق([2]) ممثل بيروت في المجلس التمثيلي والذي كان في الوقت ذاته عضواً في لجنة إعداد الدستور، والشيخ عبد الكريم أبو النصر نقيب الأشراف، وعلى الرغم من وجود هذه الشخصيات التي اعترفت ضمنياً بكيان لبنان الكبير إلا أنها لم تستطع الاعتراض على القرار الصادر عن المجتمعين، لأنه يعبر عن رفض شعبي([3]).

كما نظم مسلمو صيدا في٢٤ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ/٩ يناير ١٩٢٦م بياناً طلبوا فيه الانفصال عن لبنان الكبير والالتحاق بسوريا، وبعثوا به لرئاسة المجلس التمثيلي، وقد جاء فيه ما يلي:"قد علم لدى ممثلي الجمهورية الفرنسية في البلد السورية من حين أعلن ما يدعونه دولة لبنان الكبير، كما أنه علم لدى مجلسي البرلمان والوزراء في فرنسا ولدى جمعية الأمم نفسها أن

([1]) محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص٣٤٤ــ٣٤٥.

([2]) عمر محمد الداعوق(١٢٩٢ــ١٣٦٨هـ/١٨٧٥ــ١٩٤٩م): ولد في رأس بيروت، ودرس في المدرسة السلطانية العثمانية وكان ميوله السياسي بارزاً منذ نشأته، في سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م أصبح عضواً في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، ثم ترأسها سنة١٣٣٢هـ/١٩١٣م بالإضافة لتولية رئاسة غرفة التجارة والصناعة البيروتية الإدارية، ثم أصبح رئيساً لبلدية بيروت سنة١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وعندما وصل الجيش الفيصلي إلى مشارف دمشق وقبل انسحاب القوات التركية من بيروت سارع الوالي العثماني إسماعيل حقي بإصدار مرسوم بتعيين عمر الداعوق واليا على المدينة باعتباره رئيس لبلديتها، لكن سرعان ما دخلت القوات الفرنسية وجيش غورو الجرار وانزلوا الأعلام العربية وبدلوها بأعلام الاستعمار، استمر الداعوق بنشاطه السياسي، حيث تبوأ عدة مناصب رسمية مهمة كاللجنة الإدارية واللجنة المالية ولجنة تعيين الأعياد الرسمية، كما أنتخب نائباً عن العاصمة سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م ورئيسا لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية للمرة الثانية في سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م والتي توسعت أملاكها وأسهمها المالية بعهده وتطور أدائها الإداري، وأستمر الداعوق بنشاطه الدؤوب حتى وفاته . انظر الموقع على الانترنت أبناء بيروت http:www.abnaabeirut.com.

([3]) سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٧.

جميع أفراد الطائفة الإسلامية التي تؤلف الأكثرية الحقيقية في هذه البلاد لم يرضوا عن إلحاقهم بمتصرفية لبنان القديمة، ذلك الإلحاق الذي أرغموا عليه إرغاماً.. وعلى هذا فقد قررت الطائفة الإسلامية في صيدا بإجماع الآراء..عدم الاشتراك في سن الدستور اللبناني وتكرار طلباتها..بشأن الالتحاق بالوحدة السورية على أساس اللامركزية ملتمسين تحقيق أمانينا عملاً باحترام حقوق الشعوب المقدسة"(١). وقع هذه العريضة ٨٦ من أعيان صيدا وشيوخها، وهي في صياغتها قريبة من مقررات مؤتمر بيروت، إلا أنها تتصف بأسلوب أكثر رفضاً لما يدعونه دولة لبنان الكبير(٢).

وقد أرسل سكان طرابلس الشام وعكار وبعلبك من تجار وشباب وعمال برقيات مطولة إلى المندوب السامي الفرنسي دي جوفنيل يطلبون فيها الانفصال عن لبنان الصغير والانضمام إلى سوريا(٣). كما أرسل سكان مسلمي اللاذقية برقية إلى المندوب السامي الفرنسي دي جوفنيل يطلبون الوحدة مع سوريا هذا نصها:" باسم الأكثرية باللاذقية تلتمس إعلان الوحدة السورية واشتراكنا بانتخابات المجلس التأسيسي السوري"(٤).

لقد تميز موقف زعماء المسلمين بالإصرار على طلب الانفصال عن لبنان والانضمام إلى سوريا، في كل من بيروت وصيدا وطرابلس، والمسلمين والشيعة في بعلبك ، أما زعماء جبل عامل الشيعة الذين خضعوا لسلطات الانتداب الفرنسي منذ أن استسلم لهم صالح العلي في ١٠ شوال ١٣٤٠هـ/٦ يونيو ١٩٢٢م فلم يتخذوا الموقف نفسه، فقد تبنى زعماء جبل عامل المطالب الإصلاحية على قاعدة الاعتراف بدولة لبنان الكبير، ويتضح ذلك من خلال المضبطة التي وقعها زعماؤه(٥)، الذين رأوا أن مشكلتهم تنحصر في الحرمان من الوظائف، ودفع الضرائب، دون أي ربط بين هذه المشاكل وبين أي طرح سياسي وحدوي(٦). إن هذا الموقف لم يكن بعيداً عن محاولات السلطة المنتدبة الهادفة إلى التفرقة بين السنة والشيعة بقصد تفكيك

---

(١) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٠٧ ؛ محي الدين السفرجلاني:المرجع السابق،ص٣٤٥.

(٢) سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٨.

(٣) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٠٩ــ٤١٢ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق،ص٣٤٥ــ٣٥٠ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٧٨ــ١٨٢.

(٤) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٠٩

(٥) وقعت المضبطة من قبل النائبين نجيب عسيران، وفضل الفضل ، بالإضافة إلى زعماء العائلات الجنوبية: راشد عسيران، حسين الدرويش، سليمان مروة، علي عبدالله، خنجر عبد الله ، إسماعيل خليل، علي جابر، محمد جابر، محمود الأمين، أحمد رضا، محمد تامر، السيد علي بدر الدين، أحمد حاج ، سعيد صباح. بالإضافة إلى مئات التواقيع من سائر أنحاء جبل عامل. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٤٠٩.

(٦) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٠٩ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٨٠ــ١٨١.

الحركة الوحدوية، فقد ركز الفرنسيون جهودهم لاستمالة الشيعة على اعتبار أن " السنيين لا يمكن اكتسابهم فعلاً وواقعاً لقضية لبنانية محضة منفصلة عن الداخل"([1]).

وقد تجاوزت مقاومة بعض اللبنانيين في دعوتهم إلى الوحدة مع سوريا سلطات الانتداب إلى المنظمات الدولية، حيث أرسل السيد عمر الداعوق ــ النائب عن مدينة بيروت في المجلس التمثيلي اللبناني ــ باسم نواب بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع، برقية إلى عصبة الأمم في جنيف والمفوض السامي الفرنسي جاء فيها: (إن فريقاً من نواب بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع كونهم أقلية عدديّة، إلا أنهم يمثلون أكثرية السكان الذين منهم الجمهوريّة اللبنانيّة، قدموا أثناء المناقشة في الدستور اللبناني اقتراحاً احتجوا فيه على ضمّ الأراضي التي يمثلونها إلى لبنان دون أن يؤخذ رأي أهاليها في ذلك الضّم، فهم يطلبون أن تؤلف هذه الأراضي دولة مستقلة إداريّة مرتبطة بإتحاد لا مركزي مع لبنان القديم وسوريا)([2]).

لم تجد اعتراضات السكان أُذناً صاغية لدى الفرنسيين في بيروت وباريس، ولقيت الإهمال نفس من قبل عصبة الأمم في جنيف. وأصّر هنري دي جوفنيل على اعتبار الجمعيّة التأسيسيّة ناطقة باسم الشعب رغم مقاطعة أغلبية المسلمين لها، وأوعز دي جوفنيل إلى هذه الجمعيّة بالموافقة على دستور للبنان الذي وضعته لجنة من وزارة خارجيّة فرنسا. وفي شوال ١٣٤٤هـ/مايو ١٩٢٦م أنتخب شارل دبّاس أول رئيس للدولة اللبنانيّة التي أصبحت منذ ذلك التاريخ جمهوريّة تحت الانتداب الفرنسي، وسُميّت مدينة بيروت عاصمة لهذه الجمهوريّة([3]).

أما عن الموقف الرسمي للسوريين من الوحدة مع لبنان فقد ظهر منذ اجتياح الحلفاء لبلاد الشام عندما دعا حزب الاتحاد السوري برئاسة الأمير ميشيل لطف الله جميع العناصر السياسة والأحزاب والجماعات لعقد مؤتمر في جنيف منذ مطلع سنة١٣٣٩هـ/١٩٢١م، وقد عقد المؤتمر بالفعل في محرم ١٣٤١هـ/سبتمبر ١٩٢٢م([4])، وأصدر بياناً مسهباً عن القضية العربية العربية السورية، ووزعه على أعضاء جمعية الأمم مفادها طلب استقلال البلاد وسيادتها وممارستها لجميع الحقوق السياسية، وختم البيان بخمس مواد هي:

١. الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين.
٢. الحق لهذه البلاد بأن تتحد معاً بحكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب.
٣. إعلان إلغاء الانتداب حالاً.

([1]) سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٨١.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣ ، ص٤١٢ ؛ حسان حلاق: المرجع السابق، ص١٩ـ٢٠.

([3]) فواز طرابلسي: المرجع السابق ص١٥١ـ١٥٢.

([4]) لمزيد من المعلومات عن هذا المؤتمر انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٢٥٩ـ٢٨٢ ؛ محي الدين الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١١٤ـ١١٨.

٤. جلاء الجنود الفرنسيين والبريطانيين عن سوريا ولبنان وفلسطين(والتي تشمل شرق الأردن)

٥. إلغاء تصريح بلفور المتعلق بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين(١).

وقد تشكلت لجنة تنفيذية من أعضاء مؤتمر جنيف لمتابعة وملاحقة القضية العربية السورية لدى عصبة الأمم والمحافل الدولية، وقد ذهب وفد من اللجنة من أعضائه شكيب أرسلان وسعد الله الجابري إلى سويسرا لحضور مؤتمر لوزان في ٤ ربيع الآخر ١٣٤١هـ/ ٢٣ نوفمبر ١٩٢٢م، وقبل أن يتوجه الوفد السوري إلى لوزان زار تركيا(٢) اتصل برجال السياسة الأتراك طالبين ألاّ تتنازل تركيا عن سيادتها لبلاد العرب المنفصلة عن الدولة العثمانية إلا لأهل البلاد أنفسهم، ولما سافر رئيس الوفد تركي عصمت باشا أينونو(٣) إلى لوزان قابل مرة أخرى الأمير شكيب أرسلان، لكن يبدوا أن الأتراك كانوا يحملون على العرب فجرح ثورتهم عليهم وتعاونهم مع الحلفاء ضدهم وخرجوهم من بلاد الشام مازال قريباً، لذلك لم يستجب عصمت باشا لمطالب الوفد السوري(٤).

يبدو أن العرب بعد الحرب العالمية الأولى واشتراكهم مع الشريف حسين في ثورته على الدولة العثمانية ١٩١٦م ندموا، لأن الشريف حسين وأبنائه تخلوا عنهم، وبحث كل واحد منهم على مصلحته الخاصة، وترك الشعب العربي في بلاد الشام يواجه مصيره بمفرده، لذلك أخذوا يتطلعون إلى العودة لأحضان الدولة العثمانية من جديد، التي على الرغم من أنها لم تكن في

---

(١) أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣، ص٢٥٩ــ٢٨٢ ؛ محي الدين السفرجلاني: المرجع السابق، ص١١٤ــ١١٨ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٦٢.

(٢) كان في سوريا تيار قوي موالي للدولة العثمانية ويتطلع إلى تحرير سوريا من الفرنسيين بمساعدة الأتراك، وكانت هناك الكثير من للجان والصحف التي تنشر الدعاية في محاولة منها لإقناع الجمهور بمزايا التعاون العربي التركي المسلم. للمزيد من المعلومات انظر: محمد هواش: المرجع السابق، ص١٤٦ــ١٤٧.

(٣) عصمت باشا أينونو(١٣٠١ــ١٣٩٣هـ/١٨٨٤ــ١٩٧٣م): سياسي تركي اشترك مع كمال أتاتورك في تأسيس الجمهورية التركية، كان ضابط في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الأولى، وأصبح رئيس أركان الجيش بقيادة أتاتورك سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٩م عندما هزم اليونانيين، ثم أصبح رئيساً للوزراء (١٣٤١ــ١٣٥٦هـ/ ١٩٢٣ــ١٩٣٧م)، وعندما توفي أتاتورك سنة١٣٥٧هـ/١٩٣٨م أنتخب أينونو رئيساً للجمهورية، وظل في هذا المنصب حتى سنة١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، وقد سار على نهج اتاتورك في سياسة فصل البلاد العربية عن تركيا، عاد للحياة السياسة سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م عندما تولى منصب رئاسة الوزراء مرة ثانية حتى عام١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م. انظر: سمير شيخاني: صانعوا التاريخ، (مؤسسة عز الدين للنشر، بيروت، ١٩٨٧م)، ج٢، ص٤٣٦ــ٤٣٧.

(٤) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٢٨٠ــ ٢٨١ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق ، ص٤٨ ؛ ظاهر الحسناوي: المرجع السابق، ص١١٤.

سنواتها الأخيرة موفقه بسبب تحكم الاتحادين في البلاد خاصة في فترة الحرب العالمية الأولـــى، إلا أنها بالطبع كانت أفضل من الانتداب الفرنسي والبريطاني، لكن العثمانيين لم ينســوا أبــداً أن العرب كانوا من أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمتهم في بلاد الشام وخروجهم مدحورين منها.

طالب الوفد السوري بسط القضية رسمياً أمام المؤتمر، لكنه لم يسمح لهم بالــدخول إلـــى قاعة المؤتمر، فأغتنم الوفد عقد الجمعية العامة لعصبة الأمم لمؤتمرها السنوي المعتاد في محرم ١٣٤٢هـــ/سبتمبر ١٩٢٣م وقدم إليها مذكرة مطولة بسط فيها حالـــة ســـوريا، وكـــرر الوفـــد السوري مطالبة في عام١٣٤٤هــ/ ١٩٢٤م أمام الجمعية العامة لعصبة الأمم، وكـــان يلاحـــق القضية السورية في كل مكان، ويعمل على تعزيزها والدفاع عنها([1]). لكنهم لـــم يجـــدوا آذانـــاً صاغية ولا عقولاً واعية.

وعندما وافق الدماد أحمد نامي على تولي منصب رئيس الحكومة في سوريا، فإنه شـــرط تحقيق الوحدة بين الدويلات السورية في١٣٤٤هـــ/١٩٢٦م. وقد تعهد جوفنيل([2]) للـــدماد أحمـــد نامي في رمضان ١٣٤٤هـــ/إبريل ١٩٢٦م بتحقيق الوحدة السورية، وحق إعطاء سوريا مرفـــأ بحري وإعطائها طرابلس مع عكار على طول خط سكة الحديد إلى بعلبـــك فتتصـــل طـــرابلس بدمشق([3]) مباشرة دون أن تمر بأرض لبنانية. وقد اشترك أبناء الطائفـــة المارونيـــة فـــي هـــذه المفاوضات، وكان إميل إدة على علم بها، وقد وعد بإقناع أبناء طائفته بالموافقة عليها([4])، حتـــى يتخلص من مسلمي طرابلس كما بينا في السابق.

لكنا نلاحظ أن فرنسا وخاصة المسيو جوفنيل قام بإعطـــاء وعـــود متناقضـــة للســـوريين واللبنانيين، ففي الوقت الذي وعد فيه السوريين بالوحدة وإعادة ضم الأقضية الأربعة وطـــرابلس وعكار إلى سوريا، نجده في الوقت نفسه يوافق على الدستور اللبناني في شوال ١٣٤٤هـــ/ مايو ١٩٢٦م والذي ينص على أن لبنان وحدة لا تتجزأ ولا يجوز التنازل عن أي جزء منهـــا. وقـــد تعجب السوريون من هذا التناقض في الوعود الفرنسية، وعندما سئل المسيو جوفنيل عـــن ذلـــك أجاب بقوله:"لا أرى فرقاً بين دستور لبنان وبيان الحكومة السورية مادامـــت وزارة الخارجيـــة الفرنسوية وجمعية الأمم لم تصادق عليهما فلهما وحدهما حق البت في هـــذه الشـــؤون وفصـــل

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٢٨٠ــ ٢٨١ ؛ حسن القيسي نصر: المرجع السابق، ص١٠١ــ ١٠٢ ؛ ظاهر الحسناوي: المرجع السابق، ص١١٤ــ١١٥.

([2]) يعد جوفينيل أول مفوض فرنسي يطرح فكرة تصغير لبنان الكبير، وكان يريد من وراء ذلك التخلص من الأغللبية المسلمة خاصة في طرابلس.

([3]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ٨.

([4]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٤٢٧ــ٤٢٨ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق ، ص١٨٤.

الخلافات"([1]).

وعندما انعقدت في دمشق الجمعية السورية التأسيسية لإعلان الدستور في ذي الحجة ١٣٤٦هـ/يونيو ١٩٢٨م، انعقد في الوقت نفسه في دمشق "مؤتمر أبناء الساحل" المطالبين بالوحدة([2]) مع سوريا، وقد حضر المؤتمر بضعة وسبعون مندوبا مثلوا جبل عامل وصيدا، وبيروت وبعلبك، والبقاع وطرابلس، وعكار واللاذقية، ولم تشعر السلطة الفرنسية به إلا بعد الانتهاء منه. وقد أنتخب رئيسا لهذا المؤتمر بإجماع الآراء السيد عبد الحميد كرامي([3])، الذي قاد المقاومة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي، كما طالبت الجمعية السورية بأن تكون حدود الدولة السورية شاملة كل المناطق التي سبق أن ضمها غورو إلى لبنان الصغير. ومما جاء في وثيقة هذا المؤتمر والمؤرخة بـ ٥ محرم ١٣٤٧هـ/٢٣ يونيو ١٩٢٨م: "لما كانت القضية السورية قضية واحدة لا تقبل التجزئة والانقسام، وأن السوريين أمة واحدة تربطهم جامعة القومية ولا

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٤٢٩.

([2]) وهذه بعض أسماء وفود المدن التي اشتركت في المؤتمر:

وفد بيروت: عمر بيهم نائب بيروت، عبد الرحمن بيهم، صلاح عثمان بيهم، أحمد الداعوق نيابة عن أخيه عمر الداعوق، بشير جبر ، محمد خرما ، الدكتور عبد الله الياقي ، محمد الباقر ، أنيس نجا، عوني الكعكي.

وفد طرابلس: المؤلف من عبد الحميد كرامي، الدكتور عبد اللطيف البيسار، الدكتور حسن رعد، عارف الحسن الرفاعي، مصطفي عادل الهندي، سعدي المنلا، تيودور حكيم، صبحي الملك.

وفد جبل عامل وصيدا وصور: الشيخ أحمد رضا، الشيخ أحمد عارف الزين، رياض الصلح، الحاج إسماعيل خليل، فؤاد الميداني، مراد غلمية، محمد علي الحوماني.

وفد وادي التيم: الأمير فؤاد الشهابي.

وفد اللاذقية: عبد الواحد هارون، مجيد الدين الأزهري، الدكتور ضيا ماميش، المحامي صبحي الطويل.

وفد البقاع: الدكتور ملحم الفرزلي، مخائيل فلفلي، سمعان خزعلي، خليل سلوخ، إبراهيم القيم، قاسم الهيماني.

وفد حصن الأكراد: عبدالله الكنج، عبد اللطيف الكنج، عبد الحميد القاسم، عبد الرزاق الرستم الدندشي.

وفد بعلبك:صبحي حيدر نائب بعلبك في مجلس نواب لبنان، عباس ياغي، أديب حسن شومان، أديب الرفاعي، نجيب حيدر، لطفي حيدر، محمد أديب قانصوة. انظر: أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣ ، ص٥٣٧ـ٥٣٨.

([3]) الشيخ عبد الحميد كرامي(١٣٠٩ـ١٣٦٩هـ/ ١٨٩٢ـ١٩٥٠م): هو مفتي طرابلس حيث تقلد هذا الموقع وهو في السابعة عشرة من العمر، كان واحدا من رجالات الاستقلال اللبناني الذين سجنتهم قوات الانتداب الفرنسي في قلعة راشيا في ذي القعدة ١٣٦٢هـ/نوفمبر ١٩٤٣م وظل فيها طيلة ١١ يوماً، وكانت هذه الحادثة هي الشرارة الأولى لإعلان الاستقلال. وقد تولى عبد الحميد كرامي العديد من المناصب السياسية فكان وزيرا للدفاع الوطني، ووزيراً للمالية، ونائبا عن طرابلس، ورئيسا للوزراء. وكان من اشد المعارضين لفكرة إنشاء دولة لبنان الكبير. ويوم توفي عبد الحميد كرامي سار أهل لبنان وسورية شبابا وشيبا خلف جثمانه إلى جامع المنصوري. انظر: رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٤٧ـ٤٨ ؛ حسان حلاق: مؤتمر الساحل ، الحاشية ٢، ص٤٤.

تفرق بينهم الأديان والمذاهب، ولما كانت الظروف القاسية حالت دون اشتراك بعض أبناء البلاد في الجمعية التأسيسية السورية التي تضع دستور هذا الوطن وتقرر مصيره النهائي، فقد أتينا نحن أبناء البلاد المحرومين من هذا الحق إلى دمشق عاصمة سورية ومصدر الوطنية الحقة والمبادئ الصحيحة، وعقدنا مؤتمرا في يوم السبت الواقع في ٥ محرم ١٣٤٧هـ الموافق ٢٣ يونيوة ١٩٢٨م خلال انعقاد الجمعية التأسيسية السورية...وقررنا ما يأتي:

يؤيد المؤتمر ميثاق البلاد القومي ويطلب إلى الجمعية التأسيسية وحدة هذه البلاد السورية العامة بضم جبل الدروز، والبلاد المسماة ببلاد العلويين والبلاد التي ضمت إلى لبنان القديم من سوريا، وذلك بوضع مادة خاصة في صلب الدستور وتنص على أن سوريا المؤلفة من البلاد المذكورة هي دولة واحدة مستقلة ذات سيادة وذات وحدة سياسية لا تتجزأ..."([1]).نجد من خلال هذا المؤتمر أن الخطاب السياسي المطالب بالوحدة بين لبنان وسوريا كان يغلب عليه الطابع القومي البحت، بعكس الخطاب السياسي بين الموارنة والفرنسيين والذي غلب عليه الطابع الديني.

وقد أحدث مؤتمر أبناء الساحل ردود فعل عنيفة في الأوساط اللبنانية والفرنسية لسببين مهمين هما:

أولاً: اشتراك أعضاء من مجلس النواب اللبناني في هذا المؤتمر، مما يشير إلى أن بعض ممثلي المسلمين في السلطة لم يكنوا راضين عن قيام لبنان الكبير.

ثانياً: مشاركة عدد من الشخصيات اللبنانية البارزة من مختلف الطوائف والمناطق في المؤتمر، مما يبين أن الوحدة السورية لم تعد مطلباً إسلامياً بل مطلباً وطنياً. كما أصبح موضوع التخلص من فرنسا ليس مقتصراً على المسلمين، بل هناك بعض النصارى الوحدويين([2]) ممن لا تتفق مصالحهم الشخصية مع فرنسا يطالبون بالوحدة مع سوريا.

وفي أوائل الثلاثينات الميلادي حاول بعض المسلمين التفاعل مع دولة لبنان الكبير والاعتراف بها عملاً وقولاً، فبعد انتهاء مدت رئاسة شارل دباس في محرم ١٣٥١هـ/مايو ١٩٣٢م اعتقد المسلمون على اختلاف طوائفهم أن الإنصاف يقضي إتباع المناوبة في اختيار الرئيس الجـديد، وأن من حقهم ترشيح أحدهم، خاصة وأن إحصاء السكان([3]) في ذلك العام

([1]) أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣ ، ص٥٣٦ـ٥٣٧ ؛ إبراهيم محسن: المواجهة الوطنية ضد الفرنسيين خلال فترة الانتداب (١٩٢٠ـ١٩٤٦م)، (مجلة دراسات تاريخية، لجنة كتابة تاريخ العرب ، جامعة دمشـق، العـددان ٦٣ـ٦٤، السنة ١٨، مارس ـ يونيو ١٩٩٨م)، ص٢٠٠.

([2]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢١ـ٢٢.

([3]) تبين من نتيجة الإحصاء أن عدد المسلمين بلغ ٣٨٦.٤٦٩ نسمة، بينما بلغ عدد النصارى بما فيهم من الأرمـن والسريان والكلدان ٣٩٦.٩٤٦ نسمة، وهذا بعد التزوير في النتيجة لصالح النصارى طبعاً، فكان عدد المسـلمين

وعلى الرغم من حصول بعض التزوير فيه لصالح النصارى بمساعدة فرنسا طبعاً، إلا أنه أثبت مساواة عدد المسلمين بعدد النصارى([1])، غير أن المسلمين صدموا أمام التعنت الفرنسي والطائفي في إبعاد المسلمين عن المناصب العليا في الدولة، وكانت حجة الفرنسيين في ذلك أنه لما كان رئيس الحكومة السورية مسلماً، فمن الإنصاف أن يكون رئيس الجمهورية في لبنان نصرانياً، ومن أجل إبعاد المرشح المسلم محمد الجسر عن رئاسية الجمهورية في لبنان أصدر المفوض السامي الفرنسي بونسو في١١جمادى الآخرة ١٣٥١هـ/١٢ أكتوبر١٩٣٢م قراراً بتعليق الدستور وتجديد الرئاسة لشارل دباس([2]). وهو ما أشرنا إليه في المبحث الأول من هذا الفصل.

لقد عاد النشاط الوحدوي يظهر من جديد في دمشق وبيروت والمناطق الساحلية ففي٢٥ رجب ١٣٥٢هـ/ ١٤ نوفمبر ١٩٣٣م عقد في دمشق مؤتمر للوحدويين في منزل فارس الخوري([3]) ــ وهو سوري نصراني من أصل لبناني ــ شاركت فيه المدن الساحلية وأرسلت إلية الكثير من برقيات التأييد من مختلف مناطق لبنان، وكان من أهم مقرراته التمسك بالوحدة السورية([4]).

وبعد يومين أي في ٢٧ رجب ١٣٥٢هـ/ ١٦ نوفمبر١٩٣٣م عقد في بيروت "مؤتمر الساحل" في منزل سليم علي سلام([5]) وبدعوة منه واشترك في المؤتمر وفود من بيروت

والنصارى متساوياً تقريباً، فبلغ عدد سكان لبنان الكلي: ٧٨٣.٤١٥ نسمة. وبناء على نتيجة هذا الإحصاء تم توزيع السلطات والمناصب على الطوائف اللبنانية الذي أصبح عرفاً فيما بعد بحيث أعطيت رئاسة الجمهورية للموارنة، ورئاسة مجلس الوزراء للسنة ورئاسة مجلس النواب للشيعة. انظر: محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤٠٥ــ٤٠٦ ؛ فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص١٨٧.

([1]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٢ــ٢٣ ؛ علي شعيب: المرجع السابق، ص٤٨.

([2]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٢ــ٢٣ ؛ إبراهيم محسن: المرجع السابق، ص٢٠١.

([3]) نلاحظ مقاومة بعض النصارى للاستعمار الفرنسي مثل فارس الخوري من سوريا، وبشارة الخوري من لبنان وغيرهما ويحاط أولئك بهالات من التضخيم لمعارضتهم الاحتلال الفرنسي ، ولكن تلك المعارضة كانت سياسة إعلامية فقط بتأييد ومساندة من الحكومة البريطانية في إطار صراع المنافع مع فرنسا في بلاد الشام. انظر: محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٩٤.

([4]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٣ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢١٩ــ٢٢٠ ؛ محمد مخزوم : الحركة العربية في جبل عامل في ظل الحكم التركي والانتداب الفرنسي[دراسة وثائقية للمؤرخ محمد جابر آل صفا]،(مجلة العلوم الانسانية والحضارية، الفكر العربي المعاصر، العدد٣، تموزــ يوليو ١٩٨٠م)، ص١٠٦.

([5]) سليم علي سلام(١٢٨٥ــ١٣٥٧هـ/١٨٦٨ــ١٩٣٨م): هو من العائلات البيروتية المعروفة، كان والده يعمل بالتجارة، وفي عام١٣١٨هـ/١٩٠٠م تولى السيد سليم رئاسة البنك الزراعي العثماني، وفي عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م تولى رئاسة جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، وتولى رئاسة بلدية بيروت بين عامي ١٣٣١ــ١٣٣٢هـ/١٩١٢ــ١٩١٣م، حضر المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس عام ١٣٣٢هـ/١٩١٣م ممثلاً لجمعية

وطرابلس وصيدا وصور وجبل عامل والملحقات الساحلية، وبعد المناقشات والمداولات قدم المؤتمر مذكرة([1]) إلى المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل يلخص المؤتمرون فيها شكواهم بما يلي([2]):

١. لا يجوز تجزئة البلاد السورية إلى دويلات متعددة ؛ لأن هذه التجزئة تزيد من نفقات البلاد الرسمية مما يؤثر على الحالة الاقتصادية للبلاد.
٢. أهالي الساحل والأقضية الأربعة يدفعون ٨٢% من واردات الخزينة التي يصرف ٨٠% منها على جبل لبنان.
٣. أن المناصب العليا في يد أبناء لبنان القديم، وهذا يتعارض مع الدستور الذي يعارض استئثار فئة معينة بالوظائف.
٤. وتضمنت بقية النقاط شكاوى في موضوع الأزمات الاقتصادية التي يعاني منها لبنان والهيمنة الفرنسية على الاقتصاد والجمرك وجشع الشركات الأجنبية.
٥. عدم الأخذ بتقارير المخابرات العامة التابعة للمفوضية الفرنسية التي يصور عملائها البلاد على أنها في نعيم من العيش وأنها تدار بعدالة ومساواة.
٦. المطالبة بإطلاق الحريات العامة والصحافة خاصة، والمطالبة بعودة المبعدين السياسيين.
٧. التأكيد على وحدة البلاد السورية الشاملة والمطالبة بإنشاء حكومة وطنية على أساس السيادة القومية تمثل البلد تمثيلاً صحيحاً وتديرها على رغبات أهل البلاد.
٨. تسليم إدارة الجمارك العامة التي تعتبر من أهم موارد البلاد الاقتصادية إلى هذه الحكومة الوطنية([3]).

بيروت الإصلاحية، كما مثل بيروت في البرلمان العثماني عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م، وفي المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق ١٣٣٧هـ/١٩١٩م، ترأس بين١٣٥٢ـ١٣٥٤هـ/١٩٣٣ـ١٩٣٦م مؤتمرات الساحل الوحدوية. انظر: رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٤٦ـ٤٧ ؛ حسان حلاق: مؤتمر الساحل، الحاشية ١، ص٤٣ ؛ حسان حلاق : مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٨ـ١٩٣٨) مع دراسة للعلاقات العثمانية ـ العربية ، والعلاقات الفرنسية ـ اللبنانية، (الدار الجامعية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٧ـ٩٥.

([1]) انظر نص المذكرة في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٠.

([2]) يذكر سعيد مراد أن حسان حلاق اقتبس نص المذكرة من رسالته للماجستير والتي كانت تحت عنوان " الحركة الوحدوية في لبنان من خلال مؤتمرات الساحل" بيروت، ١٩٧٩م، ص١٢٦ـ١٢٨، وهذا يعني أن النص الذي يبدأ بالعبارة التالية " بعد هذه المقدمة يلخص المؤتمرون شكواهم بما يلي" في كتاب حسان حلاق"مذكرات سليم علي سلام" عبارة عن تحليل لسعيد مراد للمذكرة وليس نص المذكرة . انظر: سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢١٩ـ٢٢٠.

([3]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٤ وص١٧٥ـ١٧٨ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢٢١ـ٢٢٣.

في ١٣٥٤هـ/ أواخر عام ١٩٣٥م استطاع الفرنسيون بالتعاون مع المؤيدين لدولة لبنان الكبير من إقصاء اللبنانيين المطالبين للوحدة مع سوريا عن الحياة السياسية بالقوة، ولكن في شوال ١٣٥٤هـ/يناير عام ١٩٣٦م عندما أعلن الإضراب الشامل في دمشق، وحدثت أعمال شغب أدت إلى صدامات عنيفة مع السلطة الفرنسية، وقع على إثرها عدد من القتلى والجرحى، وقيام السلطات الفرنسية باعتقال ثلاثة آلاف شخص، وعدد من رجال الكتلة الوطنية ومنهم جميل مردم ونسيب البكري، وفخري البارودي وغيرهم ونفيهم إلى مناطق نائية، وقد اعتقد الفرنسيون أنهم بهذه الإجراءات سينتهي الإضراب الذي استمر ستين يوماً([١])، لكنهم على العكس من ذلك فقد وجد أعضاء الكتلة الوطنية في دمشق التأييد والمساندة من جميع مدن الشام بما فيها لبنان التي انتشرت فيها مظاهرات تندد بتشدد سلطات الانتداب، وقام أهل المدن الساحلية في طرابلس وصيدا وصور بتنظيم مظاهرات ضد الانتداب الفرنسي، وتطالب بالوحدة مع سوريا. وبذلك عاد اللبنانيون المطالبون بالوحدة مع سوريا بالظهور بقوة على الساحة السياسية من جديد([٢]).

لم ينته الإضراب إلا في٦ ذو الحجة ١٣٥٤هـ/٢٩ فبراير ١٩٣٦م بعد عودة فرنسا عن غيها واعترافها بحقوق سوريا في الاستقلال والوحدة، وتشكيل وفد سوري يسافر إلى باريس ويفاوض وزارة الخارجية الفرنسية هناك لوضع حدٍ للانتداب الفرنسي، ذلك بعقد اتفاقية بين الطرفين على غرار المعاهدة بين العراق وبريطانيا([٣]). لكنه تنامى إلى أسماع الوحدويين في لبنان أن الوفد السوري الذي ذهب للتفاوض مع الحكومة الفرنسية لا ينوي الحديث عن الأراضي المتنازع عليها في لبنان وأن هؤلاء قبلوا بالأمر الواقع، لذلك قامت اللجنة التنفيذية لمؤتمر الساحل المنعقد بدمشق عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م بوضع الأسس لمؤتمر جديد([٤])، فتداعت القوى الحزبية والوحدوية بزعامة الشيخ عبد الحميد كرامي مع مجموعة من الجنوبيين والسوريين من مختلف الطوائف الإسلامية والمسيحية بتشكيل حركة تطالب بالوحدة السورية والدعوة إلى عقد "مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة"([٥]) في منزل سليم علي سلام ببيروت في ١٦ ذو الحجة

([١]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٤٩٢ ، جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٢٦٧.

([٢]) رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٤٣ــ٤٥ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢٣٦ــ٢٣٧ ؛ رياض المــالكي: سيرة الشهيد عدنان المالكي (١٩١١٩ــ١٩٥٥م) بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على استشهاده، (مكتبة الدار للنشــر، ط١، ٢٠٠٥م)، ص٢٥.

([٣]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، ج١، ص٤٩٢ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٢٥٥ـــ٢٥٦ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق،ص٣٦٣.

([٤]) رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٤٥ــ٤٦ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢٣٧ــ٢٣٨.

([٥]) يقصد بالمناطق الساحلية هنا ولاية بيروت كما كانت عليه في العهد العثماني وهي تضم المدن الساحلية في لبنان الكبير والمكونة من: بيروت، طرابلس، صيدا، صور، مرجعيون. أما الأقضية الأربعة فقد كانت تضم: حاصبيا،

١٣٥٤هـ/١٠ مارس ١٩٣٦م، ولما افتتح المؤتمر انتخب سليم علي سلام رئيساً له، وقد حضر المؤتمر ثلاثون عضواً([1]) ستة منهم نصارى، وسبعة آتين من الداخل اللبناني([2])، أما غالبية المشاركين فكانوا من الطائفة السنية والمنطقة الساحلية، وقد سعى منظمو المؤتمر إلى إشراك ممثلين لكل المجموعات اللبنانية المناوئة للوضع القائم، بغرض إنشاء هيئة تمثلهم سياسياً([3]).

وتلخص مضمون النقاش([4]) الذي دار في المؤتمر بثلاثة أمور:

أولاً: تخوف أعضاء المؤتمر من عقد كلاً من سوريا ولبنان معاهدتين منفصلتين مع فرنسا، تؤكد الانفصال الكامل والنهائي بين سوريا ولبنان، وتؤهلهما لدخول عصبة الأمم عضوين كاملي السيادة والاستقلال، فيكسبا بهذه الصفة اعترافاً شرعياً بوضعهما الجديد، وتنتهي عندئذ كل الآمال في تحقيق الوحدة السورية.

ثانياً: أعرب المؤتمرون عن رفضهم المطلق لمشروع المعاهدتين، ولأي مشروع آخر يرمي إلى استقلال لبنان الكامل الدائم، ليصير البلدين بلداً واحداً موحداً ــ كما كان في عهد الدولة العثمانية ــ .

وراشيا، وبعلبك، والمعلقة وكانت تابعة لولاية الشام. انظر :حسان حلاق: مؤتمر الساحل، الحاشية (*)، ص٢٧. انظر دولة لبنان الكبير والمناطق التي ضمها إليها الانتداب الفرنسي في ملحق الخرائط الملحق رقم٤.

([1]) حضر هذا المؤتمر: سليم علي سلام، عبد الحميد كرامي، صلاح عثمان بيهم، الشيخ أحمد عارف الزين، الشيخ أحمد رضا، الشيخ سليمان الضاهر، علي ناصر الدين، شوقي الدندشي، صلاح لبكي، فوزي بردويل، يوسف يزبك، محمد جميل بيهم، حسن القاضي، مأمون إياس، عبد اللطيف البيسار، أمين خضر، عادل عسيران، شفيق لطفي، كاظم الصلح، أحمد الداعوق، محمد علي بيهم، عزت قريطم، قسطنطين يني، إبراهيم خرما، تقي الدين الصلح،= =نعمة ثابت، محمد شقير، زكريا النصولي، انطوان ثابت، جميل الكوسا، وحوالي ٧٠ شخصية أخرى حضروا كمراقبين، غير أن هؤلاء لم يشاركوا جميعهم في المناقشات أو في توقيع المذكرة الصادرة عن المؤتمر، بل اقتصر الأمر على عدد منهم. انظر: حسان حلاق: مؤتمر الساحل، الحاشية ٢٢، ص٢٧.

([2]) الأعضاء النصارى هم: صلاح لبكي، ويوسف يزبك ، قسطنطين يني، نعمت ثابت، أنطوان ثابت، فوزي بردويل، ــ وهؤلاء من النصارى الذين كانوا يعارضون الانفصال عن سورية، لكن أصواتهم لم تكن مسموعة، المستعمر الفرنسي حاول إبراز الشخصيات التي تدعو للانفصال عن سورية وعمل على تثبيتها وتقويتها، بينما عمل على حبس أنفاس النصارى الداعين للوحدة ــ . أما الأعضاء من الداخل اللبناني فكانوا إضافة إلى لبكي، ويزبك، ويني وبردويل من زحلة، والشيخ أحمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر، وعلي ناصر الدين(وهؤلاء من جبل لبنان وهذه أول مره يشترك في مؤتمرات الساحل شخصيات تمثل الجبل). انظر: حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٣٣ ؛ رغيد الصلح: المرجع السابق، الحاشية ٥٨، ص٤٦.

([3]) رغيد الصلح : المرجع السابق، ص ٤٦ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢٣٧ــ٢٣٩.

([4]) لمزيد من المعلومات حول المناقشات التي تمت في هذا المؤتمر انظر: حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٧ــ٣٤ وص٤٣ــ٦٧.

ثالثاً: قرر المؤتمرون بناءً على ما أسفرت عنه نتيجة النقاش رفع مذكرة بمطالبهم، كما قررها المؤتمر إلى المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل الذي اقترب موعد سفره إلى باريس ليبدأ المفاوضات بشأن المعاهدتين الفرنسية السورية أولاً ، ثم الفرنسية اللبنانية، حتى يعرض المذكرة على الحكومة الفرنسية([1]).

وأصدر المجتمعون مذكرة([2]) أكدوا فيها مطالبتهم بالاستقلال والانضمام إلى سوريا. وقرر المؤتمر: ضم لبنان إلى سوريا كخطوة أولى نحو الوحدة العربية ومحاربة الانتداب، وأن أي حل لا تجاب فيه هذه المطالب سيكون مصيرها الفشل([3]). وقد وقّع هذه المذكرة ممثلون عن بيروت وطرابلس وصيدا وصور وجبل عامل والأقضية الأربعة، بعلبك وراشيا وحاصبيا والبقاع، وأمتنع عن توقيعه السيّد كاظم الصلح([4]) الذي كان حاضراً في هذا الاجتماع([5]). وإن السيّد الصلح أذاع بياناً([6]) مستقلاً برر فيه امتناعه عن مشاركة الزعماء الآخرين في التوقيع على بيانهم وقال:" أن الفكرة الحقيقية في إنشاء لبنان على شكله الحالي لم تكن بعيدة عن التصميمات الاستعمارية الفرنسوية. ولا أعني بذلك أن الكيان اللبناني قد خلق

([1]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٢٧ــ٣٤ ؛ شفيق جحا: المرجع السابق، ص٩٧ــ ٩٨.

([2]) انظر نص المذكرة التي رفعها مؤتمر الساحل في١٠ مارس ١٩٣٦م إلى المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل في ملحق الوثائق الملحق رقم ١١.

([3]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٣٠ ؛ سليم علي سلام، ص٨٥ــ٨٨.

([4]) السيّد كاظم الصلح(١٣٢٨ــ١٣٩٦هـ/١٩١٠ــ١٩٧٦م): من مواليد بيروت، وأسرة عملت في الحقل السياسي منذ العهد العثماني، درس في الكلية الجامعية التابعة للجامعة الأمريكية وتابع دراسته في الجامعة اليسوعية فنال منها شهادة الحقوق عام١٣٥٠هـ/١٩٣١م، اشتغل في السياسة منذ عهد مبكر نفي أوائل عهد الانتداب الفرنسي، كان عضواً في جمعيات كانت تعمل في السياسة سراً مثل جمعية النهضة الأدبية، كما ترئس النادي الأهلي وهو يعمل في السياسة سراً، وكان عضواً في حزب الاستقلال الجمهوري، في عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م أسس حركة الكتاب الأحمر السرية، وفي عام١٣٥٤هـ/١٩٣٦م شارك في مؤتمر الساحل، لم يكن متحمس لفكرة إلحاق المناطق الساحلية بالوحدة السورية، عبر عن آرائه حيال الوحدة في كراس " مشكلة الاتصال والانفصال في لبنان ". وهو من المؤمنين باستقلال لبنان على أساس أنه وطن قومي عربي مستقل. في عام١٣٥٠هـ/١٩٣١م أسس صحيفة النداء التي توقفت عن الإصدار عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ثم عادت بالصدور عام ١٩٤٩م باسم حزب النداء القومي، في عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م فر هارباً إلى العراق وبقي فيها حتى عام١٣٦٠هـ/١٩٤١م. في عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م شارك في مباحثات الميثاق الوطني ووضع البيان الوزاري الأول. وفي عام١٣٦٣هـ/١٩٤٤م أصبح أول رئيس لحزب النداء القومي. في عام ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م عينته الدولة سفيراً للبنان في العراق. انظر: حسان حلاق: مؤتمر الساحل، الحاشية ١٨، ص٦٣.

([5]) حسان حلاق : مؤتمر ا لساحل ، ص٢٩ــ٣٣ ؛ شفيق جحا: المرجع السابق، ص٩٩.

([6]) لمزيد من المعلومات حول موقف كاظم الصلح من مشكلة الاتصال والانفصال ونص البيان الذي أذاعه انظر: حسان حلاق: مؤتمر الساحل ، ص٧١ــ٨٩.

لخدمة فرنسا. بل أعني أن اتجاه اللبنانيين يوم خلق هذا الكيان لم يكن متنافراً مع أغراض السياسة الفرنسوية ومطامعها؛ فاتفقت الرغبتان:

أولاً ــ رغبة فرنسا الاستعمارية:

(١) بفصل المنطقة الساحلية عن حكم الدولة العربية الفيصلية.

(٢) بإنشاء حكومة طائفية، وقد انكشف منها ذلك بعدئذ بإنشائها حكومة "علوية" وحكومة "درزية" وحكومة "سنية" أو إسلامية في دمشق.

وثانياًــ رغبة اللبنانيين، أو بكلمة أخرى: غالبية المسيحيين، بإنشاء وطن لا يكونون فيه أقلية يسيطر عليها العنصر الإسلامي..فوجدوا لبنان الحالي...

فأصبحت كلمة "الوحدة" أو "السورية" مرادفة "للإسلامية" وأصبحت "اللبنانية" تفسر "بالمسيحية". فكان كل مسلم موصوفاً بأنه من طلاب الوحدة السورية، ولو لم يكن من طلابها. وكان كل مسيحي لبنانياً ولو لم يكن من لبنان...لست أرى من الكوارث الكبرى أن يظل لبنان على شكله الحالي إلى الأجل الذي يريد (على فرض أنه متحرر من السيطرة الأجنبيّة) شريطة أن يعتنق منذ اليوم الفكرة والقوميّة العربيتين، فإن انفصاله عن سوريا الكبرى العربيّة هو عندي كإنفصال سوريا العربيّة عن العراق العربي، أي أنني لا أجد في هذا الإنفصال بأساً مادامت تلك القوميّة تترعرع وتصان في كل قطر إلى أن تثبت لهذه الأقطار مصلحتها في الإتحاد فتتحد!"([1]).

إن أهمية مؤتمر الساحل ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م تكمن في كونه أخر مؤتمر وحدوي يعقد في لبنان، فضلاً عن أنه بعد هذا المؤتمر ظهرت جملة من التراجعات الإسلامية والوحدوية، فقد شعر الوحدويون من سكان الساحل(بيروت، صيدا ، صور ، طرابلس) أنه لا فائدة ترجى من طلب الوحدة وأنه لا بد من الاعتراف بلبنان الكبير مشترطين إقامة العدل والمساواة بينهم وبين الطوائف المسيحية، خاصة وأنه بدأ تظهر في لبنان اتجاه غير الاتجاه الوحدوي الإسلامي والانفصالي النصراني وهو الاتجاه الوحدوي القومي العربي والمؤيد لدولة لبنان الكبير، بشرط أن يكون ضمن الوطن العربي([2])، وهو ما سنلاحظه في موقف كل من بشارة الخوري وكاظم الصلح فالأول نصراني والثاني مسلم.

في منتصف الثلاثينات الميلادي نشأ التنظيم الحزبي في لبنان وتركز في مجمله حول شخصيتين هما بشارة الخوري وإميل إدة، شكل الخوري ما عرف بالكتلة الدستورية، وكان هدف الكتلة الدستورية الدفاع عن الدستور المحلي، مع التعاون إلى أقصى حد مع البلاد العربية

([1]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل ، موقف كاظم الصلح من مشكلة الاتصال والانفصال في لبنان، ص٧٨ــ٨٧.

([2]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٦ــ٧ ؛ شفيق جحا: المرجع السابق، ص٩٩ــ١٠١.

بما فيها سوريا، وأن على لبنان أن يعتبر هذه الدول شريكته في النضال ضد الاستعمار([1]). فمن الواضح أن دعوة الخوري كانت قومية بحته على أساس اعتبار لبنان جزء من الوطن العربي والقبول بدولة لبنان الكبير، وقد رأينا أن عدد من المسلمين أيدوا هذه الفكرة مثل كاظم الصلح وظهر هذا التأييد في موقفه من مؤتمر الساحل لعام١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م.

علينا أن نشير هنا إلى أن السيد كاظم الصلح كان من المسلمين اللبنانيين المنتمين إلى "الحركة العربية السرية"([2]) التي كانت تدعم الفكر القومي والانفصال عن سوريا، ويتضح ذلك جلياً في قوله:" لست أرى من الكوارث الكبرى أن يظل لبنان على شكله الحالي إلى الأجل الذي يريد (على فرض أن يتحرر من السيطرة الأجنبية) شريطة أن يعتنق منذ اليوم الفكرة والقومية العربيتين. فإن انفصاله عن سوريا الكبرى العربية، هو عندي كانفصال سوريا العربية عن العراق العربي. أي أنني لا أجد في هذا الانفصال بأساً مادامت تلك القومية تترعرع وتصان في كل قطر.."([3]). من هنا يظهور أثر الانتداب الفرنسي في تغير الفكر السياسي الوحدوي في لبنان شيئاً فشيء، لا عن طريق النصارى فقط بل عن طريق الداعين إلى القومية العربية مبتعدين بذلك عن الوحدة الإسلامية التي هي أعم وأشمل، وأشد قوة في التصدي للانتداب وغيره من الغزو سواء كان عسكري أم فكري.

أما إميل إدة فقد رد على دعوة الخوري بإنشاء حزب "الكتلة الوطنية" أو الكتلة الإدية، وهدفها الدفاع عن لبنان في حدوده الحاضرة وصيانة انفصاله عن سوريا الكبرى، وأعلن أن الشعب اللبناني من النسل الفينيقي القديم الذي أسهم في الحضارة العالمية، ولم يرحب إدة بالفكرة القومية وأن اللبنانيين عرب ــ على الرغم منه إذا شاء إدة أو لم يشأ فإن اللبنانيين عرب ــ بل اعتبر اللبنانيين ذا قومية خاصة لهم طابع متميز، وأنه كان يخشى من أي وحدة أو اتحاد أو مجرد تقارب عربي([4]). فهو من أنصار الاتحاد والتقارب الفرنسي الذي يستمد هو قوته منه.

([1]) أحمد طربين: الوحدة العربية، ص٦٢.

([2]) الحركة العربية السرية: عرف أعضائها باسم جماعة الكتاب الأحمر نسبة إلى كتاب القومية العربية الذي يحتــوي= =على دستور الحركة، أنشأت هذه الحركة في بيروت سنة١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، وأنتشرت في كثير من الدول العربيــة مثل فلسطين وسوريا لبنان والعراق والكويت وغيرها ..، فهي عبارة عن حركة عربية قومية سرية، استمرت حوالي عشر سنوات، كانت تهدف إلى تقديس القومية العربية وتميزها على سائر الأمم، بغض النظر عن الدين او المــذهب فهي تحرم على العربي العصبيات التي تضعف ــ على حد قولها ــ العصبية العربية كالعصبية الطائفية والعنصرية والطبقية الإقليمية وغيرها. انظر: شفيق جحا: المرجع السابق، ص٧ــ ١٧، و ص٣٨٣ــــ٤٣١ ؛ بيــان نــويهض الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية ، ص٤٩١ــ٤٩٣.

([3]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل، ص٨٦٨ــ٨٧.

([4]) أحمد طربين: الوحدة العربية ، ص٦٢ ؛ رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٣٥ــ٣٦.

في رجب ١٣٥٥هـ/سبتمبر عام ١٩٣٦م وقعت سورية معاهدة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م مع فرنسا والتي وافقت فيها على فصل سوريا عن لبنان فصلاً تاماً، ثم عقدة الحكومة الفرنسية مباحثات مشابها مع الحكومة اللبنانية بزعامة إميل إدة في الشهر نفسه، حيث تم التوقيع على المعاهدة في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ/١٣ نوفمبر ١٩٣٦م في بيروت من قبل الكونت دي مارتيل المفوض السامي الفرنسي وإدّه رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة. وبالرغم من أن المعاهدة المذكورة خولت فرنسا البقاء الأبدي لمصالحها ونفوذها في لبنان، وقررت انفصاله نهائيًّا عن بقية أجزاء الوطن السوري بحدوده الطبيعيّة، فإن مجلس النواب الفرنسي خذل حكومته ورفض التصديق على هذه المعاهدة، كما حدث في المعاهدة المماثلة مع سوريا([1]).

وقد خرجت جماهير المسلمين مستنكرة المعاهدة الفرنسة السورية١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م فرفض البيروتيون الموافقة على بقاء مدينتهم في الكيان اللبناني، وأيدهم في هذا الموقف أبناء المناطق الأخرى التي ألحقها غورو بهذا الكيان. وعمَّت الإضطرابات البلاد لا سيما في مدينة طرابلس التي أقفلت حوانيتها لمدة ٣٦ يوماً، وسقط في ٥ رمضان ١٣٥٥هـ/٢٠ نوفمبر ١٩٣٦م أربعة قتلى نتيجة اصطدامهم بقوى الأمن، ورفع الطرابلسيون وعلى رأسهم عبد الحميد كرامي العلم السوري في الأحياء الداخليّة من المدينة. ولم يستأنف الطرابلسيون حياتهم العادية إلا نزولاً عند رغبة الزعماء الوطنيين وعلى رأسهم رياض بك الصلح ورجال الكتلة الوطنيّة في سوريا الذين تعهدوا بتحقيقي الوحدة السوريّة بمختلف الوسائل والطرق الشرعيّة([2]).

والأمر الملاحظ أن اندفاع اللبنانيين الوحدويين ـ لاسيما المسلمين منهم ـ للوحدة السورية، كان أكثر من اندفاع السوريين أنفسهم لتلك الوحدة([3])، وإننا نرجع ذلك إلى أن اللبنانيين المطالبين بالوحدة مع سوريا كان أكثرهم مسلمين يرغبون بإضافة الجزء "اللبناني المسلم" إلى الكل "السوري المسلم" لأن ذلك يشكل قوة إسلامية، ضد القوة النصرانية المتمركزة في جبل لبنان، ومن هنا يتضح لنا مدى قوة الإسلام وعدله، ومدى ضعف التجمع القومي ووهنه، فلو نظر اللبنانيون الوحدويون إلى الموضوع من الناحية القومية لما طالبوا بالانضمام إلى سوريا فأهل جبل لبنان أيضاً عرب، وعلينا أن نشير هنا إلى أن بعض النصارى اللبنانيين كانوا أيضاً من المطالبين بالوحدة مع سوريا، وإن في ذلك تأكيد على قوة الإسلام والمنتمين إليه

([1]) دعد الحكيم: المرجع السابق، ص١٣٦ـ١٣٧ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٢٦٨ـ٢٦٩ ؛ زهير الشلق: المرجع السابق، ص١٣٢ـ١٣٣ ؛ عبد العزيز إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٧٠ـ٥٧١.

([2]) سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢٧٢ـ٢٧٤ ؛ عمر عبد السلام تدمري: صفحة من نضال الطرابلسيين ضد الانتداب الفرنسي، (مجلة تاريخ العرب والعالم، دار النشر العربية، بيروت، العدد ١٥٨، السنة ١٥، جمادى الآخرة / رجب ١٤١٦هـ/ سبتمبر ـ أكتوبر١٩٩٥م)، ص١٣ـ١٤.

([3]) حسان حلاق : مؤتمر الساحل..، ص٦.

وان قوته تستمد من عدله وقدرته على استيعاب جميع الطوائف، والمساواة بينهم في إطار الشريعة الإسلامية.

ويمكن إجمال أسباب اعتراض مسلمي دولة لبنان الكبير الانضمام إلى الكيان اللبناني الجديد عند نشوئه لثلاثة أسباب هي:

١. أن الدولة الجديدة جعلت منهم أقلية وهم الذين كانوا جزءاً من الأكثرية المسلمة الحاكمة في العهد العثماني.
٢. أنهم كانوا يتمنون بعد الانسلاخ عن الدولة العثمانية الانضمام إلى دولة عربية تضم سوريا الكبرى، أي سوريا، الحالية، ولبنان وفلسطين والأردن.
٣. أنهم كانوا رافضين للانتداب الفرنسي، على اعتبار أنه حكم دولة أوروبية أجنبية([1]).

لكن في أواخر الثلاثينات وقع الشرخ الخلافي العميق الذي أصاب حركة النضال الوطني السوري اللبناني، وهو الذي اقنع رياض الصلح بتبني الفكر الانفصالي، خصوصا بعدما توثقت علاقته بزعماء موارنة من أمثال بشارة الخوري، في الاتفاق على استقلال لبنان. كان رياض الصلح زعيما شعبياً فذا. ذا شخصية قوية تملك قدرة هائلة على الإقناع. وهكذا، وظف رياض موهبته في إقناع رفاق الدرب السوريين بقبول استقلال لبنان، في مقابل التضحية بالوحدة مع سورية، ونَحَتَ عبارته الشهيرة لإرضائهم: «لبنان لن يكون ممرا للاستعمار ولا مقراً»([2])

بعد مؤتمر الساحل لعام ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م خفت حدة المطالبة بالوحدة مع سوريا، خاصة بعد توقيع معاهدتي عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م مع فرنسا وسوريا، ومع فرنسا ولبنان، والتي ظهر من خلالهما تخلي حكومة البلدين (سوريا ولبنان) عن طلب الوحدة، لذلك تداعى المسلمون إلى عقد مؤتمر عام عرف باسم "المؤتمر القومي الإسلامي" في ٧ شعبان ١٣٥٥هـ/٢٣ أكتوبر ١٩٣٦م في منزل عمر بيهم في بيروت وقد ضم المؤتمر وفود ممثلة لمختلف المناطق الملحقة بلبنان الكبير([3])، وقرر المؤتمرون رفع مذكرة إلى المفوض السامي الفرنسي تتضمن طلبهم في

([1]) "تاريخ العلاقات اللبنانية ــ السورية منذ عام ١٩٢٠"، (جريدة الشرق الأوسط، العدد١٠٨٥٦ ، الاثنين ١٥ شعبان ١٤٢٩هـ/ ١٨ أغسطس ٢٠٠٨م)، ص٢٣.

([2]) فواز الطرابلسي: المرجع السابق،ص١٨٧ ؛ غسان الإمام:"آل الصلح صنعوا استقلال لبنان بانفصالهم عن سورية"، (جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٠٣٨١ ؛ لثلاثاء ١٣ ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ/ ١ مايو ٢٠٠٧م)، ص٢٥.

([3]) تألفت اللجنة التنفيذية للمؤتمر القومي الإسلامي من : سليم علي سلام رئيساً، ومن الأعضاء: عمر بيهم ، رياض الصلح ، الأمير أمين أرسلان ، الشيخ أحمد عارف الزين ، سليم الطيارة ، بهيج جوهري ، ، يوسف أبو ظهر، الشيخ أحمد رضا، فؤاد نكد ، علي بزي ، الشيخ إبراهيم الخطيب ، فريد حيدر ، عوض فاضل ، توفيق حلاوي، الحاج نجيب بكار، خالد عبد القادر، محمود أبو عرب، الحاج علي بيضون، الأمير إسماعيل

تحقيق الوحدة الشاملة بين أجزاء سوريا والأقطار العربية ، وهذا يعني اعترافهم بواقع لبنان الكبير، ويمكن أن نلاحظ بعض التراجع في طلب الوحدة في النقاط التالية من المذكرة :

١ـ لم تشر المذكرة إلى ضرورة إعادة المناطق الملحقة بلبنان الكبير إلى سوريا الكبرى، بل أننا نلاحظ موافقة المؤتمر على الأمر الواقع حيث طالب بتحقيق الوحدة والتقارب بين الجمهوريتين اللبنانية والسورية.

٢ـ كما أشارت المذكرة إلى ضرورة رفع الغبن اللاحق بالمسلمين، والمساواة بين اللبنانيين لوقف المشادة والتوتر الطائفي، كما طالبت المذكرة من المفاوضين الفرنسيين واللبنانيين الذين ينون وضع المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية إقرار اللامركزية لضمان المساواة بين الطوائف في الحقوق
والواجبات([1]).

رد الكونت دي مارتل على هذه المذكرة بعد توقيع المعاهدة الفرنسية اللبنانية في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ/١٣ نوفمبر ١٩٣٦م، حيث أبدى أسفه لغلبة الطابع الديني على وثيقة ذات صبغة سياسية معتبراً توقيع المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية يعتبر نجاحاً للبنان وفرنسا، وأن الحكومة اللبنانية تتعهد بدورها بأن تكفل المساواة التامة في الحقوق المدنية والسياسة بين رعاياها كافة، كما تكفل تمثيل جميع عناصر البلاد في وظائف الدولة حسب المصلحة العامة([2])، واتهم دي مارتل المؤتمر الإسلامي بأنه مؤتمر طائفي، ولكن رد على هذا الاتهام السيد رياض الصلح([3]) بقوله " إننا لم نتقدم بمطالبنا باسم الشعار الطائفي إلا لأن انفصال لبنان نفسه يستمد

شهاب، الشيخ سعد قيس ، السيد ممد مرتضى ، د.عز الدين الرفاعي ، أما عبد الحميد كرامي ، وعبد اللطيف البيسار فقد تغيبا عن حضور المؤتمر ـ وهي أول مرة يتغيبا فيها عن مؤتمر إسلامي وحدوي ـ لأن المؤتمر لم يكن ينوي إثارة قضية طرابلس التي تريد الوحدة مع سوريا. انظر:حسان حلاق : مؤتمر الساحل..، الحاشية ٣٦، ص٣٤.

([1]) حسان حلاق : مؤتمر الساحل..،ص٣٤ـ٣٥.

([2]) والمصلحة العامة بنسبة لدي مارتل هي مصلحة فرنسا أولاً ثم مصلحة الموارنة في لبنان، ثم تأتي مصلحة بقية الطوائف هذا إن وجدوا لهم مكان.

([3]) رياض رضا الصلح(١٣١٠ـ١٣٧٠هـ/١٨٩٣ـ١٩٥١م): ولد في صيدا، وتلقى تعليمه فيها من مدرسة المقاصد ، أكمل تعليمه في مدرسة الشيخ أحمد عباس في بيروت ، ثم انتقل إلى جامعة القديس يوسف ، وحصل على شهادة الحقوق من كلية الحقوق في اسطنبول. كان من المتعصبين للقومية العربية ومن المؤيدين للثورة العربية والحكومة الفيصلية في سوريا، حكم عليه بالإعدام مرتين بسبب نشاطه القومي، المرة الأولى أصدره العثمانيون عام١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م، والمرة الثانية أصدره مجلس الحرب الفرنسي في دمشق، وفي المرتين حصل على عفو رسمي، تزوج بفوزية الجابري ابنة شقيق سعد الله وإحسان الجابري مما وطد علاقته بالقوميين السوريين، أطلق عليه الفرنسيون لقب الكاره للأجانب. اغتيل بمطار عَمان. انظر: رغيد الصلح: المرجع

وجوده من الشعار الطائفي. لولا الطائفية ما كان لبنان منفصلاً عن سوريا، ونحن مع ذلك مددنا يدنا للاتفاق مع إخواننا... ونرجو بعد الآن ألاّ تبقى حاجة لعقد المؤتمرات منا ومنهم "([1]).

مما يؤخذ على هذه المؤتمرات الوحدوية أنها أخذت الطابع الشعبي ولم يكن بينهـا وبـين المسؤولين السياسيين أي تنسيق فعلى الرغم من وجود بعض الشخصيات اللبنانيـة فـي الكتلـة الوطنية، إلا أن ذلك لم يؤثر في موقف الوفد السوري الذي خاض المفاوضات مع فرنسا دون أن يتطرق إلى موضوع المناطق الملحقة بلبنان، وربما تكون هذه النقطة هي المسمار الأخير الـذي دق في نعش الوحدة بين سوريا ولبنان.

ولما استمرت الأساليب الطائفية كما كانت علية قبل المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانيـة، فقـد حاول إميل إدة تجنيس المغتربين بالجنسية اللبنانية لأسباب طائفية وانتخابية، لذلك رفع المـؤتمر والمجلس القومي الإسلامي مذكرة إلى المفوض السامي الفرنسي دي مارتل فـي ٢٦ ذو القعـدة ١٣٥٥هـ/٨ فبراير ١٩٣٧م أوضح فيها بأن المسلمين قد اقتنعوا بالتريث في موضوع الوحـدة على أمل تحقيق المساواة بين اللبنانيين، غير أن هذه المساواة لم تتحقق، فبقيام الحكومة بتضـخيم عدد الطائفة النصرانية بتجنيس المغتربين، حتى يبدو المسلمين قلة، فإن في ذلك تضيع لحقـوق المسلمين، وهو ما لا يرضاه المؤتمر القومي الإسلامي، وقد أبرز المؤتمر حقيقة ومطلباً إسلامياً لا يزال لبنان يعاني من عدم تنفيذه ـ حتى اليوم ـ وهو ضرورة إنصـاف المسـلمين، وهـو المطلب الذي يتوقف عليه الاستقرار في البلاد جميعاً([2]).

حتى أن المسلمين الشيعة في جبل عامل الذين كانوا على علاقة جيدة بسلطات الاحـتلال الفرنسي، اعترضوا على هذه الدعاية القائمة على جعل لبنان للنصارى، وذلك في مقال في مجلة العرفان جاء فيها "كيف لا ينفر المسلمون سنيهم وشيعيهم وهم يسمعون ويقرأون في الصحف أنه (أي لبنان) دولة مسيحية، وأنه يجب أن يحصل تبادل السكان بين لبنان وسوريا فيجلـي مسـلمو لبنان إلى سورية ويجلى مسيحيو سورية إلى لبنان"([3]).

موقف فرنسا من مشكلة الاتصال والانفصال بين سوريا ولبنان:

عندما جاءت فرنسا منتدبة لدولتي المشرق (سوريا ولبنان)، سلكت مـع سـوريا سياسـة تستهدف إضعاف معقل المقاومة العربية الإسلامية، وسلكت مع لبنان سياسة ترمي إلى تعزيز ما حسبته حصن التعاون النصراني، وبادرت إلى خلق دولة لبنان الكبير، وأقامت على حكمة طبقـة من المؤيدين والموالين لها، شعارهم المحافظة على الوضع الراهن والاعتزاز باسـتقلال لبنـان

السابق، ص٦٣؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٥٨٠ ؛ صالح الجاسر: المرجع السابق، ص٧١ـ٧٣.

([1]) حسان حلاق : مؤتمر الساحل..،ص٣٥ـ٣٦.

([2]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل..،ص٣٦ـ٣٧. حلاق: سليم علي سلام، ص٧٩ ـ٨٨.

([3]) سعيد مراد: المرجع السابق، ج٣، ص١٨٢.

الكبير، وعدم العودة إلى التبعية الإسلامية في سوريا والتي تشكل أكثرية سنية مسلمة، وشجع الاحتلال الفرنسي الخلافات الطائفية لمصلحته، فعادت نغمتها إلى جبل لبنان بأشد مما كانت في أيام الدولة العثمانية(1).

وقد استمر السجال حول الاتصال والانفصال دون هوادة فمن جهة فرنسا، اكتشف بعض موظفي الانتداب أنهم أنشؤوا "لبنان أكبر مما يجب" وأنه يحتاج إلى تصغير(2). توزع اللبنانيون بين رياض الصلح الذي أعلن في محرم ١٣٤٧هـ/ يوليو١٩٢٨م أن رئيس الوزراء الفرنسي أريستيد بريانAristide Brian قد وعده بإعادة ضم لبنان إلى سوريا، وإميل إدة الداعي إلى تصغير لبنان. والذي قدم إلى وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة إحتجاج شرح فيها لفرنسا بأنهم أنشأوا لبنان أكبر من اللازم تعداد سكانه ٤٠٥.٠٠٠ مسلماً و٤٢٥.٠٠٠ نصرانياً فهو لا يحتوي على أكثرية نصرانية قوية تمكنها من حماية البلاد، فاقترح إدة على سلطات الانتداب أن تصبح طرابلس مدينة حرة تحت الإدارة الفرنسية ـ يمنح سكانها النصارى الجنسية اللبنانية والمسلمين الجنسية السوريةـ ويمنح جنوب لبنان نظام الحكم الذاتي. وسائر أجزاء لبنان الباقية والتي تخلصت من ٥٥.٠٠٠ مسلم في طرابلس و ١٤٠.٠٠٠ سني وشيعي في الجنوب، فيتشكل منها لبنان مختصر لكنه يتمتع بأكثرية نصرانية تصل إلى ٨٠ % ، وبذلك يتمتع اللبنانيون بسهل البقاع ما يمكنهم من سد حجاتهم الزراعية لدرء خطر المجاعة(3).

اختار الفرنسيون حلاً مختلفاً لا يرتكز على القسمة النصرانية / المسلمة، بل على تعريف اللبنانيين بأنهم أقليات دينية تتكون من طوائف ومذاهب متعددة. فأمنت الأكثرية المارونية في الحكم لاعتبارها الطائفة الأكبر عدداً بين الطوائف اللبنانية حسب الإحصاء السكاني(4) الذي

---

(1) أحمد طربين: الوحدة العربية،ص٥٩ـ٦٠.

(2) فواز طرابلسي : المرجع السابق، ص١٥٣ ؛ محمد النقاش: الثورة اللبنانية..والغزو السوري، (مجلة الآداب، بيروت، العدد ٤ ؛ السنة ٢٤، إبريل ـ مايوـ يونيو ١٩٧٦م)، ص٢.

(3) فواز طرابلسي : المرجع السابق، ص١٥٣.

(4) يفيد إحصاء عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م بأن النصارى يتمتعون بأكثرية ضئيلة جداً إذ بلغ عددهم ٤٠٢.٠٠٠ مقابل ٣٨٣.٠٠٠ للمسلمين. أما توزيع السكان بحسب الطوائف فهو كالآتي: الموارنة ٢٢٦.٠٠٠(٢٨%)، الروم الأرثوذكس : ٧٦.٠٠٠ (١٠%) ، الروم الكاثوليك: ٤٦.٠٠٠ (٦%) هذا بالنسبة للنصارى، أما بالنسبة للنصارى من الطوائف الأخرى فإنهم يشكلون : ٥٣.٥٠٠ (٧%). أما المسلمين السنة : ١٧٦.٠٠٠ (٢٢%)، الشيعة: ١٥٤.٠٠٠ (٢٠%)، الدروز:٥٣.٠٠٠ (٧%)، وبذلك يبلغ مجموع سكان لبنان ٧٨٥.٠٠٠ نسمة. وظل هذا الاحصاء معمول به حتى سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م. انظر: فواز طرابلسي: المرجع السابق، الحاشية رقم ٣، ص١٨١ ؛ مسعود ضاهر: لبنان الاستقلال، الميثاق والصيغة ، التاريخ الاجتماعي للوطن العربي، (معهد الإنماء العربي، طرابلس ـ بيروت، ط١، ١٩٧٧م)، ص٩ .

أجري في لبنان عام١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م([1]). وبذلك تمكنت سلطات الانتداب الفرنسي من صبغ لبنان بالصبغة المارونية، وذلك بجعل رئاسة الجمهورية محصورة في الطائفة المارونية ذات الأكثرية العددية بين الطوائف، مما أدى إلى تدعيم النزعة الإقليمية الطائفية التي هي من أسوأ ما أحدثه الاحتلال الفرنسي في لبنان([2])، حيث وقفت هذه الفكرة الطائفية كالسد المنيع في وجه الوحدة العربية والإسلامية بين الأشقاء العرب والمسلمين في لبنان.

ولجأت السلطات الفرنسية إلى تدابير خبيثة، فأشاعت بين صفوف طائفتي الشيعة والدروز أن الفكرة العربية باتحاد سوريا مع لبنان من صنع المسلمين السنة، وأن نجاحها سيقضي على مصالحهم وإمتيازاتهم، ويمحو شخصيتهم وتقاليدهم التي لا يصونها إلا كيان طائفي لبناني. وكان من الطبيعي أن تجد هذه الدعوة الهدامة صدى بين بعض قادة الطوائف الشيعية والدرزية، لأنها تتمشى مع أهوائهم وترضي أطماعهم، حتى أن جانباً من المسلمين السنة والشيعة والدروز الذين كانوا من أنصار الفكرة العربية والوحدة العربية، أوقفوا نشاطهم في سبيلها([3]).

وفي الحقيقة لابد أن نشير إلى أن الانتداب الفرنسي حاول بشتى الوسائل زرع الفتنة بين الطوائف اللبنانية رغم أن المسلمين حاولوا منذ بداية عهد الانتداب الامتزاج بلبنان الكبير على أن يتساووا مع النصارى، وعلى أن ينالوا حقوقهم وألاّ يشعروا بالتمايز بينهم وبين سواهم، وعقدوا المؤتمرات المتلاحقة منذ عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م وحتى عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م من أجل تحقيق الوحدة أو تحقيق المساواة والعدالة بين جميع الطوائف اللبنانية([4]) إلا أن هذا المطلب لم يتحقق مما جعل لبنان منذ عهد الانتداب الفرنسي وحتى اليوم يموج في الإضطرابات والحروب الأهلية والطائفية التي جعلت البلاد غير مستقرة، وهذا من الآثار السلبية للانتداب الفرنسي على لبنان والتي يمكن أن نتلمسها في الوقت الحاضر.

وفي نهاية المطاف نجد أن لبنان الكبير كان يخدم المصالح الفرنسية أولاً وأخيراً باعتباره منفذاً للداخل السوري والعربي، دون أن يلغي الوجه الطائفي الماروني، وقد جاء هذا الكيان متوافقاً مع الرغبة المارونية العامة بتوسيع حدود الجبل، لكنه كان يحمل منذ ولادته بذور ضعيفة، باعتباره يضم مجتمعين مختلفين من حيث الميول السياسية والمعتقدات الدينية والتركيب الاجتماعي والاقتصادي، فولاء النصارى بوجه عام وخاصة الموارنة كان لفرنسا، وكان هذا الولاء يزداد بتأثير رجال الدين الموارنة، وفي مقابل ذلك كان يزداد عداء المسلمين للانتداب

([1]) فواز طرابلسي : المرجع السابق، ص١٥٣.

([2]) أحمد طربين: الوحدة العربية، ص٦٠.

([3]) المرجع السابق ، ص٦٠.

([4]) حسان حلاق : مؤتمر الساحل..، ص٣٧.

ويزداد رفضهم للكيان اللبناني([1]). لذلك خلق انسحاب فرنسا من سوريا ولبنان([2]) بعد الحرب العالمية الثانية أزمة في السياسة اللبنانية، وزاد ضغط فكرة الوحدة العربية داخل لبنان، فالمسلمون في لبنان لم يثقوا قط بالدوافع التي أدت إلى خلق لبنان منفصلا عن سوريا، لذا لم تشدهم إلى وطنهم الروابط والمشاعر نفسها التي كانت عند إخوانهم في الدين في سوريا([3]). لذلك قامت العديد من الحروب الأهلية بين الأشقاء اللبنانيين، بسبب ما تركه الانتداب الفرنسي على الحالة السياسة في لبنان بخلق دولة لبنان الكبير بناءً على طلب بعض الموارنة اللبنانيين.



" أثر الانتداب الفرنسي على المظاهر الحضارية في سوريا ولبنان(١٣٤٢-١٣٥٩هـ/١٩٢٤-١٩٣٩م)"

المبحث الأول: أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاقتصادية.

المبحث الثاني: أثر الانتداب الفرنسي على المؤسسات التعليمية

([1]) سعيد مراد: المرجع السابق، ص١٨٧ــ١٨٨.

([2]) انسحاب فرنسا من سوريا في ١٤ جمادى الأولى ١٣٦٥هـ/١٥ إبريل ١٩٤٦م، ومن لبناني ٧ صفر ١٣٦٦هـ/٣١ ديسمبر ١٩٤٦م. انظر: ناجي بزي: المرجع السابق، ص٨٤ ؛ آندرو راثمل : المرجع السابق، ص١٣ ؛ أحمد طربين: التجزئة العربية...، ص١٥٧ــ١٥٩.

([3]) برنارد لويس: المرجع السابق ، ص١٦٤.

والثقافية.

المبحث الثالث: أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاجتماعية.

المبحث الأول: أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاقتصادية.

من المعروف أن من أهم الأهداف التي عملت على تحقيقها كلٌ من بريطانيا وفرنسا من احتلال المشرق العربي هي: أولاً تمزيق المسلمين وإبعادهم عن الشريعة الإسلامية التي هي مصدر قوتهم ووحدتم، وذلك من أجل تحقيق هدفهم الرئيسي الثاني وهو استغلال هذه الشعوب واستنزاف خيراتها الاقتصادية. فقد قامت كلٌ من فرنسا وبريطانيا بإخضاع بلاد الشام اقتصادياً بعدما فشلت في إخضاعها سياسياً وقهر إرادة شعبها بالقوة، فكان أسلوب الإخضاع الاقتصادي واللجوء إلى الحرب الاقتصادية هو السبيل الوحيد في إضعاف مقاومة هذه الشعوب، والتأثير على صمود الثوار والمجاهدين للتراجع عن روح المقاومة، التي لم تهدأ في يوم من الأيام منذ نزل أول جندي أجنبي على أرض بلاد الشام، وحتى خروج آخر جندي منها، ولازلنا نجد أن الشعب العربي في بلاد الشام يناضل بكل الطرق لإخراج المستعمر الأجنبي من بلاده.

فالبترول الذي أصبح منذ بداية القرن العشرين من أهم مطالب العالم، حتى أنه غدا من الضرورات الأولية لكيان الدول العالمية، كان من أهم العوامل التي اجتذبت انجلترا إلى العراق وفلسطين وإيران، ومتى كانت بريطانيا موجودة في هذه المناطق، ففرنسا لا يمكنها أن تتخلى عن بقعة مجاورة لها ترتكز إليها وتتخذها كقاعدة لحماية مصالحها(١) من منافستها التقليدية

---

(١) غوردون كاننج: "الانتداب في البلدان العربية"، (مجلة المنار، ج٨، المجلد ٣٠، ٣٠ رمضان ١٣٤٨هـ/ ١

بريطانية، وهذا ما تم الاتفاق عليه بين الحلفاء الأعداء التي جمعت بينهما المصالح المشتركة في المشرق العربي(فرنسا وبريطانيا)، فقاموا بتقسيم غنيمة الحرب العالمية الأولى بينهما بموجب اتفاقية سايكس بيكو.

لقد غير الاستعمار الأوربي طرق التجارة في بلاد الشام. فصار محور بيروت ـ دمشق من الطرق الرئيسية للتجارة في شرق البحر المتوسط. بالإضافة إلى تولي فرنسا القسط الأوفر من تصدير الحبوب من الداخل السوري، حيث كانت صادرات بيروت الرئيسية هي الحرير الخام، والذي كان يصدر إلى فرنسا، بينما كانت واردات بيروت الرئيسية هي الأنسجة القطنية المصنعة والتي كانت تستوردها من بريطانيا، حيث اكتسحت الأسواق في سوريا ولبنان، مما أدى إلى تقلص الحرف التقليدية والإنتاج المحلي، فأصبحت واردات بلاد الشام (في سوريا ولبنان) أكثر من صادراته([1]).

أ ـ أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاقتصادية في سوريا:

لم يكتف المستعمر الفرنسي بالهيمنة والسيطرة السياسية وإخضاع الشعب السوري بقوة السلاح، بل كان هدفهم أيضاً السيطرة الاقتصادية ونهب الثروات والموارد الطبيعية، فقد ركز الفرنسيون بعد احتلال سوريا على الاستفادة من البلاد كمنطقة استراتيجية هامة في المشرق العربي وفي شرق البحر الأبيض المتوسط، وكنافذة على قارة آسيا، إضافة إلى كونها منطقة مجاورة لمنطقة النفوذ البريطاني(في العراق وفلسطين وشرق الأردن)، وهذا الموقع الاستراتيجي أدى إلى استغلال الانتداب الفرنسي لسوريا خاصة وتحويلها إلى مصدر دخل كبير، لتعويض فرنسا ما خسرته من نفقات مادية ومعنوية بعد الحرب العالمية الأولى، ومدها بما تحتاج إليه لتقوية اقتصادها المنهار نتيجة الحرب.

وكما عانى الاقتصاد العالمي من نتيجة الحرب العالمية الأولى فقد عاني الاقتصاد السوري كثيراً من تداعيات هذه الحرب، فقد توقفت حركة التجارة، وتراجعت الصناعة واجتاحت المناطق الداخلية المنتجة للحبوب المجاعة والجراد إلى جانب الحصار الاقتصادي الحاصل نتيجة الحرب، لذلك اضطر كثير من السوريين إلى ترك بلادهم، والبحث عن الثروة في العالم الغربي، لكنهم ظلوا على صلة بأرض أجدادهم حتى أن الكثير من المناطق السورية كانت تعيش على

مارس١٩٣٠م)، ص٦٠١ ؛ رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٢٣ـ٢٤..

([1]) فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص ٩٤.

منح المغتربين، وكان الأمل كبير في عودة الآلاف إلى بلادهم في حالة تغير الظروف السياسة والاجتماعية والاقتصادية، حتى يشاركوا في نواحي الحياة المختلف، لذلك كان على الحكومة العربية في دمشق أن تعيد بناء البلاد الاقتصادي من جديد بعد خروج العثمانيين منها([1]).

وعندما دخلت القوات العربية والبريطانية إلى دمشق في ذي الحجة ١٣٣٦هـ/أكتوبر ١٩١٨م، بقيادة الأمير فيصل وأعلن قيام الحكومة العربية في دمشق([2])، كانت العملة المستعملة في البلاد هي الليرة العثمانية الذهب، وتنقسم إلى ١٠٠ قرش، وكانت تعادل الليرة العثمانية ثمانية وسبعين وثلاثة أرباع قرشاً مصرياً . وبعد سقوط الدولة العثمانية اتخذت القيادة العليا لحكومة فيصل بن الحسين أمراً باستبدال العملة العثمانية بالجنيه المصري([3])، وأصبح الجنيه المصري هو العملة المتداولة في سوريا، وقد أدى اعتماد الجنيه المصري إلى تسهيل الدفع والقبض وتدني قيمة
سائر النقود العثماني المعدنية(البشالك والمتاليك وهي أجزاء الليرة)([4]).

عندما دخلت الجيوش العربية والإنجليزية دمشق وخاصة في سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٩م والأشهر الأولى من عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م كانوا ينفقون بلا حساب حتى أن الجيش البريطاني أنفق ما يقارب الثلاثة ملايين جنيه مصري([5]) في محاولة منه لاستمالة الشعب السوري في صفه.

كما كان لإحلال الورق المصري محل الذهب دافعاً لبعض التجار لتهريب الذهب من المنطقة الشرقية(سورية الداخلية) واستبداله بالورق المصري أو الروبية الهندية وإرسالها بحوالات إلى لندن. وحرصاً على ثروة البلاد من الذهب صدر قرار من الجنرال اللنبي بمنع تصدير الذهب نقوداً أو سبائك من أرض العدو المحتلة وإلا تعرض الذهب للمصادرة، وعلى كل من اعتزم السفر أن يبلغ بما في حوزته من الذهب ويستبدله بعملة قانونية. لأن الاستمرار في إخراج الذهب من سوريا يلحق أضراراً فادحة بالثروة العامة، إذ تفقد المالية عمادها الحقيقي وهو الذهب، واحتج بعض التجار إلى الحكومة على خروج مالا يقل عن ٢٠٠.٠٠٠ ليرة شهرياً

([1]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية..، ص٢١٦.

([2]) محمد م. الأرناؤط : دراسات حول الحكومة / الدولة العربية في دمشق ١٩١٨ـ١٩٢٠م، (دار الشروق للنشر، عَمان، ط١، ٢٠٠٠م)، ص٣٥ ؛ الكولونيل لورنس: الثورة العربية، تعريب شعبان بركات، (الأهلية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، ص٢١٣؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربية..،، ص٣٣ و ٤٧.

([3]) لأن بريطانيا هي التي كانت تسيطر على مصر، وحكومة فيصل كانت تتبع بريطانيا.

([4]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية..، ص٢١٦ـ٢١٨.

([5]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٥٦.

من دمشق، وأضعافها من حلب([1]) وهذا ما دعا وزارة المالية إلى دراسة مشروع تأسيس مصرف وطني يكون الذهب أساس التعامل فيه([2]).

وعلينا أن نشير هنا إلى أن الناس في سوريا بعد الحرب كانوا يشترون العملات الدولية مثل: الكورون النمساوي والمارك الألماني والفرنك الفرنسي والروبل الروسي والشلن الإنجليزي وأوراق النقد التركية وغيرها من العملات الأجنبية على اختلاف أنواعها، لتدني أسعارها نتيجة الحرب، على أمل أن ترتفع بعد الحرب فيحصلون على ثروة طائلة، لكن أهل الشام، وخاصة دمشق أصيبوا بصدمة عنيفة فقد تكدست عندهم كميات كبيرة من الأوراق النقدية المختلفة التي طرأ عليها النزول العظيم، وأصبح قسم منها في حكم المعدوم مثل الروبل الروسي والكرون النمساوي والمارك الألماني وغيرها، فكانت خسارة بلاد الشام وخاصة دمشق وضواحيها كبيرة، حيث تقدر بخمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية لم تعوض منها شيء([3]).

ولذلك صدر في رجب ١٣٣٨هـ/إبريل ١٩٢٠م قانون النقد السوري باعتبار معيار النقد في المملكة العربية السورية هو الذهب، ووحدة القياس هو الدينار السوري الذهبي([4]) الذي نقش على أحد وجوهه (فيصل الأول) وعلى الوجه الثاني (دينار المملكة السورية ١٩٢٠)، ويحسب الدينار بمئة قرش سوري، أما الريال السوري هو سكة فضية وقيمتها ٢٥ قرشاً سورياً وأعشار القرش وتضرب بالنيكل، وينص القانون على تداول جميع المسكوكات الذهبية الأجنبية في المملكة السورية بقيمتها الحقيقة، على نسبتها للدينار السوري بالوزن والمعيار، كما يجوز قبول المسكوكات الفضية والنيكل العثماني، والأوراق النقدية الصادرة عن المصرف الأهلي المصري بسعرها الرائج على نسبتها للدينار السوري، حتى تضرب الحكومة السورية ما يقوم مقامها([5]).

عمدت السلطات الفرنسية في الساحل على إنشاء فرع للبنك العثماني في بيروت وهو عبارة عن مؤسسة فرنسية ساهم في إنشائها بعض البنوك في باريس([6])، وأطلقت عليه سلطات

([1]) علينا أن نلاحظ هنا أن حلب هي أقرب مدينة لتركيا وتهريب الذهب إليها دليل على ارتباط الناس بالدولة العثمانية، على اعتبار أنها كانت في يوم من الأيام هي الدولة الأم التي كانت تحافظ على مصالح المسلمين، فبعد دخول فرنسا وبريطانيا إلى بلاد الشام، شعروا فعلاً بمعنى الاستعمار الحقيقي، وأن الدعاية التي كان يطلقها دعاة القومية العربية ضد الدولة العثمانية بأنها دولة مستعمرة ما هي إلا خدعة.

([2]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية ، ص٢١٨ـ٢١٩.

([3]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٥٦ـ٢٥٧ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٠٥.

([4]) انظر ملحق الصور الملحق رقم ٢.

([5]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية ، ص٢١٨ـ٢١٩.

([6]) للمزيد من المعلومات حول هذا البنك انظر : بدر الدين السباعي: أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية

الانتداب اسم بنك سوريا (أو مصرف سوريا المركزي)([1])، وقد نال مؤسسوه فوائد عظيمة كـان يضرب فيها المثل في فرنسا، وكان أصحاب رؤوس الأموال الفرنسية يقومون بالإشراف التـام على النظام المصرفي والعمليات النقدية داخل البلاد([2]).ووافق المفوض السامي الفرنسي بالاتفاق مع الخزينة الفرنسية على إصدار أوراق نقدية اعتباراً من يوم السبت ١٢ شـعبان ١٣٣٨هـ/ أول مايو ١٩٢٠م مرتبطة بالفرنك الفرنسي الآخذ بالهبوط، وكانت الليرة السورية مدفوعة مقابل ٢٠ فرنكاً فرنسياً والفرنك يساوي خمسة قروش سورية، وكانت تستعمل في سوريا ولبنـان([3])، على أن ترفع العملة المصرية من التداول([4])، ومن هنا بدأ التأثير الفرنسي السلبي على الاقتصاد السوري.

أدركت الحكومة السورية الخطر الاقتصادي الناجم عن تداول هذه الأوراق النقدية، لأنهـا تعني استبدال الأوراق بذهب البلاد وهذا ينافي قواعد الحقوق الدولية ــ التي بالطبع لم يكن لهـا بالنسبة للدول المستعمرة أي اعتبارـ، كما أن هذا يعني تدخل فرنسا في التصرف في مقـدرات البلاد الاقتصادية، لذلك أنكرت الحكومة السورية على السلطات الفرنسية حـق هـذا الإصـدار ومنعت إدخالها إلى سوريا، واحتجت على تداول هذه الأوراق في المنطقة الغربيـة (لبنـان)([5])، وتذكر خيرية قاسمية أنها وجدت بين مجموعة أوراق عوني عبد الهادي مسودة احتجاج أرسلتها الحكومة العربية إلى السلطات الفرنسية في بيروت بمناسبة إصدار الأوراق المالية باسـم النقـد السوري، وهو في الحقيقة ليس بسوري، لأن هذه الأوراق المالية لم تخرج من جهـة الحكومـة

(١٨٥٠ــ١٩٥٨م)، (دار الجماهير، دمشق، ١٩٦٧م) ، ص٩٦ــ١٠٦.

([1]) تذكر خيرية قاسمية أن البنك اسمه بنك سوريا ولبنان، لكن من الواضح من إنذار غور أن اسم البنك كان بنـك سوريا المركزي، ثم تحول بعد ذلك إلى بنك سوريا ولبنان بعد تكوين دولة لبنان الكبير، حيـث أصـبح للبنـان وضع خاص. فأضيف اسم لبنان للبنك. انظر: خيرية قاسمية: الحكومة العربية ، ص٢١٩ ؛ أمين سعيد: الثـورة العربية...، ج٢، ص١٧٧

([2]) انظر صور بعض العملات التي كانت مستخدمة زمن الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان في ملحق الصور الملحق رقم ٣.

([3]) يذكر أسعد الكوراني في كتابه: أن المحلات التجارية في أواخر العهد العثماني كانت تتعامل بالعملات الأجنبية مثـل الفرنسية والإنجليزية كالعملة العثمانية سواء بسواء. انظر: ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفعلت، ص٢١.

([4]) نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٣١ ؛ خيرية قاسمية: الحكومة العربيـة ، ص٢١٩ ؛ محمـد هـواش: المرجع السابق، ص١٤٤ ؛ بدر الدين السباعي: المرجع السابق، ص٩٥ــ٩٧.

([5]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية ، ص٢١٩ــ٢٢٠ ؛ مركز النشر اللبناني في وزارة الإعلام: حكاية النقـد فـي لبنان منذ العهد العثماني حتى عهد الاستقلال، (مجلة تاريخ العرب والعالم، دار النشر العربية ، بيروت ، العـدد ١٩، السنة ٢ ، جماد الآخر ١٤٠٠هـ/ مايو ١٩٨٠م)، ص٧٤ــ٧٥.

السورية، بل من جهة جيش الاحتلال الفرنسي، وأن الحكومة العربية في سوريا سوف تمنع تداولها، لأن السلطات الفرنسية لم تأخذ موافقة الحكومة العربية عليها([1]).

وكانت هذه النقطة من ضمن الحجج التي تذرع بها الجنرال غورو لغزو سوريا، وذلك عندما أرسل إنذاره إلى الملك فيصل في ٢٨ شوال ١٣٣٨هـ/١٤ يوليو ١٩٢٠م وكان يتضمن خمسة شروط من ضمنها قبول العملة التي فرضتها الإدارة الفرنسية والتي أصدرها البنك السوري الذي أسسته فرنسا وجعله نقداً رسمياً في البلاد، وسحب العملة الفيصلية من البلاد([2]).

وعندما احتلت فرنسا سوريا بعد معركة ميسلون فرضت على البلاد العملة السورية الجديدة، ويذكر المسيو هنري دي جوفنيل أن البنك السوري كان يعتبر سوريا ملكاً له، فقد كانت الحكومات المتعاقبة في فرنسا يطلب منها على الدوام تجديد إمتيازات هذا البنك، لما يحققه لفرنسا من مكاسب تخدم المصالح الفرنسية، وتضر باقتصاد سوريا الوطني، على إثر ربط النقد السوري بالنقد الفرنسي([3])، فقد تبع النقد السوري خطوات النقد الفرنسي في أزماته الشديدة المتوالية بعد الحرب، فجر على السوريين خسائر جسيمة، طالما تصاعدت شكواهم منها، فسحب الذهب والقيم النقدية الكبيرة كالجنيهات المصرية والجنيه الإسترليني (العملة البريطانية)، جعل الحكومات السورية
المتعاقبة زمن الاحتلال تطالب دائماً وأبداً بالإصلاح النقدي، بحيث تضعه في مقدمة خططها([4]).

إن سوء السياسة الاقتصادية الفرنسية في سوريا أدى إلى خلق حالة من عدم الاستقرار وتقهقر في الاقتصاد السوري، وذلك بسبب ربط العملة السورية بالعملة الفرنسية، حتى أن لجنة الانتدابات قدمت تقريراً إلى مجلس العصبة في اجتماعها الاستثنائي الذي عقدته في روما في الفترة من ٣ـ٢١ شعبان ١٣٤٤هـ/١٦ فبراير إلى ٦ مارس ١٩٢٦م، ذكرت فيه أن سياسة الانتداب النقدية سوف تؤخر استعداد البلاد السورية للاستقلال، حيث أنها لا يمكن أن تحصل على الاستقلال السياسي، قبل أن تستقل في الشؤون المالية والنقدية([5]).

([1]) الحكومة العربية ، الحاشية ١ ، ص٢٢٠ ؛ .

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية...، ج٢، ص١٧٧ ؛ صبحي العمري: ميسلون، ص١٢١ـ ١٢٢ ؛ مجلة المنار: ج٦، المجلد ٢٢، ص٤٦٦ـ٤٦٧.

([3]) نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٣١ـ٣٢ ؛ بدر الدين السباعي: المرجع السابق ، ص٩٥ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٤٢.

([4]) نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٣٢ ؛ جلال يحيى: العالم العربي..، ج٢ ، ص٢٥٧.

([5]) نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٣٣ ؛ محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٤.

لم تقتصر سلطات الانتداب الفرنسي استغلالها لاقتصاد البلاد على إنشائها للبنك السوري، بل أنها أخذت في استثمار البلاد لمنفعتها الخاصة، على الرغم من أن صك الانتداب ينص على أن" لا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام"([1])، وعدم استثمار البلاد لمنفعة الدولة المنتدبة، لكن حكومة الانتداب كانت لا تبرح تستخدم سلطتها في مساعدة الشركات الفرنسية وأصحاب الامتيازات من الفرنسيين بكل ما لديها من قوة، وقد انحصر دور نشاط أصحاب رؤوس الأموال الفرنسية بشكل رئيسي بتسهيل عمليات التجارة الخارجية في إقامة مؤسسات ذات طابع اقتصادي استعماري مهمتها تصدير المواد الأولية إلى فرنسا، وتحقيق الأرباح الكبيرة على حساب سورية والعمل على إفقارها وربط اقتصادها بالاقتصاد الاستعماري وتحويل البلاد إلى سوق للمنتجات والبضائع الفرنسية. مما أدى إلى إضعاف الصناعات السورية، وانتشار المصنوعات الأوربية وخاصة الفرنسية، فزادت البطالة التي أدت إلى مزيد من التدهور الاقتصادي([2]). لذلك نجد أن الانتداب الفرنسي أثر بشكل سلبي على حالة البلاد الاقتصادية، وقام باستغلالها أسوأ استغلال من أجل إعمار فرنسا التي خرجت من الحر ب العالمية الأولى منهكة اقتصادياً، على حساب الشعب السوري الواقع تحت سيطرتها.

كما زادة الأعباء الاقتصادية على سوريا في ظل الانتداب الفرنسي، بسب عدم تمكنها من فرض سيطرتها على سواحلها الطبيعة في البحر المتوسط وضمها إلى ما عرف باسم لبنان الكبير، وسيطرت بريطانيا على فلسطين، مما حرم سوريا الداخلية من الرسوم الجمركية، التي كانت تعتبر المورد الرئيسي للخزينة السورية، كما رفعت التعرفة الجمركية وقامت بتنظيم الاتفاقات الجمركية، بحيث تعرقل عملية تصدير المنتجات المحلية ، فتوقفت كثير من الـــــــــــــــصناعات السورية الحرفية

والمنزلية وغيرها([3]).

وفي١٩ محرم ١٣٤٠هـ/٢٢ سبتمبر ١٩٢١م عقدت المفوضية الفرنسية العليا في سوريا مع المفوضية الإنجليزية في فلسطين اتفاقاً لتأسيس جباية الجمارك على البضائع التجارية التي تتبادل بين منطقة نفوذ كلا الدولتين في بلاد الشام، ووضعت سلطات الانتداب الفرنسي والبريطاني الحواجز الجمركية ودوائر المكس([4]) على الحدود وداخل البلاد، لما تقتضيه هذه

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية...، ج٣ ، ص٢٣٣.

([2]) نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٣٢ ؛ جلال يحيى: العالم العربي..، ج٢ ، ص٢٥٧.

([3]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية ، ص٢٢٠ــ٢٢١.

([4]) مكس أو مكوس أي ما نسميه اليوم الرسوم الجمركية، وهي ضرائب تفرض على السلع التي تستوردها دولة من أخرى، تؤدي إلى رفع أسعار السلع المستوردة، وزيادة إيرادات الحكومة المنتدبة. انظر: سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٠٢.

الجباية بين جنوب البلاد وشمالها وشرقها، خاصة وأن دمشق كانت من قبل مركزاً عظيماً لتصدير البضائع والمصنوعات الوطنية إلى الحجاز وفلسطين وشرق الأردن والعراق والأناضول، بحرية تامة بلا قيد أو شرط، ولكن بوجود هذه الحواجز الجمركية أصبحت دمشق بمعزل عن هذه البلاد المجاورة لها، مما كاد أن يقضي على هذه المصنوعات وعلى تجارها وعمالها([1]).

وعلى إثر ظهور هذه الحواجز الجمركية التي وضعتها سلطات الانتداب، اجتمع عدد كبير من تجار دمشق ليتدارسوا قضية هذه الحواجز وأضرارها على التجارة والصناعة، وقرروا أن ينتخبوا لجنة من كبار تجار البلاد مؤلفة من عشرة أشخاص للعمل على حل هذه القضية، فبدأت اللجنة عملها بأن قدمت تقريراً مطولاً لسلطات الانتداب الفرنسي، بينت فيه مقدار الأضرار التي تنتاب الصناعات الوطنية المتنوعة في بلاد الشام عامة، من وضع هذه الحواجز الجمركية، وضمنت التقرير إحصاءً دقيقاً في أنواع هذه الصناعات ومقدار النفوس والأموال والقيم المقدرة للأنواع المصدرة، خلاصته أن في مدينتي دمشق وحمص نحو ١٠.٢٦٠ نولاً (أنواع النسيج المختلفة) يشتغل بها ٤٦.٢٦٠ عاملاً، وهذه الأنوال تخرج مقدار ٤.٥٦٨.٥٠٠ قطعة قماش، قيمتها ثلاثة ملايين ليرة عثمانية ذهب، وفي مدينتي حماة وحلب مثل هذا المقدار من الأنوال والعمال لمختلف الصناعات المحلية التي هي برسم التصدير إلى المناطق المجاورة، وتابع التقرير البيانات التي بين فيها الأضرار السياسية والإدارية والاقتصادية التي تعود على البلاد، وقدمت اللجنة احتجاجاً مطولاً على الحالة التي آلت إليها البلاد من جراء وضع هذه الحواجز الجمركية([2]).

وقد تلخص التقرير في الآتي :

أولاً: إنه ليس من مصلحة سوريا وفلسطين إلغاء الاتحاد الاقتصادي وفصل إحداهما عن الأخر هذا الفصل المضر، لأنه يقلل العلاقات التجارية ومبادلات الأعمال بين المنطقتين، وهذا سوف يؤدي بالتدريج إلى انقسام هذه الأمة الواحدة إلى أمتين، ويؤدي إلى تباعد المشارب وتباين الأطوار وانحلال الروابط بينهما تدريجياً إلى أن يصبح البون شاسعاً وتضعف عرى الألفة بين الاتحادات المستقرة الآن، والصلات التجارية والمعاملات المدنية هي العروة الوثقى التي تربط بين الشعوب وتقارب بين القلوب، والحواجز الجمركية هي الضربة القاضية على هذه المعاملات

([1]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٥٧ــ٢٥٨ ؛ باترك سيل: الصرع على سورية دراسة للسياسة العربية بعد الحرب ١٩٤٥ــ١٩٥٨م، ترجمة سمير عبده ، محمود فلاحة ، (دار طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، ط٧، ١٩٩٦م)، ص١٩ــ٢١.

([2]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٥٨ ؛ سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٠٠.

والصلات، ولما كان السوريون لا يختلفون في شيء عن الفلسطينيين، كما أن الفلسطينيين يحسبون أنفسهم قسماً من الشعب السوري، فجميعهم لا يرضون أن تفتح بينهم هذه الهوة العميقة التي تقوض أركان وحدتهم، وتقضي على كل أمل لهم في الوحدة الوطنية، لذلك هم يرجون من الدولتين المحتلتين(فرنسا وبريطانيا) ألاّ يعاونا الدهر على تفرقتهم والإيقاع بينهم([1]).

وعلى الرغم من قسوة الاحتلال إلا أن أهل الشام كان عندهم بصيص أمل من أن تتراجع حكومة الانتداب عن سياستها الاقتصادية الاستعمارية الخانقة، وأن يكتفي العدو المحتل بسيطرته على النواحي السياسة من تقسيم وتجزئه، وأن يتركوا للشعب العربي المسلم في بلاد الشام حرية التنقل، حتى يتمكن من كسب رزقه وقوت يومه، لكن هيهات أن يستجيب المستعمر الغاصب لمثل هذه النداءات، لأنه لم يأت لهذه البلاد إلا لتجويع أهلها وخنقهم اقتصادياً حتى ينشغلوا عنهم وعن مقاومتهم في السعي وراء لقمة العيش، بينما يعمل أعداؤهم على نهبهم واستغلال ثوراتهم من أجل مصالحهم الشخصية وإثراء شعوبهم في فرنسا وبريطانيا حتى لا تثور عليهم.

ثانياً: أن الحواجز الجمركية الموضوعة عرضة لصعوبات عظمى في ضبطها وجبايتها، لأن الطرق مفتوحة على طول الحدود بين سوريا وفلسطين تجتازها الجمال والبغال وسائر حيوانات النقل في الليل والنهار، ولا سبيل لمنع التهريب منها، وقد يكون المهرب من التجارة أكثر مما يمر بإدارة الجمرك ، فتكون النتيجة أن الذي يتمكن من تهريب بضائعة يزاحم التاجر الأمين الذي يؤدي جمركها المفروضة عليه، وينتج عن ذلك القتال بين المحافظين والمهربين للفرار بأموالهم، كما أن هذه الحواجز الجمركية تؤدي إلى إفساد أخلاق الموظفين الذين يعملون على جبايتها فتح باب الرشوة للاشتراك مع المهربين([2])، وهذا يؤدي إلى إفساد إدارة البلاد، وهذا ما فعله المستعمر في البلاد بالفعل حتى بعد خروجه منها، فقد ظلت عادة الرشوة في بعض دول الشام باقية حتى بعد خروج الاستعمار منها.

كما كتب لطفي الحفار في صحيفة "سورية الجديدة" مقالاً عنيفاً ونشره باسم تجار دمشق، لأنه كان عضواً في إحدى اللجان المنبثقة عن المنتدى التجاري، وأوضح فيه بالأرقام الأضرار التي ستنجم عن الاتفاقية الجمركية لكونها تمس الصادرات والواردات والصناعات السورية من جراء الحواجز التي أقرتها الاتفاقية بين سوريا وفلسطين وشرق الأردن، كما أنه في سوريا أكثر من مئتي صناعة معروفة منذ القدم، حياتها وحياة عمالها متوقفة على سهولة التبادل التجاري

([1]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٥٨ــ٢٥٩.

([2]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٥٩.

بينها وبين البلاد المجاورة لها، لذلك ليس من مصلحة فلسطين وسوريا السياسة والاقتصادية وضع حواجز جمركية فيما بينهما([1]).

إن هذه الاتفاقية الجمركية بين فرنسا وبريطانيا منافية للحقوق الدولية، لأنها لم تأخذ فيها رأي الشعوب القاطنين في مناطق نفوذ هاتين الدولتين، بالإضافة إلى أنها تضر بمصلحة الشاميين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويهدم عمران البلاد، ويؤدي بالتجارة والصناعة المحلية إلى الكساد، ويضعف العلاقات التجارية الشامية مع أوربا، مما يؤدي إلى تقهقر الصناعة في سوريا ولبنان([2]).

وكانت نتيجة الاحتجاجات المتتالية لهذه الاتفاقية أن أرسلت المفوضية العليا في بيروت إلى دمشق لجنة من الخبراء في المسائل الاقتصادية للاجتماع باللجنة التجارية، وبعد عدة جلسات اقتنعت لجنة الخبراء الفرنسيين بوجهة نظر اللجنة التجارية، القائلة بأن تكون الجمارك في سوريا من العريش والحجاز جنوباً إلى الاسكندرونة والأناضول شمالاً، ومن العراق شرقاً إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط غرباً مقتصرة على الثغور البحرية، على قاعدة الجمارك المشتركة([3]). وعلى هذا الأساس عدل الاتفاق الجمركي بين سلطتي الانتداب الفرنسي والبريطاني، وحل محله اتفاق آخر عقد بين المفوضتين في سوريا وفلسطين، جعلت فيه الصادرات والواردات بين هاتين المنطقتين حرة غير تابعة لتقاضي الرسوم الجمركية، لكن على التجار أن يدفعوا ١% على قيمة البضائع الصادرة والواردة كرسوم للبلديات، وعلى التجار أن يقدموا قوائم صحيحة بقيمة البضائع الصادرة والواردة، وعلى أساسها يجري الحساب بين إدارة الجمارك في المنطقتين، وعلى قاعدة هذه الجمارك المشتركة عقد اتفاق مع حكومة شرق الأردن([4]).

كما أثر الانتداب الفرنسي سلباً على الحالة الاقتصادية في سوريا عندما قامت سلطات الانتداب بتقسيم سوريا إلى دويلات صغيرة متعددة متنافسة، مما أجهز على الحياة التجارية والاقتصادية، كما كانت تجبر هذه الدويلات على المساهمة في ميزانية قوات الشرق (القوات الفرنسية)، حتى أنها وصلت في عام١٣٤٥هـ/١٩٢٧م إلى ٩٣ مليون فرنك أي ٢٤% من ميزانية القوات المسلحة الفرنسية، كانت تجمع عن طريق الضرائب والغرامات المفروضة على الشعب السوري([5]).

([1]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص٩٩.

([2]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٠.

([3]) سلمى الحفار : المرجع السابق، ص١٠٠.

([4]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٠.

([5]) أمين سعيد: الثورة العربية...، ج٣ ، ص٢٧١ ؛

بعد الثورة السورية الكبرى حاولت الحكومة الفرنسية تعويض خسائرها عن طريق فرض الضرائب الباهظة والرسوم الجمركية، فقد زادت الرسوم الجمركية من ١١% إلى ٢٥% في الفترة من شعبان ــ ذي الحجة/فبراير ــ يونيو ١٩٢٧م([1]).

لقد كانت سياسة التقسيم والتجزئة في مقدمة الأسباب التي أضرت بوضع البلاد الاقتصادي، وأدت بطبيعة الحال إلى زيادة نفقات الإدارة، فضلاً عن استئثار السلطة الفرنسية بالكثير من موارد المصالح المشتركة والجمارك، التي كانت مكوسها تزداد إرتفاعاً، فمنها يقبض الموظفون الفرنسيون الذين يعدون بالمئات رواتبهم الضخمة، كما يتمتعون بمزايا كثيرة بالاضافة إلى كبر أجرهم في داخل سوريا، وتحمل مصاريف أسفارهم وتنقلاتهم ([2])، وكل ذلك على حساب أصحاب البلاد الأصلين واستنزاف خيراتهم.

هذا بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية الخانقة التي مرت بها سوريا بعد الثورة العربية الكبرى والتي استمرت سنتين، فالجفاف والقحط أنهك السكان، مما أضطرهم إلى السفر إلى لبنان أو فلسطين أو الهجرة إلى ما وراء البحار، وأصبح المزارع الصغير بالكاد يجد قوت يوميه، والقطع الزراعية الطويلة أصبحت بالأمتار، فقد وضعت سلطات الانتداب يدها على الكثير من الأراضي([3]).

إن حرية التبادل التجاري أيام الانتداب لم تكن في بلاد الشام إلا بين سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن، فقد كانت الحواجز الجمركية قائمة في بلاد الشام بين سائر جيرانها مثل: العراق والمملكة العربية السعودية ومصر وتركيا، مما كان له أكبر الضرر الاقتصادي على بلاد الشام وخاصة سوريا التي أصبحت معزولة عن جيرانها، فزاد عدد العاطلين عن العمل، وأصبحت صادرات سوريا ثلث وارداتها، فقد قلت واردتها بسبب العزلة والحواجز الجمركية أولاً، وثانياً أن الدول المجاورة كانت تستنكر الانتداب على بلاد الشام ككل، وتأبى فتح أسواقها لبلد محتل، فقد كانت علت العلل وجود الانتداب في بلاد الشام، وظلت سوريا بصفة

محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٣٤٢ ؛ Op. Cit. Philips Khouria: p.246.

([1]) Philips Khouria: Op. Cit. p.246 .

([2]) نجيب الأرمنازي: المرجع السابق، ص٣٣.

([3]) برجيت شيبلر: المرجع السابق، ص٢٣٧ــ٢٤١ ؛ مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية في عهد الانتداب الفرنسي،١٩٢٠ــ١٩٤٣م، (مجلة المستقبل العربي، العدد ٩١، سبتمبر ١٩٨٦م)، ص٣٦.

خاصة وبلاد الشام بصفة عامة معزولة اقتصادياً عن جيرانها فقلت منتجاتها، ونقصت صادراتها ووارداتها، وتدنت مستويات المعيشة فيها، وارتفعت نسبة الفقر([1]).
أما بالنسبة لتركيا فقد كان لها سياسة خاصة تقضي بعدم تشجيع العلاقات التجارية بينهـا وبـين الدول العربية، ولهذا لم تبق تركيا سوقاً لمصنوعات حلب ــ أقرب المدن السورية لتركيا ــ كمـا كان الحال أيام الدولة العثمانية، إلى جانب ذلك إن الصادرات السورية إلى تركية نقصت بدرجـة كبيرة، وذلك بسبب التعرفة الجمركية العالية التي كانت تستوفيها تركيا([2]). فقـد خلقـت ثـورة الشريف حسين أو ما أطلق عليها الثورة العربية تنافر حقيقي بين العرب والترك، لأنهم اشتركوا مع الحلفاء ضدهم في الحرب العالمية الأولى. وعلينا أن نشير هنا إلى نقطة مهمة جداً وهـي أن هذا لحقد لم يكن موجود بين العرب والأتراك أيام الدولة العثمانية، ولكن سياسة الاستعمار هـي التي فرقت بين العرب والترك بإتباعها لمبدأ فرق تسد من أجل إيجاد الخـلاف والتنـاحر بـين المسلمين.

ويمكن أن نوجز الآثار السلبية التي تركها الانتداب الفرنسي على الحالة الاقتصـادية فـي سوريا في القطاعات التجارية والصناعية والزراعية والحرفية منذ بدء الانتداب في النقاط التالي:

١. تقسيم سوريا إلى مناطق ودول، وفك الروابط الاقتصادية بينها، وإرهاق النـاس بكثـرة الضرائب والرسوم الجمركية.
٢. وضع الحواجز الجمركية في شمال البلاد وشرقها وغربها وجنوبها بعد أن كانت دمشق مركزاً لتصدير البضائع والمصنوعات المحليـة إلـى الحجـاز وفلسـطين والعـراق والأناضول، وقد أصبحت نتيجة لذلك في معزل عنها.
٣. الخسائر الكبرى التي لحقت بالبلاد السورية، وبالأخص دمشق من جراء هبوط أسـعار الأوراق المالية المتنوعة التي كانت في أيدي الأهالي([3]).
٤. زيادة الضرائب على عاتق الأهالي الذين أصبحوا لا يطيقون حملهـا بـالنظر لكثرتهـا وتعددها وزيادتها، مع قلة أسباب الرزق وضعف الموارد الاقتصادية([4]).
٥. جعل الضباط والموظفين الفرنسيين يمتازون عن زملائهـم السـوريين، حيـث كـانوا يتقاضون من الرواتب أضعاف ما يتقاضاه زملاؤهم السوريون، وهم يأنفون تعلـم لغـة

([1]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٤ــ١٩٥.
([2]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٣ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.307
([3]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٠٥.
([4]) محمد كرد : المرجع السابق ج٤، ص٢٦٤ــ٢٦٥.

البلاد (اللغة العربية)، مما يضطر الحكومة الفرنسية إلى استخدام جيش من المتـــرجمين لأجل تسهيل معاملات الفرنسيين، مما يكلف خزينة الدولة الأموال الطائلة([1]).

٦. إن انهيار الصناعات اليدوية ودخول الآلات الحديثة أدى إلى زيادة البطالة بشكل كبيـــر، حيث أصبح هناك ما يقارب من ٧٧ ألف شخص في سوريا عاطلين عن العمـــل، هـــذا بالإضافة إلى أن نمو الصناعات الجديدة لم يكـــن بالســـرعة الكافيـــة لاســـتيعاب هـــذه البطالة([2]).

وإن هذا التأخر في عجلة الصناعة يعود إلى دعوة الانتداب الفرنسي إلى تحويل الحـــرف إلى صناعات متطورة، وهذا يصطدم مع السياسة الاقتصادية لفرنسا، والتي أملتها عليها لمصالح الرأسمالية الفرنسية، في تحويل سوريا إلى سوق استهلاكية للبضـــائع المصـــنعة فـــي فرنســـا، ومحاولة احتكار هذا السوق([3])، مما أدى إلى تأخر الصناعات الحرفية، والمتطورة فـــي ســـوريا لمصلحة الصناعات الفرنسية المستوردة.

وقام المستعمرون الفرنسيون بتوزيع الأراضي المشاعة وأراضي الدولـــة علـــى بعـــض الأغنياء وأصحاب النفوذ من أهل البلاد، والسماح لهم وللمـــرابين بشـــراء أراضـــي الأوقـــاف وغيرها، ليزيدوا من المساحات الزراعية في أيديهم، ويحكموا سيطرتهم على الشعب من خـــلال الضغط عليه وحرمانه من لقمة العيش ومصدر العمل والرزق. لقد كانـــت ســـلطات الانتـــداب الفرنسي تساعد الأغنياء وتلزم الفلاحين بالتخلي عن أراضيهم، ما عزز أوضاع هؤلاء وزاد في نفوذهم، وفي المقالب زاد حال الفلاحين بؤساً وحرماناً، فكان المســـتعمرون يصـــادرون القمـــح ويحرمون الفلاحين حتى من قوت يومهم([4]). وهكذا عرقلت السلطات الاستعمارية الفرنسية نمـــو الرأسمال الوطني، وأصبح الرأسمال الأجنبي هو المسيطر على المفاصـــل الرئيســـية للاقتصـــاد الوطني السوري بشكل تام.

ويذكر سعيد العاص ان الذي دفـــع الشـــعب الســـوري بـــالثورة علـــى الانتـــداب فـــي عام١٣٤٣هـــ/ ١٩٢٥م هو الظلم والفقر فيقول: " احتل الافرنسيون سوريا.. وأرادوا أن يجعلوا من سورية مستعمرة.. فسعوا لتطبيق أساليب استعمارهم تحت ستار ما أسموه بالانتداب، فقسموا البلاد إلى دويلات، واستنزفوا أموال الشعب، وأبدلوا الذهب بالورق([5])، وخلقوا في البلاد نعرات

([1]) عبد العزيز العظمة: المرجع السابق، ص٣٨.

([2]) Philips Khouria: Op. Cit. p.397 .

([3]) وجيه كوثراني: من مقدمة كتاب: بلاد الشام : السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية ، (مجلة تـــاريخ العـــرب والعالم، دار النشر العربية ، بيروت، العدد ٢٠ السنة ٢ ، رجب ١٤٠٠هـــ/ يونيو ١٩٨٠م)، ص٦٥.

([4]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٢٦ ؛ مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣٦.

([5]) ان استبدال الذهب بالعملة الورقية سياسة اقتصادية مهمة، فالذهب عندما ينفذ من التداول بين الناس وتصـــادرة

مذهبية وجنسية ودينية.. وهيمنوا على المشاريع العامة، فأفقروا سوريا... ووضـــعوا الغرامـــات الباهظة على البلاد وقتلوا اقتصادها، والسوري بفطرته تاجر، فأماتوا تجارته، وداســوا كرامــة الشعب السوري الباسل"([1]).

لقد انخفضت العمليات التجارية في سوريا بشكل كبير في فترة الانتداب الفرنســي عليهــا فبعد أن كانــت هنــاك مــن ٧٠٠ إلــى ٧٥٠ عمليــة تجاريــة فــي دمشــق وحــدها فــي عام١٣٥١هـــ/١٩٣٢م، انخفضت إلى ٤٠٠ عملية تجارية في عام ١٣٥٢هـــ/١٩٣٣م، وكــان لانخفاض قيمة الفرنك الفرنسي دور كبير في فشل تسويق المنتجات التجارية في ســوريا، هــذا بالإضافة إلى إفلاس الكثير من المؤسسات الصناعية المحلية مثل صــناعة النســيج والخــزف وغيرها، مما أدى إلى انخفاض الصادرات السورية إلى النصف، وارتفعــت نســبة الــواردات وخاصة من فرنسا في الفترة من١٣٤٧ـــ١٣٥٢هـــ/١٩٢٩ـــ١٩٣٣م([2]).

إلا أن هذا الكساد التجاري لم يستمر طويلاً، فلقد أدى التطور الاقتصادي في أوربــا إلــى ازدياد حاجات الصناعات في الدول الأوربية إلى المواد الخام، مما أوجد نمواً كبيراً فــي مجــال التصدير لهذه المواد الخام من بلدان المشرق الزراعية وعلى رأسها سوريا، ودفع الأغنياء إلــى توسيع ممتلكاتهم من أجل مضاعفة مدخولاتهم والسيطرة على أكبر قدر ممكن من المواد الخــام، فقد كان بعض هؤلاء يملكون العديد من القرى التي تبلغ مساحتها آلاف الكيلومترات، حتى أنهــم يجهلون حجم ممتلكاتهم، وقد تعاون بعضهم مع سلطات الانتداب الفرنسي من أجــل الاســتفادة الفلاحين البسطاء واستغلالهم، عن طريق القروض الربوية الفاحشة التي تؤدي في النهايــة إلــى انتزاع الفلاحين من أراضيهم، من قبل التجار والأغنياء([3]). ومن ذلك نجد تعاون بعض الأغنياء والتجار الجشعين من أهل البلاد مع سلطات الانتداب الفرنسي ضد إخوانهم الفلاحين الكــادحين، من أجل مصالحهم الشخصية.

سلطات الانتداب، تصبح الدولة مكشوفة ليس لها غطاء اقتصادي قوي مما يؤدي إلى ضعفها وانهيارها، وهــذا الذي حصل في بلاد الشام في فترة الانتداب. وقد سعت كثير من الدول ومنها المملكة العربيــة الســعودية إلــى الاحتفاظ بالذهب كغطاء للعملة الورقية التي صدرت في عهد الملك سعود واستمر صدورها إلى الوقت الحاضر مع زيادة المخزون من الذهب واصدار مقابلة عملات ورقية جديدة.

([1]) أحمد يوسف داود: المرجع السابق، ص١١٠.

([2]) Philips Khouria: Op. Cit. p.397 .

([3]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٢٦ـــ٢٩ ؛ وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبــل لبنــان والمشرق العربي ١٨٦٠ـــ١٩٢٠م مساهمة في دراسة أوصول تكوينها التاريخي، التاريخ الاجتماعي للوطن العربي، (معهد الإنماء العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م)، ص٤٩.

وقد استفاد اليهود أيضاً من الوجود الفرنسي في سوريا، حيث أصبح التجار والمرابين اليهود من أغنى أغنياء سوريا، وكانت لهم اليد العليا في كل المجالات المتعلقة بالتجارة الدولية وخاصة مع بريطانيا، وبدأت توجه إليهم الدعوات للهجرة إلى فلسطين([1]) للاستفادة من أموالهم ونفوذهم في تنفيذ وعد بلفور المشؤوم.

وفي الوقت نفسه وضعت سلطات الانتداب يدها على جميع المرافق الاقتصادية في سوريا كالأسواق والجمارك والموانئ والزراعة والري وبعض الصناعات، وعمدت إلى إدارتها من قبل الفرنسيين، بحيث منحت الشركات الفرنسية الامتيازات الخاصة لتشغيل أموالهم في ثروات البلاد([2])، ولهذا أنشئوا (بنك سورية ولبنان) وهو مصرف للتصدير والصرافة والرهن، و(البنك العقاري الجزائري) وهو مصرف للرهن وإقراض الفلاحين في مقابل رهن أراضيهم، و(بنك الرهونات) للأراضي والبيوت والمجوهرات، و(البنك الفرنسي) للصرافة، و(وشركة الجر والتنوير والماء في حلب)، و(شركة الكداسترو لمسح سورية على حساب الحكومة)، و(وشركة إرواء سهول حمص)، و(وشركة القطن) و(شركة النقليات)، و(وشركة المشاريع العامة) وغيرها([3]) من الشركات التي منحتها فرنسا امتياز استغلال ثروات سورية ومص دماء أهلها بلا رحمة ولا شفقة.

إن هذا الاستغلال الواضح لثروات الشعب السوري أدى إلى توحيد صفوف الشعب ضد الانتداب الفرنسي، وزوال الطبقات الاجتماعية، فالكل كان يأمل زوال الحكم الأجنبي وتحقيق هدف واحد فقط وهو الاستقلال الوطني، لذلك تكتل الشعب العربي السوري وقام بإنشاء حزب الكتلة الوطنية من أجل الوقوف في وجه الشركات الأجنبية التي يفتح لها الانتداب باب البلاد على مصراعيه([4]).

وكان من أهم الآثار الإيجابية التي اقتبسها السوريون من الانتداب الفرنسي هي تنظيم الغرفة التجارية([5])، حيث كانت تضم الغرفة التجارية بدمشق نخبة من العاملين في الحقلين

([1]) سهام محمد هنداوي: تاريخ دمشق في عهد السلطان العثماني عبد الحميد، (دار رسلان، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م)، ص١٥٦ــ١٦٠ ؛ وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي من المتصرفية= = العثمانية إلى دولة لبنان الكبير، (منشورات بحسون الثقافية، بيروت، ١٩٨٦م)، ص٣٠ وص٤٣ــ٤٤.

([2]) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٧٤ ؛ Philips Khouria: Op. Cit. p.246 .

([3]) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٧٤ ؛ بدر الدين السباعي: المرجع السابق، ص١٠٧.

([4]) Philips Khouria: Op. Cit. p.316. ؛ أحمد محمودي: المرجع السابق، ص٧٩.

([5]) الغرفة التجارية: هي عبارة عن مؤسسة عامة، الغرض من قيامها هو خدمة التجار ودعم النشاط الاقتصادي في البلاد، وتقديم المقترحات إلى السلطات الحكومية بشأن تطوير النظم التجارية كالتعرفه الجمركية وتشكيل لجان

التجاري والاقتصادي([1])، فوضعوا نظاماً أساسياً دعوا فيه جميع أرباب العمل في هذين الحقلين الانضمام إليهم، بهدف ترقية التجارة وحماية الصناعة وإنماء الزراعة، والقيام بالمشاريع الاقتصادية النافعة للبلاد قبل أن يستغلها المستعمر الأجنبي، الذي لم يأت إلى البلاد إلا من أجل استغلال ثورتها الطبيعية والسيطرة على اقتصادها وتجارتها، ومشاريعها الإنمائية، وذلك بتأليف الشركات المساهمة وصناديق التوفير، التي تخدم المواطن والوطن([2]).

ربما تكون فكرة الغرفة التجارية لم تؤت ثمارها المأمولة منها في تلك الفترة للأسباب التالية:

أولاً: نظراً لاستغلال المستعمر لخيرات البلاد ، وثانياً: لأن المنطقة كانت لا تزال تعاني من الآثار الاقتصادية السيئة التي جرتها الحرب العالمية الاولى على البلاد والعباد، وثالثاً: أن نسبة الأغنياء والمتعلمين المتفتحين كانوا قليلين في تلك الفترة، رابعاً: أن الأغنياء وأصحاب الأراضي الواسعة لم يكونوا بحاجة إلى مد يد المساعدة إلى أحد طالما أنهم يحصلون على الأموال الطائلة من الفلاحين البسطاء، بمساعدة وتشجيع من سلطات الانتداب الفرنسي.

أما عن التغير الجذري الذي حصل في سوريا فترة الانتداب وخاصة في جبل الدروز، الذي تأثر كثيراً بالثورة السورية، مما أدى إلى عمل بعض سكان الجبل في المهن اليدوية التي كانوا يرونها حقيرة، لكنها أصبحت فيما بعد جذابة مثل تصليح السيارات، حيث فتحت الورش المجهزة بقطع التبديل اللازمة، على الرغم من قلة عدد السيارات في سويداء، حيث بلغت ١٤ سيارة عامة وخاصة، وفي العشرينات والثلاثينات أصبح الميكانيكيون مهنيين من أبناء البلاد([3])، وإننا نجد هذا التغير إيجابي، حيث أثر في حياة الناس الاجتماعية ومعتقداتهم الخاطئة خاصة بالنسبة للمهن اليدوية، وعلينا أن نوضح هنا أنه بسبب الانتداب عم الفقر البلاد وأصبح العمل ضروري للجميع.

للتحكيم لفض المنازعات بين المشتغلين بالتجارة وغير ذلك. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٨٣٤ــ٨٣٥

([1]) كان السيد عارف الحلبوني رئيساً للغرفة التجارية آنذاك، وكان من أعضائها السادة : أنطوان سيوفي ، توفيق مسعود ، صياح قصاب باشي ، حسام الدين العمري ، عبد الرحمن المرابط ، سعيد السادات ، مصطفى حسن ستي ، مسلم السوفي ، سرحان شحفة، ميشال مرقد ، يوسف معتوق ، توفيق جبري ، توفيق مسعود وابي. انظر: سلمى الحفار: المرجع السابق، الحاشية ٦، ص١٠٨.

([2]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص١٠١ــ١٠٥ ؛ الحكومة السورية في ثلاث سنيين ممن (١٥) شباط ١٩٢٨ إلى (١٥) شباط ١٩٣١ على عهد رئاسة صاحب الفخامة السيد محمد تاج الدين الحسني،(طبع بمطبعة الحكومة بدمشق، ١٣٤٩هــ/١٩٣١م)، ص٥ .

([3]) برجيت شيبلر: المرجع السابق، ص٢٣٨ــ٢٣٩.

كما قامت سلطات الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان بتحسين حالــة الاتصـــالات وشــق الطرقات التي تربط بين المرافئ والمدن الداخلية، لتوسيع تجارتها حتى تصــبح ســوريا ســوقا رائجاً للبضائع الفرنسية المصنعة([1])، وإن لم يكن هذا التحسين من أجل الشعب، بقدر ما هو من أجل توسيع وترسيخ المصالح الفرنسية، وسرعة القضاء على الثورات الوطنية والحفــاظ علــى أمن وسلامة موظفين وجنود سلطات الانتداب الفرنسي.

أما فيما يخص تطور طرق السكة الحديد التي أنشأت منذ أيــام الدولــة العثمانيــة فعمــل الفرنسيين على ترميمها، فلقد كان هناك خط سكة حديد يربط بين بيروت ودمشق، وسكة حديــد الحجاز الذي قام بتخريبه لورنس وأتباع الشريف حسين أثنــاء الثــورة ١٩١٦م، لــذلك كانــت التنقلات بين بلاد الشام عبر سكة الحديد التي تربط بيروت بدمشق قليلة الفائدة للمواطنين، لأنهــا كانـــــــــــــــــــــــــــــت

مقصورة على التجار والجنود([2]).

أما عن الحالة الاقتصادية في سوريا في سنين الحرب العالميــة الثانيــة وبعــدها([3]) فقــد تحسنت نتيجة سيطرة سوريا على جماركها بعد جلاء الجيش الفرنسي، مما ســهل لهــا اتخــاذ سياسة جمركية تقضي بحماية صناعتها الوطنية، كما قام السوريون بتأســيس معامــل مختلفــة، وانتشرت زراعة القطن، وفتحت سوريا أسواقها مع الدول العربية المجاورة، وفي جميع أنحــاء العالم لتصدير منتجاتها ومصنوعاتها. وبذلك ازداد الرخاء بازدياد الثروة الوطنيــة، وأصــبحت كفتا الميزان التجاري متعادلاتين، حتى أنه في بعض سنيين الاستقلال رجحت كفة الصــادرات، وانخفضت كفة الواردات وهو ما لم تكن سوريا تحلم به أيام الانتداب الفرنسي([4]).

ب ــ أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاقتصادية في لبنان:

أما بالنسبة للبنان فإن دولة لبنان القديم أو جبل لبنان الذي كان مستقل منــذ أيــام الدولــة العثمانية، كان يعاني من ضائقة اقتصادية شديدة لذلك شهد جبل لبنــان هجــرات متواليــة إلــى

([1]) A. H. Hourani: Op. Cit, p.174. ؛ وجيه كوثراني: من مقدمة كتاب: بلاد الشام ، ص٦٥.

([2]) نيقولا زيادة: المثقفون في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، ضمن ندوة التغيير الحضــاري لمنطقــة الشــرق الأوسط في العصر الحديث في١٤ نوفمبر ١٩٧٦م، (مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس، القاهرة)، ص٢٥.

([3]) للمزيد من المعلومات حول التطور الاقتصادي في سوريا بعد الحرب انظر: حبيب الزحلاوي: ما رأيــت ومــا سمعت في سوريا ولبنان(١)، (مجلة الرسالة، دار الرسالة، القاهرة ، العدد ٩٠٠، الســنة ١٨، ١٩ ذو الحجــة ١٣٦٩هــ/ ٢ أكتوبر ١٩٥٠م)، ص١١٠٥ــ١١٠٦.

([4]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٦ ؛ حبيب الزحلاوي: ما رأيــت ومــا ســمعت فــي ســوريا ولبنان(١)، ص١١٠٥ــ١١٠٦.

بيروت في الفترة من (١٢٧٧ـــ١٣٣٣هـ/١٨٦٠ـــ١٩١٤م) تقدر بـــ٣٤٠ ألف شخص أي بما يعادل ٦٣٠٠ شخص سنوياً تقريباً([1])، لذلك كانت الحاجة ماسة لتوسيع حـــدود الجبــل، لتشـــمل الساحل والسهول المجاورة، حتى يبقى كيانه قابلاً للحياة من جهة. ومن جهة أخرى كان لابد من توسيع حدوده لتتلاءم مع المصالح الفرنسية في المشرق العربي([2]).

وقد قامت بين الساحل (لبنان الحالي) والداخل (سوريا الحالية) روابط اقتصـــادية وطيـــدة عبر التاريخ، وقد تشابكت هذه الروابط بشكل كبير في عهد الانتداب الفرنسي، حتى أنــه تعســر فصلها في عهد الاستقلال، لتوفر أسباب التكامل الاقتصادي بين سوريا ولبنان، حيث يجلب لبنان المنتجات الزراعية، من بقول وقطن وخضار وبعض الفواكه من سوريا، كذلك الثروة الحيوانيـــة ومنتجاتها، وبعض المنتجات الحرفية والصناعية، وتحصل سوريا من لبنان علـــى الحمضـــيات، وبعض الخضار والفواكه التي لا تتوفر لديها في بعض المواسم، وبعض أنواع الصناعات التـــي يتوسط لبنان في جلبها من الخارج وتصنيعها جزئياً. ويأتي فوق كــل ذلــك اســتعمال ســـوريا، للموانئ اللبنانية في صادراتها ووارداتها([3]). هذا التوحد في المصالح الاقتصادية بـــين ســـوريا ولبنان كان من الصعب على سلطات الانتداب الفرنسي فصله فالساحل اللبناني مرتبط إلـــى حـــد بعيد بالداخل السوري.

إن لبنان الكبير في حدوده المعلن عنها في١٣٣٨هـ/١٩٢٠م لم يكن له وجود من قبل في التاريخ، فهو نتيجة التجزئة الفرنسية البريطانية للمشرق العربي، فشأنه شأن سواه مـــن البلـــدان العربية الأخرى، حيث فرضت عليهم الحدود فرضاً ضد إرادة أكثرية ســـكانه، وقـــد ارتبطـــت نشأت لبنان الكبير بالدرجة الأولى بمصالح فرنسا، كما اعتمدت فرنسا بالدرجـــة الأولـــى علـــى الكنيسة المارونية ممثلة بالبطريرك إلياس الحويك([4]).

([1]) لقد تضاعف عدد سكان بيروت نتيجة للحرب الأهلية التي قامت في١٣٧٧هـ/١٨٦٠م فهاجر من جبل لبنان إلى بيروت ٢٠ ألف شخص في عام١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، وعندما أنشا الفرنسيون دولة لبنان الكبير تضـــاعف عـــدد المهاجرين إلى بيروت فاستقر فيها تجار ميسورين وحرفين ماهرين، مما أسهم في نهضتها الاقتصادية، وقد أدت هذه الهجرة إلى تغير التركيب الديموغرافي للمدينة إذ كان العدد الأكبر من الوافدين الجدد نصارى مـــن شـــتى المذاهب، حتى أنهم بلغوا ٦٠% من سكان بيروت. انظر: فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص٩٧.

([2]) سعيد مراد: المرجع السابق، ص٩٣ ؛ خلدون عريميط: المرجع السابق، ص١٨٧ـــ١٨٨ ؛ ايرينا سميليا نسكايا: البنى الإقتصادية والإجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحـــديث، ترجمـــة: يوســـف عطـــالله، مراجعة وتقديم: مسعود ضاهر، (دار الفارابي، بيروت، ط١ ، ١٩٨٩م)، ص٢٧١ـــ٢٧٩.

([3]) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٧٢ ؛ محمد مراد: أضـــواء علـــى العلاقـــات اللبنانية ـــ السورية في عهد الانتداب الفرنسي، (مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد ٤٢، أكتوبر ١٩٩٢م)، ص٨٦.

([4]) فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص١٢٧ـــ١٣٠ ؛ محمد النقاش: المرجع السابق، ص٢.

عاش البطريرك إلياس الحويك قرابة التسعين عاماً (١٢٥٩ــ ١٣٥٠هـ/ ١٨٤٣ــ١٩٣١م) هذه السنوات شهدت تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية مهمة على صعيد جبل لبنان خصوصاً ودولة لبنان الكبير عموماً، فقد كان له دور كبير واتصالات واسعة، أدت إلى إعلان الدولة اللبنانية بحدودها الراهنة. فقد كان البطريرك الحويك شخصية فاعلة على الساحة اللبنانية، وأقام علاقات مباشرة مع كبار القادة الفرنسيين، في لبنان وفي فرنسا نفسها، وأعرب أكثر من مسؤول فرنسي عن الاحترام الكبير الذي تكنه القيادات الفرنسية للحويك، نظراً لما قدمه للسياسة الفرنسية من خدمات، أسهمت في تثبيت الانتداب الفرنسي ونفوذه في سوريا ولبنان واتساع رقعة المصالح الفرنسية في المشرق العربي([١]).

إن جبل لبنان الصغير عندما دخل ضمن إطار دولة لبنان الكبير بعد ضم مناطق الساحل "بيروت ــ طرابلس ــ صيدا صور" والداخل" البقاع ــ عكار ــ الجنوب" استطاع الخروج من الضائقة الاقتصادية التي ألمت به، كما أن الاستعمار الفرنسي بخلق هذا الكيان السياسي أنشأ سوقاً استهلاكياً كبيراً للاقتصاد التجاري الفرنسي مع الداخل السوري([٢])، هذا الكيان اللبناني جعل فرنسا تعدل عن إنشاء وطن قومي للنصارى في لبنان، فالفرنسيون لم يخططوا قط لمصالح الطائفة النصرانية في لبنان، بل كانت جميع خططتهم منصبه على مصالحهم فقط، فهم لم يسعوا إلى إيجاد أغلبية مسيحية مقابل أقلية إسلامية بقدر ما سعوا إلى إيجاد دولة طائفية تصلح منطلقاً لرأسمالها نحو الداخل الإسلامي، وكانت بيروت المرفأ التجاري([٣]) الهام على البحر المتوسط هي المنطلق لهذه الدولة ذات التعددية الطائفية، نظراً لأهميتها الاستراتيجية للاقتصاد العربي والعالمي([٤]).

لقد عارض المسلمون في مدن الساحل انضمامهم لمتصرفية جبل لبنان كما عارضوا الانتداب وتجزئة سوريا لما في هذه التجزئة من ظلم إداري وسياسي واقتصادي وضريبي، فقد عبر سكان المدن التي ألحقت([٥]) بدولة لبنان الكبير عن معارضتهم الشديدة للظلم الاقتصادي

([١]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص١٢.

([٢]) محمد حسين دكروب:السلطة والقرابة والطائفية عند موارنة لبنان، استناداً على دراسة انتربولوجية للنموذج الماروني الشمالي في بلدة "تنورين" ، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٧١ــ٧٢ ؛ محمد مراد: أضواء على العلاقات اللبنانية ــ السورية ، ص٧٨ــ٧٩.

([٣]) للمزيد من المعلومات حول مرفأ بيروت التجاري والتطورات التي طرأت عليه في عهد الانتداب انظر: محمد مراد: بيروت في عهد الانتداب الفرنسي: المركز الأول في مبادلات المدن بين سوريا ولبنان، (مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ١٩٣، السنة ٢١ ، جمادى الآخرة ــ رجب ١٤٢٢هـ/ سبتمبر ــ أكتوبر ٢٠٠١م)، ص٤٧ــ٥٥.

([٤]) محمد حسين دكروب: المرجع السابق، ص٧٢ــ٧٣.

([٥]) المدن الملحقة بمتصرفية لبنان الكبير هي المدن الساحلية (بيروت وصيدا وصور وطرابلس)، وأربعة أقضية عثمانية سابقة هي حصبيا وراشيا وبعلبك وعكار. فأصبحت حدود ما أطلق علية لبنان الكبير يمتد من النهر

والضريبي الذي انطوى عليه ضمهم للكيان الجديد. فمع أن عدد سكان الملحقات أكثر من عـــدد سكان جبل لبنان، حيث يبلغ عدد سكان الجبل ٣٣٠.٠٠٠ نسمة، أما عدد سكان الملحقات فيبلـــغ ٣٨٠.٠٠٠ نسمة، وكانت مواردهم المالية أوفر من سكان الجبل إذ أن ٨٣% من موارد الدولـــة الجديدة كانت تجنى من سكان الملحقات الساحلية للمسلمين، بينما ينفق ٨٠% من تلك العائـــدات على سكان الجبل النصارى[1]. وفي حقيقة الأمر ان عدد لا يستهان به مـــن النصـــارى غيـــر الموارنة (من الروم الأرثوذكس والكاثوليك) كانو قد عبروا عن رغبات مشابه لتلك التـــي عبـــر عنها المسلمون فغالبية سكان زحلة مثلاً الحاضرة ذات الأغلبية الكاثوليكية، صوتوا ضد الانتداب وإلى جانب الانضمام إلى سوريا ووقع ٥٠٠ من وجهائها عريضة بهذا المعنى سلمت إلى لجنـــة كنج ــ كرين في ١٣٣٧هــ/ ١٩١٩م. ونظراً للظلم الاقتصادي والسياسي الواقع علـــى ســـكان المناطق المضمومة إلى ما أطلق عليه دولة لبنان الكبير فقد اعترض عليه سكان هذه المنـــاطق في مذكرة رفعوها إلى المفوض السامي الفرنسي في عام ١٣٤١هــ/ ١٩٢١م، بينـــوا فيهـــا أن معظم موظفي إدارة لبنان الكبير أصبحوا من المتصرفية السابقة وحلوا محـــل مـــوظفي ولايـــة بيروت، كما ان المدن الساحلية(طرابلس وبيروت وصيدا وصور) تكبـــدت خســـائر فادحـــة إذ قطعت الصلة بين مرافئها وبين الداخل السوري، لذلك فإن المصالح الاقتصادية لولاية بيـــروت ولكامل سوريا توجب الإعادة الفورية للعمق السوري آنذاك[2].

ونتيجة لعملية الفصل بين سكان الساحل والداخل السوري ارتسمت العلاقـــات اللبنانيـــة ــ السورية فقد حرمت فرنسا سوريا من منافذها البحرية الهامة على سوحل بيروت وطرابلس، هذه التجزئة السياسية أدت إلى خلق إشكالية اقتصادية لسوريا، لذلك لم يســـتطع الانتـــداب الفرنســـي فصل العلاقات الاقتصادية بين سوريا ولبنان، فلبنان يعتمد على المنتجات الزراعية في الـــداخل السوري، وسوريا تعتمد على لبنان في تصدير منتجاتها سواء في داخل لبنان أو في خارجه عن طريق سواحل البحر المتوسط وخاصة مرفأ بيروت البحري الذي أصبحت له أهميـــة كبيـــرة[3] خاصة خلال فترة هذه الدراسة.

الكبير شمالاً، وفلسطين جنوباً والبحر المتوسط غرباً، وقمم جبال لبنان الشرقية شرقاً. انظـــر: دولة لبنان الكبير والمناطق التي ضمها إليها الانتداب الفرنسي في ملحق الخرائط الملحق رقـــم ٤. فـــواز الطرابلســـي: المرجـــع السابق، ص١٣٥ ؛ محمد حسين دكروب: المرجع السابق، ص٧١.

([1]) فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص١٣٦ــ١٣٧.

([2]) فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص١٣٧ ؛ خلدون عريميط: الموارنة في لبنان بين العروبة والإســـلام: (دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م)، ص١٨٦ــ١٨٩.

([3]) محمد مراد: أضواء على العلاقات اللبنانية ــ السورية ، ص٨٥ــ٨٧ ؛ السياسة الانتدابية الفرنسية، ص١٨١.

ومن أهم نتائج الفصل بين سوريا ولبنان تطور الرأسمال الأجنبي عامة والفرنسي خاصة، نمو المدن الساحلية، لا سيما بيروت، التي أضحت المركز التجاري الأول في المشرق العربـــي. وإن انضمام بيروت إلى دولة لبنان الكبير أدى إلى هجرة الكثير من التجار الموارنة إليها، وقــد كان هؤلاء التجار وكلاء للتجار الفرنسيين أو مستخدمين في مؤسساتهم التجارية المتعددة، وذلك لأن الأجانب كانوا بحاجة إلى من يجيد لغتهم ليسهل التعامل معهم، ونظراً لأن هؤلاء الموارنـــة كانوا مرتبطين بفرنسا، فقد كانت دراستهم في المدارس الأجنبيـــة تســـهل لهـــم التعامـــل مـــع الفرنسيين، ومع الزمن أصبح هؤلاء الوكلاء تجاراً أصليين، يقومون بأعمالهم التجارية لحســـابهم الخاص، مستفيدين من خبرتهم في التعامل مع الأجانب، في حين أن هذا التقارب بين الموارنـــة والفرنسيين أسهم إلى حد ما في تعميق الهوة بين المســـلمين والنصـــارى وزاد فـــي تباعـــدهم السياسي([1]).

فقد رجحت كفة القوة الاقتصادية للتجار النصارى بشكل ملحوظ لذلك استطاعوا الســـيطرة على تجارة الاستيراد والتصدير الدولية، فيما اضطر التجار المسلمين إلى الاكتفاء بالتجارة بـــين الموانئ العربية، وسيطر النصارى على تجارة الحرير خاصة، فبين ٢٦ أسرة مصدرة للحريـــر الخام، لم تكن الأسر المسلمة تملك إلا ثلاثة فقط، ومن بين ١١ تاجراً للقطن يوجد تـــاجر مســـلم واحد فقط، كما أن المصارف المحلية كانت تملكها كلها أسر مســـيحية باســـتثناء اثنتـــين كانـــت لأسرتين يهوديتين ــ لذلك شاعت التعاملات الربوية في البلاد ــ، كما شكل النصارى الأكثريـــة من أبناء المهن الحرة، حيث يوجد ١٠ محامين مسلمين من بين ٨١ نصرانياً، وطبيـــب أســـنان مسلم واحد من بين عشرين طبيب غير مسلم([2]). إن هذه الإحصـــائيات تبـــين مـــدى ســـيطرة النصارى على بيروت التي كان أغلب سكانها من المسلمين، لكن وجود الانتداب الفرنســـي فـــي بلاد الشام قوى من شوكة النصارى، وجعلهم هم المسيطرين على المراكز الحيوية فـــي الـــبلاد، حتى أصبح المسلمون أقلية في بيروت، وهذا من أهم الآثار السلبية التي تركها الانتداب الفرنسي على التركيب الديموغرافي للمنطقة.

أما بالنسبة للعملة المستعملة في لبنان الكبير فقد كانت تستعمل العملة نفسها التي فرضـــها الانتداب على سوريا، والتي كان يصدرها مصرف سوريا المركزي، الذي أخـــذ علـــى عاتقـــه إصدار العملة في الأراضي التابعة لسلطتها الانتدابية. فلقد صدرت الليرة الســـورية ــ اللبنانيـــة عن طريق مصرف سوريا المركزي لأول مرة عام١٣٣٧هــ/١٩١٩م وكانت مدفوعة مقابل ٢٠

([1]) سعيد مراد: المرجع السابق،ص٨٥ــ٥٦ ؛ فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص١٠٠ــ١٠١.

([2]) فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص١٠١ ؛ محمد مراد: أضـــواء علـــى العلاقـــات اللبنانيـــة ــ الســـورية، ص٩٢ــ٩٣.

فرنكاً فرنسياً، وكان يجري التعامل بها في سوريا ولبنان. وبعد إعلان قيام دولة لبنان الكبير وظهور الوضع السياسي الجديد للبنان، تغير اسم مصرف سوريا ليصبح بنك سوريا ولبنان الكبير([1]) وقد عارض إنشاء هذا البنك أهل لبنان وعلى رأسهم عارف النعماني([2]) الذي عاد من المنفى في أوائل ربيع الأول ١٣٤٢هـ/ منتصف أكتوبر سنة ١٩٢٣م وعلم برغبة فرنسا بتأسيس بنك تصدر منه العملة لسوريا ولبنان، وأن يتولى تأسيس هذا البنك وإدارته أيدي فرنسية، لذلك صمم عارف نعماني أن يكون هذا البنك لبناني يدار بأيدي لبنانية ومال لبناني، ووضع تقريراً مفصلاً لذلك، حيث طلب من أصحاب بنك مرقدة في سوريا([3]) تأسيس بنك لإصدار العملة الوطنية على أساس الذهب، إلا أن الحكومة الفرنسية رفضت هذا الطلب وفرقت أصحابه من حوله وهددت عارف النعماني بالنفي مرة أخرى، أما عن الأسباب التي دعت النعماني لإنشاء البنك هي:

١. كان الذهب الموجود في سوريا ولبنان حسب الإحصاءات الموثوق بها والرسمية ستة عشر مليون ليرة ذهبية.
٢. كان تأسيس بنك الإصدار يومئذٍ من السهولة بمكان من الناحية المادية، لوفرة وجود الذهب في البلاد مع ما كان يجب أن يتبع ذلك من سياسة اقتصادية سليمة.
٣. كان تأمين إدارة البنك برجال لبنان وسوريا ممكناً بما هو معروف عنهم من المقدرة الاقتصادية والتجارية.
٤. لو تم تأسيس هذا البنك لتمكن أبناء البلاد من المحافظة على ثروتهم والذهب الذي كان موجود آنذاك بقدر الإمكان، ومنعت فرنسا من تهريبه إلى خارج البلاد([4]).

([1]) للمزيد من المعلومات حول هذا البنك انظر: مركز النشر اللبناني في وزارة الإعلام: المرجع السابق، ص٧٦ــ٧٧.

([2])عارف عبدالرحمن عمر النعماني(١٣٠٠ــ١٣٧٤هـ/١٨٨٣ــ١٩٥٥): ولد في بيروت ودرس المرحلة الابتدائية في مدارس اليسوعية وبروسيا، وكان للنعماني نشاط سياسي بارزاً في بيروت أبان حكم الدولة العثمانية وبعدها، عين في الحكومة التي أنشاها الشريف فيصل هناك سنة١٣٣٧هـ/١٩١٩م فأصبح نائب عن بيروت، وعندما انهارا الحكم الفيصلي سنة١٣٣٨هـ/١٩٢٠م. تم نفي النعماني إلى جزيرة كورسيكا في البحر المتوسط مدة ثلاث سنوات ثم عاد إلى بيروت سنة١٣٤١هـ/١٩٢٣م، عرف النعماني بنزعته الاستقلالية وحبه لوطنه وحبه للتجارة ومساعدته للجمعيات الخيرية وعطفه على المحتاجين من أبناء الأمة، توفي في بيروت. انظر: الموقع على الانترنت أبناء بيروت .http:www.abnaabeirut.com

([3]) أصحاب بنك مرقدة هم: ميشال شيحا، وحبيب طراد ، ومصطفى عز الدين، ونجيب يوسف سرقس ، وألفريد سرقس. انظر: حسن الأمين: سراب الاستقلال في بلاد الشام ١٩١٨ــ١٩٢٠م، (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م)، ص٢٣٠.

([4]) حسن الأمين: المرجع السابق، ص٢٢٩ــ٢٣٢.

وبعد أن تمكنت السلطات الفرنسية من إحباط محاولة النعماني في إنشاء البنك والنقد اللبناني، قام بنك سوريا ولبنان الكبير بإصدار الليرة السورية ــ اللبنانية([1]) بدءاً من عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م حتى عام١٣٥٦هـ/١٩٣٧م حينما أُصدرت ليرتان منفصلتان في سوريا ولبنان قابلتان للدفع في كلا الكيانين. وفي عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م أصبح اسم المصرف المصدر للعملتين بنك سوريا ولبنان([2]). إن هذا الترابط أو التوحد في العملة بين سوريا ولبنان يدل على مدى التكامل الاقتصادي بين البلدين الشقيقين.

لكن على الرغم من ربط العملة السورية اللبنانية بالفرنك الفرنسي وما رافق ذلك من تدهور للوضع الاقتصادي ككل في البلاد، إلا أن الحكومة الفرنسية كانت تعمل على إفراغ البلاد من الذهب العثماني، الذي كان متداولاً أيام الدولة العثمانية، حيث أنها على الرغم من أنها أصدرت عملة ورقية، إلا أنها كانت تفرض عقوبتها وغراماتها على الشعب السوري واللبناني بالنقد الذهبي، حتى أن اللبنانيين اعترضوا على هذا الوضع، وأخذوا يطالبون بفرض العقوبات بالليرات الورقية التي فرضوها عليهم، وليس بالليرات الذهبية([3]). من أجل الحفاظ على الذهب وعدم التفريط به بإعطائه للمستعمر الغاصب.

لقد أثر الانتداب الفرنسي أيضاً على الحالة الزراعية في لبنان، لأنه كان يقوم بدور بالغ الأهمية إبان المرحلة التاريخية الممتدة بين الحربين العالميتين، بسبب سياسة الانتداب الظالمة المبنية على جباية الضرائب الباهظة، وبسبب عدم الحصول على الأسمدة الكيماوية، والمعدات الحديثة تأخرت بعض الشيء عجلة الزراعة في لبنان، حيث كان الفلاحون يستخدمون الأساليب التقليدية القديمة في الزراعة، وهذا بدوره تسبب في الهجرة الكثيفة من الريف إلى المدينة ومنها إلى خارج البلاد، مما أدى إلى تعطيل قطاعات زراعية بكاملها وبوار أرض خصبة بسبب هجرة أصحابها([4]).

أما بالنسبة لجباية الرسوم الجمركية في لبنان فقد شملت جميع الواردات الأجنبية إلى البلاد السورية في الثغور البحرية، لذلك نشأ خلاف كبير بين حكومتي الاتحاد السوري(المؤلف من

([1]) انظر صور العملة السورية ــ اللبنانية في ملحق الصور الملحق رقم ٣.

([2]) وجيه كوثراني: البعد التاريخي للعلاقات اللبنانيةــ السورية (١) ، (مجلة الفكر الإسلامي، مجلة شهرية، تصدرها دار الفتوى، بيروت، العدد ٥، السنة ١٥ ، شعبان ــ رمضان ١٤٠٦هـ/ مايو ١٩٨٦م)، ص٦٧ ؛ محمد مراد: السياسة الانتدابية الفرنسية في سوريا ولبنان بين التفكيك السياسي والتوحد الاقتصادي، (مجلة الفكر الاستراتيجي العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد ٣٩، يناير ١٩٩٢م)، ص١٦٩، والحاشية ٦٤، ص١٨٢ــ١٨٣.

([3]) سعيد مراد : المرجع السابق ، ص١٥٢ــ١٥٣.

([4]) مسعود ضاهر: لبنان الاستقلال، الميثاق والصيغة ، ص١٥.

حكومة سوريا في دمشق ودولة حلب، ومنطقة والإسكندرونة وأنطاكية وجبل الدروز ومنطقة العلويين) وبين دولة لبنان الكبير، فعلى الرغم من أن حكومة الاتحاد السوري كانت تستهلك القسم الأعظم من الواردات الأجنبية، إلا أن سلطات الانتداب تعطي حكومة الاتحاد السوري ٣٢% فقط من حصة الجمارك، والباقي كانت تعطيه لدولة لبنان الكبير، مما أثار غضب حكومة الاتحاد السوري، فحصل أثر ذلك أخذ ورد شديد بينها وبين سلطات الانتداب أدى إلى إصدار المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان حكماً بأن تأخذ سورية ٥٢% والباقي يخصص لدولة لبنان الكبير([1])، وعلى الرغم أنه قليل بالنسبة إلى مساحة سوريا، إلا أنها كانت أفضل من ٣٢% التي كانت تحصل عليها في السابق.

وفي ٢٥ رمضان ١٣٤١هـ/١٢ مايو ١٩٢٣م قدم أعضاء الوفد السوري([2]) المؤلف من الأمير شكيب أرسلان، وإحسان الجابري، وسليمان كنعان، والأمير ميشيل لطف الله، مذكرة إلى المؤتمر الاقتصادي الدولي المنعقد في جنوى، اعترضوا على الانتداب الفرنسي وسياسته القائمة على مبدأ فرق تسد، وتقسيم سوريا إلى دول متعددة، لأنه يضر البلاد من الناحية الاقتصادية، فيقضي على التجارة والصناعة ويقلق الأمن، ويؤدي في نهاية المطاف إلى قطع الروابط بين أجزاء سوريا المختلة بما فيها لبنان. وأن اللبنانيين متحدون مع إخوانهم السوريين للمحافظة على استقلالهم ووحدتهم السياسية والاقتصادية. لكن المؤتمر لم ينصف القضية السورية وتجاهلها([3]).

ويذكر لطفي الحفار الذي كان عضو في اللجنة السورية لتعيين الحصة الجمركية بين سوريا ولبنان في ٢٢ شوال ١٣٤١هـ/٧ يونيو ١٩٢٣م أنة بعد الإطلاع على إحصاء البضائع التي تشحن إلى سوريا في الدوائر الجمركية في محطات السكة الحديد وفي الطرق البحرية، وجدوا أن هذه الإحصائيات غير صحيحة، وأنه بعد دراسة مستفيضة للأسس الصالحة لتوزيع الحصة الجمركية بين سوريا ولبنان توزيعاً عادلاً، يكون أساسه أولاً الثروة العامة التي تمثل مقدار جباية الحكومة من الضرائب، وثانياً عدد السكان ومقدار استهلاكهم، وكانت النتيجة إثبات حق الاتحاد السوري بما يعادل ٧٠% من حصة الجمارك([4]). لكن نظراً لمحاباة سلطات

([1]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٠ـ٢٦١ ؛ الحكومة السورية في ثلاث سنين، ص٢٣.

([2]) الوفد السوري الفلسطيني لدى جمعية الأمم، كان مقره جنيف وكان أركانه الأمير شكيب أرسلان، وإحسان الجابري، وسليمان كنعان، ورياض الصلح، والأمير ميشيل لطف الله. انظر: مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ج٢، ص٢١٥.

([3]) أمين سعيد: الثورة العربية..،ج٣، ص٢٦٨ـ٢٧٤.

([4]) سلمى الحفار: المرجع السابق، ص ١٠١ـ١٠٢.

الانتداب الفرنسي لدولة لبنان الكبير، التي كانت تشكل أغلبية مسيحية، لذلك قام المفوض السامي بتخصيص ٤٨% للبنان، و٥٢% لسوريا.

إن هذه التفرقة بين شعبي سوريا ولبنان، عمقت من الهوة بين الشعبين الشقيقين المتجاورين، كما أنها زادة من حقد الشعب السوري على الاستعمار الفرنسي، الذي كان متمسك به بعض موارنة لبنان، لأنهم كانوا يرون فيه أنه الحامي الأمين لمصالحهم. ولكن علينا أن نشير هنا إلى أنه على الرغم من محاباة الفرنسيين لبعض لموارنة إلا أنهم ماكانوا يفضلوهم على الشعب الفرنسي، لأن سلطات الانتداب الفرنسي كانت تعمل أولاً على إرضاء مصالحها الشخصية، ثم تحقيق مطالب الموارنة في لبنان، لذلك نجد أن هؤلاء الموارنة في نهاية المطاف يحصل بينهم وبين سلطات الانتداب الفرنسي بعض الخلافات السياسة والاقتصادية، بسب استغلال الفرنسيين لثروات البلاد ومخالفتها لنص الانتداب، وتجويعها للشعب اللبناني كما سنرى في هذا المبحث.

ففي عهد المفوض السامي الفرنسي المسيو بونسو([١]) الذي ظل في منصبه مدة سبع سنوات من صفر ١٣٤٥هـ/أغسطس ١٩٢٦م إلى جمادى الآخرة ١٣٥١هـ/ أكتوبر ١٩٣٢م، بدأ استثمار الرأسمال الفرنسي بشكل مكثف في سوريا ولبنان،ـ بعد أن قمعت الانتفاضات فيهما، واستعيض عن الكفاح المسلح بالاضرابات والتظاهرات والاعتصام وعرائض الاحتجاج وغيرها من الوسائل السلمية ـ التي لم تأت بنتيجة تذكرـ. وفي عهد الكونت دي مارتيل الذي خلف بونسو فتحت أبواب سوريا ولبنان على مصراعيها أمام المستثمرين الفرنسيين والرأسمال الفرنسي والاحتكارات الفرنسية. وتبين للبنانيين على اختلاف طوائفهم ومناطقهم، أن الاقتصاد هو الحاكم الفعلي في دوائر المفوضية الفرنسية وأن الرأسمال الاحتكاري هو الذي يربط فرنسا بالموارنة وليست الصداقة التاريخية ـ المزعومةـ، فقد اشتدت الضائقة الاقتصادية على اللبنانيين في المدن والأرياف على حد سواء([٢])، وذلك نتيجة وجود الانتداب الفرنسي الذي كان له الأثر السيئ على الحالة الاقتصادية للبلاد، حيث أخذت الحرف والصناعات التقليدية السائدة في لبنان كزراعة التوت وإنتاج الحرير، وصناعات الغزل والنسيج وغيرها تنهار تدريجياً. على الرغم من توسع البلاد في استخدام الآلات الميكانيكية الحديثة في القطاع الزراعي والصناعي،

([١]) نلاحظ ان بونسو هو الذي تمكن من القضاء على الثورة السورية الكبرى، وأن مدة توليه منصب المفوضية الفرنسية كان طويلاً، لذلك كانت هذه الفترة فترة استقرار فرنسي تمكن من خلالها الفرنسيون من استغلال خيرات البلاد الاقتصادية بشكل كبير.

([٢]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص١٨؛ وجيه كوثراني: البعد التاريخي للعلاقات اللبنانية ـ السورية(٢)،(مجلة الفكر الإسلامي، مجلة شهرية، تصدرها دار الفتوى، بيروت، العدد ٦ ، السنة ١٥ ،= =رمضان ـ شوال ١٤٠٦هـ/ مايو ١٩٨٦م)، ص٤٨ـ٤٩

لكن في مقابل ذلك كانت المصانع المحدثة تتوسع أيضاً في تسريح عمالها من أهل البلاد لعدم مقدرتهم تشغيل هذه الآلات من جهة، ومن جهة ثانية فوجود الآلات قلص من حاجة المصانع للعمال غير المؤهلين، وقد أدى هذا العمل إلى تشريد عدد كبير من العمال وجعلهم فريسة للبطالة والجوع(١). كما ان ركود الحركة الزراعية والصناعية يعود إلى استغلال الفلاحين والعمال من قبل التجار الأجانب والأغنياء والمرابين بشكل أساسي، وهيمنت هؤلاء على الانتاج الزراعي والصناعي بما يملكون من ثروة، وقد أسهم في ذلك عدم قدرة أهل البلاد الأصليين في سوريا ولبنان على مسايرتهم، فأصبحوا أداة لخدمة مصالح أصحاب الثروة والنفوذ من التجار وغيرهم(٢).

وعندما أدخل جبل لبنان تحت وصاية الفرنسيين أدى ذلك إلى احتكارهم زراعة وصناعة التبغ، فقد كانت شركات التصدير الأوربية تشتري المنتجات الزراعية في سوريا ولبنان بأسعار بخسة منذ أيام الدولة العثمانية، وفي عهد الانتداب الفرنسي، فأخضعت شركة الريجي للتبغ(٣)"Régie cointéressée de tabacs ottomans" مزارع التبغ لسيطرتها، حيث منعت زراعة التبغ بدون رخصة، واحتكرت شراء التبغ الخام منها بأسعار متدنية تفرضها الشركة الاحتكارية، وهكذا كان أصحاب مزارع التبغ في سوريا ولبنان في ظل الانتداب الفرنسي يخضعون بالكامل تحت نير قهر الرأسمال الأجنبي(٤)، لقد كانت زراعة التبغ وصناعته والتجارة بها لاقت رواجاً كبيراً في عهد الانتداب.

كما انهارت في لبنان صناعة الحرير، بسبب استغلال الشركات الفرنسية الربوية للفلاحين، فقد كانت تعمل شركات نسج الحرير في ليون(٥) على تقديم قروض ربوية لأصحاب مغازل الحرير اللبنانيين على حساب المحصول المقبل من خامات الحرير، ومن ثم يشترون

---

(١) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص١٨ــ١٩.

(٢) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٣٥.

(٣) شركة الريجي للتبغ"Régie cointéressée de tabacs ottomans" التي أنشأت عام١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م، كانت مرتبطة بـ"إدارة الدين العثماني" التي كانت تسدد الدولة العثمانية قروضها للدول الأوربية وخاصة فرنسا عن طريقها، فبعد أن كانت بريطانيا تحتل المرتبة الأولى في علاقاتها مع الدولة العثمانية، انقلب هذا الوضع كلياً بعد الحرب العالمية الأولى، فأصبح لفرنسا ٦٠.٣١% للدين العمومي العثماني ، و٥٥% للمؤسسات الخاصة، مما أنعكس على الوضع الاقتصادي في سوريا ولبنان التي كلفتهم الحكومة الفرنسية بسد الدين العثماني، مما أدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية للسكان. انظر: فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٤١ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٨٧ــ٨٨ ؛ برجيت شيبلر: المرجع السابق، ص١٨٩.

(٤) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص١٨ ؛ فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٤١ ؛ شفيق جحا: المرجع السابق، ص٩٦.

(٥) ليون Lyon: مدينة في جنوب شرقيّ فرنسا. مركز جامعي وتجاري وصناعي. انظر: المنجد، ص٥٠٧.

منهم شرانق الحرير بأسعار بخسة وهو ما يزال في أرضة، وكانت صناعة الحرير في جبل لبنان تشكل ٤٥% من الدخل([١]).

كما أدى انتشار الحرير الصناعي الأقل كلفة، وسيطرة الرأسمال والشركات الفرنسية إلى تدهور صناعة الحرير والاقتصاد اللبناني بشكل عام، فقد منحت سلطات الانتداب الاحتكارات والامتيازات للفرنسيين بشكل سافر، مخالفة بذلك المادة ١١ من صك الانتداب([٢]).

عرفت الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين في فترت الانتداب الفرنسي تبدلاً نوعياً في الوعي والتنظيم، فلم تعد السلطات الفرنسية قادرة على لجم الانتفاضات الشعبية أو القضاء عليها بعد أن شهدت الساحة اللبنانية ظهور تنظيمات وأحزاب ونقابات متنوعة أحدثتها عوامل التجزئة، والتفرقة بين الشعبين التي زرعها الاستعمار الفرنسي، لذلك باتت الحركة النقابية والعمالية قوة فاعلة في مختلف قطاعات الإنتاج والعمل، ومن ذلك قيام إضراب شعبي كبير من أجل تخفيض أسعار الكهرباء وأجور الباصات في شوال ١٣٤٩هـ/منتصف شهر مارس ١٩٣١م واستمرت المقاطعة أسابيع، رافقتها مظاهرات عنيفة، ونشرت خلالها شعارات تهاجم الاحتكارات ومن يحميها ويقصدون بذلك المفوضية العليا وسلطات الانتداب الفرنسي([٣]).

وفي الفترة ١٣٤٧ــ ١٣٥٠هـ/ ١٩٢٩ــ١٩٣٢م بلغت الأزمة الاقتصادية درجة عالية من الحدة والتأزم، خاصة في مناطق الوصاية والحماية والانتداب، فقد عمدت الاحتكارات الفرنسية والأجنبية الناشطة في سوريا ولبنان إلى تحميل الشعبين السوري واللبناني عبء الأزمة المالية في فرنسا، فأخذت تشدد قبضتها على الموارد الاقتصادية في مناطق نفوذها، فاحتكر الفرنسيون امتيازات شركة الكهرباء وشركة المياه وغيرها من الشركات، هذه الاحتكارات أدت إلى قيام المظاهرات في مختلف المدن والأرياف اللبنانية، فانتفض السائقون وعمال الطباعة وعمال التبغ وعمال الأحذية وغيرهم([٤])، ضد نهب الفرنسيين لاقتصاد البلاد وسلب خيراتها.

هذا التغير في موقف الشعب اللبناني أدى إلى بعض التقارب في وجهات النظر التي تخدم مصلحة الشعبين السوري واللبناني، فعندما عقد في بيروت "مؤتمر الساحل" في منزل سليم علي سلام في٢٧ رجب ١٣٥٢هـ/ ١٦ نوفمبر ١٩٣٣م اشترك في المؤتمر وفود من بيروت وطرابلس وصيدا وصور وجبل عامل والملحقات الساحلية وبعد المناقشات والمداولات قدم

([١]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص٣١ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٩١.

([٢]) انظر نص المادة ١١ من صك الانتداب في ملحق الوثائق الملحق رقم ٣، أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٢٣١-٢٣٢، سعيد مراد : المرجع السابق، ص١٥٣.

([٣]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص٢٠ ؛ شفيق جحا: المرجع السابق، ص٩٦ .

([٤]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص١٨ ؛ إبراهيم محسن: المرجع السابق، ص٢٠٢.

المؤتمر مذكرة([1]) إلى المفوض السامي الفرنسي دي مارتيل ويمكن تلخيص شكواهم الاقتصادية فيها بما يلي:

١. لا يجوز تجزئة البلاد السورية إلى دويلات متعددة، لأن هذه التجزئة تزيد من نفقات البلاد الرسمية، التي أصبحت بعد التجزئة مايقرب خمسة وثلاثين مليون ليرة سورية، في حين أنها كانت لا تتجاوز المليون ليرة ذهبية عندما كانت بلاد الشام موحدة، وهذا يؤثر على الحالة الاقتصادية للبلاد.
٢. أهالي الساحل والأقضية الأربعة يدفعون ٨٢% من واردات الخزينة التي يصرف منها ٨٠% منها على جبل لبنان.
٣. أن المناصب العليا أصبحت في يد أبناء لبنان القديم، وهذا يتعارض مع الدستور الذي يعارض استئثار فئة معينة من الشعب بالوظائف عن غيره.
٤. وتضمنت بقية النقاط شكاوى في موضوع الأزمات الاقتصادية التي يعاني منها لبنان، والهيمنة الفرنسية على الاقتصاد والرسوم الجمركية وجشع الشركات الأجنبية.
٥. عدم الأخذ بتقارير المخابرات العامة التابعة للمفوضية الفرنسية، لأنها غير صحيحة، والتي يصور عملائها البلاد على أنها في نعيم من العيش وأنها تدار بعدالة ومساواة.
٦. تسليم إدارة الجمارك العامة التي تعتبر من أهم موارد البلاد الاقتصادية إلى مسؤلين من الحكومة الوطنية([2]).

ونظراً لسيطرة سلطات الانتداب الفرنسي على اقتصاد لبنان واستغلال خيراته تغير موقف الموارنة بعض الشيء في الفترة من١٣٤٨ـــ١٣٥٥هـــ/ ١٩٣٠ـــ١٩٣٦م والمتمثل في البطريركية المارونية، وخاصة بعد وفاة البطريرك إلياس الحويك، وتولي البطريرك انطون عريضة محلة، حيث انحاز إلى جانب الشعب اللبناني والسوري في معركتهما ضد احتكارات "الأم غير الحنون" فرنسا. ولم يكن بإمكان البطريركية المارونية أو غيرها أن تقف مكتوفة اليدين تجاه حركة جماهيرية بهذا الحجم من الاتساع والشمولية، لكن على الرغم من كل ذلك فقد ظلت سلطات الانتداب الفرنسي متمسكة بسياستها الاقتصادية التي لا تخدم مصلحة الشعبين السوري واللبناني، بل تخدم المصالح الفرنسية، هذا جعل ممثلي فرنسا يعملون على مهاجمة البطريرك عريضة ونعته بشتى النعوت السيئة([3]).

([1]) انظر نص المذكرة في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٠.

([2]) حسان حلاق: مؤتمر الساحل،ص٢٤ وص١٧٥ـ١٧٨ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢٢١ـ٢٢٣ ؛ خلدون عريميط: المرجع السابق، وثيقة رقم ٢٢، ص٢٢٥ـ٢٢٦.

([3]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص٢١ ؛ سليم دكاش اليسوعي: معركة مصير لبنان في عهد الانتداب

لذلك حاولت سلطات الانتداب الفرنسي في عــام١٣٥٦هـــ/١٩٣٧م تنظــيم الارتبــاط الاقتصادي الوثيق بين سوريا ولبنان باتفاق جرى، حيث وافقت الحكومتان الســورية واللبنانيــة الواقعتان تحت الانتداب الفرنسي على مبدأ إدارة جمركية منفصلة لكل منهما. لكن فشــلت هــذه الاتفاقية في تثبيت نسبة توزيع العائدات الجمركية بين البلدين، وازداد الأمر سوءاً عندما فرضت سوريا في عام١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م ضريبة على المنتجات اللبنانية، وردت لبنان بالمثل. غير أن كل هذه الإجراءات لم تنفذ بصورة جدية، وبقي النزاع على حاله خلال سنين الحــرب العالميــة الثانية([١]). ان هذا النزاع الاقتصادي الحاصل بين الأخوة الأشقاء في ســوريا ولبنــان كــان ولا يزال حتى اليوم من مخلفات الانتداب الفرنسي البغيضة في المنطقة.

لقد كان لبنان خلال فترة الثلاثينات يغلي ليس من الناحية السياسة فقط بل من الناحية الاقتصادية أيضاً، فقد كانت الأزمة الاقتصادية العالمية قد ناءت بثقلها على لبنان، فضاقت في وجه أهله سبل الارتزاق والعيش، بسب استغلال سلطات الانتداب الفرنسي خيرات البلاد، مما ساعد على نشوب الصراع الطبقي بين الأغنياء والفقراء، والعمال وأرباب العمل، وأفرزت هذه الصراعات التي عصفت بالساحة اللبنانية بضعة أحزاب مـــتشددة، مثل الحزب الشيوعي([٢])، والـــحزب السوري القومي([٣])، وحزب عصبة

الفرنسي ١٩١٨ـ١٩٤٦م، (مجلة المشرق، مجلة كاثوليكية تصدرها كلية القــديس يوســف ، بيــروت، الســنة السبعون، يوليوـ ديسمبر ١٩٩٦)، ص٥٠٨ـ٥٠٩.

([١]) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٧٢ـ٥٧٣.

([٢]) الحزب الشيوعي اللبناني: وهو خليط من الطوائف اللبنانية (النصارى والمسلمين والأرمن)، يدعوا إلــى إقامــة دولة سوريا الكبرى الممتدة من جبال طوروس إلى البحر الأحمر، بما في ذلك لبنان، وهي تســعى إلــى تغيــر النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، أسسه فؤاد الشمالي مع يوسف يزبك في١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م. انظــر: عصام سليمان: الفدرالية والمجتمعات التعددية ولبنان، تقديم: محمد مجذوب، (دار العلــم للملايــين، بيــروت)، ص١٣٠ ؛ علي شعيب: المرجع السابق، ص١٠٢ـ١١٤.

([٣]) الحزب السوري القومي: في مطلع الثلاثينات نشط أنطوان سعادة في إنشاء هذا الحزب تحت شــعار "ســورية للسوريين والسوريون أمة واحدة"، ومبادئه تضمنت فصل الدين عن الدولة وجعل الإنتاج أساس توزيع الثروة،= =والعمل على إيجاد جيش قوي يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الأمــة والــوطن، وفــي مطلــع الســنة الدراسية١٣٥١ـ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٢ـ١٩٣٣م بدأ سعادة مع خمسة من طــلاب الجامعــة الأمريكيــة بتأســيس

العمل القومي([1])، وحزب الكتائب اللبنانية([2]) وغيرها، فكانت هذه الأحزاب تتصارع فيما بينها ويحارب بعضها بعضاً([3]) مما زاد في تأزم الحالة الاقتصادية في البلاد، وذلك بتشجيع من سلطات الانتداب الفرنسي التي كانت تقف مع فئة ضد فئة أخرى، مما أثر سلباً على الحياة السياسة والاقتصادية معاً في لبنان، وقد لعبت هذه الأحزاب دوراً كبيراً في لبنان فيما بعد، وكانت سبباً في قيام الكثير من الصراعات الداخلية، التي أدت إلى نشوب حرب أهلية في البلاد.

وفي معرض الاستنكار العام الذي أثاره الاحتكار الفرنسي سواء في لبنان أو في سوريا، حصل إجماع بين السوريين واللبنايين للاحتجاج ضد الاحتكار الذي يقوم على نهب خيرات البلاد واستعباد الشعوب وإذلالهم، وقد شارك في هذه الاحتجاجات البطريرك الماروني انطوان عريضة، فاتهمه الفرنسيون بالتحالف مع الوحدويين، وقد رأى البطريرك الماروني فيما أتهم به أنها "تهمة غريبة"، فمن غير المعقول أن يصنف أي شخص على أنه من أعداء فرنسا، لأنه احتج على التنازلات الفرنسية المفرطة والمساعدات المبالغ فيها للشركات الفرنسية، التي لم تأت إلى الشرق إلا لتؤمن لنفسها أرباحاً خيالية لها في فرنسا، على حساب الشعبين اللبناني والسوري([4]). من خلال هذه المواقف نلاحظ مدى شعور الشعبين بأهمية الترابط الاقتصاد اللبناني والسوري لانقاذ البلاد من الأزمات الاقتصادية التي تمر بها، كما أنه يمثل بداية تغير في موقف الموارنه من الانتداب الفرنسي.

فلبنان كما هو معروف تضيق أرضه الجبلية عن إعاشة سكانه، فيضطر معظمهم إلى أن يشتغلوا إما بالتجارة الداخلية ــ مع سوريا ــ، وإما بالتوسط بين المعامل الأجنبية والتجار

الحزب. وكان يدعوا إلى ضم لبنان كله إلى سورية. انظر:علي شعيب: المرجع السابق، ص٧٩ــ٩٤ ؛ رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٥٧ــ٥٨.

([1]) حزب عصبة العمل القومي: ظهر هذا الحزب في عام١٣٥٢هــ/١٩٣٣م، وكان يجمع بين أعضائه لبنانين وسوريين، إلا أنه في عام١٣٥٥هــ/ ١٩٣٦م أنفصل اللبنانيون بفرع خاص بهم بقيادة علي ناصر الدين وهو من عائلة درزية من جبل لبنان، دعا برنامج حزب العمل إلى وحدة الأراضي العربية ونبذ التعصب المحلي، ويطالب بإعادة الأرضي المتنازع عليها إلى سوريا، وكان هذا وجه الخلاف بينة وبين الحزب السوري القومي. انظر: رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٥١ــ٥٤.

([2]) حزب الكتائب اللبنانية: ظهر هذا الحزب في ١٣٥٥هــ/أواخر عام ١٩٣٦م، وكان جميع أعضائه من النصارى وخاصة الطائفة المارونية، وهو يضم الشخصيات السياسية الفاعلة في لبنان مثل جورج نقاش شارل الحلو وبيار الجميل ، ويرى أن الشعب اللبناني "الموارنة" يشكل قومية متميزة عن القوميتين العربية والسورية. انظر: عصام سليمان: المرجع السابق، ص١٣٠ ؛ علي شعيب: المرجع السابق، ص٦٧ــ٧٨.

([3]) شفيق جحا: المرجع السابق، ص٨٣ــ٨٤ ؛ إبراهيم محسن: المرجع السابق، ص٢٠٢.

([4]) أنطوان عريضة : المرجع السابق ، ص٦٢ــ٦٣ ؛ محمد مراد: أضواء على العلاقات اللبنانية ــ السورية، ٩٣ــ٩٥.

السوريين، أما دخل لبنان من السياحة والاصطياف على الرغم من جوها اللطيف ومائها العذب إلا أنه أيام الانتداب الفرنسي كان قليل جداً، فإذا ساءت أحوال الداخل "أي سوريا" اقتصادياً يكون لبنان أول من يتأثر بذلك فتسوء حالته ويصبح الكثير من سكانه بلا عمل وبلا مورد. فالحالة الاقتصادية في سوريا ولبنان كان من الصعب أن تزدهر مادام هذان القطران منفصلين اقتصادياً عن بعضهما، وعن الأقطار العربية المجاورة لهما([1])؛ فالانتداب الفرنسي أثر بشكل سلبي على سوريا ولبنان معاً، وإمتد تأثيره على بقية الدول العربية المجاورة لهما.

لقد شهدت السنوات الثلاث التي سبقت الحرب العالمية الثانية باشتداد المعارضة ضد الانتداب الفرنسي، إثر تفاقم الأزمة الاقتصادية التي نجمت عن تخفيض قيمة الفرنك الفرنسي في رجب ١٣٥٥هـ/سبتمبر ١٩٣٦م. فبدأت الأسعار ترتفع ارتفاعاً فاحشاً أصاب كاهل الطبقات الوسطى والفقيرة، ففي ١٦ رجب ١٣٥٦هـ/ ٢١ سبتمبر ١٩٣٧م أضرب عمال المرفأ مطالبين بزيادة أجورهم، وتمكنوا من تحقيق مطالبهم، وللسبب نفسه أضرب عمال الورش والحدادة والسمكرة، وفي ٥ ذو القعدة ١٣٥٧هـ/٢٧ ديسمبر ١٩٣٨م أضرب موظفو المساحة والتسجيل العقاري، احتجاجاً على خصم ٢٥%من ميزانية المساحة ومكتب التسجيل العقاري، وبلغت تلك الاضرابات ذروتها بعد أن رفعت شركة المياه أسعارها بنسبة ٢٠% وزادت أسعار المحروقات والثلج، فعمت المظاهرات والاضطرابات سائر المدن اللبنانية وتجاوبت معها فئات الشعب كافة، بعد أن طالت الأزمة حتى ثمن رغيف الخبز([2]).

أدت هذه الأزمة الاقتصادية إلى التقارب بين جميع الطوائف والأحزاب في لبنان، حيث توحدت جميع فئات الشعب التي كانت تتنازع حول هوية الكيان اللبناني الجديد، فنظم الشعب اللبناني حملة شعبية تهدف إلى جمع التبرعات لتوزيع الطحين مجاناً على الفقراء، حتى أن الكتائب التي رأى فيها الفرنسيون أداة طيعة لأهدافهم انضمت إلى صفوف المناهضين للانتداب([3])، وقامت عدد من الحملات التي كانت تدعوا إلى مقاطعة منتجات الشركات الأجنبية وخاصة الفرنسية التي كانت تغزو البلاد، والعمل على تشجيع الصناعة الوطنية على الرغم من قلة أنواعها، وكانت تهدف هذه الحملة إلى توعية جمهور الشعب اللبناني بأهمية النهضة الاقتصادية، وأن التحرر الاقتصادي هو بداية التحرر السياسي في لبنان([4]).

([1]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص٢٠٧.

([2]) سعيد مراد: المرجع السابق،ص٢٨٤ــ٢٨٥.

([3]) سعيد مراد :المرجع السابق، ص٢٨٥ ؛ رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٦١ــ٦٢.

([4]) جان سرور: جمعية التضامن الأدبي من عام ١٩٢٣إلى عام ١٩٣٣م، (مجلة تاريخ العرب والعالم، دار النشر= =العربية ، بيروت، العدد ٢٣، السنة ٢ ، شوال ١٤٠٠هـ/ سبتمبر ١٩٨٠م)، ص٦٥.

ومن ذلك نجد مدى تأثير الجانب الاقتصادي على الحياة السياسية في موقف الشعب اللبناني من الانتداب الفرنسي، الذي استغل حتى اللبنانيين الموارنة المؤيدين للانتداب، ورأينا كيف انقلب الموارنة ضد الفرنسيين في موقف البطريرك أنطون عريضه الذي ناهض الانتداب الفرنسي، لأنه أدرك أن هذا الانتداب كان يعمل على استنزاف الشعب العربي المسلم والنصراني معاً في لبنان وسوريا.

وبالنظر إلى الحالة المتردية التي وصلت الحالة السياسة والاقتصادية في ظل الانتداب الفرنسي، ونتيجة لاشتداد المعارضة، عمدت الحكومة الفرنسية إلى استدعاء مفوضها السامي دي مارتيل واستبداله بمفوض آخر وهو غبريال بيو. الذي ما أن انصرف لمعالجة الشؤون السورية واللبنانية حتى نشبت الحرب العالمية الثانية في١٦ رجب ١٣٥٨ هـ/الأول من سبتمبر ١٩٣٩م بين ألمانيا من جهة وبين إنجلترا وفرنسا من جهة أخر. فأصدر غبريال بيو قراراً بتعليق الدستور في ٧ شعبان ١٣٥٨هـ/ ٢١ سبتمبر١٩٣٩م في لبنان واسترد الفرنسيون ما كان في لبنان من شكليات الحكم الوطني([١]).

لقد أدرك الشعب اللبناني بعد هذه الأزمة الاقتصادية التي مرت بالبلاد في ظل الانتداب الفرنسي، أن مصلحة فرنسا كانت فوق أي مصلحة طائفية أو غيرها في سوريا ولبنان، حيث ظل الميزان التجاري السوري اللبناني في عجز دائم من خلال عمليات التبادل التجاري مع فرنسا وغيرها من الدول الأجنبية، بينما التبادل التجاري بين الدول العربية المجاورة([٢]) أظهر ربحاً ونمواً دائماً في الميزان التجاري السوري اللبناني، إن هذا التطور في حجم التبادلات التجارية مع البلاد العربية أدى إلى طرح فكرة الوحدة العربية بشكل جدي في الوسط اللبناني، فالترابط الاقتصادي في حلقاته الثلاثة: اللبنانية ــ السورية ــ العربية، سوف يكون له أثره البارز في خوض معركة الاستقلال السوري اللبناني والتخلص من نظام الانتداب الفرنسي الظالم للبلدين الشقيقين([٣]).

يتضح لنا من خلال هذا العرض الموجز أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاقتصادية لسورية ولبنان أن المستعمر الأجنبي مهما كانت قوته وسيطرته على بعض الطوائف النصرانية، فإنه لا يمكن له أن يعيش في وسط عربي مسلم، وأننا نلاحظ أن الذي انتشل بلاد الشام من أزمته الاقتصادية، وساعد على تحسين أحوالها المادية، هم العرب المجاورون لها وليس فرنسا التي كانت تدعي ظلماً وبهتاناً تطوير البلاد والنهوض بها في شكل الانتداب، فالانتداب الفرنسي

([١]) سعيد مراد : المرجع السابق ، ص٢٨٦ ؛ محمد الخالدي: المرجع السابق، ص٤١١.

([٢])انظر جدول التعاملات التجارية لعام ١٩٣٠م في ملحق الجداول الملحق رقم ٣.

([٣]) محمد مراد: أضواء على العلاقات اللبنانية ــ السورية، ٩٤ــ٩٥ ؛ السياسة الانتدابية الفرنسية، ص١٨٧.

عمل على نهب البلاد واستغلال خيراتها لمصلحته فقط، وليس لمصلحة الشعوب المنتدبه كما كان يدعي.

المبحث الثاني: أثر الانتداب الفرنسي على المؤسسات التعليمية والثقافية.

لقد بدأ التأثير الفرنسي على المؤسسات التعليمية والثقافية قبل الانتداب وذلك، عندما كانت البعثات التنصيرية منتشرة في بلاد الشام، حيث كان النصارى العرب من رعايا الدولة العثمانية يدعمون هذه البعثات، مستغلين تسامح الدولة مع، رعاياها متسترين خلف شعار التعليم وإحياء اللغة العربية، فدعوا إلى القومية التي كانت الفتيل الذي أشعل نار الفتنة والتناحر بين الأتراك العثمانيين ورعاياهم في الولايات العربية في بلاد الشام.

ونتيجة للغزو الفكري الغربي الذي شنه أعداء الدولة العثمانية عليها، والذي ساعد في نشره وجود بعض النصارى العرب في بلاد الشام من رعايا الدولة العثمانية، مما أدى إلى نمو نشاط البعثات التنصيرية الغربية في داخل الدولة العثمانية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي([1])، مستغلين تسامح الدولة مع رعاياها، مما أجج النعرات القومية والدينية في الولايات العربية العثمانية وخاصة في لبنان.

وكما هو معلوم فإن الدولة العثمانية اهتمت بنشر التعليم وتطويره في ولايات الشام وخاصة بعد تولي السلطان عبد الحميد الثاني الحكم، وصدر نظام خاص بالتعليم في الولايات العثمانية الذي قسم التعليم في تلك الفترة إلى ثلاثة مراحل:

أولاً: الابتدائية لتعليم الهجاء التركي، والقرآن الكريم، ومبادئ اللغة العربية، للاستفادة منها في تفسير القرآن والحديث، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات.

ثانياً: المكاتب الرشدية([2]) ويتعلم فيها الطلاب القراءة والكتابة والتاريخ والجغرافية الخاصة بالدولة العثمانية، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات.

ثالثاً: الإعدادية وهي تدّرس خريجي مدارس الرشدية لتأهلهم للحياة الوظيفية، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، وكانت اللغة التركية هي لغة التعليم، في جميع الولايات العثمانية([1])، وقد يكون هذا الذي أدى إلى تأخير التعليم بين العرب في عهد الدولة العثمانية.

([1]) جلال يحيى: الثورة العربية ، ص٣٠ ؛ نجيب عازوري: المرجع السابق ، ص٣١ــ٣٦ ؛ مروان بحيري وآخرون: الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠ــ١٩٣٩م، ترجمة: عطا عبد الوهاب، (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ط١، ١٩٨٣م)، ص١١٢ــ١١٣.

([2]) الرشدية: سميت بالرشدية نسبة إلى الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا الذي أمر بإنشائها في عام ١٢٥٣هــ/١٨٣٨م، وكانت المكاتب الرشدية هي أول بصمة في تأسيس تشكيلات التعليم الحديث في الدولة العثمانية. انظر:يوسف العتيبي: التعليم في بلاد الشام في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، (رسالة لنيل درجة الماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، ١٤٢٩هــ/٢٠٠٨م)، (غير منشورة)، ص٣٥.

فقد كانت نسبة الأمية في أواخر عهد الدولة العثمانية ٣٨% في سوريا، أما في لبنان فكانت تبلغ ١٦%([٢])، وقد أنشأت في عهد الدولة العثمانية المدارس المتخصصة والكليات العلمية مثل: الكلية الحربية وكلية الطب، ومدرسة الهندسة العسكرية، ومدارس أخرى لتعليم الترجمة والفنون الجميلة والفنون الحربية والبحرية وغيرها، وكانت هذه المدارس والكليات في اسطنبول، وقد درس فيها بعض أهل الشام، ولكن بالتركية، وكان هذا من أهم العوائق في نشر العلم في بلاد الشام([٣])، وحدث تنافس بين التعليم التركي، والمدارس التي أسستها البعثات التنصيرية في بلاد الشام ، فقد أرسلت مدارس البعثات التنصيرية الطلاب إلى فرنسا والبلاد الأوربية الأخرى لتلقي العلوم، وكان التعليم في بعض المدارس يتم باللغتين التركية والفرنسية كلغة مساعدة، لأن معظم المدرسين كانوا من الأوربيين([٤])، إن هذه البعثات التعليمية للدول الأوربية، على الرغم من قلتها إلا أنها أثرت على وجود الدولة العثمانية، فأكثر أصحابها أصبحوا مشبعين بالفكر الغربي حاقدين على الدولة العثمانية. وكان هذا من أهم الأهداف الذي سعت لتحقيقه البعثات التنصيرية في بلاد الشام وخاصة في لبنان التي يكثر فيها النصارى، والذين عملوا على إيجاد حركة ثقافية معادية للدولة العثمانية.

فقد نما الشعور المعادي للترك تغذيه عدة عوامل من أهمها التعليم الغربي، وظهور الصحف العربية (المناهضة لحكم الخلافة)، والسفر إلى الدول الغربية وعودة المغتربين من أوربا والولايات المتحدة الأمريكية([٥])، ومن هناك استورد العرب وخاصة النصارى منهم الأفكار الجديدة بدلاً من سعيهم للبحث عن سبل تطوير بلادهم والرقي بها إلى مصاف الدول المتقدمة، لذلك برز أثر الانتداب الفرنسي على المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام في مجالين رئيسيين هما أولاً: المدارس والجمعيات التنصيرية، وثانياً: الصحافة، وذلك قبل دخول الفرنسيين إلى بلاد الشام بصورة رسمية،

([١]) يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٣٥ـ٣٦ ؛ حنا أبو حنا: طلائع النهضة في فلسطين (خريجو المدارس الروسية) ١٨٦٢ـ١٩١٤م، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م)، ص١٣.

([٢]) بيير فيينو: الانتداب الفرنسي في بلاد الشرق(١)، تلخيص وتعليق: شكري فيصل، (مجلة الرسالة، دار الرسالة، القاهرة ، العدد ٣١١، السنة ٧، ١ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ/ ١٩ يونيو ١٩٣٩م)، ص١١٩١.

([٣]) محمد كرد على: المرجع السابق، ص٦٢.

([٤]) يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٣٦.

([٥]) ماجد بن صالح المضيان : أثر أهل الذمة الفكري في الدولة العثمانية في الفترة من (٩٢٦ـ١٣٤٣هـ/ ١٥٢٠ـ١٩٢٤م)، (رسالة لنيل درجة الماجستير بجامعة أم القرى، بمكة المكرمة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، (غير منشورة)، ص١٠٠ـ١٠١.

فـــــــــــــــقد مهدت هذه المدارس للانتداب الفرنسي والبريطاني في بلاد الشام بصفة عامة.

أــ أهم الآثار التي تركها الاستعمار الفرنسي على المؤسســات التعليميــة والثقافيــة فــي سوريا:

أولاً : المدارس في سوريا:

أنشأت الدولة العثمانية المدارس الحكومية في بلاد الشام عامة، وقد نالت دمشــق قصــب السبق في مضمار الآداب وإنشاء المكاتب الابتدائية التي تشكل المرحلة الأولــى مــن مراحــل التعليم، والدراسة فيها إلزامية ومجانية، وكان الهدف منها تمكين الطالب من القــراءة والكتابــة ومعرفة المعلومات الدينية الضرورية في حياته اليومية، فالدراسة الدينية كانت الســمة الرســمية للمدارس في التعليم بمراحله المختلفة، وفي عام ١٢٩٥هــ/١٨٧٨م أسس جماعة مــن العلمــاء والأهالي "جمعية المقاصد الخيرية"(١) في دمشق، لتعمل على نشــر العلــم وإنشــاء المــدارس الإسلامية الناطقة باللغــة العربيــة، لأن اللغــة التركيــة كانــت لغــة التــدريس حتــى عــام ١٣٣١هــ/١٩١٢م، حيث صدر قرار بجعل اللغة العربية لغة التعليم فــي المكاتــب الابتدائيــة والرشدية والإعدادية في الأماكن التي يتكلم أغلب سكانها باللغة العربية (٢).

كانت الثانوية العامة في عهد الدولة العثمانية تعرف بالمكتب السلطاني، وفي دمشق يطلق عليها مكتب عنبر(٣)، وظلت هذه المدارسة وغيرها موجودة في عهد الحكومة العربية في دمشق والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، وكانت تضم طلاب الثانوية العامة من كل أرجاء ولايــة

(١) وهي تختلف عن جمعية المقاصد الخيرية والتي أسست في بيروت في شعبان ١٢٩٥هــ/يوليــو ١٨٧٨م، وحملــت الصبغة الإسلامية، بينما جمعية المقاصد الخيرية في دمشق حملت الصبغة الوطنية الإسلامية بدعم سياسي من الوالي مدحت باشا. وفي ظل نجاح هذه الجمعية أنشأ العديد منها في المدن الشامية مثــل بيــروت، وطــرابلس، وبعلبــك، ومرجعيون، والنبطية، واللاذقية، وحماه، وحلب، والقدس، وعكا وطبرية...وغيرها، وكانت مصروفاتها تدفع من قبل أهل البر، ثم أصبحت هذه الجمعيات تشرف عليها الدولة العثمانية، انظر: يوسف العتيبي: المرجع السابق، الحاشــية (*)، ص١١٣ ؛ أنيس نصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، تحقيق: عبد الله الطبــاع، (دار ابــن زيدون، بيروت، ط١، ١٤٠٥هــ/١٩٨٥م)، حاشية ١٨١، ص١٦٩ــ١٧٠ ؛ توفيق علي برو: العرب والتــرك فــي العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ــ١٩١٤م، (دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٩١م)، ص٣٥.

(٢) توفيق علي برو: العرب والترك ص٣٥ ؛ يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص١١١ــ١١٥ ؛ ذوقــان قرقــوط: المشرق العربي، ص٢٠٢.

(٣) للمزيد من المعلومات حول هذا المكتب انظر: علي الطنطــاوي: المرجــع الســابق، ج١ ، ص١٤٥ـــــ١٦٣ وص١٩٥ــ٢٢٧.

دمشق[1]، وكان مكتب عنبر هو المدرسة الثانوية الوحيدة في دمشق[2]، ربما يرجع ذلك إلى قلة عدد السكان، وقلة المعلمين في تلك الفترة، وكذلك قلة الإمكانيات المادية فالإرساليات التنصيرية والمدارس الأجنبية ومدارس الطوائف الأخرى تعمل الدول الأجنبية على تمويلها، أما المدارس الحكومية والرسمية وخاصة الإسلامية لم تكن تجد من يمولها.

وعندما قامت الحكومة العربية في دمشق اهتمت بالتعليم، إلا أنه لم يكن مجاناً، كما واجهتهم مشكلة اللغة العربية، فقد كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية في اللغة الرسمية في الحكومة والتدريس، في عهد جمعية الاتحاد والترقي منذ عام١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وكان لابد من تحويل التعامل في جميع الدوائر والدواوين من اللغة التركية إلى اللغة العربية، وتم ذلك بسرعة فائقة، فأنشأت الحكومة العربية الشعبة الأولى للترجمة والتأليف في٢٣ صفر ١٣٣٧هـ/٢٨ نوفمبر ١٩١٨م وضمت إليها أمور المعارف وجعلتها كلها ديواناً للمعارف برئاسة محمد كرد علي[3]، فاتسعت بذلك أعمال ديوان المعارف وزادة حركة التأليف باللغة العربية والترجمة من التركية إلى العربية، ثم قامت الحكومة العربية بتقسيم الديوان إلى قسمين: الأول اختص بأعمال المعارف العامة وعهد به إلي ساطع الحصري[4]، والثاني اختص بأمور اللغة والمكتبات والآثار(وهو ما عرف فيما بعد باسم المجمع العلمي)[1].

---

[1] أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٦٠ـ٦٣ ؛ يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص١٣٤.

[2] إسماعيل نوري الربيعي: العرب والاستعمار إشكالية الهوية والوعي في تاريخ العرب السياسي الحديث، (إصدار دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط١، ٢٠٠٠م)، ص١٧٦.

[3] محمد كرد علي(١٢٩٣ـ١٣٧٣هـ/١٨٧٦ـ١٩٥٣م): ولد في دمشق من أم شركسية، وهو علم من أعلام التاريخ والأدب والصحافة، ورائد من رواد النهضة الثقافية، كان ضد الذين خرجوا على الدولة العثمانية، فهو مثل الأمير شكيب أرسلان، ولاءه عثماني، هاجر إلى مصر عام١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، ثم عاد إلى دمشق عام١٣٢٦هـ/١٩٠٨م بعد إعلان الدستور العثماني، وأصدر مجلة المقتبس، وأضاف إليها جريدة يومية باسمها بالتعاون مع أخيه أحمد، وفي عهد الحكومة الفيصلية عين رئيساً لديوان المعارف، وهو الذي أسس المجمع العلمي بدمشق في عام١٣٣٧هـ/١٩١٩م، ثم عين وزيراً للمعارف، في الحكومة السورية في ٢٤ شعبان ١٣٤٦هـ/١٥ فبراير ١٩٢٨م، كان عضواً في الكثير من المجامع العلمية العربية، ترك ميراثاً كبيراً من الكتب العلمية والتاريخية والتراثية ومن أهمها: كتاب "خطط الشام"، و "الإسلام والحضارة العربية". انظر:الزركلي: الأعلام ج٦، ص٢٠٢ـ٢٠٣ ؛ أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي السياسية..، الحاشية ١، ج١، ص٥٣ ؛ زكي المحاسني: فلسطين وسوريا والأردن ولبنان، ضمن دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة،(دار اقرأ)، ص٤٦٨.

[4] ساطع الحصري أبو خلدون(١٣٠٠ـ١٣٨٨هـ/١٨٨٣ـ١٩٦٨م): كاتب وباحث من علماء التربية، تترك ثم تعرب. حلبي الأصل، ولد بصنعاء لأن والده كان رئيس المحكمة فيها، تعلم في اسطنبول، أنشأ مجلة للتربية بالتركية، ووضع ١٢ كتاباً بالتركية، وفي عهد فيصل في سورية١٣٣٧هـ/١٩١٨م جدد عهده بالعربية حديثاً وكتابة، وعين وزيراً للمعارف في دمشق، وعندما احتل الفرنسيون سوريا سافر إلى بغداد، وفي

ولكن بعد سقوط الحكومة العربية في دمشق بعد معركة ميسلون واستتب الأمر لسلطات الانتداب الفرنسي في سوريا، بدأ خوف الفرنسيين من خطر تعليم اللغة العربية، وانتشارها فهي لغة القرآن الكريم، وكانت هذه اللغة الخطر الذي يهدد وجودهم في المنطقة، لأنها هي القاسم المشترك بين جميع المسلمين على اختلاف جنسياتهم لأنها لغة القرآن الكريم، لذلك عملت سلطات الانتداب على محاربتها ومحاولة القضاء عليها وإحلال اللهجات العامية محلها بالإضافة إلى ترسيخ استعمال اللغة الفرنسية.

لقد عمدت سلطات الانتداب الفرنسي على سوريا إلى مناهضة تعليم اللغة العربية وانتشارها، وظهرت في العشرينات نظريات باطلة تنادي بفقر اللغة العربية وجمودها وعدم تمكنها من مسايرة النهضة العليمة في العالم، وخاصة في المصطلحات والمشتقات، وعلى الرغم من أن ثورة الشريف حسين أطلق عليها الثورة العربية، لأنها كانت تناهض اللغة التركية وتعمل على إحلال اللغة العربية محلها في المدارس والمحاكم والإدارات، واستخدمتها كدعامة قوية وأساسية لوحدة شعوب المنطقة، ووحدة تاريخها وتراثها، وهذا ما جعل الانتداب الفرنسي يعمل على تحطيم هذه اللغة، وتشكيك النشء في لغتهم، بتعديل نظم الدراسة وبفتح مدارس أجنبية جديدة، ومحاولة ربط الثقافة الشرقية بالفكر الفرنسي، فنشأت المنازعات الفكرية التي جعلت العرب يشعرون بخطورة طمس هويتهم العربية([2])، وعلى مستقبل أولادهم وبلادهم، فهؤلاء المستعمرون حاولوا تجاهل الحضارة العربية الإسلامية التي أشرقت منها شمس العرب والمسلمين على الغرب الأوربي بأكمله.

هذا الأثر السيئ الذي تركه الانتداب الفرنسي على سوريا جعل الشعب السوري يتسابق للحفاظ على تراثه الثقافي في سوريا ولبنان على اعتبار أنهم دولة واحدة، فكتب لطفي الحفار في جريدة المقتبس في مقال بعنوان "اللغة العربية في لبنان" جاء فيه ما يلي:" اطلع قراء الصحف على ما نشرته جرائد بيروت من إهمال بعض مأموري الحكومة في لبنان لغتهم القومية (العربية)، وشروعهم باستعمال اللغة الفرنسية في المعاملات الرسمية، مما أثار حفيظة مفكري هذه الأمة وكتابها وصحافتها. وبما أن الأمر جلل فلا يجوز أن نمر عليه دون بحث وتدقيق،

عام١٣٦٠هـ/١٩٤١م عاد إلى حلب، وأصبح مستشاراً فنياً في وزارة المعارف بدمشق، وفي الفترة من١٣٦٣ــ١٣٦٥هـ/١٩٤٤ــ١٩٤٦م انتقل إلى مصر فعهدت إلية جامعة الدول العربية بإنشاء "معهد الدراسات"، له العديد من المؤلفات. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٧٠ ؛ نيقولو مكيافلي: الأمير تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ترجمة: خيري حماد، تعقيب: فاروق سعد، (الأهلية للنشر والتوزيع، عَمان، ط١، ٢٠٠٨م)، ص٢٧٤ــ٢٧٥.

([1]) خيرية قاسمية: الحكومة العربية، ص٢٣٣ــ٢٣٥

([2]) جلال يحيى: العالم العربي..، ج٢، ص٢٥٨ ؛ أحمد يوسف داود: المرجع السابق، ص١٠٩ــ١١٠.

خصوصاً ونحن في بدء تكوين حكوماتنا الجديدة في هذه الديار. إن البلاد السورية، في مظهرها الجديد، في أشد الحاجة لتماسك أجزائها، وتفاهم رجالها، والتمسك بميزاتها الوطنية...، وأي ميزة...أهم من ميزة اللغة التي يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، منذ أجيالٍ وأحقاب، وبخاصةٍ إذا كانت هذه اللغة من اللغات التي يحفظ لها التاريخ بين دفتيه آثاراً خالدة، ومادةً علمية وأدبية غزيرة"([1]). وعلينا أن نشير هنا إلى أن اللغة العربية والمحافظة عليها كانت من أهم العوامل التي أدت إلى خلق الخلاف والشقاق بين الدولة العثمانية والعرب، وأن حرب الأعداء على اللغة العربية نجحت في لبنان أكثر من سوريا نظراً لكثرة النصارى وخاصة الموارنة، مع العلم أن هؤلاء النصارى هم الذين هاجموا الدولة العثمانية ودعوتها إلى القومية التركية، وهم الذين بذروا بذور الفتنة القومية التي ظهرت في أواخر أيام الدولة العثمانية.

ومع ازدياد النفوذ الثقافي الفرنسي في سوريا ومحاولة إنشاء جيل جديد متأثر بالفكر والثقافة الفرنسية في المنطقة زاد من تأزم الوضع بين القوى الوطنية والأجنبية، فقد عملت سلطات الانتداب على تشجيع المدارس الأجنبية، ووقفت في وجه المدارس الوطنية وإنشائها لخنق الروح العلمية، وقتل الحرية الفكرية، بتعديل برنامج التعليم حسب أهواء المستعمر ورغباته، وصهر البلاد وأهلها في بوتقة ثقافة المستعمر لإرضاخهم والهيمنة عليهم، حتى تصبح البلاد وأهلها في يدهم كالكرة يقذف بها حيث يشاء([2])، مما ساعد على نمو الفكر العربي الإسلامي، في الإقليم السوري أكثر من بقية الأقاليم العربية الأخرى، خاصة بعد إنشاء فرنسا لدولة لبنان الكبير، في محاولة منها لجعلها موطن للعرب المسيحيين المتأثرين بالفكر الفرنسي، واعتبار سوريا موطن للعرب المسلمين، وتقسيم البلاد العربية وتجزئتها على أساس طائفي ضعيف.

وكانت فرنسا منذ احتلال جيوشها لسوريا تخطط لغزو المناطق السورية فكرياً تدريجياً؛ بحيث تبدأ أولاً بالمناطق الفقيرة ثقافياً مثل منطقتي جبل الدروز واللاذقية التي يسكنها الكثير من الفلاحين الأميين، فأنشؤوا في جبل الدروز([3]) بعض المدارس الابتدائية الرسمية([4])، وجاؤوا لها

([1]) سلمى الحفار : المرجع السابق، ص٩٩.

([2]) جلال يحيى: العالم العربي..، ج٢، ص٢٥٨ ؛ أحمد يوسف داود: المرجع السابق، ص١٠٩ــ ١١٠.

([3]) افتتحت أول مدرسه في ظل الانتداب في جبل الدروز سنة١٣٣٩هـ/١٩٢١م في السويداء وفيها ١٥٢ تلميذاً. وخطط لبناء ٥ مدارس في كل عام، وفي سنة١٣٤١هـ/١٩٢٣م شيدت ١٤ مدرسة وفي صيف١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م أصبحت المدارس ٥٠ مدرسة، وبلغ عدد تلاميذ السويداء ٣٨٠ تلميذاً. ومنذ سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م وحتى سنة ١٩٣٣م ارتفع عدد المدارس من ٧١ إلى ١٠٥ مدرسة. انظر:برجيت شيبلر: المرجع السابق، ص٢١٤ وص٢٣٩.

([4]) منير الريس: المرجع السابق، ص١٥٠ ؛ بول كوبلنز: المرجع السابق، ص١٥٨.

بمعلمين من لبنان نصارى مارونيين، وحملوا أهل القرى على إنشاء المدارس الابتدائية الأخرى؛ بحيث ينفق عليها السكان أنفسهم، وعهدوا إلى اليسوعيين([1]) بإدارتها، هذا بالإضافة إلى مدارس مماثلة أحدثت في حوران ومنطقة العلويين. وكان خريجو هذه المدارس يمنعون من إتمام دراستهم في المدارس السورية. وكان التلاميذ يتعلمون على أيدي الآباء اليسوعيين الديانة المسيحية وجغرافية فرنسا باللغة الفرنسية. وكان في كتب التاريخ التي تدرس كذب وتشويه للتاريخ العربي، ومزاعم أن أصل الشقر من سكان جبل الدروز وجبال اللاذقية غاليون (فرنسيون) وصليبيون([2])، ولم ينشئ الفرنسيون في هاتين المنطقتين مدارس ثانوية، بل أن أعلى مدرسة أحدثوها كانت دون الإعدادية يتخرج منها طلاب فقدوا الإيمان بدينهم وقوميتهم ناقصوا الثقافة، لا يعرفون شيئاً من تاريخ بلادهم وأمتهم العربية ــ الإسلامية ــ، ويجلون ويكبرون كل ما هو فرنسي ــ على اعتبار أنهم منهم كما أفهمهم الفرنسيون ــ، وكان هم فرنسا في هذه المناطق أن تخرج جيلاً متفرنجاً جاهلاً تستخدمه في تحقيق أهدافها الاستعمارية التي ترمي إلى تنصير وفرنجة السكان([3]). لذلك نجدها تركز على النشء من صغار السن، الذين يسهل غرس الأفكار الهدامة فيهم.

أما المتعلمون والمثقفون على الرغم من قلتهم في جبل الدروز فقد حاول الفرنسيون تحييدهم، وذلك بمنع دخول الصحف العربية إلى جبل الدروز، حتى يتجنب كاربيية حاكم الجبل قيامهم بثورة ضده، لذلك بذل هذا الشخص جهده في تعليم الصغار الثقافة الفرنسية والتاريخ الفرنسي، وأنشأ العديد من المدارس، يذكر أنها بلغت الثلاثين مدرسة كانت تهدف إلى طمس الهوية العربية للمنطقة، وجذب الدروز في صف فرنسا([4]).

وقد نشطت البعثات التنصيرية في سوريا بشكل كبير بعد دخول الاحتلال الفرنسي، حيث دخل الفرنسيون إلى جبال العلويين، واستكتبوا رجلاً يدعى محمد تامر ــ يدعون أنه من

([1]) اليسوعيون:أو الجزويت أتباع يسوع المسيح ــ عيسى عليه السلام ــ وهم رهابنة متعصبون تعاهدوا على= =خدمة الكنيسة الكاثوليكية والعمل على نشر الدين المسيحي وتنصير المسلمين في الشرق الإسلامي، أنشأوا العديد من الأديرة في بلاد الشام، وعملوا على منافسة البعثات البروتستنتية في الشرق. انظر: عبدالعزيز الشناوي: أوربا في مطلع العصور الحديثة، (مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٤، ١٩٨٠م)، ج١، ص٥٥٥ ؛ عبدالحميد البطريق، عبدالعزيز نوار: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥م)، ص١١٥ــ١١٧ ؛ توفيق برو: العرب والترك، ص٣٤ــ٣٥.

([2]) منير الريس: المرجع السابق، ص١٥٠ ؛ الأب لامنس اليسوعي : الفرنسيون في سورية في القرنين السادس والسابع للمسيح، (مجلة المشرق، مجلة كاثوليكية تصدرها كلية القديس يوسف، بيروت، ١٩٣٢م)، ص٤١٨ــ٤١٩.

([3]) منير الريس: المرجع السابق، ص١٥٠ــ١٥١.

([4]) كاربيية: المرجع السابق، ص٢٩ــ٣١.

النصيريين ــ يزعم أن قبائل العلويين من أحفاد الصليبيين، وأن النصرانية خير الأديــان، وأنــه طلب من الراهبات اليسوعيات أن يرسلوا بعثات تنصيرية إلى جبل العلــويين، ونجحــت هــذه البعثات التنصيرية بمساعدة الفرنسيين والجيش ــ الفرنسي على أصح تعبيرــ أن ينصروا اثنتين وعشرين أسرة و عمدوا قرابة ٨٠ شخصاً في ربيع الأول ١٣٤٩هــ/أغسطس عام ١٩٣٠م([١]). لقد عملت فرنسا منذ قرون على بث بذور التفرقة بين المسلمين والنصارى عن طريق البعثــات الدينية التنصيرية وخاصة اليسوعية([٢]).

فقد نوعة فرنسا في أساليب هدم التعليم والتربية والقيم الإسلامية الأصيلة ووجهتها توجيــه يقتل المواهب الفكرية ويميت روح الاعتماد على النفس، ويفســد المزايــا الخلقيــة والفضــائل الروحانية الإسلامية، ويلائم خطط الاستعمار الهدامة المبنية علــى ترســيخ الــروح اللادينيــة واللاقومية، بإهمال كل ما يحيى في قلوب الناس ــ الثقافة الإســلامية ــ والتــراث الإســلامي والعادات والتقاليد والآداب المحترمة، كيلا يقوى الشعور الإسلامي، ويتنبه الناس إلــى دراســة ماضيهم ومعرفة تاريخهم والمطالبة بحقوقهم المسلوبة([٣]).

لقد أهملت فرنسا المدارس العربية والإسلامية وأهملــت تــدريب المدرســين والمعلمــين العرب، وفي الوقت نفسه عملت على نشر لغتها الفرنسية وتأسيس مدارسها فــي طــول الــبلاد وعرضها، وكانت اللغة خطوة أولى لفرض سيطرتها على ثقافة البلاد وخيراتها، تلتها خطــوات تعين عدد كبير من الفرنسيين في الوظائف والإدارات الحكومية والأهلية، فكم من فرنسي عجــز عن فهم سوري نتيجة لجهله باللغة العربية، وفي النهاية ظهــرت حكومــة الانتــداب الفرنســي المتعجرفة وأثبتت عجزها عن القيام بمهامها التي أوكلتها إليها عصبة الأمم فــي تنميــة الــبلاد وتطويرها، فسارت في طريق ملىء بالإصطدامات بانتهاجها سياسة التفرقة العنصرية والتمويــة على الأهالي، مما وضع فرنسا في سلسلة طويلة من الثورات والكفاح الوطني الذي اقلــق بالهــا طول مدة وجودها في المنطقة([٤]).

وعلى الرغم من كل الجهود الفرنسية لقتل الثقافة العربية، فقد كان هناك من يحاول ترقية التعليم والثقافة العربية في سوريا والنهوض بها بقدر استطاعتها، فعملت وزارة المعارف برئاسة محمد كرد علي في الحكومة السورية على ترقية التعليم وفتح المــدارس فــي ســوريا للــذكور

([١]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلــى إخضاع الشرق للاستعمار الغربــي، (منشــورات المكتبــة العصــرية ، بيــروت ــ صــيدا، ط٣)، ١٩٨٢م، ص٥٣ــ٥٤.

([٢]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٢٧١.

([٣]) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٧٤ــ٧٦.

([٤]) جلال يحيى: العالم العربي..، ج٢، ص٢٥٨ــ٢٥٩.

والإناث، فبلغ مجموع المدارس الحكومية الحديثة في سنتي١٣٤٦ــ١٣٤٧هــ/ ١٩٢٨ــ١٩٢٩م أربع وعشرون مدرسة للذكور و أربع مدارس للإناث، وثـلاث مـدارس للبـدو، وفـي سـنة ١٣٤٨هــ/١٩٣٠م تم إحداث عشرين وظيفة تعليمية، كما بلغ عدد التلاميـذ والتلميـذات فـي المدارس الحكومية ٣٢.٢٨٧ تلميذاً و ٨.٦٤٩ تلميذة([1]).

أما المدارس الأجنبية والطائفية فقد كانت منتشرة في دمشق منذ أيـام الدولـة العثمانيـة، ويتركز معظمها في حي النصارى المعروف بباب توما([2])، كما يوجد في حي الميدان عدد مـن المدارس الطائفية للروم الكاثوليك على الرغم من أن هذا الحي أغلب سكانه من المسلمين، لكـن النصارى بصفة عامة في بلاد الشام كانوا يعملون على استدراج المسلمين للتعلم فـي مدارسـهم في محاولة منهم لتغير مذهبهم الديني([3]). وقد بلـغ عـدد المـدارس الأجنبيـة الجديـدة فـي سنة١٣٤٧هــ/١٩٢٩م سبعاً وأربعين مدرسة للذكور فيها ٥.٧٣٢ تلميذاً، وست وثلاثين مدرسة للإناث فيها ٥.٧٢٠ تلميذة، أما المدارس الطائفية فقد بلغ عددها ١٥١ مدرسه للذكور بلغ عـدد التلاميذ فيها ١٥.٩٠٢ تلميذاً، و٣٤ مدرسة للإناث فيها ٦.٠٦٧ تلميذة([4]). من هذه الإحصـائية يتبن لنا مدى إهمال سلطات الانتداب الفرنسي في نشر التعليم بين الشعب السـوري فالمـدارس العربية الإسلامية كانت قليلة جداً، مقارنة بالمدارس الأجنبية والطائفية التي كانت تتفوق عليهـا من حيث العدد والعدة، وأن هذا من الخطط الاستعمارية الخبيثة التي عمل الانتـداب الفرنسـي على تنفيذها فهو يحاول بهذه الطريق جذب الشعب العربي المسلم للتعليم في المدارس الطائفيـة والأجنبية، حتى يتمكن من السيطرة عليه فكرياً وهو بذلك يقتل في نفس الشعب روح المقاومـة ضد الاستعمار الأجنبي.

لقد عملت السلطات الفرنسية على محاولة طمس الثقافة العربية، وفرضت عوضـاً عنهـا اللغة الفرنسية وجعلتها لغة إلزامية في المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وشـجعت فـي الوقت نفسه مدارس الإرساليات الأجنبية، ولاسيما اليسوعية، وكانت كل صحيفة تجرؤ على نقـد مدارس الإرساليات تغلق على الفور. وحاولت فرنسا تبرير سياستها التي تقـوم علـى مضـايقة

([1]) الحكومة السورية في ثلاث سنين، ص٣٣ــ٣٤.

([2]) باب توما يقع على الجهة الشمالية الشرقية من سور دمشق، ويمثل أحد أبوابها الرئيسية، ويغلب عليـه الطـابع الأثري التاريخي، وأغلب سكانه من النصارى، حتى اليوم. انظر: ممدوح حقي: صفحات من تاريخ سورية فـي سيرة المناضل عارف التَوَّام، تقديم : عبد الكريم اليافي، و حافظ الجمالي، (دار طلاس، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م)، ص٣٤ ؛ يوسف العتيبي: المرجع السـابق، الحاشـية (*) ، ص٢٩٠ ؛ ممـدوح حقـي: المرجـع السـابق، ص٣٤ــ٣٥.

([3]) يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٢٩٠ــ٢٩١.

([4]) الحكومة السورية في ثلاث سنين، ص٣٣ــ٣٤.

المدارس العربية بأنه لاحاجة لوجود لغتين في البلاد، وأن الشعب الذي يتحدث اللهجة العامية السورية لا يفهم اللغة العربية الفصحى، وأن اللهجة العامية تفتقر إلى الأبجدية، ولا يمكن أن تكون أساساً للتدريس. وبهذه الذريعة فضل الفرنسيون إبقاء الجماهير الشعبية الواسعة من دون مدارس عموماً، وتعليم النخبة من أصحاب الامتيازات اللغة الفرنسية التي تعتبر اللغة الرسمية في البلاد([1]).

ان التدريس في المدارس الرسمية والأهلية الإسلامية في سوريا عموماً كان يتبع في الماضي على وجه الإجمال البرنامج العثماني، لأن الأساتذة كانوا تلقوا دروسهم بمقتضى هذا البرنامج، وعندما دخل الانتداب الفرنسي البلاد عمل على تغير نظام التدريس تدريجياً، لذلك كانت وحدة التعليم مفقودة في سوريا، ــ فهناك مدارس إسلامية، وأجنبية، وطائفية ــ لذلك أحدثت وزارة المعارف نظام البكالوريا سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م، مما أضطر المدارس إلى إتباع برنامج واحد تأميناً لنجاح طلابها في امتحان البكالوريا، فلا تعطي الوزارة شهادة الثانوية إلا عند اجتياز امتحان البكالوريا، كما شجعت سلطات الانتداب الإكثار من إيفاد البعثات العلمية إلى فرنسا، لتخريج أساتذة للمدارس الثانوية، وعملت على تأسيس دور لتدريس معلمي المدارس الثانوي([2]). ويجب أن نلاحظ هنا تركيز سلطات الانتداب على استقطاب النخبة والنشء من أهل البلاد، فهم يعملون على استقطاب النخبة من السوريين للدراسة في فرنسا، ويعيدوهم بعد تخرجهم إلى البلاد؛ لتدريس النشء الصغير في السن ؛ حتى يغرسوا فيهم ما لم يستطيع أن يغرسه الأجانب والمنصرون، وبذلك استطاعوا بهذا الأسلوب أن يسيطروا على جميع فئات الشعب السوري.

وأنه على الرغم من أن الشعب السوري في المدن الداخلية كان على جانب لا بأس به من الثقافة والعلم، ولم يكن من السهل السيطرة عليه، ففي دمشق جامعة سورية([3]) تخرج الأطباء والصيادلة والمحامين والقضاة، وكانت السيطرة الثقافية في دمشق ليست بالسهولة التي وجدتها فرنسا في جبل الدروز واللاذقية، لذلك عملت على وضع برنامج لفرنجة النشء ولكن على المدى الطويل، فسلطات الانتداب لم تستطع إلغاء المدارس القائمة، ولكنها أخضعتها لبرامجها وسلطانها، بحيث نسفت في هذا البرنامج كل ما هو عربي وإسلامي كالتاريخ والاجتماع، وأحلت محله تاريخ فرنسا ولغتها وأدبها وجغرافيتها، حتى يتخرج الشباب متفرنجاً يجهل تاريخ أمته

([1]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١٣٢.

([2]) أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٤٩ ؛ الحكومة السورية في ثلاث سنين، ص٣٤.

([3]) الجامعة السورية: أسست في دمشق في٣٠ شوال ١٣٤١هـ/١٥ يونيو ١٩٢٣م، وهي ذات فرعين الطب والحقوق، ثم أضيفت إليها شعبة الآداب، والعلوم، وكان يدرس بها بعض العلماء من مصر وبلاد الغرب كلاً حسب تخصصه. انظر: محمد كرد علي:المرجع السابق،ج٤، ص٧٧ــ٧٨ ؛ الحكومة السورية في ثلاث سنين، ص٣٤.

وأمجادها، وآدابها وثقافتها([1])، وقد خاض الآباء اليسوعيون معركة قاسية لإغلاق الجامعة السورية في دمشق، حتى يتفردوا بالتعليم الجامعي في سوريا ولبنان، لكنهم لم يستطيعوا خوفاً من نقمة الشعب على الانتداب وما سيرافق ذلك من اضطرابات، لذلك عملوا على التدخل المباشر في مناهج الجامعة وجهازها التعليمي بما يضمن مصلحة الانتداب الفرنسي([2]).

عندما فشلت السلطات الفرنسية في غلق الجامعة السورية فكرت في إنشاء جامعة في دمشق لاحتواء المعارضة السورية ضد الانتداب الفرنسي، لتعمل هذه الجامعة على مواجهة الثقافة الإسلامية، بالثقافة الغربية، لكنه نظراً لوجود عدد كبير من المسلمين في سوريا، واعتبار دمشق مركزاً ثقافياً إسلامياً، فشلت هذه الفكرة، لأن فرنسا كانت تخشى دوماً من خطر تحول دمشق إلى مركز ديني للمعارضة([3]).

لذلك ضيقت سلطات الانتداب الخناق على نظام التعليم الإسلامي خاصة، فألغت من المدارس دراسة العلوم الدينية مثل: القرآن الكريم والفقه وأصوله والتوحيد والتجويد والتفسير والحديث ومصطلحه وغيرها من العلوم الشرعية، وجعلوها درساً واحداً سموه درس الدين([4])، وما فعله الفرنسيون في مواد الدين فعلوه في مواد اللغة العربية فألحقوا علوم اللغة العربية بالدين في درس واحد، وجعلوا لها حصة واحدة في الأسبوع، واختاروا لها أضعف المدرسين، ثم جعلوا نسبة النجاح ٥٠%، ثم زادوا في الشر إيغالاً، عندما لم يدخلوا هذا الدرس في الامتحانات النهائية، فصارت علوم الدين واللغة العربية مهملة، فصار الطلاب ينجحون وهم يجهلون علوم دينهم ولغتهم، وتاريخهم، فهم يدرسون عن الثورة الفرنسية ونابليون، وملوك فرنسا أكثر مما يدرسون عن تاريخ المسلمين والأمويين والعباسيين([5]).

وقد ظلت المدارس الحكومية حتى اليوم متأثرة بهذا التغير الذي أحدثه الانتداب الفرنسي في بلاد الشام، فالعلوم الدينة من فقه وتوحيد وحديث وتفسير لا تدرس في المدارس العامة إلى اليوم، فقد اكتفت المدارس بمادة الثقافة الإسلامية فقط، ومن يريد أن يتخصص بعد ذلك عليه أن يتوجه إلى المدارس الشرعية أو العلمية.

([1]) منير الريس: المرجع السابق، ص١٥١ ؛ زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٤٦٩.

([2]) مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣٠.

([3]) وجيه كوثراني: البعد التاريخي للعلاقات اللبنانية ــ السورية (٢)، ص٤٨ــ٤٩ ؛ محمد مراد: أضواء على العلاقات اللبنانية ــ السورية، ص٨٢.

([4]) علي الطنطاوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٨٤ ؛ أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص٥٧ ؛ ممدوح حقي: المرجع السابق، ص٦٤.

([5]) علي الطنطاوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٨٤ــ٣٨٦.

كما طلب الجنرال غورو بعد احتلال سوريا وإنشاء إدارة الانتداب من هنري لامــنس([1]) تحضير دروس عن تاريخ سوريا، بغرض تدريسها في المدارس التــي ســوف تتــولى تعلــيم الموظفين الجدد في ظل الانتداب، وبالفعل قام لامنس بتأليف كتاب "تاريخ سورية " الــذي كــان يدرس في المدارس العامة والخاصة في سوريا والمليء بالمغالطات التاريخية، فهو يسمي الفــتح الإسلامي بــ"الخطر العربي"، ويصف العرب المسلمين أنهم بدوا متوحشين غير قــادرين علــى التمدن، بينما يصف سوريا فترة الحروب الصليبية فيقول "فقد وصل الصــليبيون.. إلــى بــلاد منهارة وفقيرة، أما عند خروجهم فكانت سورية قد ازدهرت واغتنــى ســكانها..وأن المســلمين فضلوا حكم الصليبين على حكم أمراء المسلمين لوجود التسامح وانسجام سكان الــبلاد"([2]) قــد يكون كلام لامنس صحيح إذا كان يقصد بسكان البلاد هم الصليبين الذين بالفعل اغتنوا من جراء استغلالهم لخيرات البلاد واستعباد أهلها الأصليين، ونهب خيراتهم.

كما اعتبر لا منس انتهاء الحكم العثماني في سوريا تحريــراً، ويؤكــد علــى أن الجــيش العربي لم يقوم بدور ملحوظ في الحملة العسكرية التي أدت إلى خروج العثمــانيين مــن الــبلاد ولذلك لا يستحق العرب أي دور في الحكم. وبذلك هو يبرر حكم الانتداب الفرنسي الــذي يــراه متناسباً مع آمال سكان سوريا([3]). وهذا يؤكد مدى الحقد الدفين من الفرنســيين علــى الإســلام والمسلمين فهذا الاستعمار الذي يسعى لتغيير ثقافات الشعوب التي تقع تحت حكمه ويعمل علــى ترسيخ لغته وثقافته، كما فعلوا في لبنان وسوريا والمغرب العربي، ويمكن اعتبــار الاســتعمار الفرنسي، هو حرب صليبية جديدة في العصر الحديث.

لم يسكت المسلمون في سوريا عن هذا الكتاب، فقد رد محمد كرد علي على الافتــراءات والمغالطات التاريخية التي أوردها لامنس في كتابة "تاريخ سورية"، حيث يعتبر كتــاب "خطــط

([1]) هنري لامنس اليسوعي(١٢٧٩ــ١٣٥٦هــ/١٨٦٢ــ١٩٣٧م): مستشرق بلجيكي اشتهر بأبحاثــه عــن عــرب الجاهلية والعهد الأموي، من مؤلفاته "الإسلام" و"الجزيرة العربية الغربية قبل الهجرة" و "خلافة يزيد الأول" ، له بعض المقالات في مجلة المشرق الكاثوليكية . انظر: أنيس النصولي: المرجع السابق، الحاشــية ٧٢، ص٩٥ ؛ أولريكة فرايتاغ: رأي للمناقشة: الجدل حول تفسير التاريخ في سوريا وقت الانتداب الفرنسي، (مجلة دراســات تاريخية ، لجنة كتابة تاريخ العرب ، جامعة دمشق، العددان ٤٩ و٥٠ ، مارس ــ يونيو ١٩٩٤م) ، ص٢٤.

([2]) أولريكة فرايتاغ: المرجع السابق، ص٢٤ــ٢٥.

([3]) المرجع السابق، ص٢٥.

الشام"([1]) الذي تـــناول بلاد الشام بالدراسة المفصلة من الناحية التاريخية والجغرافية والأدبيــة والحضارية خير رد على ادعاءات لامنس الكاذبة([2]).

لقد شجعت سلطات الانتداب الحكومة السورية إرسال البعثات العلمية لفرنسا علــى نفقــة الدولة ففي عام ١٣٤٨هــ/١٩٣٠م بلغ عــدد المبتعثــين ٢٩ تلميــذاً فــي مختلــف الفــروع والتخصصات([3])، وبهذه الطريقة استطاعت فرنسا أن تقتحم الداخل الســوري بتخــريج شــباب يحملون الثقافة الغربية وذلك من خلال التعليم، فهم يختارون مجموعة من الشباب السوري الذين يتوسمون فيهم خدمة مصالحهم الإستعمارية، ويعملون على إعدادهم بطريقة تمكنهم من العــودة إلى بلادهم بوجه غير الذي ذهبوا به، مما يسهل عليهم نشر مبادئهم، وثقــافتهم الفرنســية بــين العامة والخاصة، فالتعليم أكثر جدوى وقوة في التأثير على الشعوب إذا تم التركيز عليه بشــكل جيد.

وعندما فرضت فرنسا سيطرتها على سوريا ولبنــان، كــان التنــافس بــين الإرســاليات اليسوعية الكاثوليكية الفرنسية والإرساليات الأمريكية البروتستانتية على أشــده، لــذلك عقــدت الولايات المتحدة مع فرنسا اتفاقاً في ٢٩ شعبان ١٣٤٢هـــ/ ٤ إبريــل ١٩٢٤م يســهل عمــل المؤسسات التنصيرية في بلاد الشام قاطبة ويمنع تقييد عملها في المناطق المحتلة من قبل فرنسا في سوريا ولبنان، لأن فرنسا كانت تستغل كل فرصة لتنقل امتيــازات الإرســاليات التنصــيرية المختلفة إلى الإرساليات الفرنسية وحدها، ففي ربيع الأخر ١٣٤٤هــ/ أكتوبر ١٩٢٥م نقلت حق الإشراف على المؤسسات التنصيرية في بيروت والتي كانت تابعة لألمانيا قبل الحرب العالميــة الأولى، إلي المؤسسات التنصيرية والتعليمية الفرنسية. وفي إطــار التنــافس بــين الإرســاليات الفرنســـــية والأمريكيـــــــة أســـــــس الأب شـــــــانتور رئـــــــيس الجامعـــــــة اليســـــــــــــــــــــــــــــــــوعية مع خمسة من المنصرين، ثلاثــة مراكز للتنصير في منطقــة العلويين تم افتتاحها في ١٣ جمادى الأولى ١٣٤٩هــ/٦ أكتوبر ١٩٣٠م([4]).

لم ينته الجدل الثقافي بين السوريين والفرنسيين عند هذا الحد، بل أخذ أشكالاً عديدة خلال فترة الانتداب، وذلك على مستويات مختلفة وخاصة في حقل التربية والتعليم، فبعــد أن وقعــت فرنسا و سوريا على معاهدة ١٣٥٥هــ/١٩٣٦م التي رفض البرلمان الفرنسي أن يصادق عليها،

([1]) للمزيد من المعلومات وللإطلاع على رد محمد كرد، على ادعاءات لا منس انظر: محمد كرد علي: خطط الشام، خمس مجلدات والتي تناول فيها تاريخ بلاد الشام بشكل مفصل.

([2]) أولريكة فرايتاغ: المرجع السابق، ص٣٦ــ٣٧.

([3]) الحكومة السورية في ثلاث سنين، ص٣٤ ؛ زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٤٦٩.

([4]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٥٤ــ٥٧

بدأ الموظفون السوريون في وزارة التربية السورية بتغير مناهج التعليم الخاصة بمجال التـــاريخ وجعلها متأثرة بالبرامج الفرنسية وبأفكار هنري لامنس وغيره، لكن أبناء سوريا وقفوا في وجـــه كل تغير فيه تحوير للمناهج التي أراد الانتداب فرضها عليه، حتى عام١٣٦٤هــ/١٩٤٤م عندما صدر قانون رقم ١٢١ في ٦ محرم ١٣٦٤هــ/ ٢١ ديسمبر ١٩٤٤م، الذي أطلق عليه "وثيقـــة الاستقلال الثقافي" والذي أوكل إلى وزارة المعارف مهمة تربية الجيل الجديد وتعليمـــة تاريخـــه ولغته التي نحاها الانتداب، وفرض هذه المناهج على المدارس الرسمية والخاصة، وقد كان هـــذا القانون سبب من الأسباب التي أدت إلى ظهور معارضات نتج عنها صـــدامات عســـكرية بـــين الحكومة السورية والحكومة الفرنسية في جمادى الآخر ١٣٦٤هــ/ مايو ١٩٤٥م([١]).

كما كان لليهود عدد من المدارس في سوريا([٢]) إلا أنها كانـــت قليلـــة بالنســـبة لمـــدارس المسلمين والنصارى، فقد كان اليهود يشرفون على ست من المدارس اليهودية وهي مستقلة عـــن إدارة الحكومة([٣]). وهذا يدل على أنه على الرغم من قلة عدد اليهود في سورية إلا أنهم كـــانوا مستقلين من الناحية التعليمية ولم يتدخل الفرنسيون فيه، على عكس ما كانوا يفعلوه في المدارس الحكومة الإسلامية التي كان معظم طلابها من المسلمين على إعتبار أنهـــم الأكثريـــة الســـاحقة. وهذا يدل على تشجيع الانتداب الفرنسي لكل مايمكنه أن يهدم الهوية الاسلامية.

ثانياً: الصحافة في سورية:

الصحافة هي الأساس الذي نشأ عليه علم الإعلام في أصوله الثلاثة : المقروء والمســـموع والمرئي، فهي من الوسائل الهامة لتأريخ الأحداث بشكل دوري يومي أو أســـبوعي أو شـــهري، وقد عاصرت الصحافة العربية أزمنة وأحداث صعبة تركت آلاماً عميقة في جســـد الأمـــة، ولا تزال الأمة تعاني من هذه الآلام سواء أكانت سياسية ، أو جغرافية، أو تاريخية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو فكرية، وترتب على ذلك الماضي رسم للخريطة الجغرافية والسياسية التي مزقـــت كيـــان الأمـــة العربيـــة والإســـلامية فـــي الـــوطن الواحـــد، ولهـــذا فالصـــحافة فـــي ماضيـــــــــــــــــــــها هي خزانة تاريخنا الذي نعيشه وأساس مكوناته([٤]).

لذلك أوجد الفرنسيون في سوريا نظاماً للمطبوعات قيدوا به الصحافة بقيود ثقيلة، جعلـــوا فيه لأنفسهم وللحكومة سلطة تعطيل الصحف إدارياً إلى مدة محدودة، أو إلى أجل غير مســـمى،

([١]) أولريكة فرايتاغ: المرجع السابق، ص٣٩ــ٤٠.

([٢]) للمزيد من المعلومات حول هذه المدارس انظر: سهام هنداوي: المرجع السابق، ص ١٥٨ــ١٥٩.

([٣]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣،ص٢٢٠ ؛ يوسف العتيبي: المرجع السابق ، ص٢٩٤.

([٤]) عبد الكريم إبراهيم السمك: السويلم وتاريخ الصحافة العربية، (مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافيـــة، الريـــاض، العدد ٣٨٠، صفر ١٤٢٩هــ/ فبراير ــ مارس ٢٠٠٨م)، ص٤٩.

فالفرنسيون من طباعهم الحدة وضيق الصدر، وعدم تحمل الانتقاد مهما كان نوعة. لـذلك كـان التعطيل الإداري سيفاً مسلطاً فوق رؤوس أرباب الصحف، فـلا تتعـرض صـحيفة لمـوظفي الانتداب أو لأعضاء الحكومة بنقد، فقد أوجد الفرنسيون في المفوضية العليا مكاتب للمطبوعـات تنظر في كل ما تكتبه الصحف السورية واللبنانية، وتعمل على ترجمة ما يهمهم من المعلومات، وقاموا بوضع العراقيل أمام اصدار كل الصحف السورية التي تصدر، هذا فضلاً عـن تعـرض هذه الصحف للايقاف لفترات محددة أو غير محددة([1]).

ففي سوريا صدرت العديد من الصحف والمجلات ومنها صحيفة "المقتبس" والتي أسسـت سنة١٣٢٦ــ١٣٤٦هــ/١٩٠٨-١٩٢٨م، في دمشق على يد محمد كـرد علـي، وكانـت هـذه الصحيفة تهاجم الحكومة السورية التي شكلتها سلطات الانتداب الفرنسي، على الـرغم مـن أن مؤسسها واحد من أعضاء هذه الحكومة([2])، وقد أدت مهاجمة الصحيفة للحكومة إلـى توقيـف مديرها عادل كرد على ــ شقيق محمد كرد على ــ عن العمل وقتاً طويلاً، كما طلـب رئـيس الحكومة الشيخ تاج الدين الحسني في١٣٤٦هــ/١٩٢٨م من محمد كـرد توقيـف الصـحيفة ، وبالفعل قام محمد كرد علي بتوقيف الصحيفة، وهكذا أغلقت إدارة الصحيفة بالشمع الأحمر([3]).

ولهذه الأساليب الاستعمارية كان من المستحيل أن تؤسس في البلاد صحافة وطنية واسعة الانتشار، ولا أن يقدم رجل غني واسع الثقافة على بذل ماله في تأسيس صحيفة سياسية حياتهـا ومماتها بيد عمال سلطات الانتداب الفرنسي. لهذا كانت الصحافة في سوريا ولبنان مهنة سـهلة، ومرتزقاً لجمع المال بالطعن في أعراض الناس وكراماتهم، باستثناء عدد قليل من الصحف التي كان أصحابها يحترمون أنفسهم وما يكتبون، لكن هـؤلاء الأشـخاص طالمـا أوذوا فـي أيـام الانتداب([4]). كما حصل مع محمد كرد علي في صحيفة المقتبس، وقد أتـت صـحيفة "القـبس" لتصدر أول أعدادها في١٦ ربيع الأول ١٣٤٧هــ/١ سبتمبر ١٩٢٨م كرديفـة للمقتـبس، وقـد

([1]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص٢٠٤ــ٢٠٥.

([2]) وإننا نجد في هذا مصداقية، في مواقف محمد كرد علي، على الرغم وأن هذا الانتقاد الذي كانت تشنه الصحيفة على الحكومة كان يسبب له إحراج، إلا أنه من الواضح كانت المصلحة العامة عنده أهم من المصلحة الخاصـة، حتى أنه تحت ضغط حكومة الشيخ تاج الدين الحسني، طلب بنفسه إغلاق الصحيفة.

([3]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي...،ج١، ص١٦٠ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ٤٣ــ٤٦ ؛ جوزيـف إليـاس: تطور الصحافة السورية في مائـة عـام (١٨٦٥ــــ١٩٦٥م)، (دار النضـال للطباعـة والنشـر، بيـروت)، ص٢١٨ــ٢٢٠.

([4]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص٢٠٥ــ٢٠٦ ؛ زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٤٧٠.

أنشأها نجيب الريس([1]) و عادل كرد علي شقيق محمد كرد، وكانت القبس جريدة يومية سياسية اجتماعية اقتصادية، لمقارعة الاستبداد وتوعية الشعب وإحياء شعور الأمة وتنوير الفكر العام، وكانت مثل بقية الصحف الوطنية فهي لسان حال الحركة الوطنية في سوريا، وبقيت (القبس) تصدر إلى عام١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م وكانت من أهم الصحف السورية آنذاك. لما تميزت به من جرأة في طرح المواضيع الوطنية متحدية سلطات الاحتلال الفرنسي، مما عرض الجريدة للتوقف والإغلاق لمرات عديدة، بالإضافة لتعرض أصحبها للتوقيف والسجن أكثر من مرة، فقد نفي نجيب الريس إلى قلعة أرواد مع عدد من رجال الكتلة الوطنية بسبب هذه الصحيفة([2]).

كما أصدر أمين سعيد في١٣ شوال ١٣٣٩هـ/ ١٨ يونيو ١٩٢١م صحيفة "أبو نواس العصري" وهي صحيفة أسبوعية انتقادية فكاهية، لقيت نجاحاً واسعاً. إلا أن عدد الصحف انخفض بسبب ملاحقة الاحتلال الفرنسي، فلم تعمر هذه الصحيفة طويلاً فأغلقت في السنة نفسها([3]).

ويذكر نصوح بابيل أن الصحافة في سورية لم تكن بمستوى الصحف اللبنانية، فالصحافة في سورية كانت منغلقة على نفسها أصحابها لا يشجعون الأفكار الشابة، ويحولون دون تشجيع المواهب والكفاءات الصحفية الطموحة، لذلك اتجهت أنظاره إلى الصحف اللبنانية، فعمل في دمشق مراسلاً لصحيفة "الرأي العام" التي كان يصدرها طه المدور([4]) في بيروت([1])، وكان

([1]) نجيب الريس (١٣١٦ــ ١٣٧١ هـ/١٨٩٨-١٩٥٢م): ولد في مدينة حماه في سوريا، وتلقى علومه الأولية في مدارسها الخاصة، وتابع دراسته على كبار أساتذة اللغة العربية والدين. وفي عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م جاء إلى دمشق واتخذها مقراً. وعمل في الصحافة السورية وراسل بعدها عدداً من الصحف اللبنانية من بينها "الأحرار" و"النهار" ثم انتقل إلى جريدة "المقتبس" التي كان يصدرها العلامة محمد كرد علي، إلى أن أصدر "القبس" عام١٣٤٧هـ/١٩٢٨م فكانت ديواناً للحركة الوطنية. وكان في العشرينيات من عمره عندما اقتيد إلى المنفى في جزيرة أرواد، حيث نظم في السجن (١٣٤٠هـ/١٩٢٢م) نشيده الوطني الخالد "يا ظلام السجن خيم" الذي رددته أفواه الملايين من الشباب العربي في كل مكان. انظر: نجيب الريس (١٨٩٨-١٩٥٢) القبس المضيء؛ حياته وجريدته وما كتب عنه: www.neelwafurat.com/itempage.aspx?

([2]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي...،ج١، ص١٦٠ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٧٣ــ٧٥.

([3]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي، ج١، ص٢٢٨ــ٢٢٩ ؛ عبد الكريم السمك: المرجع السابق، ص٥٢ .

([4]) طه المدور: من رجال الصحافة في بيروت، أنتقل إلى حلب في العام ١٣٢١هـ/١٩٠٣م ناقلا معه جريدته (الرأي العام) التي كانت تصدر في بيروت فصدرت الرأي العام مدة من الزمن وشاهدت ولادة الدستور التركي. وبعد اعلان المشروطية تخلى طه المدور عن جريدته واعتزل الصحافة، ثم عاد إلى بيروت وأعاد إصدار صحيفة الرأي العام في عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م. انظر: عمر مهملات: اللبنانيون المبدعون الذين عملوا في حلب في النصف الأول= = من القرن العشرين (١-٢)، صحيفة الجماهير، حلب ،

يعمل بابيل على مهاجمة الحكومة السورية برئاسة حقي العظم الذي أقامته سلطات الانتداب الفرنسي حاكماً لما أسمته دولة دمشق ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، مما أدى إلى الوشاية به وملاحقته من قبل الحكومة ومن ثم تقديم استقالته من صحيفة "الرأي العام"، ثم أصبح من عام١٣٤٢هـ/١٩٢٤ إلى عام١٣٤٤هـ/١٩٢٦م مراسلاً لعدد من الصحف اللبنانية اليومية ومنها صحيفة "العهد الجديد" لصاحبها خير الدين الأحدب، و"الأحوال " لصاحبها عيسى سيف، و"الحرية" لصاحبها جورج عوض، و"الشرق" لصاحبها خيري كعكي وغيرها من الصحف اللبنانية([2]).

لقد حاول أدباء الشام إصدار بعض المجلات والصحف التي تحاكي المجلات والصحف التي كانت تصدر في مصر مثل: الرسالة أو الثقافة وغيرها، لكن فقر البلاد العام، وقلة السكان وانتشار المجلات المصرية الغزيرة بالمادة الأدبية والإخبارية، والرخيصة الثمن حالت دون ذلك، لكن ما لبثت أن صدرت في دمشق مجلة "المجمع العلمي العربي" واستمر إصدارها بضع عشرة سنة، وقد بذل محمد كرد علي جهداً كبيراً في تكوين هذا الصرح العلمي، ونجح في إبعاده عن التيارات السياسية والحزبية، وكانت مجلة رصينة، صدر العدد الأول منها في ٢١ ربيع الآخر ١٣٣٩هـ/ ٢ يناير ١٩٢١م، ونشر له على صفحاتها ٤١ مقالة أدبية وتاريخية، وفتح قاعة المجمع للجمهور لسماع المحاضرات العامة، التي كان يلقيها رجال الأدب والفكر، وكان من نصيب محمد كرد علي منها ٦٢ محاضرة. ثم احتجبت المجلة عن الظهور عندما قلت مخصصاتها، واضطر رئيسها للاستقالة، وظلت محجوبة عن الناس بضع سنوات([3]).

وفي أوائل الثلاثينات لاحظ قادة الكتلة الوطنية حاجتهم الملحة لسد الفراغ الإعلامي الواضح في أجهزتها فقرروا إصدار صحيفة يومية تنطق بلسانهم، وتدافع عن سياستهم، فأصدروا صحيفة "الأيام" في ٢٢ ذو الحجة ١٣٤٩هـ/ ١٠ مايو ١٩٣١م، وكانت السلطات الفرنسية، تهاجم الصحيفة من فترة لأخرى وتعمل على تفتيشها واعتقال بعض العمال

---

http://jamahir.alwehda.gov.sy/ ؛ الحياة الثقافية في بيروت في العهد العثماني http://www.mor3ben.com/mawso3a/index595.htm .

([1]) انتقلت صحيفة "الرأي العام" إلى دمشق عندما عين الداماد أحمد نامي رئيساً للدولة السورية، فهو الذي طلب من صديقة طه المدور نقل مقر الصحيفة من بيروت إلى دمشق، لتساعده في مهمته الرامية إلى إيجاد مصالحة بين زعماء الثورة السورية والفرنسيين. انظر: نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٣٤.

([2]) نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٣٠ــ٣٣.

([3]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص٢٠٥ــ٢٠٦ ؛ أحمد تمام: محمد كرد علي.. بين العصرانية والتراث (في ذكرى وفاته: ١٧ من رجب ١٣٧٢هـ) السبت ١٦ يونيو ٢٠٠٧م، الموقع على الانترنت www.islamonline.net.

والإداريين، بحجة أنها تطبع منشورات معادية للسلطات الفرنسية، وكانت صحيفة "الأيـــام" مـــن أقوى الصحف في سوريا، حيث كانت من الصحف المعارضة للانتداب الفرنسي، لذلك عطلتهـــا السلطات الفرنسية بقرار رقم ٣٣٥٢ في صفر ١٣٥٠هـ/يوليو ١٩٣١م، بسبب مقال هاجمـــت فيه السياسة الفرنسية وظلت معطلة مدة سنة وبضعة أشهر، وعندما تولى محمـــد علـــي العابـــد رئاسة الجمهورية السورية في صفر ١٣٥١هـ/يونيو ١٩٣٢م اتفق مع رياض الصلح ونجيـــب الأرمنازي بيع صحيفة "الأيام" إلى نصوح بابيل، وظلت صحيفة "الأيام" و"القبس" تقفان معاً فـــي مهاجمة المستعمر وتتلقيان معاً ضربات المستعمر وأتباعه سواءً بسواء([1]). ويظهـــر أن محمـــد علي العابد كان يبحث عن صحيفة تعمل على دعم سياسته كما فعل أعضاء الكتلة الوطنية.

ولذلك أصدر نصوح بابيل العدد الأول مـــن صـــحيفة "الأيـــام" فـــي ١٢ ربيـــع الآخـــر ١٣٥١هـ/١٥ أغسطس ١٩٣٢م بعدما انتقلت ملكيتها إليه، وكانت تلقى صحيفته رواجاً كبيـــراً لسببين أولهما: معارضتها للانتداب، وثانيهما: أن عدد من الكتاب الكبـــار أمثـــال الشـــيخ علـــي الطنطاوي، كانوا يكتبون فيها، لكن الصحيفة كانت هدفاً للمستعمر ونقمته، فقد عطلت أكثر مـــن عشر مرات في عهد الصراع مع العدو، وكثيراً ما أحيلـــت قضـــيتها إلـــى المحـــاكم الأجنبيـــة والمحلية، وتعرض أصحابها والمسؤولين فيها للمضايقة والسجن بتهمة كتابة وطبـــع منشـــورات تتناول الهجوم المستمر للأعمال التعسفية التي تمارسها السلطات الفرنسية وأتباعها([2]).

لقد اضطهد الفرنسيون بشدة رجال الصحافة الصادرة باللغة العربية، وكذلك عملوا علـــى مضايقة رجال الفكر والدين الإسلامي، فكانت السلطات الفرنسية تعمل على نطاق واســـع إلـــى إيقاف الصحف العربية لفترات طويلة، أو إيقافها بصورة نهائية، وكانـــت الغرامـــات الباهظـــة المفروضة عليها تضطر هذه الصحف إلى التوقف عن الصدور، وبسبب الرقابة كان العديد مـــن الصحف يصدر بصفحات بيضاء، لأن الرقابة كانت تمنع الصحفيين من نشر مقالاتهم، مما أثـــار ملل القراء، فاضطرت سلطات الانتداب إرغام أصحاب الصحف على كتابة مقالات لا علاقة لها بالسياسة، وقد استهدف الفرنسيون من هذا التدبير إيهـــام القـــراء بعـــدم وجـــود رقابـــة علـــى الصحف([3]).

وكما كانت هناك صحافة معارضة للانتداب الفرنسي مثل "المقتبس" و"القـــبس" و"الأيـــام"، كانت هناك صحافة مؤيدة للانتداب الفرنسي مثل صحيفة "فتى العـــرب" التـــي كـــان يصـــدرها

([1]) نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٧٢ـ٧٥.

([2]) المرجع السابق، ص٩٨ـ١٠٠.

([3]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١٣١ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص١٠٠.

معروف الأرناؤوط([1]) في دمشق التي صدرت منذ دخول الجيش الفرنسي إلى دمشق في ١٠ ذو القعدة ١٣٣٨هـ/٢٦ يوليو ١٩٢٠م، حيث أعلنت ترحيبها بالاحتلال الفرنسي، واعتبرته عهد الخير والبركات، وقامت بمهاجمة العهد الفيصلي والطعن فيه وفي رجاله وقادته، فقاطعها الشعب السوري وأعرض عنها([2]). ولكننا بالبحث عن هذه الصحيفة فإننا وجدنا من يخالف رأي أمين سعيد في هذا، حيث يذكر الأستاذ الدكتور عمر عثمان أوجار في كتابة العلاقات التركية السورية أن صحيفة "فتى العرب" كانت من الصحف الموالية لتركيا، ويؤكد هذا الرأي الشيخ علي الطنطاوي في مذكراته، التي يذكر فيها أنه كان من كتاب هذه الصحيفة([3]). وإننا بالنظر إلى ترجمة صاحب الصحيفة، ومن كتب فيها نميل إلى هذا الرأي.

كما أصدر شاكر نعمة الشعباني من حلب صحيفة "الأهالي"، والنعماني معروف عنه أنه كان من المولين لسلطات الانتداب الفرنسي، وكانت مقالات صحيفة "الأهالي"، مملوءة بالهجوم على الوطنيين وقادة الكتلة الوطنية الذين فوتوا على الشعباني رئاسة الوزراء، كما أدت صحيفة "الأهالي" دوراً مهماً في خدمة السلطة الفرنسية، فالموظف الذي تحمل عليه يطرد من وظيفته، والشخص الذي تتهمه بالعمل الوطني!! يقبض عليه ويزج في السجن، ومقابل خداماتها وموالاتها للانتداب الفرنسي، كانت السلطات الفرنسية تخص صحيفة "الأهالي" بالمساعدات المختلفة وتدفع نفقات طباعتها في المطبعة المارونية بحلب وتعطيها الورق مجاناً، وفي بعض الأحيان كان موظفو التحري يحرسون موزعيها وباعتها، خاصة بعد الانتخابات المزيفة التي كانت ترعاها سلطات الانتداب الفرنسي([4])

([1]) معروف الأرناؤوط(١٣٠٩ــ١٣٦٧هـ/١٨٩٢ــ١٩٤٨م): صحافي وروائي سوري. ولد في بيروت من أسرة ذات أصول ألبانية. درس في الكلية العثمانية الإسلامية واهتم بدراسة اللغة العربية. بدأ يكتب في الصحف البيروتية سنة١٣٣٠هـ/١٩١٢م. التحق بالجيش العثماني١٣٣٤هـ/١٩١٦م، إلا أنه فر منه لينضم إلى قوات الثورة= =العربية ويدخل معها إلى دمشق١٣٣٦هـ/١٩١٨م، ويقرر الإقامة فيها. شارك في إصدار مجلة القلم العربي، ويومية الاستقلال العربي. ثم أصدر عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م جريدة فتى العرب التي لاقت نجاحاً كبيراً واستمرت بالصدور ٢٨ عاماً. انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي. ترجم عدداً من الروايات الفرنسية وكتب عدة روايات، منها: سيد قريش (١٣٤٧هـ/١٩٢٩م) وعمر بن الخطاب (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م) وطارق بن زياد (١٣٦٠هـ/١٩٤١م) وفاطمة البتول (١٣٦١هـ/١٩٤٢م). انظر: علي الطنطاوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٧٣ ؛ عبد اللطيف الأرناؤوط: فاطمة البتول رواية تاريخيّة اجتماعيّة لمعروف الأرناؤوط، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٤٤ ، السنة ١١، محرم ١٤١٢ / يوليو ١٩٩١م، ص٣٠ ؛ الموقع على الانترنت الموسوعة العربية/ www.arab-ency.com

([2]) أمين سعيد: سيرتي ومذكراتي، ج١، ص٢٢٨ــ٢٢٩.

([3]) ömer Osman Umar: Op. Cit, p.195. ؛ علي الطنطاوي: المرجع السابق، ج١، ص٣٧٣.

([4]) نصوح بابيل: المرجع السابق، ص٨١.

الواقع أن الصحافة السورية في عهد الانتداب عانت الكثير من الظلم والاضطهاد والتنكيل، ولم تنعم بالحرية الصحفية الواسعة، وكان التعطيل الإداري سلاح الحاكمين من الفرنسيين، بل سلاح الحقد الأسود على الصحف الأكثر عنفاً في الهجوم على سياسة المحتل([1])، فالصحافة منذ أقدم العصور هي السلطة الرابعة المسلطة على رأس الحكام والمحكومين على السواء، فهي رسالة وأمانة يجب على القائمين عليها حفظها وصيانتها، لأنها تعتبر شاهداً على العصر الذي وجدت فيه، وفيها يحفظ التاريخ السياسي والحضاري والاجتماعي والموروث الثقافي على مر العصور.

ب ـ أهم الآثار السيئة التي تركها الاستعمار الفرنسي على المؤسسات التعليمية والثقافية في لبنان:

أولاً: المدارس في لبنان:

إن لبنان بفضل موقعها الاستراتيجي على البحر المتوسط، وبسبب كثرة السكان النصارى فيها اتجهت نحو الغرب الأوربي منذ أقدم العصور، لذلك نجد لبنان من أكثر البلاد العربية ميلاً وتقبلاً للثقافة الغربية الأوربية، وخاصة من السكان الموارنة الذين يرون في فرنسا الأم الحنون.

لذلك نجد الغرب الأوربي عندما عجز عن استعباد دول المشرق العربي منذ أيام الحروب الصليبية لجأ إلى الغزو الفكري والدعاية الكاذبة للترويج لسياسته عن طريق النصارى، فقد أخذت فرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية([2]) بطرد جميع الرهبان فنزح هؤلاء إلى الشرق فوجدوا في بلاد الشام مرتعاً خصباً فبثوا دعايتهم بين النصارى وخاصة الموارنة، وأفهموا سكان لبنان بأن صلة الصليبية التي وحدتهم هي صلة العرق والدين مع أن سكان لبنان من صميم العرب([3]). ومنذ قدومهم إلى لبنان رسخت أقدام هؤلاء الدعاة الغرباء المضللين، وساقوا الأمة السورية واللبنانية إلى المجازر، التي كان من أهم نتائجها أنهم جعلوا اللبنانيين يعتقدون أنهم لا ينتسبون إلى العرب. وباسم الحماية الكاثوليكية خطت فرنسا خطوط انتدابها، وجعلت منطقة نفوذها سوريا بأكملها ليس من أجل النصارى اللبنانيين وإجابة لدعوة المنصرين الذين طردوا من بلادها منذ عصرين كاملين فقط، بل من أجل استغلال البلاد التي سمعوا عنها الشيء الكثير منذ أيام

([1]) المرجع السابق، ص٩٩ـ١٠٠.

([2]) الثورة الفرنسية (١٢٠٣ـ١٢١٣هـ/١٧٨٩ـ١٧٩٩م): هي مجموعة أحداث أدت إلى القضاء على النظام الملكي في فرنسا، وإعلان المبادئ الديمقراطية والمناداة بـ" الحرية والمساواة والإخاء" وهي المبادئ نفسها التي دعت إليها الحركة الماسونية، وكان لها تأثير كبير على أوروبا والعالم. انظر: المنجد ، ص١٩٢.

([3]) أحمد يوسف داود: المرجع السابق، ١١٦ ؛ زكي النقاش: القضية اللبنانية وبعض المراحل التي مرت بها، (مجلة الفكر الإسلامي،تصدرها دار الفتوى،بيروت،العدد ٧ـ ١٠، السنة ١١،١٤٠٣هـ/مايو ١٩٨٢م)، ص٢٥.

الحروب الصليبية، ومن هنا يظهر الدور الذي لعبة التنصير والمنصرين في سوريا بصفة عامة ولبنان بصفة خاصة([1]).

ويذكر فيليب حتي أنه على الرغم من أن لبنان منذ أقدم العصور كان على اتصال بالغرب الأوربي إلا أن التغيرات الجذرية في حياة لبنان لم تحصل إلا في القرن التاسع عشر الميلادي([2])، عندما حفرت قناة السويس ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، حيث أخذ الفكر الغربي يتغلغل في مصر وبلاد الشام وخاصة لبنان([3]).

ونعتقد أن أهم الأسباب المباشرة التي أدت إلى تغلغل هذا الفكر الغربي في لبنان وغيرها هي:

أولاً: ضعف الدولة العثمانية في أواخر عهدها، وكثرة الامتيازات الأجنبية([4]) التي جعلت الدول الأوربية تتدخل في سياسة الدولة بحجة حماية رعاياها.

ثانياً: كثرة الإرساليات التنصيرية في بلاد الشام عامة وفي لبنان خاصة والتي وجدت لها تربة خصبة في أوساط النصارى اللبنانيين، ومن هناك أخذ ينتشر الفكر الغربي العلماني إلى بقية البلدان العربية المجاورة، تحت مسمى القومية العربية التي أخذ يتنصل منها النصارى أنفسهم بعد الانتداب وأخذوا يتطلعون إلى حاميتهم الدينية فرنسا، ومن هنا ظهر بطلان الدعوة القومية التي كانوا يدعون إليها، وكان الغرض منها إضعافها الدولة العثمانية من الداخل، مما أدى إلى سقوط معظم ولاياتها في يد الاستعمار الأجنبي.

والملاحظ أن التنصير الديني لم يترك أثراً كبيراً في حياة الناس في بلاد الشام، سواء النصارى أو المسلمين، لذلك أدرك المنصرون ضرورة التربية والتعليم، فبدلاً من أن يظلوا في كنائسهم وينتظروا الناس حتى يأتوا إليهم خرجوا هم إلى الميدان([5]) وعملوا على فتح المدارس والجمعيات والمؤسسات التعليمية التي كانوا من خلالها يعملون على تلقين العامة ما يريدون من مبادئ وأخلاق تتناسب مع سياستهم الاستعمارية باسم العلم والثقافة.

([1]) أحمد يوسف داود: المرجع السابق، ١١٦ـ١١٧.

([2]) في هذا القرن نشطة الحركة الثقافية والتعليمية بشكل كبير فأنشأ الموارنة عدداً كبيراً من المدارس والأديرة والكنائس في بلاد الشام بأكملها. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: يوسف الدبس: تاريخ سوريا في أيام= =السلاطين العثمانيين العظام، (المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٥م)، ص٧٦٨ـ٧٨٧.

([3]) فيليب حتي: تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريحة، مرجعة: نقولا زيادة، (دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥م)، ص٥٤٩ـ٥٥٠.

([4]) الامتيازات الأجنبية: هي امتيازات تمنح الحق للدول الكبرى في أن تشمل بحمايتها من تريد من مواطني الدولة العثمانية غير المسلمين. انظر: سليمان موسى: الحركة العربية، ص٢٠ـ٢١.

([5]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٥٣ ؛ زكي النقاش: المرجع السابق، ص٢٥.

لقد أنشئت المدارس الحديثة في بلاد الشام على يد الإرساليات الأجنبية([1]) والهيئات الوطنية المحلية، فأول مدرسة حديثة أنشئت في لبنان عام ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م، ثم تتابع بعد ذلك إنشاء المدارس في بلاد الشام على يد الرهبان الأجانب المطرودين من فرنسا([2])، والذين قاموا ببث سمومهم في البلاد العربية، مما زاد اتصال الشرق بالغرب، وزاد معه نفوذ الدول الأجنبية وخاصة فرنسا في سوريا ولبنان.

لقد تأثر اللبنانيون كثيراً بالثقافة الفرنسية ونبغ منهم الكثيرون ممن أجاد الشعر والنثر بلغتهم الفرنسية، فكان للإرساليات الأجنبية دور كبير في نشر العلم والثقافة الغربية في لبنان، من أجل خدمة الاستعمار ونشر التنصير، فانتشرت مدارس الإرساليات في المدن والقرى، وكان تنافس الدول الأجنبية على افتتاح المدارس التنصيرية في ١٢٨٣هـ/أواخر عام ١٨٦٦م على أشده، فأنشأت في هذه السنة الكلية البروتستنتية السورية أو الكلية الإنجيلية السورية ـ الجامعة الأمريكية في بيروت حالياً ـ علي يد الدكتور دانيل بلس وهو قس أمريكي، أتقن اللغة العربية، وفكر في إنشاء مدرسة ببيروت، ذهب إلى بلاده وتمكن من جمع المال من الأغنياء، ونتيجة لمساعي المنصرين الأمريكان، تمكن من إنشاء الكلية الإنجيلية والتي يطلق عليها اليوم الجامعة الأمريكية ببيروت([3])، وظهر التنافس بين الدول الأجنبية في نشر التعليم أو في نشر التنصير في لبنان، فبعد تسع سنوات من إنشاء الكلية الإنجيلية أنشأت الإرساليات اليسوعية جامعة القديس يوسف في بيروت في١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، ودب التنافس بين الجامعتين في نشر الفكر الغربي ونشر الكتب المدرسية والمنشورات الثقافية والجمعيات التنصيرية([4]). وبعد مضي ست سنوات على تأسيس جامعة القديس يوسف وبالتحديد في سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م اعترفت بها وزارة المعارف الفرنسية ووافقت على منحها مساعدة مالية سنوية، ومن غريب المناقضات أن هذا العون المالي من قبل وزارة المعارف الفرنسية أتى في وقت كانت فرنسا تطرد فيه اليسوعيين([5]) من بلادها([1]). إن هذا الإحسان الذي كانت تقوم به وزارة المعارف الفرنسية لم

([1]) لقد بلغ عدد البعثات التصيرية والمدارس الفرنسية في سنة١٣٣٠هـ/١٩١٢م ٥٠٠ مدرسة قامت على أساس حمايتها الدينية للمسيحيين في الشرق الأدنى. انظر: برجيت شيبلر: المرجع السابق، ص١٨٨ـ١٨٩.

([2]) توفيق علي برو: العرب والترك ، ص٣٣.

([3]) موفق بني المرجة: المرجع السابق، ص١٦٨؛ الزركلي : الأعلام، ج٢، ص٣٣٠.

([4]) زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٥٥٠ ؛ فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٥١ـ٥٥٢.

([5]) نلاحظ تداخل الأسباب السياسية مع الأسباب الدينة ففرنسا أخذت تشجع وتدعم جامعة القديس يوسف بعد أن احتلت إنجلترا مصر عام١٢٩٩هـ/١٨٨٢م، لذلك وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن يكون لها موطئ قدم في بلاد الشام، حتى تحافظ على مصالحها وطرق تجارتها في مكان قريب من عدوتها التقليدية بريطانيا، لذلك دخلت

يكن حباً في المسلمين والرغبة في تعليمهم، أو حتى حباً بالنصارى، بل كان يهدف بالدرجة الأولى خدمة الاستعمار والدعوة إليه، لأنهم لا ينفقون إلا بمقدار ما ينتظرون من فائدة، فهم ينفقون المال الكثير للبعيدين عنهم، ثم تقل الأموال تدريجياً عندما يقترب الناس من مبادئهم ويبدؤون في السيطرة عليهم([2]).

قد أقلق الدولة العثمانية انتشار الإرساليات التنصيرية ومدارسهم في بلاد الشام مما اضطرها إلى تشديد القيود عليها، لاعتبارها مراكز لإثارة القومية والثورة لدي الأقليات الدينية، حتى أنها أصدرت أوامر للحكومات المحلية حظرت فيها التحاق المسلمين بمدارس الإرساليات([3]) إذا وجدت مدرسة حكومية أو إسلامية في المنطقة، ورد المنصرون على هذا الإجراء بأن زادوا من عدد مدارسهم، وأخذوا في مهاجمة الإسلام علناً لتشجيع المسلمين على اعتناق الأفكار التنصيرية، وكان هدف هؤلاء المنصرين العمل على سقوط الدولة العثمانية الإسلامية واستبدالها بدولة مسيحية([4]).

لذلك شجع اليسوعيون إنشاء المدارس العامة للبنين والبنات، ففي سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م شرعت راهبات القديس يوسف القادمات من مرسيليا([5]) بإنشاء مدارس داخلية وخارجية ودار أيتام ومؤسسات خيرية في بيروت وصيدا وصور وغيرها من المدن والقرى اللبنانية، ثم تلاهن راهبات أخريات تدعمهن الحكومة الفرنسية في تأسيس المدارس والمؤسسات الخيرية والجمعيات لتأسيس رهبنة وطنية عرفت بجمعية المريمات التي اتبعت النظام الفرنسي في تربيتها وتعليمها لمنسوبيها، وكان مقرها الرئيسي في بكفيا([6]) ومن بكفيا خرجن الراهبات ليؤسسن عشرات المدارس في القرى المجاورة، وقد بلغ عدد الطالبات في هذه المدارس الرهبانية حتى سنة

من باب التعليم وقامت بدعم جامعة القديس يوسف.

([1]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٥١ ؛ أنيس النصولي: المرجع السابق، ص٩٣ــ٣٤.

([2]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص١٩٣ــ١٩٤.

([3]) ففي سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٤م على سبيل المثال أرسل محمد رؤوف حاكم لواء القدس منشوراً إلى مخاتير اللواء جاء فيه :" وصل أمر من وزارة الداخلية بتاريخ١٨ ربيع الأخر ١٣٠١هـ/ ١٤ فبراير ١٨٨٤م رقم ١٦٧ ــ أن جلالة السلطان يمنع دخول أولاد المسلمين إلى أية مدرسة أجنبية في جميع أنحاء الإمبراطورية ــ الدولة ــ العثمانية وأن من يخالف هذا الأمر سيتحمل نتائج مخالفته..وإذا لم يخبر المخاتير في القرى الحكومة عن مخالفة ما فإنهم سيتعرضون لأقسى العقوبات.." . انظر: حنا أبو حنا: المرجع السابق، الحاشية ١٣، ص١٠.

([4]) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، (دار الشروق، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م)، ص٢١٩ــ ٢٢٠ ؛ حكمت فريحات: المرجع السابق ص٣٥.

([5]) مرسيليا: مرفأ في جنوب فرنسا على البحر المتوسط، وهو مركز صناعي وتجاري، له خطوط ملاحة واسعة مع الشرق. انظر المنجد، ص٥٢٩.

([6]) بكفيا: مصيف لبناني في المتن . انظر : المنجد، ص١٣٢.

١٣٣٣هـ/١٩١٤م ستة آلاف طالبة، موزعين على ثلاثين مدرسة، وفي هذه الحقبة كان لفرنسا في سوريا ولبنان وفلسطين خمسمئة مدرسة تمثل عشرين مجتمعاً طائفياً، وتضم بين جدرانها خمسين ألف طالب وطالبة([1]).

لقد أخذت مدارس التنصير في بلاد الشام على عاتقها التعكير على أصحاب العقائد الأخرى، وهز معتقداتهم الدينية، مما أسهم في زعزعة مبادئ أبناء ذلك الجيل في لغتهم وثقافتهم وعروبتهم ـ ودينهم ـ ؛ من أجل القضاء على أصالتهم العربية وعقيدتهم الدينية وبالتالي جرهم إلى التغريب، وفصلهم عن هويتهم العربية الإسلامية وكانت فرنسا السابقة في هذا المضمار، حيث بدأت بمدارسها العلمانية وبعثاتها الثقافية(التنصيرية)، ثم تبعتها بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وكانت النتيجة أن بدأت المدارس الأجنبية تفتح أبوابها للبنين والبنات، حتى تنافس فرنسا
في التنصير([2])، ونشر الجواسيس بين أفراد الشعب السوري في بلاد الشام.

لقد عانت الدولة العثمانية في تلك الفترة من تدخل الدول الأوربية في شؤونها الداخلية بحجة حماية رعاياها من المسيحيين الموجودين داخل الدولة، فادعت روسيا حماية الأرثوذكس([3])، وادعت فرنسا حماية الكاثوليك([4])، وادعت بريطانيا حماية البروتستانت([5]) واليهود([6])، وكانت أقوى هذه البعثات في بلاد الشام هي البعثة الفرنسية التي ساعدت اليسوعيين اليسوعيين على فتح العديد من المدارس والمؤسسات الثقافية التي كلفت الحكومة الفرنسية مبالغ مالية باهظة. وقد حاولت الحكومة العثمانية التخلص منها وإلغاءها لكن دون جدوى([7])، إلا أن تغلغل الدول الأوربية الكبرى داخل أراضي الدولة العثمانية بحجة حصولها على امتيازات لرعاية أصحاب الديانات التابعين لها مما أوجد نوعاً من التنافس بين هذه الدول على حماية

([1]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٤٥.

([2]) زكي النقاش: المرجع السابق، ص٢٨ ؛ برنارد لويس: المرجع السابق، ص٣٥ـ٦٠.

([3]) الأرثوذكسية: هي الكنائس المسيحية الشرقية البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية، وانتشرت في روسيا وبلاد البلقان واليونان وتركيا وبلاد الشام(سورية، لبنان، فلسطين)ومصر والعراق. انظر:المنجد، ص٣٥.

([4]) الكاثوليكية : هي الكنيسة المسيحية العامة ومركزها روما، وأتباعها في أوربا وأمريكا الجنوبية والوسطى، والكاثوليك هم أكبر الطوائف المسيحية. انظر: السيد الباز العريني : تاريخ أوربا العصور الوسطى، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨م)، ص١٧٢ ؛ المنجد، ص٤٤٨.

([5]) البروتستانتية: هي الكنائس المسيحية الغربية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية تحت تأثير مارتن لوثر وكليفن، وانتشرت في ألمانية، وأمريكا الشمالية، واسكتلندا، وسويسرا. انظر: السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص١٠٤ـ١٠٥ ؛ المنجد، ص١٢٤.

([6]) سليمان موسى:الحركة العربية، ص٢٠ـ٢١.

([7]) حكمت فريحات : المرجع السابق، ص٤٠ـ٤١.

الطوائف المختلفة، وقد ساعد ذلك على ظهور الفكر الثوري ضد الدولة العثمانية في الشام، فقد أدت هذه البعثات التنصيرية دورها المخرب بجدارة، وإحكام مما أسهم في سقوط الدولة العثمانية، واحتلال البلاد العربية في المشرق العربي، وتقاسم بلاد الشام بين بريطانيا وفرنسا، فزاد تأثير الفرنسيين على الحالة الفكرية والثقافية في لبنان خاصة؛ حيث عملت على طمس الهوية الإسلامية فيه بكل جهدها.

ومع دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان اضطرت جميع البعثات التنصيرية التابعة لدول الحلفاء إلى إغلاق أبوابها في بيروت وجبل لبنان، وسيطرت الدولة العثمانية على هذه الأبنية وحولتها إلى مدارس رسمية، واحتلت كلية الطب العثمانية في دمشق مكان كلية الطب الفرنسية في بيروت طيلة سنوات الحرب، لكن فور دخول القوات الفرنسية إلى سوريا ولبنان، عمدت إلى وقف عجلة التعليم العام والرسمي، ثم اعادة تنشيط التعليم الخاص والأجنبي، ومده بالمساعدات المالية الفورية([1]).

مما جعل وضع التعليم في لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي مثالاً صارخاً لوجود التفرقة بين لبنان القديم ولبنان الكبير، فبعد أن وسعت فرنسا سلطتها في منطقة جبل لبنان فشملت مناطق الساحل، أخذت تعمل على عدم تعزيز مسيرة التعليم الرسمي باعتباره يوحد بين الاتجاهات والميول السياسة، بل إنها سارت في سياسة معاكسة، فاعتماداتها التي كانت في عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م ٢٩١.٠٠٠ ليرة لبنانية، انخفضت عام١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م إلى ١٢٤.٠٠٠ ليرة، كما أن عدد المدارس الرسمية قل في الفترة نفسها من ٢٤٠ مدرسة إلى ١١٨ مدرسة، أما عدد التلاميذ فبعد أن كان عددهم ١١.٥٠٠ تلميذاً انحدر إلى ٧٢٥٠ تلميذاً([2])، ــ وكل ذلك كان بالطبع على حساب المدارس الإسلامية ــ ، لذلك رفض سكان المناطق السورية الملحقة بلبنان التعامل مع سلطات الانتداب الفرنسي وممثليه. فمع مرور الأيام والأعوام أصبح في بيروت وحدها عاصمة لبنان أكثر من مئة مدرسة أجنبية([3])، في الوقت الذي أهملت فيه المدارس الإسلامية، وأخذ التعليم فيها في الانحدار التدريجي بسبب السياسة الفرنسية لمحاربة الإسلام والثقافة والتعليم الإسلامي.

وأمام هذه التحديات لم يقف الشعب اللبناني عاجزاً، فقد قامت نخبة من المسلمين بحمل مشعل الثقافة الإسلامية، ونشر التعليم أكثر من الحكومات المتوالية في عهد الانتداب، ومن ذلك قيام جمعية المقاصد الخيرية التي تأسست عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م([4]) ــ أي منذ عهد الدولة

([1]) مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣٠.

([2]) سعيد مراد : المرجع السابق، ص١٦٨ ؛ مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣٠ .

([3]) سعيد مراد: المرجع السابق، ص١٦٨ ؛ زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٥٥٠.

([4]) جمعية المقاصد الخيرية: تأسست في بيروت أسسها الشيخ عبد القادر القباني، وهي قائمة إلى الآن في بيروت

العثمانية ــ بإنشاء العديد من المدارس الإسلامية للبنين والبنات في بيروت وبعض القرى اللبنانية، فأحسنت كل الإحسان فيما قدمته للثقافة العربية والإسلامية من مؤسسات تعليمية سليمة المنهج، عصرية الروح، إسلامية الوجهة. وظهرت أيضاً في صيدا وطرابلس جمعيات إسلامية خيرية تعهدت بحماية الثقافة الإسلامية، وتتلقى كثيراً من العناية المادية والأدبية والمعنوية من جامعات مصر وخاصة الأزهر([1]). وعمل هؤلاء على نشر الثقافة الإسلامية، خوفاً من اندثارها تحت وطأة الانتداب، ومن هنا نلاحظ تلاحم الأمة الإسلامية وتعاونها في المحافظة على تراثها الإسلامي رغم تباعد الشقة وثقل وطأة الاستعمار الأجنبي ، الذي كان مهيمناً على قدرات تلك الشعوب الإسلامية
في سورية ولبنان ومصر.

استمرت السلطات الفرنسية في مضايقة الجهات التي تهتم بنشر الثقافة العربية والمحافظة عليها، ففرضت اللغة الفرنسية بصورة إلزامية في المدارس، وشجعت مدارس الإرساليات الأجنبية، ولاسيما اليسوعية، فقد فضل الفرنسيون إبقاء الجماهير الشعبية ذات القاعدة الواسعة من دون مدارس، وتعليم النخبة ممن تشملهم الامتيازات اللغة الفرنسية التي اعتبروها اللغة الرسمية في البلاد، وعمد المفوضان الساميان الفرنسيان غورو وويغاند، اللذان كانا يدعمان الكاثوليكية واليسوعية بوجه خاص، إلى مضايقة المسلمين والأرثوذكس([2]) وتعاون اليسوعيون بنشاط كبير مع المخابرات الفرنسية الذين نكلوا بكل من لا يشاطرهم فكرهم وعقيدتهم، مما أدى إلى تعرض خصومهم للملاحقة والقمع، فكانت فرسا تقوم في بلاد الشام بدور المقاتل النصراني الذي يقطع الطريق على الإسلام([3]).

بعد خروج العثمانيين من سوريا ولبنان أصدرت السلطات الفرنسية قراراً بإغلاق كليتي الحقوق والطب والتجارة التي كانت تشغل أبنية الجامعة اليسوعية في بيروت، ومنحت العاملين

وتدير نحو ٧٥ مدرسة، تضم ٢٦٠٠٠ طالب، ١٣٠٠ مدرس في الوقت الحالي، وهي أكبر مؤسسة خاصة تعليمية واجتماعية فهي تحتوي على مستشفى وتقوم بالعديد من الأعمال الاجتماعية الأخرى. انظر: مروان بحيري وآخرون: المرجع السابق ، ص٩٩.

([1]) زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٥٥٠ــ٥٥١ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٠٥ــ١٠٦ ؛ أنيس النصولي: المرجع السابق، ص١٦٩ــ١٧٠.

([2]) نلاحظ من خلال كتابة لوتسكي انه كان من الروس الأرثوذكس المتأثرين بالشيوعية بشكل واضح فهو يحمل على الاستعمار الفرنسي الرأسمالي الكاثوليكي، ويحاول أن يظهر تعاطفه مع المسلمين ومدى الظلم الواقع عليهم من قبل الفرنسيين، وهذا يؤكد لنا أنه لا يمكن أن يتجرد الإنسان مهما كان توجهه الفكري عن ديانته، فهي الرابط القوي الذي يحركه، حتى فرنسا التي تدعي العلمانية، فهي لم تكن علمانية أبداً فإننا سوف نلاحظ من سياق هذه الرسالة أنها كانت نصرانية أكثر من المتدينين.

([3]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١٣٢.

فيها بعض التعويضات وأعادت المباني إلى الجامعة اليسوعية التي باشرت التعليم فيها منذ عام ١٩١٨م، وبذلك لم يتمكن أساتذة هذه الكليات من المسلمين ممارسة عملهم فيها من جديد([1]).

لقد أثر الانتداب الفرنسي والإرساليات التنصيرية وخاصة اليسوعية على اللبنانيين بشكل كبير حتى في لغتهم داخل بيوتهم فيقول لطفي الحفار "والغريب في ذلك أن بعضهم يدعي، أو يظن، أن التكلم بلغة أجنبية في بلاده، ومع أفراد أسرته دليل على المدنية والتمدن، وما درى أن من يستهين بلغته وعاداته أمام الأجنبي لن يكون محترماً لديه، ويدل بذلك على ضعف تربيته..، واندفاعه وراء التقليد"([2]).

فبعد أن ثبت الانتداب الفرنسي أقدامه في بلاد الشام وخاصة في لبنان التي كان النصارى اللبنانيون فيها يعتبرون أنفسهم أنهم رعايا فرنسيون، فقد قامت فرنسا بدعم جامعة القديس يوسف فأنشأت فيها فروع وكليات جديدة من أهمها كلية الطب، كما أنشأت في عام ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، معهد اللاهوت والفلسفة، ومعهد آخر للدراسات الشرقية وهو يعنى بالبحث والتنقيب والنشر([3]). من خلال هذه الجامعة ومعاهدها نجد أن فرنسا دخلت لبنان من أوسع أبواب التعليم والثقافة في مختلف مجالاته وفروعه العلمية والأدبية، حتى تحدث أثراً واضحاً وملموساً في المجتمع اللبناني يحمل ثقافة ولغة المستعمر الفرنسي.

لقد كان لسلطات الانتداب الفرنسي نفوذ كامل على المدارس الابتدائية والثانوية الخاصة في سوريا ولبنان، وعلى الرغم من منافسة الجامعة الأمريكية في بيروت لهم على مستوى التعليم العالي، إلا أن المؤسسة الفرنسية التعليمية المتمثلة في جامعة القديس يوسف حظيت بتعاون وثيق مع سلطات الانتداب الفرنسي، ومن أبرز سمات هذا التعاون تزويد إدارة الانتداب بأعداد كبيرة من خريجي هذه الجامعة، والاعتماد على العنصر النصراني في الأعمال الإدارية والاقتصادية والعسكرية لاستعباد المسلمين وإبعادهم عن الوظائف المهمة في البلاد بهدف تغير الصفة العربية والإسلامية في بلاد الشام([4])، حيث كان لتوصيات الجامعة التأثير الكبير لدى المفوضية العليا عند حصول تعيينات في المراكز العليا في لبنان، حتى أن خريجي هذه الجامعة وصلوا إلى منصب رئيس الجمهورية الذي سيطر عليه الموارنة، إن هذا المركز القوي الذي كان يتمتع به الموارنة في لبنان عائد إلى قوة الكنيسة المارونية التي كانت تعتبر أكبر مؤسسة خارج إدارة الدولة، امتد وجودها بمساعدة الانتداب إلى مختلف المدن والقرى النائية، مما زاد من نفوذها وغناها المادي الذي جمعته الكنيسة من خلال بسط نفوذها وفاعليتها، ومكانتها على

([1]) مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣٠.

([2]) سلمى الحفار : المرجع السابق، ص٩٩.

([3]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٥١.

([4]) رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٢٤ـ ٢٥ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣ ، ص٢٧١.

عدد من الإدارات والمؤسسات التابعة لها وخصوصاً في مجال التعليم والأعمال الخيرية في بلاد الشام([1]).

فبعد تمكن الانتداب الفرنسي في لبنان أطلقت الحكومة الفرنسية يد الجامعتين الأمريكية، واليسوعية "القديس يوسف" ببيروت في التعليم فقد كانت هاتان الجامعتان تدرسان في زمن العثمانيين دروسها باللغة العربية، ولكن في زمن الانتداب الفرنسي تغير الحال فألغت الجامعة الأمريكية التدريس باللغة العربية وحلت محلها اللغة الإنجليزية باعتبارها ــ في رأيهم ــ اللغة الوحيدة للتعليم العالي، أما جامعة القديس يوسف فإنها رفضت أصلاً التدريس باللغة العربية وكانت تدرس الطلاب في جامعتها باللغة الفرنسية، لذلك كان يرى محمد كرد علي أن هذه تعتبر خيانة من هاتين الجامعتين اللتين كانتا تقدمان خدمات جيدة للطلاب المحليين بتدريسهم باللغة العربية، للتأكيد على أصالة اللغة العربية ولياقتها في تقديم العلوم والمعرفة الحديثة([2]). ولكن ذلك كان في زمن الدولة العثمانية عندما كانت عليهم رقيب، أما عندما زالت الدولة زالت معها الرقابة وأصبح المُرَاقب هو الرقيب فتغير بذلك الوضع.

يقول سراي : "وقد تساهلنا في لبنان بافتتاح مدارس إسلامية دون أن نتوانى في شؤون المعاهد الكاثوليكية، وعاضدنا التعليم باللغة العربية وشجعنا مشروع البعثة العلمانية الباهر، فعدّ علينا ذلك في نظر المتعصبين جنايات لا تغتفر"([3]).

لقد سخّر الانتداب الفرنسي التعليم كله لخدمة مصالحة الخاصة حتى أن تبجح سراي بتساهله في افتتاح المدارس الإسلامية، لم يخلو من تسخير التعليم لخدمة فرنسا في الداخل والخارج، فجميع المناهج الدراسية الرسمية كان يشرف عليها السيوعيون، والمستشارون الفرنسيون، وكانت كلها تصب في خدمة التنصير والدولة المنتدبة، بعيدة كل البعد عن الإسلام وخدمة البلاد([4]).

لقد مولت سلطات الانتداب الفرنسي الإرساليات اليسوعية والبطريرك الماروني والإكليروس([5]) الكاثوليك بسخاء، ومنحتهم الأوسمة بينما لم ينل الشيوخ المسلمون شيئاً من ذلك السخاء ومن تلك الأوسمة وفي جميع الاحتفالات الرسمية كان المقام الأول يخصص بصورة

([1]) رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٢٤ــ ٢٥.

([2]) مروان بحيري وآخرون: المرجع السابق ، ص١٦١ــ١٦٢.

([3]) بول كوبلنز : المرجع السابق، ص٥٢.

([4]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٨٤ــ٨٦ ؛ رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٢٤.

([5]) الإكليروس: هم الوعاظ النصارى من أهل البلاد (المحليين) الذين يعملون على إرشاد الشعب وتعليمهم أصول النصرانية من خلال الخدمات المختلفة في مجال الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية. انظر: يسرى الحنفي: المرجع السابق، الحاشية ٢، ج٢، ص٣٦٨.

متعمدة للبطريك الماروني ورئيس الإرساليات اليسوعية، فيما يبقى الزعماء المسلمون في المقام الثاني. وأقفلت السلطات الفرنسية المؤسسات التعليمية الإسلامية واستبدلتها بمؤسسات نصرانية. وكان رؤساء الإرساليات اليسوعية يوجهون سياسة المفوض السامي الفرنسي، حيث أعلنوا بصراحة أن احتلال فرنسا للبنان يعني "انتصار الصليب على الهلال". كل ذلك شكل إهانة للمشاعر الدينية للأغلبية من سكان البلاد وساهم في تأجيج النزاعات بين مختلف الطوائف([1]).

ومن أهم النقاط التي يجب أن نشير إليها والتي تسببت في جدل كبير في فترة الانتداب الفرنسي على لبنان وذلك عندما تم تكليف المفوض السامي بونسو إميل إدة في جمادى الأولى ١٣٤٨هـ/أكتوبر ١٩٢٩م بتولي منصب رئاسة الوزراء وقيامه بتشكيل حكومة تقشف، لتقليل النفقات سميت في حينها "إصلاحات" وذلك بسبب سوء الحالة الاقتصادية في البلاد، فكان أول ما بادر إليه هذا الماروني المتعصب للانتداب أن أغلق ١١١ مدرسة حكومية من أصل ١٦٢ مدرسة يقع معظمها في المناطق ذات الأكثرية المسلمة، مما زاد من نقمة السكان المسلمين على نظام
الانتداب الفرنسي في تلك المناطق، وزادت على اثر ذلك الهوة بين المسلمين والنصارى([2]).

لأن تخفيض الاعتمادات المخصصة للتعليم العام، تركز على المدارس الإسلامية أكثر من غيرها، نظراً لتغلغل البعثات التنصيرية في الأوساط الإسلامية والمسيحية، ولكي نفهم سخط المسلمين على هذه المراسيم لا بد من العودة إلى الوضع التعليمي خلال هذه الفترة، فقد كان النصارى يرسلون أبناءهم إلى مدارس الإرساليات الأجنبية، بينما المسلمون يرسلون أبناءهم إلى المدارس الرسمية الحكومية([3]). إن هذا الإجراء الذي اتخذه إميل إدة كان يهدف من ورائه وضع المسلمين أمام أحد أمرين: إما أن يترك المسلمين أبناءهم جهلة بلا تعليم، أو أن يرسلوا أبناءهم إلى مدارس الإرساليات الأجنبية أو المدارس الطائفية، فيسهل بذلك السيطرة عليهم، وخلق جيل جديد بلا هوية، يجهل الكثير من أمور دينه.

إن هذه التدابير السيئة تركت استياءً عنيفاً في الأوساط الإسلامية داخل لبنان وخارجه، ففي الداخل كان المسلمون يتوجسون خيفةً من حكومة اميل إدة باعتباره زعيماً للتيار السياسي القائل بالهيمنة المسيحية على لبنان، ولم يكتف بذلك بل طالب بإنشاء وطن قومي مسيحي في لبنان، وهو الذي شاع عنه قول:" إذا لم يعجبهم ذلك (أي المسلمون) فليرحلوا إلى مكة"([4]).

([1]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١٣٢ ؛ رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٢٤.

([2]) علي شعيب : المرجع السابق، ص٤٦ـ٤٨ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥٨ .

([3]) سعيد مراد: المرجع السابق، ص٢٠٦ ؛ إبراهيم محسن: المرجع السابق، ص٢٠٢.

([4]) سعيد مراد: المرجع السابق، ص ٢٠٦ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥٨ ؛ إبراهيم محسن:المرجع السابق، ص٢٠٢.

ولم يقتصر الاستياء على مسلمي لبنان بل تعداه إلى البلاد العربية خارج لبنان فأبرق رئيس المجلس الإسلامي في القدس إلى زميله في بيروت يقول :" أنه وصل إليه أن المسلمين في لبنان أوذوا في كرامتهم وأن إخوانهم في فلسطين مستعدون لمساعدتهم"([1]).

كما أن المسلمين في سوريا ساندوا إخوانهم في لبنان وأوضحت الصحافة السورية أن إصلاحات إميل إدة هي أداة حرب لنصارى لبنان ضد الإسلام والمسلمين. حتى أن المسلمين في العراق ثاروا من تصرفات إميل إدة واعتبروها هجوماً عدوانياً من نصارى لبنان ضد إخوانهم المسلمين في لبنان، وطالبوا بضرورة الوحدة بين سوريا ولبنان والعراق، ولم يقتصر ذلك الاستياء على المسلمين، بل تعداه أيضاً إلى النصارى المطالبين بسيادة القومية العربية، فكتب جبران تويني([2]) يقول: "نحن لسنا مسلمين، ومع ذلك فقد كان احتجاجنا على إلغاء المدارس شديداً جداً.. لأننا نرى في إلغاء التعليم الرسمي تهديداً لأسس السيادة القومية التي نكافح في سبيلها"([3]).

رد نصارى لبنان المؤيدون لسياسة إدة على هذا الاستياء بدعوتهم إلى مقابلة هذه الحركة الإسلامية بحركة نصرانية، مما أدى إلى تنبه السلطات الفرنسية إلى خطورة موقفها خاصة، وأن الكيان اللبناني الجديد مازال طري العود، فكانت النتيجة الطبيعية لهذه الإجراءات التي اتخذها اميل إدة قصر عمر رئاسته للحكومة وسقوط وزارته في٢٤ شوال ١٣٤٨هـ/٢٥ مارس ١٩٣٠م، إلا أن الأثر الأكبر أهمية الذي تركته حكومة إدة المؤيدة لفرنسا هي تعميق الانقسام

([1]) سعيد مراد : المرجع السابق، ص٢٠٧.

([2]) جبران اندراوس التويني(الأول)(١٣٠٧ــ ١٣٦٦هـ/١٨٩٠ــ١٩٤٧م): ولد في بيروت وتعلم بها، ثم أنتقل إلى باريس سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٨م. ليحسن قدراته الصحفية، ثم أنتقل للقاهرة ليباشر عمله كمحرر صحفي مراسل لعدة صحف هناك منها " المقطم" و" الاهرام" ثم عاد لبيروت لينضم لجريدة "الحرية"، وقد استطاع من خلال عمله الجديد في= =بيروت تأسيس علاقات جيدة مع أصحاب الصحف ودور النشر العاملة في البلاد، ثم عين رئيس لنقابة الصحافة سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، وفي سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م أسس صحيفة "النهار" ثم عين وزيراً مفوضاً في الأرجنتين لدى الاورغواي وتشيلي، كما تقلد عدد من المناصب العليا في ظل الانتداب الفرنسي، توفي في الولايات المتحدة الامريكية. بعد ان ترك بصماته على مسار النهج الصحفي في لبنان ومازالت جريدته قائمة حتى الأن، حيث تولي إدارتها ورئاسة تحريرها بعده أبنه الصحفي غسان يعاونه حفيده الصحفي جبران غسان التويني. انظر الموقع على الانترنت: أبناء بيروت .http:www.abnaabeirut.com

([3]) سعيد مراد : المرجع السابق، ص٢٠٧ــ٢٠٨.

الطائفي في البلاد([1])، وتعميق الهوة بين نصارى لبنان والموارنة بصفة خاصة، وبين المسلمين في جميع البلاد العربية الإسلامية بصفة عامة.

ففي عهد الانتداب الفرنسي في لبنان كانت كل مجالات العمل الرسمي مفتوحة في وجه خريجي معاهد التعليم الفرنسي، والناطقين باللغة الفرنسية، والموالين لفرنسا، أما خريجو المعاهد والمدارس العربية والإنجليزية، فقد كانت توصد في وجوههم جميع الأبواب، فالوظائف الرفيعة والمناصب العليا كانت من نصيب أصحاب الفريق الأول([2]).

هذا بالنسبة للتعليم أما بالنسبة للمناهج فقد قامت حكومة الانتداب الفرنسي بتشويه التاريخ الإسلامي والدس على الإسلام، حيث كان ولا يزال يدرس في مدارس الإرساليات التنصيرية كتاب اسمه"البحث عن الدين الحقيقي"، وهو عبارة عن محاضرات في التعليم الديني صدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس طبع سنة١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، وجاء في الصفحة ٢٢٠ من هذا الكتاب ما يلي:

"الإسلام ــ في القرن السابع (للميلاد) برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب. لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه...، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب والنهب ووعد الذين يَهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات...وتناول الاجتياح نصف فرنسة...ولكن أنظر، هاهي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سداً في وجه سير الإسلام المنتصر عند بواتية (٧٥٢م). ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ــ١٢٥٤م) في سبيل الدين فتدجج أوروبة بالسلاح وتنجي النصرانية. وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الإنجيل على القرآن..."([3]).

هذا النوع من التأليف الذي أتبعة أكثر الكتّاب الغربيين سواء قبل أو بعد الانتداب وحتى الوقت الحاضر هو الذي أقلق السلام بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور والأزمنة، وهو الذي يهدد السلام ــ والإسلام ــ كل يوم وخصوصاً في الشرق. وليس بعجيب أن تكون حكومة الانتداب قد حمت هذا النوع من التأليف وشجعته بل وفرضته على البلاد بالقوة، هذا بالإضافة إلى أن بابا الفتكان استحسن هذه الكتب واتجاهاتها وأسلوبها([4]).

ثانياً : الصحافة في لبنان:

([1]) سعيد مراد : المرجع السابق، ص٢٠٨ ؛ علي شعيب : المرجع السابق، ص٤٦ــ٤٨ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥٨ .

([2]) شفيق جحا: المرجع السابق، ص٩٥ ؛ irfan C. Acar: Op. Cit. p.26.

([3]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٧٢ــ٧٣.

([4]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٧٣ ؛ أولريكة فرايتاغ: المرجع السابق، ص٣٦.

عرف لبنان الصحافة منذ عرف الطباعة العربية، فلم يبدأ النشر بالعربية في الأقاليم العربية في الدولة العثمانية إلا بعد عام ١١٣٩هـ/١٧٢٧م، عندما رفع الباب العالي الحظر عن النشر بالعربية. وقبل ذلك كانت الكتب بالعربية تطبع في إيطاليا وفرنسا[1]، وكانت أولى المطابع التي دخلت الولايات العربية في دير قزحيا في لبنان عام١٠٠٩هـ/١٦٠١م، وتلتها مطبعة دير مار يوحنا بالشوير عام ١١٤٥هـ/١٧٣٣م[2]، كما كان للإرساليات الأجنبية وخاصة الأمريكية دور كبير في تأسيس مطابع النشر[3] في لبنان، حيث كانت تطبع الإنجيل، ثم

الصحف العلمية والتاريخية[4]،

ونتيجة لذلك ظهرت شخصيات نصرانية عملت تحت رعاية الإرساليات الأمريكية في بيروت بواسطة بطرس البستاني[5] ونصيف اليازجي[6]، حيث أنشاء "جمعية الآداب والعلوم" عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م تحت رعاية

---

(١) فواز طربلسي: المرجع السابق، ص١٠٦.

(٢) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة، الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، (الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م)، ص٥٧.

(٣) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: أنيس النصولي، المرجع السابق، ١٢٥ــ١٣٨ ؛ توفيق برو: العرب والترك، ص٣٦.

(٤) زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٥٥٣.

(٥) بطرس البستاني(١٢٣٥ــ ١٣٠٠هـ/١٨١٩ــ١٨٨٣م): مسيحي كاثوليكي ولد بلبنان تعلم عدداً من اللغات اعتنق المذهب البروتستانتي مما قرب بينه وبين الأمريكيين. ترجم الإنجيل من اليونانية إلى العربية، وترجم التوراة من العبرية إلى العربية أنشأ المدرسة الوطنية عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م، وسمح بدخولها لكل السوريين وخرج منها جيل قومي يعتز بعروبته، وأدمجت هذه المدرسة بالكلية السورية الانجيلية، وعمل هذا الجيل على نشر القومية العربية= = في بلاد الشام. انظر: يوسف الدبس: المرجع السابق ، ص٧٧٩ ؛ فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٦١ ؛ جلال يحيى: الثورة العربية، ص٣٤.

(٦) نصيف اليازجي(١٢١٤ــ١٢٨٨هـ/١٨٠٠ــ١٨٧١م): أصله من سوريا ولد بلبنان، وهو مسيحي كاثوليكي درس على يد القساوسة تعمق في دراسة الأدب العربي مما جعل الأمريكيين يستعينون به في حركة التأليف التي قاموا بها لإظهار أن المسيحيين لا يقلون عن المسلمين في اعتزازهم بلغتهم ورَبىّ اليازجي أبناءَه على رفع لواء البعث القومي العربي عالياً، وأخذوا ينادون بها بين المسلمين حتى يضعفوا الوحدة الإسلامية. انظر: فيليب حتي:

الإرساليات الأمريكية في بيروت([1])، وشملت مداولات الجمعية العديد مـن الموضـوعات فـي العلوم والتاريخ وحقوق المرأة ومكافحة الخرافات وتدوين تـاريخ بيـروت، وتوضـيح أهميـة التجارة، لكن هذه الجمعية لم تعمر طويلاً([2]). وفي عام ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م أسـس اليسـوعيون "الجمعية الشرقية"، وكان أعضاء كلا الجمعيتين من النصارى، وكان هدفهم نشر العلوم الغربيـة والتوجه نحو الغرب([3])، ولأن هاتين الجمعيتين كانتا وقفاً على النصارى من عرب بلاد الشـام، ــ لذلك رأت الإرساليات النصرانية أن هاتين الجمعيتين لم تؤد دورها المطلوب منها فـي نشـر مبادئها الهدامة في نفوس العرب المسلمين،وبعث الجاهلية القديمة وروح القومية التي سوف تؤي في نهاية المطاف إلى ضعف الدولة العثمانية وتقلص من نفوذها ــ ، لذلك ما لبثـت أن انحلـت الجمعيتان السابقتان، وظهرت سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م "الجمعية العلمية السورية" التـي ضـمت ١٥٠ عضواً من كل الطوائف الإسلامية والمسيحية([4]). وعملت هذه الجمعيات على نشر الفكـر القومي، حيث نجحت في إحداث شرخ عميق في العلاقات بين العرب والترك أدى فـي نهايـة الأمر إلى خروج الدولة العثمانية من بلاد الشام، ومن ثم سقوط الخلافة العثمانيـة مـن علـى خارطة العالم الإسلامي، وقيام دويلات صغيرة مفككة الأجزاء، تحت سلطة أجنبية أطلقت علـى نفسها اسم انتداب هدفت إلى نشر الفكر الغربي وتغريب العرب، والقضاء على الثقافة الإسلامية، تحت مسمى المدنية والتمدن، متجاهلين فضل الحضارة الإسلامية ودورها الفكري والثقافي الذي اخرج الغرب الأوربي من ســــــــــــــباته، فأشرق نور الحضارة الإسلامية على الغرب الأوربي بأكمله.

وبسبب التنافس بين الإرساليات الأمريكية واليسوعية([5]) قامت جامعة القديس يوسف بضم المطبعة الكاثوليكية التي تأسست في١٢٦٩هـ/١٨٥٣م إليها، وهذه المطبعة تعتبر مـن أفضـل

المرجع السابق، ص٥٦٢ـــ٥٦٣ ؛ الزركلـي:الأعـلام، ج٧، ص٣٥٠ ؛ جـلال يحيـى: الثـورة العربيـة، ص٣٣ــ٣٤.

([1]) علي حسون : المرجع السابق، ص١٤٣ ؛ ناصر محمد الجهيمي: مشروعات الوحدة العربية في المشرق العربي (١٣٦٤ــ١٣٧٦هـ/١٩٤٥ــ١٩٥٦م)، (رسالة لنيل درجة الدكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، الريـاض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، (غير منشورة)، ص١٦٥ ؛ فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٠٧.

([2]) فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٠٧ــ١٠٨.

([3]) علي حسون : المرجع السابق، ص١٤٣ ؛ ناصر محمد الجهيمي: المرجع السابق، ص١٦٥ ؛ ياسر قاري: دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية دراسة تاريخية تحليلية، (رسالة لنيل درجة الـدكتوراه بجامعـة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، (غير منشورة)، ج٢، ص٤٥٢.

([4]) هدى رزق: المرجع السابق، ص٣٨ــ٣٩.

([5]) نقلت الإرساليات الأمريكية مطبعتها المعروفة بالمطبعة الأمريكية من مالطا إلى بيروت في١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م قبـل تأسيس الجامعة الأمريكية وأول عمل شرعت به كانت ترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة العربيـة فصـيحة سـهلة،

المطابع في الشرق العربي من حيث التجهيز والإخراج([1])، حتى تستطيع أن تجذب الناس لقراءة ما يكتبه هؤلاء المنصرون. وأصدرت المطبعة الكاثوليكية مجلة "المشرق"، التي أسسها الأب لويس شيخو اليسوعي([2]) عام١٣١٥هـ/١٨٩٨م وكانت تحتوي على مباحث علمية وأدبية وفنية، تصدر في ٨٠ صفحة شهرياً، ويقوم بتحريرها مجموعة من آباء كلية القديس يوسف، وكان يغلب عليها الطابع النصراني الكاثوليكي، كما أنها كانت حسنة الإخراج وتحتوي على بعض الرسوم والصور، المطبوعة بشكل جيد، وهي من المجلات التي كانت تؤيد الانتداب الفرنسي وتشد على يده([3]).

وفي عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م أسس خليل الخوري ([4]) مطبعة في بيروت لطبع جريدته "حديقة الأخبار" والتي انتهت بموته، وكانت الصحافة في لبنان في أول أمرها تعنى بنشر الأوراق الحكومة، ثم أخذت الصحف والمجلات تنشر الخطب والمقالات والأشعار التي كانت تلقى في المدارس والجمعيات الأجنبية والتنصيرية خاصة([5]).

لقد اسهم نصارى لبنان في انتشار الطباعة والأدب والثقافة العربية بشكل واضح في بلاد الشام خاصة والبلاد العربية المجاورة عامة([6])، فكان لهم أكبر الأثر في الانفتاح على أوربا

لتضعهما في متناول الطبقات العامة من الناس. وقد استغرق العمل ثمانية سنوات. وقد قام بالترجمة منصر اسمه عالي سمث أو إيلي سميث كما في بعض المراجع وهو خريج جامعة ييل. وبواسطة المطبعتين الكاثوليكية والأمريكية، والجامعتين اليسوعية والأمريكية، توفرت في بلاد الشام سبل التفاعل الأدبي والعلمي بين الغرب والشرق. ونشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية والعكس، خاصة النصرانية. انظر: فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٥٥ ؛ هدى رزق: المرجع السابق، ص٣٨.

([1]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص ٥٥١.

([2]) الأب لويس شيخو اليسوعي(١٢٧٥ـ١٣٤٥هـ/١٨٥٩ـ١٩٢٧م): ولد في ماردين وتوفي في بيروت، مؤسس مجلة المشرق والمكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف، انصرف إلى درس وإحياء الآداب العربية، قديمها وحديثها، من مؤلفاته "مجاني الأدب في حدائق العرب" و "شعراء النصرانية" و "علم الأدب" فضلاً عن خمسة وعشرين مجلداً من مجلة "المشرق" كان يحرر منها قسماً لا يستهان به إلى وفاته. انظر: الزركلي: الاعلام ج٥، ص٢٤٦ ؛ أنيس النصولي: المرجع السابق،الحاشية ٧١، ص٩٣.

([3]) مجلة المشرق: مجلة كاثوليكية تصدرها كلية القديس يوسف، بيروت، السنة الثانية والعشرون، ١٩٢٤م ؛ مجلة المشرق: السنة السابعة والستون، ج١، يناير ـ يونيو ١٩٩٣م.

([4]) خليل خوري(١٢٥٢ـ١٣٢٥هـ/١٨٣٦ـ١٩٠٧م): ولد بالشويفات بلبنان، تعلم على يد ناصيف اليازجي، أنشأ المطبعة السورية وجريدة "حديقة الأخبار" من مؤلفاته "الشاديات" انظر:الفيكونت فيليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، (المطبعة الأدبية،بيروت،١٩١٣م)،ج١، ص١٠٢ـ١٠٥ ؛ أنيس النصولي:المرجع السابق، الحاشية ١٢٦، ص١٣١.

([5]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٦٥ ؛ زكي المحاسني: المرجع السابق، ص٥٥٣ ؛ مجلة تاريخ العرب والعالم ، دار النشر العربية، بيروت، العدد ٢٢١، السنة ٢٦، مايو ـ يونيو ٢٠٠٦م، ج٣٠، ص٧٧ـ٧٨.

([6]) فقد لعب مثقفو لبنان دور بارز في تطوير الصحافة في مصر حيث أصدر يعقوب صروف ، فارس نمر مجلة

وفرنسا بشكل خاص([1]). حيث أنهم استطاعوا تمهيد الطريق أمام الثقافة الفرنسية، بسبب الدعم الفرنسي لهم أولاً، ودعوتهم للقومية العربية ثانياً، ودعوتهم للعلمانية ثالثاً، حتى تمكنوا من جذب المسلمين إليهم فكان بعضهم عون لهم ضد الدولة العثمانية.

كما رحبت صحافة المارونية بالانتداب الفرنسي على لبنان فقد كانت صحيفة "البرق" التي أنشأها بشارة الخوري "الأخطل الصغير"([2]) عام١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وهي صحيفة أدبية أسبوعية، ثم تحولت إلى يومية بعد الحرب العالمية الأولى ودخول الانتداب الفرنسي إلى لبنان([3]). وكتب فيها مؤسسها قصيدة طويلة يشكر فيها الجنرال غورو لإنشائه دولة لبنان الكبير وجاء فيها:

وثمار الفوز للمستبسل　　　إيه غورو، والأماني جمَّة

ليس بالجاحد كفّ المفضل　　　إن لبنان، الذي أوجدته

قبل غورو، رجل عن رجل　　　تلك إنسانية لم يروها([4])

وفي عام١٣٣٧هـ/١٩١٨م قامت الجامعة الأمريكية في بيروت بإنشاء جمعية العروة الوثقى والتي كانت تضم عدد كبير من العرب على اختلاف طوائفهم، وكانت تدعو إلى القومية العربية وتمجيدها في المقام الأول، لذلك سمحت الجامعة الأمريكية بإنشاء هذه الجمعية"العروة الوثقى" وإصدار مجلتها المطبوعة في١٤ ربيع الآخر ١٣٤٢هـ/٢٣ نوفمبر ١٩٢٣م، واستمرت هذه الجمعية قائمة حتى عام١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، وقام أعضاؤها بتأسيس "النادي الثقافي العربي"

المقتطف في بيروت في١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ، ثم انتقلت إلى القاهرة في١٣٠٠هـ/١٨٨٣م وفرضت نفسها منبراً للفكر العلمي والثقافي، كما أسس جرجي زيدان مجلة الهلال في مصر، وأسس الأخوان سليم وبشارة تقلا صحيفة الأهرام في مصر والتي لا تزال إلى يومنا هذا من أهم الصحف المصرية. انظر: فواز طرابلسي:المرجع السابق، ص١٠٧.

([1]) فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٠٨.

([2]) بشارة بن عبد الله الخوري البيروتي المعروف بالأخطل الصغير(١٣٠٢ـ١٣٨٨هـ/ ١٨٨٥ـ١٩٦٨م): ولد وتوفي في بيروت، تلقى تعليمه الأولي في الكُتّاب، ثم أكمل دراسته في مدرسة الحكمة ، وغيرها أنشأ جريدة البرق عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، واستمرت في الصدور حتى بداية عام١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، عندما أغلقتها السلطات الفرنسية وألغت امتيازها نهائياً. صدر له ديوان (الهوى والشباب)١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، وديوان (شعر الأخطل الصغير) ١٣٨٠هـ/١٩٦١م، اشتهر الأخطل الصغير في الأقطار العربية، وكرم في لبنان والقاهرة. وأطلق عليه لقب أمير الشعراء. انظر: الموقع على الانترنت: الموسوعة العالمية للشعر العربي http://www.adab.com ؛ الموسوعة الحرة ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org ؛ الزركلي: الأعلام ج٢، ص٥٣

([3]) الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٥٣.

([4]) الموقع على الانترنتhttp://www.yabeyrouth.com

ببيروت([1]). وإننا نعتقد أن إنشاء هذه الجمعية كان من باب المنافسة القائمة بين جامعة القديس يوسف والجامعة الأمريكية في لبنان، فكلا الجامعتين حاولتا نشر الأفكار القومية في محاولة منهما لطمس الهوية الإسلامية.

وفي جبل عامل أنشأ الشيخ أحمد عارف الزين([2]) مطبعة العرفان في صيدا وهي أول مطبعة في جبل عامل، وأول مجلة أنشئت فيه هي "مجلة العرفان" عام ١٩٠٩م. وأول صحيفة فيه هي صحيفة "جبل عامل" أنشئت بعد إنشاء "مجلة العرفان" والثلاثة أنشأها الشيخ عارف الزين بجده واجتهاده([3]).

أما في مرجعيون فقد أنشئت صحيفة "المرج" ومطبعة صغيرة باسم مطبعة المرج أنشأهما الدكتور اسعد رحال، ثم أنشئت جريدة باسم "النهضة المرجعيونية"، ثم أنشئت جريدة "القلم الصريح" أنشأها الأستاذ الفرد ابو سمرة وصحيفة "صدى الجنوب" أنشأها الأستاذ راضي دخيل([4]).

في رجب ١٣٤٢هـ/فبراير ١٩٢٤م وضع المفوض السامي الفرنسي الجنرال ويغاند "قانون الصحافة" ومرره عبر المجلس التمثيلي اللبناني، وكان يتضمن فرض تأمين قدرة ٥٠٠ ليرة سورية على جميع الصحف الصادرة بعد عام١٣٣٣هـ/١٩١٤م، ولا يعاد هذا التأمين إلى الصحيفة التي تتخذ موقفاً معادياً من السلطات أو الاحتكارات الفرنسية، وحظر على أصحاب الصحف نشر تقارير المجلس التمثيلي دون أذن، والصحيفة التي تنشر قرارات المجلس تقفل على الفور، وكما هو الحاصل في سوريا حصل في لبنان فالصحفي معرض للسجن والمضايقة من قبل سلطات الانتداب، إذا كتب شيء يمس السياسة الفرنسية بسوء([5]).

([1]) أمجد ذيب غنما: جمعية العروة الوثقى نشأتها ونشاطاتها، (رياض الريس، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م)، ص١١ـ٤٠.

([2]) الشيخ أحمد عارف الزين(١٣٠١ـ١٣٨٠هـ/١٨٨٤م ـ ١٩٦٠م): كاتب، صحافي، من أهل صيدا بلبنان. شيعي المذهب، بدأ حياته الصحفية بثمرات الفنون لليازجي والاتحاد العثماني وحديقة الأخبار، ثم أصدر مجلة العرفان فجريدة أسبوعية باسم جبل عامل، وعطلت وسجن صاحبها، واشتغل بالقضية الوطنية واعتقل، وسيق إلى الديوان العرفي في عالية بلبنان، وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى١٣٣٧هـ/١٩١٨م، فتابع إصدار مجلة العرفان حتى وافته المنية في إيران في ٢٣ ربيع الآخر ١٣٨٠هـ/١٣ أكتوبر١٩٦٠م. انظر: الموقع على الانترنت: http://aarabiah.isoc.ae الموسوعة العربية، علماء الإسلام.

([3]) مروان بحيري وآخرون: المرجع السابق، ص١٢٧ـ١٣١.

([4]) حبيب صادق: وجوه ثقافية من الجنوب، فؤاد جرداق شاعر التمرد والتحدي، (دار ابن خلدون)، الحاشية١، ص١٠٩.

([5]) فلاديمير لوتسكي: المرجع السابق، ص١٣١ـ١٣٢.

وفي ٢٨ شوال ١٣٤٣هـ/٢١ مايو ١٩٢٥م ألغيت حرية الصحافة تماماً بموجب القـرار الصادر في ذلك اليوم، والذي يسمح للحكومة اللبنانية بتوقيف الصحف إدارياً. كما يحتفظ المفوض السامي بهذا الحق لنفسه، فليس للصحيفة حق الطعن ضد أي من السلطتين ـ سلطة الحكومة وسلطة الانتداب ـ، وتجدر الإشارة إلى أن إثبات تهمة النقد المسموح بها ضد الموظفين اللبنانيين، غير مسوح بها ضد الموظفين الفرنسيين. إن هذه الإجراءات التعسفية في لبنان أدت إلى التضييق الحاد في ممارسة الحريات العامة، في سبيل خدمة المصالح الاستعمارية العليا لفرنسا في المشرق العربي([1]).

كانت السلطات الفرنسية تغلق حتى الصحف النصرانية المعارضة للانتداب، فيذكر فؤاد جرداق([2]) أنه أنشأ هو وصديقة فؤاد الشمالي([3]) في منتصف الثلاثينات ببيروت صحيفتي"المريخ" و "الخازوق" الانتقاديتين الساخرتين واللتين لم يستمر صدورهما طويلاً بسبب مصادرة سلطات الانتداب الفرنسي لهما وملاحقة صاحبيها، لتناولهما بالسخرية اللاذعة رجال الانتداب والتابعين لهم من أهل البلاد([4]). لقد راجت الصحف الهزلية النقدية في أواخر عهد الدولة العثمانية (١٣٢٧ـ١٣٣٧هـ/١٩٠٨ـ١٩١٨م)، واستمرت حتى في عهد الانتداب الفرنسي، حيث كانت تمارس النقد السياسي بأسلوب هزلي وهادف للأوضاع في سوريا ولبنان، وكان نصيب هذه الصحف في الكثير من الأحيان الملاحقة والإغلاق([5]). وفي هذا دليل على أن هناك من النصارى من عارض الانتداب الفرنسي، وكان يعمل بمايستطيع من امكانيات متاحة لتخليص البلاد منه.

لم تؤسس وزارة المعارف بدمشق أو بيروت مجلة تعنى بمجال التربية والتعليم. أما الفرنسيون فلم يهملوا هذه الناحية فكانوا ينشرون في بيروت بلغتهم الفرنسية نشرات ومجموعات

([1]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص٥٦ ؛ مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص٢٠٤ـ٢٠٥.

([2]) فؤاد جرداق(١٣٢٧ـ١٣٨٥هـ/١٩٠٩ـ١٩٦٥م): من الروم الأرثوذكس من مواليد جديدة مرج عيون، ولد في١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، تعلم في المدارس الرسمية في مرجعيون، ثم دخل دير المخلص وانخرط في سلك الرهبنة، ثم خرج منه ودرس في المعهد الزراعي وتخرج مهندساً زراعياً، اعتنق الفكر الشيوعي الاشتراكي، وعمل في أكثر من عشرين صحيفة، اعتقلته أكثر من مرة سلطات الانتداب الفرنسي. انظر: الزركلي: الأعلام ج٥، ص١٥٩ـ١٦٠ ؛ حبيب صادق: المرجع السابق، ص١٠٧ـ ١٠٩.

([3]) فؤاد الشمالي: من نصارى لبنان، كان يعمل في معمل لصناعة التبغ في الإسكندرية في مصر، رحلته الحكومة المصرية إلى بلده لبنان بسب اشتراكه في مظاهرات تدعوا إلى الاشتراكية، عندما عاد إلى لبنان، عمل في مصنع للتبغ في "بكفيا"، قام هو ويوسف يزبك بتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني باسم مستتر تحت مسمى "حزب الشعب اللبناني"، وكان الشمالي الأمين العام لهذا الحزب. انظر: علي شعيب: المرجع السابق، ص١٠٣ـ١٠٧.

([4]) حبيب صادق: المرجع السابق، ص١٠٩.

([5]) عبد الكريم السمك: الصحافة ونشأتها في بلاد الشام، بحث غير منشور، ص٣.

علمية كثيرة، وينشرون في معهدهم الفرنسي بدمشق رسائل في شتى الموضوعات. ولم يترجموا شيئاً منها بالعربية على حين أن قسماً من نفقات ما كانوا ينشرونه بالفرنسية سواء في بيروت أو في دمشق كان من أموال الشعبين السوري واللبناني، أي من أموال الجمارك التي كانت المفوضية العليا الفرنسية تتصرف بها، كما أن سلطات الانتداب الفرنسي لم تعمل على تشجيع الأدباء والعلماء على تأسيس صحافة أدبية أو علمية في سوريا أو لبنان، حتى أن وزارة المعارف لم تخصص لها سلطة الانتداب مال لإصدار مجلة تعليمية([1]).

([1]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ص٢٠٦ــ٢٠٧.

المبحث الثالث: أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاجتماعية.

كان الزائر الغربي عندما يأتي إلى بلاد الشام في مستهل القرن التاسع عشر ــ عندما كانت تحت ظل الدولة العثمانية ــ تؤثر فيه المشاهد المحلية الغريبة. فملابس الناس مختلفة غريبة في أزيائها فالرجال بسراويلهم الواسعة وغنابيزهم[1] المقلمة، والنساء سواء كن مسلمات أم نصرانيات أم يهوديات يخرجن إلى الأسواق محجبات[2] تشبهاً بالمسلمات، لأنهن الأغلبية[3]، والجميع يجلسون على الفرش ويأكلون طعامهم في صواني ويشربون الماء في إبريق، وكل ما في البيت يكاد يكون من الصنع المحلي، لكن ما إن انصرم القرن التاسع عشر، ودخل القرن العشرون حتى تغير حال البلاد بعد الانفتاح على الغرب عن طريق البحر المتوسط[4].

لقد بدأ الانفتاح العربي على الغرب يظهر بشكل واضح في بلاد الشام عندما قام الإمبراطور الألماني وليم أو غليوم الثاني[5] بزيارة للقدس ودمشق في عام ١٣١٦هـ/

---

(1) الغنباز هو: رداء ضيق من الأعلى، يتسع قليلاً من الأسفل، مفتوح من الأمام حتى يرد أحد الشقين على الأخر، ومشقوق من الجانبين، وقنباز الصيف من الكتان، وله ألوان مختلفة، وقنباز الشتاء من الجوخ. ويلبس من تحته قميص أبيض قطني يعرف بالمنتيان. انظر: الموسوعة الفلسطينية، (هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط١، ١٩٨٤م)، ج١، ص٢٠٢ ؛ محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص٧٥.

(2) إن في هذا دلالة على أنه عندما كان الإسلام عقيدة قوية في نفوس المسلمين تأثر به حتى النصارى، فالنصرانيات كن يقتدين بالمسلمات في الحجاب، لكن عندما ضعف الإيمان في قلوب المسلمين، فأصبح بعض المسلمين يتشبهون بالنصارى، في تحللهم من عاداتهم الاجتماعية التي فرضتها عليهم الشريعة الإسلامية السمحاء، فأصبح الأوروبيون هم القدوة، فخلع بعض النساء الحجاب، تشبهاً بالغربيات.

(3) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٧١ــ٥٧٢ ؛ سهام هنداوي: المرجع السابق، ص١٥٦ــ١٥٧.

(4) ناصيف اليازجي: رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي، تحقيق وتعليق: الخوري قسطنطين الباشا المخلص، (مطبعة القديس بولس، حريصا)، ص٢٥ ؛ فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٧١ــ٥٧٢.

(5) وليم أو غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا William(١٢٧٥ــ١٣٥٩هـ/١٨٥٩ــ١٩٤١م): ارتبطت سيرته بالعالم العربي والإسلامي منذ عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م حين قام بزيارة للقدس ودمشق. وفي عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م قام بالتأكيد على استقلال سلطان مراكش التي كانت تحت الاحتلال الفرنسي. وفي عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م عقد تحالفاً مع الدولة العثمانية بالاشتراك مع إمبراطورية النمسا ــ المجر، وهو التحالف الذي برز

نوفمبر ١٨٩٨م وارتبطت سيرته بالعالم العربي والإسلامي كصديق للمسلمين([1])، لكن ما أن انتهت هذه الزيارة حتى امتلأت فنادق بلاد الشام بنوع جديد من الزوار لم تعهدهم هذه البلاد من قبل،مثل ضباط الجيش من بريطانيا وألمانيا، ومهندسي سكك حديد من النمسا، وعلماء الآثار من جامعات بريطانيا وفرنسا وألمانيا والمجر، بعضهم جاء باللباس المدني والبعض جاء باللباس العسكري، ومن بين هؤلاء كان الكثير من الجواسيس والعلماء والتجار، ومن هنا ظهر التنافس الشديد بين الدول الأوربية على اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية، فبريطانيا وفرنسا كانتا تخشيان من أن تمتد يد عدوتهما ألمانيا إلى الدولة العثمانية، لذلك عملوا على تنظيم استخباراتهم، من أجل الوقوف في وجه التقارب العثماني الألماني([2])، فأغرقوا بلاد الشام بالجواسيس الأجانب على اختلاف تخصصاتهم وعاداتهم ومذاهبهم، مما أثر على كافة مظاهر الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في بلاد الشام.

لقد عمل الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان على توظيف التركيب الاجتماعي للسكان في خدمة مصالحة الاستعمارية ففرنسا فرضت انتدابها على سوريا ولبنان في شهر رجب ١٣٣٨هـ/ابريل ١٩٢٠م، ووافقت عليه جمعية الأمم في ذي القعدة ١٣٤٠هـ/ يوليو ١٩٢٢م، في الوقت الذي كان يبلغ فيه عدد سكان سوريا ولبنان٢.٢٥٠.٠٠٠ من المسلمين، ٤٠.٠٠٠ من الدروز، و٤٠٠.٠٠٠ من المسيحيين منهم ١٥٠.٠٠٠ ماروني([3]). وبذلك يبلغ عدد السكان الإجمالي ٢.٦٩٠.٠٠٠ نسمة، استغل منهم الانتداب الفرنسي ١٥٠.٠٠٠ نسمة وهم الموارنة ووظفتهم لخدمة مصالحها الاستعمارية في لبنان. أما في سوريا، فقد عملت السلطات الفرنسية على استقطاب الدروز عن طريق التعليم كما رأينا في أثر الانتداب الفرنسي على المؤسسات التعليمية والثقافية، فمن هذا المنطلق بدأت فرنسا اختراق المجتمع

في الحرب العظمى. انظر: أحمد عطية الله : المرجع السابق، ص٨٣٧ .

([1]) للمزيد من المعلومات حول هذه الزيارة والعلاقة بين الدولة العثمانية وألمانيا انظر: رياض نجيب الريس: جواسيس بين العرب صراع المخابرات الأجنبية وأوهامها ١٨٩٨ــ١٩٢٦م، (دار رياض الريس للنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م)، ص٣٥ــ٤٨ ؛ عبد الرؤوف سنّو: ألمانيا والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين، (الفرات= = للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م)، ص٢٧ــ٧٠.

([2]) رياض نجيب الريس: المرجع السابق، ص٣٥ــ٤٨.

([3]) غوردون كاننج: المرجع السابق، ص٦٠٣.

الساحل والداخل السوري واللبناني.

أ ـــ أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاجتماعية في سوريا:

تعتبر دمشق من أقدم مدن العالم وهي عاصمة الأمويين ونقطة ارتكاز الحضارة في بلاد الشام وهي مؤلفة من أحياء يسكنها المتماثلون في العمل أو المال أو الوجاهة في حي معين لا يغيروه إلى سواه إلا نادراً مثال ذلك:

١. حي سوق ساروجة يسكنه ضباط الجيش ومن لهم علاقة بهم وكان الدمشقيون يطلقون عليه اسطنبول الصغير.
٢. حي القنوات يسكنه التجار والأغنياء ومن يلوذ بهم.
٣. حي الميدان يسكنه تجار الحبوب وأصحاب العلاقة بهم، ويكدسون القمح والشعير والذرة أكواماً في حوانيت فسيحة يسمونها بايكة.
٤. حي الشاغور وباب السريجة يسكنه تجار الخضرة والأغنياء.
٥. حي باب البريد يسكنه كبار الحرفيين والميسورين منهم، والعلماء من أئمة وقضاة ومؤذنين.
٦. أما متوسطو الدخل فيسكنون على حواشي تلك الأحياء، وأما الفقراء فإنهم يسكنون في حواشي المدينة المتطرفة([١]).
٧. ويسكن المسيحيون حي القصاع أو باب توما. ويسكن اليهود حياً خاص بهم يسمى حارة اليهود، ويتصل حالياً بحي الأمين، وهم قبضة منكمشة في هذه الحارة([٢]) وإن كانت لهم علاقات تجارية واسعة([٣]).

([١]) ممدوح حقي: المرجع السابق، ص٣٤ـــ٣٥.

([٢]) لقد كان اليهود في دمشق يسببون الكثير من الأذى للمسلمين والمسيحيين ففي عام ١٢٥٦هـــ/١٨٤٠م نشبت أزمة في دمشق بين اليهود والنصارى بسبب قتل اليهود للأب توما الكبوتشي واستعمل دمه في صنع فطيرة عيد الفصح الخاصة بهم. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: مصطفى طلاس: فطير صهيون، (دار طلاس، دمشق، ط٩ ، ٢٠٠٤م)، ص٣٣ـــ١٥٦ ؛ سهام هنداوي: المرجع السابق، ص١٥٣.

([٣]) لوثروب ستودار: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق: شكيب أرسلان، (دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٣٩١هـــ/١٩٧١م)، ج١، ص١٠ ؛ ممدوح حقي: المرجع السابق، ص٣٤ـــ٣٥.

٨. حي الصالحية، وهو قرية قائمة في سفح جبل قاسيون، ويسكنها في الغالب الصالحون من الشيوخ والفقهاء، وكان يسمى هذا الحي شارع المدارس، فقد وجد فيه أكثر من مئة مدرسة يدرس فيها الشيوخ والفقهاء، ومستشفى يعالج فيها الأطباء المرضى بالمجان([١]).

بدأ الفرنسيون اختراق الحياة الاجتماعية في المدن السورية الواحدة تلو الأخرى منذ أيام الدولة العثمانية عن طريق البؤر التنصيرية في بلاد الشام،التي عملت بالنخر في المجتمع السوري عن طريق الخدمات الاجتماعية المتعددة من تعليمية، وصحية، وحفلات، وأعمال بر وغيرها...

فقد كان وضع الطبقات الاجتماعية في سوريا في ظل الانتداب الفرنسي كما كان عليه في السابق مع تغير طفيف فقد قسموا السكان على حسب حالتهم إلى أصحاب الأرض القدامى والتجار، والأغنياء المحدثين، وطبقاً لانتمائهم الديني إلى مسلمين سنيين، والنصارى، واليهود، وكانت تربط التجار المسلمون علاقة حذرة بالفرنسيين الأجانب الذين كانوا ينظرون إليهم نظرت الأعداء، وكان الفرنسيون يجدون صعوبة في التعامل معهم، أما النصارى فكانوا على علاقة جيدة معهم، خاصة وأنهم منذ أيام الدولة العثمانية كانوا يشكلون أقليات تحت حماية الدول الأوربية([٢]).

إن الأعمال الاجتماعية هي المناسبات التي تربط البشر بعضهم ببعض، فالناس منقسمون حسب أعمالهم ــ كما لا حظنا في تقسيم مدينة دمشق كمثال ــ فقلما يتاح للطبيب المنصرف إلى عمله أن يجتمع بالتاجر أو الصانع وغيرهم، من أجل ذلك يلجأ الناس عادة إلى خلق جو اجتماعي يجمع بينهم في مناسبات مخلفة مثل:الحفلات الخطابية والأندية الأدبية وأعمال البر والإحسان والاجتماعات المختلطة بين الجنسين رجالاً ونساء، والمنصرون يعرفون هذا كله في بلادهم فأحبوا أن ينقلوه إلى البلاد الإسلامية، لا حباً في المسلمين، بل توصلاً إلى اختراق السور الذي ضربه العرف الشرقي حول الأسرة المسلمة ــ التي هي أساس بناء المجتمع ــ تلك كانت غايتهم الأولى من النشاط الاجتماعي الذي أخذوا أن يبثوه في بيئتنا بواسطة المدارس ــ الأجنبية ــ والخدمات الاجتماعية المختلفة. فقد جاء في كتاب اسمه "مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين" ما يلي:" نحن نَعني بالعمل الاجتماعي...إن المسلمون يدعون أن في الإسلام ما يلبّي كل حاجة اجتماعية في البشر، فعلينا أن نقاوم الإسلام ديناً بالأسلحة الروحية. فالنشاط الاجتماعي يجب أن يرافق التعليم المباشر للإنجيل...فلنبدأ بالصِلات اليومية، تلك التي تتصل

([١]) ممدوح حقي: المرجع السابق، ص٣٤ــ٣٥.

. Philips Khouria: Op. Cit. p.428 ([٢])

بالطفل والمرأة ثم نتوسع...فأمام الكنيسة اليوم مناسبات ممتازة تتيح(للمبشر المسيحي) أن يتصل برجال ونساء في البيئة (الإسلامية) الراقية لم يكن بامكانه من قبل أن يتصل بهم...من أجل ذلك ننصح بالسير في الأعمال الاجتماعية على الأسس التالية: إيجاد بيوت للرجال والنساء وخصوصاً الطلبة منهم ومنهن ــ إيجاد أندية ــ الاعتناء بالتعليم الرياضي وأعمال الترفيه ــ حشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال"([1]). هذه الأعمال الاجتماعية ساعدت الانتداب الفرنسي على اختراق المجتمع السوري بشكل غير مباشر.

لقد أحدثت الحرب العالمية الأولى أثراً في كل صقع وشعب، كذلك فعلت في المرأة المسلمة التي أصبحت بفعل الإرساليات التنصرية المنتشرة في بلاد الشام قبل الحرب تساهم في المظاهرات وتطالب ليس بالحرية من المستعمر فحسب، بل بالتحرر من الحجاب أيضاً. ففي١٢ شعبان ١٣٤٠هـ/١٠ إبريل عام ١٩٢٢ قامت مظاهرات صاخبة تندد بالاحتلال الفرنسي وتطالب بالحرية والاستقلال، وخرجت أول مظاهرة نسائية في سوريا احتجاجاً على الانتداب، وأخذ المتظاهرات يطالبن بالحرية والاستقلال وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وقد صفق المنصرون باليدين لأن المرأة المسلمة تخطت عتبة دارها، فقد خرجت للهواء الطلق، ونزعت عنها حجابها، وأصبح من السهل الاتصال بها والسيطرة عليها([2]).

اهتم المبشرون بالمرأة المسلمة بصفة خاصة، لأنها مدار الحياة الاجتماعية، فهي الفتاة والزوجة والأم التي تعمل على تربية النشء، وقد كان المنصرون يدركون ما تحدثه الأم في أبنائها ذكوراً وإناثاً منذ الولادة وحتى البلوغ، لذلك زعموا أن المرأة المسلمة متأخرة،وأنها لا تتحرر إلا إذا دخلت في النصرانية، فمن باب التعليم، وفتح دور الأرامل والمطلقات الصغار، التي تعمدوا أن تكون دور صغيرة حتى يغلب عليها الجو العائلي، دخل الراهبات لتنصير المرأة المسلمة، فالمرأة التي تدخل هذه الدور يجب أن تكون تحت تأثير الإنجيل طوال مدة وجودها فيها، وأن تبني المرأة المسلمة للأفكار الغربية يسهل عمل الراهبات، فتنسحب الراهبة الأجنبية، وتترك العربية محلها، وتبقى الأجنبية تدير العمل من خلف الستار([3]). وهذا الحال بالنسبة للرجال أيضاً، ولم يكن المنصرون يهتمون بتغيير ديانة المسلمين من رجال ونساء كثيراً بقدر ما كانوا يهتمون بتغير المجتمع الإسلامي، بدخول عادات أجنبية غربية فيه، بعيدة عن العادات والتقاليد الإسلامية، فبهذه الطريقة يضعف المجتمع، وتضعف العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، فيصبح المسلم بالاسم فقط. وبذلك يضعف المارد الإسلامي الذي قض مضاجع أوربا

([1]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص١٩١ــ١٩٢.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية،ج٣، ص٢٤٧ ؛ مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٢٠٥.

([3]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٢٠٣ــ٢٠٥.

قرون عديدة، وذلك بقتل الروح الإسلامية في نفوس المسلمين.

لقد أثر الانتداب الفرنسي على الحياة العامة والأخلاق في سوريا بشكل كبير، فبسبب الانتداب الفرنسي قوية شوكت الأقلية النصرانية في سوريا فأخذوا ينشرون عاداتهم فيها، فكانوا يشربون الخمر في الأماكن العامة، حيث فتحوا الخمارات والبارات والملاهي الليلية، فقامت مجموعة من المسلمين الغيورين على دينهم أطلقوا على أنفسهم جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقاومة الخمارات وأغلقوا البارات الكباريهات، وكان كل من يشاهدونه يتعاطى الخمر يقيمون عليه الحد الشرعي، ولما كان أصحاب هذه الأماكن كلهم من النصارى، فقد استغل ضباط الاستخبارات الفرنسية هذه الإجراءات، وفعلوا فعلتهم في إثارة حفيظة المسيحيين، في الفترة التي كان الوفد السوري في باريس يفاوض لعقد معاهدة مع فرنسا تلغي الانتداب في عام١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، وعندما وصلت الأنباء إلى سعد الله الجابري أحد أعضاء الوفد السوري، كاد يختنق من الغضب والغيظ، وطلب ورقة وقلم وحرر رسالة إلى جميل إبراهيم باشا من قادة الكتلة الوطنية في حلب كتب فيها:"بصفتي رئيس "الكتلة الوطنية" في حلب أكلفك قطع لسان كل من يقول بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ولو نلنا استقلالنا فلم نسمح بشيء من هذا القبيل"([1]). استغل الفرنسيون هذا العمل،ونشروا الدعاية بين الأجانب والأهليين أن ترك فرنسا لسوريا معناه إقامة المذابح بين المسيحيين والمسلمين، وأن السوريين ليس فيهم الأهلية والكفاءة للاستقلال وحسن الإدارة وفهم السياسة([2])، لذلك هاجم أعضاء الكتلة الوطنية كل من قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وأمروا بسجنهم أو طردهم من البلاد، وعندما علم أعضاء الوفد الفرنسي المفاوض في باريس ما فعله الجابري استحسنوه([3]).

من هذا نرى أن الانتداب الفرنسي لم يؤثر على الحياة الاجتماعية والأخلاق المحافظة في بلاد الشام فحسب، بل أنه أثر على منحى الحياة السياسية التي أصبح أصحابها والعاملون فيها يتساهلون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينهون عنه حتى القائمين به، حتى يحققوا بعض المكاسب السياسية. فكان الانحلال في الأخلاق وحماية السياسيين له من أهم الآثار السيئة التي تركها الانتداب الفرنسي على الحياة الاجتماعية في سوريا، وهو بذلك حطم القاعدة الإسلامية في الحياة السياسية والحياة الاجتماعية وكل جوانب الحياة الأخرى، فضياع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمة الإسلامية هو بداية النهاية والضياع وانتشار الفاسد فيها.

بسبب مهاجمة السياسيين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توارى أنصار الفضيلة،

([1]) نصوح بابيل: المرجع السابق، ص١٠٦ـ١٠٧.

([2]) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٧٥.

([3]) علي الطنطاوي: المرجع السابق، الحاشية١ ، ج٥، ص٣٢٢ ؛ نصوح بابيل: المرجع السابق، ص١٠٧.

وظهر أنصار الرذيلة، فكشفوا القناع وأصبحوا يسرحون ويمرحون وحدهم في الميـدان، تحـت شعار الحرية الشخصية، التي أخرجت المرأة من بيتها، ونبـذت حجابهـا، وشـاعت المـدارس والحفلات المختلطة، بدعوة التمدن والحرية(١).

كما أباحت سلطات الانتداب الزواج المدني(٢)، وأكثـروا مـن الملاهـي ودور الـرقص وتأسيسهم لها في كل مدينة وفي كل محل وجدوا فيه، وفتح الخمارات وإباحة الخلاعة، وإدخـال الراقصات والمغنيات من الأجانب باسم الحرية والمدنية لإفساد أخلاق الشباب وسوقهم إلى حيـاة اللهو والترف والخلاعة، وإضعاف قوة الشعب الدينية والأدبية(٣) بصرفهم إلى هـذه الملاهـي وإبعادهم عن قضيتهم الرئيسية في محاربة المستعمر المستبد وانتدابه الـذي أدى إلـى انتشـار الفساد، وقتل روح المقاومة المادية والمعنوية بالضرب بيد من حديـد علـى كـل مـن يـأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وتصدر السياسين المعارضين للأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر في الصفوف الأولى وإيهام الناس أنهم هم الوطنيين المدافعين عن حقوق الشعب.

ونتيجة لوجود الانتداب الفرنسي في سوريا زاد عدد الأجنبيات النصارى سواء من العامة أو الراهبات فكلهم يصبون في بحر واحد وهدفهم الأول هو خدمة الاستعمار، لذلك انتشر الزواج بالنصرانيات وخاصة بين أولئك الذين تثقفوا بثقافة الغرب ودرسـوا فـي مدارسـهم، وآثـروا الانفلات من البيئة الشرقية المحافظة إلى البيئة الغربية المنفتحة من كل جهة، وهنا يتمثل الخطر من الزواج بالأجنبيات حينما تكثر الزوجات غير المسلمات فـي البيئـة الإسـلامية، فتضـعف المجتمع الإسلامي، والأكثر من ذلك أن بعض العاملين في الحركات القومية العربية ــ والـذين يدعون أنهم يحاربون الاستعمار الأجنبي ــ متزوجون من أجنبيات فكيف يستطيع هؤلاء وأبنائهم أن يكونوا ذوي بأس وصلابة في حربهم ضد الاستعمار الفرنسي، وفي قلـوب أبنـائهم الحميـة الفرنسية من أمهاتهم، والحمية العربية من آبائهم(٤) وبين هذا وذاك تضيع الحمية الإسلامية فـي

---

(١) علي الطنطاوي: المرجع السابق، ص٣٢٢ــ٣٢٦.

(٢) الزواج المدني: الزواج المدني هو زواج يتم في المحكمة بين أتباع ديانتين مختلفتين كزواج مسلم من مسيحية أو يهودية أو العكس. ويكون عقد الزواج موثق العهد بشاهدين في مقر رسمي مختص حكومي ــ غير دينـي ــ، هذه الوثيقة تضمن حقوق كلا الزوجين بالمساواة في حالة الطلاق الذي يقرره القاضي في المحكمة بعـد رفـع دعوة طلب طلاق من احد أطراف الزواج فيطلع القاضي على حيثيات الدعوة، يأخذ القاضـي الحكـم إذا كـان مبـررا بـالطلاق وتحظـى المـرأة بحضـانة الأطفـال ويلـزم الأب بالنفقـة. والـزواج المـدني لا يعـــــــــــــــــترف بالمهر للمرأة لأنه يعتبر المهر=

=مهانة وقبول المرأة به كأنها تبيع نفسها. انظر: موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة http://ar.wikipedia.org.

(٣) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٧٥ ، وص١٠٨.

(٤) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٢٠٦ــ٢٠٧.

نفوس هؤلاء المهجنين، فالأم هي نصف المجتمع، وهي التي تنشئ وتربي النصف الثاني، فـإذا كانت أجنبية نصرانية، فقد ضاع المجتمع بأكمله وانتشر الفساد في المجتمع كله فمن هـذا المنطلق بدأ السفور ورفع الحجاب في المجتمع الإسلامي المحافظ في سوريا.

وفي١٩ ذو الحجة ١٣٥٤ هـ/١٣ مارس ١٩٣٦م أصدر المفوض السامي الفرنسي نظام الطوائف برقم (٦٠/ل.ر) ومضمون هذا النظام القانوني أن كل من بلغ سن الرشد من المسلمين والمسيحيين واليهود وكان متمتعاً بقواه العقلية، يملك حرية الاعتقاد الديني والمذهبي والانتقال من طائفة إلى أخرى، وغير ذلك من الشؤون الدينية، عارض المسلمون هذا القانون معارضة شديدة، ووضع شيوخ المسلمين مذكرات بعدم جواز تطبيق ذلك النظام على المسلمين لأنه مخالف لدينهم وألّفت لجنة([1]) للنظر في هذا القانون وانتهت هذه اللجنة إلى القرارات التالية:

١. المسلمون أكثر أهل البلاد وليس طائفة كسائر الأقليات الدينية.
٢. لا يملك المسلم شرعاً حرية ترك دينه واعتناق دين آخر وإلا جاز قتله.
٣. إن الولد المسلم يتبع أحد أبوية المسلم إذا كان الآخر غير مسلم.
٤. الإسلام يجيز زواج المسلم بالكتابية غير المسلمة ولا يجيز العكس([2]).

ونظراً لضغط الشعب السوري على سلطات الانتداب أصدر المفوض السامي الفرنسي غربيل بيو في ٩ صفر ١٣٥٨هـ/٣٠ مارس ١٩٣٩م قراراً تشريعياً برقم (٥٣) بعدم جواز تطبيق القرار (٦٠) على المسلمين، وأن يظل نافذاً على غيرهم([3]).

وفي السويداء عاصمة الدروز فتح الفرنسيون دار للسينما،وشجعوا النساء لحضورها([4])، حتى يشغلوا الشعب عن محاربة الاستعمار بأنواع اللهو التي جلبوها ففتحوا الملاهي الليلية للرجال ودور السينما للرجال والنساء، هذا بالإضافة إلى المسارح، التي يشارك فيها النساء والرجال التمثيل، وأطلقوا على كل ذلك "فنون"، وكثر في هذه الفنون جنون الغرب الزائف، الذي أوهموا الناس بأنه هو المدنية والتحضر، مما أدى إلى إحداث شرخ في المجتمع المسلم المحافظ.

كما أرغموا السكان على قبول المدنية الفرنسية وآدابها وعاداتها لإفساد العادات والآداب العربية والإسلامية المحافظة، واضطهدوا المعارضين والمناوئين لسياسة الانتداب وأفعال ممثلي

([1]) كانت اللجنة برئاسة مصطفى برمدة رئيس النقض الأول، وعضوية يوسف الحكيم(مسيحي) رئيسها الثاني، وعين عبد المحسن الأسطواني المستشار بالنقض مكان الشيخ شكري الأسطواني المفتي العام، وأضيف إليها الشيخ= =كامل القصاب الذي قام بتحريض الشعب على نظام القانون الجديد. انظر أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١٢٥ـ١٢٦.

([2]) أسعد الكوراني: المرجع السابق، ص١٢٦.

([3]) المرجع السابق، ص١٢٦.

([4]) برجيت شيبلر: المرجع السابق، ص٢١٥.

الانتداب وفتكوا بهم بشتى الطرق والوسائل التي تعود إلى القرون الوسطى الوحشـية، وخنقـوا الحريات السياسية والاجتماعية، حتى لا يفهم الشعب ما هو البلاء المحيط به ولا يـرى الشـباك المنصوبة له باسم المدنية والتحضر([1]).

ب ــ أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاجتماعية في لبنان:

لقد تغيرت الحالة الاجتماعية في لبنان باتجاه الغرب الأوربي بالتدريج، فقد كانت العائلـة اللبنانية وحدة اجتماعية متماسكة، تعيش داخل جدران بيت واحد، فيه تعيش ربما ثلاثة أجيـال: الأب الذي يرأس العائلة، وابنه المتزوج وأولاده. وفي أثناء وجود الأب تعتبر جميـع الأمـلاك ملكاً للجد، وكان اللبناني يعتبر أن الولاء لعشيرته وعائلته يكفل له ربحاً لكسب عيشه، وقد تربى أهل الشام عموماً على التعاون والنجدة والطاعة واحترام الكبير والعطف على الصغير وغيرهـا من الفضائل الروحية التي أخذت في الزوال، بتأثير الطوفان الغربي الجارف الذي عصف بـبلاد الشام، العائلة الكبيرة أخذت بالتفكك، فانفصل الابن عن الأب وخرج هو وزوجتـه، فـي بيـت خاص بهما، وهكذا أخذ المجتمع اللبناني ــ النصراني وتبعه المسلم ــ المتماسك المترابط يتحلل من القيود التقليدية، التي كانت تشد أفراده إلى العائلة والكنيسة، وذلك بتأثير الفكر الغربي علـى لبنان، مما شجع عدد كبير من اللبنانيين على الهجرة إلى مصر، وأوربا والقارة الأمريكية وفـي السنوات الواقعة بين ١٣١٨ــ ١٣٣٣هـ/١٩٠٠ــ١٩١٤م انخفض عدد سكان جبل لبنان بمعدل ٢٥% أي ما يعادل مئة ألف نسمة، وكان اللبنانيون في المهجر يعملون ؛ حتى يعيلون أنفسـهم، ويرسلون بعض المال لإعالة أهلهم في لبنان([2])، كما هاجر الكثير من اللبنانيين في الجبـل إلـى بيروت التي أصبحت بوابة الغرب الأوربي إلى الداخل السوري اللبناني([3])، وكان اللبناني أينمـا ذهب يحمل معه كتبه ومطبعته ومطبخه وكنيسته، فهو على الرغم من انبهاره بالغرب الأوربـي

([1]) عبد الرحمن الكيالي: المرجع السابق، ص٧٤.

([2]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٧٣ــ٥٧٨.

([3]) فواز الطرابلسي: المرجع السابق، ص٩٧ ؛ سعيد مراد: المرجع السابق، ص٩٣ ؛ خلدون عـريميط: المرجـع السابق، ص١٨٧ــ١٨٨.

إلا أنه لم يستطع أن يقطع صلته بأصله وجذوره العربية في لبنان([1]). ونلاحظ من خلال هذه الدراسة أن أغلب المهاجرين من لبنان أو بالأصح أغلب المهاجرين العرب(من لبنان وغيره) كانوا من النصارى الذين وجدوا أن المجتمع الغربي النصراني هو الأقرب إليهم من المجتمع العربي المسلم، لذلك عملوا على نقل الأفكار الغربية إلى المجتمع العربي المسلم، حتى يستطيعوا أن يعيشوا فيه ويعودوا إليه، ونتيجة لمحاولة تقرب النصارى العرب من الغرب الأوربي وجد الفرنسيون في هذا منفذاً للدخول إلى سوريا ولبنان.

عندما أعلن الجنرال غورو قيام دولة لبنان الكبير في١٦ ذو الحجة ١٣٣٨هـ/٣١ أغسطس ١٩٢٠م، وتوسيع متصرفية جبل لبنان بضم الأقضية الأربعة إليه: حاصبيا ــ راشيا ــ بعلبك ــ البقاع. والساحل بما فيه من مدن مثل ولاية بيروت وملحقاتها ومدينة طرابلس وصيدا والتي تسكنها أغلبية من المسلمين السنة والشيعة([2]). وجدت الحكومة الفرنسية بأنها أنشأت لبنان أكبر من اللازم تعداد سكانه٨٣٠.٠٠٠ نسمة، منهم ٤٠٥.٠٠٠ مسلم و٤٢٥.٠٠٠ نصراني فهو لا يحتوي على أكثرية نصرانية قوية تمكنها من حماية البلاد([3])، والأهم من ذلك حماية المصالح الفرنسية. لكنه مع ذلك عملت حكومة الانتداب الفرنسي على توظيف هذه الأقلية بشكل جيد جداً، لخدمة مصالحها الاستعمارية.

لقد حاولت السلطات الفرنسية قطع العلاقات السورية اللبنانية، والعلاقات السورية اللبنانية بالدولة العثمانية نهائياً، فأصدرت سلسلة من القرارات لتحديد الجنسية([4])، وتذاكر النفوس وجوازات السفر والشهادات الميلاد والوفيات والزواج والطلاق وغيرها، بموجب هذه القرارات، نالت أقليات لا تمت إلى لبنان بصلة الجنسية اللبنانية، وحرمت جماعات لبنانية من حقها في الجنسية اللبنانية بهدف إبقاء التوازن الطائفي الدقيق في لبنان، والذي أظهر أكثرية ضئيلة جداً في إحصائية عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م السابقة الذكر، وقد أعطيت فرنسا وحدها حق صلاحيات تحديد الجنسية اللبنانية، ومنح تأشيرات الدخول إلى لبنان، وجوازات السفر ووثائق الولادات

([1]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٨٠.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية،ج٣،ص٢٢٠ــ٢٢١ ؛ عبد العزيز إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية، ص٥٦٧ ؛ صلاح العقاد : المرجع السابق ، ص٢٧.

([3]) فواز طرابلسي : المرجع السابق، ص١٥٣.

([4]) للمزيد من المعلومات حول موضوع تحديد الجنسية انظر: مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣١ــ٣٥؛ مصطفى منصور: مشكلة الجنسية اللبنانية، (مجلة الفكر الإسلامي ، دار الفتوى، بيروت ، العدد ٢ ، السنة ١٤ ، جمادى الأولى ١٤٠٥هـ/ شباط ــ فبراير ١٩٨٥م) ، ص١٩ــ٢٧ ؛ ömer Osman Umar: Op. Cit , p.191-304.

للمهاجرين اللبنانيين، وقامت الطائفية بدور بارز في عملية التجنيس، فمنحت الجنسية اللبنانية للنصارى المغتربين، بينما منعتها عن المسلمين المهاجرين، مما أخل بالتركيبة السكانية للبلاد([1])، حتى أن سلطات الانتداب منعت الجنسية اللبنانية عن بعض المسلمين المقيمين في لبنان في المناطق التي ضمتها سلطات الانتداب إلى ما يسمي بلبنان الكبير، كما أن السكان هذه المناطق كان أغلبهم من المسلمين وكانوا يخشون من تسجيل أسمائهم في سجلات الإحصاء التي كانت تقوم بها السلطات الفرنسية ؛ خوفاً من التجنيد الإجباري وسوقهم إلى الحرب خارج بلادهم، فسكان الجبل كانوا في حماية فرنسا، لذلك أقدموا بلا خوف على تسجيل أسمائهم واستخراج هويتهم الشخصية([2]).

كان المجتمع اللبناني يضم فئتين في العهد العثماني هما:

أولاً : الفئة الحاكمة وتتألف: من الأمراء والإقطاعيين والاكليروس.

ثانياً: الفئة المحكومة وتتألف من: الفلاحين والعمال([3]).

وظهرت في ظل الانتداب الفرنسي فئة ثالثة في لبنان خاصة وفي بيروت بصفة خاصة وهي الطبقة البرجوازية([4]): وهم التجار وأصحاب المشاريع الذين هاجر معظمهم من الجبل إلى بيروت، واندمجوا مع نظام الانتداب الفرنسي، وأصبحت بينهم مصالح مشتركة، وكان لهم أكبر الأثر في المجتمع اللبناني الناشئ، وسرعان ما استبدل سياسيو وموظفو المدينة من الأرثوذكس والسنة بسياسيين وموظفين من أبناء الطبقات الوسطى الجبلية(البرجوازية)، غير أن هؤلاء الوافدين الجدد لم يكونوا موحدين في ظل زعامة واحدة، فقد ظهر التنافس بينهم على أشده في شخصية رئيستين هي: إميل إدة وبشارة الخوري، فكلاهما من الموارنة، لكن الأول كان من الأسر الأرستقراطية المتداعية، وكان يملك مكتب محاماة وكان يمثل المفوضية الفرنسية،

([1]) مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣١ـ٣٤.

([2]) مصطفى منصور: المرجع السابق، ص٢٠ـ٢٢.

([3]) فيليب حتي: المرجع السابق، ص٥٧٣ـ٥٧٤.

([4]) البرجوازية: كلمة فرنسية الأصل، يقصد بها طائفة العاملين في المدينة الذين كانوا يمثلون اجتماعياً طبقة وسطى بين الجماهير المعدمة وطبقة الأشراف، وهي الطبقة التي تضم التجار وأصحاب المصانع والعاملين في المهن الحرة كالأطباء والمحامين والموظفين الحكوميين، وهم الذين يتميزون بثقافتهم وخبراتهم الخاصة، وأسلوب مشترك في حياتهم الاجتماعية، وتستخدم كلمة برجوازية أيضاً بمعنى الطبقة الرأسمالية المستغلة في الحكومات الديموقراطية الغربية، والتي تمتلك وسائل الإنتاج وتستولي على فائض العمل الذي تقوم به الطبقة الكادحة أو طبقة البروليتاريا. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٢٢٩.

وكبريات الشركات الفرنسية، أما الثاني فقد كان مندمجاً في البرجوازية المالية التجارية الصاعدة في ظل الانتداب الفرنسي([١]).

نلاحظ أنه في ظل الانتداب الفرنسي بدأت تضعف بعض الشــيء ســلطة رجــال الــدين النصارى عما كانت عليه من قبل ؛ حيث كانت في مرتبة الفئة الحاكمــة، لكــن عنــدما دخــل الانتداب الفرنسي إلى لبنان، عمل على توظيف رجال الدين لخدمة مصالحة الاستعمارية، وأوجد الفئة الثالثة وهي الطبقة البرجوازية وسخرها أيضاً لخدمة مصالحه، وجعل في يدها سلطة أكبــر من سلطة رجال الدين، وذلك لتعزيز مفهوم العلمانية وفصل الدين عن الدولة في الظاهر.

إن إنشاء الانتداب الفرنسي لدولة لبنان الكبير أدى إلى خلق الكثير من المشاكل الطائفيــة، فالمسلمون كانوا مضطهدين في ظل الانتداب الفرنسي، بينما الموارنة كانوا هم المسيطرين على المناصب العليا والرفيعة، حتى أن منصب رئيس الجمهورية لا يتــولاه إلا النصــارى، بســبب قربهم من الفرنسيين([٢])، وكان المسلمون يروا أنفسهم تحت سيادة النصارى منقطعين عن العــالم العربي، وهذا الذي جعلهم يفكرون في التبعية لسوريا التي يشكل فيها المسلمون أغلبية، وانضــم إليهم الدروز الذين فقدوا الأغلبية العددية، والأرثوذكس حيث أخذوا يدعون إلى القومية العربية، بدلاً من الوحدة الإسلامية حتى يتخلصوا من السيطرة المارونية، كانت الآراء والتوجهــات فــي المجتمع اللبناني متباينة بين الطوائف، فالشيعة كانوا يأملون في أن يكونوا في لبنان مجتمعــاً ذا كلمة قوية، بدلاً من أن يكونوا أقلية في سوريا السنية. أما الفرنسيون فكــانوا علــى علــم بــأن المسلمين لا يريدون الحكم للموارنة، لذلك حاولوا سحب النصارى الأرثوذكس إلى صفهم بتعــين شارل دباس في رئاسة الجمهورية ١٤ ذو القعدة ١٣٤٤هـــ/٢٦ مايو ١٩٢٦م في محاوله مــنهم لإعادة التوازن الاجتماعي لصالح فرنسا([٣])، بإقصاء المسلمين نهائياً، ومحاباة النصارى، فيصبح الخلل واضح في البنية الاجتماعية في لبنان، مما يسهل عليهم حكم البلاد بطريقة مباشرة.

ومن الأدلة الحية على محاولة فرنسا توظيف البنية الاجتماعية في لبنان لخدمة مصــالحها الاستعمارية ما حصل في الثورة السورية الكبرى سنة ١٣٤٤هـــ/ ١٩٢٥م عندما قامت القــوات الفرنسية بتسليح النصارى مثل: عصابة بطرس كرم في قرية كوكبا([٤])، حتى توحي أن الثــورة طائفية، إلا أن هذه الجماعات لم تلق تأييداً كبيراً فقد كان أكثر السكان في لبنان يؤيدون الوحــدة

([١]) فواز طرابلسي: المرجع السابق، ص١٥٤ـــ١٥٥.

([٢]) رغيد الصلح: المرجع السابق، ص٢٢ـــ٢٣ ؛ زاهية قدورة : المرجع السابق، ص٣١٠.

([٣]) زاهية قدورة : المرجع السابق، ص٣١٠ـــ٣١١ ؛ irfan C. Acar: Op. Cit. p. 27

([٤]) سعيد العاص: المرجع السابق،ص ١٨٨ـــ١٩٦ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣٤٦

مع سوريا، ولم يكن هؤلاء النصارى سوى أقلية ضعيفة مدعومة من قبل فرنسا فلم يكن لها ثقل كبير أو تأثير في الثورة السورية([1]).

ضم لبنان الكبير فريقين، فريق نصراني يتجه نحو الغرب ويجد نفسه متجانساً معه روحياً وفكرياً واجتماعياً، وقد كان بعض النصارى وخاصة الموارنة منهم يتعاملون مع الغرب الأوربي دون تحفظ أو ارتياب، بينما كانوا يرتابون من أي عمل عربي أو مطلب وحدوي، لكن انقسام النصارى إلى موارنة وأرثوذكس وكاثوليك وغيرهم وكان الموارنة إلا أقلية منهم تقف بصلابة ضد الوحدة السورية، وكان الأرثوذكس من أكثر النصارى دعوة للوحدة العربية أو السورية([2]).

أما الفريق الثاني وهم المسلمون فإنهم يتجهون إلى الداخل العربي الذي يرى انه امتداداً طبيعياً له وروحياً وفكراً واجتماعياً، ويعتبرون أن البحر المتوسط حاجزاً يفصل لبنان عن الغرب الذي يرتابون منه ولا يطمئنون إليه، لأنهم يعتقدون أن الغرب الأوربي وخاصة فرنسا لولا تدخلها في المنطقة ؛ لتمكنوا من تحقيق الوحدة العربية أو السورية، التي كان يتطلع إليها المسلمون وخاصة السنة([3]).

على الرغم من محاولة فرنسا قطع عرى الترابط بين المجتمع اللبناني والسوري، إلا أن العلاقات لاقتصادية القائمة بين البلدين أدت إلى تعميق العلاقات الاجتماعية بشكل كبير عن طريق الزواج والمصاهرة، بين العائلات السورية اللبنانية، فكثير من الأسر والعائلات انتقلت من سوريا إلى لبنان والعكس ؛ لكسب الرزق واستقرت هناك، والذي ساعدها هو تشابه العادات والتقاليد بين البلدين([4]).

إن التركيبة الاجتماعية المتباينة للطوائف اللبنانية، ومحاولة فرنسا قطع عرى الروابط الاجتماعية بين المجتمع السوري واللبناني وتوظيفها لصالح فرنسا، أدى إلى ظهور بعض اللبنانيين الموارنة الذين نادوا بضرورة الوحدة مع سوريا وعدم قطع العلاقات الثقافية والجغرافية اللبنانية بجيرانها العرب ؛ لأن هذه حقيقة تاريخية لا يمكن تجاهلها ومن هؤلاء بشارة الخوري الذي نادى بفكرة استقلال لبنان من الحكم الأجنبي، على أن تربطه علاقة قومية بمحيطه العربي، وقد أيد هذه الفكرة الكثير من المسلمين وعلى رأسهم رياض الصلح، بعد أن فقدوا الأمل في الوحدة مع سوريا، خاصة بعد أن تم في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م توقيع المعاهدة الفرنسية ـ السورية، والمعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية، والتي أصبحت بموجبها كلٌ من لبنان

([1]) إبراهيم محسن: المرجع السابق، ص١٩٤ـ١٩٥.

([2]) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية ، ص٥٧٧ ؛ محمد مراد: أضواء على العلاقات اللبنانية ـ السورية، ٧٩ـ٨٠ ؛ بيير فيينو: الانتداب الفرنسي في بلاد الشرق(١)، ص١١٩٢.

([3]) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: العلاقات السورية اللبنانية، ص٥٧٧ ؛ إبراهيم محسن:المرجع السابق، ص٢٠٣.

([4]) محمد مراد: أضواء على العلاقات اللبنانية ـ السورية، ٨٨ـ٨٨٩.

وسورية دولتين منفصلتين، وأن تستخدم فرنسا أرض وجيوش سوريا ولبنان لأهداف عسكرية، وأن تشرف فرنسا على حماية المنصرين والدبلوماسيين في البلدين([1]).

ونتيجة لهذا التقارب ظهر اتجاه إسلامي ــ نصراني نشأ على قاعدة القبول بالأمر الواقع والإفادة مما يتيحه الوضع الجديد للمجتمع اللبناني على مستوى بنية الدولة الجديدة الناشئة، التي غدت واسطة بين الغرب الأوربي، والداخل العربي، حتى أن المسلمين الذين قاطعوا لبنان الكبير من قبل، أخذوا يتطلعون إلى الفوائد التي سوف يحصلون عليها من جراء تخليهم عن فكرة الوحدة السورية، لذلك خفت حدة المطالبة بالوحدة مع سوريا منذ عام١٣٥٥هــ/١٩٣٦م، وأخذ الناس يطالبون بحقوقهم المشروعة في تولي المناصب العليا في الحكومة والقضاء وغيرها، ومن هنا نشأة فكرة الميثاق الوطني ١٩٤٣م الذي قارب بين وجهات النظر بين المسلمين برئاسة رياض الصلح، والنصارى برئاسة بشارة الخوري، وتثبيت حدود للبنان الحديث كما رسمها الانتداب الفرنسي([2]).

ان هذا الخليط الاجتماعي المتباين الذي أوجده الانتداب الفرنسي في لبنان أدى إلى خلل العادات والأخلاق العامة في لبنان في فترة الانتداب الفرنسي، مما أثار المسلمون والنصارى على حد سواء، فيقول انطوان عريضة في هذا الصدد: "كرؤساء كل الطوائف الأخرى ليس بالإمكان السكوت على انحلال العادات والأخلاق في بلد معروف بعاداته الفاضلة. اليوم ، لم يعد الأمر كما كان . لقد أصبحت علب الليل والخمارات التي كانت مجهولة حتى الأمس القريب في لبنان مكان لقاء عصري لفئات المجتمع المخملي، وانتشرت المشاهد الموبوءة والصحف الإباحية والنشرات اللا أخلاقية على نطاق واسع. وتدفقت إلى بلادنا النساء ذات السمعة السيئة، أو بائعات الهوى اللواتي لهن تأثيراً مشؤوماً على شبابنا.. وانتشر الانتحار والأمراض المخجلة ... في أوساط السكان، وازدادت الجريمة مع ازدياد الوفيات، وتناقص عدد الولادات."([3]).

وقد عملت سلطات الانتداب على نشر الفساد في المجتمع اللبناني من خلال الاتفاق الذي تم توقيعه بين سلطات الانتداب الفرنسي والولايات المتحدة الأمريكية في٢٩ شعبان ١٣٤٢هــ/٤ إبريل ١٩٢٤م يسهل عمل المؤسسات التنصيرية، ويمنع تقييد عملها في المناطق المحتلة من قبل فرنسا، وذلك في إطار التنافس بين الإرساليات اليسوعية الكاثوليكية الفرنسية والإرساليات الأمريكية البروتستانتية([4])، مما شجع الجامعة الأمريكية في بيروت على إنشاء جمعية العروة

([1]) irfan C. Acar: Op. Cit. p. 27-30 ؛ إبراهيم محسن: المرجع السابق، ص٢٠٤ــ٢٠٥.

([2]) وجيه كوثراني: البعد التاريخي، ص٤٦ــ٤٧ ؛ زهير الماريديني: لبنان قضية ورجال، (دار الكنوز الأدبية، بيروت، ط١، ١٤٠٢هــ/١٩٨٢م)، ص٥٦.

([3]) أنطوان عريضة: المرجع السابق، ص٦٣ــ٦٤.

([4]) مصطفى خالدي ، وعمر فروخ: المرجع السابق، ص٥٤ــ٥٧

الوثقى، والتي كانت تعمل في الظاهر على إحياء اللغة العربية والأدب العربي، وفي الباطن تعمل على نشر العادات الغربية بين العرب والمسلمين، وقد كان للأسف بين صفوف هذه الجمعية الكثير من المسلمين، وكانت مجلة الجمعية تنشر المقالات التي تدعو فيها المجتمع لتحرر من العادات والتقاليد الإسلامية مثل تأييدها للزواج المدني، وتدعو بشكل صريح المرأة لخلع الحجاب، والخروج من بيتها، تحت عناوين مختلفة منها "فتاة العصر أحسن منها في العصور الماضية" و"الزواج المدني أفضل لنا من طرق الزواج القديمة" كانت هذه الأفكار للأسف تلاقي استحسان([1]) بين صفوف من أطلقوا على أنفسهم المثقفين المتعلمين في الجامعة الأمريكية ببيروت، ومن هنا بدأت تظهر الفجوة في المجتمع اللبناني المسلم المحافظ، بدخول هذه الأفكار إليه من باب الجامعات التي حماها وشجعها الانتداب الفرنسي، فلو كانت تدعو هذه الجمعية للدين الإسلامي والتمسك بالعادات والتقاليد الإسلامية لحاربوها وهاجموها واتهموها بالتخلف والرجعية، أما وهي تدعو للفساد والتحرر من سلطة الدين، وخاصة أن الزواج المدني له مساوئه على الأولاد والمجتمع بأكمله، وأنه من خلاله يمكن أن يخرج جيل جديد ليس له ارتباط بالدين إلا بالاسم فهذا من وجهة نظر الانتداب الفرنسي ومن سار في ركبه التقدم والتطور والمدنية.

أخرج الانتداب الفرنسي المرأة اللبنانية إلى الشارع بحجة المشاركة السياسية والأدبية، وخاصة النصارى منهن من الذين ينتمون إلى المجتمع المخملي، الذي يميل بطبعه إلى فرنسا والمدنية الغربية، ومن أمثال هؤلاء افلين تويني بسترس([2])، إحدى قائدات الحركات النسائية في لبنان، والتي تشبعت بثقافة الغرب الأوربي، وجاءت إلى لبنان ؛ لتدعو إلى ما أطلق عليه بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل، فكانت من الذين يدعون إلى المظاهرات وخلع الحجاب ـــ من باب التحرر من كل قيود وعادات تمت إلى الإسلام بصلة ـــ ، حتى أن قصرها أصبح صالوناً

([1]) أمجد ذيب غنما: المرجع السابق، ص٨٠.

([2]) إفلين تويني بسترس: رئيسة جامعة نساء لبنان ونائبة رئيسة الاتحاد النسائي العربي العام، وهي أديبة لها عدد من المؤلفات كتبتها باللغة الفرنسية منها " يد الله" نشرت عام١٣٤٤هـ/١٩٢٦م في باريس، وهي مستوحاة من التاريخ العربي تتحدث فيها عن العرب زمن الأمويين، والرواية الثانية "في أفياء شجرة البندق" عاشت في باريس، ثم عادت إلى لبنان حوّلت قصرها في لبنان إلى صالون أدبي وهو اليوم قصر بسترس الذي تحتله اليوم وزارة الخارجية اللبنانية، وهي من سيدات المجتمع الراقي. انظر: جان سرور: ذكريات أصبحت تاريخاً الانتخابات اللبنانية أيام الانتداب الفرنسي،(مجلة تاريخ العرب والعالم، دار النشر العربية، بيروت، العدد ١٦ ، السنة ٢، ربيع الأول ١٤٠٠هـ/فبراير ١٩٨٠م)، ص٣٠ ؛ جورج هارون: الصالونات الأدبية في لبنان، مجلة الجيش،Copyright © 2009 جميع الحقوق محفوظة للجيش اللبناني العدد ٢٤٤، ١ أكتوبر ٢٠٠٥م، ص الموقع على الانترنت: http://www.lebarmy.gov.lb.

تعقد فيه المجالس المختلطة بين الرجال والنساء، لمناقشة الموضوعات المتعــددة فــي السياســة والاقتصاد والثقافة والفن والأدب، بحجة مهاجمــة الانتــداب والســعي لتحريــر الــبلاد مــن الاحتلال([1]).

ويذكر أنطوان عريضة أنه "بالاتفاق مع أساقفتنا وقادة الطوائف المختلفــة، رفعنــا إلــى المفوض السامي مذكرة نطالب فيها بإلغاء بيوت الدعارة كما يحصل فــي كثيــر مــن البلــدان المتحضرة، وبمنع بائعات الهوى الأجنبيات من دخول الأراضي اللبنانية. لكن مذكرتنا بقيت دون جواب"([2]).

إن هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة التي لحقت ببلاد الشام وغيرها من الــبلاد العربيــة والإسلامية، أدت إلى ظهور نزعة التقليد للغرب أو "التغريب" في بلاد الشــام، بقصــد التغييــر الثقافي والحضاري وإبعاد الشعب العربي المسلم عن عقيدته ودينه الإسلامي([3]). فعلى الرغم من تمسك أهل الشام وخاصة المسلمين منهم بالعادات والتقاليد الإسلامية، إلا أن النصــارى ومــن سار في ركبهم كانوا ينظرون إلى الغرب نظرة إجلال وإكبار ؛ حيث أخذوا يستنكرون كــل مــا هو شرقي، ولم يكتفوا بذلك بل إنهم عملوا على جذب المسلمين في هذا الطريق، على الرغم من استنكار المجتمع العربي للعادات الغربية الدخيلة عليه سواء كان من جانب المســلمين أو حتــى رجال الدين النصارى كما رأينا في موقف أنطون عريضة، الذي استنكر انسياق الشباب بصــفه عامة وراء أهوائهم الذي سوف يدي بهم إلى الهاوية.

لقد أدى خروج الدولة العثمانية من بلاد الشام إلى تفكك عرى الأواصر الاجتماعيــة بــين البلاد العربية في المشرق العربي، بإحداث الجنسيات المتعددة بين الأخوة الأشقاء فــي الــوطن العربي الواحد الذي كان يحمل اسم الولايات العربية ضمن الدولة العثمانية، ومما زاد في تفكــك هذه الأواصر الاجتماعية إلغاء مصطفى كمال أتاتورك للخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية التي حاربت كل ما هو عربي مسلم، واسهمت فرنسا وبريطانيا في إبراز دور أتاتورك وســيره على الطريقة الأوروبية على أن هذا هو التمدن، وأن على الولايات العربية المنشقة عــن الدولــة العثمانية أن تسير على هذه الخطى وأن تقطع كل صلة لها بماضيها وخاصة العــادات والتقاليــد

([1]) جان سرور: ذكريات أصبحت تاريخاً، ص٣٠.

([2]) أنطوان عريضة : المرجع السابق، ص٦٤.

([3]) عبد الكريم السمك: ذاكرة التاريخ في أحوال المعرفة قراءة في السير والأحداث التاريخية عبر أعــداد المجلــة، (مجلة أحوال المعرفة، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، العــدد٥٠، الســنة ١٣، محــرم ١٤٢٩هـــ/ يناير٢٠٠٨م)، ص٧٧ ؛ برنارد لويس: المرجع السابق، ٤٧ــ٤٨. .

الإسلامية، والسير على خطى أتاتورك بالتقرب إلى الغرب الأوربي بغرض ترسيخ الاستعمار الأجنبي في البلاد([1]).

وعملت سلطات الانتداب الفرنسي على خلق واجهات سياسية محلية مستغلة التقارب بينها وبين الموارنة حتى تعمل هذه الواجهة المحلية على تمهيد الطريق له لفرض نفوذه في المنطقة، وحتى تبرر لنفسها أن هذا المجتمع غير قادر على إدارة شؤونه بمفرده، وأنه لا بد من وجود الانتداب الفرنسي لحماية مصلحة هذه الطائفة المغلوبة في لبنان([2]).

إن التقسيم الاستعماري لبلاد الشام بخلق دول وكيانات على قاعدة تشكيلات اجتماعية ولدتها و أنضجتها عمليات التغلغل الاستعماري السياسي الاقتصادي والثقافي في المشرق العربي، لم تلغ أبداً "وحدة التاريخ" العربي ــ والإسلامي ــ، على كل ما في هذه الوحدة من تنوع وتعدد وخصائص. فماهذه الدويلات الصغيرة التي أنشأها الاستعمار الأجنبي إلا مشاريع تجسم السمات الاجتماعية والمذهبية في بلاد الشام([3]) فقد أراد الانتداب الفرنسي خلق دولة للنصارى في لبنان تابعة لفرنسا، ودولة للمسلمين في سوريا، وأراد الاستعمار البريطاني خلق دولة لليهود في فلسطين، ودولة للعرب المسلمين في شرق الأردن، وعلى الرغم من نجاح المستعمر في خلق هذه الكيانات الصغيرة، إلا أنه تظل الشعوب العربية في بلاد الشام ترفض هذه التبعية، كما ترفض وجود اليهود في فلسطين قلب المنطقة العربية، وترفض أن يكون لبنان العربي المسلم، فرنسي نصراني، كما أن الكثير من النصارى البنانيين يرفضون هذه التبعية.



([1]) مسعود ضاهر: العلاقات اللبنانية التركية، ص٣٨ــ٣٩.

([2]) وجيه كوثراني: السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سلسلة أطروحات الدكتوراه، ط١، ١٩٨٨م)، ص٢١٦ــ٢١٧.

([3]) وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية السياسية، ص١٠ــ١١.

" أثر الانتداب البريطاني على الحالة السياسية في فلسطين وشرق الأردن (١٣٤٢-١٣٥٩هـ/١٩٢٤-١٩٣٩م) "

المبحث الأول: الانتداب البريطاني وأثره على الحالة السياسية في فلسطين وشرق الأردن.

المبحث الثاني: الكفاح الوطني في بـــلاد الشام ضد الاستعمار البريطاني منذ سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

المبحث الثالث: ملامح السياسة البريطانية في بلاد الشام منذ سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م

المبحث الأول: الانتداب البريطاني وأثره على الحالة السياسية في فلسطين وشرق الأردن.

أ ــ الانتداب البريطاني وأثره على الحالة السياسية في فلسطين

كان واضحاً أن بريطانيا أخذت وعد بلفور بمنتهى الجدية منذ البداية، فقد أوغلت وبشـــدة في بناء الوطن القومي اليهودي، حتى قبل أن تتم الحكومة البريطانية التنظيم السياســـي للـــبلاد، ففلسطين أرض عربية أصيلة اليهود فيها أقلية ضئيلة تقدر بحوالي ٥٠ ألف يهودي بينمـــا كـــان

عدد العرب ٦٢٠ ألف في عام١٣٣٦هـ/١٩١٨م([1]) أي أقل من ٦% من نسبة السكان العرب، لذلك أرسلت الحكومة البريطانية اللجنة الصهيونية في رجب١٣٣٦هـ/إبريل ١٩١٨م برئاسة حاييم وايزمن Chaim Weizman([2]) ؛ لتحديد مستلزمات إقامة الوطن القومي اليهودي، ولم يغادر البريطانيون فلسطين حتى أصبح عدد اليهود فيها يزيد على ٧٠٠ ألف نسمة([3]).

لقد أثارت اللجنة الصهيونية الإدارة العسكرية التي كانت برئاسة الكولونيل رونالد ستورز Sir Ronald Storres([4]) حاكم القدس العسكري والقليلة الخبرة بالحكم والسياسة إصرار اللجنة الصهيونية على المشاركة في الإدارة العسكرية للبلاد، ومطالبتهم بحق ترشيح الخبراء للعمل في هذه السلطة، وبتدريب اليهود على الخدمة العسكرية، وكانت اللجنة الصهيونية تظهر غطرستها على العرب وعلى المسؤولين البريطانيين على حد سواء، فكانت الأخيرة تظهر تذمرها بشيء من الحياء، أما العرب فقد ظهر تذمرهم على شكل مظاهرات أدت إلى اشتباكات عنيفة بين اليهود والعرب([5]).

([1]) واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٧ــ٣٠ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب...،ج١، ص٤١٩ــ٤٢٠ ؛ عبد الرحمن الشريف: ما طرأ على حدود فلسطين منذ الحرب العالمية الأولى، (مجلة الدارة، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، العدد٤، السنة٦، شعبان ١٤٠١هـ/ يونيو ١٩٨١م)، ص١٠٣.

([2]) حاييم وايزمن Chaim Weizmann (١٢٩٠ــ١٣٧١هـ/١٨٧٤ــ١٩٥٢م): زعيم صهيوني ولد في بولندا الروسية، درس علم الكيمياء في ألمانيا، ثم انتقل إلى سويسرا وعمل محاضراً في جامعة جنيف، وفي عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٣م هاجر إلى إنجلترا وحصل على الجنسية البريطانية وعمل مدرساً للكيمياء بجامعة مانشستر، ثم عين مديراً لمختبر سلاح البحرية البريطانية(١٣٣٥ــ١٣٣٧هـ/ ١٩١٦ــ ١٩١٨م) ترأس الوفد الصهيوني إلى محادثات فرساي للسلام. رأس الوكالة اليهودية لفلسطين بين عامي ١٣٤٤ــ١٣٦٤هـ/ ١٩٢٥ــ ١٩٤٥م، بحث باسم اليهود في جميع لجان التحقيق البريطانية والدولية التي أرسلت إلى فلسطين، انتخب رئيساً للدولة الصهيونية عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، وبقي في منصبه إلى أن توفي. انظر: جميل عطية ، صلاح عيسى: المرجع السابق، ص٣٥ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٣٨٢.

([3]) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب...،ج١، ص٤١٩ــ٤٢٠ ؛ طاهر الحاج عوض الشولي: تاريخ فلسطين ونضالها وكيف نشأت فلسطين، (دار الإبداع للنشر، عَمان، ط١، ١٩٩٤م)، ص٤٦ــ٤٨ ؛ حسني أدهم جرار: نكبة فلسطين عام ١٩٤٧ــ١٩٤٨م "مؤامرات وتضحيات"، المعارك التاريخية على أرض الشام، ، (دار الفرقان للنشر، عَمان، ط١، ١٩٩٥م)، ص١٨.

([4]) السيرر رونالد هنري امهرست ستورز Sir Ronald Henry Amherst Storres (١٣٠٠ــ ١٣٦٩هـ/ ١٨٨١ــ١٩٥٠م): سياسي بريطاني عين سكرتيراً شرقياً لدار المندوب السامي البريطاني بالقاهرة، عين أثناء الحرب العالمية الأولى ضابط اتصال في بغداد، وفي عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م انتقل للعمل بوزارة الحرب البريطانية، وعين= =حاكماً عسكرياً للقدس في الجهاز الإداري الأول لفلسطين الذي أقامته حكومة الانتداب برئاسة هربرت صمويل، ثم تنقل في عدد من المناصب. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٦١٤.

([5]) واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٧ــ٣٥ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب...،ج١، ص٤١٩ــ٤٢٠ ؛

وقد رأينا كيف قامت ثورة رجب ١٣٣٨هـ/ إبريل ١٩٢٠م تستنكر الانتداب البريطاني وقرارات سان ريمو الداعمة لوعد بلفور، لذلك عملت الحكومة البريطانية على استبدال الإدارة العسكرية بإدارة مدنية عينت على رأسها اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل بصفته أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين([1])، وأعلن في شوال ١٣٣٨هـ/ أوائل يوليو ١٩٢٠م([2])، فتح فلسطين للهجرة اليهودية وحددها سنويا ١٦٥٠ مهاجراً وعمل على إنشاء لجنة للأراضي، كان هدفها تسهيل عمليات البيع لليهود، ومنح اليهود استثمارات ومشروعات كبرى، كما اعتمد اللغة العبرية لغة رسمية في البلاد مع أن غالبية الشعب عربي مسلم، وتم عرض برنامج صموئيل هذا على مجلس العموم البريطاني فوافق عليه في١٥ صفر ١٣٣٩هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠م([3]). باعتباره من الصهاينة المتحمسين والقادرين على تنفيذ السياسة البريطانية التي لم تستطع الإدارة العسكرية السابقة تنفيذها، وقد أدى هذا التغير إلى زيادة الهجرة اليهودية وكثرة الإضطرابات والاشتباكات ببين العرب واليهود ؛ نظراً للتعديات السافرة على العرب من قبل اليهود والتي سوف نتحدث عنها بشيء من التفصيل في المبحث الثاني.

وتعد هذه البداية الحقيقية التي كشفت اللثام عن الوجه الزائف للاحتلال البريطاني، الأمر الذي أثار الصراع السياسي في البلاد منذ بداية الانتداب حتى نهايته، ومن خلال ذلك أكد الشعب العربي الفلسطيني عزمه على مكافحة السياسة الاستعمارية والسياسة الصهيونية الاستيطانية ومقاومتهما، حيث أعلن حربا شعواء على الصهيونية لا هوادة فيها فقامت المظاهرات والثورات المتلاحقة وعقدت المؤتمرات التي نددت بالصهيونية والاستعمار وشكلت الحركات والأحزاب الثورية والمجالس والجمعيات النقابية والوطنية، وكرست كل جهودها لمقاومة الاستعمار وبيان سياسة التهويد التي ينتهجها.

كانت أهم الصعوبات التي واجهت الحركة الوطنية الفلسطينية في بداية مسيرتها قوة الخصم الواقف في مواجهتها والمتمثل في التحالف الصهيوني الاستيطاني والانتداب البريطاني الاستعماري، مما دفعها إلى محاولة الفصل في هذه المرحلة ما بين الصهيونية وبين سلطات الانتداب، وانتهاجها السياسة الهادفة مع بريطانيا واعتبار الحركة الصهيونية هي الخطر

طاهر الحاج عوض الشولي: المرجع السابق، ص٤٦ــ٤٨.

([1])انظر جدول المندوبون الساميون البريطانيون في ملحق الجداول الملحق رقم ٢.

([2]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٧ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب...،ج١، ص٤٢١ــ٤٢٢ ؛ دافيد فرومكين: المرجع السابق،ص٥٠٢.

([3]) أكرم زعيتر:القضية الفلسطينية،ص٦٧ــ٦٨ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية،ج١، ص٣٢ــ٣٣ ؛ محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص١٦٦ــ١٦٧ ؛ واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٤٢.

الأساسي([1]). وقد استغلت السلطات البريطانية هذه السياسة المهادنة تجاهها، فنصبت نفسها حكماً في الصراع الدائر على أرض فلسطين، وهذا ما تجسد في تشجيعها على بلورة نشاط سياسي فلسطيني أخذ اسم (الجمعيات الإسلامية ــ المسيحية)([2]) تشكل في كل قرى ومدن فلسطين وأخذت على عاتقها قيادة العمل السياسي في البلاد، ولم يخف مؤسسو هذه الجمعيات دور بريطانيا وتشجيعهم لها، فقد كان ستورز (الحاكم العسكري) يطلب منهم أن يسلكوا المسلك نفسه الذي سلكه اليهود حين طالبوا بالوطن القومي. ولم يكن حرص بريطانيا على خلق نواة حركة سياسية في فلسطين ؛ حباً في الفلسطينيين أو حرصاً عليهم، بل كان الهدف من هذه الجمعيات إبعاد الشعب الفلسطيني عن محيطه العربي وتطلعاته للوحدة العربية الإسلامية من خلال خلق مجالات للعمل السياسي الإقليمي المسيطر عليه من قبل بريطانيا([3])، أو تحت نظر الساسة البريطانيين داخل إطار فلسطين.

لذلك رأى زعماء فلسطين ومفكريها أن يبدؤوا بالاستعانة بالمؤتمرات الوطنية للدفاع عن قضيتهم، ولإسماع صوتهم للعالم، فعقدوا سبعة مؤتمرات كان أولها المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق ٩ رمضان ١٣٣٧هـ/٧ يونيو ١٩١٩م([4]) والذي سبق ذكره في التمهيد ولا داعي لتكرار قراراته.

([1]) محمد حافظ غانم: المشكلة الفلسطينية على ضوء القانون الدولي، (جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٦٤م)، ص٨٣.

([2]) أسس العرب الفلسطينيون مؤسسات وجمعيات ثقافية وسياسية في مدن فلسطين المختلفة من أهمها: النادي العربي برئاسة الحاج أمين الحسيني، ومنتدى آل دجاني، والجمعية الإسلامية، ونادي الإخاء والعفاف، وجمعية الفدائية، وجمعية الشبيبة اليافية، والجمعية الأهلية، والمنظمة الكشفية وغيرها. وكلها تهدف إلى تسليح الأعضاء وتأهيلهم لمقاومة الاستعمار البريطاني ومخططات الصهاينة الرامية إلى تهويد فلسطين. انظر: عبدالوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، (المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ط١١، ١٩٩٩م)، ص٩٧ــ٩٨ ؛ عبد الفتاح حسن أبو علية ، رفيق شاكر النتشة : المملكة العربية السعودية وقضية فلسطين، (الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص٤١.

([3]) محسن محمد صالح: التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد ١٩١٧ــ١٩٤٨، تقديم: عمر سليمان الأشقر، (مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ص١٠٠ــ١٠١ ؛ إبراهيم أبراش: الفلسطينيون والوحدة العربية منذ قيام الحركة القومية العربية حتى نكبة١٩٤٨م،(مجلة المستقبل العربي، العدد ٦٤ ، يونيو ١٩٨٤م)، ص٦١.

([4]) كان الوفد الفلسطيني مكوناً من :عزة دروزه، وأمين التميمي، ورفيق التميمي، وعادل زعيتر، وإبراهيم عبد الهادي، والدكتور أحمد قدري، ومعين الماضي، وصلاح الدين يوسف، وسليم عبد الرحمن، ويوسف العيسى، وعبد الرحمن الخولي، وإبراهيم العلي، ورشيد الحاج إبراهيم، وحسين الزعبي، وعلي مهدي. انظر: عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص١٠٤ــ١٠٧ ؛ إبراهيم أبراش: المرجع السابق، ص٥٩ــ٦٠.

أما المؤتمر الثاني فعقد في دمشق أيضاً في ٧ جمادى الآخرة ١٣٣٨هـ/٢٧ فبراير ١٩٢٠م ؛ حيث بحث فيه موضوع الوحدة السورية (بما فيها فلسطين)، والإجراءات التي يجب اتخاذها لصد الهجرة اليهودية. وخرج المؤتمر بأربعة قرارات هي:

١. إن أهالي سوريا الشمالية والساحلية ما خطر لهم في وقت من الأوقات أن يعتبروا سوريا الجنوبية(فلسطين وشرق الأردن) أرضاً غير سورية، وقد أثبتوا ذلك في مقررات مؤتمرهم السوري السابق، وهم الآن يؤكدون عليه مرة ثانية في هذا المؤتمر.
٢. إن أهالي سوريا الشمالية والساحلية(سوريا ولبنان) اعتبروا ويعتبرون الخطر الصهيوني إذا تمكن في فلسطين، فإنه سوف يبتلع كيانهما السياسي مع الزمن، لذلك يرفض المؤتمرين الهجرة الصهيونية، كما يرفض جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، وحمل الحكومة العربية على رفض هذا الوعد رسمياً، حتى لو صادقت عليه حكومات الحلفاء ومقاطعة اليهود اقتصادياً في مناطق سوريا الثلاث(سوريا وفلسطين وشرق الأردن).
٣. رفض أهالي سوريا أي حكومة وطنية في فلسطين قبل أن تعترف بمطالب الفلسطينيين التي قدموها للجنة الأمريكية(كنج ــ كراين) والمتمثلة في وحدة سوريا الطبيعة وعدم فصل فلسطين عنها، ورفض كل قرار يقرره الوطنيون في الاجتماعات التي تعقدها الحكومة المحتلة في القدس. لأن هذا القرار يكون قد وقع بالضغط وبقوة الحراب.
٤. ان الحركة الوطنية القائمة في البلاد للمطالبة باستقلال سوريا بحدودها الطبيعة تندد بكل تبليغات ومنشورات الدول الأوربية التي تفصل كلمة فلسطين عن سوريا تغريراً بالناس، وأن أهل سوريا الشمالية والساحلية دفاعٌ لكل التباس في مغزى أعمالهم السياسية يقررون المواجهة لإخراج المحتلين الفرنسيين من الساحل(لبنان)([١])، والمحتلين الصهاينة من فلسطين، وأن اللجنة الوطنية من الآن فصاعداً سوف يطلق عليها لجنة الدفاع الوطني العربي عن سوريا وفلسطين([٢]).

بعد هذا المؤتمر حصل انعطاف خطير في سير السياسة الفلسطينية ففي منتصف عام ١٩٢٠م وبالتحديد بعد معركة ميسلون في ٨ ذو القعدة ١٣٣٨هـ/ ٢٤ يوليو ١٩٢٠م ([٣])، غادر

([١]) عقد هذا المؤتمر قبل احتلال الفرنسيين لسوريا بعد معركة ميسلون بخمسة أشهر، لذلك هم يهددون بإخراج الفرنسيين من لبنان فقط.

([٢]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ــ١٩٣٩م من أوراق أكرم زعيتر، أعدتها للنشر: بيان نويهض الحوت، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م)، رقم الوثيقة ٢٨، ص٣٥ــ٣٦ ؛ أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، ص٥٦ــ٥٨.

([٣]) حيث ذهب مع الريح أخر أمل للوحدة العربية التي نادت بها ثورة الشريف حسين في الحجاز الداعية إلى إقامة مملكة عربية قومية بمساعدة بريطانية.

مندوبو فلسطين في المؤتمر السوري العام دمشق إلى بلادهم ؛ حيث أخذوا في العمل على تحقيق مطالبهم الداخلية المتمثلة في رفض الانتداب ومنع الهجرة اليهودية وإنشاء حكومة وطنية فلسطينية، بعيدا عن الهموم العربية والوحدة التي غدت من المستحيلات، هذا فضلاً عن دعم سلطات الانتداب للشخصيات الفلسطينية المعارضة لفكرة الوحدة العربية([1]). وفي هذا امتداد للأثر السيئ الذي تركته ثورة الشريف حسين على بلاد الشام التي أصبحت مقسمة كرقعة الشطرنج بين بريطانيا وفرنسا، كما أن تدعيم بريطانيا للشخصيات الفلسطينية المعارضة للوحدة العربية كان من أهم الآثار السيئة التي أثرت على الحالة السياسة في فلسطين، وعجلت بالقضاء على كل أمل في الوحدة العربية وتوحيد الصف، فأصبحت كل دولة تهتم بشؤونها الخاصة، دون النظر إلى البلاد العربية المجاورة التي كانت هي أيضاً ترزح تحت الاستعمار.

لذلك عندما عقد المؤتمر الفلسطيني الثالث([2]) في الفترة من ٢ـ٨ ربيع الآخر ١٣٣٩هـ الموافق ١٣ـ١٩ ديسمبر ١٩٢٠م برئاسة موسى كاظم الحسيني([3]) طالب ولأول مرة بإنشاء حكومة وطنية لفلسطين مسؤولة أمام مجلس نيابي، ينتخب أعضاءه من الشعب، كما كانت تنوي أن تفعل الحكومة البريطانية في العراق وشرق الأردن([4])، هذا بالإضافة إلى رفض المؤتمر لوعد بلفور، وللهجرة اليهودية([5]). وعلينا هنا أن نشير إلى نقطة مهمة جداً وهي أن الفلسطينيين

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٥٨ ؛ إبراهيم أبراش: المرجع السابق، ص٦٣ـ٦٤ ؛ Roberto Mesa : Op. Cit , p89.

([2]) لمزيد من المعلومات حول محاضر جلسات هذا المؤتمر انظر: أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، الوثيقة رقم ٣٩، ص٤٢ـ٥٨.

([3]) موسى كاظم الحسيني(١٢٧٠ـ١٣٥٢هـ/١٨٥٣ـ١٩٣٤م): زعيم فلسطيني ولد في القدس، وتولى عدداً من المناصب إبان الحكم العثماني، ولما احتل الإنجليز القدس عين رئيساً لبلديتها سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩١٧م، قاد الحركة الوطنية سنة ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م حين استفحل أمر الصهاينة مما تسبب في فصله من عمله، ترأس جميع المؤتمرات العربية التي عقدت في فلسطين، وتولى رئاسة جميع الوفود الفلسطينية التي قصدت أوربا، كان يتقن التركية والفرنسية. انظر: الزركلي: الأعلام ،ج٧، ص٣٢٦ـ٣٢٧.

([4]) فقد نما إلى إسماع الأوساط الفلسطينية رغبة بريطانيا في إقامة حكومات عربية بقيادة أبناء الشريف حسين، في شرق الأردن بزعامة عبد الله ، وفي العراق بزعامة فيصل، وبالفعل فقد تم الاتفاق على تنفيذ هذه السياسة في مؤتمر القاهرة ٣ رجب ١٣٣٩هـ/١٢ مارس ١٩٢١م. انظر: جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٤٣٢ ؛ سليمان موسى: الحركة العربية، ص٥٧٨ـ٥٧٩ ؛ نجلاء عز الدين: المرجع السابق، ص٢٥٦ـ٢٥٧.

([5]) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم ٩ و ١٠، ص١٦ـ١٩ ؛ كرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، الوثيقة رقم ٣٩، ص٤٢.

وضعوا الحكومة البريطانية في مأزق، ففلسطين تختلف عن العــراق وشــرق الأردن فهاتــان الدولتان وإن كان حكامها من الحجاز إلا أنهما عــرب مســلمون يحكمــون دولتــين عــربيتين مسلمتين، أما فلسطين فوضعها مختلف، لأن بريطانيا وعدت بها اليهود المشــردين فــي جميــع أنحاء العالم. ولهذا كان من المستحيل المساواة بينهم وبين الأقطار العربية

وتلا ذلك أن عقد الفلسطينيين مؤتمرهم الرابع في القــدس([1]) يــوم الســبت ١٨ شــوال ١٣٣٩هــ/٢٥ يونيو ١٩٢١م برئاسة موسى كاظم الحسيني بعد ثورة يافا وشهده مئة مندوب من مختلف أنحاء فلسطين، وتقرر أن يسافر وفد عربــي برئاســة موســى الحســيني وعــدد مــن الشخصيات الفلسطينية للمطالبة بحقوق الشعب الفلسطيني([2])، وقد رفعوا مذكرة إلــى الحكومــة البريطانية بينوا فيها المطالب الوطنية لعرب فلسطين([3])، ومع ما ظهر من قوة الوفد الفلســطيني في بعض الأوساط الإنجليزية ؛ حيث حمل مجلس اللوردات([4]) على اتخاذ قرارٍ يوصي الحكومة بإعادة النظر في سياستها الباغية والظالمة في فلسطين. لكن تشرشل قــال للوفــد بصــراحة أن إنشاء حكم وطني بأكثرية عربية سيحول دون تنفيذ الوعد المعطى لليهود، وعاد الوفد خائباً أمام التصميم البريطاني الصريح لإعطاء فلسطين للصهاينة([5]).

وفي ذي الحجة ١٣٤٠هــ/٢٢ أغسطس ١٩٢٢م عقد العرب مــؤتمرهم الخــامس فــي نابلس؛ لمناقشة الخطة السياسية الجديدة بعد عودة الوفد الفلسطيني من لندن، وبعد التصديق على الصــك الرسمي للانــتداب البــريطاني على فلسطين([6]) وإدراج عصبة الأمم لوعد بلفور فــي صك الانتداب في٣٠ ذي القعدة ١٣٤٠هــ/ ٢٤ يوليو ١٩٢٢م([7])، وجد المؤتمرون أن سياســة

([1]) لمزيد من المعلومات حول محاضر جلسات هذا المؤتمر انظر: أكرم زعيتر: وثائق الحركــة الوطنيــة الفلســطينية، الوثيقة رقم ٥٢، ص٧٦ـــ٨٦.

([2]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، الوثيقة رقم ٥٢، ص٧٦ـــ٧٧ ؛ واصف عبوشي: المرجع الســابق، ص٤٨.

([3]) انظر نص المذكرة في ملحق الوثائق الملحق رقم١٢.

([4]) مجلس اللوردات (النبلاء) أو مجلس العموم البريطاني: يشكل هذا المجلس النصف المهم من البرلمــان البريطــاني، ولهذا المجلس سلطة واسعة أهمها سن القوانين. انظر: جميل عطية إبراهيم، صلاح عيسى: المرجع السابق، ص٧٠.

([5]) محمد عزة دروزة : القضية الفلسطينية، ج١، ص٣٨ـــ٣٩ ؛ مذكرات محمــد عــزة دروزة ١٣٠٥ــــ١٤٠٤هــــ/ ١٨٨٧ـــ ١٩٨٤م، سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية، (دار الغرب الإســلامي، بيــروت، ط١، ١٩٩٣م)، ج١، ص٥٥٢ ؛ واصف عبوشي: المرجــــع السابق، ص٤٩ـــ٥٠.

([6]) صك الانتداب على فلسطين أعلن من قبل عصبة الأمم بتاريخ٢٩ شوال ١٣٣٩هــ/٦ يوليو ١٩٢١م وصــودق علية في٢٨ ذو القعدة ١٣٤٠هــ/ ٢٤ يوليو ١٩٢٢م ووضع موضع التنفيذ في١٨ صفر ١٣٤٢هــ/ ٢٩ سبتمبر ١٩٢٣م. انظر نص الصك في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٣.

([7]) الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٧ ، ص١٢٨ ؛ أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣،ص٧٢.

بريطانيا الخاصة بإنشاء الوطن القومي الصهيوني لا تزال على حالها، ولم يحدث فيها أي تعديل جوهري، وأن سبب ذلك تفرق الكلمة وتشتيت الشمل، واقترح المؤتمر تنمية التضـــامن العربـــي من جديد وتوثيق عرى الاتحاد بين الفلسطينيين وإخوانهم العرب في المنطقة ؛ حتى يتمكنوا مـــن رد الطامعين في الأمة لاعتقادهم أنهم أصبحوا لقمة سائغة ؛ لتفكـــك شـــملهم وتفـــرق كلمـــتهم، فأرسلوا وفداً إلى ملوك العرب وأمرائهم لإطلاعهم على الظلم الواقع على الفلسطينيين وتوضيح فوائد الاتفاق والتفاهم، كما رفض المؤتمر الدستور الذي وضعه المجلس التشريعي([1]) ــ بإيعـــاز من الحكومة البريطانيةــ وقاطع انتخابات المجلس ؛ لأنه وجد أن الاشتراك في تلك الانتخابـــات إنما هو قبول ظاهر محسوس للانـــتداب ؛ ولتصريح بلفور الذي يقضي بجعل الـــبلاد المقدســـة وطناً قومياً لليهود([2]).

بعد أن فشل الوفد الفلسطيني في مساعيه لطـــلب المساعدة والدعم مـــن بريطانيا،اتجهـــت أنظاره إلى الدولة العثمانية خاصة بعد أن عمل الإنجليز على نشر الدعايـــة الكاذبـــة لتمجيـــد([3])

([1]) المجلس التشريعي: سنته الحكومة البريطانية وهو قانون يخولها بوضع دستور للبلاد أطلقوا عليه اسم المجلـــس التشريعي يتكون من ٢٣ عضواً ، ١١ منهم مسؤولون بريطانيون معينون، و١٢ منتخبون لليهود منهم صوتان، وكانت الحصة المقررة للعرب من المجموعة المنتخبة هي عشرة مقاعد، الأمر الذي يعني غياب الأغلبية العربية من مجموع سكان فلسطين بالمجلس، لذ قرر العرب مقاطعة الانتخابات للمجلس التشريعي الذي كان يجب عليـــه سن القوانين في البلاد ، مما أفقد الانتخابات قيمتها، بفضل اللجنة التنفيذية العربية التي يتزعمها موســـى كـــاظم الحسيني. انظر: عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم ٢٧، ص٥٨ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية،ج١، ص٤٣ ؛ واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٥٧ــ٥٨.

([2]) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم ٢٣ و٢٤ و ٢٥ و٢٦، ص٥٣ــ٥٩ ؛ أمين ســـعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٦٠ــ٦١.

([3]) قام أتاتورك بثورة ضد اليونانيين وكان يحميها الإنجليز في الخفاء، استعار خلالها أتاتورك الشـــعار الإســـلامي ورفع المصحف، وأعلن الحلفـــاء أثناءهـــا حيـــادهم، فبعـــد تجـــدد القتـــال بـــين أتـــاتورك واليونـــانيين فـــي (١٣٤٠هــ/١٩٢١م) انسحبت القوات اليونانية من أزمير ودخلها العثمانيون دون إطـــلاق رصاصـــة واحـــده، وضخمت الدعاية الغربية والتي يسيطر عليها اليهود بالطبع الانتصارات المزعومـــة لأتـــاتورك، فانخـــدع بـــه المسلمون وتعلقت به الآمال لإحياء الخلافة، ووصفه الشاعر أحمد شوقي بأنه "خالد الترك" تشبيهًا له بخالد بـــن الوليد، عاد مصطفى كمال إلى أنقرة حيث أطلق عليه لقب "غازي"، ومعناه الظافر في حرب مقدسة، وهو لقـــب كان ينفرد به سلاطين آل عثمان، فتعزز موقفه الدولي. انظر: علي حسون: الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، (المكتب الإسلامي، بيروت،= =ط٣، ١٤٠٣هــ/١٩٨٣م)، ص٢٥١ــ٢٥٤ ؛ أحمد عطية الله : المرجـــع السابق، ص٤وص٥٤٠ ؛ أحمد شوقي: الشوقيات، (دار العودة، بيروت، ١٩٩٥م)، ج١، ص٢١١ ؛ موفق بنـــي المرجة: المرجع السابق، ص٢٨٤ ؛ محمد عبد الله عودة، وآخرون: مختصر التاريخ الإسلامي، (الأهلية للنشـــر والتوزيع، عَمان، ١٩٨٩م)، ص١٨١.

مصطفى كمال أتاتورك(1) الذي كان يسيطر على مقاليد الحكم في الدولة في تلك الفترة، فأرسل الفلسطينيون وفداً إلى تركيا؛ لعرض القضية الفلسطينية في مؤتمر الصلح الذي سوف يعقد في لوزان(2) ولندن، سافر هذا الوفد الفلسطيني إلى القاهرة واجتمع بالوفد السوري واتفقا على توحيد عمل الوفدين، وفي ١٨ ربيع الأول ١٣٤١هـ/ ٨ نوفمبر ١٩٢٢م اتجها إلى تركيا واجتمعا بقادة الحكومة التركية(3) ثم قصدا لوزان، لكن حال الحلفاء دون دخول الوفد المؤتمر لعرض قضيتهم، فاكتفوا بنشر الدعاية لها بين رجال المؤتمر والعاملين فيه، ثم قصدوا لندن واتصلوا برجال السياسة فيها ؛ داعين إلى إنصاف فلسطين ورد حقوقها(4).

---

(1) مصطفى كمال باشا أو أتاتورك(١٢٩٩ـ١٣٥٧هـ/١٨٨١ـ١٩٣٨م): أي أبو الأتراك، ولد في سالونيك، وهو من يهود الدونمة، درس في المدرسة العسكرية وأصبح ضابطاً في الجيش العثماني. اتصل بالإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى؛حتى يمهدوا له سيطرته على الحكومة، وبعد الحرب اغتصب مصطفى كمال قيادة كافة القوات العثمانية، انتصر في معركة سقارية على اليونان مما رفع اسمه عالياً،وجعله يظهر كبطل بالنسبة للأتراك، عقد مع الحلفاء معاهدة لوزان عام١٣٤١هـ/١٩٢٣م، وفي عام١٣٤٢هـ/١٩٢٤م ألغى الخلافة الإسلامية وأعلن الجمهورية التركية العلمانية. انظر: علي حسون: المرجع السابق، ص٢٥١ـ٢٥٤ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٤وص٥٤٠.

(2) مؤتمر لوزان: من المدن السويسرية المهمة، والتي عقد فيها مؤتمر لوزان نتيجة لتطور الأحداث العسكرية بين القوات العثمانية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك والقوات اليونانية انتهت بانسحاب اليونان من أزمير، تدخل الحلفاء لوقف الصراع القائم بين البلدين وعقد مؤتمر لوزان في١ ربيع الثاني ١٣٤١هـ/٢٠ نوفمبر ١٩٢٢م واستمر حتى شعبان ١٣٤١هـ/ابريل ١٩٢٣م، وقد انتدب الشريف حسين مندوبة في لندن الدكتور ناجي الأصيل للسفر إلى لوزان وتمثيله هناك، ومطالبة الحلفاء بإنصاف العرب، وتم توقيع معاهدة لوزان في١٠ ذو الحجة ١٣٤١هـ/٢٤ يوليو ١٩٢٣م، فسويت بهذه المعاهدة العلاقة بين الحلفاء وحكومة أنقرة الجديدة التي خلعت لباسها الديني وأعلنت علمانية الحكومة، وبموجبها تخلت تركيا عن كل حقوقها في فلسطين وسوريا ومصر والسودان والعراق والجزيرة العربية وسوت حدودها مع هذه الدول. وبعد هذا المؤتمر تم الاتفاق بين بريطانيا ومندوب الشريف حسين على معاهدة تنص على تخلي الشريف حسين عن فلسطين وشرق الأردن والعراق لبريطانيا. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٠٧١ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص١٦٨ ؛ مصطفى محمد حلمي: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، دراسة حول كتاب النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة لشيخ الإسلام مصطفى صبري، (دار ابن الجوزي، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ص١٣٥.

(3) وقد أرسل الفلسطينيون برقية إلى مصطفى كمال جاء فيها " إننا نطلب الاستقلال التام لفلسطين تحت انتداب الحكومة التركية الكمالية وإذا خالف الوفد الفلسطيني مطالبنا هذه فهو لا يمثل إلا نفسه" وقد وقع على هذه البرقية عدد من العلماء والمشايخ والأشراف ورجال صحافة وتجار. انظر نص البرقية في: عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم٣٠، ص٦٦ـ٦٧.

(4) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم٣٣، ص٦٩ـ٧٠ ؛ أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، الحاشية رقم ١، ص٦١ ؛ ظاهر الحسناوي: المرجع السابق ، ص١١٤ـ١١٥ .

وفي الوقت الذي كان الفلسطينيون يعملون على الدفاع عن استقلالهم والبحث عن حقهم في تقرير مصيرهم في أوربا، أرسل الشريف حسين مندوبه في لندن الدكتور ناجي الأصيل([١]) للتفاوض مع بريطانيا حول البلاد العربية وقد التقى الأصيل عصمت باشا في لوزان أيضاً في جمادى الآخرة ١٣٤١هـ/فبراير ١٩٢٣م([٢]) وتحدث معه عن تحسين العلاقة العربية التركية، ووضح عصمت باشا للأصيل أن تركيا لا ترغب في إعادة ضم الولايات العربية إليها، وأن العرب بقيادة الشريف حسين هم الذين أدخلوا الاستعمار الأوربي إلى الأقطار العربية،وأن شكيب أرسلان باعتباره المتحدث باسم الوفد العربي الفلسطيني السوري يحمل الشريف حسين أيضاً هذه المسؤولية([٣]).

وبعد هذا اللقاء توجه الأصيل إلى بريطانية لدراسة مشروع المعاهدة البريطانية الهاشمية والتي بدأت بريطانيا تتباحث بشأنها مع الشريف حسين منذ عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م([٤]) وقد شاع أن الأصيل وقع في شعبان ١٣٤١هـ/ إبريل ١٩٢٣م معاهدة مع بريطانيا باسم الشريف حسين تنص المادة الثانية منها([٥]) على أن يعترف الشريف حسين بالانتداب البريطاني على العراق وشرق الأردن وفلسطين، ويتعهد على أن يبذل كل جهده في التعاون مع بريطانيا ؛ حتى تفي بتعهداتها في هذه المناطق([٦])، ومن ضمن هذه التعهدات بالطبع تطبيق وعد بلفور. وقد أجرى

([١]) الدكتور ناجي بن عبد الله الأصيل(١٣١٥ـ١٣٨٣هـ/١٨٩٧ـ١٩٦٣م): عراقي تخرج طبيباً من الجامعة الأمريكية في بيروت، انضم إلى جيش ثورة الشريف حسين، انتدبه الشريف حسين لمفاوضة الإنجليز في١٣٤٠ـ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٢ـ١٩٢٤م وتوقيع المعاهدة بين الإنجليز والشريف حسين، تولى عدد من المناصب في العراق. انظر: الزركلي: الأعلام ، ج٧ ، ص٣٤٤ ؛ أمين سعيد : الثورة العربية..، ج٣، الحاشية رقم ١، ص١٦٥.

([٢]) انظر الوثيقة التي توضح اللقاء بين عصمت باشا وناجي الأصيل في ملحق الوثائق الملحق رقم١٤.

([٣]) F.O 371 / 8936 (E 1658 / 46 / 91) No107, in 13 / 2 / 1923 From : Curzon of Kedleston ,To: Mr Henderson.p120

([٤]) حسن صبري الخولي : سياسة الاستعمار الصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م)، ج١، ص٤٤٢ـ٤٤٦ ؛ وللمزيد من المعلومات حول نص مشروع المعاهدة انظر: حافظ وهبة: المرجع السابق، ص٣٦٣ـ٣٧٢ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣ ، ص١٦٠ـ١٦٥.

([٥]) انظر نص المعاهدة في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٥.

([٦]) F.O 371 / 8939 (E 7974/ / 46 / 91) No107, in 9 August 1923, From : Mr. Oliphant ,To: Dr. Naji-el-Assil.

F.O 371 / 8937(E 2370) , in 2 March 1923, The under secretary of state, Foreign Office. P.171-177.

نجدة صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية(نجد والحجاز) ١٩٢٣ـ١٩٢٤م، (دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م)، الوثيقة رقم ٧٦ ، ج٧، ص٢٤٨ـ٢٤٩ ؛ والوثيقة رقم ٢٧ ، ج٧، ص١٤٢ـ١٤٤؛ أمين

الشريف حسين بعض التعديلات على هذه المعاهدة([1]) بعد أن أثيرت حولها ضجة في الصحف الفلسطينية والمصرية([2])، مما جعل العرب والبريطانيين يشككون في مصداقية الشريف حسين وقدرته على تمثيلهم([3]). ويرجع هذا إلى عدم مشاركة الشريف حسين للعرب المعنيين بهذه المعاهدة في المفاوضات مع بريطانيا مما أضعف مصداقيتها عند أهل الشام.

ثم عقد المؤتمر الفلسطيني السادس في يافا في ذي القعدة ١٣٤٢هـ/١٦ يونيو ١٩٢٣م ؛ لبحث النتائج التي توصل إليها الوفد الفلسطيني بعد عودته من أوربا، وبحث مشروع المعاهدة العربية ـ البريطانية ورفضها([4])؛ لأنها تناقض العهود المقطوعة للعرب، ولحقوق الشعب الفلسطيني المطالب بإلغاء السياسة الصهيونية. واختار المؤتمر وفداً للسفر إلى لندن برئاسة موسى كاظم الحسيني ليكون بجانب ناجي الأصيل في مفاوضاته مع وزارة الخارجية البريطانية لعقد المعاهدة العربية ولدفاع عن القضية الفلسطينية، وقد وصل الوفد لندن في ١٠ ذو القعدة ١٣٤١هـ/٢٥ يونيو ١٩٢٣م وظل هناك حتى١ صفر١٣٤٢هـ/١٢ سبتمبر ١٩٢٣م؛ حيث عاد إلى فلسطين دون جدوى لإخفاق المباحثات مع الحكومة البريطانية([5]).

بينما ظل الدكتور ناجي الأصيل في لندن ؛ حيث عرض تحفظات الشريف حسين على المشروع، فيما يتعلق بفلسطين الذي طالب باستقلالها استقلالاً تاماً ومطلقاً يخول للفلسطينيين إدارة بلادهم بأنفسهم واختيارهم طريقة الحكم التي يريدونها، وقبل التوصل إلى نتيجة تذكر في هذه المباحثات تغيرت الحكومة البريطانية في ٢ جمادى الأولى ١٣٤٢هـ /١٠ ديسمبر ١٩٢٣م بسقوط وزارة المحافظين([6]) وقيام وزارة الـ

سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص١٦٨ ؛ محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص٥٥٦ـ٥٥٨.

([1]) انظر التعديلات في ملحق الوثائق الملحق رقم١٦.

([2]) للمزيد من المعلومات حول ما نشر في الصحف المصرية انظر: نجدة صفوة: الجزيرة العربية، الوثيقة رقم ٦٩، المرفق رقم ٤ و٥ و٦ ، ج٧ ، ص٢٢٧ـ٢٣٢.

([3]) F.O 371 / 8938 (E 6602) in 26 JUN 1923, From: Mr.Grafftey – Smith, Jeddah, To: Foreign Office, Hedjaz Treaty Negotiations, p. 174-183.
نجدة صفوة: الجزيرة العربية، الوثيقة رقم ٦٩ ، ج٧، ص٢١٦ـ٢٢٢ ؛ والوثيقة رقم ٧٠، ج٧، ص٢٣٢ـ٢٣٥.

([4]) محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص٥٧٥ـ٥٧٩ ؛ حسن صبري الخولي: المرجع السابق، ج١، ص٤٥١.

([5]) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم٣٤، ص٧٣ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص١٦٨ ؛ محمد عزة دروزة: مذكرات ، ج١، ص٥٧٧ـ٥٧٩.

([6]) حزب المحافظين: أحد أكبر الأحزاب في بريطانيا يمثل طبقة كبار الملاك الزراعيين، انضم إليه حزب الأحرار الذي كان يمثل الطبقة الوسطى من التجار ورجال الصناعة من أمثال تشرشل. انظر: أحمد عطيةالله: المرجع السابق، ص١١٤٥ـ١١٤٦.

ــــــــــــــــــــــــــــعمال ([1]) برئاسة ماكدونالدMcDonnald ([2]) الذي أعلن أن المفاوضات بين وزارة الخارجية ومندوب الشريف حسين قد انتهت([3]).

بعد عودة الوفد الفلسطيني إلى فلسطين اقترح وزير المستعمرات البريطاني تشرشل في ربيع الأول ١٣٤٢هـ/ أكتوبر ١٩٢٣م إنشاء وكالة عربية([4]) على غرار الوكالة اليهودية([5])، لكن اللجنة التنفيذية العربية بزعامة موسى الحسيني رفضت هذا العرض ؛ لأنه يجعل أصحاب البلاد الأصلين على مستوى واحد مع اليهود الغرباء، كما طالبوا بحقهم بإنشاء حكومة وطنية دستورية مستقلة ومجلس تشريعي واستشاري يكون لها صلاحيات أوسع من صلاحيات الوكالة([6]).

([1]) حزب العمال: تأسس عام١٣١٨هـ/١٩٠٠م ، خلال الحرب العالمية الأولى وقفت أقلية الحزب ضد الحرب، وفي عام١٣٣٧هـ/١٩١٨م أعلن الحزب برنامجه الاشتراكي في ١٣٤٢هـ الموافق نهاية عام ١٩٢٣ بداية عام ١٩٢٤م= = ألف رامزي ماكدونالد أول وزارة عمالية استمرت عدة أسابيع في الحكم، ثم ألف وزارته الثانية في محرم ١٣٤٨هـ/يونيو ١٩٢٩م، والثالثة في١٣٥٠هـ/١٩٣١م، وفي عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م اشترك الحزب في وزارة الحرب القومية برئاسة تشرشل، لكنه انفصل عنها بنهاية الحرب. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٨١٦.

([2]) جيمس رامزاي ماكدونالد James Ramzai McDonnald (١٢٨٣ـ ١٣٥٦هـ/١٨٦٦ـ١٩٣٧): سياسي بريطاني ولد في أسرة عمالية انتخب سكرتير أول لحزب العمال عام١٣١٨هـ/١٩٠٠م، وفي١٣٤٢هـ/ نهاية عام ١٩٢٣ بداية عام ١٩٢٤م ألف وزارة ائتلافية مع حزب الأحرار، لكن انسحاب أعضاء هذا الحزب افقده الثقة البرلمانية في أكتوبر من العام نفسه فاستقال، ألف عدد من الوزارات في أعوام متفرقة (١٣٤٨ـ١٣٥٠ـ١٣٥٤هـ/ ١٩٢٩ـ١٩٣١ـ١٩٣٥م). انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١١٠٤ ؛ سمير شيخاني: المرجع السابق ، ج٢، ص٣٣١.

([3]) Mary C . Wilson: Op. Cit , p. 88. ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص١٧٩

([4]) للمزيد من المعلومات حول هذا المشروع انظر: أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، الوثيقة رقم ١٥٦، ص٣٠٩ـ٣١٣.

([5]) الوكالة اليهودية: هي فرع من فروع المنظمة الصهيونية العالمية التي أنشأت في عام١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م، على اثر المؤتمر الصهيوني الأول في سويسرا، وفي عام١٣٤٠هـ/١٩٢٢م أنشأت المنظمة اليهودية فرعاً لها في فلسطين باسم "الوكالة اليهودية" ليقوم بالتعاون مع سلطات الانتداب البريطاني في وضع وعد بلفور موضع التنفيذ، وقد اهتمت الوكالة اليهودية بالصندوق القومي اليهودي ليساعدها على شراء الأراضي وإنشاء المستوطنات، وقد قامت الوكالة بالدور الأكبر في تنفيذ المخطط الصهيوني داخل فلسطين. انظر: جميل عطية إبراهيم، صلاح عيسى: المرجع السابق، ص٧٩ـ٨١.

([6]) الوثائق الرئيسية..،الوثيقة رقم ٢٧، ص١٣٨ ؛ عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم٣٦، رقم٣٦، ص٧٨ـ٨١ ؛ : أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، الوثيقة رقم ١٥٦، ص٣١٣ ؛ أمين

لكن الحكومة البريطانية رفضت هذا العرض أمام عصبة الأمم في دورتين متتاليتين في عامي١٣٤٢ــ١٣٤٣هــ/١٩٢٤ــ١٩٢٥م وأوضحت بصراحة أنها لا يمكنها أن تؤسس مجلساً تشريعياً في فلسطين، يكون العرب فيه ممثلين بحسب عددهم، لان ذلك يحول دون قيام الحكومة البريطانية
بوجباتها بشأن إنشاء الوطن القومي اليهودي([1]).

في الفترة من١٣٤٢ــ١٣٤٥هــ/ ١٩٢٤ــ١٩٢٧م لجأ الفلسطينيون إلى مختلف الطرق لتحقيق التفاهم الوطني، ومحاولة زحزحة بريطانيا عن مواقفها المنحازة لجانب الصهاينة، ولكن دون جدوى، فقد انحرفت الحركة الوطنية كما يذكر محمد عزة دروزة([2])، وذلك بفضل دسائس الإنجليز، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد ظهر في فلسطين حزبان متناحران هما الحزب الزراعي([3]) والحزب الوطني([4])، فالأول كان يظهر التقرب للفلاح ويعطف عليه، وفي الباطن كان يزرع الريبة وسوء الظن في الفلاح نحو المدني، وهذا بالطبع بمساعدة ودعم من الحكومة البريطانية([1]).

سعيد: الثورة العربية..، ج٣ ، ص٨٦.

([1]) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب...،ج١، ص٤٣٧.

([2]) محمد عزة دروزة (١٣٠٥ــ١٤٠٤هــ/١٨٨٧ــ١٩٨٤م): باحث ومؤرخ فلسطيني من نابلس بدأ حياته العملية عام ١٣٢١هــ/١٩٠٣م في دائرة البرق والبريد في ظل الدولة العثمانية في مدن فلسطين ولبنان وسوريا، اعتقلته السلطات الفرنسية أكثر من مرة في سورية مما اضطره إلى الالتجاء إلى تركيا عام ١٣٦١هــ/١٩٤١م ــ أي بعد سقوط الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية ــ، ودام لجوئه لتركيا خمسين شهراً، شارك في تأسيس الجمعيات والأحزاب الاستقلالية في سورية وفلسطين بعد خروج العثمانيين ودخول الاستعمار الأجنبي إليهما. انظر: محمد خير رمضان يوسف: المرجع السابق، ج٢، ص١١٦ ؛ محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص٨ــ١٦.

([3]) الحزب الزراعي: تشكل في عام ١٣٤٢هــ/أوائل سنة ١٩٢٤م عمل على إنشائه وتطويره عبد اللطيف أبو هنطش وحيدر طوقان والشيخ عبد الله الغصين وفارس مسعود وغيرهم تألفت عضوية هذا الحزب من الزعماء القرويين الذين أغراهم المندوب السامي البريطاني بعقد قروض زراعية وتأمين مصالحهم، بالإضافة إلى الأفندية المنافسين للأسرة الحسينية، أما الفلاحون وهم القاعدة الأساسية لهذا الحزب فيؤمن تعاونهم عن طريق الشيوخ أو المخاتير، وذلك إما بإقناعهم بقداسة الهدف، وإما باجزال الوعود لهم بحصة في المكاسب، فإذا فشلت الوسيلتان تم الإقناع بالتهديد في الانتقام منهم. وكان الهدف من إنشاء هذا الحزب هو مناوأة الحركة الوطنية وتغطية هدفه السياسي بالقناع الاقتصادي الزراعي للاستفادة من الفوارق الطبقية بين الفلاحين والأفندية والملاكين، وكانت هذه لعبة صهيونية حقيرة نجحت في البداية، ثم عادت وانكشفت على يد الفلاحين أنفسهم، لذلك لم يعمر هذا لحزب طويلاً. انظر: بيان نويهض الحوت:القيادات والمؤسسات السياسية، ص١٨٣ــ١٨٤.

([4]) الحزب الوطني: تشكل في ربيع الأخر ١٣٤٢هــ/نوفمبر ١٩٢٣م من وجهاء فلسطين مثل عارف الديجاني، وسليمان التاجي الفاروقي، راغب النشاشيبي، وكانت سياسته المعلنة التعاون مع حكومة الانتداب البريطاني، مع

أما الحزب الوطني فقد ظهر كحزب معارض للمؤتمرات والجمعيات الوطنية، وقد لعب الكولونيل كلايتون Clayton[2] دوراً هاماً في ظهور هذا الحزب، فقد شجع الطامعين في الحصول على مناصب عليا في البلاد على الظهور على مسرح الأحداث بخطة تقوم على أساس خذ وطالب، ومنّاهم بما يمكن أن يصلوا إليه من هذا الطريق من مركز ومكانه، وقد كانت هناك بعض الصلات المشبوهة لبعض رجال هذا الحزب،فبعضهم كان على اتصال بالحكومة البريطانية وبعضهم كان على علاقة باليهود، وكان لبعضهم يد في السمسرة وبيع الأراضي لليهود[3].

وقد انتقد شكيب أرسلان[4] الانشقاق بين الأحزاب الفلسطينية بشدة ؛ حيث قال في مقال له في صحيفة العرب بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ/٢٩ أكتوبر ١٩٣٢م: "..إن وحدة العرب هي الطريق الوحيد لإنقاذ فلسطين. فإن كان الوطن القومي الصهيوني لا يزال يدور على ألسن اليهود ولا تزال آمالهم به معلقة، فما ذاك إلا لما يرونه من انقسام عرب فلسطين وتخاذل العرب كلهم..."[5]، كما حذر في أكثر من مرة من الخلافات الفلسطينية لاعتقاده اليقين بأن هذه الخلافات كانت مبعثاً لانتعاش آمال اليهود والبريطانيين،بإمكانية تحقيق المشروع الصهيوني،

رفض المشروع الصهيوني. انظر: إلياس شوفاني: الموجز في تاريخ فلسطين السياسي منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩م، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م)، ص٤٢٨.

[1] محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٤٦ـ٤٧ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب، ج١، ص٤٣٧.

[2] الجنرال جلبرت كلايتون General Gilbert Clayton(١٢٩١ـ١٣٤٨هـ/١٨٧٥ـ١٩٢٩): أنشأ المكتب العربي (جهاز المخابرات البريطاني في القاهرة) عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م، عمل في السودان وتولى شؤون المخابرات خلال= = الحرب، وبعد انتهاء الحرب عين كلايتون مستشاراً لوزارة الداخلية المصرية (١٣٣٨ـ١٣٤١هـ/١٩١٩ـ ١٩٢٢م)، ثم سكرتيراً عاماً لحكومة فلسطين(١٣٤١ـ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٢ـ١٩٢٥م)، وفي عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م عين مندوباً سامياً لبريطانيا في العراق وتوفي في نفس العام. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٢١٣ـ١٢١٤.

[3] محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١،ص٤٧ـ٤٩ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب،ج١، ص٤٣٧.

[4] الأمير شكيب أرسلان (١٢٨٦ـ١٣٦٦هـ/١٨٦٩ـ١٩٤٦م): من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة، ولد بلبنان وعين نائباً لمدينة حوران في مجلس المبعوثان العثماني، سكن دمشق خلال الحرب العالمية الأولى، وكان من أشد أنصار الدولة العثمانية والمتحمسين لها عالج السياسة الإسلامية قبل انهيال الدولة العثمانية، انتقل بعد الحرب العالمية إلى عدد من الدول الأوربية وأقام في سويسرا ٢٥ سنة ثم عاد إلى دمشق التي توفي فيها. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٧٢ـ١٧٤.

[5] خيرية قاسمية: سوريا والقضية الفلسطينية في الفترة ما بين الحربين ١٩١٨ـ١٩٣٩م، ضمن دراسات فلسطينية ومجموعة من الأبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق، تحرير هشام نشابة، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م)، ص١٩٨.

وأكد أن بقاء فلسطين قطراً عربياً أو تحويلها يهودية وطـرد العـرب منهـا "منـوط بـالعرب الفلسطينيين أنفسهم قبل سائر العرب، وبهذا بلاغ لقوم يعقلون"([1]).

من ذلك نجد أن الحركة السياسية الفلسطينية انحرفت عن مسارها الصحيح، وظهر هنـاك نوع من الأنانية والانتهازية من بعض المشبوهين ؛ وذلك للبحـث عـن المصـالح الشخصـية والسلطة. لذلك توقفت المؤتمرات الفلسطينية مدة خمس سنوات ثم عادة في محـرم ١٣٤٧هـ/يونيو ١٩٢٨م.

عندما عقد المؤتمر السابع في القدس في محرم ١٣٤٧هـ/٢٠ يونيو سنة ١٩٢٨م في مقر اللجنة التنفيذية العربية وحضره ٢٥٠ مندوباً من جميع المناطق والأحزاب، وقـرروا المطالبـة بحكومة برلمانية، ووقف سن القوانين حتى تؤلف هذه الحكومـة، والاحتجـاج علـى الحكومـة البريطانية وكثرة الموظفين الإنجليز، وعلى إعطاء امتياز البحر الميت لشركة صـهيونية يمكـن أن تستعمل سلاحاً سياسياً ضد حقوق العرب ومصلحتهم، وذلك بتفضيل العمـال اليهـود علـى العمال العرب في الأشغال الحكومية وغير الحكومية([2]).

وبالفعل دخل الزعيمان الفلسطينيان موسى كـاظم الحسـيني وخصـمه اللـدود راغـب النشاشيبي([3]) في مفاوضات مع المندوب السامي البريطاني لتحقيق مطالب المؤتمر السـابع فـي

([1]) ظاهر الحسناوي: المرجع السابق، ص١٢١.

([2]) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة الفلسطينية، الوثيقة رقم ٥٣ و ٥٤، ص١٣٢ـــ١٣٣ ؛ : أكـرم زعيتـر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، الوثيقة رقم ١٥٨، ص٣٢١ــ٣٢٢ ؛ أمين سعيد: الثـورة العربيـة..، ج٣ ، ص٦٢ ؛ جمال عبد الهادي مسعود ، وفاء محمد رفعت جمعة : الطريق إلى بيت المقدس "القضية الفلسـطينية" منذ آدم عليه السلام حتى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، (دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص٢٢٦.

([3]) راغب النشاشيبي: من الشخصيات الفلسطينية البارزة أيام الحكم العثماني والبريطاني والأردني لفلسطين. حيـث كان من مؤيدي انضمام جزء من فلسطين للأردن. بدأ حياته العملية رئيساً لإدارة الأشغال العامـة فـي العهـد العثماني. كان مندوباً عن القدس في البرلمان العثماني خلال الحرب العالمية الأولى. شغل منصب رئيس بلديـة القدس في سنوات١٣٣٨ــ١٣٥٢هـ/١٩٢٠ــ١٩٣٤م، قام بتأليف حزب الدفاع وتولى رئاسته وتمثيله في اللجنة العربية العليا، كانت علاقته طيبة بالإنجليز، وكان متزوج من يهودية ــ قد تكون هي السبب في مواقفه السياسية المتراخية أمام الانتداب البريطاني، أصبح حارساً للأماكن المقدسة في القـدس خـلال الحكـم الأردنـي بعـد حرب١٣٦٧هـ/١٩٤٨م. انظر: وليد الخالدي: قبل الشتات التاريخ المصور للشعب الفلسطيني ١٨٧٦ــ١٩٤٨م، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م)، ص٢٨٤ــ٢٨٥ ؛ واصف جوهرية: القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية، الكتاب الثاني من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩١٨ــ١٩٤٨م، تحريـر وتقـديم: عصام نصار وسليم تماري، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م)، ص٢٩٦ وص٣٢٢.

تمثيل حكومة برلمانية، لكن اندلاع ثــورة البراق في ربيع الأول ١٣٤٨هــ/أغســطس ١٩٢٩م أدى إلى توقف المفاوضات([1]).

المؤتمر الثامن بذلت من أجله مساعي عديدة لعقده لكنها لم تكلل بالنجاح. على الرغم مــن أن اللجنة التنفيذية عقدت في١١ذو الحجة ١٣٥١هــ/٧ ابريل ١٩٣٣م في القدس وقررت توجيه الدعوة لعقد المؤتمر الثامن في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥٣هــ/٢ سبتمبر ١٩٣٤م، وتنظيم اللجنة التنفيذية على أساس مالي جديد ووضع نظام داخلي لها([2])، لكننا لم نجد ما يشير إلى عقــد هــذا المؤتمر، ربما لتدهور الأوضاع في فلسطين وقيام العديد من الثــورات منــذ عــام ١٣٤٨ــــ ١٣٥٨هــ/١٩٢٩ــ١٩٣٩م ضد الاحتلال البريطــاني الصــهيوني. لأن الملاحــظ بعــد عــام ١٣٤٧هــ/ ١٩٢٨م اتجه النضال الفلسطيني إلى المقاومة الشعبية ؛ لعدم جــدوى المفاوضـــات السياسية والمؤتمرات لم تأتِ بنتيجة تذكر؛ بسبب النزاعات الداخلية وتفرق الكلمة، لذلك قامــت المقاومة الشعبية بالمطالبة بالحقوق الفلسطينية بالقوة،وهذا ما سوف نتحدث عنــه فــي المبحــث الثاني.

في حين كان هناك تيارين مختلفين في مواجهة الانتداب البريطاني والخطــر الصـــهيوني فالتيار الأول كان يدعو إلى الوحدة مع دول المنطقة،كما هو الحال أيام الدولة العثمانية بأن تعود فلسطين جزءاً من سوريا الكبرى، وأن تعتبر قضية فلسطين ضمن القضايا العربية الإســلامية، وتزعم هذا التيار الحاج أمين الحسيني([3]). أما التيار الثاني فكان يدعو إلى قيام وحدة مع شــرق الأردن والتخلي عن الوحدة السورية وقد تزعم هذا التيار راغب النشاشيبي([4]).

([1]) يزيد صايغ: الكفاح المسلح والبحث عن الدولة الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٩ــ١٩٩٣م، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م)، ص٤٤ــ٤٥.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣ ، ص٦٢.

([3]) المفتي الحاج أمين الحسيني(١٣١٦ــ١٣٩٤هــ/١٨٩٧ــ١٩٧٤م): سياسي عربي وزعيم فلسطيني مــن إحــدى الأسر العربية الكبيرة في فلسطين، مفتي مدينة القدس١٣٤٠هــ/١٩٢١م، عارض إقامــة دولــة يهوديــة فــي فلسطين، أبعد عن فلسطين عام١٣٥٨هــ/١٩٣٩م، فذهب إلى لبنان وأبعدته الحكومة الفرنسية بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية فذهب إلى العراق، حيث انضم إلية جمال الحسيني، شارك الحاج أمين في ثــورة الكيلانـــي فـــي العراق، عام١٣٦٠هــ/١٩٤١م فاضطر بعد أن قمعها الجيش البريطاني إلى اللجوء إلى إيران ، ومنها إلى تركيا فإيطاليا فألمانيا ؛ حيث أمضى فيها أيام الحرب حتى نهايتها، وبلجوئه إلــى ألمـــاني اعتبرتـــه بريطانيـــا حليفـــاً للنازيين. توفي في بيروت. انظر: رشيد الحاج إبراهيم: مذكرات رشيد الحاج إبراهيم (١٨٩١ــ١٩٥٣م) الــدفاع عن حيفا وقضية فلسطين، تقديم وليد الخالــدي، (مؤسســة الدراســات الفلســطينية، بيــروت، ط١، ٢٠٠٥م)، صLXX ؛ المنجد: ص٢٢١.

([4]) يزيد الصايغ: المرجع السابق، ص٤٨ــ٤٩.

في أوائل الثلاثينات تشكلت العديد من الأحزاب السياسة في فلسطين، التي كانت تشكل غطاء للصراع القائم بين مؤسسيها بشأن النفوذ والزعامة ومن هذه الأحزاب:

١ــ حزب الاستقلال : تشكل في ١ربيع الآخر ١٣٥١هــ/٤ أغسطس ١٩٣٢م على يد مجموعة من القوميين العرب، ومنهم عوني عبد الهادي ومحمد عزة دروزة، وعجاج نويهض[١] وأكرم زعيتر[٢] وغيرهم[٣]، وكان مؤسسوه من أبناء العائلات الكبيرة والقوميين العرب الذين تلقوا تعليمهم في الخارج فنادوا بالانفصال عن الدولة العثمانية، ونظراً لفكر الحزب القومية فقد انضم إليه عدد من النصارى، وكان هذا الحزب يدعو إلى التضامن العربي، والعمل من أجل الاستقلال وإنهاء الانتداب،ورفض وعد بلفور ومقاومة الصهيونية، والنهضة بالبلاد

([١]) عجاج نويهض(١٣١٥ــ١٤٠٢هــ/١٨٩٧ــ١٩٨٢م): سياسي وصحفي وأديب ولد ببلدة رأس المتن بلبنان، وتلقى علومه الابتدائية والثانوية في لبنان، أتم تعليمه في فلسطين حيث حصل على دبلوم الحقوق في معهد القدس سنة ١٣٤٢هــ/١٩٢٤م، بدأ نشاطه الصحفي في القدس منذ سنة ١٣٣٧هــ/١٩١٩م، عمل في الحركة الوطنية في العشرينات والثلاثينان. وكان مابين١٣٤١ــ ١٣٥١هــ/١٩٢٣ــ١٩٣٢م سكرتيراً للمجلس الإسلامي الأعلى برئاسة محمد أمين الحسيني، أسس مجلة "العرب" ، وكانت أسبوعية سياسة مصورة تنطق بلسان حزب الاستقلال العربي، الذي كان نويهض من أعضائه، وعندما توقفت المجلة عام ١٣٥٣هــ/١٩٣٤م عن الصدور، أصبح مراسلاً صحفياً لجريدة الأهرام في القاهرة، اشترك في ثورة١٣٥٥هــ/١٩٣٦م وأعتقل عدت أشهر ثن عاد ممارسة الصحافة، ترك نويهض فلسطين بعد نكبة ١٣٦٧هــ/١٩٤٨م، واستقر في الأردن له العديد من المؤلفات، وترجم كتاب "حاضر العالم الإسلامي" للوثروب ستودارد، وبروتوكولات حكماء صهيون. انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص١٩٠.

([٢]) أكرم زعيتر(١٣٢٧ــ١٤١٦هــ/١٩٠٩ــ١٩٩٦م): مؤرخ وسياسي فلسطيني، له العديد من المؤلفات في السياسة والتاريخ مختصة بالقضية الفلسطينية. انظر: المنجد، ص٢٧٩.

([٣]) للمزيد من المعلومات حول أعضاء هذا الحزب انظر: بيان الحوت:القيادات والمؤسسات السياسية، الجدول رقم ٣٧، ص٨٧٩.

سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، لكن مبادئ الحزب هذه لم تترجم بصورة فعلية ؛ مما أدى إلى تقلص نفوذ الحزب واضمحلاله في١٣٥٢هـ/ نهاية سنة ١٩٣٣م([1]).

٢ـ حزب الدفاع الوطني: تشكل في ٢٤ شعبان ١٣٥٣هـ/٢ ديسمبر ١٩٣٤م على يد راغب النشاشيبي([2])، بدعم من حكومة الانتداب، بعد أن عين المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل النشاشيبي رئيساً لبلدية القدس بدلاً من موسى كاظم الحسيني، الذي أقيل من منصبه لنشاطه السياسي المعادي للانتداب البريطاني وللصهيونية، فقد توفي موسى الحسيني في٢٩ ذو القعدة ١٣٥١هـ/٢٦ مارس ١٩٣٣م على أثر الجروح التي أصيب بها في مظاهرات يافا عام١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، وكان الغرض من تعين النشاشيبي هو خلق المنافسة بينه وبين الحاج أمين الحسيني الذي عين بدوره مفتياً للقدس، ورئيساً للمجلس الأعلى الإسلامي، بعد وفاة موسى كاظم الحسيني، لذلك سارع النشاشيبي إلى تشكيل الحزب الوطني بعد وفاة موسى الحسيني؛ حتى يكون منافساً للحزب العربي الذي شكله أنصار الحاج أمين الحسيني، ودعا الحزب إلى الاستقلال بسيادة عربية، وتأليف حكومة وطنية والتعاون مع أمير شرق الأردن ، والسعي لتطوير البلاد اقتصادياً وعلمياً واجتماعياً وزراعاً([3]).

٣ـ الحزب العربي الفلسطيني: شكله أنصار الحاج أمين الحسين في٢٠ ذو الحجة ١٣٥٣هـ/٢٥ مارس ١٩٣٥م وكان رئيس الحزب جمال الحسيني([4])، كما ضم الحزب عدداً

([1]) إلياس شوفاني: المرجع السابق، ص٤٥١ـ٤٥٢ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٢٦٣ـ٢٧٨.

([2]) للمزيد من المعلومات حول أعضاء هذا الحزب انظر: بيان الحوت:القيادات والمؤسسات السياسية، الجدول رقم ٤٠، ص٨٨٣

([3]) إلياس شوفاني: المرجع السابق، ص٤٥٢ـ٤٥٣ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص١٧٥ـ١٧٩ وص٣٠١ـ٣٠٧.

([4]) جمال صالح الحسيني(١٣١٠ـ١٤٠٢هـ/١٨٩٢ـ١٩٨٢م):هو ابن عم الحاج أمين الحسيني، ولد في القدس، درس في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان رئيس الحزب العربي وهو حزب الأغلبية. اعتقلته الحكومة البريطانيةبسبب اشتراكه في المظاهرات في فلسطين، بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ذهب إلى العراق مع عدد من الزعماء الفلسطينيين والعرب، ثم انتقل إلى إيران بعد فشل ثورة الكيلاني، أعتقله البريطانيين في الأهواز وظل في السجن أربع سنوات، ثم عاد إلى فلسطين عام١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، كان عضواً في اللجنة العربية العليا، ترأس= = عدد من الوفود الفلسطينية في المحافل الدولية، بعد النكبة الفلسطينية عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م التجأ إلى القاهرة، ثم انتقل إلى السعودية عمل مستشارا سياسيا لدى الملك عبد العزيز ثم الملك سعود خلال الفترة من عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م إلى عام ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م حين جرى إعفاؤه من هذا المنصب من قبل الملك فيصل. توفي في بيروت. انظر: محمد خير رمضان يوسف: المرجع السابق ، ج١، ص١١٠ ؛ محمد عزة دروزة: مذكرات ، ج١، ص٥١٤.

من المسيحيين([1])، وكان الحزب استمراراً للجنة التنفيذية فقد طالب باستقلال فلسطين،وصيانة عروبتها ورفع الانتداب عنها، ومقاومة الوطن القومي اليهودي، وشدد على ارتباط فلسطين بالأقطار العربية المجاورة، وقد تولى هذا الحزب قيادة العمل الوطني الذي عمل على تشكيل اللجنة العربية العليا لفلسطين في ٣ صفر ١٣٥٥هـ/ ٢٥ إبريل ١٩٣٦م([2]) على إثر الثورة العربية الكبرى في فلسطين([3]).

٤ـ حزب الإصلاح العربي الفلسطيني: تشكل في ١٦ ربيع الأول ١٣٥٤هـ/ ١٨ يونيو ١٩٣٥م أسسه الدكتور حسين فخري الخالدي ووصف بأنه حزب الأعيان([4])، وكان على منافسة مع راغب النشاشيبي، ومبادئه قريبة من مبادئ الحزب العربي ؛ نظراً لنوعية المنافسة([5]).

٥ـ حزب الكتلة الوطنية: تشكل في٦ رجب ١٣٥٤هـ/٤ أكتوبر ١٩٣٥م أسسه المحامي عبداللطيف صلاح في نابلس([6])، ولم يتمتع هذا الحزب بقاعدة واسعة، لأنه لم يتميز بطرحه السياسي، أو نشاطه النضالي([7]).

إن انتظام القيادات السياسة في أحزاب لم يحسن من أدائها النضالي، إذ ظلت الانقسامات مستشرية بينها، مما أدى إلى استغلال سلطة الانتداب الصراعات الشخصية بين الأشخاص والأحزاب، بسبب المواقف المتباينة لهذه الأحزاب بالنسبة للانتداب([8]).هذا فضلاً عن انحياز السلطة البريطانية لحزب ضد الآخر كما رأينا في الحزب الوطني، وذلك حتى ينشغل الناس بهذه الأحزاب عن القضية الرئيسة ؛ لإنهاء الاحتلال ومجابهة الخطر الصهيوني المحدق بالبلاد والمنطقة العربية الإسلامية برمتها.

وإن في هذه الأحزاب وتناحرها فائدة كبيرة لليهود الذين لابد وأن يكون لهم دور كبير في هذا التناحر والصراع فبروتوكولات حكماء صهيوني([9]) تنص على ذلك ؛ حيث جاء فيها ما

([1]) للمزيد من المعلومات حول أعضاء هذا الحزب انظر: بيان الحوت:القيادات والمؤسسات السياسية، الجدول رقم ٤١، ص٨٨٤.

([2]) انظر صورة أعضاء اللجنة العربية العليا في ملحق الصور الملحق رقم ٨.

([3]) إلياس شوفاني: المرجع السابق، ص٤٥٣ ؛ بيان الحوت:القيادات والمؤسسات السياسية، ص٣٠٧ـ٣١٠.

([4]) للمزيد من المعلومات حول أعضاء هذا الحزب انظر: بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، الجدول رقم ٤٢، ص٨٨٥.

([5]) إلياس شوفاني: المرجع السابق ، ص٤٥٤ ؛ بيان الحوت : القيادات والمؤسسات السياسية، ص٣١٠ـ٣١٢.

([6]) للمزيد من المعلومات حول أعضاء هذا الحزب انظر: بيان الحوت:القيادات والمؤسسات السياسية، الجدول رقم ٤٣، ص٨٨٥ـ٨٨٦

([7]) إلياس شوفاني: المرجع السابق، ٤٥٤ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٣١٢ـ٣١٤.

([8]) إلياس شوفاني: المرجع السابق، ٤٥٤.

([9]) كان أول مخطط لهم للسيطرة على العالم وإذلاله في ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م حين عقد أول مؤتمر يهودي عرف

يلي: " لكي نصل إلى غاياتنا ... يجب أن ننشر في سائر الأقطار الفتنة والمنازعات والعـداءات المتبادلة فإن في ذلك فائدة مزدوجة"([1])، وفي هذا الـنص كمـا ذكـر أرسـلان "بـلاغ لقـوم يعقلون"([2])، فهل يعقل إخواننا الفلسطينيون هذا؟!.

في ليلة الإسراء والمعراج الموافـق ٢٧ رجـب إلـى ٧ شـعبان ١٣٥٠هـ/١ـ١٧ ديسمبر ١٩٣١م عقد المؤتمر الإسلامي في القدس حضره نحو ١٤٥ شخصاً ممثلون عن اثنـين وعشرين بلداً إسلامياً، ولفيف من الشخصيات البارزة في العالم العربي والإسلامي([3])، وخـلال افتتاح المؤتمر أكد المفتي أمين الحسيني على أهمية فلسطين والأقصى في العالم الإسلامي، كمـا أكد المؤتمر شجبه للصهيونية والسياسة البريطانية في فلسطين والهجرة اليهودية إليها، وكان من قرارات المؤتمر:إنشاء جامعة إسلامية في القدس ومقاطعة جميع الصـناعات الصـهيونية فـي الأقطار الإسلامية وتأسيس شركة زراعية في فلسطين لإنقاذ أراضي المسلمين([4]). استمر انعقاد

باسم "مؤتمر حكماء صهيون" حضره عدد من أحبار اليهود في مدينة بطرسبرغ الذي انبثقت عنه مقررات سرية تعرف باسم بروتوكولات حكماء صهيون والتي لم يكشف النقاب عنها إلا في عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م وهـي تهدف لسيطرة اليهودية على العالم بمختلف الوسائل لمزيد من المعلومات حول هذه البروتوكولات انظر: محمـد خليفة التونسي: الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة: عباس محمود العقاد، (منشـورات ذات السلاسل، الكويت، ط٢)، ص١٢٣ـ ٢٣٧ ؛ شوقي عبدالناصر: بروتوكولات حكماء صهيون وتعالـيم التلمود، (ط٤ـ٥)، ص٥٧ـ٢٠٧ ؛ هيلة سعد السليمي: دور اليهود في إسقاط الدولة العثمانية، (رسـالة لنيـل درجـة الماجستير بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، (غير منشورة)، ص٨٥.

([1]) الحسيني الحسيني معدي: التلمود أسرار..حقائق فضح المخططات اليهودية للسيطرة على العالم أخطر كتاب ضد الإنسانية والأديان السماوية، (دار الكتاب العربي، دمشق ــ القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م)، ص١٣٥.

([2]) ظاهر الحسناوي: المرجع السابق، ص١٢١.

([3]) حضر المؤتمر من خارج فلسطين: محمد رشيد رضا وعبد الرحمن عزام ومحمد مصطفى المراغـي وعبـد الحميد سعيد من مصر ، رياض الصلح وعارف الزين من لبنان، وشكري القوتلي من سوريا ، والإمـام محمـد حسين آل كاشف الغطاء والشاعر محمد بهجة الأثري من العراق ، والسيد عبد العزيز الثعـالبي مـن تـونس ، وضياء الدين الطباطبائي من إيران ، ومولانا شوكت علي من الهند ، مفتيح سالم من البوسنة والهرسك، سماحة عطا الله المدرس من ألبانيا ، محمد علي الحوماني من أمريكا الشمالية والجنوبية مندوباً عن خمـس جمعيـات عربية وإسلامية.. وغيرهم كثيرون. للمزيد من المعلمات انظر: بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسـية، الجدول رقم٢٨، ص٨٧١ـ٨٧٣ ؛ رشيد الحاج إبراهيم: المرجع السابق، صXLV ــ XLVI.

([4]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٩٦ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١،ص٧٩ـ٨٧ ؛ بيـان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٢٤٥ـ٢٤٧ ؛ علي أبو الحسن: دور بريطانيا في تهويـد فلسـطين العربية أقذر دور في التاريخ، (دار الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص٤٠١ـ٤٠٢.

المؤتمر أسبوعين، اكسب هذا المؤتمر الحاج أمين الحسيني شهرة واسعة ؛ حتى أنه أصبح من أهم زعماء المشرق العربي الذين ناضلوا في سبيل القضية الفلسطينية(١).

في رمضان ١٣٥٤هـ/ديسمبر عام ١٩٣٥م أوعزت بريطانيا إلى مندوبها السامي الجنرال أرثر واكهوبGeneral Arthur Wauchope(٢) بعد شهر واحد من استشهاد القسام ؛ ليقوم بطرح مشروع المجلس التشريعي على العرب واليهود ؛ في محاولة منهم لامتصاص غضب العرب، فعرض المندوب السامي البريطاني على الزعماء العرب واليهود اقتراحاً ؛ لإنشاء مجلس تشريعي توزع مقاعده الـ ٢٨ على النحو التالي: ٥ موظفين بريطانيين، ٢ يمثلان التجار بالتعين، ٨ ينتخبون، ٣ يعينون من المسلمين، ٣ ينتخبون، ٤ يعينون من اليهود، وينتخب ١ و ٢ يعينان عن المسيحيين، والرئيس شخصية محايدة غير متصلة بحكومة فلسطين ولا يشترك في المناقشة ولا يصوت، واشترط ثلاث تحفظات:

١. مشروعية الانتداب لا يجوز أن ينازع فيها.
٢. يخول المندوب السامي حق التشريع في حالات معينة.
٣. يستمر المندوب السامي في تحديد جدول العمل المخصص للهجرة، وهو الذي يعين قدرة البلاد على استيعاب المهاجرين(٣).

وعلى الرغم من تناول الصحافة العربية هذه المقترحات بالنقد إلا أن الأحزاب الفلسطينية لم ترفضها، لكن الزعماء اليهود رفضوها بشكل لا يقبل للمساومة وفي١٠ محرم ١٣٥٥هـ/٣ ابريل ١٩٣٦م وجه وزير المستعمرات دعوة إلى الزعماء العرب؛ لبحث هذه المقترحات إلا أن نشوب ثورة الثورة العربية الكبرى في فلسطين عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م حالت دون سفر الوفد(٤).

---

(١) رشيد الحاج إبراهيم: المرجع السابق، ص XLVI.

(٢) الجنرال أرثر واكهوب General Arthur Wauchope : وهو رابع مندوب سامي بريطاني تولى منصبه من صفر ١٣٥٠هـ/ يوليو ١٩٣١م إلى ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م ، وهو ثاني مندوب سامي عسكري بعد الجنرال بولز. انظر: عبدالله بن الحسين: مذكراتي، ص٢٣١ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.216.

(٣) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ـ١٩٣٩م ، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م)، ص٣٩ ؛ James Parkes: Tha Emergence Of the Jewish Problem 1878-1939,(Oxford University Press),London,pp.50-51.

(٤) الوثائق الرئيسية ..، الوثيقة رقم ٢٧ ص١٣٩ ؛ أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٤٠ ؛ James Parkes: Op. Cit, pp.52-53.

وفي٢٢ محرم ١٣٥٥هـ/١٥ إبريل ١٩٣٦م انفجرت الثورة العربية الكبرى في فلسطين بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسام([1]) وسرعان ما اتسعت رقعتها لتشمل فلسطين كلها، وتشكلت لجان قومية في كل مدينة وبلدة في فلسطين؛ لتتولى قيادة الحركة الوطنية وتنظيمها، واتفقوا على ضرورة توحيد قيادة الحركة الوطنية في فلسطين، ففي٣ صفر ١٣٥٥هـ/٢٥ إبريل ١٩٣٦م عقد اجتماع عام لتلك الأحزاب واللجان والهيئات في مدينة القدس وتقرر إنشاء الهيئة الوطنية الموحدة التي اشتهرت باسم "اللجنة العربية العليا" برئاسة مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني([2]). وبقيام الثورة العربية الكبرى في فلسطين توقف النضال السياسي وبدأ الكفاح المسلح الذي استمر حتى عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م والذي سوف نتحدث عنه في المبحث الثاني من هذا الفصل.

ب ـ الانتداب البريطاني وأثره على الحالة السياسية في شرق الأردن:

تطورت الحياة السياسية في الفترة من١٣٣٩ـ١٣٥٨هـ/١٩٢١ـ١٩٣٩م بشكل ملحوظ في إمارة شرق الأردن ؛ حيث شرع الأمير عبد الله بن الحسين في تنظيم إمارته الجديدة بمساعدة سلطات الانتداب البريطاني، فقد كانت البلاد تعاني من سيطرة العصبية القبلية وقلة الخبرة السياسية والإدارية، إلى جانب ذلك فقد وجد بعض الوجهاء في قيام حكومة مركزيه غير أردنية متعاونة مع الاستعمار البريطاني سوف يفقدهم الكثير من الإمتيازات التي كانوا يتمتعون بها قبل ذلك، فأبناء شرقي الأردن تعودوا على الاستقلالية الفردية وعدم الانصياع ؛ لسيطرة حكومة مركزية في عَمان، لذلك وقع صدام عنيف بين التقاليد والأحكام القبلية التي كانت سائدة وبين الحكومة الأردنية وأجهزتها وقوانينها التي فرضها عليها الانتداب([3])، لذلك كان على الحكومة الجديدة القيام بعدة مهام هي:

([1]) الشيخ عز الدين القسام(١٣٠٠ـ١٣٥٤هـ/١٨٨٢ـ١٩٣٥م): ولد الشيخ محمد عز الدين القسام في بلدة جبلة على الساحل السوري، تعلم في الأزهر، وعاد إلى جبلة بعد أن أمضى حوالي ثماني سنوات في جوار الأزهر، اشتغل بالتعلم والوعظ. وفي سنة١٣٣٨هـ/١٩٢٠م قاوم الفرنسيين عندما دخلوا دمشق، فحاولت السلطة العسكرية الفرنسية شراءه وإكرامه بتوليته القضاء، فرفض ذلك وكان جزاؤه أن حكم عليه الديوان السوري العرفي بالإعدام. لجأ القسام إلى مدينة حيفا في أواخر عام١٣٣٩هـ/١٩٢٠م، وتولى فيها إمامة جامع الاستقلال، ورياسة جمعية الشبان المسلمين. وعندما استفحل الخطر الصهيوني قام بثورته التي عرفت باسمه ضد الإنجليز والصهاينة واستشهد فيها في شعبان ١٣٥٤هـ/نوفمبر سنة ١٩٣٥م. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٢٦٧ـ٢٦٨ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق،ص٩٢٢ـ٩٢٣ ؛سميح حمودة:المرجع السابق،ص٢٨ـ٣٧ ؛ يعقوب الدجاني:المرجع السابق، ص٣٦.

([2]) شفيق جحا: المرجع السابق ، ص٢١٣ـ٢١٤.

([3]) سعد أبو دية: صفحات مطوية من تاريخ الأردن حوادث ومواضيع متفرقة من تاريخ الأردن في القرن الماضي والحاضر، (البنك الأهلي الأردني، عَمان، ط١، ١٩٩٨م)، ص١٦٥ـ١٧٠ ؛ Mariano De Madrazo: Palestina, Madio Siglo Acordes Historicos 1913 -1958,

١.إلغاء الحكومات المحلية المختلفة وإخضاع البلاد إلى سلطة مركزية واحدة مقرهــا عَمــان عاصمة الإمارة.

٢. السيطرة الأمنية على البلاد، وفرض سلطة الأمير على الجميــع ومنــع قيــام الغــارات المختلفة.

٣. فرض الضرائب وجبايتها([١]).

وعند ذلك اعتمدت الحكومة الأردنية في إدارتها للبلاد على المستشارين البريطانيين الذين أصبحوا يعملون بتعاون وثيق مع الأمير من أجل الحفاظ على المصالح البريطانية فــي الــبلاد، وكان اعتماد الأردن على بريطانيا سياسياً ومالياً وعسكرياً، في بناء القــوات المســلحة لشــرق الأردن، كما عمل الأمير عبد الله على تشكيل نواة الجيش من أجل الحفاظ على أمــن الحكومــة المنتدبة والدفاع عنها، مثل حمايــة المعســكرات والمســتودعات البريطانيــة وحمايــة طــرق المواصلات بين فلسطين والأردن، وكان هذا نتيجة الاتفاق الذي تــم بــين الأميــر عبــد الله و تشرشل في مؤتمر القاهرة الذي تم فيه تعين الأمير عبد الله بن الحسين أميراً على شرق الأردن مقابل معونة مالية يتلقاها سنوياً تقدر ١٨٠.٠٠٠ جنية إسترليني، تعهد الأمير بموجبهــا احتــرام التزامات بريطانيا الدولية تجاه فرنسا في سوريا والحركة الصهيونية في فلسطين([٢]) وهــذا مــا سوف نلاحظه في حديثنا عن أثر الانتداب البريطاني على الحالة السياسية في شرق الأردن، فقد عمل الأمير عبد الله على تكوين الإمارة بالصورة التي رسمها له البريطانيون متجاهلاً مشــروع الوحدة الذي على أساسة قامت ثورة الشريف حسين في الحجاز والتي منت العرب فــي الشــام بدولة واحدة مستقلة بعيدة عن أي استعمار أجنبي، بل إننا نجد أن المحرك الرئيس لسياسة شرق الأردن هو بريطانيا سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي.

لقد فكر الأمير عبدالله في الحصول على الاستقلال التام لشرق الأردن بعد أن أقر مجلــس عصبة الأمم صك الانتداب البريطاني على فلسطين وشرق الأردن في٢٨ شوال ١٣٤٠هــ/٢٤ يوليو ١٩٢٢م، وفي٢٤ محرم ١٣٤١هــ/١٦ ســبتمبر ١٩٢٢م رفعــت الحكومــة البريطانيــة مذكرة([٣]) رسمية إلى عصبة الأمم أشارت فيها إلى أن بريطانيا استبعدت تطبيق وعد بلفور على شرق الأردن، وبينت المذكرة حدود الانتداب بين فلسطين وشرقي الأردن، لأن اليهــود كــانوا

Editora Nacional, Madrid, 1964),P.146. (

([١]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٣٨ــ٣٩ ؛ سليمان موسى: إمارة شرق الأردن..،ص٦٣ــ٦٧.

([٢]) إلياس الشوفاني: المرجع السابق، ص٤١٢.

([٣]) انظر نص المذكرة الرسمية التي قدمتها بريطانيا لعصبة الأمم فــي: أمــين ســعيد: الثــورة العربيــة..، ج٣، ص٢١ــ٢٢.

يطمعون في تـطبيق وعد بلفور على شرق الأردن([1]) على اعتبار أن شرق الأردن كان جـزءاً من فلسطين، فقد كان اليهود يطمعون في السيطرة على سوريا الجنوبية بأكملها.

ومن أجل تحقيق فكرة الاستقلال سافر الأمير عبد الله إلى بريطانيا وبدأت المفاوضات مع كلايتون مندوباً عن الحكومة البريطانية يوم٢٢ ذو الحجة ١٣٤٠هـ/ ١٦ أكتوبر ١٩٢٢م؛ حيث طالب الأمير باستقلال شرق الأردن استقلالاً تاماً والحصول على منفذ للبحـر، إلا أن الحكومـة البريطانية لم تستجب مباشرة لمطالب الأمير فعاد إلى عَمان في جمـادى الأولـى ١٣٤١ هـ /أوائل يناير ١٩٢٣م، تاركاً رئيس وزرائه علي رضا الركابي في لندن ليتـابع المفاوضـات([2])، وطالت مدة بقاء الركابي في لندن دون الوصول إلـى نتيجـة([3])، وتوقفـت المحادثـات بـين الحكومتين الأردنية والبريطانية إلـى أن زار عَمـان هربـرت صـموئيل المنـدوب السـامي البريطاني([4]) وقام بإبلاغ الأمير عبدالله عن استعداد بريطانيا الاعتراف رسميا باستقلال شـرقي الأردن في ٢٨ رمضان ١٣٤١هـ/١٥ مايو ١٩٢٣م، وعقد معاهدة مع الحكومة الأردنية بهدف ترتيب العلاقات وتنظيم شؤون الانتداب ومنح الإدارة الوطنية في الأردن شيئا من الاستقلال([5]). فصموئيل كان يهدف إلى جعل شرق الأردن ملجأ للفلسطينيين الذين كان ينوي تهجيـرهم مـن أرضهم وإسكان اليهود محلهم، فمنطقة غرب نهر الأردن(فلسطين) أغنى وأخصب مـن منطقـة شرق الأردن الصحراء القاحلة.

لذلك استجابت بريطانيا إلى دعوة الأمير عبدالله الهادفة إلى تثبيت كيـان إمـارة شـرق الأردن خاصة فيما يتعلق منه بفصل منطقة شرق الأردن عن فلسطين وتثبيـت حـدودها، كمـا ساعدته بريطانيا في ضم العقبة ومعان إلى شرق الأردن لما لها من أهمية عسكرية واقتصـادية

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٢١ــ٢٢ ، علي محافظة: العلاقات الأردنية..، ص٤٤ــ٤٦ ؛ محمـد خريسات: المرجع السابق، ص٤٣ــ٧٦ ؛ خيري حماد: المرجع السابق، ص١١٠.

([2]) انظر تفاصيل هذه المفاوضات في: أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٢٢ــ٢٧ ؛ عبـد الله بـن الحسـين: مذكراتي، ص١٩٤ــ١٩٦ .

([3]) عبد الله بن الحسين : الآثار الكاملة، ص١٦٨ــ١٦٩ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٢٢ــ٢٧ ؛ علـي محافظة: العلاقات الأردنية..،ص٤٦ــ٤٧.

([4]) انظر تفاصيل هذه الزيارة في عبد الله بن الحسين: مذكراتي، ص١٩٧ــ٢٠٢ ؛ جبران ملكون: جلالة الملك عبد الله المعظم واستقلال المملكة الأردنية الهاشمية، (دار الأخبارــ مطبعة الشعب ، بغداد، ١٩٤٧م)، ص٥٦ــ٦٠.

([5]) عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٧٠ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٢٨ــ٢٧ ؛ عبـدالرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، (دار الكتاب الجامعي، القـاهرة، ط٨، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٣٨١ .

وذك في ذي القعدة ١٣٤٣هـ/ يوليو ١٩٢٥م فقد تنازل عنها الملك علي بن الحسين إبان الحرب الحجازية النجدية لشرق الأردن(١).

وفي٢٨ شعبان ١٣٤٦ هـ /٢٠ فبراير ١٩٢٨م وقعت الحكومة البريطانية وحكومة إمارة شرق الأردن في القدس على اتفاقية(٢) لتنظيم العلاقة بينهم(٣)، وكان للمعتمد البريطاني(٤) الكولونيل هنري كوكسHenry Cox(٥) دور كبير في إعداد هذه الاتفاقية ؛ حيث حيث كان يفرض رقابة شديدة ومحكمة على جميع أجهزة الإدارة في البلاد، كما كان رئيس الوزراء والوزراء، ومدراء الدوائر في مختلف الدوائر الأردنية لا يعينون إلا بناء على رغبته ووفقاً لنصائحه(٦)، وقد حفظة مواد هذه الاتفاقية لبريطانيا كامل نفوذها في الإمارة الجديدة، سواء في الشؤون الداخلية أو الخارجية. كما سمحت للقوات العسكرية البريطانية الاستمرار في احتلال البلاد، في مقابل إلزام الحكومة البريطانية بإمداد حكومة شرق الأردن بالإعانات المالية(٧). ولم يكن الأمير عبدالله بن الحسين سوى رمزٍ يعمل على تطبيق الأوامر البريطانية والحفاظ على سلامة قواتها.

---

(١) عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٨٠ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٣٠ـ٣١ ؛ إلياس الشوفاني: المرجع السابق، ص٤١٢.

(٢) انظر نص مواد هذه الاتفاقية في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٧.

(٣) أو لتقسيم غنيمة ثورة الشريف حسين في الحجاز بينهما، فأعطت بريطانيا الأمير عبد الله منطقة شرق الأردن القاحلة، واحتفظت هي بفلسطين الغنية ذات الموقع الاستراتيجي الهام لتزرع فيه الكيان الصهيوني، وأعطت سوريا ولبنان للفرنسيين.

(٤) انظر جدول جدول المعتمدين البريطانيين في ملحق الجداول الملحق رقم ٢.

(٥) الكولونيل هنري كوكسHenry Cox : حل محل جون فيلبي في٢٦ شعبان ١٣٤٢هـ/١ إبريل ١٩٢٤م، بعد خلاف وقع بين فيلبي الذي كان يتولى منصب المعتمد البريطاني والأمير عبدالله، واستمر كوكس في هذا المنصب حتى محرم١٣٥٨هـ/مارس ١٩٣٩م. انظر: عبدالله بن الحسين:مذكراتي، ص٢٢٩ ؛ علي محافظة: الفكر السياسي في الأردن منذ بداية الثورة العربية الكبرى وحتى نهاية عهد الإمارة ١٩١٦ـ١٩٤٦م، (مركز الكتب الأردني،عَمان،ط١٩٩٠،١م)،ج١،ص٢١٢ـ٢١٣؛ .Mary C.Wilson:Op.Cit.p.216

(٦) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٣١ ؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية..،ص٤٩.

(٧) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٣١ـ٣٧ ؛ محمد أنيس، والسيد رجب حراز : يقظة العرب وكفاحهم في سبيل التحرر والوحدة، ضمن دراسات في المجتمع العربي لمجموعة من أساتذة كليتي الآداب والاقتصاد والعلوم

وإبان الثورة السورية الكبرى (١٣٤٤ــ ١٣٤٥هــ/ ١٩٢٥ــ١٩٢٧م) أقلق بريطانيا أن تصبح إمارة شرق الأردن الناشئة مقرا للمجاهدين السوريين الذين يخلقون المشاكل للانتداب الفرنسي في سوريا، فأخذت تهدد الأمير عبد الله، وتخيره بين ضياع عرشه وبين التخلي عن هؤلاء المجاهدين وتسليم المطلوبين، قبل الأمير عبد الله بالاختبار الثاني ؛ حتى ينقذ عرشه من الضياع، كما فرضت بريطانيا عليه ضباطاً بريطانيين([١]) يتولون جميع القوات العسكرية في البلاد، ويكون في الوقت نفسه عيناً على ما يحصل في مجلس الوزراء، ينقل إلى حكومته كل ما يدور فيه، ويقف حائلاً دون تنفيذ أي أمر يهدد مصالح بريطانيا أو يتعارض مع سياستها واتجاهاتها حتى لو كان هذا الأمر يتعلق بالفرنسيين في سوريا لا بالإنجليز في فلسطين([٢]).

وفي ٢٦ شوال ١٣٤٦ هــ /١٦ إبريل ١٩٢٨م نشر القانون الأساسي([٣]) وكان أول كيان دستوري لشرق الأردن وهو في حقيقة الأمر من إعداد البريطانيين، وما كان على الأمير عبدالله وحكومته إلا أن يوافقوا عليه دون اعتراض، وهو مؤلف من اثنتين وسبعين مادة موزعة على مقدمة وسبعة فصول وأهم ما جاء فيه:

١. وضع الأسس الأولى للمؤسسات الدستورية في البلاد، وأن تكون عَمَان عاصمة الإمارة. إن السلطات التشريعية والإدارية مخولة للأمير عبد الله ابن الحسين ولورثته من بعده وأن ولاية العهد في الذكور من سلالته، وفقاً لقانون الوراثة الخاص. وتشكيل مجلس تشريعي يناصر عملية التشريع إلى جانب الأمير([٤]).

السياسية بجامعة القاهرة، (دار النهضة العربية، القاهرة ، ط١، ١٩٦١م)، ص١٢٢.

([١]) أمر المندوب السامي البريطاني في فلسطين وشرق الأردن اللورد بلومر الذي خلف صموئيل في ٦ صفر١٣٤٤هــ/٢٥ أغسطس ١٩٢٥م بتسريح نصف الفيلق العربي الموجود في شرق الأردن والذي لا يزيد عدد أفراده عن ألف وخمسمائة نفر، وهم بقايا الجيش العربي الذي كان مع الأمير فيصل قبل أن يطرد من سوريا، لأنه كان يرى أن الفيلق العربي لا يصلح بأن يكون جيش نظامي في شرق الأردن، وعهد اللورد بلومر إلى العقيد "بيك" Peake بأن يتولى أمر الفيلق العربي في شرق الأردن وبقي بيك أمراً على الفيلق العربي طوال ١٧ سنة (١٣٣٩ــ١٣٥٧هــ/ ١٩٢١ــ١٩٣٨م)، وأصبح الفيلق العربي بعد وتجريدهم من مدفعيتهم مسؤول عن الأمن الداخلي فقط، وقام بلومر بإنشاء قوة جديدة يتولى أمرها= =ضباط بريطانيون للدفاع عن حدود شرق الأردن. انظر: غلوب باشا: حياتي في المشرق العربي، ص١٨٦ــ١٨٧ ؛ غلوب باشا: مذكرات غلوب باشا ١٨٩٧ــ١٩٨٣م، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، (الفجر للنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ١٩٨٨م)، ص١٥٢ــ١٥٣، وص١٨٦.

([٢]) خيري حماد : المرجع السابق، ص١١٢؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.86–87

([٣]) انظر نص القانون الأساسي في الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، (طبع بمطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس)، الملحق رقم ٥، ص٦١ــ٧٧.

([٤]) عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٨١ ؛ أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٣٧ ؛ علي المحافظة: العلاقات الأردنية..، ص٧٤.

٢. أن يتكون المجلس التشريعي من ممثلين منتخبين ؛ وفقا لقانون الانتخاب ورئيس الوزراء وأعضاء مجلس الوزراء؛ بحيث يصبح أعضاء المجلس التشريعي ١٦ عضوا وتمتد صلاحيات المجلس الى جانب عملية التشريع بحيث تشمل الشؤون المالية والسياسية. ولقد تشكلت خمسة مجالس تشريعية منذ ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م حتى١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.
٣. السلطة التنفيذية وتتكون في مؤسستين الأولى مؤسسة الإمارة(الأمير)، والثانية المجلس التنفيذي، فجميع الصلاحيات للأمير وليس للمجلس التنفيذي إلا الشورى ويتألف من خمسة أعضاء يعينهم الأمير.
٤. السلطة القضائية وقد طرح القانون الأساسي ثلاثة أنواع من المحاكم: المحاكم الدينية، المحاكم المدنية، المحاكم الخاصة، كما أن هناك ديوانٌ يعرف (بالديوان الخاص) الذي يتألف من وزير العدل وموظفين كبيرين يختارها المجلس التنفيذي([١]).

وعلى هذا الأساس تم إنشاء إمارة شرق الأردن من وجهة نظر الحقوق الدولية واعترف باستقلالها ووجودها، من الناحية النظرية([٢])، أما من الناحية العملية فقد كانت السلطة العليا البريطانية هي المسيطرة على البلاد وعلى أميرها.

ومن هنا بدأت المعارضة للقانون الأساسي منذ صدوره بزعامة حزب الشعب، وقد أرغمت السلطة المخاتير على الاشتراك في الانتخابات وحثت عشائرهم على التسجيل، وفرضت رقابة على حزب الشعب، كما فرضت الحكومة عقوبات مشددة على المواطنين في أي مكان تقوم فيه مظاهرات ضد الحكومة الأردنية أو ضد الدولة المنتدبة، وفي٢٤ ربيع الآخر ١٣٤٧ هـ /٨ أكتوبر ١٩٢٨م صدر قانون النفي والإبعاد عن البلاد لأي شخص يسعى لإثارة العدوان بين الشعب والحكومة أو الدولة المنتدبة([٣]). فهذه الإمارة قامت تحت إشراف السلطات البريطانية لذلك عملت بريطانيا على رعايتها وحمايتها ومدها بالدعم اللازم لبقائها ؛ حتى تتفرغ هي لفلسطين.

كما باشر المجلس التشريعي الأول أعماله يوم ٢١ شوال ١٣٤٧هـ/٢ إبريل ١٩٢٩م للنظر في المعاهدة الأردنية البريطانية واستمر في دراستها ومناقشتها مدة شهرين، فقد كان أغلب أعضاء المجلس معارضين للمعاهدة([٤])، وعلى الرغم من ذلك صادق عليها المجلس

([١]) علي المحافظة: العلاقات الأردنية..، ص٧٤ـ٧٥ ؛ الكتاب الأسود في القضية الأردنية، ص٦٦ـ٧٤.

([٢]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٣٧ ؛ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم: المرجع السابق، ص٣٨٢.

([٣]) علي المحافظة: العلاقات الأردنية..، ص٨٠ ؛ الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص١٠٩ـ١١٠ ؛ عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم: المرجع السابق، ص٣٨٢.

([٤]) للمزيد من المعلومات حول أساليب الضغط الذي اتبعته الحكومة للحصول على موافقة المجلس انظر: محمد

في٢٥ ذي الحجة ١٣٤٧هـ/٤ يونيو ١٩٢٩م([1])، بعد أن غيرت الحكومة عمر الناخب من ١٩ إلى ١٨ سنة([2]) بهدف الوصول إلى أعداد كافية لتشكيل مجلس تشريعي ؛ ليصدق على المعاهدة البريطانية رسمياً، التي كان يعارضها الشعب الأردني([3]). من ذلك نرى عدم تقبل الشعب الأردني للحكومة الجديدة، والمفروضة عليهم من قبل الانتداب البريطاني، ومن الملاحظ أن سياسة الانتداب البريطاني كانت تميل إلى تعيين حاكم عربي موالي لها في المناطق التي تسيطر عليها مثل: العراق وشرق الأردن ؛ حتى يستطيع أن يقمع أي ثورة ضد الانتداب، أما في فلسطين فإن الوضع مختلف بسبب تطبيق وعد بلفور، فالبريطانيون وجدوا في الصهاينة حليف أقوى من العرب.

أما المجلس التشريعي الثاني الذي تألف في ٤ شوال ١٣٤٩هـ/٢٢ فبراير ١٩٣١م على إثر استقالة رئيس الحكومة حسن خالد أبو الهدى([4])، فقد طالب المجلس الجديد الذي فاز به أقطاب المعارضة برئاسة حسين الطراونة([5]) طالب بتعديل المعاهدة البريطانية وإشراك أبناء

خريسات: المرجع السابق،ص٩٥ـ١٠١ ، وص٢٣٥ ؛ علي محافظة: الفكر السياسي، ج١، ص١٦٠ـ١٧٩.

([1]) عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٨١ ؛ مذكراتي، ص٢١٦ـ٢١٧.

([2]) كما أشترط المجلس استبعاد البدو من الانتخابات لأنهم الأكثرية فكما هو معروف ان أغلب سكان الأردن من البادية. انظر: جبران ملكون: المرجع السابق، ص٦٤.

([3]) الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص١١٥ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص٢٣٥ ؛ علي المحافظة: العلاقات الأردنية..، الحاشية رقم ١٩ ، ص٧٩ـ٨٠ ؛ جبران ملكون: المرجع السابق، ص٦٣ـ٦٤.

([4]) حسن خالد بن محمد أبو الهدى الصيادي(١٢٨٩ـ١٣٥٥هـ/١٨٧٢ـ١٩٣٦م): رئيس وزراء الأردن سابقا وأول من أطلق عليه لقب رئيس الوزراء . ذكر الشريف عبدالله بن الحسين في مذكراته أنه عهد إلى حسن خالد باشا تأليف الحكومة الأردنية في ٢٤ محرم ١٣٤٢هـ/ سبتمبر ١٩٢٣م وكان رئيس النظار. ثم عمل ناظر المالية في حكومة الركابي في ٢٩ رمضان ١٣٤٢هـ/٥ مايو ١٩٢٤م . وأسس حكومته الثانية في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٤ هـ/٢٦ يونيو ١٩٢٦م واستمرت حكومته ٥ سنوات وخلال هذه الفترة لقب برئيس الوزراء ثم استقال بسبب رفض المجلس التشريعي النظر في قانون الميزانية. انظر: عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٧٥ـ١٨١؛ نجدة صفوة: الجزيرة العربية، ج٥، ص٧٤ ؛ سليمان موسى: إمارة شرقي الأردن، ص٣٩٠ ؛ حديث خاص مع عبد الله عماد بن على الصيادي الرفاعي الحسيني جامع ومحقق انساب آل الصياد، في٢٧ شوال ١٤٢٩هـ/٢٧أكتوبر ٢٠٠٨م.

([5]) الحاج حسين الطراونة: رئيس اللجنة التنفيذية الأردنية، وهو زعيم أسرة بارزة في الكرك، شارك في المؤتمر الإسلامي العام الذي أنعقد في شعبان ١٣٥٠هـ/ديسمبر ١٩٣١م في القدس ضمن الوفد الأردني، كان رجلاً وقوراً ناضجاً يدعو إلى الوحدة والاستقلال بين البلاد العربية، وكان صاحب عزيمة وصلابة في مواقفه، ولما تداعى رجلات الأردن إلى تنظيم كيان سياسي معارض لسياسة الأمير عبد الله والإنجليز، اختاروه لصفاته المذكورة رئيساً المؤتمر الوطني الأول المنعقد في عَمان في ٨ صفر ١٣٤٧هـ/٢٥ يوليو ١٩٢٨م، ثم رئيساً للجنة التنفيذية المنبثقة عن المؤتمر، منحة الأمير عبد الله رتبة الباشوية في محاولة منه لكسب وده، ظل

البلاد الأصليين في الإدارة، ومناقشة الوجود الصهيوني الذي أخذ يتزايد في شرق الأردن، في حين شكل المجلس الثالث بداية لحلقة طويلة من المجالس التي كانت تسير وفق رغبة السلطة وتبرر أعمالها بخلاف المجلسين السابقين، ومن أهم القضايا التي صادق عليها: قانون الدفاع الذي وضعت بنوده من قبل سلطات الانتداب البريطاني، مما أثار حفيظة المعارضة على الحكومة والمجلس([1]).

وفي عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م تشكلت لجنة للإشراف على البدو، وشكلت نيابة للعشائر في أول حكومة أردنية، ثم صدر قانون يقضي بتأليف محكمة استئناف عشائرية للنظر والبت في الدعاوى التي تعرض من محاكم العشائر([2]).

تأثرت إمارة شرق الأردن منذ نشأتها بظروف وطنيه وقوميه أثرت على تشكيل وعمل المؤسسات والتجمعات والأحزاب السياسية وشكلت التجربة السياسية في عهد الإمارة، وبدأت الأحزاب تتشكل متأثرة بدعايات عشائرية وقد مرت الحياة السياسية في الأمارة بمرحلتين: الأولى مرحلة المؤتمرات فقد عقدت مؤتمرات وطنية وإدارية، والثانية مرحلة نشوء الأحزاب السياسية فقد أسفرت المرحلة الأولى عن ولادة المرحلة الثانية وهي الحياة الحزبية.

أولاً: مرحلة المؤتمرات:

ـ المؤتمر الوطني الأول والميثاق الوطني الأردني([3]):

أثارت المعاهدة الأردنية البريطانية لعام١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨م غضب وسخط المواطنين الأردنيين، وقد تداعى على إثرها زعماء ومشايخ البلاد لاجتماع عُقد في عَمان في٧ محرم ١٣٤٧ هـ/٢٥ يوليو ١٩٢٨م وحضره ١٢٠ مندوب، واستمر لمدة أربعة أيام، وتمحور الحوار داخل المؤتمر حول المعاهدة البريطانية الأردنية، وكذلك حول وعد بلفور([4])، وبعد مناقشات أصدر المؤتمر بياناً وطنياً تضمن المبادئ الأساسية للحكومة الأردنية ومن هذه المبادئ والأسس:ـ

١. إمارة شرق الأردن دولة عربية مستقلة ذات سيادة بحدودها الطبيعية .
٢. تدار بلاد شرقي الأردن بحكومة دستورية مستقلة برئاسة الأمير عبدالله.

الطراونة رئيساً للجنة التنفيذية حتى توفي في أواخر الثلاثينات.انظر :محمد عزو دروزة:مذكرات،ج١، ص٨٣٣.

([1]) علي محافظة: الفكر السياسي، ج١، ص١٨٠ـ١٨٣.

([2]) زكي المحاسني: فلسطين وسوريا والأردن ولبنان، ضمن دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، (دار اقرأ)، ص٤٧٨ وص٤٨٩.

([3])انظر نص الميثاق الوطني في الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص٩٣ـ٩٥.

([4]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٩١ ؛ علي المحافظة: الفكر السياسي، ج١، ص٧٧ـ٧٨ ؛ الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص٩٣ـ٩٥.

٣. لا تعترف بلاد شرقي الأردن بمبدأ الانتداب إلا كمساعدةٍ فنية لصالح البلاد.

٤. اعتبار وعد بلفور القائل بإنشاء وطن يهودي في فلسطين مخالفاً لعهود بريطانيا وتصرفاً مضاداً للشرائع الدينية والمدنية في العالم.

٥. ترفض إمارة شرقي الأردن تحمّل نفقات أي قوة احتلال أجنبية([1]).

شكل هذا الميثاق قاعدة وطنية للبلاد وخاصة بعد أن سلم رئيس المؤتمر حسن الطراونة نسخة عن هذا الميثاق للأمير ؛ حيث وعد بدراسته، وقد سلّم الأمير نسخة من الميثاق إلى المندوب البريطاني ؛ حيث أثار هذا الميثاق امتعاض المندوب، وقد جرى لقاء بين رئيس المؤتمر الوطني والمعتمد البريطاني، ولكن هذا اللقاء لم يسفر عن شيء، مما دفع قيادة المؤتمر إلى الاستمرار والنشاط لنشر مقررات المؤتمر ؛ مما أثار غضب الحكومة الأردنية برئاسة حسن خالد أبو الهدى الذي قام بإبعاد حسين الطراونة خارج عَمان وقطع الإكرامية الشهرية عنه، كما اتخذت إجراءات تعسفية وقمعية بحق قيادات المؤتمر واعتقلت عدد منهم وفرضت الإقامة الجبرية على البعض الآخر([2]). ومن ذلك نرى أن الشعب الأردني لم يكن في مواجه مع الاستعمار فقط، بل كان يواجه الحكومة التي فرضها الاستعمار.

وبالنظر إلى هذا لميثاق نجد أن الشعب الأردني كان على وعي كامل بالخطر الصهيوني الذي يحيق بالأمة، وأنه حاول تنبيه الأمير عبد الله لذلك إلا أنه لم يعر ذلك أي اهتمام، لكن مما يؤخذ على هذا الميثاق أنه لم يتطرق إلى الوحدة العربية([3]).

ـ المؤتمر الوطني الثاني:

شكل الميثاق الوطني الصادر عن المؤتمر الوطني الأول١٣٤٧ هـ /١٩٢٨م أرضية سياسية للحركة الوطنية الأردنية ودفع الحركة السياسية في هذه المرحلة الذي قامت به حركة المعارضة السياسية في الأردن إذ عقدت في بداية نشاطها السياسي خمسة مؤتمرات ارتكزت جميعها على الميثاق الوطني الأردني، وتقدم أعضاء المؤتمر الأردني في٢٩ شوال ١٣٤٧هـ/١٠ إبريل ١٩٢٩م بطلب لتأليف حزب سياسي تحت الموافقة على تشكيل هذا الحزب الذي عرف باسم حزب (اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني) كجمعية سياسية لمتابعة المبادئ الواردة في الميثاق الوطني([4]).

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣،ص٣٨ـ٤٠ ؛ الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص٩٣ـ٩٥ ؛ علي محافظة: الفكر السياسي، ج١، ص٧٧ـ٨٠.

([2]) علي المحافظة : الفكر السياسي..، ج١، ص٨٤ـ٨٥.

([3]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٩٢.

([4]) علي محافظة : الفكر السياسي..، ج١،ص٨٦ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٢.

وبعد قيام حزب اللجنة التنفيذية أخذ يعد العدة لعقد المؤتمر الوطني الثاني الذي بدأ أعماله في ٥ رجب ١٣٤٨هـ/٧ ديسمبر ١٩٢٩م وفي نهاية المؤتمر أصدر بياناً من شقين:

أولاً: فيما يتعلق بالقضايا الداخلية والقومية أعلن المؤتمر تأييده للأمير عبدالله ولأعقابه من بعده، وطالب بالاستقلال التام وتأليف حكومة وطنية والسعي لتحقيق الوحدة العربية، والاحتجاج على وعد بلفور، ومقاطعة اليهود.

ثانياً: فيما يتعلق بالمجال الخارجي أصدر المؤتمر عدد من القرارات لإبلاغها إلى عصبة الأمم منها([1]):

١. مقاطعة الانتخابات البرلمانية التي كانت عرضة للتدخل البريطاني
٢. استنكار سلوك ممثلي الانتداب البريطاني والمنافي لحقوق السكان ومصالحهم وضمان حرياتهم.
٣. التأكيد على رفض المعاهدة الأردنية البريطانية ؛ لمخالفتها أماني البلاد القومية وميثاقها الوطني، ووعود انجلترا الخاصة للعرب وتعهد الحلفاء بالمحافظة على حقوق الأمم الضعيفة أثناء الحرب العامة.
٤. إن المجلس التشريعي لا يمثل بلاد شرق الأردن في شيء، بل تعتبر مقرراته جزءاً من إجراءات التسلط البريطاني غير المشروع.
٥. تحميل الحكومة البريطانية مسؤولية التقهقر الواقع في البلاد من حيث التشريع والإدارة والجباية المرهقة للفلاحين، حتى أصبحت شرق الأردن في موقف محزن من التأخر الاقتصادي والاجتماعي الذي لا يمكن السكوت عليه.
٦. إرسال لجنة دولية من عصبة الأم لتحقيق في صحة الشكاوى المؤيدة بالوثائق ضد الحكومة البريطانية([2]).

أثارت قرارات المؤتمر حفيظة رئيس المجلس التنفيذي حسن خالد أبو الهدى، الذي حذر الأمير عبد الله من أعضاء المؤتمر وطالب بنفي بعض أعضائه وفي مقدمتهم رئيسهم حسين الطراونة، إلا أن الأمير رفض ذلك، وطلب منه تركهم وشأنهم([3]). إلا أن حكومة أبو الهدى ردت على المؤتمر بقرارات تعسفية إذ أدخلت عدداً من المستشارين البريطانيين في الحكومة، وخضعت لتوجيهاتهم، وأسندت الإدارات المهمة في الدولة لموظفين معارين من فلسطين همهم

([1]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٣ــ١٠٤.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية..، ج٣، ص٤٢ــ٤٣ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٤.

([3]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٤ــ١٠٥.

تنفيذ رغبات المندوب السامي البريطاني، وبذلك أصبحت رئاسة الحكومة اسماً من غير مسمى، عندئذ عمت الفوضى الإدارية، وغدا المجلس التنفيذي أداة طيعة في يد المعتمد البريطاني([1]). كان هذا الرد الشنيع من قبل الحكومة على قرارات المؤتمر يبين موقف الحكومة والأمير وسلطات الانتداب البريطاني، المؤتمر الوطني الثاني، كما أنه يبين الشقاق الواضح بين الشعب من جهة والحكومة وسلطة الانتداب من جهة أخرى، فالانتداب البريطاني على شرق الأردن أحدث شرخاً عميق الهوة في الحالة السياسية مابين الوطنين الذين يمثلون الشعب، والحكومة التي تمثل الانتداب.

ــ المؤتمر الوطني الثالث:

عقد هذا المؤتمر في أربد في٢٦ ذي الحجة ١٣٤٨هـ/٢٥ مايو ١٩٣٠م، وطالب فيه المؤتمرين بتحدي الانتداب القائم عليهم وعدم مشروعيته، وأجمعوا على أهمية الوحدة العربية، وأن فلسطين وشرق الأردن جزآن من بلاد الشام، وأن البلاد العربية وحدة لا تتجزأ برغم المطامع الاستعمارية([2]).

وأصدر هذا المؤتمر بياناً تضمن مجموعة من المطالب:ــ

١. الدعوة إلى تشكيل حكومة دستورية مسؤولة أمام مجلس نيابي.
٢. عدم الاعتراف بالمجلس التشريعي الذي ألّفته الحكومة.
٣. عدم الاعتراف بأية حكومة غير نيابية.
٤. الدعوة لعقد مؤتمر رابع إذا لم تنفذ هذه القرارات([3]).

وقد شهد المؤتمر الثالث أول انقسام بين أعضاء حزب اللجنة التنفيذية، لأن بعض أعضاء الحزب رفضوا التوقيع على قرارات المؤتمر، وعلى إثر هذا الانقسام جرى التفكير بإنشاء حزب جديد ينافس حزب اللجنة التنفيذية الذي أصبح يشكل حزب المعارضة بلا منازع، فتقدم رفيفان المجالي وآخرون إلى الحكومة ؛ طالبين تأسيس الحزب الحر المعتدل في٢٣ صفر ١٣٤٩هـ/٢٠ يوليو ١٩٣٠م، وفي الوقت نفسه قام الأمير عبدالله بزيارة إلى معظم أعضاء اللجنة التنفيذية وحاول إجراء صلح بين أعضاء اللجنة التنفيذية والحزب الحر المعتدل الموالي للحكومة، وقد تكللت هذه المحاولة بالنجاح([4]). يبدو أن الأمير والحكومة كانت تعمل كل ما في وسعها لكسب ود المعارضة واستمالتهم في صفها ؛ حتى لا تظهر بمظهر المؤيدة للانتداب ضد

([1]) علي محافظة : الفكر السياسي، ج١، ص٩٠ــ٩١.

([2]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٧.

([3]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٤٣ــ٤٤ ؛ علي محافظة: الفكر السياسي، ج١، ص٩٠ــ٩٢.

([4]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٨ــ١٠٩.

الوطنيين، خاصة وأن الأمير عبدالله لم يكن من شرق الأردن وأن الحكومة البريطانية أتت به من الحجاز، حتى يعمل على حماية مصالحها في المنطقة.

ــ المؤتمر الوطني الرابع:

بعد المصالحة التي تمت بين الحزب الحر وحزب اللجنة الوطنية يبدو أن روح المقاومة الشعبية في شرق الأردن قد خفت حدتها بعض الشيء، فلم يظهر أي نشاط للجنة التنفيذية خلال عام١٣٥٠هـ/١٩٣١م([1])، فمن الملاحظ أن اجتماعات اللجنة كانت سنوية. وكان نشاطها ظاهر للعيان، لكن بيدوا أن الانقسام الذي حصل في المؤتمر الثالث، أثر على سير الحركة الوطنية في شرق الأردن.

عقد المؤتمر الوطني الرابع في٧ ذو القعدة ١٣٥٠هـ/١٥ مارس ١٩٣٢م بعَمان في محاولة للم شمل المعارضة وتوحيد صفوفها من جديد. وأصدر المؤتمر بياناً تضمن القرارات التالية:

١. عدم الاعتراف بالمعاهدة البريطانية.
٢. المطالبة بإنشاء حكومة دستورية.
٣. تخفيض الضرائب إلى الحد الذي يتفق مع حالة البلاد.
٤. مقاومة كل سعي يراد به إدخال الصهيونية إلى شرق الأردن، ومشاطرة البلاد العربية أمانيها([2]).

لكن قرارات هذا المؤتمر لم تصل إلى قوة المؤتمرات السابقة ؛ بسبب ضعف موقف اللجنة التنفيذية إثر انسحاب عدد كبير من أعضائها([3])؛ لوجود انقسام بين القيادة الوطنية والعشائرية، انعكست آثاره السلبية على العمل السياسي في البلاد، ومما يؤكد ضعف موقف اللجنة التنفيذية أن حسين الطراونة هدد الحكومة إذا لم تستجب لقرارات المؤتمر الرابع فسيدعوا إلى عصيان مدني، إلا أنه لم يحدث شيئ من ذلك([4]).

([1]) علي محافظة: الفكر السياسي، ج١،ص ٩٨ــ٩٩ ؛ محمد خريسات : المرجع السابق، ص١١٠.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٤٤ ؛ خيرية قاسمية: القضية الفلسطينة والقادة الهاشميون[الحسين، عبدالله، فيصل، غازي، عبد الإله](١٩١٥ــ١٩٥١م)، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ص٧٣ــ٧٧.

([3]) انسحب بعض أعضاء المؤتمر بسبب الخلاف على وحدة البلاد العربية، وعدم الأخذ برأي الحكومة المؤيدة للانتداب والقائمة على تجزئة البلاد، فقد كان بعض أعضاء المؤتمر يطالبون بأن يكون المؤتمر الوطني يمثل بلاد المشرق العربي بأكمله، وإن لم يكن كذلك فلا داعي لاجتماعه. انظر: محمد خريسات: المرجع السابق، ص١١١.

([4]) علي محافظة : الفكر السياسي، ج١، ص٩٢ــ٩٣ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص١١٢.

ــ المؤتمر الوطني الخامس:

عقد في عَمان في ١١ صفر ١٣٥٢هـ/٥ يونيو ١٩٣٣م بسبب ما شهده شرق الأردن من تردد اليهود عليه، مما أدى إلى قيام مظاهرات عارمة في مختلف مناطق الأردن، وقد أصدرت الحكومة بلاغاً يحظر على الموظفين العمل في القضايا السياسية، وأن من يخالف هذا البلاغ سوف يفصل من عمله، لذلك جددت اللجنة التنفيذية من نشاطها وقامت بعقد المؤتمر الوطني الخامس([١]). وفي ما يلي بعض قراراتها:

١. تأليف حكومة وطنية ذات ثقة تقوم بمفاوضات مع الحكومة البريطانية ؛ لتعديل معاهدة عام١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨م.
٢. استنكار ما تقوم به الصهيونية من دعاية للانتقاص من حقوق شرق الأردن، ووضع تشريع قاطع لمنع بيع الأراضي لليهود، ومنع أي يهودي من الإقامة الدائمة في البلاد.
٣. إلغاء القوانين الاستثنائية كقوانين النفي والإبعاد لمخالفتها لروح التشريع.
٤. جباية الضرائب من الشركات الأجنبية صاحبة الامتياز كما تجبى من الأهالي.
٥. تشجيع رؤوس الأموال العربية بالقيام بمشروعات عمرانية واقتصادية لمنع الامتيازات الأجنبية.
٦. اعتبار خط حديد الحجاز([٢]) وقفاً إسلامياً.
٧. توحيد الجهود العربية لدرء الأخطار الاستعمارية والصهيونية، والسعي لتحقيق اتحاد عربي لا مركزي بالاتفاق بين الحكومات العربية([٣]).

ونتيجة لهذه المؤتمرات وظهور المعارضة بشكل قوي تم تعديل معاهدة عام١٣٤٦ هـ/١٩٢٨م في ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م التي حصلت إمارة شرق الأردن بموجبها على قدر بسيط جداً من مظاهر السيادة، أما في الحقيقة فقد كان التدخل البريطاني قائماً في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الإمارة، وبخاصة في أمور الجيش التي كانت له السيطرة الكاملة عليه، مما جعل

([١]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص١١٣ــ١١٤.

([٢]) خط حديد الحجاز: وهو الخط الذي بناه السلطان عبد الحميد الثاني وتم افتتاحه رسميا في ٢٥ شعبان ١٣٢٦هـ/٢٢ سبتمبر ١٩٠٨م وقام قادة ثورة الشريف حسين في الحجاز بتدمير أجزاء منه عام١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، بمساعدة الجاسوس البريطاني لورنس. انظر: صالح لمعي مصطفى: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، (دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨١م)، ص٢٥ ؛ عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١١٦ ؛ مصطفى طلاس: المرجع السابق، ص١٩١.

([٣]) أمين سعيد: الثورة العربية، ج٣، ص٤٤ــ٤٥.

البلاد عرضــــــــة للهزات حتى عام١٣٦٥هــ/١٩٤٦م، حين تم إعلان قيام المملكة الأردنيــة الهاشمية، واعتراف بريطانيا باستقلال البلاد([1]).

شكلت هذه المؤتمرات أرضية سياسية مناسبة ؛ لتشكيل مرحلة الأحــزاب السياســية فــي شرق الأردن، وقد كانت تلك المؤتمرات وسيلة لإبراز رأي المعارضة الأردنيــة فــي شــؤون الدولة، كما ساهمت في فضح المخططات الصهيونية بتوعية المواطنين حول أهــداف الحركــة الصهيونية ومخططاتها.

ثانياً: مرحلة الأحزاب السياسية:

نشأت التنظيمات والأحزاب السياسية مع بداية الإمارة وقد عكست الأحــزاب اهتمامــات الشعب الأردني وتناولت قضاياه المختلفة، وعبــرت عــن حيويــة الشــعب وتطلعــه للحيــاة الديمقراطية، ولكنها لم تتبن عقائد سياسية محددة بسبب غلبة الطابع القبلي عليها ووجود التنافس بين العشائر، فقد كانت الأحزاب تتشكل في عضويتها من الوجهاء والأعيــان وذوي المراكــز، وبقيت تعبر عن مواقف مبدئية إزاء القضايا الأساسية للناس مثل الاستقلال والحريات العامة.

ومن أهم سمات الأحزاب السياسية التي تشكلت فــي شــرقي الأردن فــي الفتــرة مــن ١٣٤٥ــ١٣٥٨هــ/١٩٢٧-١٩٣٩م أنها تُشكل انعكاسا للبنية الاجتماعية الســائدة ذات الطــابع العشائري وأنها لم تكن تعمر طويلا ؛ حيث كان أطولها عمرا هو حزب اللجنة التنفيذية المنبثــق عن المؤتمر الوطني الثاني(١٣٤٧ــ١٣هــ/١٩٢٩ــ١٩٣٦م)، وكان لتعددها وقصر مدتها وعدم استنادها إلى حركة اجتماعية محددة المطالب، وعدم وضعها لبرنامج اقتصادي وسياسي واضحة المعالم، أفقدها أهميتها ؛ حيث أنها بقيت تجمعات شخصية محددة مما جعلها عرضــة للانهيــار السريع، وظل الضامن الوحيد لاستمرارها يتوقف على شكل العلاقة بين أفرادهــا. وفيمــا يلــي نورد نماذج لأهم الأحزاب السياسية في شرق الأردن.

ومن أهم الأحزاب السياسية في شرق الأردن:

١.حزب الاستقلال العربي(١٣٣٧ــ١٣٤٢هــ/١٩١٩ــ١٩٢٤م):

أول حزب سياسي في الأردن تأسس عام١٣٣٧هــ/١٩١٩م وهذا الحزب يشــكل امتــداداً للجمعية العربية الفتاة التي أنشأها العرب أيام الحكم العثماني، وهذا الحزب من الأحزاب القومية العربية التي شاركت الشريف حسين في ثورته على الدولة العثمانية، لذلك التحق أعضاؤه بخدمة الأمير عبد الله عندما قدم إلى الأردن، ومن أبرز أعضائه عوني عبدالهادي([2]) ورشيد طليــع([1])،

([1]) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم: المرجع السابق، ص٣٨٣.

([2]) عوني عبدالهادي(١٣٠٥ــ١٣٩٠هــ/١٨٨٨ــ١٩٧٠م): من القومين العرب، درس الحقوق في باريس، وكــان

وكانت العضوية مفتوحة أمام أبناء الأمة العربية، فقد كان الحزب عبارة عن خليط من عرب الشام، الذين فكروا في جعل الأردن قاعدة لتحرير سوريا من الاستعمار الفرنسي، لكن هذه الفكرة لم ترق للحكومة البريطانية التي هاجمت الحزب، وشتت أعضاءه، وتمت تصفية الحزب سنة١٣٤٢هـ/١٩٢٤م على يد رئيس الوزراء علي رضا الركابي، الذي تعاون مع سلطات الانتداب، وحكم البلاد بالشدة والتسلط([2]).

٢. حزب العهد العربي:

تعود جذور هذا الحزب إلى عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م تشكل في دمشق وكانت أبرز شعاراته استقلال جميع البلاد العربية تحت إدارة الشريف حسين بن علي وأنجاله بعده. نقل هذا الحزب مقره من دمشق الى عَمّان سنة١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م([3]).

كانت الحكومة البريطانية تدعم هذا الحزب لتضرب به حزب الشعب، إلا أن هذا الدعم لم يستقطب أهالي شرق الأردن، وكان رئيس الحكومة رضا الركابي، يشجع على إيجاد الأحزاب المتناحرة، لتضرب بعضها بعض، لذلك لم يكن لهذا الحزب أي شأن يذكر في شرق الأردن([4]). ولم تذكر المصادر الناريخية تاريخ نهاية هذا الحزب، ويرجح أنه أنتهى في نفس السنة التي تأسس فيها.

٣. حزب الشعب الأردني(١٣٤٥ــ١٣٤٨هـ/١٩٢٧ــ١٩٣٠م):

من مؤسسي جمعية العربية الفتاة، ومن أعضاء الوفد العربي المشارك في مؤتمر الصلح عام ١٩١٩م، عمل محامياً في القدس (١٣٤٤ــ١٣٦٧هـ/١٩٢٥ــ١٩٤٨م)، كما عمل على خدمة الأمير عبد الله بين الحسين عندما قدم إلى شرق الأردن، ثم أصبح سفيراً للأردن في مصر (١٣٧٠ــ١٣٧٤هـ/ ١٩٥١ـــ١٩٥٥م)، ثم تولى وزارة الخارجية الأردنية عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، ثم أصبح رئيساً للجنة القانونية في جامعة الدلو العربي. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٥، ص٩٨.

([1]) رشيد طليع(١٢٩٤ــ١٣٤٥هـ/١٨٧٧ــ١٩٢٦م): درزي لبناني، تنقل في عدد من الوظائف الإدارية في بلاد الشام أيام الدولة العثمانية، ولما استولى الفرنسيون على سوريا حكم عليه بالإعدام غيابياً، دعاه الأمير عبدالله بن الحسين إلى شرق الأردن، وأصبح من مؤسسي الحكومة ورئيسها سنة١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، وعندما زاد طمع المستعمر بالبريطاني قاومه، لكن الشريف عبدالله خذله فاستقال، ثم انتقل إلى مصر، وعندما نشبت الثورة في سورية سنة١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، انضم إليها وهو مريض فأهمل نفسه وتوفي. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٤ ؛ سعد أبو دية: قراءة في أوراق (علي خلقي الشرايري)، (مجلة دراسات، العدد ١٠، المجلد ١٤، صفر ١٤٠٨هـ/ أكتوبر ١٩٨٧م)، ص٢٩٣ ؛ أدهم الجندي: المرجع السابق ص٢٤٠.

([2]) علي محافظة: الفكر السياسي، ج١، ص٦٨ــ٧٠ وص٧٥.

([3]) علي محافظة : الفكر السياسي، ج١،ص٧٣ــ٧٤ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص٨٥.

([4]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٨٥.

يعتبر المؤرخون هذا الحزب أول حزب سياسي أردني. فبعد أن تسلم الحكم حسن خالد أبو الهدى في١٢ ذو الحجة ١٣٤٤هـ/٢٣ يونيو ١٩٢٦م، استسلم استسلاماً كاملاً لسلطات الانتداب، فشعر المتنورون من أهل الأردن بفراغ سياسي كبير، خاصة لأنهم ظلوا مبعدين عن المشاركة في إدارة بلادهم، لذلك قاموا في ٢١ رمضان ١٣٤٥هـ/٢٥ مارس ١٩٢٧م بطلب ترخيصه من الحكومة، بتأليف حزب الشعب الأردني، الذي كان يهدف إلى الحفاظ على استقلال البلاد، وتحسين الأوضاع الاقتصادية للأهليين، وحفظ الحريات الشخصية، ونشر مبادئ الإخاء والمساواة([١]) التي من الواضح أنها فقدت بعد خروج الدولة العثمانية من بلاد الشام.

كان للحزب دور فاعل في مقاومة السياسة التي انتهجها حسن أبو الهدى في موالاتها واستسلامها لسلطات الانتداب، كما عارض بشدة المعاهدة الأردنية البريطانية لسنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، واندمج هذا الحزب عام ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م مع اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني([٢])، وهذا يعني أنه كان يشكل حزب معارض للحكومة.

٤. الحزب الحر المعتدل.

تأسس هذا الحزب عام ٢٨ محرم ١٣٤٩هـ/٢٤ يونيو ١٩٣٠م وكان من الأحزاب المقربة إلى الحكومة، لكن مع إعلان هذا الحزب ولاءه للحكومة لم يعمر طويلاً، ولم يكن له تأثير يذكر في الحياة السياسية الأردنية([٣])، لأنه وكما هو معروف فان تأيد الحكومة يعني تأيد الانتداب البريطاني وهذا ما لم يقبل به الشعب الأردني، وأغلب الظن أنه انتهى في١٣٥٠هـ/ منتصف عام ١٩٣١م.

٥. حزب العمال الأردني:

تأسس في جمادى الأولى ١٣٥٠هـ/سبتمبر ١٩٣١م، ويهدف إلى حماية حقوق العمال والفلاحين في البلاد، وليس هناك من الوثائق التي تدل على موافقة الحكومة على هذا الحزب، الذي لم يترك أي أثر سياسي في البلاد([٤])، ومن الواضح من اسم هذا الحزب أنه يغلب عليه الأفكار الاشتراكية.

٦. حزب التضامن الأردني.

تأسس في٢٧ ذي القعدة ١٣٥١هـ/٢٤ مارس ١٩٣٣م وتكون من شيوخ القبائل وأعيان المدن، لأنهم رأوا ضرورة تنظيم صفوفهم في معزل عن اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني، ومن أجل مواجهة الأزمة الاقتصادية في البلاد والتي أوجدها الانتداب البريطاني. ومن أهم أهداف

([١]) علي محافظة : الفكر السياسي، ج١، ص٧٥ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص٨٨.

([٢]) علي محافظة : الفكر السياسي، ج١،ص٧٥ـ٧٦.

([٣]) علي محافظة : الفكر السياسي، ج١،ص٩٣ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٢٢ـ١٢٣.

([٤]) علي محافظة : الفكر السياسي، ج١،ص٩٥ـ٩٦.

هذا الحزب الدفاع عن كيان أبناء شرق الأردن، وإيجاد الألفة الفعلية والتضامن الحقيقي بينهم، واتسم هذا الحزب بالطابع القطري الضيق، فقد استبعد في عضويته من استوطن الأردن من السوريين والفلسطينيين واللبنانيين وغيرهم، لذلك لم يعمر هذا لحزب طويلاً وانهار بعد مدة قصيرة من تأسيسه([1]). ويظهر أنه انتهى في أواخر السنة التي تأسس فيها.

نلاحظ من خلال هذه الأحزاب السياسية التي سبق ذكرها أن أعضاءها كانوا من الأعيان، ولم يكن لها امتداد داخل الأوساط الشعبية، هذا بالإضافة إلى أنها لم يكن لها فكرة محددة وواضحة المعالم.

كما أننا بمقارنة أثر الانتداب البريطاني على الحالة السياسة في فلسطين وشرق الأردن فإننا نجد الفرق شاسع فالمستعمر البريطاني في فلسطين لم يكن يرغب بأن تقوم حكومة وطنية لا من فلسطين ولا من خارجها تتولى شؤون البلاد بسبب الوعد المشؤوم الذي قطعته لليهود، أما في شرق الأردن فقد عينت الأمير عبد الله بن الحسين وهو من الموالين لها ؛ حتى يتولى عنهم تنظيم المنطقة وفرض السياسة البريطانية بالقوة، ويكون بذلك هو المسؤول أما الحكومة البريطانية.

المبحث الثاني : الكفاح الوطني في بلاد الشام ضد الاستعمار البريطاني منذ سنة

([1]) المرجع السابق ، ج١،ص١٠٦.

١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.

عند نهاية الحرب العالمية الأولى أطلق الرئيس الأمريكي ولسونWilson([1]) مبدأ حق تقرير المصير للشعوب، وهو الذي تمسكت به جميع الولايات العربية بعد خروج الدولة العثمانية من بلاد الشام، لكن الدول الكبرى التي كانت تسيطر على عصبة الأمم وخاصة (بريطانيا وفرنسا) لم تسمح بتطبيق هذا المبدأ، لذلك كان من الطبيعي أن تقوم هذه الدويلات بمقاومة الاستعمار الأجنبي ؛ حتى تستطيع أن تنتزع حقها في تقرير مصيرها بالقوة بعد أن فشلت عصبة الأمم في تحقيقه العدالة، بل إنها أيدت الدول الاستعمارية وساعدتها على فرض الانتداب على هذه الشعوب، وفي هذا دليل مادي على ما تلقاه هذه الشعوب من ظلم دولي، أدى إلى ظهور المقاومة والكفاح المسلح ضد الدول الغربية المستعمرة ؛ حتى يتخلصوا من الظلم والطغيان([2]) الذي فرضته عليهم عصبة الأمم في ما أطلقت عليه اسم صك الانتداب.

أ ــ الكفاح الوطني في فلسطين ضد الاستعمار البريطاني:

لقد أثارت السياسة البريطانية التي عملت على تسهيل إقامة وطن قومي لليهود مخاوف الشعب العربي الفلسطيني، خاصة وهم يرون الأرقام المتصاعدة للمهاجرين اليهود إلى فلسطين طبقا لسياسة الانتداب، لأن هذه الهجرة ستجعل من العرب الفلسطينيين أقلية في بلادهم خلال فترة وجيزة، لذلك قام الشعب الفلسطيني بعدد من الثورات ضد سياسة الهجرة وامتلاك الأراضي، وكان من أبرز هذه الثورات، ثورة البراق([3]) عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، وانتفاضة

([1]) الرئيس الأمريكي توماس ولسون Thomas Wilson (١٢٧٢ ــ١٣٤٣هـ/١٨٥٦ــ١٩٢٤م): الرئيس ٢٨ للولايات المتحدة الأمريكية، درس القانون بجامعة برنستون، وعمل بالمحاماة، درس العلوم السياسية في جامعة جون هوبكنز وحصل على درجة الدكتوراه، اشتغل بالتدريس في جامعة برنستون، ثم عين مديراً لها، أنتخب رئيساً للولايات الأمريكية عام١٣٣١هـ/١٩١٢م ممثلاً للحزب الديموقراطي، أعيد انتخابه في١٣٣٥هـ/١٩١٦م، وأعلن دخوله الحرب إلى جانب الحلفاء عام١٣٣٦هـ/١٩١٧م، نجح في انشاء منظمة عصبة الأمم، إلا أن مجلس الشيوخ الأمريكي رفض إقرار معاهدة الصلح، وامتنع عن الاشتراك في عضوية عصبة الأمم، في ذي الحجة ١٣٣٧ هـ/سبتمبر ١٩١٩م أصيب بالشلل وعاش في عزله إلى حين وفاته. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٤٠٩.

([2]) Roberto Mesa: Op. Cit , pp 76-79.

([3]) ثورة البراق أطلق عليها هذا الاسم نسبة لحائط البراق المقدس الذي يحيط بالمسجد الأقصى من الجهة الغربية، والبراق هو الدابة التي ركبها الرسولﷺ في ليلة الإسراء والمعراج والذي ربطه عند ذلك الحائط. ويدعي اليهود أن هذا الحائط حائطاً يهودياً ويشكل السور الخارجي لهيكل سليمان(عليه السلام)، ويطلق اليهود على هذا الحائط اسم حائط المبكى لأن الصلوات اليهودية حوله تأخذ شكل النواح والعويل، وقد حاول اليهود عبثاً الحصول على هذا الحائط بالشراء والرشوة منذ القرن التاسع عشر، وعندما دخل البريطانيون إلى فلسطين عرض ستورز على أعيان= = المسلمين ٨٠ ألف من الجنيهات لكنهم رفضوا، عندما يئس الصهاينة من شراء الحائط من

عام١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، والثورة الفلسطينية الكبرى عام١٣٥٥هـ/١٩٣٦م التي امتدت إلى ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م؛ حيث كانت القدس مركز هذه الثورات أو نقطة الانطلاق وهو ما سوف نتحدث عنه في هذا المبحث.

وعلى أية حال فقد تصدى الشعب العربي الفلسطيني لكافة مخططات ومشاريع الاستعمار الأجنبي في فلسطين، وحمل السلاح دفاعا عن الأرض والحقوق والمقدسات، ورفع راية العروبة والإسلام واهبا حياته في سبيل عزتها ومجدها، وقدم الشهداء تلو الشهداء على درب النصر والتحرير. ولقد فجر الفلسطينيون انتفاضتهم الأولى على أرض فلسطين عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م في مدينة القدس الخالدة العاصمة الأبدية لفلسطين، وتلتها انتفاضة مدينة يافا عروس البحر عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م، أكد الفلسطينيون خلالها رفضهم للغزو الاستعماري الأجنبي ولوعد بلفور وللوجود الصهيوني، مطالبين بالاستقلال الوطني ومتمسكين بعروبة فلسطين من النهر إلى البحر وهذا ما تحدثنا عنه في التمهيد، أما في هذا المبحث فإننا سوف نتحدث عن أهم الثورات التي حدثت بعد ذلك؛احتجاجاً على سياسة الانتداب والوجود الصهيوني في المنطقة:

١ـ **ثورة البراق ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م وتداعياتها:** تعد ثورة البراق التي قامت في ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م من أهم الثورات الفلسطينية ضد بريطانيا المعتدية التي واصلت حقدها على العرب، وتمادت في تقديم العون والدعم للصهاينة، حتى بلغ الاستهتار والحقد بالصهاينة إلى حد القيام بتنظيم مظاهرات في ذلك الوقت، رفعوا خلالها شعارات يطالبون فيها باعتبار حائط البراق المقدس حائطا يهوديا وقاموا برفع العلم الصهيوني عليه ثم قاموا باختراق الأحياء العربية وهم يهتفون "الحائط حائطنا" وكان ذلك في٩ ربيع الأول ١٣٤٨هـ/١٥ أغسطس١٩٢٩م، الأمر الذي جعل الشعب الفلسطيني يهب في انتفاضة كبيرة؛ حيث خرجوا في اليوم التالي بعد صلاة الجمعة الموافق١٠ ربيع الأول ١٣٤٨هـ/ ١٦ أغسطس ١٩٢٩م من المسجد الأقصى في مظاهرة عظيمة نحو حائط البراق، وحدثت صدامات متكررة لمدة أسبوعين أوقعت عشرات الشهداء من العرب وعشرات القتلى من اليهود، ثم انتشرت المظاهرات والمصادمات في سائر أنحاء فلسطين(١)، وفي يوم الجمعة الموافق ١٧ ربيع الأول ١٣٤٨هـ/٢٣ أغسطس ١٩٢٩م كانت

المسلمين لجأو إلى العنف ومحاولة الاستيلاء عليه بالقوة سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م وذلك بجذب انتباه يهود العالم إلى المشروع الصهيوني.انظر: علي أبو الحسن: المرجع السابق، الحاشية رقم١، ص٣٨٦ ؛ عبد الفتاح حسن أبو علية ، رفيق شاكر النتشة: المرجع السابق، ص٤٥ـ٤٦ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٤٣٧ ؛ محمد صلاح سالم: القدس الحق..التاريخ.. والمستقبل، الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (جامعة عين شمس، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م)، ص٧٠.

(١) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم ١٦١، ص٣٢٥ ؛ عبد الحميد السائح: مذكرات الشيخ عبد الحميد السائح، فلسطين لا صلاة تحت الحراب، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م)، ص٥٢

فلسطين تغلي كالبركان؛حيث قام العرب بالهجوم على الأحياء اليهودية في الخليل ونابلس وبيسان وصفد ويافا وغيرها. وقتل في القدس في ذلك اليوم ٢٨ يهودي وجرح ١٣ من العرب، وفي الخليل قتل أكثر من ٦٠ يهودي، وجرح أكثر من ٥٠ شخصاً، أما في صفد وقع ٤٥ يهودياً ما بين قتيل وجريح، وهجم العرب على المستعمرات اليهودية ودمروا ست منها([1]).

وعندئذ قامت القوات البريطانية للدفاع عن اليهود فقد استخدمت أقصى درجات القمع من طائرات ومدرعات وقوات مشاة، وقدموا للمحاكمة ما يزيد عن ألف شخص تسعة أعشارهم من العرب، وصدر الحكم بإعدام ٢٦ شخصاً، بينهم يهودي واحد([2]) والباقي من العرب، وفي يوم الجمعة ٢٤ ربيع الأول ١٣٤٨هـ/ ٣٠ أغسطس ١٩٢٩م توقفت أعمال العنف،وعندها تبين أن عدد الذين قتلوا من اليهود ١٣٣ شخصًا، والجرحى حوالي ٣٣٩ شخصاً، وعدد القتلى من العرب ١٢٠ والجرحى حوالي ٢٣٢ شخص، وظهر من التحقيق أن أكثر المصابين من العرب أوقعهم الجنود البريطانيون واليهود، كما دمرت القوات البريطانية بعض القرى الفلسطينية، وقدمت للمحاكمة أكثر من ١٠٠٠ شخص، بينهم ٩٠٠ عربي، وأصدرت أحكاماً بالإعدام على ٢٦ عربي، وشرطي واحد يهودي قام بقتل أسرة فلسطينية من سبعة أشخاص([3]).

وللأسف فقد أذاع المندوب السامى البريطاني السير جون روبرت تشانسلور Sir John Chancellor بلاغاً يصف فيه ثورة البراق جاء فيه: "...وقد راعني ما علمت من الأعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الأشرار سفاكي الدماء، وعديمي الرأفة، وأعمال

؛ عبدالفتاح حسن أبو علية ، رفيق شاكر النتشة: المرجع السابق، ص٤٦ــ٤٧.

([1]) الحاج أمين الحسيني: أسباب كارثة فلسطين أسرار مجهولة ووثائق خطيرة، تقديم: هشام عواض، (دار الفضيلة، القاهرة)، الحاشية رقم ١، ص٥٦ ؛ عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٢٥ ؛ علي أبو الحسن: المرجع السابق، ص٣٨٧ ؛ رفيق شاكر النتشة: الإسلام وفلسطين"محاضرة"، (منشورات فلسطين المحتلة، مطابع الكرمل الحديثة، بيروت، ط٣، ١٩٨١م)، ص١٠٢ــ١٠٣.

([2]) نفذ حكم الإعدام في ثلاثة من العرب في يوم٢١ محرم ١٣٤٩هـ/١٧ يونيو ١٩٣٠م في سجن عكا وهم: فؤاد حجازي، عطا الوير، ومحمد خليل جمجوم. أما اليهود فقد حكم على شرطي يهودي بالإعدام لقتله إمام مسجد في يافا وجميع أفراد عائلته الستة، وتمثيله بجثثهم، ثم خفض الحكم عليه إلى عدد سنوات قضى قليلاً منها في السجن ثم أفرج عنه. أما العرب الثلاثة والعشرون الباقون فقد خفف عنهم الحكم من الإعدام إلى المؤيد. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم ١٦٤، ص٣٢٧ــ٣٢٨ ؛ عبدالحميد السائح: المرجع السابق، ص٢٦ ؛ رفيق النتشة: الإسلام وفلسطين، ص١٠٣ــ١٠٤ ؛ عيسى الماضي: كيف ضاعت فلسطين دراسة للمؤثرات الاقتصادية والثقافية والسياسية في ضياع فلسطين، (مكتبة المُعلا، الكويت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ص١٣٥.

([3]) رفيق النتشة: الإسلام وفلسطين، ص١٠٣ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب..،ج١، ص٤٤٠ ؛ إلياس الشوفاني: المرجع السابق، ص٤٣٥ ؛ שמאל דותן : המאבק על ארץ – ישראל ، הוצאת משרד הבטחון ، עמ' 32-34.

القتل الوحشية التي ارتكبت في أفراد من الشعب اليهودي خلو من وسائل الدفاع بقطع النظر عن عمرهم وعما إذا كانوا ذكور أو إناث..إن هذه الجرائم قد أنزلت علـــى فاعلهـــا لعنـــات جميـــع الشعوب المتمدنة في أنحاء العالم قاطبة.."([١]).

أثار هذا البلاغ الشعب الفلسطيني قاطبة وامتد الغضب الفلسطيني حتى وصل إلى جميـــع البلاد الإسلامية، وبدأ المسلمون بتهريب الأسلحة إلى فلسطين([٢])، واستعد المتطوعون للانضمام إلى أية حركة فدائية استشهادية([٣])، كما أرسل الملك عبد العزيز آل سعود إلـــى الملـــك جـــورج الخامس George V ملك بريطانيا خطاباً يطلب فيه كف العدوان اليهودي عن المسلمين فـــي فلسطين، وأن يتخذ التدابير اللازمة لذلك، كما أرسل الملك عبد العزيز إلى الحاج أمين الحســـيني رسالة تعزية ومواساة للأحداث التي وقعت في فلسطين، وحاول طمأنة الفلسطينيين بأملـــه مـــن الحكومة البريطانية أن توقف العدوان على فلسطين([٤]).

دفع هذا الهيجان الشعبي الفلسطيني والعربي والإسلامي ببريطانيا إلى تشكيل لجنة تحقيـــق للنظر في المطالب الفلسطينية أطلق عليها " لجنة شو " برئاسة القاضـــي والتـــر شـــو Walter Shaw([٥])، وقد بدأت اللجنة عملها في جمادى الأولى ١٣٤٨هـ/ أواخر أكتوبر ١٩٢٩م؛حيث عقدت ٤٧ جلسة علنية و ١١ جلسة ســـرية، واستمعت إلى ٦١٠ شاهد من مـــوظفين وعـــرب ويهود، ثم قدمت تقريرها إلى وزارة المستعمرات([٦]) وأهم ما جاء فيه:

أن السبب الرئيسي لهذه الثورة هو شعور العرب بالعداء والبغضاء نحو اليهود، وخـــوفهم على مستقبلهم السياسي والاقتصادي، بسبب زيادة الهجرة اليهودية، مما جعلهـــم يتحـــدون فـــي مقاومة سياسة الانتداب في إقامة الوطن القومي اليهودي، ومطالبتهم بالحكم الـــذاتي، وتخفـــيض

([١]) جريدة الأهرام : العدد ١٦٠٧٨ ، ٢ ربيع الأخر ١٣٤٨هـ/٥ سبتمبر ١٩٢٩م، ص١

([٢]) للمزيد من المعلومات حول ثورة البراق انظر: جريدة الأهرام الأعداد: ١٦٠٧٠ ، ٢٣ ربيع الأول ١٣٤٨هــــ/ ٢٨ أغسطس ١٩٢٩م ، ص١ــ ٣ ؛ والعدد ١٦٠٧٨ ، ٢ ربيع الأخر ١٣٤٨هـ/٥ سبتمبر ١٩٢٩م، ص١ــ٣.

([٣]) الحاج أمين الحسيني:المرجع السابق، الحاشية رقم ١، ص٥٦ ؛ Roberto Mesa: Op. Cit, p.91.

([٤]) وثائق المملكة العربية السعودية التاريخية القضية الفلسطينية ١٣٤٨ــ١٣٧٣هـ/ ١٩٢٩ــ١٩٥٣م، (دارة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٤٢٢هـ)، الوثيقة ٢٢ــ ٢٣، ص٢٨ــ٢٩ ؛ عبد الفتاح حسن أبو علية ، رفيق شاكر النتشة : المرجع السابق، ص٤٨ــ٥٢.

([٥]) والتر شوWalter Shaw: قاضي بريطاني كان قاضي قضاة ملقا، جاء إلى فلسطين على رأس لجنة برلمانيـــة تمثل الأحزاب البريطانية الثلاثة وهي:المحافظين والعمال والأحرار. انظر: جريدة الأهرام : العدد ١٦٠٧٨ ، ٢ ربيع الأخر ١٣٤٨هـ/٥ سبتمبر ١٩٢٩م، ص٢ ؛ بيان الحوت: القيـــادات والمؤسســـات السياســـية،ص٢٢٦ ؛ عبدالفتاح حسن أبو علية ، رفيق شاكر النتشة: المرجع السابق، الحاشية رقم ١، ص٤٦.

([٦]) صالح مسعود أبو يصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، (دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت)، ص١٤٦ ص١٤٦ ؛ إلياس الشوفاني: المرجع السابق، ص٤٣٨ــ٤٣٩.

الضرائب على السكان، ووضع حد لإجلاء المزارعين عن الأراضي التي يزرعونها قسراً وتسليم هذه الأراضي إلى الجمعيات اليهودية تحت اسم لجان التسوية، وقد أوصت هذه اللجنة بتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتقييد انتقال الأراضي العربية إلى اليهود، وإرسال لجنة للتحقيق العلمي الفني؛تمهيداً لإدخال أساليب زراعية حديثة وانتهاج سياسة زراعية يؤدي إلى زيادة الأراضي الزراعية. التأكيد على أن مكانة المنظمة الصهيونية الخاصة لا تمنحها حق المشاركة أبدا في حكومة فلسطين، كما أقرت لجنة شو إرسال لجنة تحقيق أخرى دولية لتحديد حقوق الفريقين في حائط البراق([١]).

وفي محرم ١٣٤٩هـ/يونيو ١٩٣٠م شكلت لجنة دولية عرفت باسم "لجنة البراق الدولية" للبحث في حقوق كلا الفريقين في ملكية حائط البراق وتكونت اللجنة من ثلاث قضاة من السويد وسويسرا وهولندا استمعت إلى العرب واليهود، وأصدرت مرسوم سمي بـ"مرسوم الحائط الغربي لسنة ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠م" قررت فيه أن حائط البراق وقف إسلامي وملك للمسلمين، وهو يشكل الجدار الغربي للمسجد الأقصى، ولا يحق لليهود فيه إلا المرور والزيارة، وقد أيدت عصبة الأمم هذا المرسوم،وأصبح هذا القرار رسمياً قطعياً، ولا يجوز إعادة إثارة هذا النزاع بعد الفصل فيه من أعلى مرجع دولي في ذلك الوقت([٢]).

في يوم ٢٤ شعبان ١٣٤٨هـ/٢٤ يناير ١٩٣٠م تألف وفد عربي([٣]) للسفر إلى لندن حيث رحب العرب بتقرير لجنة شو على الرغم من أنه كان أقل من مطالبهم، لذلك قرر الفلسطينيون السفر بأنفسهم ومحادثة الحكومة البريطانية بشأن حقوق العرب السياسية والقومية والاقتصادية، والتقى الوفد العربي برئيس الوزراء البريطاني مكدونالد،وتحدثوا معه عن مطالبهم بوقف الهجرة اليهودية، ومنع انتقال الأراضي لليهود، وإنشاء حكومة وطنية على أساس سكان البلاد، لكن جهود الوفد الفلسطيني ذهبت أدراج الرياح؛ حيث صرح رئيس الوزراء البريطاني في ١ محرم ١٣٤٩هـ/٣٠ مايو ١٩٣٠م بأن حكومته لن تخالف صك الانتداب وأنها لن تقبل

([١]) الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٩، ص١٦٠ـ١٦١ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٦٧ـ٦٩ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق،ص١٤٦ـ١٥٠.

([٢]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص ٧٧ـ٧٨ ؛ عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٢٥ـ٢٦ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٢٣١ـ٢٣٣ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب، ج١، ص٤٤٣.

([٣]) تكون الوفد العربي من موسى كاظم الحسيني، والحاج أمين الحسيني، وجمال الحسيني ، وعوني عبدالهادي، وراغب النشاشيبي، والفريد روك. انظر: الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣٠، الحاشية رقم ١، ص١٦٢ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٤٩.

بمطالب العرب الدستورية؛ لأنها منافية للصك، وأنها سوف تعمل على صيانة مصالح الطوائف غير اليهودية في فلسطين، ووفقاً لاقتراح لجنة شو سوف ترسل الحكومة البريطانية لجنة برئاسة السير جون هوب سمبسونSir John Hope Simpson([1]) للتحقيق العلمي الفني تمهيدا لإدخال أساليب زراعية حديثة إلى الريف، وليدرس مسألة انتقال الأراضي وحماية مصالح الطبقة الزراعية من الأهالي ، وتنظيم الهجرة بحيث لا تعرض مستقبل البلاد الاقتصادية للخطر([2]).

وصل السير سمبسون إلى فلسطين في ٢١ ذو الحجة ١٣٤٨هـ/٢٠ مايو ١٩٣٠م ووضع تقرير مفصل عن الأمور التي كلف ببحثها ورفعها إلى وزارة المستعمرات في جمادى الأولى ١٣٤٩هـ/أكتوبر ١٩٣٠م فجاء تأكيداً على وجود أزمة زراعية في البلاد. وإن الأراضي الزراعية، حتى لو وزعت بين الأهليين العرب توزيعاً تاماً، فلا يمكن أن تؤمن للعائلات الريفية حياة مقبولة. فإن لليهود جمعيات خاصة تقوم بالاستيلاء على الأراضي، فقد نقصت الأراضي الخصبة بنحو مليون دونم([3])، انتقلت جميعها إلى اليهود. وفي هذا مخالفة لصك الانتداب الذي ينص على عدم إلحاق الضرر بالطوائف غير اليهودية، وقد لاحظ سمبسون وجود البطالة في الميدان العربي،ووصفها بأنها خطيرة وكتب في تقريره أنه من الخطأ أن يأتي يهودي من بولونيا أو ليتوانيا أو اليمن ليملأ مكانا شاغرا في فلسطين في حين أن هناك عاملاً محلياً يستطيع أن يملؤه([4]).

وفي ما يختص بالمهاجرين فقد أشار التقرير إلى أن حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين كانت تتغاضى عن دخول عدد كبير من اليهود بصورة غير شرعية، وذلك بمساعدة

([1]) السير جون هوب سمبسونSir John Hope Simpson: خبير عالمي في شؤون العمل الزراعي والهجرة والاستيطان، وكان عضواً في لجنة عصبة الأمم المسؤولة عن عملية تبادل السكان بين تركيا واليونان. أرسله رئيس وزراء بريطانيا رمزي ماكدونالد على رأس اللجنة الملكية للتحقيق في حوادث العام١٣٤٨هـ/١٩٢٩م وأطلق على الجنة اسمه "لجنة سمبسون"، وكان لتقريره قيمة خاصة نظراً لكونها أول دراسة فنية علمية أظهرت بالأرقام الآثار الخطرة للهجرة والاستيطان اليهودي أو سياسة الوطن القومي لليهود في فلسطين. انظر: فلسطين تاريخها وقضيتها، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا، ط١، ١٩٨٣م)، ص٥٧-٥٨.

([2]) الوثائق الرئيسية...، الوثيقة رقم ٣٠، ص١٦٢ـ١٦٣ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٢٣٧ـ٢٣٨ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٤٩.

([3]) الدونم = ١٠٠٠ متر مربع (ألف متر مربع) أو حوالي ربع فدان. انظر: صلاح العقاد: المرجع السابق، الحاشية رقم ١ ، ص٣٤٢.

([4]) الوثائق الرئيسية ...، الوثيقة رقم ٣٠، ص١٦٥ـ١٦٦ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٥٠ ؛ James Parkes: Op. Cit, pp.49-50.

الوكالة اليهودية، مما أثر على الحالة الاقتصادية في البلاد وزاد من نسبة البطالة بـين العـرب. وقد قوبل هذا التقرير بالسخط الشديد من اليهود،لما احتواه من الحقائق التي تدل على مـا يهـدد العرب من أخطار([1]).

لم تكترث بريطانيا في ذلك الحين بتقارير اللجان ولم تعيرها أي اهتمام يذكر، فقـد كانـت هذه اللجان وتقاريرها مجرد ذر للرماد في العيون وخاصة عيون العرب الذين وقع عليهم الظلـم من قبل بريطانيا الصهيونية، فحكومة الانتداب كانت على علم بكل ما يجري في فلسطين ومؤيدة له، لأنها منذ البداية لم تدخل إلى هذه البلاد إلا لتحقيق هدف واحد وهو خلق وطن قومي لليهـود في فلسطين. ونلاحظ من خلال هذه التقارير أنها أظهرت مخاوف الجماهير العربيـة الحقيقيـة وكشفت عن أضرار الاستيطان الصهيوني بانعزاليته القومية، كما عكست أيضاً طبيعة السياسـة البريطانية الاستعمارية القائمة على أساس فرق تسد، وأسلوب التهدئة باللجان.

٢ـ ثورة١٣٥٢هـ/١٩٣٣م: ففي عام١٣٥٢هـ/١٩٣٣م وصلت الهجرة اليهودية إلـى ٣٠.٣٢٧ يهودي، دخل أغلبهم إلى فلسطين بطريقة غير الشرعية، وكانت الصحافة الصـهيونية تدعوا إلى شحن المزيد من المهاجرين؛حتى يصبحوا أغلبية في فلسطين، مما أثار الشعب العربي الفلسطيني، وأعلنوا رفضهم التعاون مع السلطات البريطانية التي تسكت عن هـذه التجـاوزات، وقامت مظاهرات تندد بسلطات الانتداب البريطاني في غزة، ونابلس، وحيفا، والقدس، ومن ثـم انتشرت إلى جميع المدن الفلسطينية([2]).

وفي يوم الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٥٢هـ/١٣ أكتوبر ١٩٣٣م قررت اللجنة التنفيذية العربية في القدس القيام بمظاهرات يرافقها إضراب عام في فلسطين ضد الاحـتلال البريطـاني الذي كان الفلسطينيون يعتبرونه أصل الداء وأساس البلاء، لأن بيدهم سياسة تهويد البلاد، لـذلك جرت الدعوة على عدم التعاون مع سلطات الاحتلال ومقاطعتها وتحدي قوانينها، وعندما علمت سلطات الاحتلال بهذه الانتفاضة أصدرت بلاغاً رسمياً حذرت فيه مـن المشـاركة فـي هـذه الانتفاضة، لكن هذا البلاغ كان بمثابة المحفز على تفجير هذه الانتفاضة التي خرجت من المسجد الأقصى بعد صلاة الجمعة واشترك فيها نحو ٣٠ ألفاً من رجال وشباب القدس، وقد فرق رجـال البوليس البريطاني هذه المظاهرة([3])، وفي اليوم نفسه عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعاً فـي بيـت رئيسها الحاج موسى كاظم الحسيني وقررت فيه تنظيم مظاهرة أخرى في يافا تنطلق من الجامع الكبير يـوم الجمعـة ٧ رجـب ١٣٥٢هـ/٢٧ أكتـوبر ١٩٣٣م وأن تسـتمر الـبلاد فـي

([1]) الوثائق الرئيسية..،الوثيقة رقم ٣٠،ص١٦٥ـ١٦٦ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١،ص٧١ـ٧٢.

([2]) James Parke: Op. Cit. pp.51.

([3]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٩٨ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسة، ص٢٩١ ؛ مجلة أرض الإسراء، المؤتمر الإسلامي العام، العدد١٢٢، صفر ١٤٠٩هـ/أكتوبر ١٩٨٨م، ص٩.

المظاهرات؛حتى تستجيب سلطات الاحتلال لمطالبها، وحين قرب الموعد المضروب للمظـــاهرة ملأت مدينة يافا بالقوات البريطانية، لكن المظاهر سارة بعد صلات الجمعة واشـــترك فيهـــا ٥٠ ألفاً من أهل فلسطين بالإضافة إلى الوفود التي وصلت من دمشق وشرق الأردن، وأطلق رجـــال البوليس البريطاني النار على المتظاهرين العزل الذين ردوا عليهم بالحجارة وكانت حصيلة هـــذه المظاهرة ٣٠ شهيداً، وأكثر من مئتي جريح عربي، وقتل أحد رجال البوليس البريطاني وجـــرح ٣٠ جندياً منهم كما أعتقل الكثير من زعماء البلاد وشبابها([١]).

وسارت في اليوم التالي مظاهرات صاخبة في جميع أنحاء فلسطين قتل وجرح فيها بعض المواطنين، كما أعلن إضراب عام في البلاد استمر سبعة أيـــام، ولـــم ينـــه الفلســـطينيون هـــذا الاضراب إلا بعد إطلاق سراح الموقوفين. ثم قررت اللجنة التنفيذية تجديـــد المظـــاهرات بعـــد شهرين أي في عيد الفطر المبارك، وبالفعل سارت المظاهرات في حينه، ولتهدئة الوضـــع فـــي فلسطين أرسلت الحكومة البريطانية لجنة تحقيـــق برئاســـة القاضـــي الســـير موريســـون ٍ Sir Morrison للتحقيق في أسباب هذه المظاهرات، لكن العرب قاطعوا هذه اللجنة، ممـــا جعلهـــا ترفع تقريرها بتحميل العرب أسباب هـــذه الإضـــطرابات ورفـــع أي تبعيـــة علـــى الحكومـــة البريطانية([٢]).

٣ــ ثورة القسام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م: واصلت حكومة الانتداب البريطاني تآمرها علـــى العرب بخطوات أشد وأسرع؛للوفاء بوعدها وإقامة الوطن القومي لليهود، ففسحت المجال أمـــام الهجرة اليهودية التي أخذت تزداد يوما بعد يوم، وعملت على تدريب المهاجرين اليهـــود علـــى السلاح وتزويدهم به وإعداد الحرس الخاص بالمستعمرات اليهودية التـــي أقيمـــت علـــى أرض فلسطين في ذلك الوقت بتواطؤ ودعم مكشوف من بريطانيا على مرأى ومسمع العـــالم كلـــه([٣])، لكن الشعب الفلسطيني آنذاك تصدى للمؤامرة ورفض الانهزام أمامها، ففجر انتفاضته المســـلحة عام ١٣٥٤هــ/١٩٣٥م بقيادة المجاهد العربي الكبير الشيخ عز الدين القسام، الـــذي بـــدأ فـــي الدعوة للثورة في جامع الاستقلال الذي أنشأه في ١٣٤٣هــ/١٩٢٥م بمدينـــة حيفـــا، واســـتطاع القسام بخطبه في سنوات قليلة أن يجعل المسجد من أكثر مساجد المدينة شهرة ويؤمه المصـــلون من مختلف المناطق، وهذا مما ساعده في اختيار العناصر التي أصبحت نـــواة الثـــورة([٤])، فقـــد

([١]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، رقم الوثيقة ١٩٩ــ٢٠٠ـــ٢٠١ـــ٢٠٢، ص٣٧٩ـــ٣٨١ ؛ القضـــية الفلسطينية،ص٩٧ــ٩٨ ؛ يعقوب الدجاني: المرجع السابق، ص٣٤ـــ٣٥ ؛ مجلـــة أرض الإســـراء، المـــؤتمر الإسلامي العام، العدد١٢٢، صفر ١٤٠٩هــ/ أكتوبر ١٩٨٨م، ص٩.

([٢]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٩٨ ؛ إلياس شوفاني: المرجع السابق، ص٤٥٠.

([٣]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٧٥ــ٧٦.

([٤]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٢٠ــ١٢١ ؛ سميح حمودة: المرجع السابق، ص٤٤.

عمل على تجنيد الشباب، ونشر الدعوة ضد اليهود والبريطانيين واستطاع أن يؤسس حركة جهادية اعتبرت فيما بعد أهم منظمة سرية وأعظم حركة فدائية في فلسطين، تألفت خلايا سرية([1]) لعز الدين القسام على شكل حلقات سرية يبلغ عددهم خمسين شخصاً تقريباً([2]). كل خمسة أشخاص مسؤول عنهم نقيب وكل خمس وحدات منظمة لها نظامها الخاص والمشرف عليها بمختلف المهمات هو القسام نفسه([3]).

فكانت ثورة القسام أول حركة في فلسطين تعتمد على المواجهة المسلحة الجريئة مع الإنجليز، فبعد إعداد المجاهدين بدأ بتنفيذ عمليات فدائية موجه ضد المستوطنات اليهودية عن طريق إعداد الكمائن والهجوم على أفراد معينين ومستوطنات معينه؛ بهدف دفع اليهود في الخارج إلى وقف هجرتهم إلى فلسطين وكان ذلك في الفترة من١٦ ذو القعدة ١٣٤٩ هـ/٥ إبريل ١٩٣١م إلى أواخر عام ١٣٥١هـ/١٩٣٢م، لكن هذه العمليات توقفت بسبب القبض على عز الدين القسام وعدد([4]) من رجاله، وتم إخلاء سبيله هو وبعض رجاله ؛ لعدم كفاية الأدلة. وأوقف القسام نشاطه العسكري ؛ حتى لا يلفت إليه الأنظار حتى عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م([5]).

([1]) للمزيد من المعلومات حول أعضاء الخلايا السرية للقسام انظر: بيان الحوت: القيادات والمؤسسات، الجدول رقم ٤٤، ص٨٨٦ــ٨٨٧.

([2]) هناك اختلاف في عدد أتباع القسام هناك من يقول أن أتباعه قد بلغوا ٥٠ شخصاً، وهناك من يقول أن عددهم يقدر بنحو ٤٠٠ شخص، إلا أن صبحي ياسين ــ وهو أحد القساميين ــ يقول أن عدد الذين أعدهم القسام للجهاد ٢٠٠ شخص يشرفون على حلقات توجيهية وهم منتظمون في حلقات الجهاد السرية التي أعدها، ويضاف إليهم ٨٠٠ شخص كانوا مهيئين نفسياً وعسكرياً للاشتراك في المعركة، بينما يذكر الشيخ حنفي وهو أيضاً من أحد أفراد التنظيم أن عدد جماعة القسام يزيد عن ألف شخص، كما يذكر حسن الشبلاق وهو من القسامين أيضاً أن عدد القسامين يبلغ حولي ٧٠٠ شخص. وقد اتفقت المصادر التاريخية على أن معظم القساميين كانوا من العمال الكادحين من حمالين وفلاحين وباعة متجولين، والأئمة والشيوخ.

وبناءاً على هذه الآراء المختلف فإننا نعتقد أن عدد القساميين قد يكون مابين ٨٠٠ و ١٠٠٠ شخص.

انظر: عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث، ص٢٥١ ؛ محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٢٨١ ؛ صبحي سعد الدين غوشه: شمسنا لن تغيب، أنغام الحياة، (مطابع القبس التجارية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج١، ص٢٦٨.

([3]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٢٠ــ١٢١ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٧٦ــ١٧٧ ؛ طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦١.

([4]) ألقت السلطات البريطانية القبض على ١٢ شخص من جماعة القسام ومنهم: عز الدين القسام، خليل محمد عيسى، حسين محمد حمدي ، محمود زعرورة، ذيب ديوان ، أحمد الحسن ، الحاج مصطفى ، الشاب عبدالطه. انظر: سميح حمودة: المرجع السابق، ص٥٨.

([5]) سميح حمودة: المرجع السابق، ص٥٦ــ٦٦ ؛ محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٣٠١ــ٣٠٣.

حيث عاودت جماعة القسام نشاطها من جديد حين اكتشف بعض البحارة العرب في ١٨ رجب ١٣٥٤هـ/١٦ أكتوبر ١٩٣٥م في ميناء يافا بطريق الصدفة شحنات كبيرة من الأسلحة المهربة في براميل الأسمنت الآتية لليهود من بلجيكا، وكانت الشحنة عبارة عن ثلاثة وسبعين برميلاً للأسمنت تحتوي على مئات المسدسات ومئة ألف خرطوش(الذخيرة أو الرصاص) فأخذ الثوار العرب يهاجمون الثكنات والمنشآت البريطانية والمستعمرات اليهودية، وكبدوا قوات الانتداب البريطاني واليهود خسائر كبيرة(١)؛ لأنهم تأكدوا أن الحكومة البريطانية تعمل على تسليح اليهود وتدريبهم على حمل السلاح، وفي الوقت نفسه تحرص على تجريد العرب من كل سلاح حتى لو كان خنجر أوسكين(٢)، كما أن عدد اليهود المهاجرين قد بلغ في عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م وحدة حوالي خمسة وسبعين ألف مهاجر، مما وضع سلطة الانتداب البريطاني في مأزق كبير(٣).

ثم خرج القسام من حيفا إلى القرى للدعوة للثورة بعد حادث اكتشاف الأسلحة المهربة في شهر رجب ١٣٥٤هـ/أكتوبر ١٩٣٥م حيث قال:"إذا لم نهاجم اليهود فإنهم سوف يهاجموننا"(٤). وفي يَعبُد قرب جنين؛ حيث كان القسام يجتمع برفاقه، شعرت السلطات البريطانية بهذه الحركة فسارعت إلى قمعها قبل أن تتفاقم، وأرسلت قوة عسكرية كبيرة فاجأت المجاهدين في يعبد، فخاض الثوار المعركة بإيمان وبطولة نادرة، واستمات القسام ورجاله في المقاومة، حتى خرّ شهيداً في يوم الإثنين ١٤ شعبان ١٣٥٤هـ/١١ نوفمبر١٩٣٥م. وكان يردد إذ ذاك (لن نستسلم. هذا جهاد في سبيل الله والوطن. يا رفاقي موتوا شهداء). واستشهد إلى جانبه عدد من رفاقه(٥). رفاقه(٥). دامت هذه المعركة القصيرة ساعتين كان خلالها الرصاص يصم الآذان والطائرات المحلقة على ارتفاع منخفض لتكشف للمحتلين موقع الثوار وقواتهم(٦). وعلى الرغم من قصر

---

(١) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٧ ؛ فلسطين تاريخها وقضيتها، ص٦٥ ؛ عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٣٧ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٢١ـــ١٢٤ وص١٣٦ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٣١٤ ؛ مجلة أفاق الإسلام، الدار المتحدة للنشر، عَمان، العدد٤، السنة الثالثة، ديسمبر ١٩٩٥م، ص٢١٧ـ٢١٨.

(٢) أكرم زعيتر:يوميات أكرم زعيتر،ص١٣ـ١٤ وص١٠١؛علي أبو الحسن: المرجع السابق، ص٤٠٣ـ٤٠٥.

(٣) Mariano De Madrazo: Op. Cit. p.157.

(٤) سميح حمودة: المرجع السابق، ص٦٨.

(٥) استشهاد القسام ورفاقه الذين معه وهم يوسف عبد الله الزيباوي وسعيد عطيه أحمد المصري ومحمد أبو قاسم خلف وألقت قوات الإحتلال القبض على الباقين من الجرحى والمصابين. انظر: محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٢٠ـ١٢١ ؛ أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٢٩ ؛ يعقوب الدجاني: المرجع السابق، ص٣٦.

(٦) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم٢١٥ـ٢١٦ ، ص٣٩٧ـ٣٩٨ ؛ محمد عزة دروزة: القضية

وقت هذه الحركة إلا أنها هزت العالم الإسلامي كله فعز الدين القسام لا يزال أسمه خالــد حتــى اليوم في قلوب المسلمين عامة والفلسطينيين خاصة([1])، فما يميز ثورة القسام أنها قامــت علــى أساس إسلامي حملت راية الجهاد ضد المستعمر الأجنبي سواء في فلســطين أو فــي ســوريا، فثورته لم يكن يرجو من خلالها منصباً أو مكانه بقدر ما كان يرجو من ورائها رضا الله أولاً ثم تحرير بلاد الشام من يد المستعمر الأجنبي ومواجهة الخطر الصهيوني، فدعوته لهــذه الثــورة انطلقت من المسجد بخلاف بقية الثورات في بلاد الشام.

إن الأثر الذي تركته ثورة القسام كان عميقاً حتى في نفوس الصهاينة أنفسهم. فيقــول بــن غوريون([2]) "فقد أظهر الشيخ القسام أنه مستعد للتضحية بحياته في سبيل عقيدته الدينيــة. والآن يوجد شخص واحد فحسب، وإنما عشرات ومئات، بل ربما آلاف مثله والشعب العربــي يقــف وراءهم"([3]). في كلام بن غوريون هذا دليل على أن ثورة القسام أحدثت أثراً عميقاً فــي نفــوس الشعب العربي المسلم بصفة عامة، فبعد أن أستشهد القسام ظهر آلاف القساميين الــذين حــاولوا الدفاع عن فلسطين، ونجد ذلك جلياً في الثورة العربية الكبرى في فلسطين.

الفلسطينية، ج١، ص١٢٠ــ١٢١ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٧٦ــ١٧٧ ؛ طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦١.

([1]) حتى أن حركة حماس التي أنشئت في١٤٠٧هــ/١٩٨٧م أطلقت على الذراع العسكري للحركــة اســم "كتائــب الشهيد عز الدين القسام"، و هذا يؤكد مدى تأثير ثورة القسام في نفوس الشعب الفلسطيني، وخاصة مــن تبنــى الجهاد الإسلامي طريقاً له. للمزيد من المعلومات حول حركة حماس انظر: خالــد الحــروب: حمــاس الفكــر والممارسة السياسية ،(مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م)، ص٩ــ ٣٩.

([2]) ديفيد بن غوريون (١٣٠٣ــ١٣٩٣هــ/١٨٨٦ــ١٩٧٣م): ولد في بولندا، وكان اسمه ديفيد غرين ثم غير اسمه إلى بن غوريون أي "ابن الشبل" هاجر إلى فلسطين عام ١٣٢٥هــ/١٩٠٦م وعمل على إحياء اللغة العبرية في فلسطين، درس القانون في اسطنبول، ثم عاد إلى فلسطين وعمل في الزراعة، وتزعم الحركة العُمالية الصهيونية هناك، واشترك في المنظمات اليهودية شبه العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى، فذهب إلى الولايات المتحــدة الأمريكية وعمل على تكوين الفيلق اليهودي في الجيش الإنجليزي الذي عاد معه إلى فلسطين عام ١٣٣٧هــــ/ ١٩١٨م، وفي عام ١٣٦٨هــ/ ١٩٤٨م أعلن بنفسه قيام دولة إسرائيل، وطالب بجعل القدس عاصمة لها، وتولى رئاسة الوزراء عدة مرات، واستقال عام ١٣٧٤هــ/١٩٥٥م. انظر: عبدالوهاب المســيري: موســوعة اليهــود واليهودية والصهيونية الموسوعة الموجزة، (دار الشروق، القــاهرة، ط٣، ٢٠٠٦م)، ج٢ ، ص٤٧٣ـــــ٤٧٥ ؛ ناجي بزي: المرجع السابق، ص٥٢٤ــ٥٢٥ ؛ وليد الخالدي: الصهيونية في مئة عام، ص٢٢ ؛ تركي الحمــد : ويبقى التاريخ مفتوحاً أبرز عشرين شخصية سياسية في القرن العشرين، (دار الساقي، بيــروت، ط٢، ٢٠٠٢م)، ص١٣٧ــ١٤٢.

([3]) الرواية الإسرائيلية الرسمية: الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ــ١٩٣٩م، ترجمه عن العبريــة: أحمــد خليفة، راجع الترجمة: سمير جبور، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالتعاون مع جامعة الكويت، بيــروت، ط١، ١٩٨٩م)، ص١٥٤.

٤ــ الثورة الفلسطينية الكبرى(١٣٥٥ــ١٣٥٨هــ/١٩٣٦ــ١٩٣٩م): لقد مثلت تلك الانتفاضة الباسلة حافزا للحركة الوطنية الفلسطينية التي كانت تخوض مهاترات حزبية لا فائدة منها بين أنصار المفتي الحاج أمين الحسيني رئيس "الحزب العربي الفلسطيني"، وأنصار راغب النشاشيبي رئيس "حزب الدفاع الوطني" فقد دعا الحاج أمين الحسيني الأحزاب الفلسطينية إلى الائتلاف، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع الهجرة اليهودية ومنع إدخال السلاح للبلاد([1])، وكانت هذه مؤشرات قيام الثورة الفلسطينية الكبرى١٣٥٥ــ١٣٥٨هــ/١٩٣٦ ــ١٩٣٩م، هذه الثورة التي كانت عبارة عن سلسلة من الأعمال المسلحة واضطرابات عامة ومظاهرات شعبية واصطدامات محلية، ونضال سياسي شديد، ومقاومة جدية وفعلية لباعة الأراضي الفلسطينية وسماسرتها لليهود، وقد أخذت هذه الثورة طابعاً شعبياً وقومياً مشتركاً. اشترك في هذه الثورة الشعب الفلسطيني بكل فئاته، وتوحد الصف الداخلي تحت قيادة واحدة هي «اللجنة العربية العليا»([2]) برئاسة الحاج أمين الحسيني، وعملت هذه الثورة على اغتيال باعة وسماسرة وجواسيس اليهود على اعتبار أنهم كفرة ومرتدين عن دين الإسلام، وصدرت فتوى شرعية بذلك([3]).

في٢٨ محرم ١٣٥٥هــ/٢٠ إبريل من عام ١٩٣٦م نادت القوى الوطنية الفلسطينية إلى إعلان الإضراب العام الذي استمر لمدة ستة أشهر، توقفت فيه الحياة لما يقرب من مليون شخص، ثم تحول الأمر إلى ثورة شعبية مسلحة شملت كل مناطق فلسطين، واجه خلالها الشعب الفلسطيني بإمكانيات متواضعة وبأسلحة محدودة جيوشا جرارة مزودة بأحدث الأسلحة ــ الحاقدة على العرب والعروبة والإسلام ــ ، لكن هذا الشعب لم يتوقف عن نضاله رغم كل الأساليب الوحشية التي لجأ إليها الإنجليز والمنظمات الإرهابية الصهيونية، ابتداء من إجراءات منع

([1]) سميح حمودة: المرجع السابق، ص٦٨ــ٦٩ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٣١٤ــ٣١٥ ؛ Roberto Mesa: Op. Cit, p. 91.

([2]) اللجنة العربية العليا: تألفت من جميع الأحزاب والجمعيات الفلسطينية، واشترك فيها أحمد حلمي عبد الباقي وأصبح أمين عام للجنة، وعوني عبد الهادي سكرتير حزب الاستقلال وسكرتير اللجنة ، وجمال الحسيني رئيس الحزب العربي، وراغب النشاشيبي رئيس حزب الدفاع ، والدكتور حسين الخالدي رئيس حزب الإصلاح، وعبد اللطيف صلاح رئيس حزب الكتلة، ويعقوب الغصن رئيس لجنة مؤتمر الشباب، ويعقوب فراج ممثل المسيحيين الأرثوذكس، والفريد روك ممثل المسيحيين الكاثوليك. وقد وصف الصهاينة هذه الجنة بأنها الحكومة الحقيقية في فلسطين. انظر: محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٢٣ ؛ أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٧٦ــ٧٧ ؛ الرواية الإسرائيلية الرسمية: الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص٤٠.

([3]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية رقم الوثيقة ٢٠٧، ص٣٨٨ــ٣٨٩ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٢١ــ١٢٤ وص١٣٦ ؛ عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٣٧ ؛ واصف عبوش: المرجع السابق، ص١٥٣ــ١٥٤.

التجول إلى نسف البيوت واعتقال المواطنين وزجهم في السجون دون محاكمة إلى القتل والتشويه والتمثيل في الجثث، إلى الاعتداء على النساء([1])، وغيرها من الأعمال البربرية التي لم تجن لأصحابها سوى المزيد من الرعب أمام تصاعد الغضب الشعبي الفلسطيني الذي ازداد عنفا وإصرارا وعزما على طرد المستعمرين وتحقيق الاستقلال، فنظراً لقلة الأسلحة، اعتمد الفلسطينيون على أسلوب حرب العصابات البدائي البسيط، وبدا أن هذه الثورة ستخمد وتتلاشى إذا ترك الفلسطينيون وحدهم في مواجهة الجيوش البريطانية، ما لم ينجدهم إخوانهم العرب والمسلمين في كفاحهم المسلح ضد البريطانيين والصهاينة ([2]).

لذلك تلقت الثورة دعماً خارجياً بمساعدة الضابط فوزي القاوقجي الذي جاء من العراق وتمكن من التسلل إلى فلسطين في ١٢ رجب ١٣٥٥هـ/٢٨ سبتمبر ١٩٣٦م مع ثمانيين متطوعاً عربياً لمساعدة الثوار، وجعل مدينة جنين مركزاً لقيادة الثورة، وأطلق على القاوقجي لقب "قائد الثورة العام" فانتظم معه المتطوعون العرب من جميع الدول العربية، والذي بلغ عددهم المئات تحت قيادة الضابط فوزي القاوقجي، الذي قاد جموع المتطوعين العرب. وتميزت هذه المرحلة من الثورة بوحدة القيادة تحت إدارة اللجنة العليا، فقد جاء المئات من المتطوعين من خارج فلسطين لمساندة إخوانهم، فكثرت الخسائر في القوات البريطانية، ودب الحماس في نفوس الجماهير، خاصة وأن البلاغات كانت تصدر باسم "قيادة الثورة العربية العامة في سوريا الجنوبية (فلسطين)"([3]) والتي جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾([4])... أي فلسطين: بلد الجهاد ومجمع الأمجاد ووطن الآباء والأجداد إن في السماء لخبراً رائعاً هو خبر الحرية وصوتاً صادعاً هو صوت الأجيال العربية... أي فلسطين بلد الشهداء والتضحية والإباء دعوت فلبينا، وناديت فأجبنا..إلى السلاح أشبال العرب تحقيقاً للأماني القومية وإنقاذاً لفلسطين العزيزة من براثين العبودية والغزوة الصهيونية والمطامع البريطانية.

([1]) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٦٤ـ٧٥ ؛ Roberto Mesa: Op. Cit, p. 91 ؛ شفيق حجا: المرجع السابق، ص٢١٣ـ٢١٤.

([2]) شفيق حجا: المرجع السابق، ص٢١٤.

([3]) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص١٦١ـ١٦٢ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٣٥٠.

([4]) سورة الحج، الآية ٣٩.

إلى السلاح! دفاعاً عن القبلة الأولى وثاني الحرمين الشريفين ومهد المسيح رسول السلام وداعية الخير بين الأنام.

إلى السلاح برهنوا للعالم أجمع أن العرب لا ينامون على ضيم وأن الوطن العربي وطن واحد وأن فلسطين جزء لا يتجزأ من هذا الوطن المقدس.."([1]).

لما عجزت بريطانيا وحلفاؤها اليهود من إخماد الثورة التي كانت في تصاعد مستمر على الرغم من استقدام بريطانيا قوات إضافية من الخارج واستخدامها للدبابات والطائرات في قصف مواقع الثوار([2])، فلجأت إلى أسلوب المراوغة ونجحت فيه بإقناع بعض الزعماء العرب والملوك ومنهم: الملك غازي بن فيصل([3]) ملك العراق والأمير عبدالله بن الحسين أمير شرق الأردن والإمام يحيى حميد الدين([4]) حاكم اليمن للتوسط مع الفلسطينيين،وإنهاء الإضراب مقابل إيجاد حلول عادلة يقبل بها الفلسطينيون([5]). وفي صباح يوم الاثنين ٢٦ رجب ١٣٥٥هـ/١٢ أكتوبر ١٩٣٦م أدت الوساطة العربية إلى توقف أعمال العنف، وتعهدت بريطانيا بإيجاد حل عادل، وأعلن الفلسطينيون إنهاء الإضراب ؛ لانتظار نتيجة الوساطة العربية([6]).

سعت بريطانيا لإنهاء الثورة ؛ لأن هذه الثورة أصبحت تحرك الإدارة البريطانية عسكرياً وسياسياً في ظروف تميزت باحتدام الوضع الدولي ؛ نتيجة عدوانية الدولتين الفاشية([7])

([1]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية رقم الوثيقة ٢٥٧، ص٤٤٨.

([2]) بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص ٣٤٨ـ٣٥١ ؛ شفيق حجا: المرجع السابق، ص٢١٦ـ٢٢٤.

([3]) الملك غازي الأول ابن فيصل الأول(١٣٣٠ـ ١٣٥٨هـ/١٩١٢ـ١٩٣٩م): ولد في مكة المكرمة ، ونشأ في كنف جده الشريف حسين ، وجئ به إلى بغداد في ٦ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/٥ أكتوبر ١٩٢٤م ونودي به ولياً للعهد، وخلف أباه ملكاً على العراق في ١٨ جمادي الأول ١٣٥٢هـ/٨ سبتمبر ١٩٣٣م، وتوفي غازي في بغداد في ١٥ صفر= = ١٣٥٨هـ/٤ ابريل ١٩٣٩م إثر حادث اصطدام سيارته، حكم العراق نحو خمس سنوات ونصف. انظر: مير بصري: المرجع السابق، ص٢٥.

([4]) الإمام يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين(١٢٨٦ـ١٣٦٧هـ/١٨٦٩ـ١٩٤٨م): ولد بصنعاء من أئمة الزيدية، تولى إمامة اليمن بعد وفاة أبيه، قام بعدد من الثورات ضد الدولة العثمانية انتهت بصلح دعّان في ١٣٢٩هـ/١٩١١م. الذي انتهى بخروج العثمانيين من اليمن في١٣٣٦هـ/١٩١٨م بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٨، ص١٧٠ـ١٧١ ؛ حسين عبد الله العمري: تاريخ اليمن الحديث والمعاصر(٩٢٢ـ١٣٣٦هـ/ ١٥١٦ـ١٩١٨م) من المتوكل إسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين، (دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٧م)، ص١٦٧ـ١٧٠.

([5]) وثائق المملكة، الوثيقة ٤٣، ص٥٦ـ٥٧ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٤٢ ؛ عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٤١.

([6]) وثائق المملكة، الوثيقة ٤٣، ص٥٦ـ٥٧ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص١٤٢ ؛ أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٢٠٦ ؛ طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦٦.

([7]) الفاشية: مذهب سياسي نشأ في إيطاليا، اشتق اسم الفاشية من لفظ فاشيو الإيطالي بمعنى حزمة القضبان، وقيل

والنازية([1])، وظهور بوادر الحرب العالمية الثانية، وقد بلغت خسائر بريطانيا ٤٥ قتـيلاً و٢٦٠ جريحاً، وخسائر اليهود ٨١ قتيلاً و٣٠٨ جريحاً ، أما العرب فقد استشهد مـنهم ٢٠٠ شـخص وجرح ٨١٠ شخاص حسب الإحصائيات البريطانية، إلا أن اللجنة العربيـة العليـا أعلنـت أن الشـهداء كـانوا ألفـاً والمعتقلـين بلغـوا ٣٠٠٠ شـخص، ويـذكر أكـرم زعيتـر أن عـدد الشهداء ٧٠٠ عربي حسب المصادر البريطانية([2]).

على الرغم من توقف الإضراب إلا أن القاوقجي الذي أحدث هزة عنيفـة فـي صـفوف القوات البريطانية والصهيونية لم يقف نشاطه تماماً، فقد قام ببعض المناوشات بينه وبين قـوات العدو تمكن من خلالها السيطرة على نقاط العبور على نهر الأردن، لكن الحكومة البريطانية في ١٠ شعبان ١٣٥٥هـ/٢٦ أكتوبر ١٩٣٦م حذرت من استئناف الإضراب، فطلبت اللجنة العربية العليا من القاوقجي وقف القتال،وعاد أفراد جماعة القاوقجي إلى منازلهم. واحتفظوا بأسلحتهم في انتظار قدوم لجنة التحقيق البريطانية، وساد البلد لمدة عام سلام ثقيل ــ كما وصفه الصـهاينة ــ مشحون بالتوتر؛ "سلام مسلح" بعيد عن أن يكون سلاماً([3]). كما هو الحال في فلسطين اليوم.

وفي شوال ١٣٥٥هـ/أواخر ديسمبر ١٩٣٦م سافر القاوقجي إلى العراق وقام بالاتصـال بالسفير الألماني في بغداد "غروبا" وطلب منه مده بالسلاح، لكن الألمان رفضـوا هـذا الطلـب رفضاً قاطعاً، كما أعاد هذا الطلب وفد من اللجنة العربية العليا برئاسة محمد عـزة دروزة فـي

أن المقصود به الجماعة أو العصبة التي انفصلت عن الحزب الاشتراكي الإيطالي بعد الحرب العالميـة الأولـى بزعامة بنيتو موسوليني الذي يعتبر مؤسس الحزب الفاشي أو الفاشستي، والفاشية من أشد المـذاهب السياسـية تطرفاً في تمجيد الدولة وعدائها للفردية، بمعنى أن الفرد لا قيمة له باعتباره فرداً ولكنه يستمد قيمتـه وكرامتـه ووجوده من شخصية الدولة، كما ارتبطت الفاشية بنظرية تقديس الزعيم أو "الدوتشي" وقوته وعدم قابليته للخطأ. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٨٤٩ــ٨٥٠.

([1]) النازية: اسم اختصاري أطلق على الحزب الاشتراكي الوطني الألماني، أرتبط هذا الاسم بأود لف هتلـر الـذي تولى حزبه الحكومة الألمانية من ٤ شوال ١٣٥١هـ/٣٠ يناير ١٩٣٣ إلى ٢٥ جمادي الأول ١٣٦٤هـــ/ ٧ مايو ١٩٤٥م . انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٢٨٩.

([2]) أكرم زعيتر : يوميات أكرم زعيتر ، ص١٧٦ ؛ طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦٦ ؛ علي أبـو حسـن: المرجع السابق، ص٤٠٩ ؛ رشيد الحاج إبراهيم: المرجع السابق، صLXIII .

([3]) الرواية الإسرائيلية الرسمية: الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص٣٩ــ٤٠.

شوال ١٣٥٥هـ/يناير ١٩٣٧م([1]) أثناء وجودهم في بغداد لكن الرفض كان مصيرة([2])، لذلك كان اعتماد الثوار على البنادق التركية الألمانية الصنع من مخلفات الحرب العالمية الأولى، أو على البنادق الإنجليزية التي تمكنوا من الاستيلاء عليها من قوات الجيش البريطاني في فلسطين، وكان الرصاص القديم المخزن من زمن الحرب العالمية الأولى قديم وفاسد، هذا من العوامل التي أدت إلى فتور الثورة في عام١٣٥٨هـ/١٩٣٩م([3]).

أوقف الثوار عملياتهم بناءً على نداءات الملوك والزعماء العرب ووعد بريطانيا التي أوفدت في ٢٦ شعبان ١٣٥٥هـ/١١ نوفمبر ١٩٣٦م لجنة برئاسة اللورد بيل **Lord Peel**([4]) للتحقيق في أسباب الاضطرابات وكيفية تنفيذ صك الانتداب([5]). وبعد أن أمضت اللجنة شهرين في فلسطين غادرتها في ٣٠ شوال ١٣٥٥هـ/ ١٣ يناير ١٩٣٧م، بعد أن استمعت إلى ٧١ شاهداً، منهم ١٤ عربياً، ٢٠ إنجليزياً، و٣٧ يهودياً، و في ٢٨ ربيع الآخر ١٣٥٦هـ/٧ يوليو ١٩٣٧م أصدرت لجنة اللورد بيل ، اقتراحاتها بتقسيم فلسطين([6]) ما بين اليهود والعرب الفلسطينيين ؛ بحيث يحصل اليهود على منطقة بمحاذاة الساحل الفلسطيني تمتد من تل أبيب **Tel Aviv**([7]) إلى حيفا وتمثل ما نسبته ٢٠% من مساحة فلسطين وأخصب مناطقها ووضع

([1]) ان محمد عزة دروزة على الرغم من انه كتب في مذكراته تفاصيل هذه الرحلة إلا أنه لم يذكر أنه التقى بالسفير الألماني، لكن عبد الرحمن عبد الغني يؤكد هذا اللقاء معتمداً على الوثائق الألمانية. انظر: محمد عزة دروزة: مذكرات ، ج٢، ص٣٤٤ـ٣٦١ ؛ عبد الرحمن عبد الغني: ألمانيا النازية وفلسطين ١٩٣٣ـ١٩٤٥م، (مؤسسة لدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م)، ص٢١٩.

([2]) عبد الرحمن عبد الغني: المرجع السابق، ص٢١٩ـ٢٢٠.

([3]) الرواية الإسرائيلية الرسمية: الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص١٥٧ـ١٥٨

([4]) اللورد وليم بيل Lord Peel (١٢٨٤ـ١٣٥٦هـ/١٨٦٧ـ١٩٣٧م): سياسي بريطاني اتصلت سيرته بالقضية الفلسطينية، وهو ابن عم إدوارد الثامن ملك بريطانيا لذلك يطلق على هذه الجنة في كثير من المصادر التاريخية اسم الجنة الملكية أو لجنة بيل. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٢٥١؛ واصف عبوش: المرجع السابق، ص١٧٧.

([5]) نجدة فتحي صفوة: العالم العربي في وثائق سرية ألمانية ١٩٣٧ـ١٩٤١، ترجمة رزق الله بطرس، (الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م)، الوثيقة رقم٩٠- ٥٢٤٠٨١ E /٧٠٥٥ ، ص٢٥ ؛ لمزيد من المعلومات حول تقرير لجنة بيل انظر: الوثائق الرئيسية... الوثيقة رقم ٣٣، ص٢٠٣ـ٢٣٨.

([6]) انظر خريطة التقسيم في ملحق الخرائط الملحق رقم٩.

([7]) تل أبيبTel Aviv : يعني اسمها تل الربيع وبالعبري السنبلة الخضراء، وهي مدينة حديثة ومرفأ قرب يافا وتقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. عام١٣٢٧هـ/١٩٠٩م أسس اليهود الذين جلبوا من أوروبا مدينة تل أبيب شمال شرق يافا، لكنها أصبحت مدينة مستقلة عام١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م. نمت تل أبيب بسرعة مع تدفق المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا؛ حيث زاد عدد سكانها من ١٩٤٠ نسمة عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م إلى ٢٦٠.٠٠٠ نسمة في عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، وأصبحت عاصمة الكيان الصهيوني بعد اغتصاب فلسطين

٣٠٠ ألف عربي تحت سيطرة الدولة اليهودية، أما العرب فخصص لهم ٨٠ % من أرض فلسطين الجبلية الوعرة القاحلة ؛ لتتحد مع شرقي الأردن كما طالبت باحتفاظ بريطانيا بالأماكن المقدسة([1]).

والغريب في الأمر حسب رأي نوري السعيد([2]) هو "أن تلك اللجنة لم تفكر قط في إمكان إنشاء حيازات يهودية لها حدود إدارية فقط ؛ لتتمتع فيها بحقوق خاصة على نحو الحقوق التي كانت ممنوحة للموارنة في لبنان داخل دولة عربية كبرى.."([3]). ربما لم تكن الرؤيا واضحة لنوري السعيد والعرب عموماً في تلك الفترة عن الحركة الصهيونية،ورغبة اليهود في إنشاء دولة يهودية عظمى تمتد من النيل إلى الفرات، وأن فلسطين هي حجر الزاوية الرئيس لتلك الدولة.

ما إن وصلت أخبار التقسيم إلى الشعب الفلسطيني حتى تجددت الإضطرابات من جديد واتخذت طابعاً أكثر عنفاً وأبعد عمقاً من ثورة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م وكان يتزعمها أبناء الريف؛ ذلك بسبب غياب القيادة الأساسية لهذه الثورة بزعامة المفتي الحاج أمين الحسيني الذي اضطر إلى مغادرة فلسطين إلى لبنان، وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية طلبت منه الحكومة الفرنسة مغادرة البلاد فذهب إلى العراق بعد أن أمرت سلطات الاحتلال البريطاني إلقاء القبض عليه ؛ لمنعه من إصدار نداءات الجهاد، وخرج معه العديد من القادة الوطنيين([4])، الذين كانوا يطمعون في عودة الوحدة بين بلاد الشام وليس إلى تقسيم فلسطين بين عرب ويهود.

من قبل اليهود عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م أما القسم الجنوبي الغربي من المدينة فهو مدينة يافا كانت تل أبيب إحدى ضواحيها قبل الاحتلال الإسرائيلي عام١٣٦٧هـ/١٩٤٨م. انظر: الموسوعة الفسطينية، ج١، ٥٦٧ ؛ المنجد، ص١٧٨.

([1]) الوثائق الرئيسية...الوثيقة رقم ٣٣، ص٢٢٥ــ٢٣٠ ؛ نجدة فتحي صفوة: العالم العربي في..، الوثيقة رقم٩٠-E ٥٢٤٠٨١ /٧٠٥٥ ، ص٢٥ــ٢٨ ؛ عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٤٢ــ٤٣ ؛ إلياس الشوفاني: المرجع السابق، ص٤٦٨ــ٤٦٩ ؛ Mariano De Madrazo: Op. Cit. p.158

([2]) نوري السعيد(١٣٠٦ــ١٣٧٧هـ/١٨٨٨ــ١٩٥٨م): سياسي وعسكري عراقي كان من ضباط الجيش العثماني، التحق بالثورة العربية في الحجاز وكان من قادة جيش الشريف المتجه إلى سوريا. وهو من أكثر المتمسكين بالسياسة البريطانية. وعندما تولى الأمير فيصل عرش العراق تولى السعيد عدداً من المناصب المهمة في الدولة، كما تولى رئاسة الوزراء أكثر من مرة. وفي ٢٧ ذي الحجة ١٣٧٧هـ/١٤ يوليو ١٩٥٨م قامت ثورة في العراق على النظام الملكي وظل السعيد مختبئاً، ثم خرج متنكراً في ثياب امرأة فعرفه أهل بغداد فقتلوه. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٨، ص٥٣ ؛ محمد الجاسر: المرجع السابق، ص٨٣ــ٨٤ ؛ مير بصري: المرجع السابق، ص١٢٦ــ١٣٠ ؛ أحمد عطيةالله: المرجع السابق، ص١٣١٤.

([3]) عصمت السعيد: نوري السعيد رجل الدولة والإنسان، (دار الساقي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م)، ص٧٢.

([4]) عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٤٣ ؛ عصمت السعيد: المرجع السابق، ص٤٧ ؛ س.ناجي: المفسدون

وفي المقابل لم يخف الصهاينة ابتهاجهم بمبدأ التقسيم وتحقيق حلمهم بالحصول على دولة يهودية، فكانوا يرون أن "نصف الرغيف أفضل من لا شيء" وأبلغ وايزمن رئيس المنظمة الصهيونية وزير المستعمرات البريطاني بموافقته على مبدأ التقسيم، ولكن ليس بالحدود المقترحة([1])، فالصهاينة كانوا يطمعون بأكثر بكثير من أجزاء من فلسطين.

أثار مشروع تقسيم فلسطين في العالم العربي موجة من الاحتجاجات، ففي دمشق نشط المكتب العربي للدعاية والنشر للعمل برئاسة فخري البارودي ودعا نبيه العظم عدداً من الشخصيات السورية لتشكيل لجنة الدفاع عن فلسطين لدراسة الموقف الذي يجب أن يقفه القوميون العرب. وأخذت اللجنة توجه الاحتجاجات إلى سكرتارية عصبة الأمم، وتجري اتصالات واسعة لتشكيل لجان عربية مماثلة، وقد تشكلت على سبيل المثال لجنة الدفاع عن فلسطين في المملكة العربية السعودية، وبعث رئيسها محمد نصيف([2]) برقية إلى مكتب الدعاية والنشر بدمشق يقترح فيها إنشاء جمعية مركزية في مكة لها فروع في المملكة العربية السعودية لنصرة فلسطين، وقد انتهت التحركات العربية إلى قرار عقد مؤتمر شعبي في بلودان([3]).

وتجسمت حركة التضامن مع فلسطين على الصعيد العربي العام في تنظيم مؤتمر بلودان(بلدة من ضواحي دمشق) الذي عقد في٤ رجب ١٣٥٦هـ/٩ سبتمبر ١٩٣٧م وحضره ٤٥٠ عضواً ومبعوثون من مصر وسوريا والعراق ولبنان و شرق الأردن وفلسطين وقرروا:

إن فلسطين بلاد عربية،وأن واجب العرب إنقاذ هذا القطر من الخطر المحدق به، وأن المؤتمر يستنكر فكرة التقسيم ويؤكد أن القضية يمكن أن تحل على أساس إلغاء الانتداب ووعد

في الأرض جرائم اليهود السياسة والاجتماعية عبر التاريخ، (العربي للإعلان والنشر، دمشق، ط٢، ١٩٧٣م)، ص٤٥١ــ ٤٥٥ ؛ رشيد الحاج : المرجع السابق، صLXX.

([1]) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٣٠٤ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب، ج١، ص٤٧١ ؛ الرواية الإسرائيلية الرسمية: الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص١٠٤.

([2]) محمد نصيف تذكر خيرية قاسمية في كتاب جوانب من سياسة الملك عبد العزيز ص٦٣ مرة أن اسمه محمد صالح نصيف، وتارة محمد على نصيف في ص٦٥، الحاشية١، لكنه الراجح أنه محمد صالح نصيف فهو من أعلام الصحفيين في الحجاز، ولد بمدينة جدة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م وتوفي بها عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م عن عمر يناهز الواحد والثمانين. انظر: خيرية قاسمية: جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز ص٦٣ وص٦٥، محمد علي مغربي: أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة(١٣٠١ــ١٤٠٠هـ/١٨٨٣ــ١٩٨٠م)، (دار العلم للطباعة والنشر، جدة،= =ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج١، ص٢٧٧ــ٢٨٦ ؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، ج٦، ص١٦٦.

([3]) خيرية قاسمية: جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز، ص٦٣ــ٦٤ ؛ القضية الفلسطينية والقادة الهاشميون،ص٧٣ــ٧٧.

بلفور وعقد معاهدة بين بريطانيا وعرب فلسطين، وأن يتعهد العرب في فلسطين بأن يعامل اليهود كما تعامل الأقليات في جميع البلاد الأخرى([1]).

وقد بعث محمد نصيف رئيس جمعية الدفاع عن فلسطين في المملكة العربية السعودية كتاباً إلى دمشق يؤكد باسم الجمعية تضامنه مع عرب فلسطين واستعداده للمساهمة في كل ما من شأنه رفع الحيف عن الإسلام والعرب في فلسطين([2]).

أما عن الموقف الدولي من التقسيم فقد كانت ألمانيا تعارض بشدة تشكيل دولة يهودية في فلسطين، على الرغم من أنها كانت متأكدة من أن قيام الدولة اليهودية في فلسطين سيصبح حقيقة واقعة بقوة السلاح البريطاني في يوم من الأيام، أما إيطاليا فقد كانت تخشى من قيام الدولة اليهودية في فلسطين تحت ظل الانتداب؛ حتى لا يقوى النفوذ البريطاني في شرق المتوسط، ولكنها وقفت موقف المتحفظ على الصعيد الرسمي، أما روسيا كانت معارضة لقيام دولة يهودية في فلسطين، أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد كانت متعاطفة بوضوح مع تشكيل دولة يهودية، وهذا بالنسبة للعديد من دول أوربا الشرقية وفي مقدمتها بولندا([3]).

وتجددت الثورة المسلحة بعنف أشد، في أواخر عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م؛ حيث قتل الثوار من الجنود الإنجليز مئة جندي بريطاني وضعفهم من الجرحى، وعينت الحكومة البريطانية خمسة آلاف شرطي لحراسة المستعمرات اليهودية، وبدأ التنكيل والقتل للقضاء على الثورة لكن بلا جدوى، ففي أواخر هذه السنة قامت بريطانيا بإعدام ١٤٨ عربياً بسبب حمل السلاح، وكانت خسائر العرب ألفي جندي معتقل حكم عليهم بالمؤبد، ونسف خمسة آلاف بيت وخمسين ألف معتقل، وثلاثة آلاف شهيد وسبعة آلاف جريح. على اختلاف عدد الضحايا من مصدر إلى آخر([4]).

([1]) نجدة فتحي صفوة: العالم العربي في وثائق، الوثيقة رقم ٣٣- ١٥٢٦/٣٧٣٥٣٢ ، ص٣٣ ؛ أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر ، ص٣١٥ـ٣٢٤ ؛ طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦٧ ؛ قسطنطين خمار: الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية، (المكتب التجاري، بيروت)، ص٨٧ ؛ صلاح العقاد: المرجع السابق، ص٣٥٩ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٢١٤.

([2]) خيرية قاسمية: جوانب من سياسة الملك عبد العزيز، ص٦٤ـ٦٥.

([3]) نجدة فتحي صفوة: العالم العربي في وثائق، الوثيقة رقم ١٥٤٢/٣٧٥٥١٤ ، والوثيقة رقم رقم١٠ – ١٩٩٠٧. E/ ٣٤٩٦ ، ص٤٤ـ٤٥ ؛ نظام شرابي: أمريكا والعرب السياسة الأمريكية في الوطن العربي في القرن العشرين، (دار رياض الريس للنشر، لندن، ط١، ١٩٩٠م)، ص٥٤ـ٥٥ .

([4]) طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦٨ ؛ يزيد صايغ: المرجع السابق، ص٣٩ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب..،ج١، ص٤٧٢ـ٤٧٣ ؛ Roberto Mesa: : Op. Cit , p. 90

في عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م قدم الشريف عبد الله بن الحسين مشروعاً للحكومة البريطانية يكون بدلاً لمشروع لجنة بيل الملكية الذي رفضه العرب وأهم بنود مشروع الشريف عبد الله:

١. إنشاء دولة عربية تضم الأردن وفلسطين، تقوم الدولة بمهامها وتنفيذ تعهداتها الدولية.
٢. يكون لليهود في برلمان هذه الدولة العربية ممثلين عددهم بمقتضى القاعدة النسبية.
٣. يمنح اليهود في المناطق اليهودية إدارة مختارة في الشؤون البلدية والتنظيم.
٤. تخفض الهجرة اليهودية إلى نسبة معقولة. ولا يحق لليهود شراء أرض ولا إدخال مهاجرين خارج المناطق المحددة لهم.
٥. لا تتجاوز مدة الانتداب البريطاني ٨ـ١٠ سنوات([١]).

بيد أن المظاهرات قامت في فلسطين والبلاد العربية ضد مشروع التقسيم وصاحبه([٢])، واتسعت الثورة اتساعا كبيرا في عام١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م؛ بحيث اضطرت الحكومة البريطانية إلى استخدام الطائرات والدبابات ومختلف أنواع المدفعية لقمعها. وقد نجحت الثورة في تحرير بعض المدن والمناطق لفترة قصيرة، وأقامت فيها إدارات محلية، حتى القضاء انتقل إلى أيدي محاكم أقامتها قيادة الثورة. ومن المدن التي تحررت لفترة قصيرة نابلس وجنين وطولكرم والقدس وبعض ضواحيها([٣]).

كانت منظمات الإرهاب اليهودية يسلحها الجيش البريطاني ؛ حتى تهاجم المدنيين الفلسطينيين، فقد أخذت العصابات اليهودية بزرع العديد من القنابل والألغام في المقاهي الشعبية، كما استخدموا شاحنة مفخخة فجروها في سوق حيفا للخضار وراح ضحية هذا الحادث ٧٤ شهيداًو ١٣٠ جريحاً فلسطيني([٤]).

([١]) إبراهيم الشريقي: الثورة العربية الكبرى دوافعها وحصادها والأحداث التي مرّ بها المشرق العربي، حقائق وأسرار تنشر لأول مرة خلاصة ملفات الوثائق والدراسات الدولية، تصحيح تاريخ العرب المعاصر، (الدراسات الدولية (مؤسسة العرب)، لندن، ط١، ١٩٨٤م)، ص٦٢.

([٢]) علينا أن نشير هنا إلى أن الشعب الفلسطيني كانوا متعلقين بمفتي القدس الحاج أمين الحسيني الذي كان على خلاف مع الشريف عبد الله بن الحسين وطلب منه في صحيفة اللواء التي تصدر في القدس عدم التحدث باسم فلسطين، ولا التدخل في شؤونها. انظر: إبراهيم الشريقي : المرجع السابق،ص٦٢.

([٣]) محمد عزة دروزة: حول الحركة العربية الحديثة، (منشورات المكتبة العصرية، بيروت)، ج٣، ص٢٠١؛ إبراهيم الشريقي: المرجع السابق، ص٦٢ ؛ طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦٨.

([٤]) طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٧١ ؛ واصف عبوش: المرجع السابق، ص١٦٨ ؛ Roberto Mesa: Op. Cit, p. 92.

ونال اليهود أنفسهم قسط من الإرهاب اليهودي ؛ حيث قامت مجموعة إرهابية يهودية في ٨ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ/ ٦ يوليو ١٩٣٨م بتفجير عدد من السفن التي وصلت إلى ميناء حيفا بما فيها من مهاجرين يهود ؛ بهدف لفت الرأي العام الدولي إلى قضية الهجرة اليهودية وجعل العالم يمارس الضغط على حكومة الانتداب بالسماح لأعداد أكثر بالهجرة إلى فلسطين؛ لأن بريطانيا عمدت إلى إصدار قرار يحد من الهجرة اليهودية لفلسطين ؛ لتهدئة السكان العرب في فلسطين والالتفاف على ثورتهم، مما أثار غضب الحركة الصهيونية العالمية([1]).

هذا بالإضافة إلى الإرهاب الإنجليزي الذي قام به زبانية التحقيق في دوائر التحقيقات البريطانية لمن يلقي القبض عليهم من العرب، والتي تقشعر لها الأبدان، ومنها الضرب والجلد بالعصي إلى درجة الموت، وإدخال الخوازيق، وسد الفم بالقطن وصب الماء من أقماع في أنوف الضحايا، وتجويع الكلاب وتهييجها ودفعها لتنهش لحم الضحايا إلى غير ذلك من أساليب التعذيب الوحشي التي لا يتسع لها المجال هنا([2]).

وتذكر المصادر الصهيونية أن المشاركين في الثورة العربية الكبرى في فلسطين كانوا بصورة رئيسة من الطبقات الشعبية في المجتمع العربي الذين أطلقوا عليهم"أنهم مجرمين ولصوص وقاطعي طريق"، أما المثقفون والأفندية العرب، الذين عملوا أعواماً عديدة في التحريض وإشعال فتيل الثورة، فإنهم لم يحملوا السلاح ـ ولم يخرجوا لمواجهة العدوـ، ماعدا عبد القادر الحسيني ابن موسى الحسيني([3]). ويجب أن نوضح هنا للقارئ أنه لو كان الحديث عن المثقفين صحيحاً لما اضطهدتهم القوات البريطانية وأرغمتهم على مغادرة البلاد، فربما تكون هذه الرواية صحيحة وتنطبق على بعض المثقفين المتخاذلين، أما بالنسبة إلى الادعاء بأن قادة الثورة كانوا من المجرمين، فعلينا أن نتساءل هنا هل هناك مجرم أفاق يضحي بحياته من أجل الحفاظ على بلده ؟!، طبعاً لا، فلو كانوا من الأفاقين المجرمين كما تزعم الرواية الإسرائيلية لكان من الأفضل لهم الانضمام إلى البريطانيين وحلفائهم الصهاينة، فهؤلاء يملكون الأموال الطائلة، وليس السعي وراء الشعارات الوطنية والجهاد الذي سوف يودي بحياتهم.

بعد أن زادت حدة الثورة في فلسطين واتسع نطاقها أرسلت الحكومة البريطانية لجنة سير جون وودهيد([4]) في الفترة من صفرـ جمادى الأولى ١٣٥٧هـ/ ابريل إلى يوليو ١٩٣٨م لتحديد وسائل تحقيق التقسيم وشكله، لكن ما أن وصلت هذه الجنة إلى فلسطين وشاهدت الوضع

([1]) ألياس الشوفاني: المرجع السابق، ص٤٩٢ ؛ جان بييرالم: الشرق الأوسط، ص١٧.

([2]) أكرم زعيتر : يوميات أكرم زعيتر ، ص٤٣٤.

([3]) الرواية الإسرائيلية الرسمية: الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص١٥٤.

([4]) المزيد من المعلومات حول تقرير وودهيد انظر:الوثائق الرئيسية... الوثيقة رقم ٣٥، ص٢٤٢ـ٢٦٣.

المتردي هناك ؛ حتى أعلنت أن تقسيم فلسطين أمر غير عملي ولا يمكن تنفيذه على أرض الواقع، وبذلك تخلت الحكومة البريطانية عن التقسيم حال إعلان لجنة ودهيد تقريرها في رمضان ١٣٥٧هـ/ نوفمبر ١٩٣٨م([١]).

وأمام ذلك استخدمت بريطانيا في سبيل إيقاف هذه الثورة مختلف الأساليب البشعة كالقصف بالطائرات الحربية، وترويع السكان وفرض الغرامات النقدية عليهم وتهديم بيوتهم، وفرضت غرامات مالية وعينية على أهالي القرى العربية، وأقامت المحاكم العسكرية التي أمرت باعتقال الآلاف من الشباب، وتنفيذ حكم الإعدام بالمئات منهم، كما قامت بنفي عشرات العرب ممن كانوا ينتمون إلى الهيئة العربية العليا إلى جزيرة " سيشل " الواقعة في المحيط الهندي. لقد مارسة بريطانيا أساليبها تلك في محاولات يائسة منها لإخماد الثورة المتأججة في صدور عشرات الآلاف من أبناء الشعب الفلسطيني؛ ولقتل روح المواجهة والمقاومة والصمود في نفوسهم ، لكن تلك المحاولات لم تلق سوى الفشل على أيدي الثوار الفلسطينيين الذين ظلوا يسيطرون على أجزاء كبيرة جدا من فلسطين، يقاومون منها الاستعمار البريطاني والمنظمات، ثم استقدمت قوات عسكرية إضافية وعينت الجنرال هايننغ قائداً للقوات العسكرية، وهو ثالث قائد عام يأتي إلى فلسطين خلال سنتين لما عرف عنه من عنف وجبروت. وقد تمكن هذا الضابط في مطلع عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م من إلحاق خسائر كبيرة بالثوار ومحاصرتهم في الريف([٢]).

لكننا نجد أن بريطانيا بعد اندلاع الثورة في فلسطين عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م واستمرارها ثلاث سنوات، نما عندها في الأوساط السياسية البريطانية تيار قوي يدعو إلى ضرورة إعادة النظر في السياسة العربية لبريطانيا، في ظل الظروف الدولية المستجدة من شأنها إشاعة عدم الاستقرار السياسي في المنطقة، والتأثير في الرأي العام العربي وتأليبه ضد بريطانيا، في وقت هي في أمسّ الحاجة لتعزيز رصيدها في المنطقة، خاصة وأن غيوم الحرب العالمية الثانية أخذت تتجمع.

ذلك عندما بدأت تظهر بوادر الغزو الألماني لبولندا في بداية عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م وبدأ يخيم شبح الحرب على أوروبا([٣]) تذكرت بريطانيا حلفاءها العرب، خاصة وأنها كانت مسيطرة

([١]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم٣٤١،ص٥٢٤ ؛ علي أبو حسن: المرجع السابق، ص٤١٨ـ٤١٩ ؛ Roberto Mesa: Op. Cit , p. 90

([٢]) أكرم زعيتر : يوميات أكرم زعيتر ، ص٣٧٠ ؛ واصف عبوش: المرجع السابق، ص١٦٨ ؛ علي أبو الحسن: المرجع السابق، ص٤١٧.

([٣]) عبد العزيز نوار، عبد المجيد نعنعي : التاريخ المعاصر أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، (دار لنهضة العربية، بيروت)، ص٦٣٠.

عملياً على الأردن والعراق ومصر، ويساندها الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان. والصهيونية في فلسطين ونفوذها في العالم.

لذلك اقترحت بريطانيا عقد مؤتمر في لندن عرف باسم مؤتمر المائدة المستديرة لوضع حل للمشكلة الفلسطينية ؛ بحيث تجري فيه مفاوضات ثلاثية- ثنائية، ثلاثية بمعنى أن أطرافها ثلاثة: بريطانيا والقيادة العربية والقيادة الصهيونية، وثنائية بمعنى أن الأطراف الثلاثة لا يجلسون حول مائدة واحدة([1])، بل تجري المفاوضات بين ممثلي بريطانيا وقيادة الحركة القومية العربية من ناحية،وبين ممثلي بريطانيا والقيادة الصهيونية من ناحية ثانية([2]).

فمنذ أوائل الثلاثينيات وصلت إلى فلسطين العديد من الوفود ولجان التحقيق وتقصي الحقائق بهدف إعداد التقارير والتقدم بتوصيات للحكومة البريطانية بشأن الأوضاع ونتائج السياسات المتبعة فيها، وبعد دراستها لتلك التقارير، وبخاصة تقرير لجنة بيل الملكية عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م الذي أوصى بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وعدم اقتناعها بنجاح فكرة التقسيم، فقد قررت الحكومة البريطانية طرح سياسة بديلة، والدعوة لعقد مؤتمر يشارك فيه العرب الفلسطينيون واليهود الصهاينة وممثلون عن حكومات العراق والسعودية ومصر وشرقي الأردن، لتدارس المسودة التي أعدت في هذا الشأن([3]).

ويمكننا القول أن بريطانيا دعت إلى هذا المؤتمر على الرغم من معرفتها المسبقة بفشله ولكنها كانت تريد أن تكسب بعض الوقت خاصة وأن غيوم الحرب العالمية الثانية بدأت تتجمع، ولخوفها على مصالحها في العالم العربي المؤيد للقضية الفلسطينية.

وفي ١٨ ذو الحجة ١٣٥٧هـ/٧ فبراير ١٩٣٩م عقد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن واستغرق انعقاده نحو أربعين يوماً افتتح رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشمبرلين Chamberlain([4]) المؤتمر في قصر سان جمس بحضور الوفد البريطاني برئاسة مالكوم

([1]) لأن العرب كانوا يرفضون الجلوس مع الصهاينة على مائدة واحدة. انظر: وثائق المملكة، الوثيقة ٥٨، ص٨٨ـ٨٩ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٢٤٠.

([2]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٢٤٠ ؛ صلاح العقاد: المرجع السابق، ص٣٦٣.

([3]) جمال مسعود ، وفاء جمعة: المرجع السابق، ص٢٥٤ـ٢٥٩ ؛ القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني: (وزارة الدفاع الوطني ـ الجيش اللبناني ـ الأركان العامة ـ الشعبة الخامسة ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٧٣م)، ص٨٦ـ٨٩ ؛ عبد الرحمن عبد الغني: المرجع السابق، ص١٤٥ـ١٤٩.

([4]) أرثر نيفيل تشمبرلين Chamberlain(١٢٨٦ـ١٣٥٩هـ/١٨٦٩ـ١٩٤٠): سياسي بريطاني وهو ابن جوزيف تشمبرلين من زعماء حزب المحافظين، تولى وزارة المالية في الفترة(١٣٥٠ـ١٣٥٦هـ/١٩٣١ـ١٩٣٧م)، ثم رئاسة الوزراء في الفترة من (١٣٥٦ـ١٣٥٩هـ/١٩٣٧ـ١٩٤٠م)، فشل في الوقوف في وجه المطامع الإيطالية في إثيوبيا، أعلن الحرب على ألمانية عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، فشل في حملة النرويج

ماكدونالد وزير المستعمرات والوفود العربية([1])، فقد دعت بريطانيا لحضور المؤتمر حكومات الدول العربية في المنطقة، واشتركت في مؤتمر فعلا حكومات العراق ومصر والأردن والمملكة العربية السعودية واليمن. أما سوريا ولبنان فأهملت بريطانيا دعوتهما تجنبا للاحتكاك بفرنسا([2]). وكان الوفد الفلسطيني([3]) برئاسة جمال الحسيني، أما الوفد الصهيوني كان برئاسة وايزمن، لكنه انسحب من المؤتمر فقد اختلف موقفهم مع موقف البريطانيين؛ نظراً لتمسك العرب بمبدأ إيقاف الهجرة وانتقال ملكية الأراضي إلى اليهود كشرط مسبق لأي حل، واستمر العرب في مفاوضاتهم مع بريطانيا، حيث ذكروها بوعدها في المراسلات التاريخية بينها وبين الشريف حسين (مراسلات الحسين مكماهون)([4])، وقد خصصت المرحلة الأولى منه لدراسة مراسلات

فأعلن استقالته عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م، وخلفه تشرشل. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٢٩٧ ؛ سمير شيخاني: المرجع السابق، ج٢، ص٣٣٩ــ٣٤٠ ؛ المنجد: ص١٧٥.

([1]) حضر المؤتمر وفد سعودي برئاسة الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود ووفد مصري برئاسة سفير مصر في لندن الأمير محمد عبد المنعم ووفد عراقي برئاسة رئيس الوزراء نوري السعيد ووفد شرق أردني برئاسة رئيس الوزراء توفيق أبو الهدي كما دعي وفد يمني برئاسة الأمير سيف الإسلام الحسيني. أما الوفد الصهيوني، فقد ترأسه حاييم وايزمن رئيس الوكالة اليهودية. انظر: مؤتمر فلسطين العربي البريطاني المنعقد في مدينة لندن في ١٨ ذي الحجة ١٣٥٧هـ/٧ فبراير ١٩٣٩م، محاضر جلساته وتقارير لجانه مترجمة عن الإنجليزية، (دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ص١٩ــ٢٢.

([2]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٢٤٠ــ٢٤١.

([3]) تألف الوفد الفلسطيني من أعضاء اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني الذي اعتذر،وانتدب جمال الحسيني نيابة عنه، أما أعضاء الوفد فهم أحمد حلمي باشا ، عوني عبد الهادي ، الدكتور حسين الخالدي وعزة دروزة ، ألفريد روك ، عبد اللطيف صلاح ، يعقوب الغصن ، فؤاد سابا ، موسى العلمي ، أمين التميمي ، جورج أنطونيوس سكرتيراً للوفد. انظر: أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص٥٥٣ ؛ وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم ٤٠٩، ص٥٧١.

([4]) علماً بأن تلك المراسلات بقيت طي الكتمان إلى أن نشرت بشكل غير رسمي في ملاحق تقرير لجنة بيل الملكية عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م، ثم ظهرت في كتاب جورج انطونيوس "يقظة العرب" الذي صدر في لندن في عام١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ولم تنشر على نحو رسمي من قبل الحكومة البريطانية إلا مع افتتاح المؤتمر، وتركزت المناقشات التي استغرقت نحو أسبوع حول ما إذا كانت فلسطين قد اعتبرت في تلك المراسلات ضمن الأراضي التي تعهدت بريطانيا بأن تتمتع بالاستقلال والسيادة العربية. وإزاء عدم التوصل إلى نتيجة، تم تشكيل لجنة= =فنية للتدقيق في ترجمة تلك المراسلات وفحواها شارك فيها جورج انطونيوس عن الجانب العربي. وقد جاء تقرير اللجنة غامضاً وملتبساً؛بحيث لم يعط جواباً قاطعاً بذريعة أن المراسلات قديمة والكتابة فيها غير واضحة، الأمر الذي جعل ترجمة بعض نصوصها أمراً متعذراً. انظر: جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٥٤٣ــ٥٧٧ ؛ مؤتمر فلسطين، ص٨٩ــ ١٠٣ وص٣٢٦ــ٣٤٢.

حسين ــ مكماهون لعام ١٣٣٤هــ/١٩١٥م بناء على طلب الوفود العربيــة([1])، وقــد اتخــذت الحكومة البريطانية موقفاً سلبياً من تلك المراسلات أثــناء المؤتمر([2]) عنــد إصــدارها الكتــاب الأبيض كما سيرد لاحقاً في المبحث التالي.

ومن جهة ثانية، قدمت الحكومة البريطانية للمؤتمر مسودتين للكتاب الأبيض، حيث جــاء في المسودة الأولى المقدمة في ٥ محرم ١٣٥٨هــ/٢٥ فبراير ١٩٣٩م أن الحكومة عازمة على إلغاء الانتداب في "الوقت المناسب"، حيث تقوم مقام هذا النظام دولة فلســطينية مســتقلة تــرتبط بمعاهدة مع بريطانيا، على أن يعقد مؤتمر حول مائدة مستديرة في لندن فــي فصــل الخريــف القادم، لوضع تفاصيل الدستور للدولة، وشروط المعاهدة بحيث تتمتع الأقلية اليهوديــة بحمايــة مقترنة بضمانات([3]). وإزاء رفض الوفد الفلسطيني والوفد الصهيوني، تم تقــديم مســودة ثانيــة في٢٣ محرم ١٣٥٨هــ/١٥ مارس ١٩٣٩م نصت على إمكانية قيام دولة "ذات صيغة فيدرالية"، وعلى فترة انتقالية لعشر سنوات تسبق قيام الدولة، إلى جانب السماح لخمســة وســبعين ألــف يهودي بالدخول إلى فلسطين خلال الخمس سنوات الأولى، ثم لا يســمح بــالهجرة اليهوديــة إلا بموافقة العرب. ونتيجة للرفض الصهيوني لكل تلك المقترحات،واعتراض الجانــب الفلســطيني على العديد من النقاط، أعلنت

([1]) أسماء الجنة الخاصة التي تشكلت لدراسة المراسلات هي:

أولاً: الجانب العربي: نوري السعيد رئيس وزراء العراق ، عبد الرحمن عزام الوزير المفوض في بغــداد وجــدة، عوني عبدالهادي عضو في الوفد الفلسطيني للمؤتمر، موسى العلمي عضــو فــي الوفــد الفلســطيني العربــي والسكرتير العام للوفود العربية.

ثانياً: الجانب البريطاني: السر ميتشيل ماك دونيل رئيس المحكمة العليا في فلسطين(مستشار الوفد العربي)، اللــورد موم قاضي القضاة في بريطانيا، السر جزئام بوش المستشار القضائي في وزارة الخارجية البريطانيــة، المســتر هيورث دون مستشار (وهو أستاذ اللغة العربية بمدرسة الدراسات الشــرقية بجامعــة لنــدن)، المســتر ج. ر. كولولفيل السكرتير الثالث بوزارة الخارجية البريطانية. وعقدت اللجنة أربع اجتماعات في أيام ٤ و٥ و٩ محــرم ١٣٥٨هــ/ ٢٣ و ٢٤ و ٢٨ من شهر فبراير ١٩٣٩م وفي٦ صفر ١٣٥٨هــ/٢٦ مارس ١٩٣٩م. انظر: بكر خازر المجالي: رَحَل ثائراً ألفا يوم في قبرص الحسين بن علي ملكاً في المنفى نفــي الجســد وحيــاة الثــورة= =والنهضة أيام قبرص وعَمان، ١٧ حزيران ١٩٢٥ــ٣ حزيران ١٩٣١م، (وزارة الثقافــة، عَمــان، ٢٠٠٣م)، ص١٨٢ــ١٨٣.

([2]) وكان لنا وجهة نظر في هذه المراسلات ذكرناها في رسالتنا لدرجة الماجستير وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: جهان عبد الرحيم: المرجع السابق، ج١، ص١٥٠ــ١٦٩.

([3]) مؤتمر فلسطين العربي البريطاني، محضر الجلسة ١١، ١٢، ص١٩٨ــ٢١٢؛ الوثــائق الرئيســية، محضــر الجلسة ١١ ، ١٢، ص٢٩٥ــ٢٩٩.

بريطانيا عن انتهاء المؤتمر وذلك بعد يوم واحد من تقديم المسودة الثانية([1]).

وفي النهاية أصدر الوفد الفلسطيني بيانه الختامي والذي تضمن عدم شرعية وعد بلفور، إضافة إلى تنظيم العديد من الأمور الأخرى كالهجرة اليهودية وبيع الأراضي([2])، ولكن الحكومة البريطانية تذرعت بالخلافات الناشئة عن تمسك الوفدين الفلسطيني والعربي بمبادئهم هادفة إلى إنهاء أعمال المؤتمر. والانفراد مجدداً برسم سياستها الخاصة بالوضع في فلسطين وفقاً لمصالحها المرتبطة مع الصهيونية العالمية، واعتقد القادة العرب أن بريطانيا قبلت بوجهة نظرهم الداعية إلى إنهاء، الانتداب وتأسيس حكومة فلسطينية مستقلة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا، وانفض المؤتمر دون الوصول نتيجة إيجابية([3]).

بعد فشل المفاوضات في مؤتمر لندن أعلنت الحكومة البريطانية الخطة السياسية الجديدة التي سوف تتبعها في إدارة فلسطين خاصة وأن طبول الحرب العالمية الثانية بدأت تدق لذلك لجأت بريطانيا إلى إصدار الكتاب الأبيض في مايو عام١٣٥٨هـ/١٩٣٩. أعلنت فيه بريطانيا أنها لا تفهم من عبارة إنشاء وطن قومي يهودي التي جاءت في وعد بلفور ونظام الانتداب تحويل فلسطين إلى دولة يهودية. وأنها ترى واجبها في قيام دولة فلسطينية في النهاية([4]). وهذا ما سوف نتطرق إليه في التعريف بملامح السياسة البريطانية في فلسطين وشرق الأردن في المبحث الثالث من هذا الفصل.

فعلى صعيد الثورة والثوار، فقد رفض الثوار الكتاب الأبيض لعام١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م وعلى أرض فلسطين شهد الوضع خلال انعقاد مؤتمر سنت جيمس؛ تصعيداً في العمليات العسكرية تواصل حتى رجب ١٣٥٨هـ/سبتمبر ١٩٣٩، وعشية اندلاع الحرب العالمية الثانية أخذت القيادات المحلية بعد ذلك تنهار وتغادر ميادين القتال؛ حيث أدى التحالف الفرنسي ــ البريطاني إلى إغلاق طريق الإمدادات القادمة من سورية ولبنان، كما كانت الحدود مع شرقي الأردن قد أغلقت([5]).

([1]) مؤتمر فلسطين العربي البريطاني، محضر الجلسة ١٣، ١٤، ص٢٢٢ــ٢٤٨؛ الوثائق الرئيسية، محضر الجلسة ١٣ ، ١٤، ص٢٩٩ــ٣٠٣.

([2]) مؤتمر فلسطين العربي البريطاني، ص٢٤٨ــ٢٥٠.

([3]) محمد عزة دروزة: حول الحركة العربية الحديثة، ج٣، ص٢٣٥– ٢٣٦ ؛ القضية الفلسطينية، ج١، ص٢٤١ــ٢٤٤.

([4]) واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٥٤ ؛ القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني: ص٨٨ــ٨٩.

([5]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص١٤٧ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٤٠٨ــ٤٠٩ ؛ س.ناجي: المرجع السابق، ص٤٥٥ــ٤٥٦.

أما عن الإحصائيات الرسمية لهذه الثورة فإن السلطات البريطانية تذكر أن عـدد قتلاهـا يقدر بخمسة وأربعين، وجرحاها ٢٦٠، وأن قتلى اليهـود ٨٠، وجرحـاهم حـوالي ٣٠٠، وأن العرب قتل منهم٢٠٠، وجرحاهم ٨١٠ . أما المصادر العربية فتقدر عدد الشهداء ٥٠٣٢ شهيد ، وجرح ١٤.٧٦٠ شخص، كما بلغ عدد الذين زجوا فـي السـجون والمعتـقلات ٥٠.٠٠٠ شخص صدرت أحكام بالسجن المؤبد على ٢٠٠٠ منهم، وأعدم ١٤٦ مجاهد([1]).

ب ــ الكفاح الوطني في شرق الأردن ضد الاستعمار البريطاني:

إن الثورة ضد المستعمرين بدأت في شرق الأردن قبل معركة ميسلون وذلك عندما قـررا أهالي شرق الأردن بزعامة الشيخ كايد المفلح العبيدات([2]) الهجوم على الإنجليز واليهـود فـي سمخ وبيسان وبعض المستوطنات اليهودية القريبة من شرق الأردن([3])، وكان القائمقام([4]) علـي خلقي الشرايري([5]) من المشجعين على هذه الثورة، في رجب ١٣٣٨هـ/إبريل ١٩٢٠م قطعـوا الثوار ــ وكان عددهم ثلاثمائة فارس ــ سكة الحديد الواصلة بين حيفا ودمشق، والمواصـلات

([1]) أكرم زعيتر:القضية الفلسطينية، ص١٠٩ ؛ يزيد صايغ: المرجع السابق، ص٣٩ ؛ وليد الخالدي: كي لا ننسـى قُرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨م وأسماء شهدائها، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٣، ٢٠٠١م)، ص٧٣٥ــ٧٣٦.

([2]) الشيخ كايد المفلح العبيدات(١٢٨٥ــ١٣٣٨هـ/١٨٦٨ــ١٩٢٠م): ولد في كفر سوم شمال الأردن، كان زعـيم منطقة الكفارات، في عام ١٩١٧م دعا الشيخ كايد لتشكيل قوة مسلحة لمنع وصول المعتدين اليهود إلى فلسـطين وشرق الاردن، وراح يشتري السلاح ويدرب الشباب لمواجهة القوة الاستعمارية الصهيونية والبريطانية، وفـي عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م قرر الشيخ كايد ومن معه الهجوم علـى الحاميـة البريطانيـة الموجـودة فـي سـمخ والمستوطنات اليهودية المجاورة، واستشهد الشيخ كايد في هذه الحملة على يد سلاح الجو البريطـاني. انظـر: محمود محسن المهيدات: قافلة مـن شـهداء شـمالي الأردن والانتفاضـة المباركـة، (دار الكنـدي، أربـد)، ص١١١ــ١١٢.

([3]) انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ١٠.

([4]) القائمقام:رتبه عسكرية كانت تطلق على قادة الجيش في العهد العثماني، وهي تعادل العقيد في الوقـت الحـالي. انظر: سعد أبو دية: قراءة في أوراق..، الحاشية رقم ٧، ص٢٨٧.

([5]) علي خلقي الشرايري(١٢٩٩ــ١٣٧٩هـ/١٨٨٢ــ١٩٦٠م): ولد في أربد درس بدمشـق، ثـم التحـق بكليـة الآستانة الحربية وتخرج منها سنة١٣٢٠هـ/١٩٠٢م، وتولى عدد من المناصب العسكرية في الدولة العثمانيـة، التحق بثورة الشريف حسين في وقت متأخر جداً ، فقد كان مخلصاً للدولة العثمانية على الرغم من وجوده فـي الحجاز كحاكم عسكري في مكة المكرمة سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م أي أيام الثورة إلا أنه لم يلتحق بها، والظـاهر أنه بعد خروج الدولة العثمانية، التحق بثورة الشريف للدفاع عن بلاده من الحكم الأجنبي، عينه الأمير فيصل بن الحسين قائد للواء السادس في الجيش العربي في سوريا، وبعد انهيار الحكم الفيصلي في سوريا، آثر الشـرايري العودة إلى أربد لمواصلة المقاومة ضد المستعمر الأجنبـي. انظـر:سـعد أبـو ديـة: قـراءة فـي أوراق..، ص٢٨٥ــ٢٩٨.

البرقية والهاتفية مما دفع القوات البريطانية إلى قصف الثوار بالطائرات(1) والقنابل والرشاشات قرب سمخ وبيسان ونهر اليرموك ونهر الأردن، وبعد أن أنجز المجاهدون الأردنيون مهمتهم، عادت القوات العربية إلى قراها في شرق الأردن بعد أن استشهد عشرة أردنيين من بينهم الشيخ كايد المفلح العبيدات قائد قوة الخيالة(2).

لقد كان الشعب الأردني يتطلع إلى الوحدة والاستقلال قبل تأسيس الإمارة في شرق الأردن، وكان استقبالهم للأمير عبد الله بين الحسين مبنياً على اعتبار أنه المنقذ لسوريا وفلسطين والأردن وجميع بلاد الشام، وذلك بناءً على المنشور الذي أذاعه في معان في ربيع الأول ١٣٣٩هـ/ نوفمبر ١٩٢٠م، والذي جاء فيه ما يلي: " فليعلم أبناء سوريا أن ما أصابهم من الضياع المحزن، من اعتداء رجال الاستعمار الفرنسي على وطنهم... قد أثر على حواس كل عربي على وجه الأرض.. ليعلم أبناء سوريا أن هؤلاء المعتدين... عدوكم من جملة من أدخلوه تحت عار استعمارهم في مصاف الزنوج والبرابرة. وظنوا أنكم لستم من ذوي الغيرات وأصحاب الحميات. كيف ترضون بأن تكون العاصمة الأموية مستعمرةفرنسية؟!.. إن رضيتم بذلك فالجزيرة لا ترضى، وستأتيكم غضبى. وإن غايتنا الوحيدة هي، كما يعلم الله، نصرتكم وإجلاء المعتدين عنكم"(3). من هذا المنشور نلاحظ تغير الخطاب السياسي للأمير عبدالله بعد تعينه أميراً على شرق الأردن.

فبعد معركة ميسلون اتخذ الوطنيون السوريون من شرق الأردن مقاماً لهم ملجأ أساسي للثوار السوريين الذين أتخذوا منه مركزا لعملياتهم العسكرية ضد الفرنسيين، وقام الأردنيون بتقديم كل عون ومساعدة لإخوانهم الثوار(4). وقد نقلت الصحف أخبار الثوار في عجلون وتخريب وقطع سكة الحديد بين عَمان ودمشق، ودرعا وحيفا، ونسف الجسور، وقد طلبت الحكومة الفرنسية من الحكومة البريطانية إبعاد الوطنيين السوريين من شرق الأردن، بل إنها فكرت في غزو الأردن إن استمر الوضع على ما هو عليه(5). فبعد تأسيس الإمارة كانت أبرز الأعمال التي قام بها الثوار السوريون بدعم من الوطنيين الأردنيين محاولة اغتيال الجنرال غورو، ففي١٦ شوال ١٣٣٩هـ/٢٣ يونيو ١٩٢١م تعرض الجنرال غورو المندوب السامي

---

(1) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٣١ ؛ يعقوب الدجاني: المرجع السابق، ص٢٨ ؛ عطية محمد عطية وآخرون: مفاهيم أساسية في التربية الإسلامية والاجتماعية، (در الفكر، عَمان، ١٩٩١م)، ص٢٩٠.

(2) يعقوب الدجاني: المرجع السابق، ص٢٨ ؛ محمود محسن المهيدات: المرجع السابق، ص١١١ــ١١٢.

(3) عبد الله بن الحسين : الآثار الكاملة، ص١٥٦ــ١٥٧.

(4) جريدة القبلة: العدد ٤٢٢ ، ٢٤ محرم ١٣٣٩هـ/٧ أكتوبر ١٩٢٠م، ص٣.

(5) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٣١.

الفرنسي لسوريا ولبنان لمحاولة اغتيال قرب قرية القنيطرة في جنوب سوريا، واتهم أعضاء حزب الاستقلال العربي في الأردن بتدبير الحادث الذي أدى إلى مقتل مرافق الجنرال غورو وإصابة حقي العظم([1]) حاكم دمشق بجروح، قد طالبت الحكومة البريطانية بالمتهمين، لأنها كانت ترى في القادة الاستقلاليين مشاغبين؛ لأنهم قاوموا التدخل البريطاني في الشؤون الإدارية والمالية لشرق الأردن، لذلك طالبت الحكومة البريطانية من حكومة علي رضا الركابي تطهير الجيش العربي من الضباط الاستقلاليين، والتخلص من قادتهم المدنيين، وقد نفذ الركابي هذه الأوامر في محرم ١٣٤٣هـ/أغسطس ١٩٢٤م، وتمت تصفية الاستقلاليين وإخراجهم من الإدارة الأردنية ومن البلاد كلها([2]).

وقد اعتبر الأمير عبد الله أن هذه الإجراءات من ضمن النضال السياسي السلمي الذي اعتمده سبيلاً لتحقيق أهدافه الوطنية والقومية، لأنه يرفض التطرف في العمل السياسي، وفي هذا الصدد قال الأمير في خطاب ألقاه على رجال الحكومة: "..إن الأمم لا تصل إلى غايتها إلا بالعقل، والعقل يكون بالنظام..أما الذين ينصاعون إلى الفوضى ولا يدخلون البيوت من أبوابها..هؤلاء ليسوا إلا خطراً على بلادهم مهما حاولوا تبرير أعمالهم..إن المقاومة التي تجلب الشر ليست سوى جريمة.. أنا لا أخون الله والأمانة التي أودعت إلي، بل أجهر بالحق ليسمع الجميع. أن كل من يعبث بالأمن في سوريا وفلسطين من دعاة الفتنة نعتبره خارجاً علينا.. إنكم لتعلمون أن الأمم التي انتدبت لمساعدة العرب هما إنكلترا وفرنسا، ونحن لا نستطيع التعاون مع هذه الأمم إلا بالإخلاص.."([3]).

من هذا الخطاب يتضح لنا موقف الأمير من مقاومة العرب للاستعمار الأجنبي فالحكومة البريطانية لم تنصب الأمير عبدالله إلا وهي على علم بأنه سوف يحافظ على مصالحها واستقرارها في المنطقة، هذا بالإضافة إلى أننا نلاحظ أن المقاومة العربية للاستعمار سواء كان

([1]) حقي العظم(١٢٨٢ــ١٣٧٤هـ/١٨٦٥ــ١٩٥٥م): مسلم من مواليد دمشق، عين عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م مفتشاً في وزارة الأوقاف في اسطنبول، قصد مصر وهو من أعضاء حزب اللامركزية في القاهرة، ومن مؤيدي ثورة الشريف حسين في الحجاز، لكنه كان أيضاً صديق وفي للحكومة الفرنسية، لذلك لما احتل الفرنسيون سوريا أبرقوا إليه وأقاموه حاكماً على ما سموه دولة دمشق (١٣٣٨هـ/١٩٢٠م) واستمر حاكماً اسمياً لدولة دمشق مدة خمس سنوات، وعندما وحدت بعض أجزاء سورية عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م زالت وظيفته كحاكم، وتولى عدد من المناصب الحكومية، ثم= =عاد إلى القاهرة عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٢٦٥ــ٢٦٦ ؛ زهير الشلق : المرجع السابق، ص١١٩ــ١٢٠.

([2]) علي محافظة: الفكر السياسي..،ج١، ص٧٠ــ٧١ ؛ العلاقات الأردنية البريطانية..، ص٣٩ــ٤٠ ؛ دافيد فرومكين: المرجع السابق، ص٥٧٤.

([3]) عبد الله بن الحسين : الآثار الكاملة، ص١٧٦ــ١٧٩.

الفرنسي أو البريطاني كان ينطلق من مبدأ الوحـدة العربيـة، فعنـدما اسـتعمل السـوريون و الفلسطينيون الأراضي الأردنية، لتنطلق منها المقاومة؛ كان ذلك بسبب تأصل هذا المبدأ عنـدهم منذ أيام الدولة العثمانية، وتأكيد قادة ثورة الحجاز عليه عندما استدرجوا أهل الشام فـي الثـورة على العثمانيين.

وإن أكثر ما كان يقلق الساسة البريطانيون وخاصة الصهيونيين تشرشـل وصـموئيل أن تستخدم منطقة شرق الأردن العربية التي فصلها الاستعمار عن فلسطين قاعدة للتحريض علـى الأعمال المعادية للصهيونية في غرب فلسطين، وكانت وجهة نظرهم أن الأمير عبد الله سيساعد على ضبط الحركات المعادية لفرنسا والصهيونية، وإلاّ هذه الحركات ستقيم مقرها فـي شـرق الأردن وتنطلق منه لتحرير سوريا وفلسطين، وكان يرى لورنس أيضاً في الأمير عبد الله وكيلاً مثالياً لبريطانيا في المنطقة وأنه الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه هناك ؛ لأنه لا يتمتع بسـلطة كبيرة فهو ليس من أهل شرق الأردن، ولا يمكنه الاحتفاظ بمنصبه كـأمير هناك إلا بمسـاعدة الحكومة البريطانية([1]).

وقد كان بعض سكان الأردن على علم بنوايا الإنجليز بتعين الأمير عبد الله بـن الحسـين أميراً على شرق الأردن، لذلك نشبت في ذي الحجة ١٣٣٩هـ/ أغسطس ١٩٢١م انتفاضـة الكورة شمال البلاد بعد تأسيس أول حكومة أردنية، وكانت الانتفاضة بزعامـة الشـيخ كليـب الشريدة الذي أعلن رفضه الاعتراف بسلطة الحكومة المركزية الموالية للاستعمار البريطاني([2]). لذلك أرسلت الحكومة الأردنية الجيش العربي(البريطاني)([3]) إلى منطقة الكورة لإخضـاع هـذه الثورة والقضاء عليها، إلا أنه واجه مقاومة شديدة وتكبد خسائر فادحة، ولـم يسـتطع الجـيش إخضاع العصيان إلا في رجب ١٣٤٠هـ/مارس ١٩٢٢م، بفضل تدخل المصفحات والمدرعات التابعة لقوات السلاح الجوي الملكي البريطاني في عَمان([4])، وكانت نتيجة هـذه المعركـة قتـل وجرح ربع الجند أي ٣٠ جندياً من أصل مئة وعشرين جندي، أما عدد قتلى الكورة فلم نجد لهم إحصائية محددة أما عن عدد المقاتلين فكانوا ألف رجل من الكورة، ولم يكن عندهم سوى البنادق والأسلحة الخفيفة، لكن الجيش كان مجهزاً بأحدث الوسائل القتالية ؛ لذلك قرر الشيخ الشريدة أن

([1]) دافيد فرومكين: المرجع السابق، ص٥٦٧ـ٥٦٨.

([2]) علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية، ص٤٠ ؛ سعد أبو دية: صفحات مطوية، ص١٨٢ـ١٨٣.

([3]) إن أهالي شرق الأردن كانوا ينظرون بالريبة إلى الجيش العربي لأن ضباطه كانوا بريطانيين ونسبه عالية مـن أفراده كانوا من الأقطار العربية المجاورة، ولم يكن فيه أردني واحد. انظر: علي محافظة: العلاقـات الأردنيـة البريطانية..، ص٥٥ـ٥٧.

([4]) علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية، ص٥٤ ؛ سعد أبو دية: صفحات مطوية، ص٢١٣ـ٢١٨؛ دافيـد فرومكين: المرجع السابق، ص٥٧٤.

يستسلم في رجب ١٣٤٠هـ/مارس ١٩٢٢م، لأنه يعلم أنه بألف رجل لا يستطيع أن يواجه مئتين جندي مسلح من الجيش يدعمه سلاح الجو البريطاني([1]).

وفي الوقت نفسه قامت ضد الأمير عبدالله بن الحسين انتفاضة العدوان، وتقدم سلطان ابن عدوان من جهة السلط وهدد قصر الأمير، وأعلن أنه يريد أن ينقذ البلاد من الأمير عبدالله وحكومته، وتميزت هذه الثورة بالتفاف عدد من المثقفين حولها، وتعتبر حدا فاصلا بين مرحلة التحالفات القبلية و سلطة العشائر المعتمدة في وجودها على العلاقات التقليدية وعلى الأسلحة التي لا يمكنها مواجهة التقنية العسكرية الجديدة، وبين عهد الدولة الحديثة التي تعتمد سلطتها على دعم المستعمر البريطاني، والقواعد الجوية البريطانية الموجودة على أرض الأردن، فبفضل هذه القوات تمكن الأمير عبد الله من القضاء على هذه الثورة بمساعدة سلاح الجو البريطاني الذي تمكن بطائراته كشف أماكن الثوار والقضاء عليهم([2]). وقد أدخلت هذه الانتفاضة الرعب في قلب الأمير عبد الله إذ يذكر فيلبي([3]) أنه عندما زار الأمير في قصره بعد القضاء الانتفاضة وجده يعد نفسه هو ورجال حاشيته للفرار، في حالة وقوع خطر([4]).

لقد اعتمد الأمير عبد الله على القوة العربية التي جاءت معه من الحجاز، وبقايا الجيش العربي المهزوم في ميسلون والذين كانوا مع أخيه فيصل في سوريا، والقوة السيارة التي شكلها الضباط الإنجليزي برنتون([5]) في توطيد حكمه، ثم شكل الجيش العربي الذي أصبح أداة السلطة

([1]) سعد أبو دية: صفحات مطوية، ص٢١٦ــ٢١٧ ؛ خيرية قاسمية: الرعيل العربي الأول ، ص٣١.

([2]) خيرية قاسمية: الرعيل العربي الأول، ص٣١ ؛ أحمد يوسف داود: المرجع السابق، ص١٢٥ ؛ خيري حماد: المرجع السابق، ص١٣١.

([3])عبد الله فيلبي أو هاري جون فيلبي(١٣٠٢ــ١٣٧٩هـ/١٨٨٥ــ١٩٦٠م): مستشرق بريطاني ولد في سيريلانكا حيث كان والده يعمل، تخرج من جامعة كمبردج، ودخل في خدمة حكومة الهند وفي سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٥م استخدم في مهام سياسية مع قوات الاحتلال البريطانية في العراق، عين مستشاراً لوزارة الداخلية في العراق سنة١٣٣٩هـ/١٩٢١م، ثم معتمداً بريطانياً في شرق الأردن من ربيع الأول ١٣٤٠هـ/نوفمبر١٩٢١م إلى شعبان ١٣٤٢هـ/ ابريل ١٩٢٤م، لكنه تخل عن منصبه وأسس سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م شركة تجارية في جدة، وفي ربيع الأول ١٣٤٩هـ/أغسطس ١٩٣٠م أشهر إسلامة، وسمي بـ"عبدالله فيلبي" واستقر في الجزيرة العربية وكان مستشار غير رسمي للملك عبد العزيز آل سعود. انظر: نجدة فتحي صفوة: الجزيرة العربية، ج٤ ، ص٨٩ــ٩٠ ؛ نظير توريا كولوف: مبعوث الاتحاد السوفيتي في المملكة العربية السعودية ١٩٢٨ــ١٩٣٥م رسائل ــ يوميات ــ تقارير، أعده بالروسية: طاهر منصوروف، أعده بالعربية: ماجد بن عبد العزيز التركي، تقديم: الأمير سعود الفيصل، (الدار العربية للطباعة والنشر، الرياض، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧)،ص١١٦؛ Mary C . Wilson : Op. Cit. p.216

([4]) خيري حماد: المرجع السابق، ص١٣١ــ١٣٢.

([5]) برنتون هو ضابط بريطاني أرسله المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل إلى شرق الأردن في ٦ ذو

وقوتها القانونية، حيث تمكن الإنجليز من تشكيل جيش من البدو قائم على الانضباط والطاعة دون المساس بالمجتمع البدوي وتقاليده، وذلك بتأمين مورد مالي دائم للذين يخدمون في الجيش، فتحول البدو من طرف معاد للسلطة المركزية إلى دعامة أساسية من دعاماتها. ويتكون من قوة الحدود، والجيش العربي الأردني، ودائرة استخبارات العشائر وقوة البادية([1]). ولكن كل ذلك لم يتم إلا بفضل سلاح الجو والمال البريطاني.

في٢٨ رمضان ١٣٤١هـ/١٥ مايو ١٩٢٣م كافأت الحكومة البريطانية أمير شرق الأردن بأن منحته الاستقلال الاسمي فقط على شرق الأردن([2]) بعد استثنائها من وعد بلفور، وقد تم إعلان الاستقلال في حفل رسمي مهيب حضره المندوب السامي البريطاني والصديق الشخصي للأمير عبد الله السير هربرت صموئيل والجنرال كلايتون([3]).

لكنه على الرغم من استثناء منطقة شرق الأردن من وعد بلفور إلا أن الحكومة البريطانية لم تمنع الهجرة اليهودية إلى شرق الأردن([4]). ففي عام١٣٤٢هـ/١٩٢٤م عقد اليهود اجتماعاً أصدروا في نهايته بياناً طالبوا فيه أن تكون شرق الأردن قسماً من الوطن القومي اليهودي، حثوا الصهاينة على استعماره ؛ لأنهم كانوا يرون أن العرب غير قادرين على النهوض بذلك القسم من البلاد، وعندما رأى الأردنيون تطلعات الصهاينة نحو نشر مستعمراتهم إلى غور الأردن، عقدوا اجتماعاً كبيراً ضم أهالي الأردن وفلسطين، وأصدروا بياناً ناشدوا فيه الرأي العام الفلسطيني والعربي مساندتهم في عدم بيع الأراضي للصهاينة([5]).

الحجة ١٣٣٨ هـ/٢١ أغسطس ١٩٢٠م للعمل على تأسيس حكومات محلية هناك، وكان معه عدد من الضباط البريطانيين للمشاورة والإرشاد. انظر للمزيد من المعلومات حول تنظيمات برنتون للجيش: سعد أبو دية: صفحات مطوية، الحاشية ١، ص١٣٧، وص١٣٨ـ١٦٤.

([1]) سليمان موسى:إمارة شرق الأردن، ص٦٧؛ غلوب باشا:مذكرات غلوب، ص١٥٢ـ١٥٩؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية، ص٥٨؛ غازي ربابعة:الهاشميون والقضية الفلسطينية، وزارة الشباب، عَمان،١٩٨٨م، ص١٩.

([2]) لكن بريطانيا عادت وسحبت اعترافها بالأردن كدولة مستقلة في محرم ١٣٤٣هـ/أغسطس ١٩٢٤م وأصبح المعتمد البريطاني الحاكم الآمر الناهي في كل شيء من تشكيل الحكومة واختيار الوزراء حتى تشغيل حارس الحديقة، وذلك بسبب قيام الثوار بقيادة أحمد مريود يشن هجمات على القوت الفرنسية في سوريا من شرق الأردن. انظر للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: محمود عبيدات : المرجع السابق، ص٢٦٦ـ٢٦٩ ؛ أحمد يوسف داود: المرجع السابق، ص١٢٦ـ١٣٤.

([3]) عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٧٠ ؛ غازي ربابعة: المرجع السابق، ص١٨.

([4]) علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية، ص٥٨ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص٧٥ـ٧٦.

([5]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٣١ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.103–105.

وعارضت الحركة الوطنية في شرق الأردن المشاريع الصهيونية، ومن ذلك معارضة أهالي الكرك وعجلون مشروع روتنبرغ(١)، الذي بموجبه استولى روتنبرغ على ارض مساحتها ستة آلاف دونم، علماً بأن هذا المشروع لا يحتاج إلى هذه المساحة الكبيرة، وقامت إثر ذلك مظاهرات في أربد في شوال ١٣٤٥هـ/إبريل ١٩٢٧م، ولقـــــ

ـــــمع هذه المظاهرة اضطرت الحكومة الأردنية فرض الأحكام العرفية(٢) لتهدئة الوضع في البلاد(٣).
كما صدر في١٢ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ/٨ أكتوبر ١٩٢٨م قانون النفي والإبعاد الذي يعطي الحكومة حق طرد أي شخص يسعى لإثارة العدوان بين الأهلين والحكومة في شرق الأردن أو بين الأهلين ودولة الانتداب(٤).

كل ذلك شجع اليهود الصهاينة على أن تتوجه أنظارهم إلى استئجار غور كبد الذي منحه المجلس التشريع للأمير عبد الله بن الحسين في١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م وتبلغ مساحته ٥٠.٧٧٣ دنم و ٥٠٠ متر مربع ، نظمت مظاهرات أخرى في كل أنحاء شرق الأردن وخصوصا السلط؛ لما سرت إشاعات من تأجير الأمير عبدالله غور كبد للوكالة اليهودية، وشهدت السلط مظاهرات متلاحقة خلال شهر شوال ١٣٥١هـ/ فبراير ١٩٣٣م، أمام دار الحكومة وكانت هذه المظاهرات من عنفها وكثرتها تنقسم إلى خمسة فصائل؛ نظراً لضيق الشوارع، ولما دعا متصرف السلط وقائد المنطقة المتظاهرين إلى التفرق باسم القانون ، أجابوه: بأن الشعب فوق

---

(١) مشروع روتنبرغ Pinhas Reutenberrg: في محرم ١٣٤٠هـ/سبتمبر ١٩٢١م منحت حكومة صموئيل المستثمر اليهودي روتنبرغ امتياز لتوليد الكهرباء مدته سبعون سنه في فلسطين، وسمحت له بالاستفادة من نهر الأردن وحوضه وروافده، ونهر اليرموك وجميع توابعه، وسمحت له أن يستعمل بحيرة طبرية خزاناً للمياه، وأن يبني ما يشاء من المحطات والمعامل في منطقة الانتداب البريطاني (فلسطين وشرق الأردن). انظر تفاصيل المشروع في: أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٩ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص٦٤ـ٦٥ ؛ انظر الخريطة في ملحق الخرائط الملحق رقم ١٠.

(٢) الأحكام العرفية هي: لوائح استثنائية تلجأ إليها الحكومة تحت ظروف طارئة تسمح لها بتعطيل بعض أحكام= =الدستور حتى تستطيع تلافي بعض الأخطار التي تتعرض لها البلاد كنشوب ثورة داخلية أو وقوع غزو خارجي. انظر: أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص٢٧.

(٣) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٦٤.

(٤) علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية، ص٨٠ ؛ الكتاب الأسود في القضية الأردنية، ص١٠٩ـ١١٠.

القانون، مما أدى إلى استخدام المتصرف للنار لتفريق المتظاهرين، وتم القبض على ٤٢ شخصاً منهم ١٩ طالباً من طلاب مدرسة السلط، ورغم كل تلك الإجراءات التعسفية ومطـارد رجـال الدرك للمتظاهرين إلا أنهم في يوم ٢٦ شوال ١٣٥١هـ/٢١ فبراير ١٩٣٣م تمكن المتظاهرون من إيقاف سيارة الأمير عبد الله بعد أن رشقوها بالحجارة، وقد اعتقلت الشرطة بعدها عدداً مـن شباب السلط، بينهم عدد من الطلبة وتم نقل بعضهم إلى سجن عَمان وسرت إشاعات بنفيهم([1]).

ورغم كل ذلك أرسل أهالي السلط برقية إلى الأمير عبد الله يطلبون منه وقـف الهجـرة اليهودية إلى شرق الأردن ووقف بيع الأراضي الأردنية للصهاينة، مما دعا الأمير عبد الله إلـى نفي تأجير الغور إلى اليهود مرتين وتأكيده على رفض الوجود الصـهيوني شـرق الأردن([2])، ولكن الظاهر أن أهل شرق الأردن لم يكونوا على ثقة من صحة هذا النفي.

وعندما قامت الثورة العربية الكبرى ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م في فلسطين تضامن أهالي شـرق الأردن مع إخوانهم في غربها(فلسطين)([3])، لكن مشاركتهم الفعلية في ضرب القوات البريطانيـة من أجل تخفيف الضغط عن فلسطين، فقد بدأت عمليات المجاهـدين الأردنيـين فـي رمضـان ١٣٥٦هـ/نوفمبر ١٩٣٧م؛ حيث قاوموا أولاً إدارة الحكومة التي وضعها الانتـداب البريطـاني فقاموا بمهاجمة نادي الموظفين في إربد ، ودار الحكومة في مأدبا والسلط، وقاموا بتقطيع أسلاك التلفون في ضواحي عَمان، وتوزيع مناشير في السلط وعَمان ضد الاستعمار والحكومة وتـدعو إلى الثورة وإلى مساندة الشعب العربي في فلسطين([4]).

في١٩محرم ١٣٥٨هـ/١١ مارس ١٩٣٩م توجهت ثلاثـة فصـائل مـن المجاهـدين الأردنيين إلى منطقتي أربد وعجلون أثر خبر وصلهم عن وجـود قـوات الحكومـة(المواليـة للبريطانيين) ويبلغ عددهم ٢٥ جندياً، وعلى حين غرة وجدوا نفسهم وجهاً لوجه أمام المجاهدين، وطلبوا من قائد الجند ألا يمسهم بضرر لأن هدفهم القوات لبريطانية، وأن ثورتهم ضد الإنجليـز

([1]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٤٩ــ٥٠ ؛ خيرية قاسمية: القضية الفسطينية والقادة الهاشميون، ص٥٩.

([2]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٥١.

([3]) ان السبب الذي أدى إلى تأخر مشاركة المجاهدين في شرق الأردن لإخوانهم في فلسـطين هـو أن الحكومـة الأردنية وبمساعدة بريطانيا كانت تعمل على قمع المجاهدين منذ صدور المعاهـدة البريطانيـة الأردنيـة عـام ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م والتي والتي مكنت المستعمر من أن تمتد يده في البلاد وأن الحكومة نفسها أصبحت تحـت إمرة ملك بريطانيا= =مباشرة، ففي عام ١٣٥١هـ/١٩٣٣م صدر "قانون الإجتماعات العامة" الـذي يحظـر جميع الاجتماعات إلا بموافقة الحكومة (التي يطلق عليها المجلس التنفيذي)، والقائد العام للجيش العربـي الـذي كان ضابطاً بريطانياً، كما أنه في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م صدر "قانون الجمعيات" الذي منح الحق لأي متصرف أو مسؤول في الحكومة أن يدخل ويفتش مراكز الجمعيات، ويحظر أي اجتماع قد يربك سلطات الإحـتلال فـي فلسطين وشرق الأردن. انظر: علي محافظة: العلاقات الأردنية البريطانية، ص٨٠.

([4]) محمد عزة دروزة: مذكرات، ج٣، ص٨٠ــ٨١ ، وص٥١٥، وص٥١٩.

وأنه لا رغبة لهم بإلحاق الضرر بالجيش العربي، لكن الجنود غدروا بالمجاهدين، وتم تبادل إطلاق نار بين الطرفين، فتمكن المجاهدون من إبادة القوات الحكومية عن بكرة أبيها، وغنموا بنادقهم وذخائرهم وقتلوا خيولهم، حاول فريق من قوة البادية والجيش العربي وقوة حدود شرق الأردن تطويق المجاهدين، فقاومها المجاهدون، لكن وصول ثمانية من طائرات العدو البريطاني لمساندة القوات الحكومية وأمطرت المجاهدين بوابل من القنابل والمدافع الرشاشة، فاستشهد أربع من المجاهدين وجرح واحد، لقد قاوم المجاهدون مقاومة عنيفة، لكن سقوط قائدهم أدى إلى انسحابهم في جنح الظلام إلى معاقلهم في قمم الجبال([١]).

وفي ٢٣ محرم ١٣٥٨ هـ /١٥ مارس ١٩٣٩م، كان فصيل من المجاهدين يتجول في منطقة الحمة بالقرب من الحدود الأردنية الشمالية الغربية التقى بدورية إنجليزية على رأسها ضابط بريطاني فألقوا القبض عليه، ولما حاول الفرار أطلق المجاهدون عليه النار فقتل. وفي ٢٥ محرم ١٣٥٨ هـ /١٧ مارس ١٩٣٩م قام فريق من المجاهدين بمهاجمة مخفر الطفلية واستولوا على أربع بنادق مع ذخيرتها وأربعة جياد، ومخفر الرشادية فاستولوا على إحدى عشرة بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة وإحدى عشر جواد، ولم يلقوا أي مقاومة من الجند الذين أفهمهم الثوار أنهم لا يريدون بهم
سوءاً([٢]).

وفي ٢ صفر ١٣٥٨هـ/٢٣ مارس ١٩٣٩م اصطدم فصيل من المجاهدين في شرق الأردن والمرابطين في غرب أربد بحوالي ستين جندياً إنجليزياً واستمرت المعركة حتى مطلع الفجر أسفرت عن مقتل جنديين وثلاثة بغال وجرح خمسة جنود، واستولى المجاهدون على بنادق وذخيرة القتلى والجرحى بعد أن دحروا الجنود وفرقوهم([٣]).

ولم يكن الموقف الشعبي بعيدا عن التطورات التي كانت تحصل في فلسطين، فعبر الأهالي عن ذلك بالمقاومة المسلحة مثل: إغارة أبناء الكفارات والوسطية في قضاء عجلون على المستعمرات في سمخ وبيسان، وعلى خلفية أحداث البراق في القدس وهجوم اليهود على الحرم، قامت التظاهرات في مختلف أنحاء الأردن وكان أكبرها في عَمان، وفتح باب التطوع مع الثوار الفلسطينيين، وشكل الأهالي في الشرق الرديف الأساسي للثورة الفلسطينية في إقامة التظاهرات والإضرابات ، وكان شرق الأردن معبرا أساسيا للثوار والأسلحة باتجاه فلسطين([٤]).

([١]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم ٥٠٢، ص٦٤٢ ؛ غلوب باشا: مذكرات غلوب باشاص ١٨٥ــ١٨٦.

([٢]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم ٥٠٣، ص٦٤٣ .

([٣]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم ٥٠٣، ص٦٤٣ ؛ يعقوب الدجاني: المرجع السابق، ص٥٢.

([٤]) أكرم زعيتر:القضية الفلسطينية، ص١٤٧ ؛ يعقوب الدجاني: المرجع السابق، ص٣٩ــ٤٠.

كما قام الأهالي في شرق الأردن بنسف أنابيب النفط التي تمر من أراضيهم لتنقل النفط من العراق إلى مصبات النفط على البحر المتوسط في حيفا أكثر من مرة، وذلك للضغط على القوات البريطانية المتواجدة في فلسطين وشرق الأردن([1]). وفي ٢٠ صفر ١٣٥٨هـ/ ١٠ إبريل ١٩٣٩م قاموا بإتلاف أنابيب البترول ما بين الطيبة والساموع وأشعلوا النار بها، وانسحبوا دون أن يقع أي ضرر بالمجاهدين الأردنيين([2]). ان حركة الجهاد والمقاومة هذه في شرق الأردن تدل على مدى الترابط بين الشعب العربي المسلم في بلاد الشام، رغم أنف الاستعمار والانتداب والصهيونية، وأنه مهما عمل هؤلاء على تفتيت الوحدة العربية الاسلامية بين الشعوب فإنهم لن يستطيعوا، فقوة الشعوب فوق كل القوى السياسية والإستعمارية.

المبحث الثالث: ملامح السياسة البريطانية في بلاد الشام منذ سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م

أ ــ ملامح السياسة البريطانية في فلسطين:

لقد احتل الحلفاء مدينة القدس في في ٢٤ صفر ١٣٣٦هـ/٩ ديسمبر ١٩١٧م وأنشأت بريطانيا حكومة عسكرية في فلسطين قبل أن تكمل احتلالها لشمال فلسطين، والذي تم في ذي الحجة ١٣٣٦هـ/سبتمبر ١٩١٨م وعينت الحكومة الإنجليزية الجنرال كلايتونClayton على رأس الإدارة العسكرية في فلسطين، والكولونيل رونالد ستورز Storres حاكماً عاماً لمدينة القدس، وقامت بمساعدة اللجنة الصهيونية التي أرسلت إلى فلسطين؛ لوضع التدابير الضرورية التي من شأنها أن تضع السياسة التي انطوى عليها تصريح بلفور موضع التنفيذ([3]).

ولم تكتف الإدارة العسكرية بالسماح للجنة الصهيونية بزيارة القدس في رجب ١٣٣٦هـ/ابريل ١٩١٨م ومحاولتها شراء ممر حائط المبكى، بل سمحت للجنة الصهيونية برئاسة "حاييم وايزمن " أن تعقد اجتماعات في مدن فلسطين التي زارتها؛ حيث عقدت اللجنة

([1]) يعقوب الدجاني: المرجع السابق، ص٤٠.

([2]) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية، الوثيقة رقم ٥٠٧، ص٦٤٦ .

([3]) دافيد فرومكين: المرجع السابق، ص٤٩٩.

الصهيونية مؤتمرها في مدينة يافا، أعلن فيه اليهود برنامجاً متكاملاً من أجل إنشاء وطن قـومي لليهود في فلسطين، يكون لليهود حق تقرير شـؤونهم واتخـاذ (نجمـة داوود) شـعارا للعلـم الصهيوني، واستعمال أرض إسرائيل بدلا من فلسطين([1]). وقوبلت البعثة الصهيونية بمظـاهرات واحتجاجات من عرب فلسطين عمت معظم مدن فلسطين، وخلال ذلك شعر الفلسطينيون بعمـق التحالف البريطاني الصهيوني، مما دعاهم إلى تشكيل الجمعيات و إقامة المؤسسات الاجتماعيـة والثقافية والسياسية في القدس وغيرها. وتمحورت نشاطات هذه الجمعيات في تسليح الأعضـاء بالأسلحة الخفيفة. كما تم تشكيل جمعية إسلامية مسيحية يهدف برنامجها إلى مقاومـة السـيطرة اليهودية ومكافحة النفوذ اليهودي والحيلولة دون شراء اليهود للأراضي([2]).

وطبقاً لمخططات السياسة البريطانية وما تقتضيه مصلحة الحركة الصـهيونية، فإنـه تـم إنهاء الإدارة العسكرية و إحلال الإدارة المدنية مكانها باسم (حكومة فلسطين) فـي ذي القعـدة ١٣٣٨هـ/ يوليو ١٩٢٠م، ورفعت الإعلام البريطانية على جميع الدوائر الحكومية في فلسطين، وصاحب ذلك الإعلان عن أن " هربرت صموئيل" قـد تولى سلطاته كأول مندوب سامي على فلسطين وذلك منذ
١٤ شوال ١٣٣٨هـ/أول يوليو ١٩٢٠م([3]).

وفي يوم الأربعاء٢٠ شوال ١٣٣٨هـ/٧ يوليو ١٩٢٠م أذاع صموئيل في القـدس بيـان ملك بريطانيا جورج الخامس حول السياسة البريطانية في فلسطين، وأكثر فيها من ذكر النزاهـة المطلقة التي تتبعها الدولة المنتدبة، وتصميم حكومته على احترام حقوق جميع الأجناس وجميـع العقائد الممثلة في فلسطين، وتحدث عن الوطن القومي لليهود، وأعلن أن قيام الـوطن القـومي لليهود يساعد على الرقي والعمران([4]).

وأوضح صموئيل النقاط الأساسية للسياسة البريطانية التي جاء من أجل تنفيـذها والعمـل على تثبيتها في فلسطين، حيث تمثلت في وضع الأسس الكفيلة بإنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ولذلك فقد فتح فلسطين للهجرة اليهودية وحددها سنويا ١٦٥٠ مغتصب دخيل وعمـل

([1])عبد الفتاح حسن أبو علية ، رفيق شاكر النتشة : المرجع السابق،ص٤٠ـ٤٦ ؛ واصـف عبوشـي: المرجـع السابق، ص٢٧ـ٢٨ ؛ علي أبو الحسن: المرجع السابق، ص٢٤١ـ٢٥٣.

([2])عبد الفتاح حسن أبو علية ، رفيق شاكر النتشة : المرجع السابق،ص٤١ ؛ علي أبو الحسن: المرجـع السـابق، ص٢٤١ـ٢٤٢.

([3]) عيسى الماضي: المرجع السابق، ص١٣٣ ؛ محمد عبد الحافظ القيسي: وعد بلفور في ظل التوسع الاستعماري، (الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٩٠م)، ص٨٩.

([4]) الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٢٦، ص١٢٢ ؛ علي أبو الحسن: المرجع السـابق، ص٣٢٢ـ٣٢٣ ؛ محمـد القيسي: المرجع السابق، ص٨٩.

على إنشاء لجنة للأراضي، كان هدفها تسهيل عمليات البيع لليهود، ومـــنح اليهـــود اســـتثمارات ومشروعات كبرى منها مشروع "روتنبرغ" للكهرباء ومشروع "بوتاس البحر الميت" وغيرها من المشاريع المهمة والإستراتيجية في فلسطين([1]).

وهذه كانت البداية الحقيقية التي كشفت اللثام عن الوجه الزائف للاحتلال البريطاني، فمـــن الملاحظ أن السياسة البريطانية نحو فلسطين بعـــد الحـــرب العالميـــة الأولـــى وحتـــى نهايـــة الانتداب(١٣٣٦ــ١٣٦٧هــ/١٩١٨ــ١٩٤٨م) تركزت في هدف واحد وهو تهويـــد فلســـطين، وزرع جسم غريب في قلب الوطن العربي معادي للأمة العربية والإسلامية ؛ حتى يكون العـــالم العربي والإسلامي في خطر دائم يهدد أمنها واستقرارها السياسي واقتصادها الـــوطني. الأمـــر الذي أثار الصراع السياسي في البلاد منذ بداية الانتداب حتى نهايته، وخلال ذلك أكـــد الشـــعب العربي الفلسطيني عزمه على مكافحة السياسة الاستعمارية والسياسة الصـــهيونية الاســـتيطانية ومقاومتهما، حيث أعلن الحرب الشعواء على الصهيونية بلا هوادة، فقامت المظاهرات والثورات المتلاحقة، وعقدت المؤتمرات التي نددت بالصهيونية والاستعمار، وشكلت الحركات والأحـــزاب الثورية والمجالس والجمعيات النقابية والوطنية والمؤتمرات العربية والإسلامية، وكرســـت كـــل جهدها لمقاومة الاستعمار وسياسة التهويد التي ينتهجها البريطانيون الصهاينة، وهذا ما لاحظنـــاه وسوف نلاحظه في فصول ومباحث هذه الرسالة.

في اليوم الخامس من رمضان ١٣٤٠هــ/الأول من يوليو ١٩٢٢ أصدر تشرشـــل بيانـــاً باسم الكتاب الأبيض لسنة١٣٤٠هــ/ ١٩٢٢م([2]) بعد الثورات والاضطرابات التـــي قـــام بهـــا الفلسطينيون؛ بسبب زيادة الهجرة اليهودية، والتي هزت كيان الساســـة البريطـــانيين فأصـــدروا الكتاب الأبيض لسنة١٣٤٠هــ/ ١٩٢٢م، حاولوا فيه أن يفسروا وعد بلفور تفسيراً يطمـــئن لـــه العرب، ولكنه خيب آمالهم ؛ لأنه يؤكد على أن السياسة البريطانية لا يمكن تغيرهـــا وأن وعـــد بلفور لا يقبل التغيير، وأنه يقصد به أن بريطانيا ستؤسس في فلسطين وطناً قومياً لليهود، ولكـــن ذلك لا يعني أن تكون فلسطين برمتها وطناً قومياً لهم، وسيكون الشعب اليهودي موجـــوداً فـــي فلسطين كحق من حقوقه، لا كمنة، وأن الحكومة البريطانية لا ترمي إلى جعل فلســـطين كلهـــا يهودية بل سوف تجعل جزءاً منها للعرب([3]). ويظهر في هذا الكتاب ظلم تشرشل وإمعانه فـــي تنفيذ السياسة البريطانية الرامية إلى تشريد الشعب الفلسطيني وإحلال شعب آخـــر مكانـــه، وأن على الفلسطينيين أن يقبلوا بهذا الوضع كأمر واقع لا يقبل الجدل.

([1]) أكرم زعيتر:القضية الفلسطينية، ص٦٦ــ٨٠ ؛ صلاح العقاد: المرجع السابق، ص٣٣٥ـــ٣٣٦ ؛ عبـــدالرحمن الشريف: المرجع السابق، ص١٠٣ .

([2]) انظر نص الكتاب الأبيض في : محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٢٥٨ــ٢٦٢.

([3]) أكرم زعيتر:القضية الفلسطينية، ص٧٣ــ٧٤ ؛ محمد حافظ غانم : المرجع السابق، ص٧١ــ٧٢.

ويذكر وايزمان في مذكراته ما نصه: " إن هربرت صموئيل..، هو الذي وضع مشـروع الكتاب الأبيض لعام١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م، وأن الحكومة البريطانية عرضته على اللجنة الصهيونية قبل إصداره للإطلاع عليه وإبداء وجهات النظر التي يرها اليهود، وقد وافق عليه زعماء اليهود"([1]). كما أن الصهاينة شاركوا الساسة البريطانيين في وضع بنود صك الانتداب على فلسطين([2]).

وقد أتت جهود صموئيل ثمارها في إصدار قانون الجنسية الفلسطينية الذي وضع موضع التنفيذ في ١١ محرم ١٣٤٤هـ/أول أغسطس ١٩٢٥م بقصد منح اليهود الذين يقيمون مدة ثلاثة شهور في فلسطين الجنسية الفلسطينية، وحرمان العرب المولودين في فلسطين والمقيمين خارجها بحقهم في الجنسية الفلسطينية([3])، مما زاد عدد الغزاة اليهود، وقلص عدد السكان الأصلين(الفلسطينيين) للبلاد. وهذا يدل على فظاعة الجريمة التي تعمل الحكومة البريطانية على تنفيذها بإغتصاب أرض فلسطين وإعطائها للمعتدين الصهاينة، ولو أدى ذلك لتشريد الشعب الفلسطيني أصاحب الأرض وسفك دمائهم وتعذيبهم بأعنف أنواع التعذيب.

وعندما طالبت اللجنة التنفيذية في فلسطين عصبة الأمم تأسيس مجلس تشريعي تكون الأغلبية فيه للعرب؛ لأنهم الأغلبية في عدد السكان، لكن الحكومة البريطانية أجابت وخلال دورتين متتابعتين لاجتماع عصبة الأمم (١٣٤٢ــ١٣٤٣هـ/١٩٢٤-١٩٢٥) صراحة بأنها لا توافق على تأسيس مجلس تشريعي في فلسطين يقوم على أساس التمثيل النسبي والذي من الممكن أن تكون الأغلبية الساحقة فيه للعرب الفلسطينيين، كما أن ذلك يقف عقبة في قيام الحكومة بالواجبات الملقاة على عاتقها في إنشاء وطن قومي لليهود([4]).

وبعد نهاية فترة المندوب السامي هربرت صموئيل، عين اللورد هربرت تشارلز بلومر Lord Herbert Charles Plumer([5]) مندوباً سامياً لفلسطين في الخامس من صفر ١٣٤٤هـ/

([1]) الحاج أمين الحسيني: المرجع السابق، ص٥٣ ؛ محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص٥٥٤ ؛ أحمد الدجاني: مأساة فلسطين بين الانتداب البريطاني ودولة إسرائيل،(دار المستقبل العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م)، ص٤٥ــ٤٦.

([2]) محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص٥٥٤ ؛ محمد عبد الرؤوف سليم: المرجع السابق،ص٦٦، وص٧٧.

([3]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٠ وص٧٨ ؛ محمد عبدالرؤوف سليم: المرجع السابق، ص١٢٠ــ١٢١ ؛ حسن الأمين: المرجع السابق، ص٣٢٤.

([4]) الحاج أمين الحسيني: المرجع السابق، ص٥٢.

([5]) اللورد هربرت تشارلز بلومر Lord Herbert Charles Plume: وهو ثاني مندوب سامي بريطاني لفلسطين خلف هربرت صموئي في ٥ صفر ١٣٤٤هـ/٢٥ أغسطس ١٩٢٥م وإستمر في منصبه ثلاث سنوات

٢٥ أغسطس ١٩٢٥م، الذي يقال أنه كان معارضاً للسياسة الصهيونية البريطانية؛ لذلك لم يبق في منصبه سوى ثلاث سنوات فقد قلت الهجرة في عهده بعض الشيء، واستتب الأمن إلا أن اليهود كانوا يأبون هذه السياسة فعملوا على تغيره[1].

وبسبب تفاقم الوضع في فلسطين ومعارضة العرب للهجرة اليهودية ووعد بلفور اضطر وزير المستعمرات البريطاني اللورد باسفيلدLord Passfield إلى إصدار الكتاب الأبيض في الثاني من جمادى الآخرة ١٣٤٩هـ/٢٥ أكتوبر ١٩٣٠م من أجل تهدئة نفوس العرب[2]، وذلك على اثر استلامها لتقرر لجنة شو، ولجنة سمبسون، وجاء في الكتب الأبيض لعام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م أن توطيد السلام والرفاهية في البلاد مستقبلاً يتوقف على تحسين العلاقات بين العرب واليهود، وأن الحكومة البريطانية تشعر أنه من الممكن الوصول إلى ذلك بتعاون كلا الفريقين معها ومع إداراتها في فلسطين. وكثفت الحكومة البريطانية محاولتها كسب عطف الجماهير العربية، فأعلنت في الكتاب الأبيض انه لا يوجد، نظراً لطرق الزراعة القائمة، أي أراضي ميسورة لاستيطان المزارعين من المهاجرين " اليهود " الجدد، وان البيانات تحمل على الاعتقاد بأن درجة البطالة بين الأهلين العرب وصلت حداً خطراً، ولذلك يجب تخفيض الهجرة أو وقفها ما دامت هذه الهجرة تسبب حرمان السكان العرب من الحصول على الأشغال الضرورية لمعيشتهم. كما أنها ستراقب عملية انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود، وتشكيل مجلس تشريعي في البلاد ليشترك أهل البلاد في إدارة شؤون بلادهم[3]. وفي هذا الكلام ذر للرماد في العيون ومحاولة لتهدأة الأوضاع المضطربة في المنطقة، لأن بريطانيا تعمل عكس ما تقول دائماً في فلسطين.

وبسبب هذه السياسة التي اتخذتها بريطانيا في فلسطين، فإنها لم تستطع التوفيق بين المصالح العربية، واليهودية، فإنه كان يكفي أن يبدو الكتاب الأبيض لعام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م اقرب إلى المواقف العربية الرسمية ؛ مما جعل المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية تعمل على مقاومته بشدة، فقد استقال حاييم وايزمن من رئاسة الوكالة اليهودية، كما تدفق سيل من البرقيات

أي حتى ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ثم خلفه السير جون روبرت تشانسلورSir John Chancellor (١٣٤٧هـ/١٩٢٨م حتى صفر ١٣٥٠هـ/يوليو ١٩٣١م). انظر: طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٥ ؛ محمد القيسي: المرجع السابق، ص١٠٥ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.216.

(1) محمد القيسي: المرجع السابق، ص١٠٥ ؛ محمد عبد الرؤوف سليم: المرجع السابق، ص١٢٤ـ١٢٥ ؛ שמאל דותן : המאבק על ארץ – ישראל ، עמ' 29-32 .

(2) انظر نص الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٠م في الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٣١، ص١٦٧ـ١٨٧.

(3) الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣١، ص١٦٧ـ١٨٧ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٧٣ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٢٣٩ـ٢٤٠ .

الاحتجاجية اليهودية من كل مكان، وتظاهروا ضده في لندن والعواصم الغربية، ونددوا بسياسة بريطانيا وسياسة حزب العمال البريطاني وسياسة رئيس الوزراء العمالي ماكدونالد وسياسة وزير المستعمرات باسفيلد وطلبوا من الولايات المتحدة مقاطعة بريطانيا اقتصاديا، مما دفع بريطانيا أن تتراجع عن كتابها الأبيض بضغط من اليهود([1]).

ونتيجة لذلك اضطر رئيس الوزراء رامزاي ماكدونالد إلى التراجع عن كتاب باسفيلد الأبيض وإصدار كتاب ماكدونالد الأسود الذي يخفف كثيرا من كتاب باسفيلد الأبيض، وهو عبارة عن رسالة بعث بها رئيس وزراء بريطانيا رمزي ماكدونالد في ٢٦ رمضان ١٣٤٩هـ/١٤ فبراير ١٩٣١م إلى حاييم وايزمان، يقدم فيها توضيحاً وتفسيراً للكتاب الأبيض الذي أصدره اللورد باسفيلد، ولإزالة بعض التصورات والمفاهيم التي نشأت حول سياسة الحكومة بشأن فلسطين وإعادة العلاقات بين الصهيونية والحكومة البريطانية إلى ما كانت عليه، وأعلن فيه عن وجود أراضي للاستيطان الصهيوني وترك باب الهجرة مفتوحاً أمام اليهود، أطلق العرب على هذا الكتاب اسم "الكتاب الأسود أو الرسالة السوداء"([2]). لأنه جاء مخيباً لآمالهم في محاربة الحركة الصهيونية التي دعمها وشجعها الانتداب البريطاني من أجل بناء وطن لليهود في فلسطين وتشريد أهلة الأصلين منها.

وفي٢٦ صفر ١٣٥٠هـ/ ١٣ يوليو ١٩٣١م صدر بلاغ رسمي بتعيين الجنرال أرثر واكهوب General Arthur Wauchope مندوباً سامياً لفلسطين، لإرضاء اليهود الذين كانوا معترضين على سياسة سابقيه، وصل واكهوب إلى فلسطين يحمل تعليمات بوجوب تعزيز مسألة الوطن القومي لليهود والعمل بأسلوب التسويف والمماطلة مع طلبات العرب، والوصول إلى أكثرية سكانية يهودية في فلسطين وبالفعل قفزت السياسة البريطانية الصهيونية قفزات واسعة في عهدة، فقد قفز رقم المهاجرين اليهود من ٩٥٠٠ مهاجراً عام١٣٥١هـ/١٩٣٢م إلى نحو ٣٣ ألف في سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، كما انتقلت أراضي شاسعة إلى اليهود وطرد أصحابها العرب منها، وصدر في عهده قانون جرائم الفساد التي تحاسب الإنسان (أو دعونا نقول العربي الفلسطيني) على النية، ويمنع الفرد من الدفاع عن نفسه([3]). وهذه من أكبر صور الاستبداد البريطاني.

([1]) محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٧٤ـ٧٥ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٥٢ـ١٥٣ ؛ البيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٢٤١ ؛ طاهر الشولي: المرجع السابق، ص٦٠ـ٦١.

([2]) الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣٢، ص١٨٨ـ١٩٥ ؛ محمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية، ج١، ص٧٤ـ٧٥ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٢٤١ـ٢٤٢ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٥٢ـ١٥٣.

([3]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية،ص٩٦ـ٩٧ ؛ أحمد طربين: الاحتلال والانتداب، ج١، ص٤٥٣ـ٤٦٠.

لقد أثارت هذه السياسة البريطانية التعسفية التي تلخصت بتسهيل إقامة الوطن القومي اليهودي مخاوف الشعب العربي الفلسطيني، وكذلك وجود الأرقام المتصاعدة للمهجرين اليهود(المعتدين) الذين وصلوا إلى فلسطين طبقا لسياسة الانتداب، إذ تبين أن هذه الهجرة الوسيلة التي ستجعل من العرب الفلسطينيين أقلية في بلادهم خلال فترة وجيزة، فقام الشعب الفلسطيني بعدد من الثورات ضد سياسة الهجرة واستملاك الأراضي وكان من أبرزها ثورة يافا١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، وثورة البراق ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، وانتفاضة عام١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، والثورة الفلسطينية الكبرى١٣٥٥ـ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٦ـ ١٩٣٩م والتي تحدثنا عنها جميعا في المباحث السابقة.

وتشهد الوثائق الرسمية المحفوظة في مكتب البرلمان البريطاني أنه قد تم إدخال (٣٠٠) ألف يهودي وفدوا إلى فلسطين من شتى أرجاء أوروبا، في الفترة من١٣٤٠ـ١٣٥٨هـ/ ١٩٢٢ـ١٩٣٩م، وبذلك أصبح عدد اليهود في فلسطين (٤٥٠) ألف يهودي ؛ أي ما يعادل ثلث السكان([١])، وهذه الأرقام بالطبع لا تتضمن الأعداد التي دخلت البلاد بطرق غير شرعية.

لقد حاول البريطانيون طيلة فترة الانتداب التوصل إلى " تسوية " بين العرب واليهود وقدموا العديد من المشاريع التي تعزز مكانة اليهود في فلسطين والقدس، لذلك رأت حكومة الانتداب تقسيم فلسطين إلى كانتونات (مقاطعات) بعضها عربي والبعض الآخر يهودي، يتمتع كل منها بالحكم الذاتي في ظل الانتداب، ومن أهم هذه المشروعات مشروع اللورد بيل Peel Lord الذي صدر في ٢٨ ربيع الآخر ١٣٥٦هـ/٧ يوليو ١٩٣٧م، ولكن العرب في فلسطين قاوموا هذه المشروعات وأحبطوا أغراضها. ومع قرب نشوب الحرب العالمية الثانية عادت السياسة البريطانية إلى دورها أثناء الحرب العالمية الأولى بإصدار الوعود للعرب وتحقيق الأهداف الصهيونية العالمية، فأصدرت الكتاب الأبيض الثالث في ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٨هـ/١٧ مايو ١٩٣٩م([٢])، والذي تكمن أهميته في أنه يشكل السياسة الرسمية الثابتة للحكومة البريطانية فترة الحرب العالمية الثانية. وهي محاولة من الحكومة البريطانية لتهدئة الأوضاع الداخلية في فلسطين حتى لا يقوم العرب بإتخاذ إجراءات مضاده للمصالح البريطانية في المنطقة أثناء الحرب العالمية الثانية.

الكتاب الأبيض الصادر في ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٨هـ /١٧ مايو ١٩٣٩م وتطوراته:

الكتاب الأبيض هو الوثيقة التي أصدرتها الحكومة البريطانية بشكل رسمي في ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٨هـ/١٧ مايو١٩٣٩م، بعد فشل مؤتمر سنت جيمس الذي دعت إليه الحكومة

([١]) عصمت السعيد: المرجع السابق، ص٨٤ ؛ علي أبو الحسن: المرجع السابق، ص٣٧٣ـ٣٧٤.

([٢]) انظر نص الكتاب الأبيض الثالث لعام ١٩٣٩م في الوثائق الرئيسية..، الوثيقة رقم ٣٨، ص٣١٠ـ٣٢٣.

البريطانية الأطراف الفلسطينية والصهيونية والعربية لمناقشة مسوداته، لقد أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض، بعد أن حصلت على مصادقة مجلس العموم البريطاني عليه في الرابع من ربيع الآخر ١٣٥٨هـ/٢٤ مايو ١٩٣٩م بأغلبية ٢٦٨ صوتاً مقابل ١٧٩ صوتاً(١). وفي ضوء أن الحكومة البريطانية كانت تستمد شرعية حكمها لفلسطين من عصبة الأمم، فقد كان مقرراً في وقت لاحق أن يتم عرض الكتاب على العصبة للمصادقة عليه؛ حيث نوقش في لجنة الانتدابات التابعة للعصبة، ورفض بأغلبية أربعة أصوات مقابل ثلاثة أصوات. ولم تأخذ الحكومة البريطانية بذلك الرفض واعتبرت تصويت لجنة الانتداب مجرد رأي إستشاري. غير أنه قبل التاريخ المقرر لاجتماع مجلس العصبة لمناقشة مشروع الكتاب الأبيض، لأنه هو الذي يملك السلطة الحقيقية في مثل هذه القضايا كانت الحرب العالمية الثانية(٢). قد اندلعت في ١٦ رجب ١٣٥٨هـ/١ سبتمبر ١٩٣٩م بهجوم ألمانيا على بولندا، وفي ١٨ رجب ١٣٥٨هـ/٣ سبتمبر ١٩٣٩م دخلت بريطانيا الحرب ضد ألمانيا(٣). ولم يجتمع مجلس العصبة منذ ذلك الحين؛ حيث ما لبثت العصبة أن انحلت لتقوم مكانها بعد انتهاء الحرب في عام ١٩٤٥ هيئة الأمم المتحدة.

تألف الكتاب الأبيض الصادر في٢٧ ربيع الأول ١٣٥٨هـ/ ١٧ مايو ١٩٣٩م من مقدمة وثلاثة أبواب: الأول للدستور، والثاني للهجرة والثالث للأراضي. ففي المقدمة، أسندت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض إلى صك الانتداب فأشارت إلى أن الصك الذي يتضمن تصريح بلفور، كان أساس السياسة التي اتبعتها الحكومات المتعاقبة زهاء عشرين عاماً. ثم أشارت إلى الغموض الذي يكتنف بعض العبارات في صك الانتداب كعبارة "وطن قومي للشعب اليهودي" وعزت ما نشب من قلق وشحناء بين العرب واليهود إلى ذلك الغموض، وخلصت إلى ضرورة وضع تعريف واضح للخطة السياسية ولأهدافها، مشيرة إلى أن التقسيم المؤدي إلى إقامة دولتين عربية ويهودية من شأنه أن يوفر ذلك الوضوح، غير أنه غير عملي وليس بمستطاع أي من الدولتين سد نفقاتهما بذاتهما، لذا كان على الحكومة البريطانية استنباط بديل للتقسيم، أي سياسة أخرى من شأنها أن تفي بالالتزامات المترتبة عليها نحو العرب واليهود(٤). وهذه المبررات غير

---

(١) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص١٤٩ ؛ يوميات أكرم زعيتر، ص٥٩٦ ؛ واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٦٣ ؛ James Parkes: Op. Cit, p. 59.

(٢) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص١٤٩ ؛ واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٦٥ــ٢٦٦ ؛ القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص٨٩.

(٣)رمضان لاوند: الحرب العالمية الثانية عرض مصور، (دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ١٩٩٤م)، ص٢٠ــ٢١ ؛ عبد العزيز نوار ، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص٦٢٠.

(٤) الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣٨، ص٣١٠ــ٣١١ ؛ شفيق الرشيدات: فلسطين تاريخاً...وعبرة...ومصيراً،

صحيحة بالطبع، وهي تهدف إلى ترسيخ الوجود الصهيوني في فلسطين على حساب الشعب الفلسطيني.

أما في باب الدستور، فإن الحكومة البريطانية تعلن بعبارات لا لبس فيها ولا إبهام أنه ليس من سياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية. أما حول مفهوم الوطن القومي اليهودي، فإن الحكومة البريطانية تتمسك بذلك التفسير الذي يعتبر اليهود في فلسطين طائفة لها في الحقيقة مميزات قومية، غير أن ما قصد بترقية الوطن القومي اليهودي في فلسطين لا يعني فرض الجنسية اليهودية على أهالي فلسطين إجمالاً، بل زيادة رقي الطائفة اليهودية؛ حتى تصبح مركزاً يكون فيه للشعب اليهودي برمته اهتمام وفخر من الوجهتين الدينية والقومية؛ وحتى تدرك هذه الطائفة بأن وجودها في فلسطين حق وليس منّة([1])، وأن الحكومة البريطانية قد التزمت بهذا التفسير لمفهوم ترقية الوطن القومي اليهودي، فتشير إلى أنه منذ صدور الكتاب الأبيض في عام١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، جاء إلى فلسطين ما يزيد على ثلاثمائة ألف يهودي؛ بحيث ارتفع عدد سكان الوطن القومي اليهودي إلي أربعمائة وخمسين ألفاً، أو ما يقارب ثلث سكان البلاد([2]). وهذا أيضاً مواصلة للوعود الكاذبة من جانب الحكومة البريطانية.

ثم ينتقل الكتاب إلى مراسلات حسين ــ مكماهون (التي نوقشت في المؤتمر)، فتقول المادة، بأن المندوبين العرب والبريطانيين لم يتمكنوا من الاتفاق حول تفسير هذه المراسلات، لذلك فإن حكومة جلالته تتمسك بالرأي القائل أن جميع فلسطين الواقعة مساكنهم غربي نهر الأردن كانت قد استثنيت من العهد الذي قطعه السير هنري مكماهون، وهي لذلك لا تستطيع أن توافق على أن مراسلات مكماهون تشكل أساساً عادلاً ؛ لادعاء العرب أن الحكومة البريطانية وعدة بتحويل فلسطين إلى دولة عربية مستقلة([3]). ثم يناقض الكتاب الأبيض نفسه بقوله: " إن تشكيل دولة مستقلة في فلسطين والتخلي التام عن رقابة الانتداب فيها يتطلبان نشوء علاقات ما بين العرب واليهود من شأنها أن تجعل حكم البلاد صالحا في حيز الإمكان"([4])، أما نمو مؤسسات الحكم الذاتي فيجب أن تسير على قاعدة النشوء والارتقاء. ثم يخلص هذا الباب إلى القرارات في هذه الشأن والتي يمكن إيجازها بما يلي:

ــ أن تحتفظ بريطانيا بسلطتها التامة في فلسطين في فترة الانتقال بين الانتداب والاستقلال.

سلسلة التراث القومي، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩١م)، ص١٠٢.

([1]) وهذا ما أشرنا إليه في الكتاب الأبيض لعام ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.

([2]) الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣٨، ص٣١٠ــ٣١٣.

([3]) من هنا نجد أن الحكومة البريطانية تناقض نفسها في تمني العرب بقيام دولة عربية، ثم تتناقض هذا الوعد وتتكره عليهم، وتمني به اليهود.

([4]) الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣٨، ص٣١٣ــ٣١٤.

ـ خلال عشر سنوات تقوم حكومة مستقلة ترتبط مع المملكة المتحدة (بريطانيا) بمعاهدة تضمن للقطرين متطلباتهما التجارية والحربية في المستقبل ضمانا مرضيا. وهذا أصبح فيما بعد خاص باليهود.

ـ ستنفذ بريطانيا المشروع "رضي اليهود والعرب أم لم يرضوا"([1]). وهذا زبدة وخلاصة الأهداف البريطانية وهو رغبتها في إحلال الصهاينة محل الفلسيطينين في فلسطين بالقوة.

أما بشأن الهجرة فقد أعلن الكتاب الأبيض أن القدرة الاقتصادية على الاستيعاب لن تكون العامل المقرر في تقرير الهجرة، فهناك أيضا مخاوف العرب، ولذلك اقترح إدخال (٧٥) ألف مغتصب يهودي، يدخل منهم(٥٠) ألف مغتصب بمعدل (١٠) آلاف دخيل صهيوني سنويا خلال خمس سنوات، يضاف إلى ذلك إدخال (٢٥) ألف محتل يهودي يفرون من الاضطهاد، وبعد ذلك تكون الهجرة بموافقة العرب. وذلك للمحافظة على نسبة السكان فيصبح يهودي واحد لكل عربيين. أما بشأن الأراضي فقد قرر الكتاب الأبيض تخويل المندوب السامي صلاحيات تنظيم انتقال الأراضي (أو منعه) إلى المنظمات الصهيونية على ضوء حالة المزارعين العرب([2]). وهذه مجرد وعود كاذبة للتخفيف من صيحات المعارضة الفلسطينية والعربية ضد النوايا البريطانية التي تهدف إلى تحقيق ما وعدت به اليهود من إنشاء وطن لهم على أرض فلسطين الطاهرة.

كان وزير المستعمرات مالكولم ماكدونلد هو الذي تبنى هذا الكتاب وعمل على إصداره، وكان مصيره الفشل؛ بسبب معارضة القيادات السياسية الفلسطينية له والعمل على عدم تنفيذه، كما عارضته القيادات العربية بشدة، وذلك لأن الفلسطينيين هم أصحاب الأرض الأصليين واليهود هم الدخلاء، لكن وقوف بريطاني وأمريكا في كل زمان ومكان بجانب المغتصب الصهيوني أضعف الجانب العربي الفلسطيني.

أما بالنسبة لمواقف أعضاء اللجنة العربية العليا، فإن الوفد لم يرفض الكتاب الأبيض في لندن وإنما انتظر إلى حين الاجتماع مع الحاج أمين لاتخاذ القرار، وتبين بعد مناقشات طويلة، أن الشخص الوحيد الذي يرفض الكتاب الأبيض هو الحاج أمين، بينما كان جميع أعضاء اللجنة مع الكتاب، فقد كانت سياسة أعضاء الوفد تسري على مبدأ "خذ وطالب بالباقي". لكن أعضاء الوفد كانوا يعرفون تأثير الحاج أمين الحسيني السحري على الجماهير الفلسطينية، وبأن شيئاً لا يتم دون موافقته، وحين فشل أعضاء اللجنة في إقناع الحاج أمين بتغيير موقفه، لم يجدوا

([1]) الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣٨، ص٣١٥ـ٣١٧؛ صبري جريس: تاريخ الصهيونية، (مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، ١٩٧٧م)، ج٢، ص٤٤٥ـ٤٤٨.

([2]) الوثائق الرئيسية، الوثيقة رقم ٣٨، ص٣١٩ـ٣٢٣واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٦١ـ٢٦٢ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٥١٩ ؛ Roberto Mesa: Op. Cit , p. 90. .

مخرجاً غير حل اللجنة العربية العليا، ومواجهة المفتي وإعلان قبولهم بالكتاب الأبيض بتحفظ، لكنهم لم تكن لديهم الشجاعة، والسبب في ذلك هو عقلية الجماهير الفلسطينية المتعلقة بالمفتي([1]).

وبالفعل أصدرت اللجنة العربية العليا في فلسطين بياناً([2]) ترفض فيه الكتاب الأبيض "أعلنت فيه باسم الشعب العربي رفض هذه الخطة السياسية، لأنها لا تحقق مطالب العرب، ولأنها لا تختلف عن المقترحات التي عرضت في مؤتمر لندن ورفضها الوفد الفلسطيني ووفود الحكومات العربية "([3]).

ويقول الحاج أمين الحسيني في كتابه أسباب كارثة فلسطين: " ففي بادئ الأمر قابلت الدول العربية هذا الكتاب الأبيض بتحفظ وتجهم لما فيه من تناقض، إلا أنها قبلته في النتيجة كما قبلته الأكثرية الكبرى من أعضاء اللجنة العربية العليا لفلسطين، وأخيراً قبلته أيضاً جامعة الدول العربية وطالبت ــ في اجتماعها عام ١٩٤٥م ــ الحكومة البريطانية بتنفيذه، وبذلك لم يكن العرب سلبيين، ولكن اليهود رفضوه وأصروا على رفضه، فلم تنفذه بريطانيا، رغم أنها تعهدت حين أصدرته ١٣٥٨هـ/ عام ١٩٣٩م بشرفها وشرف الإمبراطورية بأن تنفذه سواء رضي به العرب واليهود أم لم يرضوا"([4]). وأي شرف هذا الذي تتعهد به بريطانية!!!؟

وللتوفيق بين الروايتين يمكننا أن نقول أنه ربما كان الحاج أمين الحسيني معارضاً للكتاب الأبيض في بادئ الأمر؛ لعدم ثقته في الحكومة البريطانية، ولمعرفته التامة بوعودها الكاذبة، ولتجاهل ذلك الكتاب أي موعد للاستقلال الوطني للفلسطينيين على أرضهم، لكنه تراجع عن موقفه هذا بعد أن رأى موافقة أغلب أعضاء الوفد الفلسطيني والعربي، وهذا الواضح من سياق النص الذي ذكر فيه أن العرب في جامعة الدول العربية طالبوا بتطبيقية، ومن المعلوم أن جامعة الدول العربية لم تؤسس إلا في عام ١٩٤٥م، فهذا يعيني أن الرد بموافقة العرب على الكتاب الأبيض١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م كان متأخراً، لأن اللجنة العربية العليا أصدرت بياناً برفضه في عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

أما عن موقف الشعب الفلسطيني فقد رفض الثوار الكتاب الأبيض لعام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م واستمر الثوار في تصعيد العمليات العسكرية حتى رجب ١٣٥٨هـ/سبتمبر ١٩٣٩م، لكن يذكر أكرم زعيتر أن الثورة قد انتهت قتالاً وسلاحاً ومعاركاً بعد هذا التاريخ. أما الأسباب فيوجزها بظروف الحرب وغياب القادة وإنهاك القوى وشح المال والسلاح ونفاذ الذخيرة

([1]) رشيد الحاج إبراهيم: المرجع السابق، صLXVIII ــ LXIX ؛ عبد الرحمن عبد الغني:المرجع السابق، ص٢٠٩.

([2]) أنظر نص البيان في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٨.

([3]) بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية،الوثيقة رقم ٣٣، ص٧٦٦.

([4]) ص٦٠.

ومطاردة المجاهدين، وإخراج بعضهم من سوريا ولبنان والتنكيل ببعضهم الآخر، وإغلاق طريق الإمدادات القادمة من سوريا ولبنان، كما كانت الحدود مع شــرقي الأردن قــد أغلقــت، هــذا بالإضافة إلى قطع بريطانيا وعد على نفسها بتنفيذ الكتاب الأبيض([١]).

أما عن موقف اليهود الصهاينة من الكتاب الأبيض فهم لم يرفضوه فحسب بل ثاروا عليــه واستنكروه لأنه؛ وعد باستقلال فلسطين في ظل أغلبية عربية، لذلك استخدم الصهاينة القوة ضــد العرب والإنجليز في وقت واحد، ففور صدور الكتاب الأبيض في٢٧ ربيع الأول ١٣٥٨هـ/١٧ مايو ١٩٣٩م قام الصهاينة بقطع خطوط الإذاعة؛ حتى لا تذاع منها السياسة البريطانية الجديدة، ثم أحرقوا الدوائر الرئيسية للهجرة، ونهبوا مكاتب الحكومة في تل أبيــب، وأخــذت منظمــاتهم السرية([٢]) تدمر المرافق الرسمية للإنجليز وتفتك بالجيش والبوليس، وتضع القنابل الموقوتة فــي أماكن احتشاد العرب، واستمر العنف الصهيوني أربعة أشهر، ولم ينقطع إلا حين نشبت الحــرب العالمية الثانية([٣]) . وهذا يدل على رغبة الصهاينة في إحتلال الأرض بالقوة مهما كلفهم الأمــر من سفك للدماء البريئة أو تشريد للسكان الأصليين من الفلسطينيين في أرض فلسطين الحرة.

([١]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية،ص١٤٧ــ١٤٩.

([٢]) أهم منظمات اليهود السرية الإرهابية هي:

ــ الهاجانا: وهي منظمة انبثقت بصورة غير قانونية وهي مكونه من الحرس المسلح لحماية المستعمرات اليهوديــة، ويشترك فيها الرجال والنساء، وهي مقسمة إلى ثلاثة فروع: أ ــ قوة ثابتة من سكان المستعمرات تقدر بأربعين ألفاً. ب ــ جيش ميداني يرتكز على بوليس المستعمرات وهو مدرب على العمليات الآلية، وتقدر قوتــه بســتة عشر ألف . ج ــ القوة الدائمة للعمل (بالماخ) وهي مجهزة بأحدث وسائل النقل ويقدر عددها ن ألفين إلى ستة= =آلاف.

ــ أرغون زفاي لومي لأرض إسرائيل: أي المنظمة العسكرية الوطنية في أرض إسرائيل، وهذه المنظمة تألفت من أعضاء منشقين عن الهاجاما(١٣٥٤هـ/١٩٣٥م) وهي تهدف إلى الاستيلاء على فلسطين وشرق الأردن بقــوة السلاح.

ــ شترون: وهي منظمة انشقت عن الأرغون في بداية الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨هـ/١٩٣٩م)، وانشق عنهــا مؤسسها شترون، وقام بتأليف عصابة للاغتيال أسماها "المحاربيون في سبيل حرية إسرائيل" ، وقــد إختصــت بنهب الأموال والسلاح، والغاية عندها وعند غيرها من المنظمات اليهودية تبرر كل وسيلة. انظر: أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، الحاشية رقم ١، ص١٤٨ ؛ خالد عايد: الأرض الفلسطينية، ضمن أبحاث ومناقشات النــدوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية عن العرب ومواجهة إسرائيل واحتمالات المستقبل، (مركــز دراسات الوحدة العربية، بيروت) ج١، ص٩٧٢ــ٩٧٣ ؛ طاهــــر الشولي: المرجع السابق، ص٧٤ــــ٧٥ ؛ ד"ר ש. ל. קרשנבוים : תולדות עם ישראל בדורנו ، חברת אמנות، כרך שני، 'עמ , 379.

([٣]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص١٤٨ ؛ واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٦٥ ؛ محمد حافظ غانم : المرجع السابق، ص٨٩ــ٩٠.

إن إصدار بريطانيا لوعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين كان يخدم السياسة البريطانية بشكل خاص؛ لأنها كانت الدولة المركزية الأولى في العالم بعد الحرب العالمية الأولى، فوجود الدولة الصهيوني في قلب العالم العربي يضمن للدول الاستعمارية مصالحها، القائمة على الإضرار بالمصالح العربية الإسلامية في المنطقة، وبعد الحرب العالمية الثانية باتت الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة المركزية الأولى في العالم، وأصبحت خليفة بريطانيا في تبني الفكر الصهيوني([1]). من ذلك نرى مدى أهمية هذه المنطقة الاستراتيجية بالنسبة للقوى العظمى التي تحاول السيطرة على بلاد الشام، ووضعها تحت الرقابة الجبرية من خلال الكيان الصهيوني الإخطبوط الذي يعمل على التجسس على الأمة العربية الإسلامية من خلال فلسطين.

بقيام الحرب العالمية الثانية أصبحت القضية الفلسطينية معلقة ولم يبت في أمرها إلا بعد نهاية الحرب ١٩٤٥م حيث قامت الجماعات الصهيونية الإرهابية بتسليح نفسها، لتخوض غمار حرب عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م ضد عرب فلسطين([2]) والتي أدت إلى قيام دولة الكيان الصهيوني، وتهجير آلاف الفلسطينيين من بلادهم ليحل محلهم اليهود الصهاينة في أبشع جريمة إنسانية ارتكبها الانتداب البريطاني على أرض فلسطين، وهي تهجير شعب بأكمله من أرضة ليحل محلة شعب آخر مغتصب سفاك للدماء البريئة.

ب ــ ملامح السياسة البريطانية في شرق الأردن:

مرت منطقة شرق الأردن بأخطر مرحلة من تاريخها عند انهيار الحكم الفيصلي في سوريا؛ حيث أصبحت تعيش فراغاً أمنياً خطيراً فلم يعد لها حماية من أي سلطة، لذلك أخذ الإنجليز يفكرون بملء هذا الفراغ([3])، خاصة وأن الأردن تشكل جسراً برياً وسلسلة استعمارية متصلة تبدأ من العراق والخليج العربي وفلسطين والبحر المتوسط ومصر وقناة السويس، وهذه السلسة تجعل من السهل على بريطانيا الاتصال بمستعمراتها في الهند، ويُسهل عليها بالطبع مد أنابيب البترول من الخليج العربي إلى البحر المتوسط بأمان في المستقبل ودون خوف. كما كانت تتصور.

هذا بالإضافة إلى أن فرض بريطانيا سيطرتها على شرق الأردن سوف يحقق لها مكاسب اقتصادية وسياسية بحماية المصالح الاستعمارية للصهاينة في فلسطين؛ كما أن ذلك سوف يحميها من الهجمات الخاطفة التي كان يقوم بها أبناء شرق الأردن ضد المستعمرات اليهودية في فلسطين، لذلك كانت بريطانيا ترى أن القضية الفلسطينية والأطماع الصهيونية في المنطقة سوف

([1]) بيان نويهض الحوت: صبرا وشاتيلا أيول ١٩٨٢م،(مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م)، ص٣٠ ؛ نظام شرابي: المرجع السابق، ص٥٤ــ٥٥.

([2]) ד"ר ש. ל. קרשנבוים : תולדות עם ישראל בדורנו ، 'עמ , 378-379

([3]) سعد أبو دية: صفحات مطوية ، ص١٣٨ ؛ جلال يحيى: العالم العربي، ج٢، ص٥٢٠.

تؤدي إلى اتحاد العشائر الأردنية لدفع الخطر الصهيوني البريطاني، لذلك فكرت بريطانيا في الإعتماد على الأمير عبد الله لحماية مصالحها في المنطقة، فالسياسة البريطانية كانت تفضل أن تخسر خمسة ضباط بريطانيين على أن تزج بجيشها بكامله في شرق الأردن([1]).

ولذلك نشط هربرت صموئيل في إقناع وزارة الخارجية البريطانية في دخول شرق الأردن، وزعم أن الشيوخ الأردنيون الذين زاروه في القدس طلبوا منه احتلال شرق الأردن، ومن الواضح أن صموئيل زاره عدد من شيوخ القبائل الذين لا يمثل رأيهم الأغلبية، وطلبوا منه احتلال البلاد لتحقيق مطامعهم الشخصية، وأن هذا الطلب جاء في مصلحة صموئيل الصهيوني، الذي عمل على سد الفراغ السياسي الموجود في شرق الأردن آنذاك([2])، وفي ٦ ذو الحجة ١٣٣٨هـ/٢١ أغسطس ١٩٢٠م أرسلت الحكومة البريطانية هربرت صموئيل إلى السلط، وهناك وجه دعوة إلى زعماء البلاد من عجلون شمالاً إلى الطفيلية جنوباً للاجتماع بهم في السلط، وفي نهاية الاجتماع اتفق معهم على أن يرسل مجموعة من الضباط الإنجليز ذوي الكفاءة؛ لمساعدة أهالي شرق الأردن على تنظيم حكومتهم وتزويدهم بوسائل الدفاع عنها، وتشكيل هيئات بلدية وإدارية وتشجيع الأهلين في قيام حكم ذاتي في شرق الأردن، لأن الحكومة البريطانية كانت ترى أن هذه أفضل طريقة لتوفير المال على الخزينة البريطانية([3]).

ويذكر الزركلي([4]) أن الناس بعد اجتماعهم مع صموئيل كانوا متعجبون من موقف الساسة البريطانيين بالنسبة لشرق الأردن، فبينما كانت فرنسا وبريطانيا تمنع سوريا ولبنان وفلسطين من الاستقلال تعترف به في شرق الأردن([5]). ولكننا نرى أن السياسة البريطانية كانت تجد في التنافس بين العشائر وبعد المنطقة عن الممرات البحرية المهمة سبباً في منحها شيئاً من

([1]) محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٢ــ٣٣.

([2]) محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٣ ؛ سعد أبو دية: صفحات مطوية ، ص١٣٨.

([3]) سعد أبو دية: صفحات مطوية ، ص١٣٨ ؛ قراءة في أوراق ...، ص٢٩١.

([4]) خير الدين الزركلي(١٣١٠ــ١٣٩٦هـ/١٨٩٣ــ١٩٧٦م): نشأ في دمشق، عمل أستاذاً في الكلية العلمانية في بيروت في عهد الدولة العثمانية، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عاد إلى دمشق وظل بها حتى دخلها الفرنسيوين على أثر معركة ميسلون، حيث غادرها إلى فلسطين فمصر فالحجاز، أصدر الفرنسيون عليه حكماً بالإعدام غيابياً ومصادرة أملاكه، وفي عام ١٣٣٩هـ/١٩٢١م انتدبه الملك حسين لمساعدة ابنه عبدالله في شرق الأردن، ترك الأردن وذهب إلى مصر عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م ب أن انكشفت له سياسة الأمير عبدالله الموالية للانجليز، ووفي عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م ذهب إلى القدس وأصدر جريدة الحياة التي عطلها الإنجليز، ثم غادر فلسطين إلى السعودية عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، وعين مستشاراً للمفوضية العربية السعودية بمصر، وممثل حكومة المملكة العربية في العديد من المحافل الداخلية والدولية. توفي في القاهرة. انظر: الزركلي: الأعلام، ج٨، ص٢٦٧ــ٢٧٠.

([5]) خير الدين الزركلي: عامان في عَمان، (المطبعة العربية، القاهرة، ١٩٢٥م)، ص٤٠.

الاستقلال؛ بحيث يكون كل ما يجري في البلاد تحت أعينهم، لضمان مصالحها علـــى اعتبارهــا معبراً برياً مهماً، بالإضافة إلى تقليل النفقات التي قد تثقل كاهل الحكومة البريطانية.

لقد قاطع أهالي إربد هذا الاجتماع لأسباب شكلية وهي أن أهالي إربد أكثــر عــدداً مــن السلط، لذلك رتب صموئيل اجتماعاً آخر بهم، وذلك في١٨ ذو الحجــة ١٣٣٨هـــ/٢ ســبتمبر ١٩٢٠م على أن يرسل لهم من ينــوب عنــه، وبالفعــل حضــر الميجــر سمرســت Major Somerset في الموعد المحدد ووقع معهم عريضة عرفت باسم معاهــدة أم قــيس، وتــذكر المصادر البريطانية أن أهل أربد اشترطوا في هذه المعاهدة أن يكون الحكم عليهم من الأشراف، لكن مذكرات علي الشرايري تنفي ذلك وتذكر أنهم طلبوا من سمرست أن يكون علــيهم أميــراً عربياً فقط. كما تذكر الوثائق البريطانية أن أهل أربد طلبوا أن تكون بريطانيا هي الدولة المنتدبة عليهم، بينما يذكر الشرايري أن الأهالي طالبوا بالوحدة مع سوريا، وتكوين حكومة مستقلة عــن فلسطين غير منفصلة عنها، وتكوين جيش وطني يحفظ الأمن والنظام مع أحقية زيادة عدد هــذا الجيش إذا رأت الحكومة أن هناك خطر يهدد البلاد، لكن صموئيل كان له بعض الــتحفظ علــى هذا الموضوع، فهو يريد تأسيس قوة بوليس محلية لجمع الضرائب، وتحقيق الأمن الداخلي، ولم يرى داعياً لتأسيس جيش هناك، كما طالبوا أهل أربد أن تقوم السلطات البريطانية بمنع الهجــرة اليهودية إلى شرق الأردن ومنع بيع الأراضي لليهود(١). ولقد وجه أهل الشــام انتقــاداً عنيفــاً لمعاهدة أم قيس، واعتبروا ممثلي عجلون بأنهم أول من أيد الانفصال عن سوريا، وأن عناصــر المعاهدة مستمدة من اتفاقية سايكس بيكو(٢).

وتظهر هنا ملامح السياسة البريطانية القائمة على مبدأ فرق تسد فقــد شــجعت الحكومــة البريطانية الزعماء المحليين على قيام حكومات محلية مستقلة ضعيفة مثل حكومة عجلون التــي تألفت برئاسة علي الشرايري، وحكومة السلط وعَمان برئاسة مظهر رسلان(٣)، وحكومة الكرك برئاسة رفيفان المجالي، وقامت حكومة الكرك بعقد معاهدة مــع ممثــل الحكومــة البريطانيــة

---

(١) سعد أبو دية: قراءة في أوراق ...، ص٢٩١ـــ٢٩٢.

(٢) محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٧

(٣) مظهر رسلان(١٣٠٤ـــ١٣٦٧هــ/١٨٨٧ــ١٩٤٨م): من مواليد حمص، تخرج من الكلية الملكية الشاهانية فـــي اسطنبول، كان رئيس الحكومة الأردنية في عام ١٣٤١هــ/١٩٢٣م ، عاد إلى حمص واعتقلته الحكومة الفرنسية ونفته إلى جزيرة أرواد، تولى عدد من المناصب المهمة في سوريا، ففي عام ١٣٥١هـــ/١٩٣٢م عهــد إليــه بوزارتي العدلية والمعارف، وفي سنة ١٣٥٨هــ/١٩٣٩م تــولى وزارة الداخليــة والــدفاع الــوطني، وفـــي ١٣٦٢هــ/١٩٤٣م عهد إليه بوزارتي الأشغال العامة والإعاشة، ثم عين وزيراً مفوضاً للحكومة الســورية فـــي مصر. انظر: أدهم الجندي: المرجع السابق، ص٣٢٢.

الكولونيـل نيوكمـب Newcombe[1] تضـمنت المبـادئ نفسـها التـي اشـتملت عليهـا معـاهدة أم قيس[2]، وكان هدف بريطانيا من الموافقة على تشكيل هذه الحكومات هو ضمان ولائهم لهـا، و لا تتفق هذه الحكومات فيما بينها وتضطر بريطانيا إلى مواجهة موقف موحد من أهـالي شـرق الأردن[3].

استمرت هذه الحكومات في مهامها حوالي سبعة أشهر، أي إلى حين تعين الأمير عبـد الله بن الحسين أميراً على شرق الأردن في رجب ١٣٣٩هـ/ أوائل ابريل ١٩٢١م؛ حيث وجه مـن مقر إقامته في عَمان رجب ١٣٣٩هـ/ ابريل ١٩٢١م نداءاً دعا فيـه أعيـان الكـرك والسـلط وعجلون للبحث في كيفية توحيد المناطق وإدارة البلاد وجباية الأموال[4]، كمـا اسـتقبل أهـل الأردن الأمير عبدالله استقبالاً حافلاً ؛ لأنه أعلن قبل توليه الإمارة أنه جاء لتحرير سـوريا مـن الاستعمار الفرنسي، لكن والده الشريف حسين أرسل إليه برقية من الحجاز يطلـب منـه عـدم إرباك الحكومة البريطانية، لأنها تعاني من مشكلة جمع الضرائب من أهالي شرق الأردن، كمـا أرسل إليه الأمير فيصل من لندن يطلب منه الامتناع عن أي عمل يسيء إلى الحلفاء[5]. وبـذلك تمت خيوط المؤامرة البريطانية بتنصيب من يحفظ لهم أمنهم واستقرارهم فـي المنطقـة بأقـل التكاليف.

نلاحظ من خلال هذا العرض للأحداث التاريخية في شـرق الأردن أن تشـكيل الهويـة الأردنية منذ بدايات تأسيس إمارة شرق الأردن في١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م كـان وطيـد الصـلة بالوجود البريطاني والسياسة البريطانية التي أسست أو أنشأت هذه الإمارة واسهمت في صـناعة هويتها وشكلها، بعد أن كانت جزءاً لا يتجزأ من بلاد الشام عامة وفلسطين خاصـة. وأن أهـم

---

[1] الكولونيل نيوكمب Newcombe: ضابط بريطاني، كان مسئولاً عن شبكات الجاسوسية في الجزيرة، كما طلبت منه الحكومة البريطانية تقديم المشورة للشريف حسين وأبنائه وغيرهم من الثوار ضد الدولـة العثمانيـة، وقـع أسيراً في يد العثمانيين خلال حملة اللنبي على القد، وتمكن من الهـروب مـن الأسـر فـي ١٨ ربيـع الأول ١٣٣٧هـ/٢٢ ديسمبر ١٩١٨م، وكان له دور كبير في توقيع العثمانيين هدنة مدروس، وقد ظل مهتماً بالشؤون العربية طوال حياته.= =انظر: جعفر العسكري: جعفر العسكري، تحقيق وتقديم: نجدة فتحـي صـفوة، (دار اللام، لندن، ١٩٨٨م)، الحاشية رقم ٢، ص١١٠ ؛ عبداللطيف بن محمد الحميد: البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثمـاني البريطـاني خـلال الحـرب العالميـة الأولـى، (مكتبـة العبيكـان، الريـاض، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، الحاشية رقم ٣، ص٣٩٥ ؛ دافيد فرمكين: المرجع السابق، ص٤٠٩ـ٤١١.

[2] انظر نص معاهدة أم قيس في أمين سعيد : الثورة العربية، ج٣، ١٣ـ١٤.

[3] محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٣ـ٣٧ ؛ سعد أبو دية: صفحات مطوية ، ص١٣٩.

[4] محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٨ـ٣٩.

[5] عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٥٨ـ١٥٩ ؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٣٤ـ٣٥.

آليات تكوين تلك الهوية تمثلت في المؤسستين العسكريتين المدعومتين بالضباط البريطانيين، وسلاح الجو البريطاني، والحكومة التي أوجدتها بريطانيا بزعامة الأمير عبد الله بن الحسين. وقد تمكنت هاتان المؤسستان عن طريق الدعم والإشراف البريطاني أولاً ، ثم الرسمي الحكومي الذي أوجده الانتداب البريطاني من استيعاب الأفراد والقبائل والمجموعات السكانية في شرق الأردن، وإعادة تنظيمها وفق رؤية جديدة تتسق مع مفهوم الدولة أو الدويلات التي فرضها الاستعمار في المنطقة بعمومها، وذلك على حساب الأشكال والبنى التقليدية والمحلية التي كانت سائدة قبل قيام الكيان الأردني. وتم تبني المؤسسات والبنى التي خلقها الاستعمار بوصفها مؤسسات وبنى محلية من دون الانتباه إلى حداثة سنها، وإلى أصلها القادم من الخارج، وأصبحت وكأنها مؤسسات وطنية يجب الدفاع عنها ببسالة.

كانت الإدارة الأردنية تحت إشراف المندوب السامي البريطاني منذ تأسيس الإمارة في رجب ١٣٣٩هـ/ أوائل إبريل ١٩٢١م، وكان المندوب البريطاني لا يتدخل مباشرة في شؤون البلاد إلا إذا جرى حادث يهدد المصالح البريطانية، ويعتبر المندوب البريطاني نفسه مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن حفظ النظام والعلاقات الخارجية في البلاد، أما بقية المعاملات المحلية فكانت بيد الأمير عبدالله والحكومة التي يشكلها(١).

وفي الوقت نفسه أحدث هربرت صموئيل وظيفة المعتمد البريطاني وكانت مهمته الإشراف على الإدارة في شرق الأردن، وكان أول معتمد بريطاني هو المستر ألبرت ابرامسون Albert Abramson(٢) وتولى هذا المنصب في٢ شعبان ١٣٣٩هـ/١١ إبريل ١٩٢١م، لكن حدوث بعض الفوضى الإدارية في عهده أدى إلى عزلة(٣)، وحل محله جون فيلبي وكان هذا يرى أن دوره لابد أن يقتصر على توجيه النقد والنصيحة للإدارة المحلية، وعدم التدخل في تفاصيل الأمور الإدارية، مما أثار خلاف بينه وبين المندوب السامي البريطاني صموئيل؛ بسبب

---

(١) علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٤٨ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.103 .

(٢) المستر ألبرت ابرامسونAlbert Abramson : يعتبر أول معتمد بريطاني في شرق الأردن تولى منصبه في شعبان ١٣٣٩هـ/أبريل ١٩٢١م، لكنه لم يستمر في هذا المنصب سوى ثمانية أشهر أي حتى ربيع الأول ١٣٤٠هـ/نوفمبر ١٩٢١م حيث خلفه جون فيلبي. انظر: عبدالله بن الحسين: مذكراتي، ص٢٢٨ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.216

(٣) أمر تشرشل لورنس بزيارة شرق الأردن لإعادة الأمن إلى نصابة وعزل المعتمد البريطاني ابرامسون Abramson والضباط البريطانيين السبعة الذين تركهم هربرت صموئيل عندما زار السلط في ٦ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/٢١ أغسطس ١٩٢٠م ليقوموا بتنفيذ المهام البريطانية وتنتظيم الأمور الإدارية في الأردن وهؤلاء الضباط هم: بيك Peake ؛وفردريك Frederick ؛ وكامب Camp ؛ وسومرست Somerset ؛ برنتون Brunton ؛ وأليك كيركبرايد Alec Kirkbride ؛ ومونكتونMontkton .أنظر محمد خريسات : المرجع السابق، ص٣٥ ؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٤٨.

تجاوز فيلبي له واتصاله المباشر بوزارة المستعمرات، فما كان من فيلبي إلا أن قدم استقالته في جمادى الآخرة ١٣٤٢هـ/ يناير ١٩٢٤م، وحل محله الكولونيل هنري كوكس في رمضان ١٣٤٢هـ/ إبريل ١٩٢٤م([1])، وكان كوكس يمارس رقابه محكمة على جميع أجهزة الإدارة، والوضع المالي للبلاد بما في ذلك نفقات الأمير الخاصة، وكان المعتمد البريطاني يتلقى تعليماته من المندوب السامي في فلسطين، وكان رئيس الوزراء والوزراء ومدراء الدوائر في مختلف الوزارات الأردنية لا يعينون إلا بناء على رغبته ووفقاً لنصائحه([2]).

في عام١٣٤٣هـ/١٩٢٥م وبعد تصفية حزب الاستقلال حل الموظفون البريطانيون والفلسطينيون المنتدبون من قبل الحكومة البريطانية في فلسطين محل هؤلاء؛ حيث ضم المجلس التنفيذي المؤلف من ستة أشخاص أربعة من العرب ثلاثة منهم فلسطينيين وواحد من شرق الأردن، والاثنان الباقيان من البريطانيين، كانت الحكومة البريطانية ترى أن نظام انتداب الموظفين من إدارة فلسطين عملي ومفيد لهم؛ حيث بلغ عدد الموظفين البريطانيين المنتدبون إلى شرق الأردن في سنة١٣٤٥هـ/١٩٢٧م ثمانية، واستمر هذا النظام حتى سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م([3]).

في٤ شوال ١٣٤٦ هـ /٢٦ مارس ١٩٢٨م نشر نص المعاهدة الأردنية البريطانية([4]) الموقع عليها في القدس بتاريخ ٢٨ شعبان ١٣٤٦ هـ/٢٠ فبراير ١٩٢٨م من قبل الفيلد مارشال لورد بلومر Lord Plumer وحسن خالد أبو الهدى([5])، وقد اشتملت هذه المعاهدة على الملامح السياسية التي سوف تتبعها بريطانيا في شرق الأردن.

تعتبر هذه الاتفاقية متممة لصك الانتداب على شرق الأردن فهي تشير في ديباجتها إلى التزام الجانبين المتعاقدين بصك الانتداب الفلسطيني المطبق على شرق الأردن، وبتصريح المندوب السامي البريطاني في عَمان بتاريخ ٢٨ رمضان ١٣٤١هـ/١٥ مايو ١٩٢٣م والذي ينص على" اعتراف حكومة جلالة الملك بوجود حكومة مستقلة في شرق الأردن برئاسة صاحب السمو الأمير عبد الله بن الحسين، شرط أن توافق جمعية الأمم على ذلك، وأن تكون حكومة

([1]) عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٧٦ ؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٤٨ــ٤٩ ؛ Mariano De Madrazo: Op. Cit. p.146.

([2]) علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٤٨ــ٤٩ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.85 .

([3]) علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٥٢ــ٥٣ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.91-92 .

([4]) أنظر نص المعاهدة في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٧.

([5]) عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٨١.

شرقي الأردن دستورية تمكن حكومة جلالة الملك من القيام بتعهداتها الدولية. وذلك بواسطة اتفاق يعقد بين الحكومتين"([1]).

وتتضمن اتفاقية عام١٣٤٦ هـ/١٩٢٨م:

١. أن يوافق الأمير عبد الله على تعين المعتمد البريطاني في شرق الأردن وأن تتكفل الحكومة المحلية والإدارية بنفقاته هو والموظفين البريطانيين.

٢. أن تكون السلطة التشريعية والإدارية بيد الأمير عبد الله بتكليف من ملك بريطانيا، والموافقة على تشكيل حكومة دستورية، ووضع القانون الأساسي لإمارة شرق الأردن، وأن أي تعديل على هذا القانون يكون بموافقة ملك بريطانيا.

٣. ألا يتم تعين أي موظف من خارج شرق الأردن إلا بموافقة الحكومة البريطانية.

٤. أن يسترشد الأمير عبد الله بنصيحة ملك بريطانيا التي تسدى إليه عن طريق المندوب السامي، في جميع الأمور الخارجية، كذلك جميع الأمور المهمة التي تمس الالتزامات والمصالح المالية الدولية. وأن يكون ملك بريطانيا على علم بالتدابير المقترحة والمتخذة في شرق الأردن، وألا يغير الأمير طريقة مراقبة الأموال العامة التي تفرضها بريطانيا.

٥. يحق لبريطانيا الاحتفاظ بقوات مسلحة في البلاد لحفظ الأمن والنظام، وألا يسمح للأمير عبد الله بإقامة قوات عسكرية من غير موافقة ملك بريطانيا([2]).

هذا باختصار ما تضمنته اتفاقية عام١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨م، والواضح منها أن بريطانيا هي الواضعة لهذه الاتفاقية والمسيطرة على بنود جميع موادها ؛ لأنها كبلت الحكومة الأردنية بمنعها من اتخاذ أي خطوة إيجابية أو سلبية أو قرار فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية أو الداخلية المهمة قبل الرجوع إلى الحكومة البريطانية وأخذ موافقتها. لذلك وجدت هذه الاتفاقية معارضة كبيرة من الشعب الأردني، كما رأينا في المباحث السابقة ؛ لأنها لا تلغي أو تحدد دور الاستعمار بل إنها تؤكده وتشد على يده في مقابل الاستقلال الاسمي فقط.

في الوقع أن اتفاقية عام١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨م كانت نقطة تحول في علاقة المواطنين الأردنيين ببريطانيا والحكومة الأردنية بزعامة الأمير عبد الله فمنذ ذلك التاريخ اعتمد الشعب الأردني طريق النضال السياسي المنظم وعملوا على تنظيم وإنشاء الأحزاب السياسية، ومعارضة سياسة الانتداب، وطالبوا بإبعاد الموظفين الأجانب من الإدارة الأردنية التي تسيطر عليها بريطانيا وإعطاء مناصبهم للأردنيين، وعلى الرغم من القمع وصدور القوانين الزجرية

([1]) عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٧٣ـ١٧٤ ؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٧٠.

([2]) أمين سعيد: الثورة العربية ، ج٣، ص٣٢ـ٣٧ ؛ الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص٧٨ـ٩٢.

ضد المواطنين المعارضين لاتفاقية عام١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨م، إلا أن هذه المعارضة آتت أكلها في٢ شوال ١٣٥١ هـ/٢٨ يناير ١٩٣٣م؛ حيث وافق المندوب البريطاني على النظر في تعديل الاتفاقية([1]).

وفي ١٩ صفر ١٣٥٣هـ/٢ يونيو ١٩٣٤م غادر الأمير عبد الله البلاد إلى لندن لتعديل بعض بنود اتفاقية٢٨ شعبان ١٣٤٦هـ/٢٠ فبراير ١٩٢٨م، وفي١٠ ربيع الأول ١٣٥٣ هـ/ ٢٢ يونيو ١٩٣٤م أعلن نص الاتفاقية المعدلة للاتفاقية السابقة([2]). وأهم التعديلات الواردة في الاتفاقية هي حذف من المادة الأولى لاتفاقية١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م النص المتضمن تحمل الحكومة الأردنية نفقات المعتمد البريطاني وموظفي دار الاعتماد، والحقيقة أن هذا التعديل الطفيف للاتفاقية لم يكن مرضياً بالنسبة للشعب الأردني، وبعد عامين من توقيع هذه الاتفاقية اندلعت الثورة العربية الكبرى في فلسطين، مما جعل الحكومة البريطانية مكرها على محاباة الرأي العالم العربي في فلسطين والدول المجاورة، وكانت بريطانيا تخطط أن يلعب الأمير عبد الله دوراً أساسياً في هذه الأزمة([3]) عن طريق منع أهل شرق الأردن من إثارة الإضطرابات والفتن داخل شرق الأردن، ومنعهم من مد الثورة بالسلاح والرجال داخل فلسطين.

استغل المجلس التنفيذي هذه الظروف وطلب تعديل اتفاقية سنة١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م واتفاقية سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، وقد رفع المجلس مذكرة إلى الأمير عبد الله في الخامس من صفر ١٣٥٦هـ/١٧ ابريل ١٩٣٧م ويمكن تلخيص مطالب المجلس بما يلي:

١. أن يكون من حق الأمير عبد الله تعين ممثلاً له في لندن، وأن يعين الملك البريطاني ممثل له في شرق الأردن.
٢. حذف المادة التي تلزم الأمير بتبليغ ملك بريطانيا بالتدابير المقترحة والمتخذة في البلاد وموافقته عليها، وألا يغير الأمير طريقة مراقبة الأموال العامة في شرق الأردن من غير موافقة ملك بريطانيا.
٣. حذف الفقرة الأخيرة من المادة العاشرة من اتفاقية١٣٤٦هـ/١٩٢٨م والتي تنص على موافقة "الأمير على أن لا ينشئ ولا يحتفظ في شرق الأردن، وألا يسمح بأن ينشأ أو يحتفظ بأي قوات عسكرية من غير موافقة صاحب (الجلالة) البريطانية" ؛ بحيث لا يتضمن النص الجديد موافقة ملك بريطانيا كشرط لإنشاء هذه القوات أو
٤. الاحتفاظ بها في شرق الأردن.

([1]) علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٨٠ـ٨٢.

([2]) عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٨٣ ؛ جبران ملكون: المرجع السابق، ص٦٤.

([3]) علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٨٣ـ٨٤.

٥. إلغاء المادة الرابعة عشرة من اتفاقية١٣٤٦هـ/١٩٢٨م والتي تنص على موافقة " الأمير أن يتبع نصيحة صاحب (الجلالة) البريطانية بشأن إعلان الحكم العرفي في جميع شرق الأردن، أو في أي جزء منها..التي قد توضع تحت..الضابط الذي قد يرشحه أو..الضباط الذين قد يرشحهم صاحب (الجلالة) البريطانية من قوات جلالته"([1]).

وقد أحال الأمير المذكرة إلى المسؤولين البريطانيين في العام نفسه إلا أن الرد عليها لم يأت إلا عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، وفي أثناء مؤتمر لندن توصل توفيق أبو الهدى رئيس المجلس التنفيذي الأردني مع المستر مالكوم ماكدونالد وزير المستعمرات البريطاني إلى تعديل لبعض مواد اتفاقية عام١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، وتضمنت هذه التعديلات بعض التنازلات من الجانب البريطاني لمصلحة شرق الأردن([2]).

وقد أذيعت هذه التعديلات في بيان رسمي صدر عن الحكومة البريطانية في ٢٦ ربيع الأول ١٣٥٨هـ/١٦ مايو ١٩٣٩م وأهم هذه التعديلات مايلي:

١. تغير اسم المجلس التنفيذي إلى مجلس الوزراء، ويكون هذا المجلس مسؤولاً أمام أمير البلاد الأمير عبد الله بن الحسين ،كما هو في البلاد الدستورية.
٢. السماح لحكومة شرق الأردن تعين قناصل لها في بعض الدول العربية المجاورة.
٣. حذف الفقرة الأخيرة من المادة العاشرة من اتفاقية١٣٤٦هـ/١٩٢٨م والتي تنص على موافقة "الأمير على ألا ينشئ ولا يحتفظ في شرق الأردن، وأن لا يسمح بأن ينشأ أو يحتفظ بأي قوات عسكرية من غير موافقة صاحب (الجلالة) البريطانية"، وإن إلغاء هذه الفقرة من الاتفاقية أضعف بعض الشيء السيطرة البريطانية العسكرية على البلاد، على الرغم من استمرار تولي الضباط البريطانيين لقيادة الجيش.
٤. تحرير المالية والإدارة الأردنية من رقابة المعتمد البريطاني في عَمان، مع استمرار بريطانيا في فرض رقابة عامة على جميع شؤون الحكومة الأردنية بموجب المادة الخامسة من اتفاقية عام١٣٤٦هـ/١٩٢٨م، إلا أن هذه الرقابة ستخف شكلياً فقط، مع الاحتفاظ بالحقوق الأساسية التي تتمتع بها الدولة المنتدبة([3]).

وأصبح للأمير عبد الله سلطات تعين ممثلين قنصليين في البلاد المجاورة، فأنشئت قنصليتان للبلاد الأردنية في أواخر عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م في مصر والعراق، وفي ١٠ رجب

([1]) أمين سعيد: الثورة العربية ، ج٣، ص٣٢ـ٣٦ ؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٨٥.

([2]) عبدالله بن الحسين: الآثار الكاملة، ص١٨٣ـ١٨٤ ؛ علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٨٥ـ٨٦.

([3]) علي محافظة: العلاقات الأردنية، ص٨٦.

١٣٥٨هـ/٢٦ أغسطس ١٩٣٩م أصبح توفيق أبو الهدى رئيس آنذاك وزيراً للخارجية، وفي ٢٠ شعبان ١٣٥٨هـ/٤ أكتوبر ١٩٣٩م أعلنت حكومة شرق الأردن ألمانيا بلاداً معادية، ودخولها غمار الحرب العالمية الثانية إلى جانب بريطانيا([1]). وهكذا دخلت الأردن مع بريطانيا غمار حرب ليس لها فيها ناقة ولا جمل، اللهم مساعدة حليفتها بريطانيا التي كانت السبب في وجوها على الخارطة السياسة.

لقد شارك الأمير عبد الله في الحرب مع بريطانيا ؛ حيث اشترك الجيش العربي الأردني مع الحلفاء في عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م في حملتين على سوريا والعراق طمعاً في أن تساعده هذه في ضم سوريا إلى عرشه؛ حتى يستطيع أن يكون ملكاً متوجاً على عرش سوريا الكبرى([2]) ؛ حتى يستطيع أن يشكل هو وأخوه فيصل في العراق طوقاً خانقاً على الملك عبدالعزيز في الجزيرة العربية، وذلك باسم الوحدة العربية التي كان هو أول من تنكر لها، بصده للثوار العرب في سوريا عام١٣٤٣هـ/١٩٢٥م كما رأينا في الفصل الأول.



" أثر الانتداب البريطاني على المظاهر الحضارية في فلسطين وشرق الأردن(١٣٤٢-١٣٥٩هـ/١٩٢٤-١٩٣٩م) "

المبحث الأول: أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاقتصادية.

([1]) جبران ملكون: المرجع السابق، ص٦٤.

([2]) Mary C. Wilson: Op. Cit. p.135-139 ؛ Mariano De Madrazo: Op. Cit. p.146 ؛ جبران ملكون: المرجع السابق، ص٦٤.

المبحث الثاني: أثر الانتداب البريطاني على المؤسسات التعليمية والثقافية.

المبحث الثالث: أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاجتماعية.

المبحث الأول: أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاقتصادية.

لقد عاشت القضية الفلسطينية التي هي قضية العرب والمسلمين الأولى منذ خروج الدولة العثمانية من بلاد الشام وإلى اليوم مراحل متعددة، فالقوميون العرب الذين شاركوا الشريف حسين في ثورته ضد الدولة العثمانية كانوا يحلمون بإقامة دولة عربية موحدة، بينما الإنجليز والفرنسيون كان كلٌ منهما يعمل حسب مصالحه الاستعمارية المتفق عليها في اتفاقية سايكس بيكو، فبريطانيا عملت على إنشاء الدولة الصهيونية ؛ لتكون حاجزاً بين الدول العربية الإسلامية في أسيا والدول العربية الإسلامية في إفريقيا، وبقيام هذا الحاجز البشري تضمن بريطانيا عدم قيام وحدة إسلامية قوية، مثل التي أقامتها الدولة العثمانية، وقضت مضاجع أوربا بأسرها في الزمن الماضي من ناحية، ومن ناحية ثانية فقد كانت فرنسا تحلم بإقامة دولة مسيحية يسيطر عليها الموارنة في لبنان.

ومن ناحية ثالثة فإنه من المعلوم أن النفط الذي أصبح منذ بداية القرن العشرين من أهم مطالب العالم، حتى أنه غدا من الضرورات الأولية لكيان الدول الكبرى، فالبترول كان من أهم العوامل التي اجتذبت انجلترا إلى العراق وفلسطين وشرق الأردن وإيران، فبريطانيا تريد أن تدافع عن قناة السويس، وتحافظ على بترول الموصل والمحمرة، من أي اعتداء عليها من قبل

فرنسا[1]، وإحكام السيطرة عليه بما يخدم السياسة والمصالح الاقتصادية والاستراتيجية المتناقضة لكل من بريطانيا وفرنسا[2]. فالجانب الديني والسياسي والاقتصادي من أهم الأسباب التي جعلت دول الغرب الأوروبي تسعى لاقتسام دول المشرق العربي، وتعمل على إنشاء الوطن القومي اليهودي أو ما عرف فيما بعد بدولة إسرائيل في المشرق العربي، وحتى تقوم هذه الدولة ويعيش هذا الوطن القومي اليهودي، كان لابد على بريطانيا أن توفر المقومات الأساسية لـه، والتي تعتمد أولاً: على الحماية العسكرية والسياسية والتي تـم تحقيقها منذ دخول القوات البريطانية إلى فلسطين في أوئل سنة ١٣٣٦هـ/أواخر عام ١٩١٧م، وثانياً: على السيطرة الاقتصادية على ثروات البلاد وأراضيها حتى تقوى شوكة اليهود فيها.

وفيما يلي سوف نتطرق إلى الأثر الذي أحدثه الانتداب البريطاني على الحالة الاقتصادية في فلسطين وشرق الأردن.

أ ــ أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاقتصادية في فلسطين:

إن التخطيط الصهيوني اليهودي ــ البريطاني لسرقة فلسطين بدأ من مدينة بال بسويسرا في الأول من ربيع الآخرة ١٣١٥هـ/٢٩ أغسطس ١٨٩٧م، عندما عقد العقل المدبر للخطط اليهودية الصهيونية ثيودور هرتزل Theodor Hertzel[3] أول مؤتمر صهيوني للحركة الصهيونية الناشئة[4]، ووضع المؤتمر برنامج الحركة الصهيونية والذي عرف "ببرنامج بال"[5] وحدد هرتزل في كلمته أمام هذا المؤتمر برنامج الحركة كما يلي:

---

[1] غوردون كاننج: "الانتداب في البلدان العربية"،(مجلة المنار، ج٨، المجلد ٣٠، ٣٠ رمضان ١٣٤٨هـ/١ مارس ١٩٣٠م)، ص٦١٠.

[2] جوستورك: الأبعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية، "الصهيونية والعنصرية"، ضمن أبحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونية المنعقد في في بغداد ٨ــ١٢ نوفمبر ١٩٧٦م، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت)، ج٢، ص٢٠١.

[3] ثيودور هرتزل Theodor Hertzel(١٢٧٦ــ١٣٢٢هـ/١٨٦٠ــ١٩٠٤م):يهودي مجري ولد في بودابست، وعاش في فينا،حيث مارس المحاماة والصحافة والتأليف، ألف كُتَيباً بإسم "الدولة اليهودية" باللغة الألمانية عام ١٣١٤هـ/١٨٩٦م وضمنه القواعد التي تقوم عليها الصهيونية الجديدة التي تهدف إلى جمع اليهود في دولة خالصة لهم، ولم يحدد هرتزل مكاناً معيناً لقيام الدلولة اليهودية المنشودة، وهو مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة، وأول رئيس للمنظمة الصهيونية، تـوفي عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م في النمسا. وفي عام ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م نقل الصهاينة رفاته إلى القدس. انظر: جميل عطية إبراهيم، صلاح عيسى: المرجع السابق، ص٣٧ ؛ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ص١٣٤٧ــ١٣٤٨ ؛ أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٤٧.

[4] للمزيد من حول هذا المؤتمر انظر: محمد القيسي: المرجع السابق، ص٥١ــ٥٦.

[5] جميل عطية إبراهيم، صلاح عيسى: المرجع السابق، ص٣٧ ؛ وليد الخالدي: الصهيونية في مئة عام ، ص١٨

١. إيجاد استعمار يهودي لفلسطين، منظم وعلى نطاق واسع، مع الاستحواذ على مرافق الحياة (الزراعية والصناعية والمالية والاقتصادية).
٢. الحصول على حق شرعي معترف به، دولياً، لاستعمار فلسطين.
٣. إنشاء منظمة دائمة لتوحيد جميع اليهود من أجل الحركة الصهيونية، وذلك بتنظيم الحركة اليهودية في منظمات محلية تتلائم مع القوانين المتبعة في كل بلد مع ربط هذه المنظمات ببعضها البعض.
٤. تعبئة الجماهير اليهودية وتوعيتها لتقبل الأفكار الصهيونية لنيل مساهمتهم([١]).

وهذا المؤتمر اوصى أن تكون أرض فلسطين التي أُطلق عليها أرض إسرائيل هي مركز الدولة الإسرائيلية اليهودية، وفي هذا المؤتمر رسم العلم الصهيوني، ووضع النشيد القومي، وأوصى المؤتمر بتأسيس شركة لشراء الأراضي وأعمال الاستعمار، وفي نهاية هذا المؤتمر قال هرتزل: "اليوم أنشأنا الدولة اليهودية"([٢]). وبدأ اليهود العمل الجدي ؛ لتنفيذ هذا البرنامج بإنشاء "المنظمة الصهيونية العالمية" وانتخب هرتزل أول رئيس لها، وقد عملت هذه المنظمة بالسعي لتنفيذ البرنامج الذي أقرته الحركة في مؤتمرها([٣]) ؛ حيث تمكنت من الحصول على الوعد الذي سعت إليه من بريطانيا التي عملت بكل الوسائل على إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين بطريقتين هما:

أولاً: تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ثانياً: تسهيل عملية بيع الأراضي الفلسطينية لليهود للسكن فيها وإنشاء المشاريع فيها. وذلك خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين وشرق الأردن، الذي سهل للصهاينة تحقيق أهدافهم العدوانية ضد بلاد الشام بصفة خاصة والبلاد العربية بصفة عامة.

وكما هو معروف عن المجتمع الفلسطيني أنه مجتمع زراعي بحكم موقعه في منطقة حوض البحر المتوسط، هذا بالإضافة إلى أن موقعه على البحر المتوسط سهل له عملية التبادل التجاري بجميع دول العالم في أوربا والعالم العربي، لذلك عندما دخل الانتداب البريطاني إلى فلسطين أحدث تغيراً كبيراً في مسار الحياة الاقتصادية فيها وهذا ما سوف نتطرق إليه في هذا المبحث.

؛ نجلاء عز عز الدين: المرجع السابق، ص٣٠١.

([١]) ياسين سويد : مؤامرة الغرب..، ص٤١ــ٤٢ ؛ محمد القيسي: المرجع السابق، ص٥١ــ٥٦.

([٢]) أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٤٧ ؛ هيلة السليمي: المرجع السابق، ص٨٣.

([٣]) ياسين سويد : مؤامرة الغرب..، ص٤٢ ؛ محمود منسي: تصريح بالفور مع قسم خاص عن فلسطين في تقارير بيل الأمريكية، (دار الفكر العربي، القاهر)، ص٢٥.

وقد سبق ذلك قيام مجموعة من اليهود والنصارى بمحاربة القيم الإسلامية التي يقوم عليها الإقتصاد الإسلامي وذلك في زمن الدولة العثمانية ؛ وذلك بتشجيعهم على فتح باب الربا في المعاملات الإقتصادية، فانتشر التعامل بالربا في الأواخر عهد الدولة العثمانية عندما أصبح للدول الكبرى اليد الطولى في إقتصاديات الدولة عن طريق إقراضها مبالغ كبيرة من الأموال لتسديد ديونها التي أخذت في التراكم التدريجي عاماً بعد آخر. ومن المعروف أن الربا يعتبر من الكبائر في الشريعة الإسلامية، ومع ذلك فقد أنشأت الدولة العثمانية في عام ١٩٠٨م مصارف زراعية لها فروع في مراكز الولايات؛ لتسليف الفلاحين بفائدة ربوية مقدارها ٩%، ولآجال طويلة أحياناً ومقابل رهون عقارية، كما انتشر المرابون من الأفراد، وكان الفلاحون يقترضون ما يحتاجون إليه من المرابين بفوائد باهظة تصل أحياناً إلى ٤٠% و ٣٠% ولا تقل عن ١٥%([1]).

وفي الوقت نفسه فإن زيادة الدخلاء اليهود إلى فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني ومنذ الحرب العالمية الأولى قد أدت إلى قلع البنية الاقتصادية الإسلامية في المنطقة من جذورها، فاليهود الذين جاؤوا من مناطق مختلفة في العالم، وأدخلوا رؤوس أموال ضخمة إلى فلسطين استطاعوا أن يسيطروا على التجارة والاقتصاد المحلي عن طريق توفير الأموال وتسهيل القروض الربوية، وكما أنهم عملوا على زيادة نفوذهم السياسي والاقتصادي بشكل متوازي، وفي المقابل فإن شعب فلسطين بدأ تدريجياً يفقد تأثيره السياسي والإقتصادي على أرضهم في فترة قصيرة ؛ بسبب الفقر الذي حل بهم نتيجة استحواذ اليهود النازحين على معظم المصالح الاقتصادية والتموينية في فلسطين بتشجيع من بريطانيا، هذا التغير الذي بدأ في الحياة الاقتصادية، ثم السياسية أدى إلى تعميق الأزمة الفلسطينية([2])، ليس في فلسطين بل في المنطقة العربية بأكملها، لأنهم منذ أن دخلوا فلسطين وأصبحت لهم قوة سياسية وإقتصادية كبيرة وذلك بمساعدة البريطانيين، فعملوا على فرض السيطرة الإقتصادية بجعل واردات وصادرات فلسطين في يدهم، وامتد نفوذهم إلى الدول المجاورة وخاصة منطقة شرق الأردن التي كانوا يطمعون في السيطرة عليها هي الأخرى.

ومع تنامي دور بيروت الاقتصادي الإقليمي بتشجيع من فرنسا خلال فترة الانتداب، احتدت المنافسة بين المصالح البريطانية والفرنسية. فاحتكر الفرنسيون اقتصاد الحرير، وسيطر البريطانيون على المنتجات المصنعة وتفوقوا على الفرنسيين في قطاعات التأمين والنقل البحري

([1]) محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٦٠.

([2]) irfan C. Acar: Op. Cit. pp.42-43 ؛ إبراهيم نجم وآخرون : جهاد فلسطين العربية، أول كتاب بالعربية عن فترة الانتداب البريطاني وبداية الثورة الكبرى سنة ١٩٣٦م، ستون عاماً على النكبة، تقديم: وليد الخالدي، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ، ط١، ٢٠٠٩م)، ص٩٢.

والمصارف. غير أن الأهم هو سباق القوتيين الاستعماريتين للسيطرة علـــى المرافـــئ ووســـائل النقل (الطرقات وخطوط سكك الحديد) في أواخر عهد الدولة العثمانية وطول فتـــرة الانتـــداب؛ حيث كانت الاستثمارات الفرنسية في هذا المجال هي الأكبر حجماً حيث تم تقدرها بــــ ١٦٨.٣ مليون فرنك في لبنان وسوريا وفلسطين. لذلك عكف البريطانيون المحرومون من موطيء قـــدم في بيروت، على توسيع مرفأ حيفا الفلسطيني، الذي أخذ يحل بسرعة محل مرفأ عكا التقليـــدي، بعد أن قاموا ببناء أحواض عميقة في البحر في المرفأ قادرة على اســـتقبال الســـفن والنـــاقلات الضخمة، كما عملوا على مد أنبوب للنفط عبر الصحراء من العـــراق لشـــركة نفـــط العـــراق الإنجليزية عبر حيفا([١]) وبنوا خط سكة حديد يربط بين حيفا ودمشق، وخط حديدي يـــربط بـــين القدس والساحل في يافا. وهكذا بدأ التنافس الاستعماري بين مرفأي حيفا وبيروت للفـــوز بـــدور البوابة البحرية لشرقي المتوسط. لكن مع إطلالة القرن العشرين كان مرفأ بيروت قد تفوق على مرفأ حيفا، واستحوذ على ٧٥% من تجارة بر الشام([٢])، خاصة وأن ضرب مرفأ حيفا اقتصـــادياً لم يكن من جانب الفرنسيين فقط بل حتى من جانب اليهود الذين عملوا بعد ذلك على إنشاء مدينة جديدة هي تل أبيب بالقرب من مرفأ يافا حتى يسددوا ضربة قوية للاقتصاد الفلسطيني في منافذه البحرية، ويتحكموا في عمليات الإستيراد والتصدير من هذا المنفذ البحري الجديد.

لقد كانت العملة الرسمية المتداولة بين الناس في فلسطين هي النقود العثمانية وتنقسم إلـــى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: القطعة الذهبية ، كالليرة العثمانية وتسوي ١٠٠ قرش، ووحـــداتها الخمـــس ليرات والليرتان ونصف الليرة وربع الليرة.

الفئة الثانية: النقود الفضية، كالريال المجيدي ويساوي ١٩ قرشـــاً، ووحداتـــه المجيـــدي ونصف المجيدي والقرشين أبيض (أبو المئة بارة)، والقرش(أبو خمسين بارة).

الفئة الثالثة: النقود النحاسية التي يدخل فيها قليل من الفضة كالزهراوي، وهـــي تســـاوي خمسة قروش، وسميت بالزهراوي لوجود زهرة على وجهي القطعة النقديـــة، ووحـــدات هـــذه القطعة البشلك وتساوي خمسة قروش، والمتليك وهي مزيج من النيكل والنحاس وتساوي ثلاثـــة قروش، وتختلف قيمة العملة العثمانية من مدينة إلى أخرى، ولكن ما ذكرناه هو التقدير الرســـمي من قبل الدولة([٣]).

ومن أجل التقليل من أهميت العملات العثمانيـــة بجميـــع أنواعهـــا وفئاتهـــا فـــان الإدارة

([١]) رشيد الحاج إبراهيم: المرجع السابق، صXLIV ــ XLV ؛ فواز الطرابلسي:المرجع السابق، ص٩٦.

([٢]) فواز الطرابلسي:المرجع السابق، ص٩٦.

([٣]) زهير غنايم: لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية ١٢٨١ـــــ١٣٣٧هـــ/١٨٦٤ــــ١٩١٨م، سلســـلة المـــدن الفلسطينية،(مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٥م)، ص٥١٠ـــ٥١٣.

العسكرية في فلسطين أخذت التدخل المباشر في الشؤون المالية للبلاد، فأدخلت العملة المصرية إلى فلسطين وجعلتها العملة الرسمية، كما أصدرت في ١٤ ربيع الأول ١٣٣٦هـ/ ٢٨ ديسمبر ١٩١٧م تعرفة رسمية حددت فيها أسعار النقود الرسمية بالنسبة للعملة المصرية، ولم يجد استعمال النقد المصري صعوبات كثيرة، فقد قبل الناس المسكوكات المصرية، وكانت الليرة الإنجليزية الذهبية نادرة، أما الليرة العثمانية الذهبية فقد توقف تداولها في جميع المناطق الخاضعة للإنتداب البريطاني، كما توقف تداول العملات العثمانية الورقية بأمر من السلطة العسكرية وذلك منذ شهر ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ديسمبر ١٩١٨م بعد اكتمال احتلال بريطانيا لفلسطين، كما أصدرت إدارة الإحتلال العسكري البريطاني قانوناً لجبي الضرائب، وفي الوقت نفسه أسس الحكام العسكريون شركات اقتصادية لبيع الأقمشة التي تستورد من مصر ويديرها مجموعة من اليهود الصهاينة([1]).

على أنه لم تتجه الأفكار بشكل جدي في بداية عهد الانتداب البريطاني إلى إحداث نقد فلسطيني مستقل؛ عوضاً عن النقد المصري الذي رضي به الناس وألفوه. لكن سلطات الانتداب في عام١٣٤٢هـ/١٩٢٤م رأت أن الأحوال الاقتصادية في المنطقة أصبحت ملائمة وتستدعي تأسيس نظام للنقد خاص بفلسطين فألف المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل في شعبان ١٣٤٢هـ/أوائل إبريل ١٩٢٤م لجنة؛ لدراسة إمكان سك نقد فلسطيني، وتألفت اللجنة من أربعة من مديري المصارف الأجنبية وثلاثة من موظفي الحكومة البريطانية واثنين من العرب عينتهما حكومة الإنتداب وثلاثة من اليهود اختارتهم اللجنة الصهيونية([2]). وقد أثار هذا العمل موجة من النقد والاحتجاج بين العرب فقدمت الجمعية الإسلامية ـ المسيحية في حيفا مذكرة إلى المندوب السامي بتاريخ ٨ رمضان ١٣٤٢هـ/١٢ ابريل ١٩٢٤م بينت فيها موقفها الرافض لضرب عملة فلسطينية، لأن ذلك يعد ضربة قاضية لاقتصاد البلد لأسباب كثيرة، أهمها فتح الباب أمام المصارف للتلاعب بأموال البلاد تلاعباً يجرها إلى الخسارة والإفلاس المستعجل، كما هو الحال في سوريا، وعلى الرغم من الاحتجاجات العربية المتتالية إلا أن صموئيل لم يوقف عمل اللجنة، التي قدمت تقريرها في ذي القعدة ١٣٤٢هـ/يونيو ١٩٢٤م، وحبذت فيه إنشاء نقد فلسطيني مؤسس على الجنيه الإسترليني. لكن الخطوات التنفيذية لادخال النقد الجديد تأخر سنتين إلى أن

([1]) محمد صلاح سالم: المرجع السابق، ص٦٩ ؛ الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص٥٠٠.

([2]) نلاحظ من خلال هذه اللجنة مدى التحيز البريطاني للجانب اليهودي، فهي حتى أعضاء االلجنة لم تسمح للعرب أن يختاروهم بل سمحت لنفسها أن تختار هي الأعضاء الذين سوف يسايرونها في تنفيذ قراراتها حتى لو كانت على حساب الشعب الفلسطيني، ولصالح الأقلية اليهودية، حيث أنها سمحت لهذه الأقلية أن تتمثل من ثلاثة أعضاء= =تختارهم اللجنة الصهيونية، بينما لم تسمح للعرب وهم الأكثرية من أهل البلاد الأصليين إلا بإثنين فقط وهي التي تختارهم.

أصدر وزير المستعمرات البريطاني قانون العملة الفلسطينية، وعين مجلس النقد الفلسطيني في٢ ربيع الأول ١٣٤٥هـ/١٠ سبتمبر ١٩٢٦م الذي منحته سلطة إصدار النقد الفلسطيني بالنيابة عن "حكومة فلسطين"، وفي١٨ شعبان ١٣٤٥هـ/٢١ فبراير ١٩٢٧م أعلن وزير المستعمرات البريطاني أنه سيستبدل النقد المصري بالنقد الفلسطيني(١)، الذي صدر عن مجلس فلسطين للنقد (Palestine Currency Board) كان الجنيه الفلسطيني العملة الرسمية الشرعية في مناطق الانتداب البريطاني على فلسطين وإمارة شرق الأردن ما بين عامي١٣٤٥ـ١٣٦٧هـ/ ١٩٢٧-١٩٤٨م(٢).

ويقسم الجنيه الفلسطيني إلى ١٠٠٠مل(أو مليم) والمليم ١٠٠ قرش حملت القطعات النقدية والأوراق المالية كتابات بالثلاث اللغات الرسمية للانتداب وهي العربية الإنجليزية والعبرية، أما في كل من هذه اللغات فكان اسم العملة مختلفا حيث تمت طباعة "جنيه فلسطيني" بالعربية، و"Palestine pound"(پالستاين پاوند) بالإنجليزية، و"פונט פלשתינאיא" (فونت پالستيناي إيرتس يسرائيلي) بالعبرية(٣). وكان الاسم الشائع للعملة لدى العرب واليهود "ليرة". كذلك شاع تقسيم العملة بشكل غير رسمي إلى ١٠٠ قرش، كان الجنيه الفلسطيني يساوي الجنيه الإسترليني البريطاني بالضبط، وحتى أطلق بعض الناس اسم "شيلينغ" على القطعة النقدية بقيمة ٥٠ مل، إذ ساوت قيمته قيمة الشيلينغ البريطاني، وكانت النقود الفلسطينية التي أصدرها مجلس النقد الفلسطيني نوعين مسكوكات معدنية وأوراق نقدية، وقد سكت وطبعت جميعها في بريطانيا. وعند نهاية فترة الانتداب البريطاني في٦ رجب ١٣٦٧هـ/١٥ مايو ١٩٤٨م انحل مجلس فلسطين للنقد ووقف إصدار الجنيه الفلسطيني، وأصبحت العملة المتداولة في فلسطين حتى اليوم هي الشيكل الإسرائيلي و الدينار الأردني و الدولار الأمريكي(٤).

أما بالنسبة للبناء وتطوير فلسطين، فقد قام الجنرال اللنبي بعد دخول القدس باستدعاء المهندس ماكلين Mclean مهندس مدينة الإسكندرية ؛ لوضع الخطة الهيكلية الأولى لمدينة القدس والمقاييس والمواصفات والقيود المتعلقة بالبناء والتطوير فيها، وقام هذا بوضع أول مخطط هيكلي للمدينة سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٨م وكان هذا المخطط بمثابة أساسٍ للمخططات التي

(١) الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص٥٠١.

(٢) Mary C. Wilson: Op. Cit. p.103

(٣) انظر صور العملة الفلسطينية في ملحق الصور الملحق رقم ٤.

(٤) الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص٥٠١ـ٥٠٢.

تلته، وبناء على هذا المخطط تم تقسيم المدينة إلى أربع مناطق([1]):

١. البلدة القديمة وأسوارها.

٢. المناطق المحيطة بالبلدة القديمة.

٣. القدس الشرقية (العربية)

٤. القدس الغربية(اليهودية) ([2]).

وقد نصت الخطة على منع البناء منعاً باتاً في المناطق المحيطة بالبلدة القديمة، ووضعت قيوداً على البناء في القدس الشرقية (العربية)، وأعلن أن القدس الغربية (اليهودية) هي منطقة تطوير وبناء. وقد اتسم هذا المخطط بتعزيز الوجود الصهيوني في المدينة المقدسة، والعمل على تطويق العرب بالمستوطنات لمنع أي توسع عربي محتمل، ومحاولة السيطرة على الحكم البلدي كخطوة نحو الاحتلال الكامل للمدينة وتحويلها إلى عاصمة للدولة اليهودية([3]).

لقد عملت سلطات الانتداب البريطاني على تسهيل إقامة اليهود في فلسطين، وشراء الأراضي الفلسطينية؛ لتنفيذ المخطط الصهيوني الرامي إلى تهويد فلسطين، حيث يقدر ما أنفقه اليهود من المال بعد الحرب العالمية الأولى بستة ملايين جنيه. مليون واحد اشتروا به أراضي، ومليون للمصانع ونصف مليون للمساعدات وثلاثة ملايين للاستعمار وغيره من الأمور السياسية والإدارية، فقد كان لليهود في فلسطين مصرف عظيم وهو"بنك أنجلو فلسطين"([4]) الذي كان رأسماله سنة ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م ١٠٠ ألف جنيه وفيه من الودائع ٧٠٠ ألف جنيه، مما زاد في رأسماله إلى ٣٠٠ ألف جنيه، واحتفظ هذا المصرف بأرباحه ولم يوزعها منذ سنة١٣٣٢هـ/١٩١٤م، وذلك لأنه اضطر إلى تسليف المستعمرين قروضاً لمدة طويلة، وكانت إدارة هذا المصرف العليا في لندن وله فروع في أمهات المدن الفلسطينية والسورية ولهم غير هذا المصرف مصارف عقارية. وأخرى تسلفهم للبناء وكلها تفضل معاملة اليهود على غيرهم

([1]) أنظر تخطيط مدينة القدس في ملحق الخرائط الملحق رقم ١١.

([2]) محمد صلاح سالم: المرجع السابق، ٧٣ـ٧٤.

([3]) محمد صلاح سالم: المرجع السابق، ص٧٤ ؛ كيت ماجواير: تهويد القدس الخطوات الإسرائيلية للاستيلاء على القدس،(دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص١٥ـ١٧.

([4]) بنك أنجلو فلسطين(Anglo – Palestine Bank):أسس هذا البنك في ١٣٢١هـ/١٩٠٣م وعرف في في ذلك الوقت باسم شركة أنجلو ـ فلسطين(Anglo – Palestine Company) كان هذا البنك يهودياً ومركزه الرئيس في بريطانيا، وله فروع في صفد وطبرية وحيفا، حيث كان يقرض الفلاحين المال بضمان أراضيهم، وكان وكلاء البنك من اليهود يشترون الأراضي من العرب ويسجلونها باسم البنك. وقد أنشأ اليهود البنك على أنه شركة إنجليزية لاستغلال الامتيازات التي يتمتع بها المواطنون البريطانيون في الدولة العثمانية وشراء الأراضي من دون إثارة اعتراض السلطات العثمانية التي لم تسمح لليهود بالتملك في فلسطين. انظر: زهير غنايم: المرجع السابق، ص٥٢٨ـ٥٢٩.

وتقرضهم بفائدة أقل مما تأخذه من العرب([1]). حتى يرهقوا العرب بالديون فيضطرون إلى بيع أملاكهم لليهود، وهذا من الآثار السلبية التي تركها الانتداب البريطاني في فلسطين فهم الذين ساعدوا هذه المصارف الربوية على الظهور والانتشار وجعلوا مقرها لندن.

عندما انتهت الإدارة العسكرية وبدأت الإدارة المدنية بزعامة هربرت صموئيل في ١٤ شوال ١٣٣٨هـ/الأول من يوليو ١٩٢٠م عمل على تهيئة فلسطين لإنشاء الوطن القومي اليهودي فيها، ففتح بابا الهجرة لليهود وحددها ١٦٥٠ دخيل سنوياً، وعمل على إنشاء لجنة للأراضي تهدف إلى تسهيل عمليات بيع الأرضي الفلسطينية لليهود، ومنح اليهود استثمارات ومشروعات كبرى من أهمها مشروع "روتنبرغ" للكهرباء، ومشروع "بوتاس البحر الميت" وغيرها من المشاريع المهمة والاستراتيجية([2]) التي كانت تعمل بالتدريج في تحويل الاقتصاد الفلسطيني إلى يهودي.

ففي ١٨ محرم ١٣٤٠هـ/ ٢١ سبتمبر ١٩٢١م عقد اتفاق مشروع بنيهاس روتنبرغ Pinhas Reutenberrg بين سلطات الانتداب البريطاني المتمثلة في المندوب السامي هربرت صموئيل وبين بنيهاس روتنبرغ المهندس اليهودي الروسي، على أن يجمع روتنبرغ خلال سنتين مليون جنيه لشركة روتنبرغ لتوليد الكهرباء، على أن يدفع ما لا يقل عن مئتي ألف جنيه نقداً، نظير أن يمنحه المندوب السامي البريطاني امتيازاً مدة سبعين سنة، للاستفادة من مياه الأنهار الآتية: مياه نهر الأردن وحوضه، ونهر اليرموك وجميع فروعه، وروافد نهر الأردن التي تقع في الأرض التي يسيطر عليها المندوب السامي لفلسطين، والخارجة عن الأراضي الخاضعة لبريطانيا والواقعة تحت سيطرة الانتداب الفرنسي. وذلك لتوليد الكهرباء، ثم رخص له أن يستعمل بحيرة طبرية خزاناً للمياه التي يريد الانتفاع بها، وأن يبني سداً عليها لرفع المياه إلى درجه عالية، وسمح له أن يبني المحطات التي يحتاجها متى أراد وفي المكان الذي يراه مناسباً، وأن يغير مجرى نهر اليرموك وروافده إلى بحيرة طبرية وأن يتملك من الأراضي والأبنية ما يراه ضرورياً لهذا المشروع([3]). بموجب هذا المشروع استولى روتنبرغ على أرض مساحتها ستة آلاف دونم، لبناء مصنع عند التقاء نهر الزرقاء بنهر الأردن، علماً بأن هذا المشروع لا يحتاج إلى هذه المساحة الكبيرة([4])، من هنا نجد المستعمر البريطاني يعمل على بناء البنية

([1]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص٢٢١.

([2]) محمد صلاح سالم: المرجع السابق، ص٧٢ـ٧٣ ؛ وللمزيد من المعلومات حول هذه المشاريع انظر: حسن صبري الخولي: المرجع السابق، ج١، ص٥٠٤ـ٥٠٩.

([3]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٢ ؛ أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٩ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق،ص٦٤ـ٦٥.

([4]) محمد خريسات: المرجع السابق،ص٦٤ ؛ Mary C. Wilson: Op. Cit. p.105

التحتية الصهيونية على حساب أصحاب الأرض الأصليين في منطقة حوض نهر الأردن (فلسطين والأردن)، وذلك بسيطرتهم على أراضي شاسعة ليس من حقهم التصرف فيها.

منح المندوب السامي أيضاً روتنبرغ امتياز استثمار نهر العوجا بالقرب من يافا. وتعهدت الشركة بأن تبدأ بالعمل بعد اثني عشر شهراً وأن تنجز المشروع في خمس سنوات. وعدل هذا الشرط؛ حيث رخص للشركة بتمديد هذه المدة وتعهدت إذا هي تأخرت عن إنجاز هذا العمل في الخمس سنوات أو في المدة التي يعينها المندوب السامي، ولم تقم بالعمل تدفع عن كل شهر ألفي جنيه لحكومة فلسطين ويحق للمندوب السامي إلغاء هذا الاتفاق([1]).

أما مشروع امتياز البحر الميت الذي حصل عليه اثنان من اليهود الروس في عام١٣٤٧هـ/١٩٢٩م؛ حيث منحتهم سلطات الانتداب حق التصرف في البحر الميت والمناطق التي تحيط به مما أدى إلى تشريد (١٥٠٠) عائلة من الفلاحين العرب جراء تنفيذ هذا المشروع. ولزيادة الضغط على الشعب الفلسطيني سمحت سلطات الانتداب لليهود بإقامة ميناء خاص لهم في تل أبيب لمنافسة ميناء يافا العربي المتاخم له([2]).

ومن الملاحظ أن الرأسمالية الصهيونية تخيرت أخصب الأراضي والمواقع الإستراتيجية الفلسطينية؛ لتشيد عليها مشروعاتها الاقتصادية، وبموجب عقود امتياز هذه المشروعات سمحت سلطات الانتداب للصهاينة وحدهم باحتكار الثروة المعدنية ومياه الأنهار العربية والكهرباء المتولدة منها لمدد وصلت في بعض الأحيان إلى سبعين عاماً ، وبهذه الصفة الاحتكارية تمكن الصهاينة في نهاية المطاف من وضع أيديهم على الموارد الطبيعية للبلاد.

بهذه المشاريع التي عهدت بها سلطات الانتداب البريطاني إلى اليهود أصحاب رؤوس الأموال أدت إلى ظهور اليهود كطبقة اقتصادية منتجة، وفي الوقت نفسه زادت من الضرائب على التجار والمزارعين، الذين أخذوا في بيع أراضيهم لليهود بسبب الديون المتراكمة عليهم، أما سلطات الانتداب فقد سهلت لليهود عملية انتقال الأراضي الأميرية([3]) إليهم، ولم تأخذ منهم

([1]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٢.

([2]) سميح شبيب: سياسة الانتداب الاقتصادية لإنشاء إسرائيل،(مجلة شؤون فلسطينية تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفسطينية،العدد١٩١، فبراير١٩٨٩م)، ص٩٤ــ٩٥؛حسن صبري الخولي: المرجع السابق، ج١، ص٥٠٧ــ٥٠٨.

([3]) الأراضي الأميرية هي: الأراضي التي كانت ملك الدولة العثمانية، والتي انتقلت ملكيتها إلى سلطات الانتداب البريطاني بصفتها الدولة المؤتمنة على فلسطين من قبل عصبة الأمم، فقد قامت سلطات الانتداب بنقل ملكية هذه= =الأراضي لليهود، حيث شكلت الهبات الحكومية التي منحتها السلطات البريطانية لليهود أكبر نسبة من الأراضي التي انتقلت ملكيتها لليهود، لإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين. انظر: رفيق النتشة: السلطان عبدالحميد الثاني وفلسطين (السلطان الذي خسر عرشه من أجل فلسطين)، (مطابع الفرزدق، الرياض، ط٧، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ص١٨٩.

غير القليل من الضرائب، وأحياناً كانت تتغاضى عنها، كما أن المشاريع الصناعية الكبرى أدت إلى زوال الصناعة الحرفية العربية، وإلى زيادة البطالة بين العرب، فاليهود كانوا ــ ولازالوا ــ يفرقون في تشغيل العرب في القطاع الصناعي، فأجر اليهودي أكثر من العربي، حتى أنهم كانوا يفضلون تشغيل اليهود على العرب في مصانعهم([1])، في محاولة منهم لتجويع الشعب الفلسطيني؛ حتى يضطروه في النهاية إلى ترك البلاد، والبحث عن لقمة العيش في خارج فلسطين.

قضى أول اتفاق بين المفوضية العليا الفرنسية في سوريا وزميلتها في فلسطين بوضع حواجز جمركية بين البلدين. وكان ذلك في أوائل عهد الانتداب أي في سنة١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م. فلما ضج تجار فلسطين وضج أصحاب معامل النسيج في حمص ودمشق وحماة، توالت احتجاجاتهم على هذه الحواجز التي شلت الحركة الاقتصادية([2])، إن الحواجز الجمركية التي وضعتها سلطات الانتداب الفرنسي والبريطاني بين سوريا وفلسطين كان سبباً في بقاء عشرات الألوف من العرب بدون عمل، فتعطلت تجارة البلاد وصناعتها، لأن القسم الأعظم من الغزل والمنسوجات الأوربية التي كانت ترد على دمشق وحمص وحماة وحلب، كان ينسج ويخاط ويصبغ ويحول على سلع تجارية من ألبسة وأنسجة مصنوعة وغيرها كانت تصدر إلى فلسطين في الجنوب، فإذا وضع عليها ضريبة جمركية بمعدل ١١% فإنه يتعذر تصريفها ويضطر المشتغلون بها إلى ترك هذه الصناعة والتجارة وعددهم عظيم جداً، وهذه الصناعات هي المورد الوحيد لرزق الكثير من سكان سوريا، كما أن هذه الرسوم الجمركية تلحق الضرر أيضاً بسكان فلسطين فهي تحرمهم من تصدير مصنوعاتهم إلى سوريا، مما يؤدي إلى كساد التجارة في البلدين([3]).

فإن هذه الحواجز الجمركة قوت شوكة الصهاينة المغتصبين على الفلسطينيين فهم لا يفتؤون يدسون الدسائس بين الوطنيين، ويعملون على استلاب أموالهم لإذلالهم حتى يتمكنوا من الاستعلاء عليهم، عندما يخنقوا اقتصادهم، وليس هناك وسيلة أنجح من وضع هذه الحواجز الجمركية ؛ حتى يفرقوا بين أهالي فلسطين وإخوانهم في سوريا تمهيداً لقطع العلاقة بينهم تدريجياً([4])، وهذا ما تم فعلاً بالتدريج، سواءً على الصعيد الاقتصادي أو السياسي.

ألغي هذا الاتفاق في أوائل سنة١٣٤٠هـ أواخر سنة/١٩٢١م، وحل محلة اتفاق جديد يقضي بإزالة رسوم الجمارك بين البلدين (سوريا ــ وفلسطين) عن منتجاتهما وعن مصنوعاتهما سواء أكانت المواد الأولية محلية أو أجنبية، وأصبحت إدارة الجمارك(والتي تسيطر عليهما

([1]) جوستورك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٢ ؛ رفيق النتشة: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص١٨٩.

([2]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ج٢، ص١٩١ــ١٩٢.

([3]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٠.

([4]) المرجع السابق، ج٤، ص٢٥٩.

بالطبع سلطات الانتداب في كلا البلدين) في كل من سوريا وفلسطين تتحاسبان على قيمة المـواد الأجنبية التي ترسل من بلد إلى البلد الثاني، وجدد هذا الاتفاق الجمركي في سـنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م([1]). وهذا دليل على أن الانتداب البريطاني كان يعمل على التفريق بين العرب واليهـود من أجل تمكين اليهود من الإستيلاء على الأراض العربية في فلسطين دون وجه حق.

كانت تجارة فلسطين في فترة الانتداب البريطاني في حالة صعود وهبوط وصادراتها أقـل من وارداتها، لكن تقارير إدارة الجمارك والمكوس والتجارة تذكر أن حالة البلاد بدأت تتحسـن؛ حيث تبين التقارير أن واردات الجمـارك والمكـوس كانـت فـي سـنة١٣٤٢هـ/١٩٢٤م ٥.٢٦٦.٣٤٩ جنيه مصري ، وأصبحت في سـنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م ٧.٣٣٨.٤٩١ جنيـه مصري ، وقد زاد الدخل من مكوس التبغ على ١٠٠ ألف جنيه، أما قيمة الصادرات من إنتـاج فلسطين فقد كان في سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م ١.٢٠٠.٨١٢ جنيه مصري، بينمـا كانـت فـي سنة١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م ١.٢٩٧.٥٥٩ جنية مصري([2]).

انتعشت التجارة في فلسطين بعد عام١٣٤٢هـ/١٩٢٤م بتأثير النازحين الجـدد(اليهـود) بسبب ما جلبوه معهم من رؤؤس أموال التي أودعوها مصارفهم، فسهلت إعطاء القروض بأقـل فائدة لليهود فقط، فقد انتشرت بساتين الحمضيات، وبلغت صادرات البرتقال في سنة١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م مليون وثمانمئة وثمانية وستين ألف ومئتان وواحد وتسعون صندوقاً، وكانت أسـعارها عالية، أما تجارة الخمور التي انتشرت أيضاً بسبب الدخلاء الجدد([3])؛ حيث اتسع إنتاج الكحـول مع زيادة هجرة اليهود فقد بلغ عدد مصانع الكحول ٤٤ مصنعاً، وكان جزء منها يصـدر إلـى الخارج([4]). وهنا نلاحظ أن هذا الانتعاش والازدهار في الحياة الاقتصادية كان في صالح اليهود أكثر منه لصالح الشعب الفلسطيني الذي كان وضعه الاقتصادي يزداد تدهوراً بزيـادة الهجـرة اليهودية، وزيادة رؤوس الأموال اليهودية.

نظم اليهود خطة بمساعدة اليهود البولنديين والبريطانيين والأمريكان؛ حيث نظموا حملـة لمقاطعة السلع الألمانية في بولندا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، فرد الألمان على هـذه المقاطعة بتنظيم مقاطعة تفرض على اليهود في ألمانيا، وكانت الوكالة اليهودية تتفاوض سراً مع النازيين في ١٣٥٢هـ/منتصف عام ١٩٣٣م؛ لتضمن مساعدة الألمان في دفع عجلة عملية نزوح اليهود من ألمانيا إلى فلسطين، ودفع ثمن مقتنيات اليهود الألمان النازحين إلـى فلسـطين سـلع

([1]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٢.

([2]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٥.

([3]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٥ــ٢٦٦ ؛ عبد الرحمن عبد الغني: المرجع السابق، ص٢١٧.

([4]) الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٠.

ألمانية([1])، من هنا تظهر لنا الخطط الاستعمارية التي يفكر بها الصهاينة، فهم بـذلك يضـربون عصفورين بحجر واحد ؛ بحيث يعملون على الإضرار بالاقتصاد الألماني، ويسهلوا الهجـرة اليهودية الألمانية إلى فلسطين، بالإضافة إلى انتعاش الاقتصاد الصهيوني في فلسطين؛ حتى يتمكنوا من تثبيت أقدامهم فيها.

فقد امتازت الجاليات اليهودية على السكان الفلسطينيين، في مجال الصناعة خاصة، لعدة أسباب لعل أهمها أن ٨٠% من السكان اليهود حينذاك جاؤوا فلسطين من دول أوربية صناعية، وخاصة بولندا وألمانيا. وكان معظمهم ينتمي إلى الطبقة الوسطى ذات الخبرات الإدارية والصناعية والمصرفية، ومن ذوي الطاقة البشرية الغنية بالكفاءات الفنية والعلمية. يضاف إلى ذلك طبعاً رأس المال الصناعي وغير الصناعي، الذي كان متوفراً ليهود فلسطين من مصادر يهودية عالمية([2])، وزاد في القدرة الصناعية اليهودية في فلسطين عاملان آخران هما([3]):

أولاً: عقدت الحركة الصهيونية في الثلاثينات اتفاقاً مع السلطات الألمانية النازية([4]) يسمح لليهود النازحين من ألمانيا بتصدير الآلات الصناعية الألمانية إلى فلسطين في مقابل تخليهم عن ممتلكاتهم في ألمانيا([5]).

ثانياً: لقد كانت التشريعات التي سنتها حكومة الانتداب لمصلحة الصناعة اليهودية الناشئة، وعلى رأسها الحماية الجمركية لها([6]).

وقد خدمت هذه المشروعات الاقتصادية المشروع الصهيوني من عدة جهات، فمن ناحية ساهمت في بناء المزيد من المستعمرات على الأراضي التي تم انتزاعها من العرب، وفتحت آفاق العمل لآلاف النازحين الجدد، إذ أن دستور الوكالة لا يجيز لغير اليهود العمل في هذه المشروعات، كما أدى الإعفاء الضريبي للمواد والبضائع التي تستوردها هذه الشركات إلى دعم،

([1]) أحمد طربين: فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار، الانتداب البريطاني في خلفية الدولة اليهودية ١٩٢٢ـ١٩٣٩م(جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١م)، ص١٠١.

([2]) وهذه الأموال التي كانت تأتي من يهود العالم إلى يهود فلسطين هي تنفيذ فعلي لبرنامج هرتزل الصهيوني الذي وضعة في مؤتمر بال في سويسرا سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م .

([3]) وليد الخالدي: قبل الشتات، ص٢٧٠.

([4]) للمزيد من المعلومات حول هذا الاتفاق المعروف باسم "اتفاقية الترانسفير ١٩٣٣م" انظر: عبدالرحمن عبدالغني: المرجع السابق، ص٤٨ـ٧٩.

([5]) وليد الخالدي: قبل الشتات، ص٢٧٠ ؛ عبد الرحمن عبد الغني: المرجع السابق، ص٦٩ـ٧٣.

([6]) وليد الخالدي: قبل الشتات، ص٢٧٠.

وتوسيع الصناعة الصهيونية، وتعاظم الإنتاج الصهيوني في مقابل تقهقر الصناعة العربية أمـــام التحدي التقني الذي فرض عليها(١).

أما سكان فلسطين الأصليين فقد كانوا يعانون من أزمة اقتصادية حقيقة حالت دون زيـــادة إنتاجهم؛ بسبب قلة الأيدي العاملة من عمال وفنيين في سبل الإنتاج المختلفة، وقلـــة الحيوانـــات، وسيطرت اليهود على الأرض المشاع(٢)، مع قلة رؤوس الأموال اللازمـــة للقيـــام بالمشـــاريع الكبرى(٣). لكن على الرغم من كل تلك الصعوبات فقد حـــافظ الفلســـطينيون علـــى صـــناعتهم التقليدية مثل الزيت والصابون وطوروها، كما دخلوا في مجالات صناعية جديدة برزوا فيها مثل صناعة السجائر والكبريت والنسيج والورق والأسمنت، وقد رافق هذا النشاط الصـــناعي نشـــاط تجاري متزايد تمركز في المدن الكبرى مثل: القدس ويافا وحيفا. ودعم هذا كله نظام مصـــرفي وطني رائع، تزعمه البنك العربي(٤) من مقره في القدس وفروعه في كافة أرجاء فلسطين فهـــو أول بنك عربي فلسطيني(٥)، لكن من البديهي أنه مع تزايد الهجرة اليهوديـــة، وبســـبب الثـــورة الصناعية، ودخول الآلات الحديثة إلى فلسطين عن طريق اليهـــود أصـــحاب رؤوس الأمـــوال، أخذت تضعف الصناعات الفلسطينية التقليدية البسيطة التي أصبحت لا تفـــي بحاجـــات الشـــعب الفلسطيني.

وبما أن زراعة الحمضيات وخاصة البرتقال في فلسطين كانـــت متطـــورة ولهـــا شـــهرة عالمية، لأن الفلسطينيين كانت لهم طرق مبتكرة في تطعيم البرتقـــال وتحســـين إنتاجـــه، فـــان

---

(١) فاطمة حافظ: بريطانيا وفلسطين انتـــداب أم اســـتلاب ؟ الموقـــع علـــى الانترنـــت: إســـلام أون لايـــن.نـــت http://www.islamonline.net .

(٢) الأرض المشاع هي: الأراضي الواسعة التي لا مالك لها، وتكون تابعة للدولة، وهي التي يحق لها التصرف بها، والتي يطلق عليها الأراضي الأميرية. انظر: زهير غنايم: المرجع السابق، ص٥٣٥.

(٣) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٤، ص٢٦٧ ؛ سمير صيقلي: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين عشية الحرب العالمية الأولى، ضمن أبحاث صدرت من الأمانة العامة لاتحاد الجامعات في الموصل عن القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني،(جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٣م)، ج١، ص٣٠٦ـــ٣٠٧.

(٤) البنك العربي: أسسه في القدس عبد الحميد شومان بالاشتراك مع أحمد حلمي باش عبـــد البـــاقي فـــي صـــفر= =١٣٤٩هـــ/يوليو ١٩٣٠م، وكان هذا البنك الركن الركين للاقتصاد الفلسطيني، وله فروع فـــي كافـــة أرجـــاء فلسطين، حيث كان يهدف إلى مواجهة الهجمة الاقتصادية البريطانية الصهيونية الشرســـة، لمســـاعدة مختلـــف قطاعات الشعب الفلسطيني الكادحة، وفي أوائل الأربعينات فض عبدالحميد شومان وأحمد حلمي الشراكة فأسس الأخير بنك آخر باسم "الأمة العربية" في حيفا، مع بقاء "البنك العربي" بيد عبدالحميد شومان. انظر: رشيد الحاج إبراهيم:المرجع السابق، صXLV ، وص LXXI ؛ وللمزيد من المعلومات أنظر: الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص٢٢٤ـــ٢٢٦.

(٥) وليد الخالدي: قبل الشتات، ص٢٧٠ ؛ أحمد الدجاني: المرجع السابق، ص٥٢.

الأوربيين أخذوا في اقتباس طريقة زراعة البرتقال وتطعيمه من الفلسطينيين، ولم يستطع اليهود أن يجاروا مستوى الإنتاج الفلسطيني للبرتقال إلا في أواخر عهد الانتداب البريطاني، ولكن مع ذلك ظل الإنتاج الفلسطيني للحمضيات متفوقاً كماً ونوعاً على الإنتاج اليهودي([1]). وإننا هنا نلاحظ أن الانتداب البريطاني لم يخرج من فلسطين إلا بعد أن أمن سبل العيش لليهود من جميع النواحي السياسية والاجتماعية ولاقتصادية، بحيث يستطيع هذا الكيان المغتصب الصمود في وجه العرب، ولا ينهار عند أي مواجهة سواء أكانت المواجهة عسكرية أم اقتصادية.

ويضاف إلى الجهود البريطانية الجهود الألمانية التي عملت على تسهيل نزوح اليهود من ألمانيا إلى فلسطين، حيث عقدت في ٢٥ ربيع الأول ١٣٥٦هـ/ ٥ من يونيو ١٩٣٧م مع اليهود "اتفاقية هافار" التي بموجبها تسهل ألمانيا عملية نقل رأس المال للنازحين اليهود إلى فلسطين، بصورة بضائع ألمانية وبذلك تكسر ألمانيا الحصار الاقتصادي المفروض عليها، بتسويق بضاعتها إلى اليهود في فلسطين، وتعمل على طرد اليهود من ألمانيا، كما أنها تساعد بطريق غير مباشر في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين([2]).

إن هذه السياسة الصهيونية أدت إلى توسع الصناعات الصهيونية على حساب الصناعة العربية ففي حين كانت رؤوس الأموال العربية عام١٣٤٦هـ/١٩٢٨م تملك ٦٥% من المؤسسات الصناعية في فلسطين، انخفضت هذه النسبة إلى ٢٧.٨% عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، وتنوعت فروع الصناعات الصهيونية حيث بلغت ٨٠ فرعاً، في حين كانت الصناعات العربية ١٩ فرعاً، ويرجع سبب هذا التأخر في الصناعات الفلسطينية، أولاً: إلى عدم توفر رؤوس الأموال، وثانياً: أن حكومة الانتداب البريطاني كانت تطبق سياسة تمييز عنصري ضد الصناعة العربية ؛ حيث كانت تمنع أو تعيق منح الرخص لتأسيس المصانع العربية الجديدة، وتمنع وصول المواد الخام إلى المصانع العربية القائمة؛ حتى تشهر إفلاسها وتغلق مصانعها، وفي الوقت نفسه تقدم جميع التسهيلات لرؤوس الأموال والصناعات الصهيونية فتمنح الشركات اليهودية حقوق امتياز واسعة في فلسطين([3]) كما لاحظنا في منح المندوب السامي البريطاني الصهاينة امتياز شركة روتنبرغ لتوليد الكهرباء عام١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م، وامتياز استثمار نهر العوجا بالقرب من يافا، وامتياز مشروع البحر الميت الذي حصل عليه اثنان من اليهود الروس في عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م التي أشرنا إليها سابقاً.

لقد قدمت سلطات الانتداب البريطاني مساعدات اقتصادية كبيرة لليهود وسهلت لهم عملية

([1]) وليد الخالدي: قبل الشتات، ص١٣١ ؛ سمير صيقلي: المرجع السابق، ج١، ص٣٠٧.

([2]) نجدة فتحي صفوة: العالم العربي في وثائق سرية ألمانية، الوثيقة رقم ٤٤ـ٣٧٠١٤٣/١٤٩٥، ص٢٣ـ٢٤.

([3]) الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٤٨ـ٤٩.

إنشاء المصانع والمشاريع التجارية في فلسطين في الوقت الذي وقفت فيه كحجر عثرة في طريق الصناعات الفلسطينية البسيطة، ولو بذل البريطانيون مثل هذه المساعدات للمشاريع العربية على قلتها لزاد النشاط التجاري والصناعي على حد سواء في فلسطين واتسع نشاطه، بل وفاق المنتجات اليهودية، لرخص أثمانها ولقناعة التاجر العربي بالأجر الزهيد، هذا فضلاً عن إقبال الدول العربية المجاورة لشراء المنتجات الفلسطينية، ومع أن ذلك لم يحدث إلا أن اليهود الصهاينة والبريطانيين يتبجحون بأنهم رفعوا مستوى البلاد الصناعي بما أدخلوه إليها من مشاريع صناعية أفادت طبقات الشعب الفلسطيني كافة([1])، ولكنها في الحقيقة الأمر لم تفد سوى اليهود وحلفائهم البريطانيين الذين تآمروا على الشعب الفلسطيني البسيط، وأضروا بالصناعات الفلسطينية.

أما بالنسبة لنفقات حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين فقد كانت متركزة بالدرجة الأولى على تحسين النقل والمواصلات والدفاع ؛ لتحقيق الأمن والأمان لليهود في فلسطين وحماية كل ما كانوا يستولوا عليه من الفلسطينيين، سواء كانت أراضي أو أموال، لذلك عملت سلطات الانتداب على إنشاء جهاز حكومي قمعي موجه على الدوام وبشكل رئيسي ضد الجماهير العربية المنتجة، وبسبب هذه السياسة البريطانية الصهيونية زادت البطالة بين العرب، وانتشر الفقر فيها، بينما أصبح الغزاة الجدد هم المسيطرين على رأس المال في البلاد([2]). وهذا من سلبيات الانتداب البريطاني على الشعب الفلسطيني المغلوب على أمره.

لم يقف الفلاح الفلسطيني إزاء هذه الأوضاع السيئة موقفاً سلبياً لأنه أدرك أنه الضحية الأولى للاستيطان الاستعماري الصهيوني، فقاوم في أوائل الانتداب، الاعتداءات الصهيونية، وأظهر تمسكه بأرضه، وحارب في صفوف الزعماء الوطنيين وأيدهم في رفضهم للاستعمار البريطاني ووعد بلفور، وكانت السنين الأولى من عهد الانتداب البريطاني فرصة أظهر خلالها الفلاح الفلسطيني المأساة التي يعيشها، إلا أن جمود الحركة الوطنية عاقت الفلاح في أن يظهر سخطه، فضلاً عن افتقار الفلاح البسيط إلى تنظيم قوي يعبر عن مصالحه، ووقف الفلاح الفلسطيني حائراً ضعيفاً بالرغم من قوته العددية، وانتشار السخط قبل التشرد على مضض، وجاء حادث البراق عام١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، وما نتج عنه من تمرد في المدن ما يمده بالشجاعة الكافية للانتقام من الصهاينة فهاجم المستعمرات، غير عابئ بالتضحيات([3]).

([1]) إبراهيم نجم وآخرون: المرجع السابق، ص٩٥ ؛ خيرية قاسمية: جوانب من سياسة الملك عبدالعزيز، ص٥٧ـ٥٨.

([2]) جوستورك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٢ـ٢٠٣ ؛ إبراهيم نجم وآخرون: المرجع السابق، ص١٤١ـ١٥٠.

([3]) عاطف فؤاد: الفلسطينيون في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، ضمن أبحاث عن الفلسطينين في الوطن العربي دراسات في أوضاعهم الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، (معهد البحوث والدراسات العربية،

ذلك لأن الفلاح الفلسطيني يشكل القاعدة الأساسية والواسعة في المجتمع الفلسطيني؛ حيث يشكل ٧٠% منه، ومع دخول الانتداب البريطاني الصهيوني أصبح وضع الفلاح الفلسطيني في تدهور مستمر؛ حيث يشير التقرير الذي وضعه السير سمبسون ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م الذي جاء للتحقيق على إثر ثورة البراق، أن الوضع الاقتصادي للفلاح الفلسطيني (سواء كان مالكاً أو مستأجراً)، كان في تدهور مستمر(١) ؛ حيث وصل دخل الفلاح المالك سنوياً ٣٥.٢٠٠ جنيهٍ فلسطيني، بينما وصل دخل المستأجر ٢٠ جنيهاً فلسطينياً، أما الحد الأدنى للعيش لعائلة من ستة أشخاص فهو ٢٦ جنيهاً، وتبين أن مجمل ديون الفلاح الفلسطيني عام١٣٤٨هـ/١٩٣٠م وصل إلى حوالي مليوني جنيه فلسطيني، كما زادت البطالة بين الفلسطينيين(٢). حتى أصبح الفلاحون يبيعون(٣) بيوتهم ويعيشون في أكواخ من الصفيح، لأن اليهود بمساعدة سلطات الانتداب البريطاني كانوا يطردون الفلاحين من بيوتهم وقراهم؛ حتى يسكن فيها اليهود، ففي حيفا كان

القاهرة، ١٩٧٨م)، ص١٩١.

(١) الوثائق الرئيسية..،الوثيقة رقم ٣٠، ص١٦٥ـ١٦٦ ؛ صالح أبو يصير: المرجع السابق، ص١٥٠ ؛ James Parkes: Op. Cit, pp.49-50.

(٢) عاطف فؤاد: المرجع السابق، ص١٩١ـ١٩٢.

(٣) كان انتقال الأراضي إلى اليهود يتم بثلاث طرق هي:

أولاً: وهي الأكثر شيوعاً عن طريق الأراضي الأميرية التي كانت ملك الدولة العثمانية والتي سيطرت عليها سلطات الانتداب البريطاني.

ثانياً: الأراضي التي كانت ملك للفلاحين وكانت مسجلة بأسماء الأفندية، حيث كان الفلاحون في زمن الدولة العثمانية يخشون من ازدياد عبء الضرائب عليهم، فعندما طلبت السلطات العثمانية من الفلاحين تسجيل الأراضي بأسماء ماليكيها في دائرة تسجيل الأراضي (الطابو)، لأن الدولة العثمانية كانت تمنح كل فلاح يقوم بإحياء الأرض وزراعتها هذه الأرض، وحتى يضمن الفلاح حقه طلبت تسجيل هذه الأراضي بأسمائهم، وكان هؤلاء يلجؤون إلى الأثرياء والأفندية حتى يحموهم فطلبوا منهم تسجيل هذه الأراضي بأسمائهم حتى يتجنبوا دفع الضرائب، مقابل دفع نسبة مئوية معينة من ناتج تلك الأراضي، لكن هؤلاء الأفندية غدروا بالفلاحين وقاموا ببيع هذه الأراضي لليهود. هذا بالاضافة إلى القروض الربوية التي كان يفرضها الأفندية على الفلاحين والتي كانت تضطر الفلاح إلى بيع أرضه وممتلكاته لتسديدها.

ثالثاً: عن طريق شراء الأراضي من الأسر غير الفلسطينية والتي كانت تسكن في خارج فلسطين على اعتبار أن بلاد الشام كلها كانت ولايات تابعة للدولة العثمانية، وكانت هذه الأسر تملك مساحات واسعة، ومن هذه العائلات عائلة سرسق البيروتية والتي كانت تملك ما مساحته ٣١.٥٠٠ دونم بالقرب من طبرية، وقد انتقلت هذه الأراضي إلى الصهاينة. انظر: رفيق النتشة: السلطان عبد الحميد الثاني، ص١٨٨ـ١٩٠ ؛ عبدالوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين، ص٤٨ـ٥٤ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات، ص٨.

هناك ۱۱.۰۰۰ فقير عاشوا في بيوت من الصفيح بعد أن هدمت دورهم وسلبت منهم قراهم([1]).

أما بالنسبة للوظائف الإدارية والحكومية فعلى الرغم من أن العرب والمسلمين كانوا يمثلون أكثر من ٨٨% من مجموع السكان إلا أنهم لم يحظو بأكثر من ٢٩% من الوظائف الإدارية والحكومية، بينما احتفظ المسؤولون البريطانيون واليهود بالمراكز العليا كافة، وبسبب تفوق سلطات الانتداب من الناحية العسكرية، تمكنت من التحكم في توزيع موارد البلاد الاقتصادية، والوظائف الإدارية عن طريق الثواب والعقاب بالنسبة للموظفين العرب([2]).

وهذا التدهور في الوضع الاقتصادي في فلسطين على إثر التواجد البريطاني الصهيوني في البلاد أدى إلى زيادة حدة التوتر بين العرب وسلطات الانتداب وكان السبب الرئيسي للثورة العربية الكبرى في فلسطين في ٢٨ محرم ١٣٥٥هـ/ ٢٠ إبريل ١٩٣٦م؛ حيث هبت جماهير الشعب الفلسطيني لتضرب ضربتها الكبرى باستخدامها السلاح الاقتصادي وتنفيذها للإضراب العام الذي استمر لمدة ستة أشهر، توقفت فيه الحياة لما يقرب من مليون شخص([3]) كما قام الفلاحون الفلسطينيون بتكوين جماعات مقاومة، وتوسعوا في محاكمة السماسرة والخونة بل إنهم أعدموا أعداداً كبيرة منهم، الأمر الذي أكسب الشعب الفلسطيني وخاصة الفلاحين ثقة كبيرة في النفس([4]). ونلاحظ هنا أنه بسب غياب العدل والأمان في ظل الانتداب، انتشرت الفوضى في البلاد وأصبحت جماعات المقاومة تقوم بتنفيذ عملياتها بشكل عشوائي، وبدون تنسيق، مما جعل الفلسطينيين يقتلون بعضهم بعضاً، بسب البريطانيين والصهاينة الذين زرعوا الفتنة بينهم.

لقد كان الإضراب العام والعصيان الذي أعلن في السنوات من ١٣٥٥ـــ١٣٥٨هـــ/ ١٩٣٦ـــ١٩٣٩م كان أهم ضربة توجه للصهيونية والانتداب، ويرتبط إخفاقه في نهاية المطاف بالبنية الاجتماعية الاقتصادية غير المنظمة في فلسطين، والتي كان يقابلها درجة عالية من التنظيم والتراص الاقتصادي بين الصهاينة، الذين استغلوا الإضراب العربي، لتدعيم القطاع الاقتصادي لديهم، وتحقيق المزيد من التوسع فيه، حتى يعملوا على الاستغناء عن العرب نهائياً، مما ساعد على تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مما يوفر لهم أيدي عاملة جديدة من ناحية ويعزز وجودهم من ناحية ثانية([5]).

([1]) سميح حمود: المرجع السابق، ص٣٨ـــ٣٩ ؛ إبراهيم نجم وآخرون: المرجع السابق، ص٩٧ـــ١٠٤.

([2]) يزيد صايغ: المرجع السابق، ص٤٣ـــ٤٤.

([3]) أكرم زعيتر: يوميات أكرم زعيتر، ص ٦٤ـــ٧٥ ؛ Roberto Mesa: Op. Cit, p. 91 ؛ شفيق جحا: المرجع السابق، ص٢١٣ـــ٢١٤ ؛ جوستورك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٣.

([4]) عاطف فؤاد: المرجع السابق، ص١٩٢.

([5]) جوستورك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٤ـــ٢٠٥ ؛ عصام نصار ، سليم تماري: دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام قراءات في السير والسير الذاتية،(مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م)،

أما بالنسبة للعرب فبسبب غياب التنظيم والتخطيط الدقيق فيما بينهم، فقد أضروا بالقضية الفلسطينية بالمقاطعة الاقتصادية، والإضراب العام الذي أحدثته الثورة الفلسطينية الكبرى ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، وذلك عندما فرضت المقاطعة والحصار على التجارة مع اليهود والدخول إلى أحيائهم والبيع أو الشراء منهم، فأجبر القرويون على التعامل مع التجار العرب، فاستغل هؤلاء الوضع ورفعوا الأسعار بنحو ٣٠% مدعين أن هذا الارتفاع ناتج من فرض ضرائب متعددة، كالضريبة القومية التي دفعت إلى اللجان القومية لتمويل أجور الحراس الذين أشرفوا على تطبيق المقاطعة، وهذا شجع التجار العرب على استمرار المقاطعة([1]).

إن هذا الإجراء يدلنا على مدى تعاون اليهود الصهاينة في صياغة خططهم المستقبلية سواء كانوا داخل فلسطين أو خارجها، هذا التعاون الذي كان مفقوداً بين العرب والمسلمين في داخل فلسطين وخارجها، وهذا الذي أدى في النهاية إلى فشل الثورة العربية الكبرى في فلسطين١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، وإلى خسارتها هذه الأرض المقدسة بأكملها في عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

وإننا في هذا الموقف نؤيد ماذكره عبد الرحمن الكيالي في قوله: " اليهود قوة دولية هدامة، إذا تألبت على أي أمة أضعفت قواها الاقتصادية والسياسية، وفتكت فيها بطريقة خفية منظمة"([2]). فالتخطيط المدروس المنظم هو أساس نجاح الحركة الصهيونية، في فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى والمتمثل في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقده هرتزل في مدينة بال في ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، وأثناء الحرب العالمية الأولى والمتمثل في وعد بلفور١٣٣٦هـ/١٩١٧م، وبعد الحرب والمتمثل في الانتداب البريطاني ١٣٣٧هـ/١٩١٨م وتوظيف اليهود للحكومة البريطانية لخدمة الصهاينة وتسهيل نزوح اليهود إلى فلسطين، وشراء الأراضي الفلسطينية.

ب ــ أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاقتصادية في شرق الأردن.

لقد كانت منطقة شرق الأردن تابعة للحكومة الفيصلية في سورية بعد خروج الدولة العثمانية من بلاد الشام، وبعد هزيمة فيصل في ميسلون في١٣٣٨هـ/١٩٢٠م وخروجه من دمشق انفصلت شرق الأردن عن سوريا، فسيطر الانجليز عليها شيئاً فشيئاً، وعينوا هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني أول مندوب سامي بريطاني على شرق الأردن، ليدرس كيف يمكن

ص١١٠ــ١١١.

([1]) مصطفى العباسي: صفد في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧ــ١٩٤٨م، دراسات اجتماعية وسياسية، سلسلة المدن الفلسطينية، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م)، ص١٠٦ــ١٠٧.

([2]) عبد الرحمن الكيالي: الجهاد السياسي، ص٤١.

للبريطانيين واليهود أن ينشبوا مخالبهم فيها([1]). وبعد دراسة وضع منطقة شرق الأردن رأت بريطانيا استغلال مياه نهر الأردن وهو الشريان الرئيسي الذي يمد الأردن بالمياه، فكما هو معروف عن أرض الأردن أنها شبه صحراوية ومياهها قليلة، وأن الشريان الذي يمد الأردن بالماء هو النهر ومن يسيطر على النهر في الأردن يسطر على الحياة الاقتصادية فيها. لذلك عقد صموئيل وبنيحاس روتنبرغ المهندس اليهودي الروسي اتفاقية مشروع روتنبرغ وذلك في١٨ محرم ١٣٤٠هـ/٢١ سبتمبر ١٩٢١م والذي بموجبه تم منح المندوب السامي البريطاني امتياز الاستفادة من مياه الأنهار الآتية: مياه نهر الأردن وحوضه، ونهر اليرموك وجميع فروعه، وروافد نهر الأردن التي تقع في الأرض التي يسيطر عليها المندوب السامي لفلسطين وشرق الأردن، والخارجة عن الأراضي الخاضعة لبريطانيا والواقعة تحت سيطرة الانتداب الفرنسي. وسمح له أن يبني المحطات التي يحتاجها متى أراد وفي المكان الذي يراه مناسباً، وله الحق في تغير مجرى نهر اليرموك وروافده إلى بحيرة طبرية، وأن يتملك من الأراضي والأبنية ما يراه ضرورياً لهذا المشروع([2]). بموجب هذا المشروع استولى روتنبرغ على أرض أردنية مساحتها ستة آلاف دونم، لبناء مصنع عند التقاء نهر الزرقاء بنهر الأردن([3])، لذلك قامت الشركة ببيع جزء من هذه المساحة للغزاة اليهود، وتعد هذه المنطقة من أخصب مناطق الأردن لذلك منحتها سلطات الانتداب لليهود([4]) وحرمت أهل الأردن منها. وهذا يبين مدى تواطؤ حكومة الانتداب البريطاني مع اليهود الصهاينة ضد السكان الأصليين من عرب شرق الأردن.

فضلاً عن أن الشركة حرمت إمارة شرق الأردن استعمال هذه المياه لأغراض الري إلا بترخيص من الشركة، وهذا ما لم تسمح به الشركة قطّ. وأعطى صك الامتياز الشركة حق إنشاء محطات ومراكز لتوزيع القوة الكهربائية في شرق الأردن، أما أرباح الشركة فقد كانت مناصفة بين الشركة وحكومة الانتداب دون أن تعطي أياً من الدول العربية صاحبة الحق في المياه المستثمرة في المشروع أي نصيب([5]). مما أثار حفيظة الشعب الأردني الذين عارضوا مشروع روتنبرغ بشدة، واعتبروه مشروعاً لاستيطان الصهاينة في منطقة حوض نهر الأردن؛ حيث كانت ترفرف أعلام البريطانيين والصهاينة، وكان ممنوع على أي شخص أردني حتى لو كان جندياً أن يدخل تلك الأراضي، التي كانت ملكاً للشعب الأردني إلا بإذن من المندوب السامي

([1]) لوثروب ستودارد: المرجع السابق، ج١، ص١١.

([2]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٢ ؛ أكرم زعيتر: القضية الفلسطينية، ص٦٩ ؛ محمد خريسات: المرجع السابق، ص٦٤ــ٦٥.

([3]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص٦٤ ؛ .Mary C . Wilson: Op. Cit. p.105

([4]) Mary C . Wilson: Op. Cit. p.105.

([5]) الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص١٤٤.

البريطاني، لذلك طالب أعضاء المجلس التشريعي الأردني إقامة محكمة لمحاكمة كل من اشترك بهذا المشروع([1]). كما قاطع بعض المستهلكين الأردنيين هذه الشركة وقاموا بشراء مولدات كهرباء خاصة بهم([2]). لكن كل ذلك لم يجد نفعاً، فسلطات الانتداب البريطاني كانت مسيطرة على كل مرافق الدولة بما فيها الحكومة، لذلك لم يستطع الشعب الأردني بمفرده الوقوف في وجه هذا الطوفان الجارف المتمثل في الطغيان البريطاني والصهيوني ضد الشعب الأردني الأعزل.

لقد كان كل هذا الصراع بسبب اهتمام سكان شرق الأردن بالزراعة والثروة الحيوانية، باعتبارها من المستلزمات الحياة الزراعية، فهي تستخدم الحيوانات لحراثة الأرض ونقل المحاصيل، وكان الفلاحون يعتمدون على بيع المنتجات الزراعية والحيوانية للحصول على المال، حتى يتمكنوا من توفير ما يحتاجونه من طعام، ولباس، بل ودفع مهور زواجهم أيضاً([3]).

فقد اعتمد الاقتصاد في منطقة شرق الأردن بالدرجة الأولى على الثروة الحيوانية التي كانت أعظم ما يملك أهل البلاد، فالجمال والمواشي تعدّ بعشرات الآلاف. ففي عام١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م دلت الإحصاءات على وجود ٢٣٥ ألف رأس غنم في قضاء الكرك وحده، وأنه في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كان الرحالة يشاهدون قطعاناً كبيرة من الإبل والبقر والمواشي القادمة من الكرك في شرق الأردن تُباع في أسواق القدس والخليل ومدن فلسطين الساحلية، بل كان عدد كبير من الجمال يُباع في أسواق مصر([4]). وفي هذا دليل على مدى قوة التواصل الاقتصادي بين الأردن والمدن المجاورة له في العهد العثماني.

لكن مع الوقت فقد قل الاعتماد على الحيوانات في عمليات النقل خاصة بعد انتشار وسائل المواصلات الحديثة مثل السيارات وذلك منذ بداية الأربعينات، لكن أهمية الجمال ومكانتها في الأردن كانت ثابتة فهي سوق مزدهر لبيع وتصدير الجمال للدول المجاورة، وكانت تجارتها رائجة أكثر من الأغنام التي تموت بسرعة بسبب المجاعة([5]).

وكانت الزراعة وإنتاج الحبوب والمحاصيل الزراعية الأخرى تأتي في الدرجة الثانية من ناحية الثروة الطبيعية للبلاد، وفي الكثير من السنين كانت تصدر منطقة شرق الأردن بعض

([1]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٥.

([2]) Mary C . Wilson: Op. Cit. p.105.

([3]) محمد سالم الطراونة ، محمد عدنان البخيت: منطقة البلقاء والكرك ومعان(١٢٨١ـ١٣٣٧هـ/ ١٨٦٤ـ١٩١٨م)، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ١٩٩٣م)، ص٤٣.

([4]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٢١.

([5]) سعد أبو دية: صفحات مطوية، ص٣٠٨ـ٣٠٩ ؛ يوسف مصطفى صيام: تطور وسائط النقل في الأردن ١٩٠٠ـ١٩٨٨م، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ١٩٩٣م)، ص١٤.

المحاصيل الزراعية وخاصة الحبوب إلى سوريا وفلسطين، كما أن قوافل التجار كانت تأتي من الحجاز ونجد لابتياع القمح من الكرك([١]).

لقد كان ما يزيد على ٨٥% من سكان امارة الأردن يعتمدون على الزراعة و تربية المواشي وكانوا يمارسون هذين النشاطين وفق الأساليب التقليدية([٢])، وكان استيراد الآلات الزراعية قليلاً جداً ؛ حيث أخذ يدخل إلى البلاد ببطء شديد فأول من استورد المحراث الميكانيكي هم بنو صخر في الثلاثينات، وبدأت تظهر هذه الآلات بعد ذلك بالتدريج في عالم الزراعة، والتي كانت تركز على حرث الأراضي بالوسائل الحديثة لزراعة القمح والشعير([٣]). ولتشجيع الزراعة أنشأت الدولة العثمانية في المنطقة عدداً من المصارف الزراعية مهمتها تقديم القروض اللازمة للفلاحين، مما اسهم بدرجة كبيرة في تقدم وتطور الزراعة وازدهارها، وأول مصرف زراعي أنشئ في المنطقة كان في السلط في سنة ١٣١١هـ/١٨٩٤م، كما فتح فرع للمصرف في الكرك سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م، وفي الطفيلية سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، وقد كانت المصارف تعطي القروض بعد أخذ الضمانات مثل رهن الأراضي أو تقديم الكفلاء([٤]).

وفي أيام الانتداب البريطاني سعت الحكومة الأردنية إلى تطوير الزراعة فقامت بإنشاء مصرف زراعي لإمداد الفلاحين بالقروض وذلك في١٩ شعبان ١٣٤٠هـ/١٧ إبريل ١٩٢٢م. وفي عام١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م شكلت أول "لجنة اقتصادية عليا" وقررت إقامة أول معرض صناعي زراعي في العاصمة عَمان في صيف عام١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، وإقامة أسواق عامة في عَمان وإربد والكرك والسلط. إلا أن الإنتاج الزراعي لم يبدأ في التحسن والنمو إلا بعد أن تم تحديد الأراضي ومسحها وتثمينها عام١٣٤٨هـ/١٩٣٠م، ثم كان فرزها وتشجيرها مابين عامي١٣٥٤ـ ١٣٥٩هـ/١٩٣٥ـ١٩٤٠م، حيث أقبل الفلاحون على الاهتمام بأراضيهم وزراعتها بأشجار الفواكه المثمرة([٥]).

وقد تأثرت الحياة الزراعية بعدّة عوامل منها المناخية مثل: تذبذب الأمطار وارتفاع درجة الحرارة، والأمراض التي كانت تفتك بالسكان والحيوانات، ومنها الأمنية مثل: اعتداءات بعض القبائل البدوية المتكررة على الفلاحين، ومنها المادية مثل: الضرائب المجحفة واستخدام أساليب تعسفية في جبايتها والتي تمثلت أحياناً في قيام الدولة بمصادرة حيوانات الفلاحين الذين يتأخرون

([١]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٢١.

([٢]) منذر الشرع: تطور التجارة الخارجية في الأردن ١٩٢١ـ١٩٩١م، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ١٩٩٣م)، ص٧.

([٣]) سعد أبو دية: صفحات مطوية، ص٣٠٩.

([٤]) محمد الطراونة ، محمد البخيت: المرجع السابق، ص٤١.

([٥]) منذر الشرع: المرجع السابق ، ص٧ـ٨.

عن دفع تلك الضرائب([1]). وهذه الإجراءات اتخذتها حكومة الانتداب البريطاني من أجل التنكيل بالسكان الأصليين من أهل الأردن، حتى تجبر الفلاحين على ترك مزارعهم فيستولي عليها الصهاينة المغتصبين.

أما عن الصناعة فقد كانت بدائية وتقتصر على الصناعات اليدوية والحرفية البسيطة للاستهلاك المحلي، واعتمدت في معظمها على المواد الأولية المتوفرة ومن أهم هذه الصناعات كانت الصناعات الغذائية التقليدية، مثل طحن الغلال وعصر الزيوت، وخاصة زيت الزيتون والسمسم، وصناعة تجفيف الفواكه وخاصة العنب، وغيرها من الصناعات الخفيفة([2]).

وفي عام١٣٤٧هـ/١٩٢٩م نجحت "شركة بوتاس فلسطين" بالتعاون مع الحكومة الأردنية في الفوز بامتياز استخراج البوتاس من البحر الميت، وبعد نجاح المشروع تم اسناد إدارته للصهاينة المحتليين، لأنه يعزز فكرة قيام الوطن القومي اليهودي، وقد عارض حزب اللجنة التنفيذية هذا المشروع وقدم احتجاجه إلى الحكومة البريطانية، وجرت محاولة لعقد مؤتمر فلسطيني ــ أردني لدراسة امتياز استخراج البوتاس من البحر الميت ومنحه لشركة وطنية إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح([3]). لأن الأمير عبد الله بن الحسين كان يرى في التعاون الاقتصادي بين إمارة شرق الأردن فائدة له وللصهاينة، لذلك استمر في توجهه نحو البريطانيين والصهاينة الذين أخذوا في جره إلى الهاوية بصورة خفية وماكرة، بحجة تطوير البلاد اقتصادياً([4]). وكان هذا من أهم الآثار السلبية للانتداب البريطاني على شرق الأردن، الذي أخذ الانتداب في استغلاله اقتصادياً بحجة التطوير والتنمية الاقتصادية مستغلين فقر البلاد وانتشار الأمية فيها.

أما عن التجارة في شرق الأردن فقد كان هذا الإقليم منذ القدم ممراً مزدهراً للقوافل التجارية بين شبه الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام، وفي أواخر عهد الدولة العثمانية وفي ظل الحرب العالمية الأولى تحولت منطقة شرق الأردن مسرحاً لعمليات الغزو والسلب ؛ نتيجة لفقدان سيطرة الدولة على البلاد بسبب الحرب. وفي عهد الامارة في ظل الانتداب البريطاني كانت التجارة تتركز في أيدي الجاليات السورية والفلسطينية. وقد اقتصرت التجارة على استيراد بعض الحاجيات البسيطة من سوريا وفلسطين والعراق ومصر وأحياناً أوربا([5])، ومن أهم المتغيرات التي طرأت على التجارة في شرق الأردن في ظل الانتداب البريطاني هي فتح

([1]) محمد الطراونة ، محمد البخيت: المرجع السابق، ص٤١.

([2]) محمد الطراونة ، محمد البخيت: المرجع السابق، ص٤٤ ؛ منذر الشرع: المرجع السابق ، ص٨.

([3]) محمد خريسات: المرجع السابق، ص١٠٥.

([4]) Mary C . Wilson: Op. Cit. p.105.

([5]) محمد الطراونة ، محمد البخيت: المرجع السابق، ص٤٦ ؛ منذر الشرع: المرجع السابق ، ص٩.

الأبواب للتجارة الخارجية، ولكن هذا أثر على احتياطي الغذاء، وتسبب في نقصه من جهة، ولكن من جهة أخرى فإن الواردات عوضت هذا النقص في ايجاد نوع من التبادل التجاري وخاصة في مجال الصادرات الغذائية، وفي السنوات التي يكون إنتاج الحبوب شحيحاً فإنه يتم تعويض هذا النقص بالواردات فعلى سبيل المثال فإن الأرز الهندي والطحين الأسترالي كان يستورد بالأسعار العادية([1]).

وخلال فترة الانتداب البريطاني والفرنسي لبلاد الشام قضى أول اتفاق بين المفوضية العليا الفرنسية في سوريا وزميلتها في فلسطين وشرق الأردن بوضع حواجز جمركية بين البلدين اللذين كانا في الحقيقة بلداً واحداً. وكان ذلك في أوائل عهد الانتداب أي في سنة١٣٣٩هـ/١٩٢١م، فلما ضج تجار فلسطين وشرق الأردن وأصحاب معامل النسيج في حمص ودمشق وحماه وتوالت الاحتجاجات على الحواجز الجمركية التي شلت الحركة الاقتصادية في بلاد الشام بصفة عامة، ألغي هذا الاتفاق الجمركي في أواخر السنة المذكورة، وحل محله اتفاق جديد يقضي بإزالة الرسوم الجمركية بين سوريا وفلسطين عن المنتجات والصناعات سواء كانت مواد أولية أم مصنعة. ووقعت الحكومة الفرنسية اتفاقاً مع حكومة شرق الأردن سنة١٣٤١هـ/١٩٢٣م مماثلاً للاتفاق مع فلسطين، ولا شك في أن إزالة الحواجز بين أجزاء الشام (سوريا، وفلسطين وشرق الأردن) قد أفاد كثيراً من الوجهة الاقتصادية، لأن فلسطين وشرق الأردن كانتا تعدان أهم مكان تصدر إليه البضاعة السورية([2])، وكانت معظم واردات شرق الأردن تأتي عن طريق ميناء حيفا معفاة من الرسوم الجمركية، وكانت فلسطين المنفذ الوحيد لتصدير المنتجات الزراعية والحيوانية الأردنية والتي بلغت قيمتها ستة آلاف جنيه فلسطيني بين عامي١٣٥٤ـ١٣٥٥هـ/١٩٣٥ـ١٩٣٦م. كما بلغت صادرات شرق الأردن السنوية من الحبوب إلى فلسطين بين عامي ١٣٥١ـ ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٢ـ١٩٣٧م مابين ١٥ و ٢٠ ألف طن، وارتفعت قيمة هذه الصادرات إلى ٢٨٥ ألف جنيه فلسطيني عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م. وقد نشطت الحركة التجارية بين شرق الأردن وسوريا ولبنان بين عامي ١٣٥٧ـ١٣٦٠هـ/ ١٩٣٨ـ١٩٤١م ؛ حيث كان الميزان التجاري لصالح الأردن في السنوات الثلاث الأولى، وبما أن صادرات شرق الأردن كانت زراعية في أغلبها فإن تذبذبها كان تبعاً لتقلب معدلات هطول الأمطار طوال السنة، وهذا كان له دور مهم في تقلب الميزان التجاري في شرق الأردن([3]).

([1]) سعد أبو دية: صفحات مطوية، ص٣٠٩.

([2]) مصطفى الشهابي: المرجع السابق، ج٢، ص١٩٢.

([3]) سعد أبو دية: صفحات مطوية، ص٣٠٩ ؛ منذر الشرع: المرجع السابق ، ص٩ـ١١.

لقد تركزت الصادرات الأردنية في فترة الانتداب البريطاني باتجاه فلسطين التي استحوذت على أكثر من ٩٠% من صادرات الإمارة ، وكان لقرب الأسواق بين البلدين دوراً بالغ الأهمية؛ نظراً لكون معظم هذه الصادرات مواد غذائية سريعة التلف. أما المستوردات فإن حوالي ٦٠% كان لفلسطين منها حصة الأسد، أما أهم الدول العربية غير فلسطين التي كانت تتركز صادرات ومستوردات الإمارة إليها ومنها سوريا ومصر والعراق والسعودية([1]).

ونلاحظ من خلال دراستنا لموضوع التبادل التجاري والعلاقات الاقتصادية أن الانتداب البريطاني شجع العلاقات لاقتصادية بين فلسطين وشرق الأردن وهما المنطقتان التابعتان لنفوذه، بينما شجع الانتداب الفرنسي التجارة والعلاقات الاقتصادية بين سوريا ولبنان، وهما المنطقتان التابعتان لنفوذه، ونلاحظ أن في كلا المنطقتين أوجد الانتداب دولتين واحدة ساحلية مثل لبنان وفلسطين وأخرى داخلية مثل سوريا وشرق الأردن. وان تشجيع هذه العلاقات الاقتصادية بين الساحل والداخل في منطقتي النفوذ الفرنسي والبريطاني، حتى تكون هذه التبادلات التجارية تحت أعينهم ولا تخرج عن سيطرتهم فيكون لهما حصة الأسد من هذه التجارة. هذا فضلاً عن تعميق الهوة والفصل بين شعبي منطقتي نفوذ الدولتين المنتدبة.

لقد كانت الحكومة الألمانية ترى أن التطور الذي وصلت إليه فلسطين من الناحية الاقتصادية ناتج عن الغزو اليهودي إليها ؛ نتيجة لتدفق رأس المال الأجنبي إليها، وأنه نتيجة لإغلاق باب شرق الأردن في وجه الغزو اليهودي، بسبب وقوف المعارضة الاستقلالية، فإن البلاد تأثرت من ناحية التطور الاقتصادي والحضاري؛ حيث ظل السواد الأعظم من الشعب في شرق الأردن يعاني العوز والفاقة([2]). إن الحكومة الألمانية هنا تناقض نفسها، فلو كان في اليهود خير أو منفعة لما طردتهم ألمانيا من بلادها أولاً، وثانياً لما ساعدتهم بريطانيا على إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين عن طريق إغتصاب الأرض الفلسطينية وطرد الفلسطينيين منها وذلك حتى تتخلص من اليهود الموجودين فيها وفي أوربا بأكملها لأنهم كانوا ولازالوا وسيظلون سبباً في خلق الكثير من الأزمات والمشاكل وأهمها الدينية والاقتصادية والدولية، رغبةً منهم في السيطرة على العالم بأسره، ولكن هيهات أن يكون لهم ذلك.

كما أن اليهود يدرسون أبناءهم في كتبهم المدرسية أن غور الأردن يقسم أرض إسرائيل إلى قسمين أرض إسرائيل الغربية، وأرض إسرائيل الشرقية، وهذا يعني أن اليهود كانوا ــ ومازالوا ــ يطمعون في ضم منطقة شرق الأردن إليهم([3])، فلو كانت أرض الأردن فقيرة لا

([1]) منذر الشرع: المرجع السابق ، ص١٢ــ١٣.

([2]) عبد الرحمن عبد الغني: المرجع السابق ، ص٢١٦ــ٢١٧.

([3]) حسين أحمد الدراويش:أساليب التهويد اللغوي في فلسطين،(مكتبة الرسالة الحديثة، عَمان، ط١، ١٩٨٤م)، ص٢٢.

خيرات فيها فلماذا يطمع فيها الغزاة اليهود؟!، إنه عمل عدواني يهدف لتنفيذ خططهم التي تدعوا إلى تدمير الأمة العربية والإسلامية وغرس الفتنة بينهم.

كانت منطقة شرق الأردن فقيرة في مواردها الطبيعية، خاصة بعد تقطيع أجـزاء بـلاد الشـام وفصل الداخل الأردني عن الساحل الفلسطيني، الذي سيطر عليه اليهود الصهاينة بشكل واضح، كما امتدت يدهم إلى المسطحات المائية التي كانت تغذي شرق الأردن، مما زاد في فقر الـبلاد ؛ وذلك بسبب سوء السياسة الاقتصادية للانتداب البريطاني الذي عمل علـى تنميـة الاقتصـادي الصهيوني على حساب الشعب الفلسطيني والأردني، مما أثر سلباً على التطور الاقتصادي فـي بلاد الشام بشكل عام وعلى فلسطين وشرق الأردن بشكل خاص، خاصـة وأن سـكان هـاتين المنطقتين كانوا يعتمدون على الزراعة والرعي بشكل كبير.

لذلك فنظراً لقلة الموارد الاقتصادية في شرق الأردن اتفق الأمير عبد الله بن الحسين مـع تشرشل في رجب ١٣٣٩هـ/مارس ١٩٢١م على أن تقدم الحكومة البريطانية مسـاعدة ماليـة للإدارة الأردنية الجديدة. وبالفعل تلقى الأمير مبلغ ثلاثين ألف جنيـه إسـترليني عنـد تأسـيس الإمارة، وفي ذي القعدة ١٣٣٩هـ/ يوليو ١٩٢١م قررت الحكومة البريطانية دفع مساعدة مالية قدرها ١٨٠ ألف جنيه إسترليني عن عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م، على أن يخصص منها مبلـغ ١٢٠ ألف؛ جنيه لإنشاء جيش عربي قادر على حفظ الأمن في البلاد ـ ولحفظ المصـالح البريطانيـة في المنطقة ـ لقد كانت المساعدات المالية البريطانية المتتالية خلال فترة الانتداب وسيلة فعالـة للضغط والابتزاز، استعملها الانجليز للحيلولة دون تحقيق رغبـات الأردنيـين فـي الاسـتقلال والتحرر من الانتداب([1]).

لقد استمرت بريطانيا في منح المساعدات المالية للحكومة الأردنية حتـى قيـام الحـرب العالمية الثانية ؛ حيث أنها بلغت حوالي ثُلث الإيرادات أو الدخل السنوي الكلي للإمـارة، وهـذا جعل بريطانيا تفرض سلطتها وسيطرتها على جميع الأمور المالية والعسكرية والإدارية الداخلية منها والخارجية، ففي الداخل حرم المعتمد البريطاني هنري كوكس رئيس الحكومة رشيد طليـع من زيادة رواتب موظفي الدولة دون موافقته، مما أدى إلى استقالة رئيس الحكومة، أما خارجيـاً فقد ظل الأردن منعزلاً عن جيرانه([2])، فكما رأينا في الثورة السورية عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م كيف ضغطت الحكومة البريطانية على الأردن في الوقوف في وجه الثوار، وكل ذلـك بسـبب التسلط البريطاني على الموارد المالية لشرق الأردن، مما كان له أسوء الأثر على علاقة شـرق الأردن بجيرانه.

([1]) علي محافظة : العلاقات الأردنية البريطانية ، ص٤٩ـ٥٠.

([2]) علي محافظة : الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص١٨٣ ؛ Mary C . Wilson: Op. Cit. p.85.

لقد كانت إمارة شرق الأردن فقيرة بمواردها المالية، ومع ذلك كانت الحكومة البريطانية وهي الإمبراطورية العظمى التي لا تغيب عنها الشمس تحمل هذه البلاد نفقات استعمارها وحماية مصالحها، حيث كانت تراقب وبكل دقه شؤونها المالية والإدارية بواسطة المعتمد البريطاني في عَمان، الذي لا يوافق إلا على ما يتماشى مع مصالح بلاده ورغباتها فحسب، مما زاد في فقر البلاد وتأخرها اقتصادياً، فالمعونات البريطانية كانت تصرف على الموظفين البريطانيين، والتجهيزات العسكرية والحصون والمؤسسات التنصيرية والاستخبارات العامة، فقد كانت الحكومة تتجسس على الصغير والكبير حتى على البدو في الصحراء ؛ حتى لا يثورون ضدها، فالإعانة المالية التي يدفعونا باليمين يستردونها باليسار(1)، عن طريق نهب خيرات البلاد ومياهه وقوت سكانه.

أما بالنسبة للتعاملات المصرفية فإن شرق الأردن لم يعرف وجود المؤسسات المصرفية الحديثة التي تقوم بعمل الوسيط بين المودعين والمقترضين، وقد اقتصر تواجد المؤسسات المصرفية في شرق الأردن على المصرف الزراعي في كل من إربد والسلط والكرك. وكان عمل هذا المصرف يقتصر على تقديم القروض الزراعية وتحصيل الديون، لكن في١٣ ربيع الآخر ١٣٤٤هـ/٣١ أكتوبر ١٩٢٥م وقعت اتفاقية بين الحكومة الأردنية والبنك العثماني (وهو مصرف بريطاني)، يقوم بالأعمال المصرفية التجارية العادية، كما فرض هذا المصرف على الحكومة الأردنية عدم التعامل مع غيره من البنوك، وأصبح هذا البنك وكيلاً مالياً لحكومة شرق الأردن؛ نظراً لعدم وجود مؤسسة مصرفية وطنية تقوم بهذا الدور، وظل البنك العثماني هو المؤسسة المصرفية الوحيدة التي تعمل في شرق الأردن حتى عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م حين أقدم البنك العربي الذي كان قد تم تأسيسه في القدس عام١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م على افتتاح فرعه الأول في عَمان عام ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، ثم فرعه الثاني في إربد عام ١٩٤٣م(2). ومن ذلك نرى مدى سيطرة سلطات الانتداب البريطاني على جميع الموارد المالية في شرق الأردن، وهذا ما أثر على الوضع الاقتصادي العام في شرق الأردن، وعلينا أن نلاحظ أن المعونات المالية التي كانت تقوم الحكومة البريطانية بمنحها للحكومة الأردنية، كانت مجرد تبادل مصالح؛ حتى تحافظ الحكومة الأردنية على المصالح البريطانية في المنطقة، ولم تكن هذه المعونات موجه لتطوير وتنمية البلاد من أجل النهوض بالشعب الأردني وتحسين حالته المادية والمعيشية، بل كان معظمه يصرف على الجيش الذي هو أساس الوجود البريطاني وحاميه.

أما بالنسبة للنقود فبعد سقوط الدولة العثمانية ودخول الانتداب البريطاني لشرق الأردن تلاشى استخدام الليرة العثمانية وحل محلها الجنية المصري والجنية الإسترليني الذهبي، حيث استمر

---

(1) علي محافظة : الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص١٨٣ـ١٨٤.

(2) علي محافظة : العلاقات الأردنية البريطانية، ص٥٠ ؛ محمد سعيد النابلسي: التطور التاريخي للجهاز المصرفي والمالي في الأردن، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ١٩٩٤م)، ص٢٠ـ٢١.

تداولهما حتى عام١٣٤٦هـ/١٩٢٧م حين قررت السلطات البريطانية إيجاد وسيلة تبادل موحدة في كل من فلسطين وشرق الأردن، فأوجدت الجنيه الفلسطيني وطرحته للتداول في ٦ جمادى الأولى ١٣٤٦ هـ/الأول من نوفمبر ١٩٢٧م. وإلى جانب الجنيه الفلسطيني الذي كان يعادل في قيمته جنيهاً إسترلينياً واحداً، أصدر مجلس النقد الفلسطيني خلال فترة الانتداب عدداً من المسكوكات المعدنية التي تحمل الكتابات العربية الانجليزية والعبرية. وتوزعت هذه النقود المسكوكة من النحاس والنيكل([1]) على الفئات ١٠٠ مل ، ٥٠ مل ، و٢٠ مل ، ٥ مل ، ٢ مل، مل واحد([2]).

كان التعامل في إمارة شرق الأردن يتم بالجنيه الفلسطيني، الذي كان يتولى إصداره مجلس النقد الفلسطيني، وكان الجنيه الفلسطيني هو العملة القانونية المتداولة في كل من فلسطين وشرق الأردن في الفترة من١٣٤٦ـ١٣٦٩هـ/ ١٩٢٧ـ ١٩٥٠م، فبعد استقلال الأردن عام١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، بدأت الحكومة الأردنية في التفكير في إصدار نقد وطني، تم تشكيل مجلس النقد الأردني في لندن والذي أصبح هو السلطة الوحيدة المخولة بإصدار أوراق النقد والمسكوكات في الأردن وأصبحت وحدة النقد هي الدينار الأردني الذي طرح للتداول في١٥ ر مضان ١٣٦٩هـ/١ يوليو ١٩٥٠م، وتوقف تداول الجنيه الفلسطيني في الأردن اعتباراً من١٧ ذي الحجة ١٣٦٩هـ/ ٣٠ سبتمبر ١٩٥٠م، وقد استبدلت العملة الفلسطينية على أساس أن ديناراً أردنياً يعادل جنيهاً فلسطينياً، وأن فلساً أردنياً يعادل ملاً فلسطينياً([3]).

المبحث الثاني: أثر الانتداب البريطاني على المؤسسات التعليمية والثقافية.

أ ــ أثر الانتداب البريطاني على المؤسسات التعليمية والثقافية في فلسطين.

أولاً: المدارس والمؤسسات التعليمية:

كانت المدارس الدينية معروفة في فلسطين منذ القدم، فقد اشتهرت فيها الكثير من المدارس والمساجد([4]) التي كانت تقوم بدور التدريس ونشر العلم، ومن أشهر هذه المساجد بالطبع المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة في القدس، واللذان اشتهرا على مر العصور بحلقات العلم التي كانت تعقد فيهما منذ العصور الإسلامية الأولى وحتى أيام الحكم العثماني وما بعده، وقد قدمت لهما الإدارة العثمانية الأدوات اللازمة لتهيئة الجو العلمي فيهما، فكانت تدفع رواتب الموظفين من أئمة المذاهب الأربعة، والوعاظ والمدرسين والمؤذنين والقراء والخدام، وكانت تدرس في المسجد العلوم الشرعية مثل: الحديث ــ التفسير ــ القراءات ــ الفقه، وعلوم

([1]) انظر ملحق الصور الملحق رقم ٤.

([2]) محمد النابلسي : المرجع السابق، ص٢٠.

([3]) المرجع السابق، ص٢١.

([4]) للمزيد من المعلومات حول التعليم في متصرفية القدي انظر: زبيدة محمد عطا: عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف القدسية،(عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،الهرم،ط١،١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م) ص٩٧ـ١٣٦.

اللغة العربية مثل: النحو والصرف ــ البلاغة ــ الأدب، وعلم التاريخ، والعلــوم العقليــة مثــل المنطق، والعلوم العملية مثل الرياضيات والحساب والجبر، وتنوع هذه العلوم يدل علــى وجــود هيئة تدريسية من العلماء المتخصصين في كل علم من العلوم السابقة الذكر. كما كانــت توجــد عدد من المدارس القرآنية داخل هذه المساجد وخارجها عرفت بالكتاتيب([1]).

ولم تعرف فلسطين التعليم الأوربي الحديث إلا في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، فقد اقتصر التعليم فيها على الكتاتيب والمساجد والمدارس الإسلامية والكتّاب كان المدرسة الإسلامية الأولى؛ حيث كان الصبيان بين الخامسة والثانية عشرة يجتمعون في مسجد أو في بيت خــاص، يقوم الشيخ بتدريسهم القرآن الكريم والتجويد، وبعض مبادئ الدين الإسلامي خاصة فيما يتعلــق منها بالعبادات، وحفظ بعض الأحاديث، وشيء من الحساب والفلك، وبعد أن يكمل التلميذ التعليم الأولي في الكتاتيب يلتحق بالمدرسة الدينية التي كانت تدرس مبادئ الشريعة الإسلامية وأصــول الدين واللغة العربية وقواعدها، وقد وجدت هذه المدارس في فلســطين والأردن منــذ العصــر الأيوبي والمملوكي، واستمر وجودها حتى أواخر عهد الدولة العثمانية. وكان التعليم في الكتاتيب الإسلامية أفضل منه في الكتاتيب لدى الطوائف المسيحية الذين كانوا يدرسون فــي الكنيســة أو الدير أو في بيت خاص في القرية، وكان مستوى التعليم فيه متدني لضعف إلمام المعلمين باللغــة العربية([2]).

وقد أدخلت الدولة العثمانية التعليم الحديث في مدارسها، وتم تقسيم المدارس الحديثة إلــى ثلاثة أصناف: هي المدارس الرسمية(الحكومية) والمدارس الوطنية(المداس الخاصة)، والمدارس الأجنبية، وأول قانون للمعارف صدر في عام ١٢٨٦هــــ/١٨٦٩م والــذي أعتبــرت بموجبــه الكتاتيب والمدارس الدينية مدارس خاصة أو مدارس دينية، ووضــعت المــدارس التنصــيرية والأجنبية والتي جاءت عن طريق الإرساليات التنصيرية الأجنبيــة تحــت الرقابــة الحكوميــة. وأصبح على كل مدرسة خاصة أن تحصل على ترخيص من مجلس المعارف في كــل ولايــة، بجانب الموافقته على مناهجها وعلى تعيين المعلمين فيها([3]). لكن يبدو أن الدولة العثمانية لم تكن متشددة بالشكل الكافي على هذه المدارس، وربما يرجع ذلك إلى الامتيازات التي منحتها الدولــة العثمانية للدول الأجنبية التي أسست هذه المدارس وحمتها، وجعلتها تعمــل علــى نشــر الفكــر القومي والدين النصراني وتسعي لهدم الدولة العثمانية من الداخل كخطوة أولية تمهيدية لاقتســام تركة الرجل المريض كما كانوا يطلقون عليها في أواخر أيامها.

([1]) يوسف العتيبي : المرجع السابق، ص٢٥٠ــ٢٥١.

([2]) علي المحافظة : تاريخ الحركات الفكرية، ص٣١ــ٣٣.

([3]) علي المحافظة : تاريخ الحركات الفكرية، ص٣٣ ؛ يوسف العتيبي : المرجع السابق، ص٣٨ــ٣٩.

أما المدارس الحكومية التي أنشأتها الدولة على الطراز الحديث فكانت خمسة أنواع([1])هي:

١. المدارس الابتدائية "مكاتبي صبيانية"، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات، والتعليم فيها إجباري مجاني، ويكون عمر الطالب مابين السابعة والحادية عشرة للبنيين، وما بين السادسة والعاشرة للبنات، وكانت كل قرية كبيرة أو مجموعة قرى صغيرة تحتوي على مدرسة من هذا النوع.
٢. المدارس الرشدية "مكاتبي رشدية" أو ما يطلق عليها الفلسطينية "ابتدائية عليا رشدية" ومدة الدراسة فيها أربع سنوات وتكون الدراسة فيها مجانية.
٣. المدارس الإعدادية "مكاتبي إعدادية" ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، وتكون الدراسة فيها مجانية، وكانت هذه المدارس موجودة في ثلاث مدن فلسطينية هي: القدس ونابلس وعكا.
٤. المدارس الثانوية العليا أو السلطانية "مكاتبي سلطانية"، وتعرف في دمشق "بمكتب عنبر"، ومدة الدارسة فيها ثلاث سنوات، وكان في فلسطين مدرسة واحدة من هذا النوع في القدس، والدراسة في هذه المرحلة ليست مجانية، إلا أن السلطات العثمانية كانت تقوم بدفع الأقساط عن الطلاب الفقراء، وتضم هذه المرحلة قسماً داخلياً اختيارا يعيش الطلبة فيه([2]).
٥. المدارس العليا "مكاتبي عالية أو دار المعلمين" ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات ويتخرج منها المعلمون للمكاتب الابتدائية([3]).

ولم تكن متصرفية القدس تحظى باهتمام كبير بالنسبة للتعليم مقارنة بدمشق وبيروت، فالمدارس الابتدائية والرشدية والإعدادية كانت قليلة، حتى أنه لم يكن فيها إلا مكتب سلطاني واحد، وربما يرجع ذلك لضعف إمكانيات وزارة المعارف، وتردي الأحوال الاقتصادية، والجهل بأهمية التعليم([4])، ويمكن أن نضيف سبباً آخر وهو اعتقاد الدولة العثمانية بأن التدريس في المساجد والكتاتيب قد يفي بالغرض، فكما عرفنا سابقاً أن مجتمع فلسطين كان مجتمعاً زراعياً ولم يكن يهتم كثيراً بالتعليم.

لقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر اهتمام عدد من الدول الأوربية بإنشاء مدارس في فلسطين ولبنان وسوريا في ظل الحكم العثماني، ومن هنا بدأ يتأثر العديد من مثقفي

([1]) وللمزيد من المعلومات حول هذه المدارس انظر : يوسف العتيبي : المرجع السابق، ص٣٥ــ٣٩ وص٢٦٧ــ٢٨٤.

([2]) الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٥٢٩.

([3]) عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٧ ؛ علي المحافظة : تاريخ الحركات الفكرية، ص٣٣ــ٣٤.

([4]) الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٥٢٩ ؛ يوسف العتيبي : المرجع السابق، ص٢٦٧ــ٢٦٨.

البلاد العثمانية بالحضارة الغربية خصوصاً أولئك الذين ذهبوا إلى أوربا في بعثات تعليميـــة، أو أولئك الذين درسوا في مدارس تنصيرية تابعة للبلاد الأوربية الموجــودة فـــي أرجــاء الدولـــة العثمانية، فبعد الانقلاب الذي أحدثه الاتحاديون عام١٣٢٥هــ/ ١٩٠٨م(١) انتشــرت المــدارس الأجنبية ذات النمط الغربي بشكل واسع، وليس العيب في طريقة التعليم بحد ذاتـــه، وإنمـــا فـــي الانقياد التام والتقليد الأعمى للأوربيين مع التركيز في كثير من الأحيان علـــى الشـــكليات، دون الاهتمام بجوهر التعليم الذي يعود على الفرد والمجتمع بالنفع والفائدة(٢) فـــي الـــدنيا والآخـــرة. وعدم الاهتمام أيضاً بالعلوم الدينية وخاصة الإسلامية منها وما يتعلق بالعبادات، وهذا الذي أدى في نهاية المطاف إلى تدهور الوضع في الدولة العثمانية وسقوطها، فقد أخذت تـــدخل الأفكـــار القومية التي صدرها الغرب الأوربي إلى العرب والترك على حد سواء. وهذا هو أحد مجـــالات الغزو الفكري الغربي.

وبسبب انتشار التعليم الغربي فقد قامت الدولة العثمانية في الفترة من ١٣٢٥ــ١٣٣١هــ/ ١٩٠٨ــ١٩١٤م بإعادة تنظيم المدارس الابتدائية في فلسطين، وحدثت مناهجها؛ حيث بلغ عـــدد المدارس الحكومية في عام ١٩١٤م، ٩٥ مدرسة أولية وابتدائية، وثلاث مدارس ثانوية، وضمت هذه المدارس ٢٣٤ معلماً ٨٢٤٨ تلميذاً بينهم ١٤٨٠ تلميذة، وأنشئ في القدس مدرســـة عاليـــة أثناء الحرب العالمية الأولى، ولأول مرة أصبحت اللغة التركية لغة التعليم في هذه المدرسة إلـــى جانب اللغة العربية(٣).

إلى جانب المدارس الحكومية كان هناك ثلاثة أنواع من المدارس هي:

أولاً: المدارس الخاصة: أو الوطنية الإسلامية والتي أنشأها الفلسطينيون في المدن الكبرى من المستوى الأولي والابتدائي وقد بلغ عددها حسب الإحصائية العثمانية لعام١٣٣٢هــ/١٩١٤م ٣٧٩ مدرسه تضم ٤١٧ معلماً و٨٧٠٥ تلميذ بينهم ١٣١ تلميذة. وكان معظـــم هـــذه المـــدارس عبارة عن كتاتيب. وكان معلمو هذه المدارس إما مـــن خريجـــي الجـــامع الأزهـــر(٤) أو مـــن

---

(١) الانقلاب العثماني ١٣٢٥هــ/١٩٠٨م: في شهر جمادى الآخرة ١٣٢٥هــ/ يوليو ١٩٠٨م قام أعضـــاء جمعيـــة تركيا الفتاة بانقلاب عسكري وأكرهوا السلطان عبد الحميد الثاني على على إعلان المشـــروطية، ولمـــا وقعـــت الثورة المضادة في ربيع الأول ١٣٢٧هــ/ إبريل ١٩٠٩م تقرر على إثرها عزل السلطان عبد الحميـــد الثـــاني، وعين رجال الاتحاد والترقي السلطان محمد رشاد سلطاناً للدولة، وكان رجل طاعن في السن ممـــا جعلـــه أداة طيعة في أيديهم. أنظر: محمد فريد بك: المرجـــع الســـابق، ص٦٠٧ ؛ فـــائق الصـــواف: المرجـــع الســـابق، ص١٥١ــ١٥٣.

(٢) حنا أبو حنا: المرجع السابق، ص١ ؛ محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٦٠ــ٦١.

(٣) علي المحافظة : تاريخ الحركات الفكرية، ص٣٤ــ٣٥ ؛ حنا أبو حنا: المرجع السابق، ص١٣ــ١٤.

(٤) كان الذهاب إلى الجامع الأزهر أمراً مألوفاً في كل المنطقة الشامية من أزمنة متوغلة في القـــدم، لكـــن القـــرن

المتعلمين في المساجد. وكان التعليم فيها باللغة العربية، ولا تتلقى هذه المدارس أية معونة من الدولة، كما أنها لا تخضع لرقابتها([1]).

وفي عام١٣٢٥هـ/١٩٠٨م([2]) أنشأت أول مدرسة إسلامية خاصة تتبنى مناهج حديثة في فلسطين، وهذه المدرسة هي "روضة المعارف" في القدس، وقد أضيفت إليها فيما بعد صفوف ثانوية، وكانت هذه المدرسة من أهم المعالم التعليمية في القدس، لأن سبب تأسيسها هو مواجهة المدارس التنصيرية في فلسطين([3]) . وبادر المجلس الإسلامي الأعلى بعد تأسيسه ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م إلى وضع يده على هذه المدرسة باعتبارها من أملاك الوقف، وعمل على تطويرها حتى أصبح اسمها " كلية روضة المعارف الوطنية"، وقد حرصت إدارة المدرسة على انتقاء المدرسين الأكفاء المؤهلين للتدريس في كلية روضة المعارف، وواصلت كلية الروضة أداء رسالتها العلمية والتربوية حتى عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م عام الثورة الفلسطينية؛ حيث استولت سلطات الانتداب على أبنية المدرسة وأخرجت الطلاب والمدرسين والهيئة الإدارية منها، فانتقلت إلى دار موسى كاظم الحسيني حيث تابعت رسالتها العلمية حتى عام النكبة سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م فتوقفت عن التدريس([4]).

وكان من أبرز المدارس الوطنية في القدس "المدرسة الدستورية"([5]) التي أنشأت عام١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، فكانت أول مدرسة أسسها مسلمون ومسيحيون، وضمت تلاميذ من مختلف الأديان والمذاهب، وكان الطلاب يتعلمون أصول مذاهبهم الدينية كلٌّ حسب مذهبه، واعتمدت اللغة العربية لتدريس طلابها، كما اختارت منهجاً تربوياً استهدف بث روح القومية

التاسع عشر شهد تهافت الكثير من طلبة العلم من لبنان وسوريا وفلسطين على الأزهر، لمواجهة الهجمة التنصيرية التي تقوم بها الدول الأوربية على الولايات العربية في الدولة العثمانية، ولذلك كان هؤلاء متوفرين لتدريس الدين الإسلامي واللغة العربية، وكان في الجامع الأزهر رواق يعرف برواق الشام، وهذا الرواق وقفية أنشأها بعض أهل الخير سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م، ويدرس فيه طلاب العلم الشرعي من أهل سوريا ولبنان وفلسطين والأردن أو ما كان يعرف في ذلك الوقت بأهل الشام. انظر:عبدالحميد السائح: المرجع السابق، ص٩.

([1]) علي المحافظة : تاريخ الحركات الفكرية، ص٢٥ـ٢٦ ؛ حنا أبو حنا: المرجع السابق، ص١٤.

([2]) هناك اختلاف في تاريخ إنشاء هذه المدرسة فهناك من يقول أنها أنشأت في عام١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، وهناك من يقول أنها أنشأن في علم ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م. وللمزيد من المعلومات حول هذه المدرسة انظر: علي المحافظة : تاريخ الحركات الفكرية، ص٣٦ ؛ يوسف العتيبي : المرجع السابق، ص٢٧٩.

([3]) يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٢٧٩ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات..، ص٩ ؛حنا أبو حنا: المرجع السابق، ص١٤.

([4]) الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٤٩٢ـ٤٩٣.

([5]) انظر صورة لهيئة التدريس في ملحق الصور الملحق رقم ٥.

العربية في نفوس تلاميذها، وقد أغلقت هــذه المدرســة مــن قبــل الســلطات العثمانيــة فــي عام١٣٣٦هـ/١٩١٧م[١].

ثانياً: مدارس الطوائف: عدت الدولة العثمانية كل طائفة دينيــة ومذهبيــة ــ مــن غيــر المسلمين ــ «جماعة قائمة بنفسها» فشملت مدارس الطوائف المسيحيين الفلسطينيين مثل الــروم الكاثوليك[٢] والروم الأرثوذكس[٣]، واللاتــين والأرمن والســريــان، واليهود[٤]. وكانت السلطنة تعطي لكل طائفة

حرية تأسيس المدارس ولغة التعليم[٥].

وكان للطائفة اليهودية أكثر مدارس بين الطوائف الأخرى، بسبب الدعم المحلي والخارجي الذي كانت تلقاه من المنظمة الصهيونية العالمية، وزيادة عدد المهاجرين اليهود إلى بلاد الشــام واستيطانهم في القدس ويافا وغيرها من المدن الفلسطينية[٦]. التي كانوا يقيمون فيها دولة داخــل

---

(١) علي المحافظة : تاريخ الحركات الفكرية..، ص٣٦ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسســات..، ص٩ ؛ يوســف العتيبي: المرجع السابق، ص٢٨٠.

(٢) الروم الكاثوليك: وهم يتبعون الكنيسة البابوية في روما، وتكونت هذه الطائفة في بلاد الشام نتيجة الانشقاقات في الكنائس الشرقية، لكنهم أحرزوا تقدماً كبيراً في بلاد الشام على حساب معظم الطوائف الأخرى، وذلــك بســبب النفوذ الذي حصلت عليه فرنسا (الكاثوليكية) في زمن الدولة العثمانية عن طريق الإمتيازات. انظر: عبــدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م)، ج٢، ٧٤٣ ؛ يسرى الحنفي: المرجع السابق، الحاشية ١، ج١، ص٣٢٠.

(٣) الروم الأرثوذكس: يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وكان أتباع هذه الكنيسة أكبر الطوائف النصرانية فــي بلاد الشام أهمية وعدداً. ولقد وجد للروم الأرثوذكس في الشام بطريركيتان الأولى في القــدس وتشــرف علــى كنائس الروم الأرثوذكس في فلسطين، والثانية في دمشق وتشرف على مصالح الكنائس الشرقية من صور حتى الأناضول ويطلق عليها أيضاً اسم بطريركية إنطاكية. وكان بين البطريركيتين تنافس حاد فقــد أنشــأ بطريــرك القدس داراً جديدة للبطريركية واستورد مطبعة وأوعز بتعريب الكتب الدينية وشــيد مدرســة، وارتبطــت بهــا أسقفيات الناصرة وعكا وطبريا ، والكرك والسلط وعجلون وسبسيطة وطور سيناء وشريعة غرين. أما بطركية دمشق فقد ارتبطت بها اسقفيات الشام وبعلبك وحلب ، وقام هؤلاء بدور بارز في نشر التعليم النصراني وإنشاء المدارس، وقد انشق قسم من الروم الأرثوذكس وشكلوا طائفة الروم الكاثوليك. انظر: عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية..، ج٢، ص٧٤٢ــ٧٤٣ ؛ يسرى الحنفي: المرجع السابق، الحاشية ٢، ج١، ص٣١٩ــ٣٢٠.

(٤) للمزيد من المعلومات حول هذه المدارس الطائفية انظر : يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٣٥٦ــ٣٦١.

(٥) بيان الحوت: القيادات والمؤسسات..، ص٩ــ١٠ والحاشية٢١، ص١٠ ؛ الموقع على الانترنت : ملتقى الصداقة الصداقة الثقافيhttp://alsdaqa.com /.

(٦) يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٣٥٨ــ٣٥٩.

الدولة العثمانية؛ حيث كانت لهم مدارسهم ولغتهم، وكان اليهود في مدارسهم يحشون عقول الطلاب بالعقائد الصهيونية، وكانت مستعمراتهم مستقلة بشؤونها عن الحكومة؛ حتى أنهم كانوا يرفعون فيها علمهم الأزرق والأبيض، ويعملون سراً على التدريب العسكري تحت ستار الألعاب الرياضية، وقد حدت الدولة العثمانية من نشاط اليهود في فترة الحرب العالمية الأولى، لكن بعد دخول الانتداب البريطاني إلى فلسطين عاد النشاط الصهيوني من جديد وبشكل أكبر مما كان عليه في العهد العثماني([1]).

وقد كانت المدارس اليهودية تنقسم إلى قسمين: تقليدي وحديث، فالمدارس التقليدية كانت تعمل على تدريس التوراة باللغة العبرية، ـ أي أنها كانت تعتبر مدرسة دينية بحته ـ وبلغ عددها في القدس عام١٣٣٢هـ/١٩١٤م العشرات وتضم ٢٠٠ معلم وحوالي أربعة آلاف تلميذ. أما خارج القدس فقد وجد نحو عشرين مدرسة أكثرها في تل أبيب، وبلغ عدد معلميها ٥١ معلماً، وتضم ١٤٠٠ تلميذ. أما المدارس اليهودية الحديثة في فلسطين فكانت أول من أنشأت جمعية الاتحاد الإسرائيلي "الأليانس الإسرائيلية"([2])، وكانت هذه تضم المدارس حوالي ألفي تلميذ في عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، وفي عهد الانتداب تولت "الوكالة اليهودية" مهمة إنشاء المدارس لليهود وبقية هذه المدارس طوال عهد الانتداب، مستقلة عن النظام التعليمي العام في فلسطين([3]).

ثالثاً: المدارس الأجنبية: اهتمت الدول الأجنبية بالقدس؛ لأنها شهدت مولد المسيحية، فعمدوا إلى إنشاء المدارس الألمانية والفرنسية والإنجليزية والأمريكية والروسية([4])، وكان لهذه المدارس الأثر الكبير في نشر التعليم في فلسطين، إذ

([1]) فكتور مارسدن: بروتو كولات حكماء صهيون الخطر الصهيوني، النص الكامل مترجماً باللغة العربية، ترجمة: أحمد علي فياض، (الأهلية للنشر والتوزيع ، عَمان ، ط٢، ٢٠٠٩م)، ص٤٢٩ـ٤٣٠.

([2]) جمعية الأليانس الإسرائيلية: والأليانس تعني التحالف، ومعنى الجمعية هو "التحالف الإسرائيلي العالمي"، أسست في باريس عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م، وكان لها فروع في القدس حيث قامت بفتح العديد من المدارس هناك، ولها فرعان في دمشق، حيث كانت عبارة مدرسة رشيدية أنشأت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وهي عبارة عن فرعين واحد للذكور وواحد للإناث، يدرس فيها الدين اليهودي ومبادئ العبرية، واللغة العربية والتركية. أنظر: يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٢٩٤ ؛ الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٢٨٧.

([3]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٣٦ـ٣٧.

([4]) للمزيد من المعلومات حول هذه المدارس أنظر: يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٣٦١ـ٣٦٨ ؛ علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٣٧ـ٤٤.

أخذت تهتم باللغة العربية بغية اجتذاب أبناء البلاد من جهة، وتسهيل التأثير فيهم من جهة أخرى، فصارت المدارس الأجنبية أدوات سياسية فعالة تستخدمها الدول، لنشر لغتها في البلاد وبسط نفوذها على الجماعات، وكان التنافس بين هذه المدارس قائم على قدم وساق غير أن فرنسا كانت أنشط هذه المدارس، إذ عدت نفسها حامية الكاثوليك، فبدأت بتركيز حمايتها على مدارسهم وامتدت إلى سواهم من أبناء الطوائف والأديان([1])، وقد ساعد إنشاء المدارس الأجنبية في زيادة تأثير الثقافات الأجنبية وتنوعها، ولاسيما أن التدريس في هذه المدارس كان باللغات الأوربية مثل الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية. كما اهتمت بتدريس التاريخ والآداب الأوربية، بينما قل اهتمامها بالآداب العربية، والأهم من ذلك أن هذه المدارس ركزت في منهجها على تدريس المناهج الدينية للمذاهب العائدة لدولتها. فتعلم الطلاب المذهب البروتستانتي في المدارس الإنجليزية، والمذهب الكاثوليكي في المدارس الفرنسية والإيطالية، والمذهب الأرثوذكسي في المدارس الروسية، الأمر الذي أدى إلى مزيد من الانقسام بين الطوائف المسيحية المحلية بانضمام بعضها إلى المذاهب المسيحية الغربية([2]). وهنا يظهر مدى التنافس بين هذه المذاهب وعملت هذه المدارس على جذب المذاهب المسيحية المختلفة بغرض تنصيرها الطلاب الملتحقين بها، بالإضافة إلى العمل على جذب المسلمين أيضاً، وهم الأهم لأنهم يشكلون الأغلبية، مما يساعد الدول القائمة على هذه المدارس في التمهيد للسيطرة على المنطقة واستعمارها ومحاربة الدين الإسلامي وأتباعه.

ونتيجة لذلك التنافس بين المدارس الإنجليزية والفرنسية ؛ فقد قام الإنجليز بفتح مدارس تنافس المدارس الفرنسية التي كانت أول من أنشأ المدارس التنصيرية في تلك الفترة، ومن أهم المدارس الإنجليزية كانت "مدرسة المطران" أو "مدرسة سان جورج" في القدس التي اعتمدت التعليم وسيلة للتنصير منذ عام١٣١٥هـ/١٨٩٨م فأخذت تعمل على جذب المسلمين الأثرياء للدراسة فيها، وكانت تضم بين صفوفها أبناء المسيحيين والمسلمين واليهود، وكانت المدرسة تدار على نمط المدارس الخاصة في بريطانيا، وقبيل الحرب العالمية الثانية أخذ عدد الطلاب اليهود يقل تدريجياً، واقتصرت المدرسة على الطلاب العرب من المسلمين والمسيحيين، وقد اكتسبت هذه المدرسة مزيداً من الشهرة والجاه أيام الانتداب البريطاني على فلسطين، حيث كانت

([1]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٣٧ـ٤٤ ؛ رفيق النتشه: السلطان عبد الحميد، ص١٤٢ـ١٤٧ ؛ الموقع على الانترنت : ملتقى الصداقة الثقافيhttp://alsdaqa.com .

([2]) زهير غنايم: المرجع السابق، ص٥٣٦ـ٥٣٧.

مستقلة دون تدخل مباشر من الحكومة المنتدبة، وبعد عام النكبة أصبح يطلق عليها اسم "كلية المطران" كعنوان لتقدمها وارتفاع مستواها([1]).

لقد كانت مدرسة المطران تعمل على نشر الأفكار التنصيرية بين المسلمين، حتى أنها في مادة الدين كانت تدرس التوراة والإنجيل على الرغم من قلة عدد اليهود المنتسبين إليها، ولم تكن تدرس القرآن الكريم على الرغم من أن المسلمين المنتسبين إليها أكثر من اليهود الذين كانوا يفضلون الدارسة في مدارسهم الخاصة. إن التنصير في مدرسة المطران كان عبارة عن حركة سياسية استعمارية تستهدف نشر الأفكار النصرانية بين المسلمين على وجه الخصوص، ويستغل زعماؤها والقائمون عليها، ما تفعله سلطات الانتداب البريطاني بالمدارس الحكومة والإسلامية الخاصة من غلق وتوقيف للمدرسين والطلبة بعد كل مظاهرة، فتزيد من قبول الطلاب فيها وتعين المدرسين، وتعتمد حركة التنصير في هذه المدارس في تحقيق أهدافها على تشويه صورة الإسلام وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم، مسخرين إمكانياتهم الضخمة لتحقيق مآربهم المعادية للإسلام والمسلمين، وذلك باستقطابهم أبناء الطبقة الراقية والأثرياء من أهل البلاد للدراسة في المدارس الأجنبية بصفة عامة([2]).

إن اهتمام المدارس الأجنبية بتدريس العلوم الغربية فقد أسهم في تخريج مجموعة من الطلاب الذين يتقنون اللغات الأوربية، لذلك كان المجال واسعاً أمامهم للعمل في البنوك والشركات والمؤسسات التابعة للدول الأجنبية في بلاد الشام. وتمتع هؤلاء بدخل مرتفع عن غيرهم من الموظفين، ولاسيما أولئك الذين عملوا في المؤسسات والأجهزة الحكومية المتعددة([3]). لقد كان التنصير في هذه المدارس الأجنبية مرتبط كل الارتباط بالاستعمار وممهدا له، فقد عمل هؤلاء المنصريون المستشرقون([4]) في هذه المدارس الأجنبية على تدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها([5]) وحاضرها ومستقبلها.

([1]) الموسوعة الفلسطينية ، ج٤، ص٢٢٨ ؛ صبحي غوشة: المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٥ـ٢٧.

([2]) صبحي غوشة: المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٨ـ٣٤.

([3]) زهير غنايم: المرجع السابق، ص٥٣٧.

([4]) المستشرقون: الاستشراق هو الدارسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام..وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله أقصاه ووسطه وأدناه. أنظر: يسرى حنفي: المرجع السابق، ج١، ص١٧ـ١٨.

([5]) محمود محمد شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، (دار المدني، جدة)، ص١٥٦.

الملامح العامة للتعليم في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني:

وعندما دخل الانتداب البريطاني إلى فلسطين أهمل وضع التعليم وأغلقت معظم المدارس الخاصة المحلية والأجنبية أبوابها، لاسيما المدارس التي يملكها رعايا الدول المعادية لبريطانيا كألمانيا والنمسا، واشتدت حاجة البلاد إلى التعليم فبعد احتلال القدس من قبل القوات البريطانية وافقت السلطات العسكرية على إعادة فتح المدارس الخاصة المحلية والأجنبية عدا تلك التي يملكها رعايا الدول المعادية([1]).

ولقد استمرت المدارس الحكومية في عملها، وعاودت المدارس الخاصة والأجنبية عملها في التدريس كما كانت في العهد العثماني، لكن من أهم التغيرات التي حدثت في نظام التعليم في عهد الانتداب، هو أن هؤلاء أخذوا يطبقون برامج تعليمية تتفق مع أهدافهم الاستعمارية والتي تركزت على إضعاف الشعور العربي والوطني والإسلامي للبلاد العربية التي استعمروها. فقد ألغت دار المعارف اللغة التركية كلغة أولى للعرب، واعتمدت اللغة العربية لغة رسمية في المدارس، وأدخلت اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية ابتداء من الصف الرابع الابتدائي([2]).

وقد أنشئت في١٣٣٧هـ/١٩١٨م "مدرسة النجاح"([3]) في نابلس والتي تعد من أولى المدارس التي أنشئت بعد دخول الانتداب البريطاني إلى فلسطين؛ وذلك بسبب دعوة فريق من المعلمين الذين توقفت مدارسهم في ظروف الاحتلال بجانب عدد من المثقفين في نابلس إلى إنشاء مدرسة وطنية أطلق عليها اسم "مدرسة النجاح" وكانت تتولى تدريس الدين الإسلامي واللغة العربية، وقد تطورت حتى أصبحت مدرسة داخلية تحتوي على صفوف ابتدائية وثانوية كاملة، وكان يؤمها الطلاب من مختلف مدن فلسطين، لأن شهادتها كانت معتمدة لدخول الجامعة الأمريكية في بيروت دون امتحان قبول([4]).

لقد كانت "مدرسة النجاح" تعمل على غرس روح القومية العربية في نفوس طلابها؛ حيث دخلت "الحركة العربية السرية" إلى فلسطين عن طريقها في سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، وكان هدفها مقاومة الانتداب البريطاني، وسياسة الاستيطان الصهيوني، ونشر الفكر القومي العربي في نفوس الأجيال الصاعدة([5]). وأن هذا من المآخذ التي تؤخذ على هذه المدرسة؛ لأنها لم تركز

([1]) الموسوعة الفلسطينية ، ج١، ص٥٢٩.

([2]) عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص٨ ، علي محافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٤٤.

([3]) انظر صور مدرسي وخريجي المدرسة في ملحق الصور الملحق رقم٦.

([4]) عبد الحميد السائح: المرجع السابق، ص١٨ ؛ محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص١١٦ـــ ١١٨ ؛ علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٣٦.

([5]) محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص١١٧ـ ١١٨ ؛ شفيق حجا : المرجع السابق، ص٢٠٦ـ ٢٠٧.

على العقيدة الإسلامية كدافع لمحاربة الانتداب والاستيطان، والدعوة للجهاد ضد المستعمرين من اليهود والإنجليز، وهذا يدل على ضيق أفق المثقفين الفلسطينيين الذين اتخذوا من القومية العربية منهاجاً لمواجهة الأعداء، بعكس ما فعله الشيخ القسام في دعوته للجهاد في سبيل الله، وهذا الذي جعل الشعوب العربية عامة والإسلامية خاصة تنظر إلى ثورته نظرة إجلال واحترام.

كما نظمت حكومة الانتداب البريطاني إدارة المعارف في فلسطين على مبدأ المركزية الضيقة، فعينت على رأس هذه الإدارة مديراً عاماً بريطانياً يكون مسؤولاً أمام السكرتير العام لحكومة فلسطين. وكان المدير العام يضع سياسة التربية والتعليم في فلسطين، ويخطط لها بالشكل الذي يتفق وسياسية حكومة الانتداب(1).

واجهت المدارس الحكومية في فلسطين صعوبات مالية ضخمة؛ بسبب فقر البلاد، وما تعرضت له من دمار وخراب أثناء الحرب العالمية الأولى، ولقد أسهم الحكم العسكري البريطاني بتقديم بعض المعونات للجان التعليم المحلية؛ من أجل إعادة فتح المدارس الأولية. وطلب من كل قرية تود أن تفتح مدرسة أولية أن تجهز مبنى مناسباً، وأن تدفع ثلاثين جنية إسترليني لكل عام، مقابل أن يدفع الحاكم العسكري البريطاني مبلغاً مساوياً من المال على شكل راتب للمعلم. فأقبل الأهالي على فتح المدارس في المباني الحكومية العثمانية أو في ساحات الجوامع والمساجد في القرى، وبذلك استأنفت المدارس الأولية نشاطها، وبلغت نفقات التعليم في عامي ١٣٣٧ـ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩ـ١٩٢٠م ثلاثة وخمسين ألف جنيه إسترليني. وقامت إدارة المعارف في بداية عهدها بالاعتماد على المدارس الموجودة في فلسطين منذ أيام العهد العثماني، والتي كان عددها حوالي ١٧١ مدرسة، ضمت ١٠.٦٦٢ تلميذاً في فترة الحكم العسكري المباشر الذي استمر سنتين ونصف(2).

وعندما صدر صك الانتداب على فلسطين في٢٩ شوال ١٣٣٩هـ/ ٦ يوليو ١٩٢١م كانت تنص المادة الخامسة عشرة منه على أنه:"...يجب ألا تحرم أية طائفة كانت من حق صيانة مدارسها الخاصة لتعليم أبنائها بلغتها الخاصة، وألا تنتقص من هذا الحق ما دام ذلك مطابقا لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الإدارة"(3).

كان لهذه المادة أثرها في صياغة السياسة التعليمية في فلسطين فعندما قامت الإدارة المدنية محل الإدارة العسكرية في عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م تسلم مدير المعارف الإنجليزي مهامه، يساعده موظف بريطاني برتبة مساعد مدير، ومفتشان عربيان في المركز، وأربعة مفتشين في

---

(1) هشام نشابه: دراسات فلسطينية، مجموعة من الأبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م)، ص١٣٣.

(2) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٤٥.

(3) الوثائق الرئيسية...، الوثيقة ٢٧ ، ص١٣٤.

الألوية الأربعة للبلاد([1])، وفي عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م تولى منصب مساعد المعارف جورج أنطونيوس([2]) وهو أول عربي يتولى هذا المنصب([3]). وكان يساعد المدير العام للمعارف خمسة مساعدين هم:

١ـ المساعد الفني لشؤون المدارس: وهو المسؤول عن المناهج والبرامج والكتب المدرسية، كما يتولى إدارة الكلية العربية في القدس ويشرف على المدرسة الرشدية في القدس.

٢ـ المساعد الإداري: وهو المسؤول عن تعين المعلمين وصرفهم وترقيتهم، وعن الشؤون المالية والأبنية والتجهيزات المدرسية.

٣ـ مساعد مدير المعارف لشؤون التعليم المهني: وهو مركز لم يكن موجود في أول عهد الانتداب، لكنه استحدث في أخره لاهتمام بالمدارس المهنية القليلة وخصوصاً مدرسة حيفا الصناعية([4])، فقد أهملت حكومة الانتداب التعليم المهني العربي بينما كان اليهود يصرفون أكثر جهودهم للعناية بهذا النوع من التعليم.

٤ـ مساعد مدير المعارف لشؤون المدارس اليهودية: ويساعده سبعة مفتشين.

([1]) في عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م انقسمت فلسطين إلى أربع مناطق تعليمية هي:

١. منطقة القدس وشملت القدس والخليل ورام الله وبيت لحم وأريحا ومركزها الرئيسي القدس.
٢. المنطقة الجنوبية وضمت غزة ويافا والرملة وبئر السبع ومركزها يافا.
٣. منطقة نابلس وتضم نابلس وجنين وطولكرم ومركزها نابلس.
٤. منطقة الجليل وتضم حيفا وعكا والناصرة وطبرية وبيسان وصفد ومركزها حيفا.

أنظر الموقع على الانترنت: منتديا شبكة جنين http: jeninnet.net

([2]) جورج أنطونيوس(١٣١١ـ١٣٦١هـ/١٨٩٣ـ١٩٤٢م): باحث في تاريخ النهضة العربية الحديثة، لبناني الأصل من أهل دير القمر، ولد بالإسكندرية، وتعلم بها، درس الهندسة في جامعة كمبردج في انجلترا، عمل في بلدية الإسكندرية، ثم انتقل إلى القدس، موظفاً في إدارة المعارف، بعد الحرب العالمية الأولى كان يعمل مترجماً لبعض الوفود البريطانية، كما أنه كان من أمناء الوفد العربي لمؤتمر فلسطين في لندن عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م قام بجولة زار فيها بعض العارفين بتاريخ العرب الحديث، ودون ما عرفه منهم في تقرير كتبه الإنجليزية للمستر كرين، وجعله علي حيدر الركابي بعد ذلك كتاباً عربياً سماه"يقظة العرب" توفي بالقدس. أنظر الزركلي: الأعلام، ج٢ ، ص١٤٥.

([3]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٤٥.

([4]) مدرسة حيفا الصناعية: أنشأت هذه المدرسة في عام١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، وكانت تعلم عدداً من الحرف الفنية كنجارة والبرادة والحدادة وإصلاح السيارات وغيرها. وقد تخرجت من هذه المدرسة مجموعات صناعية خبيرة، وبلغ عدد طلابها عام١٣٦٥ـ١٣٦٦هـ/١٩٤٥ـ١٩٤٦م نحو ٦٩ طالباً. انظر:الموسوعة الفلسطينية،ج٢، ص٣٠٥.

٥ــ مساعدة مدير المعارف لتعليم البنات: ويساعدها في مهمتها مفتشة لمدارس البنات. وقد استحدث هذا المنصب في أخر سنين الانتداب أي بعد الحرب العالمية الثانية([١]).

وقد خصصت الإدارة المدنية البريطانية مبلغ قدره ٧٨ ألف جنيه إسترليني في ميزانية١٣٣٨ــ١٣٣٩هــ/١٩٢٠ــ١٩٢١م للإنفاق على التعليم([٢])، ثم دعت إدارة المعارف المواطنين إلى المساهمة في إقامة المدارس، فلبى المواطنون الدعوة بحماس شديد، مما أدى إلى زيادة عدد المدارس إذ بلغ عددها (٣١١) مدرسة عام ١٣٣٩ــ١٣٤٠هــ/١٩٢١-١٩٢٢م، وظل الوضع في ركود حتى عام ١٣٥٢هــ/ ١٩٣٣م؛ حيث عملت حكومة الانتداب على زيادة عدد المدارس عملاً بمقترحات لجنة التحقيق التي تقصت أحوال المدارس العربية العامة فارتفع عدد المدارس إلى (٣٨٤) مدرسة عام ١٣٥٤ــ١٣٥٥هــ/١٩٣٥-١٩٣٦م، ثم تبعها فترة ركود دامت حوالي سبع سنوات، ويعزى ذلك إلى تحمل المواطنين العرب القسم الأكبر من النفقات لبناء تلك المدارس، وكانت معظم تلك المدارس أولية وابتدائية، وكانت المدرسة الأولية يتولها معلم واحد وتضم مابين أربعين وستين تلميذاً([٣]).

وفيما يلي جدول يبين الزيادة الحاصلة في عدد المدارس والتلاميذ والمعلمين في فلسطين([٤]):

السنة الدارسية	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلاميذ الذكور	عدد التلميذات الإناث	مجموع التلاميذ
١٩١٤/١٩١٥م	٩٨	٢٣٤	٦٨٤٨	١٤٠٠	٨٢٤٨
١٩١٩/١٩٢٠م	١٧١	٤٠٨	٨٤١٩	٢٢٤٣	١٠٦٦٢
١٩٢٠/١٩٢١م	٢٤٤	٥٢٥	١٣٦٥٦	٢٧٨٦	١٦٤٤٢
١٩٢١/١٩٢٢م	٣١١	٦٣٩	١٦٦٠٦	٣٠٣٣	١٩٦٣٩
١٩٢٢/١٩٢٣م	٣١٤	٦٧٢	١٦٠٤٦	٣٢٨٥	١٩٣٣١
١٩٢٣/١٩٢٤م	٣١٤	٦٨٥	١٥٥٠٩	٣٦٥٥	١٩١٦٤
١٩٢٤/١٩٢٥م	٣١٥	٦٨٧	١٦١٤٧	٣٧٣٤	١٩٨٨١

([١]) هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٣٣.

([٢]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية...، ص٤٥.

([٣]) علي محافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٤٨ ؛ الموقع على الانترنت: مركز معلومات وإعــلام المــرأة : http://www.pwic.org.ps.

([٤]) علي محافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٤٨.

١٩٢٦/١٩٢٥م	٣١٤	٦٨٧	١٦١٤٦	٣٥٩١	١٩٧٣٧

وبالرغم من تلك الزيادة في عدد المدارس، فقد ظل القسم الأكبر من أبناء عرب فلسطين الذين كانوا في سن الدراسة الابتدائية محرومين من التعليم؛ نتيجة لسياسة دائرة المعارف ــ والتي كانت تشرف عليها سلطات الانتداب ــ التي كانت ترفض العدد الأكبر من طلبات الالتحاق بالمدارس، فقد وقفت سلطات الانتداب البريطاني في وجه تعليم الفلسطينيين(١).

إن هذا يوضح الفرق بين سلطات الانتداب الفرنسي والبريطاني فالفرنسيون كانوا يعملون على تغير المجتمع عن طريق التعليم، وذلك بغزوهم فكرياً عن طريق المدارس، وفي ذلك تنفيذ لمخططهم الصليبي الذي رسمه لهم لويس التاسع(٢) عندما فشل في الحملة الصليبية السابعة، وقد نفذ هذا المخطط الفرنسيون بالتدريج عن طريق المطابع التي أنشؤوها في مصر والشام والتي كانت تهدف إلى نشر الأفكار التنصيرية بين المسلمين.

أما الإنجليز فقد ركزوا في فترة انتدابهم على فلسطين على بناء الدولة الصهيونية وتوطيد أركانها، ولم يهتموا بتعليم العرب، وهذا هو الواضح في نص وعد بلفور، وذلك عندما يشيروا إلى العرب بقولهم:" الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين"(٣)، فعلى الرغم من أنهم أهل البلاد الأصليين إلا أن الإشارة إليهم في نص الوعد كان هامشياً، وحتى عندما عملت سلطات الانتداب البريطاني في تطبيق وعد بلفور في فلسطين كان التعامل مع الفلسطينيين قائماً على أساس تهميش عرب فلسطين عامة والمسلمين منهم خاصة.

---

(١) صبحي غوشة : المرجع السابق ج١ ، ص٢٣ ؛ الموقع على الانترنت: مركز معلومات وإعلام المرأة : http://www.pwic.org.ps

(٢) لويس التاسع (٦١١ــ ٦٦٨هــ/١٢١٤-١٢٧٠م): هو قائد الحملتين الصليبيتين السابعة على مصر ٦٤٨هــ/١٢٥٠م، و الثامنة على تونس ٦٦٨هــ/١٢٧٠م واللتان فشلتا، فقد أسر لويس التاسع في المنصورة سنة ٦٤٨هــ/١٢٥٠م أثناء قيادته للحملة الصليبية السابعة، وفي منفاه عكف لويس التاسع على كتابة وصيته والتي حدد فيها الأسباب التي أدت لهزيمته والتي وضح فيها السبيل لمهاجمة المسلمين والانتصار عليهم عن طريق محاربتهم في عقيدتهم وغزوهم فكرياً وأن يترافق هذا مع الغز العسكري، لأن العقيدة الإسلامية توجب على المسلمين المواجهة والمقاومة والجهاد وبذل النفس والدم الرخيص في سبيل حماية العرض والأرض، وأنه مع وجود هذا المعنى عند المسلمين فمن المستحيل السيطرة عليهم، لذلك لا بد من إيجاد سبيل آخر من شأنه أن يزيف هذا المفهوم عند المسلمين، حتى يصبح مفهوماً أدبياً ووجدانياً وإيجاد ما يبرره، ويقلل من خطورته، وأن ذلك لا يتم إلا بالتركيز على الفكر الإسلامي وتحويله حتى يستسلم المسلمون أمام بقاء القوة الغربية وتروض أنفسهم على تقبلها على نحو من اتجاه الأهواء والصداقة والتعاون. أنظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر، (مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، ط٣، ١٤١١هــ/ ١٩٩٠م)، ص١٩٦ ؛ المنجد، ص٥٠١.

(٣) الوثائق الرئيسة، الوثيقة رقم ٢٤، ص ٧٨ ؛ W.T. Mallison , Jr : The Balfour Declaration, (An Appraisal in International Law, 1973),p. 60

والدليل على ما ذكرنا أنه لم يكن لأي عربي أي صلاحيات تذكر في توجيه سياسة التعليم أو التخطيط لها. فنظام التعليم التربوي بالنسبة للعرب كان مبنياً على الطاعة المطلقة للأوامر، ومنع أي تجديد، لذلك فإن ما حققه المربون العرب في فلسطين خلال عهد الانتداب يستحق التقدير والاحترام، لأنهم كانوا في أوضاع صعبة جداً، فطلباتهم لم تكن تلبى، إلا بعد بذل جهود مضنية مع المسؤولين الإنجليز. أما المدارس اليهودية، فقد كانت تتمتع بحرية واسعة في توجيه سياستها التعليمية والتخطيط لها، بحيث تستجيب لحاجات المجتمع اليهودي وخططه السياسية والاجتماعية، وقد كانت المدارس اليهودية شبه مستقلة، وبعيدة عن إشراف الدولة المنتدبة، حتى أن مساعد مدير إدارة المعارف ومفتشيه كانوا جميعاً يهود([1]).

إن حكومة الانتداب رصدت ميزانية قليلة للغاية لدار المعارف الخاصة بتعليم العرب في فلسطين، إذ لم تتجاوز ١٦٠٤ جنيه إسترليني، مما أثر بشكل سلبي على التعليم، كما أشرفت سلطات الانتداب البريطاني على دار المعارف، ورفضت حكومة الانتداب طلب القيادات العربية بالسماح للعرب الفلسطينيين الإشراف على دار المعارف الخاصة بتعليم المواطنين العرب على غرار إشراف اليهود على دار المعارف اليهودية، فقد كانت المناهج التي تدرس للطلبة العرب من دار المعارف غير ملائمة للبيئة الفلسطينية، خاصة في مادتي التاريخ والجغرافيا؛ حيث أدت هذه المناهج إلى قلة معرفة الطلبة العرب بجغرافيا فلسطين وتاريخها، وسمحت للعرب فقط بتكوين لجان معارف المدن والقرى تكون مهمتها المساعدة في جمع التبرعات لبناء المدارس لا غير([2]).

وفي ظل الانتداب البريطاني تحولت المدارس الإسلامية الخاصة إلى مدارس حكومية؛ بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني منه هذه المدارس، وكانت لوقفة المجلس الإسلامي الأعلى([3]) في فلسطين خطوة مشرفة في الوقوف إلى جانب هذه المدارس وبعث الحياة فيها، كما أنه وضع الكتاتيب المتبقية في البلاد تحت إشرافه، وغير من مناهجها بحيث يسهل على

([1]) هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٣٦.

([2]) علي محافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٤٩ ؛ الموقع على الانترنت: مركز معلومات وإعلام المرأة : http://www.pwic.org.ps

([3]) المجلس الإسلامي الأعلى: تأسس المجلس بناءً على طلب المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث في حيفا في ربيع الآخر ١٣٣٨هـ/يناير ١٩٢٠م من المندوب السامي البريطاني لتأليف مجلس شرعي إسلامي يتولى شؤون أوقاف المسلمين ومؤسساتهم الدينية، وقد تم تأسيس المجلس في عام١٣٤٠هـ/١٩٢٢م لإدارة المحاكم الشرعية والأوقاف والشؤون الإسلامية، وعين الحاج محمد أمين الحسيني رئيساً للمجلس. وقد قام المجلس بتنظيم شؤون الأوقاف وافتتح كلية إسلامية ومدارس في مختلف أنحاء فلسطين. أنظر: الموسوعة الفلسطينية ، ج٤، ص٨٧ـ٨٨.

تلاميذها الانتقال إلى المدارس الحكومية([1]). ولم يكن الطالب الذي يتخرج من المدارس الحكومية يستطيع الاستمرار في الدراسة للحصول على الشهادات العليا في الطب والهندسة وغيرها بسبب ضعف التعليم وعدم وجود صفوف ثانوية عليا، وكانت المدارس الأجنبية هي المؤهلة الوحيدة لهذا النوع من الدراسة ومن أشهر المدارس الأجنبية في ذلك الوقت كانت مدرسة المطران في القدس([2]).

ولمواجهة هذا الطغيان البريطاني والتجني على التعليم كان المجلس الإسلامي الأعلى يقدم المساعدة لمدرستي "روضة المعارف" في القدس ومدرسة "النجاح" في نابلس، ويعمل على فتح دروس دينية في جامع الجزار في عكا. كما حافظ على مدرسة "الفلاح" في غزة، ومدرسة "دار العلوم" في يافا. وأنشأ مدرسة للفنون للأيتام في القدس احتوت على صفوف ابتدائية وعالية وفروع مهنية كالتجارة والطباعة وتجليد الكتب والخياطة ونسج السجاد وصناعة الخزف. وقامت إلى جانب المجلس الإسلامي الأعلى مؤسسات عربية أخرى تولت إنشاء المدارس الخاصة، مثل الجمعية الإسلامية في حيفا وجمعية يافا المحلية، أما المدارس الخاصة المسيحية فكانت في معظمها مدارس تنصيرية([3]).

مراحل الدراسة زمن الانتداب البريطاني كانت تبدأ في صف بستان الأطفال ومدته سنة واحدة، ثم تتدرج إلى المرحلة الابتدائية ومدتها سبع سنوات، ثم الثانوية ومدتها أربع سنوات، وكان عدد الطلبة الذين يتممون المراحل الدراسية جميعها قليل جداً. فبعد إنهاء المرحلة الثانوية يلتحق بعض الطلاب بأحد المعاهد العالية، وكانت اثنين للبنيين واثنين لبنات. أما معهدا البنيين فهما : الكلية العربية والمدرسة الرشدية. ومعهدا البنات هما كلية المعلمات في القدس، ومركز تدريب المعلمات الريفي في رام الله([4]).

أما من جهة التعليم العالي فقد وقفت حكومة الانتداب في وجه إقامة جامعة عربية في فلسطين يطلق عيها اسم "جامعة المسجد الأقصى" حتى تقف في وجه "الجامعة العبرية" التي سهلت حكومة الانتداب لليهود إنشائها في القدس، وكانت حكومة الانتداب ترى في هذه الجامعة ـ التي طالب بها المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس في ليلة الإسراء والمعراج ٢٧ رجب ١٣٥٠هـ/ديسمبر ١٩٣١م ـ أنها مشروع حضاري تعليمي إنساني، معارضاً لسياسة انتدابها

([1]) علي محافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٤٩ـ٥٠.

([2]) صبحي غوشة : المرجع السابق ج١ ، ص٢٣ـ٢٥.

([3]) علي محافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٤٩ـ٥٠.

([4]) الموسوعة الفلسطينية ، ج١، ص٥٣٣.

على فلسطين، على الرغم من أن الزعماء العرب في المؤتمر الإسلامي جمعوا التبرعات لإنشاء هذه الجامعة إلا أن حكومة الانتداب قضت على هذا المشروع قبل أن يبدأ([1]).

وبالمقابل فقد شجعت سلطات الانتداب البريطاني التعليم وإنشاء المدارس والجامعات اليهودية التي كانت مستقلة عن الحكومة، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تحصل على الكثير من المساعدات المالية من الحكومة، كما كان يحصل الطلاب اليهود على المنح والمساعدات المدرسية من الدولة المنتدبة، وكانت ميزانية التعليم ترتفع تلقائياً؛ لتأمين المساعدات للمدارس اليهودية([2]). وقد اقتصر التعليم العالي للفلسطينيين على بعض المعاهد العليا، حيث قامت حكومة الانتداب بفتح بعض المعاهد لتدريب المعلمين والمعلمات، وذلك لتخريج كوادر من المعلمين والمعلمات القادرين على التعليم باللغة العربية([3]). وهكذا نجد أن تعليم اليهود يجد من حكومة الانتداب البريطاني كل دعم وعون ومساعدة مادية ومعنوية، كل ذلك من أجل محاربة الإسلام وعلومة، ومحاولة القضاء على الهوية الاسلامية بين صفوف الشعب الفلسطيني المسلم.

المعاهد والكليات في ظل الانتداب:

أ ــ الكليات ودور المعلمين للبنيين:-

ــ المدرسة الرشدية: تأسست في عهد السلطان عبد الحميد عام١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، وخلال عهد الانتداب أخذت المدرسة الرشدية تنمو وتتطور حتى غدت من أحسن المدارس الحكومية في فلسطين. وكانت أولية وفيها قسم ثانوي. ثم زاد التعليم فيها عن الثانوي بسنتين أخريين فصارت تؤهل خريجيها الحاصلين على شهادة الثانوية العامة لدراسة الطب والهندسة بدراسة مواد خاصة تحضيرية، وقد استمرت هذه المدرسة قائمة حتى آخر عهد الانتداب، وتخرج منها العديد من التلاميذ العرب، الذي كانوا على مستوى عالي من الثقافة([4]).

ــ الكلية العربية([5]): وعرفت بـ"دار المعلمين"([6]) وقد أسست في القدس عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م، وكانت بنايتها مستأجرة حتى عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م؛ حيث تم نقلها إلى مقرها الجديد، وكانت الغاية من إنشائها إعداد المعلمين للعمل في المدارس الابتدائية وبعض الصفوف الثانوية([7])، ومما يميز الكلية العربية أنها عنيت بتدريس العلوم والرياضيات وغيرها باللغة

([1]) حسن صبري الخولي: المرجع السابق، ج١، ص٥٠٩ــ٥١٠.

([2]) هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٣٧ــ١٣٨.

([3]) الموسوعة الفلسطينية ، ج١، ص٥٢٣.

([4]) الموسوعة الفلسطينية ، ج٤، ص١٧١ ؛ هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٣١.

([5]) انظر صور لخرجي الكلية في ملحق الصور الملحق رقم٧.

([6]) لمزيد من المعلومات عن الكلية العربية انظر: هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٣٨ــ١٥٣.

([7]) الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٦٦٠.

العربية، وكان يلتحق بالكلية الطلاب العرب من المسلمين والمسيحيين، أما اليهود فكانوا يفضلون الالتحاق بالمدارس الخاصة بهم، لأنهم كانوا يعدون طلابهم بطريقة تتوافق مع أهدافهم القريبة والبعيدة، مما جعلهم يعزفون عن الالتحاق بدار المعلمين، التي لم تضم سوى طالب واحد يهودي([1]).

ــ الكلية الإبراهيمية: أنشئت هذه الكلية في القدس سنة١٣٥٠هـ/١٩٣١م([2])، أطلق عليها اسم المدرسة الإبراهيمية ؛ تيمناً بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهي مدرسة متكاملة الصفوف، وفي عام ١٣٦٠ــ١٣٦١هـ/ ١٩٤١ــ١٩٤٢م أصبح اسمها "الكلية الإبراهيمية" وكانت داخلية وخارجية، وبلغ عدد طلابها قرابة ١٣٠٠ طالب، وقد تخرج منها كثيرون برزوا في مختلف ميادين الحياة الثقافية والإدارية والاقتصادية والسياسية، تعرضت الكلية بعد عام النكبة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م لهزة عنيفة، لكنها ماتزال صامدة في وجع الاستعمار حتى الآن([3]).

ب ــ أما الكليات ودور المعلمات فكانت كالتالي:-

١- **كلية دار المعلمات:** تأسست في القدس عام ١٣٣٧هـ/١٩١٩م في بنايات مستأجرة غير مناسبة، وظلت فيها في نهاية الانتداب، والقسط السنوي لدار المعلمات ٢٤ جنيهاً فلسطينياً، مثلها في ذلك مثل الكلية العربية، وفيها أربع سنوات ثانوية وسنة لإعداد المدرسات للتدريس في المدارس الابتدائية. وكان فيها ٢٣ طالبة عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، وفي عام١٣٤٢ــ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤ – ١٩٢٥م ضمت ٥٤ طالبة، ثم زاد العدد إلى ١٠٤ طالبة في العام الدراسي ١٣٦٤ــ ١٣٦٥هـ/١٩٤٥ – ١٩٤٦م، منهن ١٥ طالبة في السنة الأخيرة. وكان منهن ٧٠ في القسم الداخلي والباقي خارجيات، وكانت دار المعلمات _ شأنها في ذلك شأن مدارس البنات – تعلم التدبير المنزلي وأشغال الإبرة والخياطة. وكانت مجهزة بما يلزم من أدوات الطبخ والخياطة وغيرها، وأما مديرة الدار وهي إنجليزية- فكانت في الوقت نفسه مفتشة مدارس البنات في البلاد. وبلغ عدد خريجات كلية دار المعلمات منذ تأسيسها حتى نهاية العام الدراسي ١٣٦٤ ١٣٦٥هـ/١٩٤٥-١٩٤٦م أكثر من (٣٠٠) خريجة يشكلن معظم معلمات مدارس البنات في المدن([4]).

٢- **دار المعلمات القروية:** تأسست هذه المدرسة في شعبان ١٣٥٤هـ/نوفمبر ١٩٣٥م في مدينة رام الله، وكانت تعد طالباتها للتدريس في مدارس البنات الريفية، وتقدم لهن التعليم والمسكن والطعام بالمجان. وكانت في الأصل تشمل سنتين دراسيتين بعد مرحلة

([1]) هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٣٨.

([2]) للمزيد من المعلومات حول هذه الكلية انظر: صبحي غوشة : المرجع السابق ج١ ، ص١٣ــ٢١.

([3]) الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص٦٥٩ ؛ هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٣٢ــ١٣٣.

([4]) الموقع على الانترنت: مركز معلومات وإعلام المرأة : http://www.pwic.org.ps

التعليم الابتدائي، فكان يقبل فيها من أتممن دراستهن الابتدائية. وكانت لغة التدريس في هـذه المعاهد هي اللغة العربية([1]).

وهناك دور معلمات غير حكومية نذكر منها كلية البنات في القدس، أسستها الإرساليات البريطانية الإنجيلية في١٣٣٨هـ/١٩٢٠م وكان أغلبية طالباتها فلسطينيات مسلمات ومسيحيات. وكلية شميدت للبنات في القدس التابعة لبعثة الألمان الكاثوليكية، وبلغ عدد خريجاتها عام١٣٦٥هـ/١٩٤٦م عشر معلمات([2]).

أما أهم المشكلات التي تعرض لها التعليم خلال فترة الانتداب البريطاني فهي انتشار الأمية ؛ حيث لم تحل مشكلة الأمية بل بقيت بين المواطنين العرب كما كانت في فترة العهد العثماني، وخصوصاً بين أصحاب القرى؛ حيث اقتصر التعليم الثانوي والعالي على أبناء العائلات الغنية والتي لها نفوذ سياسي. كما كانت أبنية المدارس غير مناسبة كأماكن علم، مما أثر على صحة الطلبة والطالبات ومستواهن العلمي([3]).

لكنه على الرغم من كل الصعوبات التي واجهت التعليم العربي في فلسطين إلا أنه كان متفوقاً على التعليم اليهودي، الذي تفوق في حقل التعليم الزراعي والصناعي([4])، ولو قدر لفلسطين أن تبقى بأيدي العرب، ولم يسلط عليهم الاستعمار البريطاني والصهيوني، لأصبحت من أفضل الدول العربية من الناحية العليمة؛ نظراً لموقعها المتميز، ولمكانتها الدينية العالمية، ولهمة أهلها العالية التي كانت تحارب أعداءها البريطانيين والصهاينة، من أجل لقمة العيش وتعليم أبنائها، حتى يتمكنوا من بناء مجد وطنهم المسلوب في المستقبل، لكن الاستعمار سلب أهل البلاد أرضهم ومستقبلهم بحيث أصبح أهل البلاد الأصليين مواطنين من الدرجة الثانية، والمستوطنون المستعمرون هم المسيطرون على كل مرافق الحياة العلمية والعملية بمساعدة الدول الأوربية.

ونلاحظ هنا أنه من خلال استعراضنا لمسيرة التعليم في فلسطين، هو قيام عدد من المدارس والكليات للبنين والبنات في ظل الانتداب البريطاني، كما ارتفعت نسبة المتعلمين نسبياً بين العرب، ولكن وفق شروط محدده ؛ وهو أمر غير مستغرب من قبل القائمين على الانتداب، لأن البريطانيين كانوا يعملون على استغلال المتعلمين ويستخدمونهم في الأعمال الإدارية لسد

([1]) الموقع على الانترنت: مركز معلومات وإعلام المرأة : http://www.pwic.org.ps

([2]) وليد الخالدي: قبل الشتات، ص١٦٣.

([3]) وليد الخالدي: قبل الشتات، ص١٦٣ ؛ الموقع على الانترنت: مركز معلومات وإعلام المرأة : http://www.pwic.org.ps

([4]) هشام نشابه: المرجع السابق، ص١٥٣.

العجز وليوفروا عليهم العديد من الموظفين الإنجليز الذين عادة ما تدفع لهم رواتب باهظة تبلـــغ أضعاف ما تدفعه للفلسطيني المتعلم([1]).

وأصبح لليهود في فلسطين إدارة معارف تشرف على المدارس اليهودية، مما أتـــاح لهـــم إنشاء جيل له ملامحه اليهودية الخاصة ؛ حيث كانت جميع المدارس اليهودية مـــدارس خاصـــة وهي مستقلة عن إدارة الحكومة. وقد كان لليهود نحو ١٣٧ مدرسة في سنة ١٣٣٩هــ/١٩٢١م فيها ٥٢٣ معلماً و ١٢.٨٣٠ طالباً. وفي عام١٣٦٤هــ/١٩٤٥م أصبح عدد المدارس اليهوديـــة في فلسطين ٥٧٣ مدرسة([2]). و٨٣% من أبناء اليهود في فلســطين يتعلمــون فـــي المـــدارس اليهودية، ويندر أن يدخلوا المدارس الأجنبية، والمدارس اليهودية في فلســطين متنوعـــة فتجـــد المدرسة الدينية التي تشبه الكتاتيب المعروفة عند العرب ولا تعلم سوى التلمود([3]) والتوراة على الأصول القديمة، وكما توجد مدرستان ثانويتان إحداها في القدس والأخرى في يافا يختلط فيهـــا الشبان والشابات، كما أن لليهود مدرسة صناعية في حيفا، ودار معلمات في يافا، ودار معلمـــين في القدس، ولليهود مدرسة نيتر الزراعية التي تأسست في النصف الأخير مـــن القـــرن التاســـع عشر الميلاديوفيها ١٠٠ طالب، وكانت تابعة لجمعية الاتحاد الإسرائيلي(الاليانس)، ثـــم ألحقـــت بالجمعية الصهيونية، كما لليهود مدرسة تجارية في يافا وثلاث مـــدارس للموســـيقى ومدرســـة للفنون الجميلة في القدس. ولغة التعليم في جميع هذه المدارس هي اللغة العبرية ومناهجها تشـــبه مناهج مدارس وسط أوربا مع تعديل طفيف، وهم يشددون إلى حد الإفراط في الاهتمـــام بتعلـــيم جغرافية فلسطين وتاريخها اليهودي([4]). لتشويه صورة التاريخ والجغرافية الحقيقيـــة ومحاولـــة جعل وجود لهم في أرض فلسطين، بالرغم من أنهم شعب نزح مـــن أوربـــا وإغتصـــب أرض فلسطين العربية الإسلامية منذ أقدم العصور وجعلوا من الديانة اليهودية قومية وتعصبوا لها.

([1]) عاطف فؤاد: المرجع السابق، ص١٩٨.

([2]) إبراهيم رضوان الجندي: سياسة الانتداب البريطانية الاقتصادية في فلسطين ١٩٢٢ــ١٩٣٩م، (دار الكرمـــل ، عَمان ، ١٩٨٦م)، ص٥٢ ؛ سميح شبيب: المرجع السابق، ص٩٥ ؛ محمد كرد علي: المرجـــع الســـابق، ج٣، ص٢٢٠ــ٢٢١.

([3]) التلمود: كلمة عبرانية تعني التعليم مشتقة من "التلمذة" ويعتبر التلمود "السنّة" في الشريعة اليهودية، أو التـــوراة الشفهية التي نطق أو عمل بها كبار الأحبار ويتضمن التلمود مجموعة من القوانين والأحكام والوصاية السياسية والحقوقية والمدنية والدينية عند اليهود، مع شروحها التي كان يتم تداولها بين رجال الدين وأتباعهم فـــي بـــادئ الأمر مشافهة. وبعد ان تضخمت واتسع نطاقها بتزايد شروحها والإضافات عليها وأصبح من المتعذر الاعتمـــاد على المشافهة قام مجموعة من الأحبار اليهود بتدوينها فظهر التلمـــود. أنظـــر: الموســـوعة الفلســـطينية، ج١، ص٥٧١ــ٥٧٣.

([4]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص٢٢٠ــ٢٢١.

وكانت المدارس الأجنبية واليهودية تقيم احتفالاتها تحت رعاية المندوب السامي البريطاني، بينما كانت المدارس الوطنية العربية والإسلامية تقيم احتفالاتها تحت رعاية الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس اللجنة العربية العليا، وذلك رداً على المدارس الأجنبية، وكانت هذه الاحتفالات تتحول إلى مهرجان شعبي تلقى فيه الكلمات الوطنية، وتنشد الأناشيد الوطنية ويجري فيها استعراض الكشافة، والمسابقات الرياضية، ويقوم المفتي في نهاية الحفل بتسليم الكأس للفائزين([1]).

ومجموع ما أنفقته إدارة المعارف الصهيونية سنة١٣٣٨هـ/١٩٢٠م ١٢٠ ألف جنيه، بمعدل تسعة جنيهات لكل تلميذ وهو معدل باهظ جداً([2])، لكن ميزانيتهم كانت تتناقص إلى أن بلغت ٨٠ ألف جنيه رغم ازدياد الطلاب. وقد ساءت الحالة المالية وامتنعت إدارة المعارف الصهيونية عن دفع رواتب المعلمين، فتذمروا وهددوا بالإقلاع عن العمل، فلم يجدوا آذاناً صاغية فأضربوا عن العمل شهراً كاملاً حتى استجابت وزارة المعارف لطلباتهم، والرسوم في المدارس اليهودية عالية جداً؛ حيث يدفع الطالب في المدرسة الثانوية ما يقارب العشرين جنيهاً سنوياً لقاء التعليم فقط، وقد أسس اليهود أوبرا([3]) إسرائيلية إلا أن الإقبال عليها كان قليلاً لكون لغتها عبرية([4]).

وفي القدس استطاعت شركة تطوير أراضي فلسطين اليهودية شراء ١٩٢دونم من الأراضي سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٨م على جبل الطور؛ حيث أقيمت الجامعة العبرية([5]) في عام١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، وكان حفل افتتاح هذه الجامعة كارثة سياسة وثقافية على فلسطين وبلاد الشام، وكانت من أسباب قيام الثورة السورية عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، كما رأينا في الفصل السابق، بسبب زيارة الوزير بلفور صاحب الوعد المشؤوم لفلسطين ودمشق، حيث طلب مدير

([1]) صبحي غوشة : المرجع السابق ج١ ، ص١٩.

([2]) أننا نلاحظ مدى اهتمام الصهاينة في دار المعارف اليهودية بالإنفاق على التعليم، بينما نجد أن دار المعارف الخاصة بتعليم العرب والتي كانت تشرف عليها سلطات الانتداب البريطاني كانت شحيحة جداً في الإنفاق على تعليم العرب إذ لم تتجاوز ميزانية التعليم في عام١٣٤٤هـ/١٩٢٥م ١٦٠٤ جنيه إسترليني أي ما يعادل أربع شلنات للتلميذ الواحد. أنظر: علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٤٩.

([3]) أوبرا Opera : اسم يطلق على المسرحية الملحنة، وعلى مسارح عزفها، نشأت في إيطاليا في الخامس عشر الميلادي. انظر: المنجد ، ص٨٠.

([4]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص٢٢١.

([5]) حاول اليهود في عهد السلطان عبد الحميد الثاني إنشاء الجامعة العبرية في القدس ؛ حيث عرض هرتزل هذا المشروع على السلطان عبدالحميد في ٢٥ محرم١٣٢٠هـ/٣ مايو١٩٠٢م، لكن السلطان رفض لإدراكه للأهداف الصهيونية من وراء إنشاء هذه الجامعة. أنظر: عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية..، ج٢، ص٩٩٤ـ٩٩٥ ؛ محمود منسي: تصريح بالفور، ص٢٧.

الأمن العام البريطاني من وزير المستعمرات تشرشل إلغاء زيارة بلفور لفلسطين ودمشق، لكــن تشرشل رد بكل وقاحة بقوله:"حان للعرب أن يفهموا أن اليهود أصبحوا سادة في بلادهم أحــراراً في وطنهم"([1]). من هذا الرد تظهر السياسة البريطانية الرامية إلى تهويــد فلســطين، وتشــريد الشعب الفلسطيني، وإخراجه من أرضه ووطنه بجميع الطرق المشــروعة وغيــر المشــروعة؛ لتحقيق الوعد المشؤوم،ولخدمة مصالحها وأطماعها الاستعمارية في البلاد العربية.

لقد كانت الأرض التي بنيت عليها الجامعة العبرية ملكاً لأجانب يقيمون خارج القدس، فقد كان الصهاينة يعملون على شراء الأرضي من العائلات غير الفلسطينية (عربية أوأجنبية) التــي كانت تسكن خارج فلسطين([2]) لتنفيذ مخططهم الصهيوني في الاستيلاء على الأرض الفلســطينية بالشراء أو الاغتصاب والسلب في مخطط لابعاد أصحاب الأرض الحقيقيين من الفلسطينيين عن أرضهم، وقد زادت هذه العملية وتوسعت في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين الذي ســبب كارثة عظيمة لازالت الأمة العربية تعاني من نتائجها السيئة على الفلسطينيين.

ثانياً: الصحافة :

قبل أن نخوض في الحديث عن الصحافة في فلسطين علينا أن نشــير إلــى أهــم أدوات الصحافة وهي الطباعة وكيف دخلت إلى فلسطين؟ فالمطابع هناك تصنف إلى ثلاثــة أصــناف هي:

١ــ مطابع الأديــرة: "مطبعــة الآبــاء الفرنسيســكان([3]) " أنشــأت فــي القــدس عــام ١٣٦٣هــ/١٨٤٧م وهي أول مطبعة دخلت فلسطين، وكانت تطبع الكتــب العربيــة والتركيــة والأرمنية والعبرية واليونانية وغيرها من اللغات الأوربية. ثــم أنشــأت "مطبعــة ديــر الــروم الأرثوذكس" في عام١٢٦٥هــ/١٨٤٩م في القدس، وكانــت معظــم مطبوعاتهــا كتــب دينيــة ومدرســية. "المطبعــة الإنجليزيــة" أنشــأتها جمعيــة المرســلين الكنســية فــي القــدس عام١٢٩٦هــ/١٨٧٩م، وكانت تطبع الكتب الدينية باللغة العربية، "مطبعة دير الأرمن" أنشــأت

([1]) فكتور مارسدن: المرجع السابق، ص٤٥٧.

([2]) رفيق شاكر النتشه: السلطان عبد الحميد، ص١٩٠ــ١٩١.

([3]) الآباء الفرنسيسكان: هم من أهم البعثات التتصيرية الفرنسية فهي رهبانية أسســها فرانســيس الأســيزي عــام ٦٠٧هــ/١٢٤٤م وجعل الفقر أساساً لحياتها فهي تعيش على التسول، انصرف رهبانها إلى التعلــيم والتنصــير، ويطلق على رهبانهم في الشرق اسم حراس الأراضي المقدسة، وهم من أشهر الجمعات التنصيرية ولهم نشــاط واسع في العالم. انظر: يسرى حنفي: المرجع السابق، ج٢، ص٣٩٢ ؛ يوسف العتيبي: المرجع السابق، الحاشية (*)، ص٢٩٥.

في دير الأرمن الغريغوريين في القدس عام١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، ولم تطبع سوى الكتب الأرمنية والتركية([1]).

ونلاحظ أن معظم هذه المطابع كانت أجنبية، لكنها كانت تنشر كتبها باللغة العربية؛ لأنها كانت تهدف إلى استقطاب العرب ونشر التنصير بينهم خاصة وأن أغلب مطبوعاتها كانت دينية، وأن هذه الخطة التي اتبعها الأوربيون من أجل التمهيد لاستعمار بلاد الشام، لأنها كانت تستقطب أبناء البلاد الأصليين للدراسة في مدارسها، لذلك كانت تعمل على طبع كتبها بالعربية على الرغم من أنها مطابع أجنبية، وهذا دليل على أن هذه المطبوعات كانت موجهة للعرب، وليس للأجانب.

٢ــ المطابع الخاصة: انتشرت المطابع في فلسطين، فبينما اهتمت مطابع الأديرة بطباعة الكتب الدينية والمدرسية التي توزع على المدارس التابعة لها، فقد اهتمت المطابع الخاصة في فلسطين بطباعة الصحف والمجلات والكتب الأدبية وتركزت هذه المطابع في ثلاث مدن هي: القدس ويافا وحيفا. ففي القدس تأسست مطبعة مبارك لاسفو ومطبعة دوميان وإخوانه عام ١٣٠٩هـ/١٨٩٢م، ومطبعة جورج حبيب حنانيا([2]) عام١٣٣١هـ/١٨٩٤م، والتي كانت تطبع "صحيفة القدس" منذ عام١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ومطبعة بندلي إلياس مشحور، التي استمرت حتى عهد الانتداب، وكانت تعتبر من أجمل مطابع القدس وأجودها، ومطبعة "صحيفة النجاح"، ومطبعة إيليا زكا صاحب "صحيفة النفير" التي انتقلت فيما بعد إلى حيفا. أما في يافا فقد وجدت مطابع صحيفتي "فلسطين" و"الأخبار"، ومطبعة صحيفة "صوت العثمانية"، ومطبعة الونزو التي كانت تطبع "صحيفة الترقي". أما في حيفا فقد وجدت مطبعة "الكرمل" لصاحبها نجيب نصار([3]) صاحب صحيفة"الكرمل"([1]).

([1]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٥٩ــ٦٠.

([2]) جورج حبيب حنانيا(١٢٧٣ــ١٣٣٨هـ/١٨٥٧ــ١٩٢٠م): من أوائل المحررين وأصحاب المطابع في فلسطين، ولد في يافا، وتلقى تعليمه في مدرسة المطران، كان من رواد الأندية الثقافية ومن المؤيدين لزوال الحكم العثماني، أسس مطبعة في القدس١٣١١هـ/١٨٩٤م، أصدر صحيفة القدس سنة١٣٢٦هـ/١٩٠٨م كانت من أوائل الصحف الأدبية الاجتماعية الإخبارية، وكانت ترسل لأبناء الجالية العربية في المهجر للإطلاع على أخبار الوطن. عمل معه في تحري الصحيفة خليل السكاكيني ومحمد إسعاف النشاشيبي وعلي الريماوي، استمر حنانيا في إصدار صحيفته حتى مطلع الحرب العالمية الأولى، حيث بيعت مطبعته في المزاد العلني من قبل بنك فلسطين الألماني الذي كانت مرهونه لديه، مما أضطره لترك القدس إلى الإسكندرية بسبب الضائقة المالية التي ألمت به. انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٩٧ــ٩٨.

([3]) نجيب نصار(١٢٨٢ــ١٣٦٧هـ/١٨٦٥ــ١٩٤٨م): أحد رواد مناهضة الصهيونية في الصحافة العربية في فلسطين، ولد بلبنان، أطلع سنة١٣٢٣هـ/١٩٠٥م على بحث "الصهيونية" في الموسوعة اليهودية فدرسها وبدأ حملة للتعريف بحقيقتها مطامعها، أنتقل إلى حيفا سنة١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وأسس فيها صحيفة "الكرمل". وقد نبه

٣ــ **المطابع اليهودية:** اقتصرت هذه المطابع على طباعة الكتب العبرية. وأقدم المطابع اليهودية مطبعة نسيم باق التي أنشئت عام ١٢٤٥هــ/١٨٣٠م، وتلاها مطبعة جمعية لندن([2]) لانتشار الإنجيل بين اليهود، وأنشئت عام ١٢٦٤هــ/١٨٤٨م، ومطبعة دافيد ساسون وأنشئت عام ١٢٦٦هــ/١٨٥٠م، ومطبعة شولمن وأنشئت عام١٢٧٧هــ/١٨٦٠م، ومطبعة إسحاق كوشينا وأنشئت عام ١٢٨٢هــ/ ١٨٦٥م، ومطبعة مزمكن وأنشئت عام١٢٨٦هــ/١٨٧٠م، ومطبعة حاي جاجين وأنشئت عام١٣٠٠هــ/١٨٨٣م، ومطبعة لنكس، وطبعة ابن يهودا وأنشئت عام١٣٠٧هــ/١٨٩٠م، وجميع هذه المطابع اليهودية كانت في القدس([3]). نلاحظ من هذا السرد للمطابع اليهودية أنها تسع مطابع تركزت جميعها في القدس، على الرغم من قلة عدد المدارس اليهودية، في العهد العثماني.

عرفت فلسطين الصحافة باللغة العربية في أواخر العهد العثماني في وقت متأخر عن بقية الولايات المجاورة لها، وبعد ظهور الطباعة فيها بقرابة نصف قرن؛ حيث كان نسيم باق قد أقام المطبعة الفلسطينية الأولى عام١٢٤٥هــ/١٨٣٠م. وارتبطت البدايات الأولى للصحافة العربية في فلسطين بما كانت عليه بالدول الأخرى، فقد اعتمدت في بداية عهدها على النقل عن الصحف الأخرى وخاصة اللبنانية، حيث كانت تعتبر بيروت مركزاً ثقافيا في تلك الفترة، وكانت أيضاً مركزا للطباعة العربية في الشرق([4]).

و صدرت الصحيفة الرسمية الأولى في فلسطين باسم " القدس الشريف "باللغتين التركية والعربية في مدينة القدس عام ١٢٩٣هــ/١٨٧٦م، وكانت تصدر مرة في الشهر وتحتوي كغيرها من الصحف المحلية على الغرامات والأنظمة والأحكام التي تصدرها الحكومة العثمانية، وهذه الصحيفة صغيرة الحجم وتطبع في المطبعة المأمونية في مدينة القدس، ثم توقفت عن

على صفحاتها إلى الخطر الصهيوني الذي يخطط لاغتصاب فلسطين وطرد أهلها، وهاجم بعنف فكرة الاتفاق بين الزعماء الصهيونيين والعرب التي طرحتها صحيفتي الأهرام والمقطم سنتي١٣٣٢ــ١٣٣٣هــ/ ١٩١٣و١٩١٤م، دعا في عام ١٣٣٨هــ/١٩٢٠م إلى تأسيس مكاتب دعاية عربية في أوربا لفضح أهداف الصهيونية ومخططاتها. ساهمت معه زوجته ساذج نصار في تحرير صحيفة الكرمل واعتقلت عام ١٣٥٧هــ/١٩٣٨م لمدة سنة بتهمة إمداد الثورة بالسلاح، وقد أوقفت سلطات الانتداب البريطاني صحيفة الكرمل عن الصدور أكثر من مرة وأغلقتها نهائياً سنة١٣٦٣هــ/١٩٤٤م. انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص٤٥٧.

([1]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٦٠ــ٦١.

([2]) أسس الإنجليز في سنة ١٢٢٤هــ/ ١٨٠٩م الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود وبدأ عملها بأن ساقت اليهود المتفرقين في شتات الأرض إلى أرض فلسطين.انظر: مصطفى خالدي ، عمر فروخ: المرجع السابق، ص١٨١.

([3]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية، ص٦١.

([4]) محمد باسل سليمان:الصحافة في قطاع غزة ١٨٧٦ــ١٩٩٤م، (١ مارس ٢٠٠٩م)، (بحث غير منشور)، ص١.

الظهور في العام ١٣٣١هـ/١٩١٢م، لتعاود الصدور بعد ذلك. وفي العام نفسه الذي صدرت فيه "صحيفة القدس الشريف" صدرت في مدينة القدس أيضاً صحيفة " الغزال " يحررها على الريماوي([1])، ولم تختلف عن سابقتها كثيرا ؛ حيث كانت تصدر شهريا وتنشر الأنظمة والقوانين باللغة العربية. ومن الملاحظ أن هاتين الجريدتين لم تصدران بشكل منتظم، وظلت البلاد خالية من الصحف حتى إعلان الدستور في عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وقد بلغ عدد الصحف منذ عام١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وحتى عام١٣٣٣هـ/١٩١٤م حوالي ثلاثين صحيفة، وكان عمر هذه الصحف قصير؛ حيث جاءت الحرب العالمية الأولى عام١٣٣٣هـ/١٩١٤م لتقضي على الصحافة الفلسطينية في بداية نشأتها([2]).

قبل بداية الاحتلال البريطاني استطاع بعض أصحاب الصحف انتهاز فرصة انشغال الدولة العثمانية في الحرب وعاودت الصحف والمجلات التي سبق وأن توقفت عند بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م الصدور. وقد تمتعت مدينة القدس في بداية عهد الانتداب البريطاني بلقب مركز الصحافة الفلسطينية، فقد كانت مقراً للدوائر الحكومية المركزية والدوائر والمكاتب الرئيسية لحركة الاستيطان اليهودي والحركة الصهيونية. كما كانت أيضاً مقراً لدوائر ومكاتب الحركة العربية الوطنية، كاللجنة التنفيذية العربية، والمجلس الإسلامي الأعلى، ومكاتب الأحزاب العربية المعارضة للمجلس وغيرها. وكذلك مركزاً لتواجد الإرساليات التنصيرية الكبرى وأنشطتها المختلفة، بما في ذلك مطابعها، وفيها أقيمت كبرى مطابع البلاد، والصحف التي صدرت في تلك الفترة هي "سورية الجنوبية" و"القدس الشريف" و"بيت المقدس" و"الأقصى" و"اليرموك" و"مرآة الشرق" و"لسان العرب" و"صوت الشعب" و"الجامعة العربية" وغيرها من الصحف الأخرى وكانت تكتب باللغة العربية واللغات العبرية والإنجليزية والفرنسية واليونانية والألمانية([3]).

الصحافة الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني:

واجهت الصحافة الفلسطينية تحت الانتداب البريطاني خلال هذه المرحلة اضطهاداً أشد قسوة من الحكم السابق – العثماني – ورغم معايشة الصحافة الفلسطينية خاصة والعربية عامة

([1]) علي الريماوي(١٢٧٧ـ١٣٣٧هـ/١٨٦٠ـ١٩١٩م): من مواليد القدس، درس في الأزهر، وعمل معلماً في القدس، تولى تحرير القسم العربي من صحيفة "القدس الشريف" و "صحيفة الغزال" ، ومن ثم "صحيفة النجاح". كان من المؤيدين لزوال الحكم العثماني، والمؤيدين لدخول الانجليز البلاد على أمل مساعدة العرب في الاستقلال التام والوحدة العربية. انظر: علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، الحاشية ٣٠ ، ص٧٥ ؛ الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٣١٣.

([2]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٦١.

([3]) محمد باسل سليمان: المرجع السابق، ص٤.

للظروف القاسية، فقد حاولت هذه الصحف تأدية رسالتها والوقوف صامدة رغم القـوانين التـي وضعتها بريطانيا من أجل الحد من نشاطها في محاربة الاستعمار والغزو اليهودي، لكـن ذلـك زادها قوة وصلابة، وانحصر النشاط الصحفي في فلسطين في ثلاث مدن هـي القـدس ويافـا وحيفا، وكانت يافا هي قلب الصحافة النابض طوال العهدين العثماني والبريطاني، خاصـة بعـد ثورة البراق١٣٤٨هـ/١٩٢٩م([1]).

لقد أصبحت دائرة التحقيق الجنائي لسلطة الانتداب هي المخولة بالإشراف على الصحف، ولم تكن الصحافة الفلسطينية خلال العشر سنوات الأولى من الانتداب في مستوى سائر الصحف في مصر وسوريا ولبنـان، إلا أنها أسهمت اسهاماً فعالاً في الحياة الأدبية، والسياسية، والثقافية، وأصدرت قيـادة الجيـش البريطـاني صـحيفة رسـمية بعـد الانتـداب على فلسـطين وأسـمتها "The Palestinian News" "أي أخبار فلسطين" وقد صدر العدد الأول منها فـي ٦ رمضان ١٣٤٢هـ/١١ ابريل ١٩٢٤م، وقد شهدت هذه المرحلة تطوراً ونمواً سـريعاً فـي الصحافة ؛ وذلك لأن الشعب الفلسطيني عمل جاهداً على إنعاش التعليم في المرحلتين الابتدائيـة والثانوية في ظل الانتداب البريطاني([2]). كما نمت الصحافة السياسية أكثـر مـن غيرهـا مـن الصحف؛ بسبب اهتمام الناس بمصيرهم تحت الحكم الجديد الذي فرض عليهم([3]).

وما بين عامي١٣٣٧ــ١٣٥٨هـ/١٩١٩ــ١٩٣٩م صدرت في فلسـطين حـوالي ١٢٨ صحيفة وتعتبـر هـذه فتـرة تبلـور مهنـي وفكـري([4]). ولكـن هـذه الصـحف واجهـت عام١٣٤٨هـ/١٩٢٩م ما يعرف بثورة البراق، والتي نشأت على أثرها الأحـزاب الفلسـطينية وبدأت الحركة الوطنية الفلسطينية مرحلة مهمة من تاريخها. وكان من الطبيعي نتيجة لتطـورات الأحداث اللاحقة أن تعكس الصحف الخلافات داخل الأحزاب الفلسطينية والانقسام في المجتمـع الفلسطيني. وتبنت الصحف القضايا الوطنية العامة ضد نشاط الحركة الصهيونية، ومعارضة بيع الأراضي لليهود، والسعي إلى وفاق وطني الهدف منه تحسين صورة الإنسان الفلسطيني. وعلى

([1]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٦٨.

([2]) ماجد تربان: بحث في الصحافة الفلسطينية : الصحافة الفلسطينية النشـأة والتطـور – الصـحافة الفلسـطينية المهاجرة ، كلية الإعلام، جامعة الأقصى، فلسطين، ١ مارس ٢٠٠٩م، موقع الانترنت: وزارت الإعلام السلطة الوطنية الفلسطينيةwww.minfo.ps/arabic/index.php?pagess=main&id

([3]) الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص ٩.

([4]) محمد باسل سليمان: القوانين البريطانية وتطور الصحافة الفلسطينية (١٩١٨-١٩٤٨)، ١ مارس ٢٠٠٩م، موقع الانترنـت: وزارت الإعـلام السـلطة الوطنيـة الفلسـطينية www.minfo.ps/arabic/index.php?pagess=main&id

الرغم من أن الاحتلال البريطاني أعلن أنه لا توجد رقابة على الصحف، إلا أن ذلك لـم يمنعـه من التدخل في عملها، عندما أصبحت هذه الصحف تعبـر عـن مطالـب القـوى والأحـزاب والمؤسسات الفلسطينية المختلفة، التي دخلت في صراع متعدد الأوجه مع الاحـتلال البريطـاني والحركة الصهيونية وفيما بينها. ولجأ البريطانيون إلى التعامل مع الصحف «بيد مـن حديـد»، حيث قامت بإنشاء مكتب لمراقبة الصحف الفلسطينية. وفي الوقت نفسه اتهمت الصحافة العربية السلطات البريطانية بإيثار الصحف العبرية على الصحف العربية، وبأنها تغض الطـرف عـن تحريض الصحف العبرية على العرب، بينما يتحرك الرقيب بشكل قاس ضد الصحافة العربيـة. وعندما تغضب السلطات البريطانية، كانت تلجأ، إلى إغلاق الصحف، ولكن الأوامر العسـكرية البريطانية للصحف تجاوزت كل حدودها الرقابية، نتيجة لتطورات الأوضاع الداخلية، ففي رجب ١٣٥٧هـ/سبتمبر ١٩٣٨م، أصدرت السلطات البريطانية أمرا بعدم نشر أي خبر يتعلـق بكـل حادث يقع في فلسطين ما لم تنشر في التقارير الرسمية. وكان على الصحافيين في تلك الفترة أن يجدوا السبل للتحايل على الرقابة، ولذلك تعرض كثير منهم للاعتقال([1]).

ومن أهم الصحف في هذه المرحلة صحيفة " سورية الجنوبية " التي تأسست فـي القـدس في١٣ ذو الحجة ١٣٣٧هـ/ ٨ سبتمبر عام ١٩١٩م ويشرف على تحريرها عارف العـارف([2]) ومحمود حسن البدري وهي جريدة سياسية أدبية تصدر مرة واحدة في الأسبوع، ثـم صـدرت نصف أسبوعية وكانت تهاجم الصهيونية هجوماً عنيفاً مما دفع السلطات إلى تعطيلهـا بعـد أن استمرت في الصدور سنة واحدة ؛ حيث أغلقت في شوال ١٣٣٨هـ/يوليو ١٩٢٠م، كما حكمت

([1]) أسامة العيسة: الصحافة الفلسطينية بين حربين عالميتين تطورها المهني وطبيعة مهماتها " تحت عين الرقيب"، (صحيفة الشرق الأوسط، العدد ٩٦٦٢، ٤ ربيـع الآخر ١٤٢٦ هـ/ ١٢ مايو ٢٠٠٥م)، ص٢٢.

([2]) عارف العارف(١٣٠٩ــ١٣٩٣هـ/١٨٩٢ــ١٩٧٣م) مؤرخ ومناضل سياسي ولد في القدس وأتم فيها دراسـته الابتدائية والثانوية، وأتم دراسته الجامعية في اسطنبول، عين بعد تخرجه مترجماً في وزارة الخارجية التركيـة عام١٣٣٢هـ/١٩١٣م، لما نشبت الحرب العالمية الأولى ١٣٣٣هـ/١٩١٤م دخل الكلية العسكرية وتخرج منها برتبة ضابط، أسره الروس في حرب القفقاس سنة١٣٣٤هـ/١٩١٥م ، وتمكن من الهرب بعد الثورة الشـيوعية عام١٣٣٦هـ/١٩١٧م، ولما وصل إلى فلسطين وجد بلده يرزح تحت وطأة الانتداب البريطاني، فصـمم علـى النضال وأصدر سنة١٣٣٧هـ/١٩١٩م صحيفة سورية الجنوبية لمقاومة الاحتلال والصهيونية فأعتقل فـي ١٤ رجب ١٣٣٨هـ/٤ إبريل ١٩٢٠م وأغلقت الصحيفة، لكنه تمكن من الهرب إلـى دمشـق ، وعنـدما احتلهـا الفرنسيون عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م أنتقل إلى شرق الأردن، ثم سمح له بالعودة إلى فلسطين فتـولى عـدد مـن المنصب فيها، استعان به الأمير عبدالله في شرق الأردن لوضع الأسس الأولى لإمارته، فانتقل إلى عَمان وبقـي فيها ثلاث سنوات، وعندما عارض المعاهدة البريطانية الأردنية ١٩٢٨م، سحب من عَمان وأعيد إلى فلسـطين، وبعد النكبة وضم الضفة الغربية إلى الأردن عينه الملك عبد الله حاكماً عسكرياً لقضاء رام الله. له العديـد مـن المؤلفات التي تتصف بالموضوعية والأمانة العلمية. انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص١٥٠ــ١٥١.

سلطات الانتداب على عارف العارف بالسجن لاشتراكه في ثورة عام١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م مما اضطره للهروب إلى شرق الأردن(١).

وصدر في١٣٣٧هـ/١٩١٩م صحيفة " مرآة الشرق " لبولس شحادة(٢) وهي جريدة سياسية كانت تصدر مرتين في الأسبوع، وصدرت في أول عهدها باللغتين العربية والإنجليزية ويحرر القسم العربي فيها الدكتور أحمد الشقيري(٣) ورئيس تحريرها الأستاذ أكرم زعيتر، توقفت عن الصدور عام١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م لإغلاقها من قبل سلطات الانتداب البريطاني ؛ وذلك لنشرها قصيدة حث فيها كاتبها على الثورة والتمرد ضد الإنجليز، وبعد ذلك صدر العديد من المجلات والصحف الصغيرة التي لم يدم صدورها طويلاً(٤).

---

(١) الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٩ــ١٠ ؛ بشير بركات: تاريخ الصحافة المقدسية، ١ مارس ٢٠٠٩م موقع الانترنت: وزارت الإعلام السلطة الوطنية الفلسطينية www.minfo.ps/arabic/index.php?pagess=main&id

(٢) بولس شحادة(١٢٩٩ــ١٣٦١هـ ١٨٨٢ــ١٩٤٢م): ولد في رام الله وتلقى تعليمه الثانوي في مدرسة صهيون في القدس، واصل تعليمه العالي في كلية الشباب الإنجليزية، عمل بالتعليم في غزة وحيفا، في عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م حكم عليه بالإعدام لمناوأته للسلطات العثمانية، هرب إلى القاهرة ثم عاد إلى فلسطين بعد إعلان الدستور، نشط في حقل الصحافة، وكان من أوائل الصحفيين الذين أسسوا صحفاً في زمن الانتداب البريطاني، فأصدر مرآة الشرق في القدس، كان من مؤيدين كتلة "المعارضين" التي تزعمها النشاشيبي، شارك في تأسيس حزب الدفاع الوطني، لكنه كان مع هذا من أجرأ الذين يهاجمون السياسة البريطانية والصهيونية معاً. انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٤٣٥ــ٤٣٦.

(٣) أحمد الشقيري(١٣٢٦ــ١٤٠٠هـ/١٩٠٨ــ١٩٨٠م): محامي فلسطيني، وأول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية،= = ولد ببلدة تبنين جنوب لبنان، انتقل وهو طفل إلى مدينة طول كرم للعيش مع والدته، وفي سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٦م انتقل إلى عكا حيث أنهى دراسته الإبتدائية والإعدادية سنة١٣٤٢هـ/١٩٢٤م، وأتم دراسته في القدس سنة١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، وإلتحق بالجامعة الأمريكية ببيروت، لكنه طرد منها بقرار من سلطات الانتداب الفرنسي لمشاركته بمظارهرة ضخمة قام بها طلاب الجامعة، فعاد إلى فلسطين وانتسب إلى معهد الحقوق في القدس، وكان يعمل في صحيفة مرآة الشرق، بعد النكبة(١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) هاجر إلى لبنان واستقر ببيروت، تولى العديد من المناصب في فلسطين وخارجها، توفي في عَمان على اثر مرض ألم به ، ودفن في غور الأردن على بعد ثلاثة كيلو مترات من فلسطين المحتلة، خلّف العديد من الدراسات والمؤلفات التي تدور حول القضايا العربية والقضية الفسطينية. انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٩٨ــ١٠٠.

(٤) ماجد تربان: المرجع السابق، موقع الانترنت: وزارت الإعلام السلطة الوطنية الفلسطينية www.minfo.ps/arabic/index.php?pagess=main&id

عملت حكومة الانتداب البريطاني على توجيه بعض الصحف الفلسطينية لخدمة مصالحها الاستعمارية ، فأحضرت من لبنان إبراهيم سليم النجار الذي أصدر في القدس صحيفة "لسان العرب" عام١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م([1]).

كانت الصحافة الفلسطينية في العشرينات إما مؤيدة لكتلة محمد أمين الحسيني والتي أطلق عليهم اسم "المجلسيين" ، وإما مؤيدة لكتلة راغب النشاشيبي وأطلق عليهم اسم "المعارضة"، والصحف المؤيدة للحسيني هي صحيفة "الأقصى" التي صدرت في عام ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م، وصحيفة "الصباح" التي صدرت في عام١٣٣٩هـ/١٩٢١م ، وصحيفة "الجامعة العربية" التي صدرت في عام١٣٤٥هـ/١٩٢٧م ، وهي لسان حال الحزب العربي الفلسطيني في الثلاثينات وكانت سياسة هذه الصحف الطعن في الانتداب البريطاني، والمطالبة بإلغاء وعد بلفور والوطن القومي لليهود. أما الصحف المؤيدة للنشاشيبي هي صحيفة "مرآة الشرق"، وصحيفة "فلسطين" التي أصبحت في الثلاثينات الناطق الرسمي لحزب الدفاع الوطني الذي أنشأه النشاشيبي، كما كانت صحيفة "القدس الشريف" و"النفير" و"الكرمل" مؤيدة لهذه الكتلة، واتبعت هذه الصحف سياسة المطالبة بإحباط وعد بلفور، إلا أنها دعت إلى التعاون مع سلطات الانتداب البريطاني([2]).

أما الصحف المستقلة التي صدرت في العشرينات فقد أصدرها شباب متحمسون كانوا يدعون إلى الوفاق الوطني والوحدة العربية؛ لمواجهة خطط الصهيونية والاحتلال البريطاني الذي بدأ بتطبيق وعد بلفور، وأهم تلك الصحف صحيفة "الجزيرة" التي صدرت في يافا عام١٣٤٢هـ/١٩٢٤م، وصحيفة "اليرموك" التي صدرت في حيفا عام١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، وفي السنة نفسها صدرت صحيفة "الاتحاد العربي" وهي الصحيفة الوحيدة التي كانت تصدر من طولكرم، وكانت تطبع في يافا، لكنها لم تعش أكثر من سنتين([3]).

وفي أواخر العشرينات أصبحت الصحافة العربية في فلسطين من أقوى الوسائل الجماهيرية في التعبير عن الرأي العام. وكانت أداة لإقلاق سلطات الانتداب البريطاني وانتقادها، وفضح الدخلاء الصهاينة في البلاد ولاحظت لجنة شو التي قدمت إلى فلسطين بعد ثورة١٣٤٨هـ/١٩٢٩م أن الفلاحين الفلسطينيين كانوا أوعى سياسياً من كثير من الأوربيين، بالرغم من أن نسبة الأمية كانت عالية بينهم، إذ كانوا يجتمعون حول من يقرأ لهم الصحف، ونتيجة لذلك وضعت حكومة الانتداب البريطاني قانون صحافة صارم طبق سنة١٣٥٢هـ/١٩٣٣م([4]).

([1]) عبد الوهاب الكيالي : موسوعة السياسة، (المؤسسة العربية للدراسات، بيروت)، ج٣، ص٦١٥ـ٦١٦.

([2]) الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص١٠.

([3]) المرجع السابق ، ج٣، ص١٠.

([4]) المرجع السابق ، ج٣، ص١٠.

هذا وقد قامت الصحافة الفلسطينية في الثلاثينات بدور بارز في ثورة القسام الشعبية بين عامي ١٣٥٥ـ١٣٥٨هـ/١٩٣٦– ١٩٣٩م فكانت السلاح الفعال في تعبئة المواطن الفلسطيني من مخاطر الصهيونية والاستعمار البريطاني، وأدركت حكومة الانتداب البريطاني الدور البارز الذي تقوم به الصحافة العربية الفلسطينية فشددت من قبضتها ضد تلك الصحف، حتى أن الصحف العربية الفلسطينية تلقت أربعة وثلاثين قراراً بالتعطيل والتوقف عن الصدور، كما أن إحد عشرة صحيفة تلقت إنذارات رسمية خلال فترة الإضراب، ومن الصحف التي أغلقت في عام١٣٥٤هـ/١٩٣٥م " اللواء " و " الدفاع " و "الوحدة العربية" وكلها كانت تعبر عن رأي الحزب العربي الفلسطيني الذي كان يرأسه جمال الحسيني، وعندما تعطلت هذه الصحف عاد جمال الحسيني وأصدر صحيفة "اللواء اليومية" التي استمرت حتى عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م([1]).

كان من أهم مطالب الصحافة الحزبية في الثلاثينات إلغاء وعد بلفور، ووقف الهجرة اليهودية، ومنع تسرب الأراضي الفلسطينية إلى اليهود، وإنهاء الانتداب على فلسطين وإقامة حكم وطني للسكان الأصليين لفلسطين. كما أن الصحف عالجت المواضيع ذات الصلة بالأوضاع الاقتصادية السيئة الناشئة عن الغزو الصهيوني، ودافعت عن الفلاحين والعمال الذين أصبحوا بلا أرض، وجاءت ثورة ١٣٥٥ـ١٣٥٨هـ/١٩٣٦ـ١٩٣٩م وتوحدت فيها الأحزاب وبالتالي الصحافة الفلسطينة، حيث أصدرت الصحف الكبرى صحفاً تنوب عنها في حال تعطيلها، فكانت تصدر بشكل غير منتظم، فأصدرت صحيفة "فلسطين" صحيفة "الأخبار" ، وأصدرت صحيفة "الدفاع " ثلاث صحف هي: الفجر والحياة والجهاد ، وصدر عن صحيفة "اللواء" صحيفة"اللهب". وتعطلت جميع الصحف العربية في فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية باستثناء الصحف الثلاث اليومية: فلسطين، والدفاع، والصراط المستقيم([2]).

لكن أكثر حادثة اعتقال مؤثرة في تلك الفترة، هي اعتقال ساذج نصار، وهي صحافية وأديبة وزوجة نجيب نصار صاحب صحيفة الكرمل، واعتقلت ساذج في ذي الحجة ١٣٥٧هـ/فبراير ١٩٣٩م ومدد اعتقالها في جمادى الأولى١٣٥٨هـ/يوليو١٩٣٩م من العام نفسه لستة اشهر أخرى([3]).

وكان لليهود بضع صحف في فلسطين يصدر بعضها باللغة الإنجليزية مثل "فلسطين الأسبوعية" "النشرة الفلسطينية"، وبعضها باللغة العبرية ومنها "دَوَار" لسان حال العمال

([1]) الموسوعة الفلسطينية ، ج٣، ص١٠ ؛ إلياس شوفاني: المرجع السابق، ص٤٥٣ ؛ بيان الحوت: القيادات والمؤسسات السياسية، ص٣٠٧ـ٣١٠.

([2]) الموسوعة الفلسطينية ، ج٣،ص١٠ـ١١.

([3]) أسامة العيسة:المرجع السابق، ص٢٢.

"وهآرتس" ، و"دؤار هايوم" ، و"كولي إسرائيل" لسان حال الأرثوذكس، ومجلة هايشوف وغيرها من الصحف الضئيلة([1]).

ب ــ أثر الانتداب البريطاني على المؤسسات التعليمية والثقافية في شرق الأردن.

أولاً: المدارس والمؤسسات التعليمية:

يمكن أن نقول أن سوريا ولبنان كانتا تفوقان شرق الأردن في الناحية الثقافية منذ العصر العثماني، فشرق الأردن مثل بقية الولايات العثمانية لم تظهر فيه اهتمام فعلي بالتعليم إلا في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، عندما أصدرت الحكومة قانون إصلاح التعليم عام ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م الذي خول الدولة الإشراف على التعليم في عموم المدارس، عن طريق ديوان المعارف العمومية، وقد نص القانون على مجانية التعليم، وحق تعيين معلمين من غير علماء الشريعة الإسلامية، والأخذ بطرق التعليم الحديثة في تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل: (الابتدائية ــ الرشدية ــ العالية)([2]).

ففي عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م صدر نظام المعارف العمومية أو ما يعرف بـ "قانون المعارف العثماني الصادر في عام١٢٨٦هـ/١٨٦٩م"([3])، وقد قسمت المدارس في الدولة العثمانية بموجبه إلى قسمين:

١ــ المدارس العمومية (الرسمية): وهي المدارس التي تديرها وتشرف عليها الدولة وهي خمس مراحل (الابتدائية ــ الرشدية ــ الإعدادية ــ السلطانية ــ العالية)، وانتشرت المدارس الابتدائية انتشاراً واسعاً؛ حيث نص نظام المعارف العمومية على فتح مدرسة ابتدائية في كل محلة أو قرية أو في كل ملحتين أو قريتين على الأقل ، وقد وجد في الأردن في أواخر عهد الدولة العثمانية ٢٢ مدرسة ابتدائية، منها مدرستان للإناث. كان الطلاب يتخرجون من المدارس الابتدائية ويلتحقون بالمدارس الرشدية التي اشترط نظام المعارف فتحها في كل قصبة يتجاوز

([1]) محمد كرد علي: المرجع السابق، ج٣، ص٢٢١.

([2]) محمد الطراونة ؛ محمد البخيت: المرجع السابق، ص٥٦.

([3]) قانون المعارف العثماني الصادر في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م: كان عبارة مرحلة جديدة في تاريخ التعليم العثماني، وهو يتألف من خمسة أقسام ، تضم ١٩٨ مادة، وللائحة أهداف كثيرة من أبرزها: أن يكون التعليم إجبارياً، تقسيم المدارس العامة أو ما كان يطلق عليها المكاتب العامة إلى أقسام ودرجات ، ترتيب وتنظيم أصول التربية والتعليم، تثبيت قواعد الاختبارات التي تساعد على نجاح الطلاب وانتقالهم إلى المستويات التالية ، تكثيف المؤسسات العلمية ونشرها، وافتتاح مدارس للصبيان والبنات في جميع المراحل (الابتدائية والرشدية والإعدادية والسلطانية)، وافتتاح دار للفنون والدار للمعلمين ودار للمعلمات وغيرها. انظر: يوسف العتيبي: المرجع السابق، ص٣٩.

عدد سكانها حوالي خمسمائة بيت، وكانت مدة الدراسة فيها أربع سنوات، وكانت توجد هذه المدارس في قصبة الكرك، ومعان والطفيلية والسلط([1]).

٢ــ المدارس الخصوصية: فهي التي تخضع لإشراف الدولة، أما تأسيسها وإدارتها فمتروك للأفراد والجماعات سواء كانوا من رعايا الدولة أم من الأجانب. وقد استغل النصارى هذا النظام من المدارس، وبسبب نظام الممل الذي انتهجته الدولة العثمانية، فقد سمحت بموجبه للطوائف غير المسلمة بتأسيس المدارس الخاصة بها تحت إدارة وإشراف رؤسائها الروحيين. كما أن نظام الامتيازات الأجنبية سهل للدول الأوربية أن تبعث بإرساليتها إلى مختلف مناطق الدولة العثمانية بما فيها شرق الأردن لتنشئ مؤسسات تعليمية تنصرية. وقد تأسست في السلط مدرسة على نفقة بطريركية الروم بالقدس سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م، وضمت تلك المدرسة معلماً واحداً وحوالي ستين طالباً، وأنشأت البطريركية اللاتينية في القدس سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م مدرسه أخرى للذكور في السلط كانت تضم سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م معلمين وحوالي ستين طالباً. وفي سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م افتتحت البطريركية مدرسة للبنات في السلط كانت تضم معلمة وعشرين طالبة. وفي سنة ١٣٩٣هـ/١٨٧٥م سمحت الدولة العثمانية للبطريركية اللاتينية في القدس بتأسيس مدرسة في الكرك، وبعد خمس سنوات سمحت لها بتأسيس مدرسة أخرى في مأدبأ. واستمر إنشاء المدارس للذكور والإناث في مختلف نواحي المنطقة من قبل الطوائف المسيحية، ومنها مدرسة راهبات الوردية في السلط، ومدرسة للبنات في قصبة الكرك، ومدرسة تابعة للطائفة البروتستانت في قصبة السلط([2]). أما بالنسبة للمدارس الأجنبية الفرنسية فتعتبر من أقدم المدارس الأجنبية في بلاد الشام، وبالأخص في مدينة الكرك، ويرجع سبب انتشارها إلى الدعم الذي كانت تتلقاه من الجمعيات التنصيرية في فرنسا، لقطع الطريق على المدارس الإنجليزية، ولتعميق العلاقات بين المنصرين الفرنسيين وسكان البلاد، نظراً لقلة المدارس الحكومية الرسمية هناك([3]).

ويذكر ساطع الحصري أن في شرق الأردن في أواخر عهد الدولة العثمانية حولي ٢٢ مدرسة ابتدائية، يعلم فيها ٢٩ معلماً ومعلمة، وتضم ١٠٣٩ طالباً وطالبة، ومن جملة تلك المدارس اثنتان خاصتان بالبنات تعلم فيهما معلمتان وتضمان ٥٩ طالبة، ومدة الدراسة ست سنوات ولغة التعليم كانت العربية والتركية. ويعارض سليمان موسى هذا القول ويصفه بأنه بعيد

([1]) محمد الطراونة ؛ محمد البخيت: المرجع السابق، ص٥٦ ــ٥٨ ؛ علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٣٣ــ٣٤.

([2]) محمد الطراونة ؛ محمد البخيت: المرجع السابق، ص٥٨ــ٥٩.

([3]) يوسف العتيبي: المرجع السابق ، ص٢٩٧ــ٢٩٨.

عن الواقع([1])، وأن في هذا تحامل واضح على الدولة العثمانية، فساطع الحصري ممن عاصر هذه الدولة في سنواتها الأخيرة، كما أن الدراسات العلمية الحديثة تؤكد على وجود عدد لا بأس به من المدارس في بلاد الشام وفي شرق الأردن، وإن كانت قليلة؛ نظراً لقلة السكان، ولانشغال معظمهم بالرعي والزراعة، لذلك لم يهتم كثير من السكان وخاصة في شرق الأردن بالتعليم، ولكن هذا لا ينفي دخول عدد لا بأس به من السكان للمدارس واهتمام بعض العوائل بتعليم أبنائهم.

أما في العهد الفيصلي فقد شهد شرق الأردن زيادة في عدد المدارس الأولية والابتدائية، حيث بلغ مجموع المدارس الحديثة في العهد الفيصلي عشرين مدرسة، كما قامت الحكومة بتعين معلمين عرب ليحلوا محل المعلمين الأتراك، وأصبح التعليم كله باللغة العربية منذ ذلك الحين([2]). وبعد تأسيس الإمارة عام ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م إلى عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م وجهت الحكومة عناية خاصة للتعليم فبلغ عدد المدارس الحكومية ٤٤ مدرسة أولية وابتدائية، منها ٦ مدارس للبنات، وبلغ عدد المعلمين ٨١ بينهم ١٢ معلمة، أما عدد الطلاب فبلغ ٣٣١٦ بينهم ٣١٨ طالبة([3]).

لكن مع وجود الانتداب في البلاد فالتعليم يجب أن يكون بالطريقة التي تتناسب مع سياسة الاستعمار، وقد أدخلت تعديلات جمة على المدارس سواء العربية أو الأجنبية، فأصبح كل من درس وطلب العلم لا يدرس من تاريخه وقومه إلا الشيء اليسير، لاسيما وأن الدول الاستعمارية كانت تعقد مع الدول التي تسيطر عليها اتفاقيات ومعاهدات ثقافية واقتصادية تستنسخ فيها عاداتها وتقاليدها وتحول نقلها إلي بلاد العرب والمسلمين([4]).

ومن أهم سمات التعليم في ظل الانتداب أن حلت اللغة الانجليزية محل اللغة التركية في التعليم في المدارس؛ حيث أصبحت تدرس للطلاب في مدارس الحكومة ابتداء من الصف الرابع الابتدائي، وهكذا كان الانتداب البريطاني وراء إحلال اللغة الانجليزية لغة ثانية في البلاد. ونظراً لانتشار الأمية في شرق الأردن وقلة عدد المتعلمين فيها في السنوات الأولى للانتداب فقد كان أكثر من يعملون في مجال التعليم من أبناء الأقطار المجاورة، مثل سوريا ولبنان وفلسطين. وقد اتخذ كثيرٌ من هؤلاء المعلمين شرق الأردن دار إقامة دائمة لهم([5]). والواقع أن شرق

([1]) سليمان موسى : إمارة شرق الأردن، الحاشية ١، ص ٦٨.

([2]) سليمان موسى : إمارة شرق الأردن، ص٦٩ ؛ علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٥٠.

([3]) سليمان موسى : إمارة شرق الأردن، ص٣٤٩.

([4]) جبران ملكون: المرجع السابق، ص٤٩ـ ٥٠.

([5]) سليمان موسى : إمارة شرق الأردن، ص٣٥٠ـ٣٥١ ؛ أحمد يوسف التل : التعليم العام في الأردن، (منشورات لجنة تاريخ الأردن ، عَمان ، ١٩٩٢م) ، ص٣٢.

الأردن لم يستطع الحصول على خدمات أبناء المنطقة المتخرجين من مدارس أردنية عالية إلا بعد سنة١٣٤٩هـ/١٩٣٠م عندما بدأت المدارس الثانوية فيها بتخريج دفعات سنوية من طلابها([1]).

وفي شوال ١٣٤١هـ/مايو ١٩٢٣م احتفل بوضع حجر الأساس لأول مدرسة ثانوية في شرق الأردن في مدينة السلط([2])، التي كانت تعتبر من أهم المدن في شرق الأردن، ولكن عندما اختار الأمير عبد الله عَمان عاصمة لامارة شرق الأردن قلت نوعاً ما أهمية مدينة السلط، وأصبحت عَمان مدينة مزدهرة وتوافدن إليها العديد من البعثات التنصيرية، بحجة التعليم ونشر المعرفة فيها، أكثر مما كانت عليه زمن الدولة العثمانية فبعد التقسيمات السياسية لبلاد الشام علي يد الانتداب الفرنسي والبريطاني أصبحت كل دولة منتدبة تقوم بنشر مؤسساتها التعليمية التنصيرية على حدا في منطقة نفوذها([3]). فكان من الطبيعي أن يزيد عدد المؤسسات التعليمية، وخاصة التنصيرية منها في شرق الأردن في ظل الانتداب البريطاني عما كانت عليه في عهد الدولة العثمانية.

كانت المؤسسات التعليمية في شرق الأردن تعمل على ربط المفاهيم الثقافية في البلاد بالانتداب البريطاني، والذي تزعم هذا الدور مؤسسات الدولة الحديثة، وخاصة تلك التي كانت قيد التكوين والتي كان هدفها خلق أفراد يسهل انقيادهم وانخراطهم في الشكل القانوني والانضباطي المفروض من قبل الانتداب البريطاني على تلك المؤسسات التي كانت تعمل على تنسيق العلاقات التي يوجدها المستعمر في البلدان الخاضعة له –سواء أكانت علاقات عسكرية أو قانونية أو اقتصادية أو ثقافية– فقد قام الانتداب البريطاني بقمع بعض المكونات الثقافية في المجتمع المحلي وخلق مكونات ثقافية بديلة. حتى تصبح هذه المكونات الجديدة وكأنها هي الأصل ويتبناها القوميون لاحقاً ويدافعون عنها باعتبارها مكونات هويته الأصلية، فمن أول لحظة وصول الاستعمار البريطاني وقيامه في شرق الأردن عام١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م، دخل شرق الأردن مرحلة تاريخية جديدة أنهت مرحلة سابقة، وبدأت الإدارة الاستعمارية ترسم الشكل السياسي والاجتماعي والثقافي للبلد.

في محرم ١٣٤٢هـ/أغسطس ١٩٢٣م توحدت برامج التدريس في جميع المدارس الحكومية بقرار من مدير المعارف العامة، فقد بدأت حكومة شرق الأردن بتنظيم أجهزتها الإدارية بصورة تدريجية. وفي بداية الأمر اقتصر التنظيم على تطوير المؤسسات التي كانت

([1]) أحمد التل: المرجع السابق، ص٣٢.

([2]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٥٠.

([3]) يسرى حنفي: المرجع السابق ، ج٢، ص٤٧٣.

قائمة في البلاد قبل ذلك. كما بقي قانون المعارف العثماني الصادر في عام١٢٨٦هـ/١٨٦٩م هو المعمول به في شرق الأردن نظرياً حتى صدور "نظام المعارف" عام١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م([1]). ومن ذلك نلاحظ مدى الارتباط الثقافي القوي بين شرق الأردن والدولة العثمانية، وأنه على الرغم من الانتقاد الذي كان يوجه القومين العرب للدولة العثمانية، وعدم اهتمامها بالتعليم ونشر الثقافة، إلا أنهم ظلوا متمسكين بنظام المعارف العثماني حتى أواخر عهد الانتداب البريطاني، الذي لم يستطع هو الآخر تغييره والنهوض الحركة العلمية الثقافية، فالانتداب لم يهتم بالتعليم الحكومي، بل كان اهتمامه موجه لاستغلال البلاد والحفاظ على مصالحه وأمنه.

لقد كان عدد المدارس الخاصة في الزيادة عن المدارس الحكومية؛ لأن تمويل التعليم العام من قبل الخزينة العامة للإمارة كان قليلاً جداً؛ حيث كانت تتراوح مابين ٥% و٧% في السنوات من عام١٣٤٢ـ١٣٥٨هـ/١٩٢٤ـ١٩٣٩م ، ثم انخفضت هذه النسبة في سنوات الحرب العالمية الثانية (١٣٥٩ـ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٠ـ١٩٤٥م) إلى ١.٠٨% و ٢.٥%، ونظراً لقلة الأموال المخصصة للتربية والتعليم في سنوات الانتداب البريطاني لم تتمكن الوزارة من تحقيق تقدم ملموس في هذا المجال حتى أنه في عام١٣٥٠هـ/١٩٣١م قبلت مدارس الإمارة ٥٠% فقط من مجموع الطلبة الذين تقدموا للالتحاق بالصف الأول الابتدائي([2]).

ويورد سليمان موسى عدد من الإحصائيات التي توضح الزيادة الملحوظة في المدارس الخاصة عن الحكومية، فقد بلغ عدد المدارس الأهلية في عام١٣٤٥هـ/١٩٢٧م ١٦٤ مدرسة بينما كان عدد المدارس الحكومية ٥٣ مدرسة. وفي عام١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م بلغ عدد المدارس الحكومية ٦٩مدرسة، وعدد المدارس الخاصة ١١٥مدرسة، منها ٥٥ مدرسة إسلامية، و٥٦ مدرسة للطوائف المسيحية، و٤ مدارس لقوة الحدود والبادية([3]).

ومن خلال هذا الوصف الإحصائي عن المدارس في شرق الأردن نجد أن المؤسسات التعليمية في ظل الانتداب البريطاني كانت محدودة العدد مقارنة بعدد السكان من الحاضرة والبادية، وأن نظام التعليم فيها كان يخضع لإشراف سلطات الانتداب البريطاني مباشرة ؛ والتي عملت على تطبيق المركزية الشديدة في الإدارة، وانصياع المعلمين والإداريين الحرفي للتعليمات التي تصدرها السلطات البريطانية، بالرغم من التوسع المحدود في فتح المدارس، إلا أنه كان توسعاً في الكم على حساب الكيف، فكانت المدارس بحاجة إلى الأبنية والتجهيزات المناسبة، ومن كان يقوم بالتعليم فيها معلمون غير مؤهلين علمياً وتربوياً بالشكل الكافي،

([1]) علي المحافظة: تاريخ الحركات الفكرية..، ص٥٠ـ٥١ ؛ سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٤٩.

([2]) أحمد التل: المرجع السابق، ص٨٤ ؛ سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٥٦.

([3]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٥١ـ٣٥٥.

فالمخصصات المرصودة للتعليم قليلة ، لكن بالرغم من كل تلك الصعوبات فقد تخرج من هــذه المدارس مجموعة من أبناء شرق الأردن الذين استطاعوا إتمام دراستهم الجامعية في الجامعــات العربية والأجنبية، فالتعليم الجامعي كان معدوماً في ذلك الوقت في شرق الأردن، لكــن الهمــة العالية لشعب الأردن جــعلتهم يبحثون عن التعليم العــالي فــي كــل مكــان لخدمــة بلادهــم وتطويره([1])، عن طريق تطوير قدرات المواطن العلمية في مختلف المجالات وخاصة في مجال العلوم العلمية من هندسة وطب وغيرها حتى يرتقوا بأنفسهم وببلادهم.

ثانياً: الصحافة :

ترتبط نشأة الصحافة في الأردن ارتباطاً وثيقاً بتأسيس الإمارة الأردنية عــام١٣٣٩هــــ/ ١٩٢١م، فقبل ذلك التاريخ لم تكن في الأردن مطابع أصلاً التي هي من أهم أدوات الصــحافة، وبتالي لم تكن هناك أي نوع من أنواع المطبوعات أو المطابع، وأن الصحف القليلة التي كانــت تصل إلى كبار موظفي الحكومة كانت تأتي عن طريق البريد([2]). وعلينا أن نشير هنــا إلــى أن منطقة شرق الأردن كان معظم سكانها مشغولون بالرعي والزراعة لكسب لقمــة العــيش فلــم يهتموا كثيراً بإنشاء المطابع والصحف في عهد الدولة العثمانية، خاصة وأن نسبة المتعلمين فيها كانت قليلة، فالأردن منطقة داخلية شبه منعزلة، وليست منطقة ساحلية يرد إليها الزوار من كــل أنحاء العالم عن طريق البحر، كما هو الحال في بقية دول الشام.

ولقد كانت أول محاولة لإنشاء مطبعة في شرق الأردن قامت بها حكومة مظهر رســلان، عندما أوفد خير الدين الزركلي في رجب ١٣٤٠هــ/مارس ١٩٢٢م إلى القدس لشراء مطبعــة صغيرة من هناك، وكانت هذه المطبعة حافزاً على إصدار أول جريدة مطبوعة على آلة طباعة، وهي جريدة "الشرق العربي" التي صدر العدد الأول منها يوم الاثنين١٢ شوال ١٣٤١هـــــ/٢٨ مايو ١٩٢٣م([3]). كما نقلت في عام١٣٤٣هــ/ ١٩٢٥م مطبعة خليل نصر([4]) التي أنشــئت فــي

([1]) أحمد التل: المرجع السابق، ص٨٩ــ٩٤.

([2]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٥.

([3]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٥ ؛ فاروق منصور: النشر والمطابع والمكتبــات، (لجنــة تــاريخ الأردن، عَمان، ١٩٩٢م)، ص٢٧.

([4]) خليل فارس نصر(١٣٠٥ــ١٣٦٧هــ/١٨٨٨ــ١٩٤٨م): وهو لبناني الأصل هاجر إلــى فلســطين وهــو فــي العشرينات من عمره، وأصدر جريدته (جراب الكردي) في حيفا، ثم أسماها (الأردن) وأصدرها بالتعــاون مــع باسيلا الجدع، وحين نقلها إلى عَمان نقل معها مطبعتها. انضم خليل نصر إلى معارضي المعاهــدة الأردنيــة ــ البريطانية، مما أدى إلى إغلاق الجريدة والمطبعة لمدة ثلاثة شهور في٢ جمادي الأخر١٣٤٧هــ/ ١٤ نــوفمبر ١٩٢٨م. ثم عاودت نشاطها من جديد. أطلق عليه لقب(شيخ الصحافة الأردنية). انظر: عصام سليمان موســى: تطور الصحافة الأردنية (١٩٢٠ــ١٩٩٧م)، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ١٩٩٨م)، ص٩١ــــ٩٢ ،

حيفا عام ١٩٠٩م إلى عَمان([1])، وقامت هذه المطبعة بطباعة "جريدة الأردن" عام١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م، كما قامت هذه المطبعة بإنجاز المطبوعات الحكومية والتجارية، لكنها كانت محدودة العدد والنسخ([2]).

في عام١٣٤٤هـ/١٩٢٦م أنشأ محمد نوري السمان "المطبعة الوطنية"([3]) وقد قامت هذه المطبعة مع "مطبعة جريدة الأردن" بدور مهم في نهاية العشرينات ثم في الثلاثينات في طباعة صحف تلك الفترة ومجلاتها بالإضافة إلى المطبوعات التجارية والحكومية. وما زالت "المطبعة الوطنية" قائمة إلى يومنا هذا (١٤٣١هـ/٢٠١٠م) في عَمان، يديرها ورثة المرحوم السمان وهي من أكبر مطابع المملكة الأردنية. كما أنشئت في الأردن "مطبعة الاستقلال العربي" سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م وأنشأها جودت شعشاعة، واسهمت هذه المطبعة في طباعة الصحف والمجلات والمطبوعات الحكومية والتجارية والكتب المدرسية، وكان من أبرز ما طبعته كتاب "من أنا" للأمير عبد الله بن الحسين عام ١٣٦٠هـ/١٩٤١م . إلا أن استمرار الزيادة في عدد المطابع كان بطيئاً في سنوات الأربعينات في الأردن ؛ بسبب قيام الحرب العالمية الثانية، لكن بعد انتهاء الحرب عادت المطابع في الأردن إلى الازدياد والتطور في انتاجها الفكري([4]). ونلاحظ من خلال هذا السرد الموجز لأعداد وإنجازات المطابع التي تأسست في شرق الأردن،أن الحكومة الأردنية كانت تسيطر عليها بشكل مباشر وأنها لم تكن تطبع إلا ما تسمح به

وص٢٠٧ـ٢٠٩.

([1]) هناك خلاف حول أول مطبعة في شرق الأردن فبينما يذكر سليمان موسى أن المطبعة التي جيء بها من القدس هي أول مطبعة في الأردن ، يذكر فاروق منصور أن أول مطبعة كانت هي مطبعة خليل نصر والتي جيء بها من حيفا هي أول مطبعة في شرق الأردن وأنها هي التي كانت تطبع " جريدة الشرق العربي" والتي أطلق= =عليها فيما بعد اسم "جريدة الأردن". وهذا خطأ لأن مطبعة خليل نصر لم تنقل إلى الأردن إلا في عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، وقد يكون هناك خلط في الروايات لأن المطبعتين أتت من فلسطين، وأن المطبعة التي جيء بها من القدس قامت بطباعة أول عدد من "جريدة الشرق العربي" في١٢ شوال ١٣٤١هـ/٢٨ مايو ١٩٢٣م أي بعد ثلاثة أيام من الاحتفال بإعلان استقلال شرق الأردن، وأن هذه المطبعة أصبحت مطبعة حكومية خاصة في عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م وأطلق عليها اسم "المطبعة الأميرية العامرة : عَمان" . انظر: سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٥ ؛ فاروق منصور: المرجع السابق، ص٢٧ـ٢٨ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٨٣ـ٨٤.

([2]) فاروق منصور: المرجع السابق، ص٢٧.

([3]) يذكر عصام موسى أن الحكومة باعت المطبعة الحكومية التي جيء بها من القدس إلى محمد نوري السمان الذي طورها وأضاف إليها، حتى أصبحت المطبعة الوطنية أكبر دار للطباعة في الأردن. انظر: تطور الصحافة الأردنية، الحاشية ١، ص٨٤.

([4]) فاروق منصور: المرجع السابق، ص٢٨

الحكومة الواقعة تحت الانتداب البريطاني، فالمطابع سواء كانت حكومية أم خاصة ليس لها مطلق الحرية في نقد الانتداب البريطاني أو التعرض له لا من قريب أو من بعيد حتى لا تتعرض هذه المطبعة للإغلاق.

هذا عن المطابع ، أما عن الصحف التي ظهرت في شرق الأردن في الفترة من ١٣٣٨ــ١٣٥٨هـ/١٩٢٠ــ١٩٣٩م فقد كانت قليلة جداً، ويمكن أن نوردها على الشكل التالي:

١. صحيفة (الحق يعلو): وهي أول صحيفة تُنشر في الأردن وقد ظهرت لأول مرة في خريف عام١٣٣٨هـ/١٩٢٠م في مخيم الأمير عبد الله بن الحسين في بلدة معان. وكانت تكتب بخط اليد ثم يتم سحب أعداد منها على البالوظة (الجلاتين)، وقد أنشأها محمد الأنسي([1]) وعبد اللطيف شاكر([2])، وصدر منها أربعة أعداد في معان وعدد خامس في عَمان([3]). وكان شعارها "عربية ثورية" ، تصدر مرة في الأسبوع بصورة غير منتظمة. اهتمت بنشر الأخبار العربية السياسية وشؤون الحرب بجانب نشر تحركات الأمير عبد الله بن الحسين ونشاطاته([4]).

٢. صحيفة (الشرق العربي): وهي أول جريدة تظهر وتطبع في الأردن، وكانت تنشر المقالات السياسية والأدبية والعلمية والأنباء الملحية بالإضافة إلى البلاغات الرسمية والقوانين. وقد تولى تحريرها محمد الشريقي([5]) مدير المطبوعات آنذاك. وصدر

([1]) محمد الانسي: من مواليد طرابلس لبنان، ولد في١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، خدم في الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى لاحقه الفرنسيون فالتجأ إلى الأردن، كلفه الأمير عبد الله هو و عبد اللطيف شاكر بتحرير صحيفة "الحق يعلو" ، وقد خدم في الأردن في مواقع مختلفة، وتوفي بعَمان. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٨٣ ، وص١٩٩ــ٢٠٠.

([2]) عبد اللطيف شاكر(١٣١٦ــ١٣٨٧هـ/١٨٩٨ــ١٩٦٧م): ولد في دمشق ودرس فيها، ثم عمل ضابطاً في الجيش العثماني، وفي العهد الفيصلي أصدر مع شقيقه عمر جريدة (الفلاح العربي)، وعند سقوط الحكومة العربية في دمشق، حكم عليه الفرنسيون بالإعدام، ففر إلى الأردن، فكلفه الأمير عبد الله هو ومحمد الانسي بتحرير صحيفة "الحق يعلو" ، وقد خدم في الأردن في مواقع مختلفة، ولم يواصل عمله في الصحافة. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٨٣ ، وص٢٠٠.

([3]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٥.

([4]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٨٣.

([5]) محمد الشريقي(١٣١٦ــ١٣٩٠هـ/١٨٩٨ــ١٩٧٠م): أديب وشاعر سوري، ولد في اللاذقية وتعلم فيها، وأكمل دراسته الثانوية في بيروت واسطنبول وتعلم الفرنسية في لبنان، ودرس الآداب في القاهرة، وفي أواخر عهد الدولة العثمانية أتصل بالقوميين العرب فسجنه أحمد جمال باشا عام١٣٣٤هـ/١٩١٥م وخرج من السجن بعد خروج الدولة العثمانية من بلاد الشام، وعندما سقطت سوريا في فك الانتداب الفرنسي لجأ عام١٣٤٠هـ/١٩٢٢م للأردن، وفي العام الذي أوكلت إليه مهمة إصدار جريدة الشرق العربي، وبالإضافة إلى

العدد الأول منها يوم الاثنين ١٢ شوال ١٣٤١هـ/٢٨ مايو ١٩٢٣م، ويتضمن وصف الاحتفالات التي جرت في٩ شوال١٣٤١هـ/٢٥ مايو ١٩٢٣م بمناسبة اعتراف بريطانيا باستقلال إمارة شرق الأردن. كانت تصدر أسبوعياً وأحياناً نصف شهرية، وظلت هذه الجريدة تصدر على هذا المنوال مدة ثلاث سنوات؛ حيث تحولت في ذي الحجة ١٣٤٤هـ/يونيو ١٩٢٦م إلى (الجريدة الرسمية لحكومة شرقي الأردن)، وأخذت تقتصر على نشر القوانين والأنظمة والبلاغات والإعلانات الرسمية([١]). لأن سلطات الانتداب البريطاني لم يرق لها الخط القومي الذي أخذت تتخذه هذه الصحيفة، وفي عام١٣٦٥هـ/١٩٤٦م تغير عنوان الصحيفة إلى (الجريدة الرسمية للمملكة الأردنية الهاشمية)([٢]).

٣. صحيفة (جزيرة العرب): صحيفة أصدرها حسام الدين الخطيب([٣]) في ٢٣ ذي الحجة ١٣٤٥هـ/٢٣ يونيو ١٩٢٧م، وهي أول صحيفة أردنية يصدرها القطاع الخاص وكانت تصدر بمعدل عدد واحد كل عشرة أيام، وأوقفتها الحكومة عن الصدور لمدة ستة أشهر فيشوال ١٣٤٦هـ/إبريل ١٩٢٨م، لانتقادها المعاهدة الأردنية ــ البريطانية. بصورة اعتبرتها الحكومة الأردنية وسلطات الانتداب البريطاني "مخلة بالأمن الداخلي" ، ولم تعد إلى الصدور بعد ذلك([٤]).

٤. صحيفة (الشريعة): أصدرها كمال عباس ومحمود الكرمي([٥]) في٢٥ ذو الحجة ١٣٤٥هـ/٢٥ يونيو ١٩٢٧م، وهي ثاني صحيفة أردنية يصدرها القطاع الخاص،

ذلك عينه الأمير عبد الله بن الحسين مديراً للمطوعات في إمارة شرق الأردن. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٨٤ وص٢٠٠ــ٢٠١.

([١]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٥ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٨٤ ؛ فاروق منصور: المرجع السابق، ص٢٧.

([٢]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٨٨.

([٣]) حسام الدين الخطيب: وهو من مواليد حلب في سوريا، لجأ للأردن بسبب اضطهاد الفرنسيين له، وعمل في مجال التعليم والصحافة. وله يعزى فضل إصدار أول صحيفة أردنية خاصة ابتداء من٢٣ ذي الحجة ١٣٤٥هـ/٢٣ يونيو ١٩٢٧م. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٠.

([٤]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٠.

([٥]) محمود الكرمي(١٣٠٦ــ١٣٥٩هـ/١٨٨٩ــ١٩٣٩م): وهو فلسطيني من مواليد طولكرم، في عام ١٩٢٦م أسس مع كمال عباس جريدة الشريعة الأسبوعية التي صدر عددها الأول في٢٥ ذي الحجة ١٣٤٥هـ/٢٥ يونيو ١٩٢٧م، وهي ثاني صحيفة تصدر عن القطاع الخاص، لكنها لم تستمر كثيراً بسبب قبض سلطات الانتداب على صاحبها محمد الكرمي وزجه في السجن بتهمة الاشتراك في جمعية الكف الأسود، ويبدو أن هذه الجمعية وهمية اختلقها مدير شرطة العاصمة شوكت حميد للإيقاع ببعض الأشخاص الأبرياء. غادر الكرمي عَمان إلى بيروت

ولم يصدر منها سوى عشرة أعداد، ثم توقفت بسبب نشرها لأخبار تضر حالة الأمن في الكرك([1]).

5. صحيفة (صدى العرب): أصدرها المحامي صالح الصمادي([2]) في١٧ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ/١٣ أكتوبر ١٩٢٧م، وهي ثالث صحيفة أردنية يصدرها القطاع الخاص، ولم تكن منتظمة الصدور، وأوقفتها الحكومة في السنة التالية لانتقادها المعاهدة البريطانية واعتبارها مخلة بالأمن الداخلي، وصدر منها ٢٨ عدد([3]).
6. صحيفة (الأنباء): أصدرها مصطفى وهبي التل([4])، ولم يصدر منها إلا عدد واحد فقط في٨ ذو القعدة ١٣٤٦ هـ/٢٩ إبريل ١٩٢٨م، لكنه لم يتم وصوله إلى أيدي القراء لأنه صودر أثناء طباعة الصفحة الثانية منه([5]). لأن المسؤولين في الحكومة شعروا

وعمل في التعليم هناك لكن سلطات الانتداب اتهمته بتلقين الطلاب الأناشيد الحماسية، شارك في الثورة الفلسطينية عام١٣٥٥هـ/١٩٣٦م وعندما انحرفت الثورة وقع الشقاق بين الثوار غادر فلسطين إلى بيروت، وهناك أغتاله خصومه السياسيين: انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٩١ ، وص٢٠٢.

([1]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٩١.

([2]) صالح الصمادي(١٣١٠ـ١٣٥١هـ/١٨٩٣ـ١٩٣٣م): وهو فلسطيني من مواليد نابلس، قدم إلى الأردن وأنشأ صحيفة (صدى العرب)، التي توقفت عن الصدور بسبب معارضتها المعاهدة الأردنية ـ البريطانية، وأقمت النيابة العامة ضد الصمادي دعوة ، فحكم عليه بالسجن مدة شهر ونصف، إلا أن الأمير عبد الله أمر بالعفو عنه ، فتوقفت ملاحقته. ثم أنضم الصمادي إلى (جمعية مساعدة العمل الأردنية)، التي كان يرأسها صبحي أبو غنيمة. ثم أصبح الصمادي من المنحازين إلى حكومة الركابي الذي كان متعاوناً مع سلطات الانتداب وحكم البلاد بالشدة والتسلط. وفي شتاء عام ١٣٥١هـ/١٩٣٣م وبينما كان خارجاً من مقهى حمدان في عَمان ضربه أحدهم بهراوة على رأسه لم يلبث أن فارق الحياة على إثرها. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٣ـ٩٤ ، وص٢٠٢ـ٢٠٣؛ علي المحافظة: الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص٩٦.

([3]) سليمان موسى:إمارة شرق الأردن،ص٣٧٦ ؛ علي المحافظة:الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص٢٣٠.

([4]) مصطفى وهبي التل(١٣١٥ـ١٣٦٨هـ/١٨٩٧ـ١٩٤٩م): ولد مصطفى التل (عرار) في مدينة اربد باللواء الشمالي من الأردن وتوفي فيها، أي أنه عاصر النصف الأول من القرن العشرين، ورغم أن (عرار) اشتهر بشعره إلا أنه كان صاحب نشاط سياسي برز في مقالاته التي نشرها في صحف فلسطين في تلك الفترة، فهو من فريق المعارضة الأردنية، التي نادت بأن الأردن للأردنيين.وكان التل من المثقفين الأردنيين الذين أدركوا الأخطار المترتبة على خنق الحريات مثل تفشي المحسوبية وانتشار الرشوة والفساد والنفاق والدسائس ونمو التعصب الطائفي والإقليمي . انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٥ـ٩٧ ؛ علي المحافظة: الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص٢٢٧ـ٢٢٨ ؛ موقع الكاتب والأكاديمي الدكتور أحمد أبو مطر: كتاب عرار الشاعر اللامنتمي (مصطفى وهبي التل): http://www.dr-abumatar.com/boeken/boek-arar/1.htm

([5]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦ ؛ علي المحافظة: الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص٢٣٠.

بخطر أفكار الشاعر مصطفى التل التي ستترفد بها الجريدة المجتمع الأردني، فأصدروا فورا (قانون المطبوعات)([1]) الذي أباح لهم مصادرة العدد و الإجهاز عليه قبل صدوره؛ وذلك لمعرفتهم المسبقة بمواقف الشاعر من قضايا الشعب والوطن من خلال شعره وكتاباته، فرأوا أن خطره سيتفاقم إذا امتلك وسيلة إعلامية تنتشر بين المواطنين. ومن خلال الصفحة الأولى، التي تم طبعها، من العدد الأول، نستطيع ان نلحظ الخط الذي كانت ستتبناه هذه الصحيفة، لو قدر لها الظهور والاستمرار. حيث كُتب تحت اسم الصحيفة مباشرة الجملة التالية: "جريدة حرة تصدر مرة في الأسبوع إذا أتاحت لها الأقدار ذلك". إذن فالشاعر نفسه كان يحس ان طبيعة الحكم القائم لن تسمح لصحيفته بمواصلة المسيرة التحررية. وتحت العبارة السابقة نقرأ بيت الشعر التالي:

إن للباطل اضطرابا على الحق   وعقباه أن يكون زهوقا([2])

٧. صحيفة (الأردن): صحيفة انتقل صاحبها خليل نصر من حيفا إلى عَمان بدعوة من الأمير عبد الله بن الحسين، وصدر العدد الأول من هذه الصحيفة في عَمان في ذي الحجة ١٣٤٥ هـ/يونيو ١٩٢٧م. وهذه الصحيفة الوحيدة التي ظلّت تصدر بانتظام مرة كل أسبوع، طوال عهد الإمارة([3]). ولكنها لم تكن مستثناة من الاضطهاد والتهديد بالإغلاق إذ ما قامت بانتقاد الحكومة أو سلطات الانتداب ففي جمادى الآخرة ١٣٤٧هـ /١٤ نوفمبر ١٩٢٨م أمرت سلطات الانتداب البريطاني بإغلاق الصحيفة والمطبعة الخاصة بها بسبب انتقاد خليل نصر للمعاهدة الأردنية ـ البريطانية

([1]) قانون المطبوعات: كانت سلطات الانتداب البريطاني تطبق قانون المطبوعات العثماني الصادر في ١١ رجب ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وأدخلت عليه بعض التعديلات بحيث جعلته أكثر شدة وتعسف؛ حيث عملت سلطات الانتداب= = على تعديل هذا القانون في١٣٤٥ـ١٣٤٦هـ/١٩٢٧ـ١٩٢٨م بما ينسجم مع السياسة البريطانية، وقد عملت هذه القوانين على تكبيل الحرية للمواطنين والصحافة، عن طريق مراقبة المطبوعات ومصادرة كل ما تجده مخل بالأمن البريطاني، وملاحقة أصحابها ومعاقبتهم بالحبس والغرامة، وتعطيل الصحيفة أو المجلة. وهذه القوانين كانت سارية على فلسطين وشرق الأردن باعتبارها واقعة تحت الانتداب البريطاني. انظر: الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص١١٢ـ١١٣ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٤٨ـ٥٠ ؛ علي المحافظة: الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص٢٣٦.

([2]) موقع الكاتب والأكاديمي الدكتور أحمد أبو مطر: كتاب عرار الشاعر اللامنتمي **(مصطفى وهبي التل)**: http://www.dr-abumatar.com/boeken/boek-arar/1.htm

([3]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٩١ـ٩٢.

لعام١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، وبعد انقضاء مدة العقوبة عاودت الصحيفة نشاطها من جديد([1]).

٨. صحيفة (الميثاق): أصدرها عادل العظم والدكتور صبحي أبو غنيمة([2])، لتنطق بلسان اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني الأردني، صدر العدد الأول منها في ١٤ ربيع الآخر ١٣٥٢هـ/٦ أغسطس ١٩٣٣م ، ولم يصدر منها سوى بضعة أعداد ثم توقفت لأسباب سياسية([3]). وكانت هذه الصحيفة تنطق بلسان حزب (اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني)، وتعبر عن وجهة نظر المنتسبين لحزب الاستقلال، والمعارضة الأردنية، وقد شنت الصحيفة هجوماً على مؤتمر الشعب الأردني وعلى لجنته التنفيذية المؤيدين للحكومة، وبلغ الخلاف بين الفريقين درجة الإسفاف وتنابذ التهم والإساءات. مما لفت انتباه الصحافة الفلسطينية والسورية، فكتبت المقالات التي تنبه إلى الأخطار المحدقة بالأردن إذا ما استمرت أحزابه تعمل بهذه الطريقة. لكن المعارضة الأردنية لم تستطع الاستمرار بسبب ملاحقة الحكومة لها فأضطرت إلى الفرار في عام١٣٥٦هـ/١٩٣٧م إلى دمشق و إلى البلاد العربية المجاورة([4]). وعلينا هنا أن نوضح دور الانتداب البريطاني في بذر بذور الفرقة بين أبناء الشعب الأردني، مما كان له أبعد الأثر على السياسة الأردنية والصحافة التي كانت الحكومة وسلطات الانتداب تعمل على كبت أنفاسها بمنعها التعبير عن رغبة الشعب الأردني الحر.

٩. صحيفة (وفاء): صحيفة أسبوعية أصدرها المحامي صبحي زيد الكيلاني([5]) ابتداءً من ٢٠ صفر ١٣٥٧هـ/٢ إبريل ١٩٣٨م وظلت تصدر حتى نهاية عام ١٩٤٧م([6]).

([1]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٢ ؛ الكتاب الأسود في القضية الأردنية العربية، ص١١٠.

([2]) الدكتور صبحي أبو غنيمة(١٣٢٠ـ١٣٩٠هـ/١٩٠٢ـ١٩٧٠م): أردني من مواليد مدينة إربد، درس في اسطنبول، ومنها ذهب إلى برلين لدراسة الطب، وفيها أصدر مجلة الحمامة عام١٣٤١هـ/١٩٢٣م. وكان من رجال المعارضة البارزين، ثم عين سفيراً للأردن في دمشق. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٨.

([3]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦.

([4]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٧ـ٩٨.

([5]) صبحي زيد الكيلاني(١٣٢٦ـ١٣٨١هـ/١٩٠٨ـ١٩٦١م):أردني من مواليد السلط تلقى تعليمه في الأردن، ثم التحق بالدراسة في الجامع الأزهر، ثم عاد إلى الأردن، وخدم في سلك التعليم وعمل في الديوان الملكي ثم عين مديراً للمطبوعات، وفي عام ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م أصدر مجلة (حول العالم) الأسبوعية السياسية الناقدة الإخبارية، والتي واصلت الصدور مدة عشر سنوات، كما أصدر في عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م صحيفة (الوطن) لفترة قصيرة جداً وكانت يومية سياسية. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص١٠٠ ، وص٢٠٤ـ٢٠٥.

([6]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦.

وكانت أسبوعية تصدر يوم الثلاثاء من كل أسبوع وتعالج مواضيع سياسية وأدبية([1]).

١٠. صحيفة (الجزيرة): أصدرها تيسير ظبيان([2]) في دمشق ثم نقلها إلى عَمان ابتداءً من١٤ رمضان ١٣٥٨هـ/٢٧ أكتوبر ١٩٣٩م. وكانت تصدر يومية أحياناً وأسبوعية أحياناً أخرى. وتوقفت عام١٣٧٣هـ/١٩٥٤م([3]). ووشحت في أعلاها عبارة "جريدة يومية سياسية أدبية حرة"، وكان الأمير عبد الله بن الحسين ينشر فيها بعض قصائده، ولكن مع ذلك لم تسلم من ملاحقة سلطات الانتداب البريطاني فعندما نشر تيسير ظبيان مقالاً أيد فيه ثورة رشيد عالي الكيلاني([4]) في العراق، اعتقلته سلطات الانتداب، ولم تفرج عنه إلا بعد تدخل الأمير عبد الله، كما عطلت الصحيفة من عام١٣٦٠هـ/ ١٩٤١ إلى عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م إذ عادت إلى الصدور بعد نهاية الحرب العالمية الثانية([5]).

١١. مجلة (الحكمة): مجلة شهرية أصدرها نديم الملاح([6])، وكانت أول مجلة تصدر

([1]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٩ـ١٠٠.

([2]) تيسير ظبيان(١٣١٩ـ١٣٩٨هـ/١٩٠١ـ١٩٧٨م): سوري من مواليد دمشق، كان من الضباط المرافقين ليوسف العظمة (بطل ميسلون) وبعد سقوط سوريا في يد الفرنسين لجأ لجأ إلى شرق الأردن، وعمل معلماً في مدارس الأردن وفلسطين، ثم إلتحق بالثورة السورية، وأصدر في عام١٣٥٨هـ/١٩٣٨م صحيفة الجزيرة في سورية، ثم نقلها من دمشق إلى عمان بطلب من الأمير عبدالله بن الحسين، كما أصدر عام١٣٧٧هـ/١٩٥٨م مجلة الشريعة التي ما تزال تصدر في الأردن حتى الآن في الأردن. انظر: عصام موسى: المرجع السابق، ص١٠٣ وص٢٠٥ـ٢٠٧.

([3]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٧.

([4]) رشيد عالي الكيلاني(١٣٠٩ـ ١٣٨٥هـ/١٨٩٢ـ١٩٦٥): وهو من مواليد بغداد، عمل في المحاماة تولى عدداً عدداً من المناصب السياسية في العراق، وفي ٣ إبريل ١٩٤١م أصبح رئيساً للوزراء ووزير للداخلية، وبعد تسعة أيام من توليه الوزارة استغل فرصة انشغال بريطانية بالحرب العالمية الثانية وقام بثورة ضدها عرفت باسمه، لكنها لم تنجح ففر من العراق إلى إيران ثم إلى برلين ، وبعد الحرب وهزيمة ألمانيا لجأ إلى المملكة العربية السعودية في١٣٦٤هـ/١٩٤٥م؛ حيث أكرمه الملك عبد العزيز، وفي عام١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م عاد إلى العراق بعد الثورة فألقى القبض عليه عبدالكريم قاسم بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، وحُكم عليه بالإعدام شنقاً في٦ جمادي الأخرة ١٣٧٨هـ/١٧ ديسمبر ١٩٥٨م، لكنه بقي في السجن حتى عفي عنه وأطلق سراحه في ١ صفر ١٣٨١هـ/ ١٤ يوليو ١٩٦١م، وتوفي ببيروت ودفن جثمانه في بغداد. انظر: مير بصري: المرجع السابق، ص١٤٦ـ١٤٨.

([5]) عصام موسى: المرجع السابق، ص١٠٠ـ١٠٢.

([6]) نديم الملاح(١٣٠٩ـ١٣٩٣هـ/١٨٩٢ـ١٩٧٣م): وهو من مواليد طرابلس لبنان. في فترة الحرب العالمية الأولى عمل في فلسطين إماماً دينياً لعدد من الوحدات العسكرية. وأثناء حكم الدولة العربية في سوريا (١٣٣٦ـ١٣٣٩هـ/ ١٩١٨ـ١٩٢٠م) شارك في الحياة السياسية والأدبية في دمشق ، وبعد دخول الفرنسيين

في الأردن، وصدر العدد الأول منها في عَمان في ربيع الأول ١٣٥١هـ/ يوليو ١٩٣٢م، واحتجبت عن الصدور في١٣٥٢هـ/١٩٣٣م([1]). أصدرت مجلة الحكمة عشرة أعداد، وكانت عبارة عن مجلة علمية أدبية اجتماعية عالجت موضوعات في الفقه والتفسير والعقائد الإسلامية والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ([2]).

١٢. المجلة (لقضائية): أصدرتها وزارة العدلية ابتداء من شهر شعبان ١٣٥٤هـ/نوفمبر ١٩٣٥م، وهي ثاني مجلة تصدر في الأردن، وكانت تنشر قرارات المحاكم والبلاغات العامة. وتوقفت عن الصدور في شوال ١٣٥٤هـ/ يناير ١٩٣٦م([3]) بعد أن صدر منها ١٣ عدد. أشرف على تحريرها توفيق سنو بصفته رئيساً لمحكمة الاستئناف، وتعتبر هذه المجلة أول مجلة متخصصة تصدر في الأردن في تلك المرحلة([4]).

ومن خلال دراستنا للصحافة في شرق الأردن نلاحظ أن الفترة المقصودة بالبحث، شهدت شرق الأردن حشدا من الصحف و بعض المجلات يومية وأسبوعية، شهرية ودورية، ذكرنا منها: (الحق يعلو- الشرق العربي- جزيرة العرب- الشريعة- صدى العرب- الأردن- الحكمة- الميثاق- الوفاء- الجزيرة)، وغيرها وأنها عالجتموضوعات في مختلف النواحي و الاتجاهات وخاصة الجوانب السياسية التي كانت تحظرها سياسة الانتداب البريطاني، لذلك هذه المحاولات لم يكتب لبعضها النجاح و الاستمرار، ولم يعمر طويلاً من هذه الصحف سوى صحيفة الأردن و الوفاء و الجزيرة، وذلك لدعم الأمير عبد الله لها. لذلك لم يكن لها دور مهم في تطوير المجتمع الأردني، لأن أغلب هذه الصحف كان قصير الأجل، فلم يصدر منها سوى أعداد قليلة، وكثيرا ما نجد أن بعضها لم يصدر منه سوى عشرة أعداد أو أقل من ذلك. وهذا لم يتح لها فرص التأثير في بيئتها، ولم تستطع أيضا القيام بدور التوجيه والتطوير، لأن الحكومة وسلطات الانتداب البريطاني كانت لها بالمرصاد، تهددها بالإغلاق والإيقاف بوجه خاص. أضف إلى ذلك عوامل القمع والاضطهاد التي كانت تتعرض لها الصحافة وأصحابها من حكومة

لدمشق غادرها إلى القدس حيث درس في كلية روضة المعارف(١٣٣٩ـ١٣٤٤هـ/١٩٢٠ـ١٩٢٥م)، بعد ذلك اتخذ الملاح من الأردن وطناً له، حيث عمل في سلك التعليم في أربد وعَمان والسلط، عرف الملاح بتمكنه من العلوم الدينية والفقه والغة العربية وله عدد من المؤلفات في هذا المجال، أصدر مجلة الحكمة وكانت مجلته إسلامية علمية أدبية اجتماعية. انظر:عصام موسى:المرجع السابق،ص٩٨ـ٩٩، وص٢٠٣ـ٢٠٤.

([1]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٨ـ٩٩.

([2]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٩.

([3]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٦ ؛ عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٩.

([4]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٩.

الانتداب والمؤيدين لها، فبقيت الصحافة الأردنية مقيدة بعيدة عـن التعـرض لمشـاكل الشـعب وقضاياه المهمة المتصلة بصميم حياته.

لم يكن القارئ الأردني يعتمد كلياً على الصحف التي تصدر في شرق الأردن، بل كانـت صحف ومجلات الأقطار العربية المجاورة مثل مصر وسوريا وفلسـطين تصـل إلـى الـبلاد ويتداولها القراء([1])، لكن بعد إبرام معاهـدة١٣٤٦هـــ/١٩٢٨م بـين حكومـة شـرق الأردن وبريطانيا منعت الحكومة الأردنية الصحف الفلسطينية مثل (فلسطين ــ والجامعـة العربيـة ــ ومرآة الشرق ــ وصوت الحق)، والصحيفتين الدمشقيتين(الشعب ــ ووفاء العرب) من الـدخول إلى شرق الأردن لنقدها للمعاهدة الأردنية البريطانية([2]). والتي كانـت محـور الخـلاف بـين الحكومة والوطنيين الأردنيين في تلك الفترة.

لقد وفرت الصحافة العربية التي تصدر من فلسطين آنذاك منبراً تبـين فيـه المعارضـة الأردنية مواقفها، وتنشر أفكارها بسبب إغلاق الصحف المحلية نتيجة القبضـة الفولاذيـة التـي فرضها المستعمر عليها والمتمثلة في المعتمد البريطاني، على الرغم من أن فلسطين كانت أيضاً تحت الانتداب البريطاني، وكان الهدف من هذا التصرف البريطاني بذر الفرقة والشـقاق بـين العرب أنفسهم([3])، خاصة وأن حكومة شرق الأردن عربية. وليس كفلسطين لا يوجد بها حكومة محلية والسلطة كانت كلها في يد الاستعمار البريطاني واليهود. والانتداب البريطاني هنا يحـاول أن يظهر نفسه بمظهر الديمقراطي، وهو مختبئ وراء كل الأعمال القمعيـة التـي تقـوم بهـا الحكومة الأردنية. هذا فضلاً عن أن الصحافة الفلسطينية التي كانت تعبر عن رأي المعارضـة الأردنية كانت أيضاً تتعرض للقمع وملاحقة من قبل سلطات الانتداب البريطاني عندما تتعـرض للسياسة البريطانية والصهيونية في فلسطين، كما لا حظنا في حديثنا عن أثر الانتداب البريطاني على الحالة الثقافية في فلسطين.

([1]) سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣٧٧.

([2]) علي المحافظة: الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص٢٣٠ ؛ الكتاب الأسود فـي القضـية الأردنيـة العربيـة، ص١١١.

([3]) عصام موسى: المرجع السابق، ص٩٦ــ٩٧ ؛ علي المحافظة: الفكر السياسي في الأردن، ج١، ص٢٢٨

المبحث الثالث: أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاجتماعية.

أ ــ أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاجتماعية في فلسطين:

لقد ارتبط المجتمع الفلسطيني بالإسلام منذ فجر التاريخ وبالتحديد منذ أن دخلها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٥هـ(١)، ففيها مولد عيسى علية السلام، ومسرى الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢)، لذلك كان أهل فلسطين في أكثريتهم الساحقة مسلمين متدينين متمسكين بدين الإسلام قولاً وعملاً، ويتميزون بصدقهم وصبرهم على الشدائد وتوكلهم على الله عز وجل، وكلامهم فيه صدق فإذا قالوا نفذوا، لا يشربون الخمر أبداً، وكانت تمتلئ بهم الجوامع في أوقات الصلاة ، وكانت جدران بيوتهم تزين بالآيات والأحاديث الشريفة(٣).

---

(١) ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، (دار الكتب العلمية ، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨)، ج٢، ص٤٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، (دار الكتاب العربي ، بيروت، ط٦،١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج٢، ص٣٤٧ــ٣٤٨ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، (دار المعرفة ، بيروت ، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ج٧، ص٦٠ــ٦١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

(٣) محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٣٤ــ٣٥.

وكانت تقام في مساجد فلسطين المختلفة دروس العلوم الشرعية والإسلامية العامة التي يحضرها العلماء وطلاب العلم وعامة الناس، وأن التدين كان أصيلاً في نفوس أبناء فلسطين؛ لأنه كان أقرب إلى الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالأفكار الأوربية المختلفة([1]). فقد كان التمسك بالإسلام وتعاليمه واضحاً تماماً في فلسطين، وكانت الحياة تدور على أساسه فيها حتى أواخر أيام الدولة العثمانية، حيث كانت الروح الدينية عميقة متأصلة في نفوس الناس، وكانت أكثرية أهل فلسطين الساحقة من المسلمين المتدينين([2]).

أما الأقلية من غير المسلمين، سواء كانوا من المسيحيين أو اليهود الشرقيين، فقد أدخل بعضهم الفساد إلى البلاد ففي فترة إنشغال الدولة العثمانية بالحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ـ١٣٣٧هـ/١٩١٤ـ١٩١٨م)، فتحت في فلسطين بعض الحانات بشكل علني، واعتاد الشباب ـ وخاصة غير المسلمين ـ التردد عليها، مما أدى إلى انتشار المفاسد من شرب للخمر ولعب للقمار وجلسات الطرب واللهو، وكانت هذه الحانات منتشرة في يافا على وجه الخصوص ؛ حيث يتركز
اليهود، وكان تهافت اليهود والنصارى عليها واضحاً([3]).

وكان اليهود الموجودون في فلسطين قسمين هما:

القسم الأول: اليهود السفاراديم وهم اليهود الشرقيون أو اليهود العرب المقيمون في فلسطين، ويحملون الجنسية العثمانية، ويتكلمون اللغة العربية ويتصرفون كالعرب في عاداتهم ولباسهم، على الرغم من أنهم كانوا يسكنون أحياء خاصة بهم، وهؤلاء بطبيعتهم يقضون حياتهم بالتجارة والصناعة، ولم يكونوا يشعرون بالغربة بين العرب في فلسطين([4]).

القسم الثاني: هم اليهود الأشكناز التابعون للدول الأجنبية، والقادمين من الإمبراطورية النمساوية الهنغارية وشرق ووسط أوربا، وأغلبهم هم الذين كانوا يعيشون في روسيا، ثم انتقلوا إلى أمريكا وحملوا الجنسية الأمريكية، وهؤلاء منعت الدولة العثمانية إقامتهم في فلسطين زيادة على ثلاثة أشهر، وإذا كانوا ممنوعين عن الإقامة فهم بالضرورة ممنوعون أيضاً من تملك

([1]) محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص١١٥ـ١١٦ ؛ محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٣٦ـ٣٧.

([2]) محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص١١٥ـ١١٦ ؛ عبد الحميد السايح: المرجع السابق، ص٤ـ٥ ؛ محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٣٥.

([3]) محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٥٩ ؛ واصف جوهرية: القدس العثمانية..، ص١٤٨ـ١٥٣.

([4]) وليد الخالدي: كتاب السيونزم أو المسألة الصهيونية لمحمد روحي الخالدي المتوفى سنة ١٩١٣م، ضمن دراسات فلسطينية مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق، تحرير: هشام نشابه، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م)، ص٨٠ ؛ مصطفى العباسي: المرجع السابق، ص٢٨.

الأراضي هناك، أما بقية الجاليات اليهودية فقد عززت وجودها بسبب الامتيازات التي فرضتها الدول الأجنبية على الدولة العثمانية([1]).

وعندما وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني([2]) في شهر رجب ١٣٣٨هـ/ إبريل ١٩٢٠م([3])، كان عدد سكان فلسطين من العرب([4]) قبل أن يصدر صك الانتداب على فلسطين أي في عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م ٦٢٠ ألف نسمة، ويمتلكون ٩٨% من الأراضي، فأرض فلسطين أرض عربية أصيلة، بينما بلغ عدد اليهود الموجودين فيها حوالي ٥٠ ألف يهودي نصفهم في القدس، ونصفهم الآخر مقسم على مدن صفد وطبرية وعكا وحيفا ونابلس والخليل، وهم بذلك يشكلون أقلية ضئيلة جداً([5]) تقدر بأقل من ٨% من نسبة السكان العرب، ويمتلكون ٢% من الأراضي فيها، ولم يغادر البريطانيون فلسطين حتى أصبح عدد اليهود فيها يزيد على ٧٠٠ ألف نسمة([6])، ويمتلكون أكثر من ٨٥% من أرض فلسطين، وأصبح أكثر من نصف الشعب الفلسطيني لاجئين في الدول العربية والأوربية، ولم تتوقف الهجمات الإسرائيلية الشرسة ضد الشعب الفلسطيني حتى اليوم، فالقصف العسكري براً وبحراً وجواً لا زال مستمراً لإبادة الشعب الفلسطيني([7]).

ويعتبر المجتمع الفلسطيني مجتمع زراعي؛ حيث كانت نسبة العاملين في مجال الزراعة في فلسطين ٧٠% عند دخول الانتداب البريطاني الأمر الذي يعني أن المجتمع الفلسطيني مجتمع فلاحي بشكل كبير. وهو ينقسم إلى ثلاث فئات هي:

الفئة الأولى: الفلاحون حيث بلغ عددهم سنة١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م ٤٧٧.٦٩٣ نسمة أي ما يعادل ٧٠% من مجمع السكان العرب.

الفئة الثانية: الحضر وينقسمون إلى ثلاث طبقات هي:

([1]) وليد الخالدي: كتاب السيونزم أو المسألة الصهيونية، ص٨٠ ؛ للمزيد من المعلومات حول اليهود الأشكناز انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٢٥٧ـ٢٥٨.

([2]) انظر نص صك الانتداب في ملحق الوثائق الملحق رقم ١٣.

([3]) غوردون كاننج: المرجع السابق، ص٦٠٣

([4]) انظر التوزيع السكاني بين اليهود والعرب قبل إقامة الكيان الصهيوني في ملحق الجداول الملحق رقم ٤.

([5]) واصف عبوشي: المرجع السابق، ص٢٧ـ٣٠ ؛ رفيق النتشه: السلطان عبد الحميد الثاني، ص١٨٦ ؛ محمد صلاح الدين: معنى الانسحاب الأمريكي والأوروبي، (صحيفة المدينة، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر، العدد ١٦٨٠٤، السنة ٧٥، ١ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ/٢٦ أبريل ٢٠٠٩م)، ص٣٢.

([6]) أحمد طربين: الاحتلال والانتداب...،ج١، ص٤١٩ـ٤٢٠ ؛ طاهر الحاج عوض الشولي: المرجع السابق، ص٤٦ـ٤٨ ؛ حسني أدهم جرار: المرجع السابق ، ص١٨.

([7]) محمد صلاح الدين: المرجع السابق، ص٣٢.

١. طبقة كبار الملاك: كآل طوقان وعبد الهادي والحسيني والخالدي والنشاشيبي، وهــذه الطبقة كان لها دور سياسي وديني مهم، كونها تنتمي إلى طبقة الأشراف.
٢. طبقة التجار: الذين برز دورهم بعــد إنشـــاء ســكة حديــد يافــا ــ القــدس ســنة ١٢٧٢هــ/١٨٥٦م، وبعد افتتاح قناة السويس١٢٨٦هــ/١٨٦٩م، الأمر الذي ترتــب عليه نمو رأس المال الأجنبي في فلسطين، وبالتالي أدى إلى نمو عدد ســكان المــدن الساحلية في فلسطين.
٣. طبقة العمال: وهم الذين ارتبطوا بالصناعات اليدوية، أو الصناعات التقليدية.

الفئة الثالثة: البدو وهم الأقل بين السكان في فلسطين([١]).

لقد أثر الانتداب البريطاني الصهيوني على البنية لاجتماعية في فلسطين بشكل كبير فمــع إطلالة القرن العشرين وطوال عهد الانتداب تصاعدت قوة اليهود الأشكناز، وفي المقابل تراجــع تأثير اليهود السفاراديم، مع العلم أن الترابط بين أحياء اليهود السفاراديم وأحياء اليهود الأشــكناز كان ضعيفاً، كما زاد عدد اليهود الأشكناز بشكل ملحوظ في ظل الانتداب البريطــاني، وكانــت تصل هؤلاء الأموال والصدقات من الخارج، ولم يكن يستفيد اليهود السفاراديم منها([٢]). وكانــت العلاقة بين اليهود والعرب في فلسطين تتسم بحسن الجوار في أيام الدولة العثمانية، لكــن فــي أواخر عهد الدولة العثمانية، وعندما بدأت تظهر الأطماع الصهيونية لليهود في فلســطين بــدأت تتوتر العلاقة بين العرب واليهود، وعندما دخل الانتداب البريطاني إلى فلسطين زاد هذا التــوتر حتى بلغ درجة الانفجــار العظــيم فــي الثــورة العربيــة الكبــرى (١٣٥٥ــــ١٣٥٨هــــ/ ١٩١٣٦ــ١٩٣٩م)([٣]).

ومن الطبيعي أن تكون الهجرة هي المصدر الأساسي للســكان اليهــود لإبقــاء الميــزان السكاني في صالحهم، لذلك سهلت سلطات الانتداب البريطاني هذه الهجمة الصــيونية الشرســة على فلسطين، حتى تضمن بقاء ولاء هؤلاء الصهاينة لها عنــدما تغــادر فلســطين. واليهــود القادمون من جميع أنحاء العالم، كانوا يحملون معهــم كــل التــأثيرات الاجتماعيــة والثقافيــة والاقتصادية من المجتمعات المختلة التي كانوا يعيشون فيها. وقد عبر عن هــذه السياســة بــن غوريون بوضوح في قوله: " إن درع إسرائيل هو في ازدياد عدد سكانها"([٤]).

([١]) سميح شبيب: المرجع السابق، ص٩٥ ؛ بيان الحوت : القيادات والمؤسسات..، ص٦ــ٧.

([٢]) مصطفى العباسي: المرجع السابق، ص٢٨ــ٢٩.

([٣]) وليد الخالدي: دير ياسين الجمعة ١٩٤٨/٤/٩م،(مؤسسة الدراسات الفلسطينية،بيروت،ط٢،٢٠٠٣م)، ص١١.

([٤]) الخصائص الديموغرافية للشعب العربي الفلسطيني، منشورات المعهد العربي للتدريب والبحــوث الإحصــائية، (دار النضال للطباعة والنشر ، بيروت)، ص٨٣ ، و ص٨٠.

صحيح أن الأغلبية السكانية ظلت راجحة لصالح الشعب الفلسطيني، لكن هـذه الأغلبيـة الكمية لم تكن كافية للتغلب على الطرف المقابل ــ اليهود ــ بسبب البعد الثقافي والاجتمـاعي ــ والتنظيم ــ ، فالمجتمع الفلسطيني كان بسيطاً تنتشر فيه الأمية ويعمل أغلب سكانه في الزراعة، ولم تتوفر لديه المهارات الكافية لمقاومة الغازي الجديد بقوته بأسلحته الماديـة والمعنويـة فهـو مسلح ثقافياً وعلمياً واجتماعياً، فقد تمكن اليهود من تأسيس مؤسسات اجتماعية وكيـان سياسـي بحماية الانتداب البريطاني، وتمثل تفوقه النوعي بالتعليم والثقافة العامة والفكر والكوادر القيادية، فقد كان الوجود الصهيوني في فلسطين عبارة عن كيان له سمات غربية يواجـه شـعباً بسـيطاً نامياً، لذلك جاء التفوق الكمي لم يسعف الشعب الفلسطيني في صراعه مع الحركـة الصـهيونية التي تمكنت من تتويج صراعها مع الشعب الفلسطيني بتأسيس دولة إسرائيل([1]).

ومن هذا المنطلق نشأ الصراع بين الشعب الفلسطيني ــ السكان الأصـلين لفلسـطين ــ والذي يشكل الأغلبية الساحقة، وبين الدخلاء اليهود الذين كانوا يشكلون أقلية كانت تتمركز فـي القدس فقط في زمن الدولة العثمانية، لكن في ظل الانتداب البريطاني أخذت هذه الأقلية تتنـامى تدريجياً حتى أصبحوا يمثلون ثلث سكان البلاد عام ١٣٦٧هــ/ ١٩٤٨م، وأخـذوا يفرضـون سيطرتهم تدريجياً على فلسطين بمساعدة سلطات الانتداب البريطاني التي عملـت علـى سـلخ فلسطين قسراً من محيطها العربي الذي كانت تعيش فيه([2])، في محاولة منها لجعله، قطعة مـن الغرب الأوربي بمساعدة اليهود.

فعملت على نشر المقاهي والملاهي الليلية في فلسطين والقدس ويافا القريبة من تل أبيـب. ففي يافا انتشرت المقاهي وكان من أشهرها مقهى البغدادي الذي كان يزدحم في النهار بأشخاص مريبين يجلسون للعب القمار بالورق والدومينو، كما كان يرتاد هذا المقهى وغيره الكثيـر مـن النسوة النصرانيات واليهوديات، اللواتي كن يتنقلن من طاولة إلى أخرى لإغواء الزبائن([3]). وقد كانت هذه المقاهي معروفة ومنتشرة منذ أيام الدولة العثمانية، لكنها كانت عبارة عـن منتـديات أدبية يجتمع فيها الناس، وهي امتداد لتراث الحكواتي الذي كان يجلس على منصة مرتفعـة فـي

([1]) إبراهيم أبو لغد: البعد الثقافي والاجتماعي للصراع الفلسطيني ــ الإسرائيلي، ضمن أبحاث في صـراع القـرن ..الصراع العربي مع الصهيونية وإسرائيل عبر مائة عام، تحرير غسان عبد الخالق، مراجعة: علي محافظـة، (مؤسسة عبد الحميد شومان، عَمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م)، ص٣٥٨.

([2]) إبراهيم أبو لغد: المرجع السابق ص٣٥٨.

([3]) سـليم تمـاري:مقهـى الصـعاليك وإمـارة البطالـة المقدسـية،(مجلـة الدراسـات الفلسطينية،العدد٥٧،شتاء٢٠٠٤م)،ص١٢٠.

المقهى ويتجمع الناس حوله، ويشير واصف جوهرية([1]) في مذكراته إلى الكثير من هذه المقاهي الموجودة في القدس؛ حيث كان الحكواتي يسرد قصص عنترة وعبلة وأبو زيد الهلالي، وكان الناس يواظبون على حضور هذه المقاهي لسماع القصص التي كانوا يتعلمون منها الفروسية والنخوة والانتقام من المعتدي، وقد تراجع دور الحكواتي بعد انتشار الكتابة واختراع المذياع الغرامافون([2]).

إن دخول الانتداب البريطاني إلى فلسطين ساعد على انتشار المقاهي التي كانت أقرب إلى الملاهي الليلة، فقد نقل الإنجليز ما كان يطلق عليه بـ "مقاهي العوالم" التي انتشرت في مصر إبان الحملة الفرنسية([3])، إلى بلاد الشام عن طريق مرفأي بيروت ويافا، وكانت هذه المقاهي تقدم عروض الرقص الشرقي لخدمة المجموعة الدنيا من الناس الذين ليس لديهم وازع ديني([4]). كما انتشر شرب الخمر في المقاهي والشوارع، وحتى أن المقاهي في القدس كانت تقدم لزبائنها من اليهود والنصارى المشروبات الكحولية التي أصبح روادها يتناولونها علناً في الليل والنهار دون خوف من حسيب أو رقيب([5]). وكان أصحاب هذه المقاهي والملاهي الليلية، إما نصارى أو يهود وخاصة في يافا القريبة من تل أبيب، أما المسلمون فكانت مقاهيهم عبارة عن منتديات أدبية كما وصفناها سابقاً.

([1]) واصف جوهرية(١٣١٥ـ١٣٩٣هـ/١٨٩٧ـ١٩٧٣م): مسيحي فلسطيني من الطائفة الأرثوذكسية وكان والده جريس(جرجس) مختار الطائفة الأرثوذكسية الشرقية في البلدة القديمة (١٣٠١هـ/١٨٨٤م) في القدس مسقط رأس واصف، كان يعمل ملحن وعازف عود ومؤرخ مقدسي، كانت علاقته جيدة بالمسلمين والمسيحيين واليهود حيث كان يعمل مع الفرق الموسيقية اليهودية، كما عمل والده على الرغم من أنه مسيحي على تعليم أبنائه القرآن وحفظه ـحتى يساعدهم هذا في الغناء والموسيقى، توفي واصف جوهرية في بيروت عام١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. انظر: واصف جوهرية: القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية، الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية ١٩٠٤ـ١٩١٧م ، تحرير وتقديم : سليم تماري وعصام نصار، (مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م)، صxxi ـ xxv.

([2]) القدس الانتدابية، ص١٣٣؛ محمد عزة دروزة: مذكرات، ص١٠٧ـ ١٠٩؛ سليم تماري: مقهى الصعاليك، ص١٢١.

([3]) الحملة الفرنسية على مصر(١٢١٢ـ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨ـ١٧٩٩م): حاول نابليون غزو انجلترا لكن نظراً لقوة الأسطول البريطاني، فكر في ضرب خطوط المواصلات البريطانية، مما يضعف تجارتها ومورد ثورتها، ووقع اختياره على مصر لوقوعها على طريق الهند الرئيسي، قام نابليون بالحملة في ٤ ذو الحجة ١٢١٢هـ/١٩ مايو ١٧٩٨م، لكنها فشلت بسبب مهاجمة الأميرال نيلسون البريطاني له في أبو قير وهزيمته هناك مما أضطر الفرنسيين من الخروج من مصر. انظر: عبد العزيز نوار ، عبد المجيد نعنعي: المرجع السابق، ص٧٧ـ٨٠.

([4]) سليم تماري: مقهى الصعاليك، ص١٢١ ؛ واصف جوهرية: القدس الانتدابية، ص٣٢٧ـ٣٢٩.

([5]) واصف جوهرية: القدس الانتدابية ، ص xix ـ xx.

وعلى الرغم من تزايد الغزو الصهيونية وانتشار الفساد في البلاد بسبب الانتداب البريطاني إلا أنه كان في فلسطين عامة وفي القدس خاصة شعور مختلف في شهر رمضان المبارك، فقد كان اليهود والنصارى يحترمون صيام المسلمين فلا يستطيعون أن يجاهروا بالأكل والشرب في هذا الشهر الكريم في الشوارع، أما في مدارس الإرساليات الأجنبية فقد كان الوضع مختلفاً، فكان على الطالب المسلم أن يثبت تحديه لنفسه والجهر بالصيام والصلاة، وتمسكه بهويته الإسلامية أما زملائه من الطوائف المختلفة فكانوا يجاهرون بالإفطار أمام زملائهم من المسلمين على اعتبار أنهم أقلية في مدارسهم. وكان الناس في رمضان يذهبون إلى المسجد الأقصى والمساجد والجوامع؛ لإقامة صلاتي التراويح والتهجد، ولحضور حلقات الوعظ والإرشاد التي بزغ فيها نجم عز الدين القسام وغيره من الرجال الوطنيين الغيورين على الإسلام والمسلمين والذين هاجموا الانتداب البريطاني والغزو اليهودي الذي لم يأت إلا بكل ما هو فاسد للبلاد وللعباد([1]).

إن حركة الغزو اليهودي لفلسطين ازدادت بدرجة كبيرة منذ سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م حيث دخل إلى فلسطين في ذلك العام ٣٠.٠٠٠ يهودي تقريباً. وتضاعف عددهم في١٣٥٤هـ/١٩٣٥م إلى حوالى ٦٢.٠٠٠ يهودي دخلوا فلسطين. إن هذه الزيادة الكبيرة في عدد الغزاة اليهود هو الذي مهد لثورة القسام([2]). ذلك لأن هؤلاء الغزاة الأجانب جاؤوا بعادات وتقاليد المجتمعات الأوربية الفاسدة التي عاشوا بها، والتي كانت غريبة على المجتمع العربي الفلسطيني المسلم المتدين، فزادت المفاسد في البلاد، فهذا استعمار أجنبي نصراني يهودي وإن القائمين على هذه المفاسد منذ أيام الدولة العثمانية كانوا نصارى ويهود؛ لذلك قويت شوكتهم بوجود الانتداب البريطاني، و تغلغل النفوذ الصهيوني في المنطقة.

ومن هذا المنطلق ظهرت ثورة القسام القائمة على الدعوة والوعظ الإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان يتصل بسائر طبقات المجتمع الفلسطيني لا فرق بين متدين وغيره اعتقاداً منه أن إصلاح المستهترين أولى من إصلاح غيرهم، لذلك كان من أوائل المتحمسين لتأسيس فرع لـ"جمعية الشبان المسلمين" في حيفا في ذي القعدة ١٣٤٦هـ/مايو ١٩٢٨م بالتعاون مع صديقه رشيد الحاج إبراهيم رئيس فرع البنك العربي في المدينة، وكانوا بذلك يعملون على منافسة "جمعيات الشبان المسيحية"([3]) التي أنشئت تحت رعاية الانتداب

([1]) صبحي غوشة: المرجع السابق، ص ٦٣ـ٦٧.

([2]) محمد عبد الروؤف سليم: المرجع السابق، ص ٢٠٥ـ٢٠٦.

([3]) "جمعية الشبان المسيحية": أنشئت أول الأمر في مصر ثم أنتشرت في فلسطين وغيرها من الدول المحتلة من قبل الإنجليز، وكانت تعمل تحت رعاية الانتداب البريطاني في القدس وعينت المستر بومن مدير معارف فلسطين والمشرف على إدارة المدارس الإسلامية رئيساً بمجلس الجمعية، الذي أصدر مرسوماً يحظر على

البريطاني وكان مقرها القدس الشريف، وكانت هذه الجمعية تعمل على تنصير المسلمين ولم تكتف بذلك بل نجدها تحمل راية الاستعمار البريطاني وتعمل على ترسيخ وجوده في أرض فلسطين العربية الأبيةمهدت له([1])، لذلك كانت "جمعية الشبان المسلمين" تعمل على مواجهة الحملات التنصيرية والاستعمار والصهيونية في فلسطين، وعمل الفلسطينيون على تأسيس فروع لـ"جمعية الشبان المسلمين" في كل المدن الفلسطينية، بعد القرارات التي أصدرها مؤتمر الجمعيات الرابع المنعقد في عكا في ١٢ صفر ١٣٥١هـ/١٧ يوليو ١٩٣٢م والذي أعلن القرارات التالية والتي تشكل أهداف هذه الجمعية وكانت كالتالي:

١ــ محاربة التنصير بكل الطرق والوسائل.

٢ــ الدعوة لتدريس أبناء فلسطين في المدارس العربية وتجنبهم المدارس التنصيرية الأجنبية.

٣ــ نشر الوعظ والتعليم في القرى وفي جمعيات الشبان المسلمين.

٤ــ إصدار منشور يناشد فيه الحاج أمين الحسيني وأنصاره (المجلسين أو كتلة الحسينية)، وراغب النشاشيبي وأنصاره(المعارضة أو كتلة النشاشيبية) أن يتركوا الخلافات الحزبية وأن يتفاهموا لصالح الوطن([2]).

لقد تكللت جهود القسام في مواجهة التنصير والاستعمار والصهيونية بالنجاح الذي ظهر جلياً في تعاون كافة طبقات الشعب الفلسطيني في الوقوف في وجه الانتداب والصهيونية، خاصة بعد استشهاد القسام على يد سلطات الانتداب البريطاني ؛ حيث هاج الشعب الفلسطيني معلناً الإضراب العام والثورة سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م. وكان لخوفهم من الهيمنة اليهودية السبب الرئيسي للثورة العربية التي اندلعت في١٣٥٥هـ/١٩٣٦م واستمرت بشكل متقطّع حتى ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

الموظفين في مديرية المعارف من مسلمين ومسيحيين الاشتراك في "جمعية الشبان المسلمين"وحضور اجتماعاتها، مهما كان القصد من تلك الاجتماعات. وتمثل "جمعية الشبان المسيحيين" برنامج الاستعمار البريطاني قلباً وقالباً، فهي معقل الحركة الاستعمارية العالمية، وهي مجهزة ببرنامج اجتماعي خطير لا للعمل به في حقل المجتمع المسيحي فقط في البلدان التي تشتغل فيه جماعات تنتمي إلى هذه الجمعية، بل للعمل به في حقل المجتمع الإسلامي في فلسطين خاصة والبلدان الإسلامية عامة الخاضعة لبريطانية. فهي تغزو نفوس الشباب العربي المسلم غزواً روحياً شنيعاً فتعمل بأساليبها الخاصة على إغراء نفوس الشباب بالملاهي والتسلية الاجتماعية، عن طريق المسرح والتمثيل، حيث يصورون الغرب الأوربي على أنه مجتمع متحضر، والمجتمع العربي على أنه مجتمع فلاحي متأخر، كما يعملون على التقارب بين العرب واليهود في المجالات المختلفة. انظر: محمد عزة دروزة: مذكرات، ج١، ص٦٣٦ــ٦٣٧ ؛ سميح حمودة: المرجع السابق، ص٤٧ــ٤٨.

([1]) لوثروب ستودارد: المرجع السابق، ج١، ص٢١ــ٢٣ ؛ سميح حمودة: المرجع السابق، ص٤٨ــ٤٩.

([2]) سميح حمودة: المرجع السابق، ص٤٨ــ٤٩.

إنه نتيجة لسيطرة اليهود على الكثير من الأرضي في فلسطين ؛ فقد تـرك الكثيـر مـن الفلسطينيين الفلاحين الزراعة وتوجهوا إلى العمل في القرى؛ حتى يتمكنوا من العيش المحتـرم نسبياً، ولقد انعكست هذه الظاهرة على الزواج في القرى الفلسطينية، فالفتاة فـي أواخـر عهـد الانتداب أخذت تفضل العامل أو صاحب المهنة على الفلاح، بينما كانت في زمن الدولة العثمانية وأوائل عهد الانتداب تنفر الناس من الزواج من العامل، وأن الفتاة التي يتقـدم لخطبتهـا فـلاح تعتبر سعيدة الحظ، وكان شعار عقلاء القرية أيامها "فلاح مكفي سلطان مخفي"([1]).

أما بالنسبة للمرأة الفلسطينية فقد كانت حريصة على الاحتشام في جميـع أمـور حياتهـا الخاصة والعامة، وكان النساء يرتدين الحجاب الذي يتألف من الفستان والجلباب الـذي يغطـي سائر جسم المرأة، وعند الخروج يلبسون عليها الملاية أو العباية، كمـا حـرص نسـاء المـدن العربيات على لبس النقاب على وجوههن، ويمشين في الطريق باحتراز تـام ويمسـكن بإحـدى يديهن الملاءة، وإذا صادفن رجلاً في الطريق يـدرن وجوههن إلى الجدران، وينتظرن مـرور الرجل فيرجعن إلى مشيتهن بكل إحترام وحشمة([2]).

أما البنات فلقد كن الكبيرات منهن متحجبات، حتى نساء النصارى كن يلبسـن الملابـس المحتشمة من غير حجاب، وإن كانت المسيحيات المعمرات (كبيرات السن) يلبسن الحجاب تماماً كالمسلمات إلا أن ملايتهن كانت بيضاء لا سوداء([3]). ولم تتغير صورة التزام المرأة بهذا الـزي إلا أثناء الانتداب البريطاني، إذ كانت النساء المتعلمات يرتدين الزي الأوربي، وترك قسم مـنهن الحجاب وسرن سافرات، وبعضهن استبدلنها بغطاء للرأس فقط([4]). وأن هذه الصـورة للمـرأة العربية لم تكن في فلسطين فقط بل كانت مشاهدة في بـلاد الشـام خاصـة، والـبلاد العربيـة والإسلامية عامة التي وقعت تحت الاحتلال الأجنبي، الذي عمل على تغيير الهويـة الإسـلامية باسم التقدم والرقي وتقليد الغرب الأوربي ؛ حيث أخذوا يدعون إلى خروج المـرأة مـن بيتهـا وبحجة مشاركة الرجل في النضال الوطني ضد الانتداب البريطاني، وكـان أول مـن خـرجن بالطبع هن النساء النصرانية فتبعهن المسلمات الذين بدأن يتحللن من حجابهن شيئاً فشيئاً تحـت مسمى النضال الوطني ومناهضة الانتداب.

ومما يرثى له أن القومين العرب الذين أطلقوا على أنفسهم مثقفين كانوا من الذين أيـدوا خلع المرأة للحجاب والخروج سافرة، بحجة مساواة المرأة بالرجل ومنحها حريتهـا وحقوقهـا،

([1]) عاطف فؤاد: المرجع السابق، ص١٩٧ــ١٩٨.

([2]) محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٣٥.

([3]) محمد عزة دروزة: مذكرات ، ج١، ص٨٠ ؛ محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٣٥ــ٣٦.

([4]) محمد عزة دروزة: مذكرات ، ج١، ص٧٩ ؛ محسن محمد صالح: المرجع السابق، ص٣٦.

ومن هؤلاء محمد عزة دروزة الذي يصف تشجيعه لزوجته وأخته على نزع الحجاب في مذكراته([1]).

لقد كانت النشاطات الاجتماعية التي تقوم بها الجمعيات النسوية هي إحدى طرق التنصير التي أدت إلى خروج المرأة الفلسطينية من بيتها ونزع حجابها وانقيادها وراء النساء النصرانيات بحجة الخدمة الاجتماعية ومساعدة الثوار، فجمعية الشبان المسيحيين والشابات المسيحيات نصبت نفسها للوصول إلى المجتمع المسلم والنخر فيه لافساد قيمه الروحية المتوارثة تحت مسمى العمل الخيري والاجتماعي؛ فأنشأت في فلسطين جمعيات نسوية تمزج في عملها بين العمل التنصيري و السياسي و الاجتماعي، حيث اتخذت جمعيات المرأة طابعاً خيرياً، ليكون غطاءً لعملها في التنصير والسياسية([2]). ومن هذه الجمعيات على سبيل المثال، جمعية السيدات العربيات التي أنشئت في القدس عام١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، والتي اختارت أهدافها بتوجيه سياسي و اجتماعي على حد سواء، استجابة للحاجة الماسة للمشاركة الشعبية و تدعيم الوحدة الوطنية. ولعل أبرز النشاطات النسوية كان تشكيل أول اتحاد نسائي فلسطيني في القدس عام١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م ومن مؤسساته زليخة الشهابي وكاميليا السكاكيني([3]).

وإننا هنا لا نقلل من دور المرأة الفلسطينية المسلمة التي عاضدت وشاركت زوجها في الجهاد ضد المستعمرين البريطانيين واليهود والحفاظ على الأرض والعرض، وهن بزيهن الإسلامي المحتشم دون اختلاط أو سفور، فنشطن في جمع التبرعات لأسر الشهداء وشراء السلاح والذخيرة وحياكة ملابس الثوار، وكانت النساء تعقد الاجتماعات سراً في البيوت. وفي المجال العسكري كانت النساء تنقل الأسلحة إلى الثوار عبر الجبال وتنقل المؤن والثياب على ظهور الجمال. وفي منتصف الثلاثينات اندمجت الحركة النسائية في الحركة الوطنية الثورية المسلحة، وكانت بداية هذا الاندماج في الثورة التي قادها الشيخ عز الدين القسام، ومن مناضلات تلك المرحلة الشهيدة فاطمة غزال التي استشهدت في اللد في ٦ ربيع الآخر ١٣٥٥هـ/٢٦ يونيو ١٩٣٦م، وطرب عبد الهادي، وميمنة عز الدين القسام، ونبيهة ناصر و عقيلة البديري([4]).

وفي ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ/ ٢٦ أكتوبر١٩٢٩م انعقد المؤتمر النسوي الأول في القدس بمشاركة ٣٠٠ امرأة ؛ حيث اعتبر هذا المؤتمر الخطوة الأولى لتأطير الحركة النسوية،

([1]) محمد عزة دروزة: مذكرات ، ج١، ص٢٨٦ــ٢٨٧.

([2]) للمزيد منت المعلومات حول الجمعيات النسائية التي غلب عليها الطابع التنصيري: انظر الموسوعة الفلسطينية: ج٢، ص٢١٥ــ٢١٩.

([3]) مصطفى الخالدي ، عمر فروخ: المرجع السابق، ص١٩١ــ١٩٣ ؛ الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٢١١ــ٢١٢.

([4]) الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٢١١ــ٢١٢.

وكان هدف المؤتمر هو تنظيم الحركة النسوية وتوسيع المشاركة النضالية لها بالإضافة لمسؤولياتها الاجتماعية، كمساعدة أسر الشهداء والجرحى والمعتقلين وتعزيز العلاقات الاقتصادية مع الأقطار العربية المجاورة([1]). لقد اجتمع هؤلاء النسوة في منزل عوني عبد الهادي، ولم تعارض سلطات الانتداب البريطاني هذه التجمعات حيث سمحوا للنساء بالقيام بمظاهرة سلمية ورسموا لهن برنامجاً معيناً وكان بينهن مجموعة من النساء النصرانيات فتمكن من السير من مكان إلى مكان، فكن قدوة يقتدي بها جميع النساء في فلسطين، وعندما وصلن إلى دار القنصل البريطاني استقبلهن بكلمات لطيفة جداً! مثنياً على اتحاد كلمتهن! في القول والعمل، ووعدهن أن يرفع احتجاجهن إلى حكومته. ثم ذهب الوفد النسائي إلى المدرسة الإسلامية للبنات لتناول طعام الغداء([2]).

أما إعلاميا، فقد برزت في تلك المرحلة إعلاميات نصرانيات منهن ماري بولس شحادة في العمل الصحافي في جريدة "مرأة الشرق" إلى جانب زوجها الصحافي بولس شحادة مالك ورئيس تحرير هذه الصحيفة. كما أن ساذج نصار أصبحت واحدة من أركان جريدة "الكرمل" إلى جانب زوجها الصحافي نجيب نصار مالك ورئيس تحرير هذه الجريدة. وكانت نصار تقوم ببعض أعمال الطباعة وتوزيع الجريدة([3]) واعتقلت ساذج في ذي الحجة ١٣٥٧هـ/فبراير ١٩٣٩م ومدد اعتقالها في جمادى الأولى ١٣٥٨هـ/يوليو ١٩٣٩م من العام نفسه لستة اشهر أخرى، وقد أثر اعتقال ساذج نصار كثيراً في الوسط النسائي والصحفي([4]). حيث اعتبروا ذلك تجاوزاً على حرية الصحافة وإعتداءً على مكانت المرأة المناضلة.

([1]) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة..، الوثيقة رقم ٦٣ ، ص ١٥٧ ؛ إلياس شوفاني: المرجع السابق، ص٤٣٥.

([2]) عبد الوهاب الكيالي: وثائق المقاومة..، الوثيقة رقم ٦١ ، ص ١٥٢ـ١٥٣.

([3]) محمد باسل سليمان: القوانين البريطانية وتطور الصحافة الفلسطينية (١٩١٨-١٩٤٨)، ١ مارس ٢٠٠٩م، موقع الانترنت: وزارت الإعلام السلطة الوطنية الفلسطينية http://www.minfo.ps

([4]) أسامة العيسة: المرجع السابق، ص٢٢.

ب ــ أثر الانتداب البريطاني على الحالة الاجتماعية في شرق الأردن:

لقد كان شرق الأردن يشكل جزءاً من ولاية دمشق وكان السكان النصارى فيـه حـوالي ١٠/١ السكان، وهذه الأقلية في الأردن معظمهم جاؤا مـن الغـرب، ويرجـع تـاريخ انتشـار النصرانية في الأردن إلى القرن الثاني الميلادي في أثناء الحكم الرومـاني لـلأردن، ولقـد زاد انتشارها بعد أن أصبحت النصرانية العقيدة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في القـرن الرابـع الميلادي، وعندما دخل الفتح الإسلامي لبلاد الشام دخل كثير منهم في الدين الإسـلامي، وبقـي بعضهم على النصرانية، وهم أقلية دفعوا الجزية وظلوا على دينهم ونعموا بتسـامح المسـلمين، وظلوا حتى اليوم، ويتركز الوجود النصراني في الأردن في: عَمان، مأدبا، عجلـون، الكـرك، السلط(١).

وتبلغ مساحة شرق الأردن ٩٠ ألف كيلو متراً مربعاً تقريبـاً، أمـا مسـاحة الأراضـي الصحراوية فيها فتبلغ ٧٢ ألف كيلو متر مربـع(٢)، وكـان لخصـائص الموقـع الجغرافـي، وللظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية التي رافقت نشأة إمارة شـرق الأردن وتطورهـا، أثرها الواضح في الشخصية الديموغرافية للمجتمع الأردني، فمن الناحية الجغرافية يقـع الأردن في منطقة متوسطة من الوطن العربي، تعتبر منطقة انتقالية بين الصحراء شـرقاً، والمرتفعـات الجبلية والساحل الشرقي للبحر المتوسط غرباً. أما من الناحية التاريخيـة فقـد تعـرض الأردن والمناطق المجاورة له لظروف عسكرية وسياسية، كان لها دور كبير في تشكيل هـذا المجتمـع وتطور فئاته من الناحية الديموغرافية والاجتماعية، وتمثل ذلك بوضوح في آثار الحرب العالمية الأولى والانتداب البريطاني، والصرع المتصل مع الاحتلال الصـهيوني لفلسـطين والاحـتلال الفرنسي لسوريا، وما نجم عن هذه الصراعات من ثورات وحروب، أدت إلى تهجيـر مستمر لأبناء هذه المناطق نحو شرق الأردن والدول العربية المجاورة(٣).

لقد كان للهجرة دور كبير في نمو سكان شرق الأردن، وتنوع أصولهم منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي وحتى الأربعينات من هذا القرن، إذ قدر عـدد سـكان شـرقي الأردن عام١٣٣٤هـ/١٩١٥م بحوالي ١٤٢ألف نسمة(٤)، بينما بلغ عدد السكان في الإحصـاء الذي صدر عام١٣٥٧هـ/١٩٣٨م والذي يذكر أن سكان البلاد يقدرون بـ٣٠٠ ألـف نسـمة بينهم٢٦٠ ألفا من العرب المسلمين و٣٠ ألفا من العرب المسيحيين ١٠ آلاف مـن الشراكسـة،

---

(١) يسرى حنفي : المرجع السابق، ج٢، ص٤٧١ـ٤٧٢.

(٢) جبران ملكون: المرجع السابق، ص٦١ ــ ٦٢ ؛ سـليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣١٣ـ٣١٤.

(٣) أحمد الربايعة ، أحمد حمودة: السكان والحياة الاجتماعية في الأردن، (منشورات لجنة تاريخ الأردن، عَمان، ١٩٩١م)، ص١١.

(٤) أحمد الربايعة ، أحمد حمودة: المرجع السابق، ص١٦.

وقدر عدد سكانه في عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م بـ ٤٠٠ ألف نسمة([1]). ومن ذلك نجد أن المسلمين في شرق الأردن يشكلون ٩٥.٨% من السكان، أي الغالبية العظمى من السكان، والمسيحيين يشكلون ٤.٢% من السكان، وعلى الرغم من تنوع السكان في شرق الأردن خاصة لأنها كانت مقر للكثير من المهاجرين في الدول العربية المجاورة لها إلا أنه لم يسجل تاريخ الأردن أية حوادث من شأنها أن تؤثر على تضامن المجتمع الأردني أو تماسكه([2]). وإن هذا يدل على مدى سعة صدر الشعب الأردني واحترامه لحقوق إخوانه العرب، الذين لجؤوا إليه من جراء الضغط الاستعماري الواقع على الشعوب العربية المحيطة به، خاصة في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق. وقد رأينا في حديثنا عن الحالة الثقافية في الأردن كيف حاول هؤلاء النهوض بالمستوى الثقافي في الأردن من خلال التعليم والصحافة، خاصة وأن الأردن في ذلك الوقت كان مجتمعاً ريفياً ينقصه الكثير من المقومات الثقافية لقلة المؤسسات الثقافية والتعليمية فيه.

وكان يغلب على المجتمع الأردني الطابع القبلي المكون من عشائر يربط بينها روابط الدم أو النسب، وكانت تقوم بين هذه القبائل بعض التحالافات من أجل الصراع على المكان، فقد كانت القبيلة القوية تسيطر على القبيلة الضعيفة، وتأخذ منها ما يسمى بـ"الخاوة" مقابل سكوتها أو الدفاع عنها إذا ما تعرضت لغزو أو غارة، لكن بعد تأسيس إمارة شرق الأردن عام١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م قضى الأمير عبد الله بن الحسين بمساعدة القوات البريطانية على الفتن الداخلية، وعلى كل أشكال الفوضى والنزاع والحروب والغزوات التي كانت تنشب بين القبائل البدوية، وحاول توطينهم وتهذيبهم ونشر التعليم بينهم قدر المستطاع على الرغم من قلة الميزانية المرصودة للتعلم من قبل الحكومة([3]).

ونتيجة لذلك أخذت الأسرة الأردنية تتعرض لتحولات وتغيرات كبيرة في فترة الانتداب البريطاني على شرق الأردن، سواء في حجمها وبنائها الاجتماعي، أو في وظائفها الاجتماعية، ونمط العلاقات الاجتماعية بين أعضائها، فمن حيث الحجم فقد أخذ عدد أفراد الأسرة وخاصة في المجتمع الحضري يتقلص ؛ حيث أصبحت الأسر تميل إلى تحديد النسل، أما في الريف فإن عدد أفراد الأسرة كان في زيادة مطردة([4]). ويظهر أنه بسبب الغزو الفكري والتدخل الأجنبي في العادات والتقاليد أصبح من علامات التطور والتمدن تحديد النسل.

([1]) جبران ملكون: المرجع السابق، ص٦١ ــ ٦٢ ؛ سليمان موسى: إمارة شرق الأردن، ص٣١٣ــ٣١٤.

([2]) أحمد الربايعة ، أحمد حمودة: المرجع السابق، ص٧٥.

([3]) أحمد الربايعة ، أحمد حمودة: المرجع السابق، ص٦٩ــ٧٠ ؛ غلوب باشا: مذكرات غلوب باشا، ص١٨٢ــ١٨٣.

([4]) أحمد الربايعة ، أحمد حمودة: المرجع السابق، ص٥٩ــ٦٠.

أما بالنسبة للتحول في نمط العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الأسرة الأردنية، فقد خفت كثيراً سلطة الأب التقليدية على أعضاء الأسرة بمن فيهم الزوجة عما كانت عليه في السابق، كما لم يعد الأب يتدخل كثيراً في فرض آرائه وأفكاره على أعضاء الأسرة إلا في أحوال قليلة، وهذا التحول الاجتماعي كان ظاهراً في الحاضرة أكثر منه في البادية([1]). فكما هو معروف في كل زمان ومكان أن الحاضرة أكثر عرضه للتغير الاجتماعي من البادية؛ بسبب التداخلات الاجتماعية والتغيرات البيئية التي تطرأ على بنية المجتمع، خاصة وأن الفترة التي تعرض لها البحث شهد الكثير من التغيرات بسبب الانتداب سواء البريطاني أو الفرنسي على بلاد الشام وبسبب الهجرات المتتالية إلى شرق الأردن الذي احتضن الكثير من المثقفين السورين واللبنانين والفلسطينيين المطاردين من قبل حكومات الانتداب المختلفة المتسلطة على بلاد الشام.

ومن أهم التغيرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الأردني تغير نمط اللباس التقليدي بالنسبة للرجال والنساء، فالرجل يغطي رأسه بنوع من اللباس يسمى الحطة أو الكوفية والعقال، ويستر باقي أعضاء الجسم بنوع من اللباس يسمى الدشداش أو القمباز أو الكبر. أما المرأة فتلبس ثوباً طويلاً يستر جميع أجزاء جسمها من الرأس حتى أخمص القدمين، وكانت تغطي وجهها ورأسها بنوع من اللباس يسمى الحجاب(أو النقاب)، وله ثقبان ترى النور من خلالهما([2]).

لكن مع وجود الانتداب البريطاني والغزو الغربي على بلاد المسلمين لم تبق المعايير الاجتماعية الإسلامية على حالها، فقد بدأت بعض ملامح التغير على نمط اللباس التقليدي للرجال والنساء ؛ حيث أصبح بعض النساء يخرجن إلى الشارع بغير حجاب أو نقاب مرتدين أحدث الملابس الغربية، كما تخلى قسم كبير من الرجال عن لبس الدشداش والعباءة والقنباز والكوفيه والعقال والعمامة، واستعاضوا عنها بالملابس الأوربية الحديثة كالقميص والبنطال وغيرهما، ولكن يمكن القول أن نمط اللباس التقليدي والحديث مازالا يعيشان جنباً إلى جنب في شرق الأردن وفلسطين على وجه الخصوص([3]). ويرجع ذلك إلى محاولة الشعب العربي الفلسطيني والأردني المحافظة على الهوية العربية الإسلامية، والوقوف في وجه الإستعمار الغربي والغزو الصهيوني، الذي تعرض حتى لملابس الشعب العربي وعاداته المتوارثة.

([1]) المرجع السابق، ص٦١ـــ٦٢.

([2]) المرجع السابق، ص٩٧ـــ٩٨.

([3]) المرجع السابق، ص٩٨.


الخاتمة والنتائج

الخاتمة والنتائج

قبل أن نتحدث عن الاستعمار الأجنبي لبلاد الشام، فإنه لابد لنا أن نشير هنا إلى شيء في غاية الأهمية، وهو أن بعض القوميين العرب في بلاد الشام هم الذين ساهموا بشكل مباشر في دخول الاستعمار الفرنسي والبريطاني لبلاد الشام بمشاركتهم في ثورة الشريف حسين في الحجاز ضد الدولة العثمانية، فكانت النتيجة الطبيعية والمباشرة لهذه الثورة خروج الدولة العثمانية ودخول الاستعمار للمنطقة، حتى أننا نجد في الاستفتاء الذي قامت به لجنة كنج وكراين أن القومين العرب هم الذين طالبوا بالانتداب البريطاني أو الأمريكي، كما طالب بعض الموارنة بالانتداب الفرنسي وهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها، فمن هذه الثغرة دخل الاستعمار لبلاد الشام، ونتج عنه الكثير من الأخطار السياسية والحضارية، حتى أنهم حاولوا إذابة الهوية الإسلامية؛ وأصبحت بلاد الشام تتقاذفها النزاعات الداخلية والحزبية. فليس هناك فرق بين الانتداب الفرنسي أو البريطاني أو الأمريكي فكل هذه الدول سوف تعمل على استعمار البلاد واستغلال خيراتها وشعوبها. وعندما أصبح الاستعمار أمراً واقعاً، خاض أهل الشام صراعاً مريراً لمواجهته ؛ مما أدى إلى سقوط عدد كبير من القتلى وتشريد الآلاف ، فميزان القوى الحربية غير متكافئ، فبالسكين والبندقية لا يمكن مواجهة الدبابة والمدفعية وغيرها.

وباستعراضنا للفصل الأول من هذه الرسالة نجد أن من أهم الآثار السياسية التي أحدثها الانتداب الفرنسي على بلاد الشام (في سوريا ولبنان) هو ظهور ما يسمى بالدستور الذي قام بوضعه بعض القوميين، على أسس وضعية واستناداً إلى قوانين أجنبية، وعدم اعتمادهم على القرآن الكريم والسنة النبوية في وضع دستور للبلاد، حتى يحفظوا حقوقهم وحقوق الطوائف والأقليات الموجودة في سوريا ولبنان، فالدستور الرباني لا يوجد فيه النقص والقصور الموجود في القوانين الوضعية المستندة على الآراء والقوانين الوضعية، وهذا من الأسباب التي أدت إلى حدوث خلاف كبير في وضع هذه الدساتير الجديدة المستوردة من الغرب. والتي كان الانتداب الفرنسي يعمل على تعطيلها من فترة إلى أخرى. بحجة الحفاظ على الأمن الذي لم يجده أهل الشام طول مدة وجود الانتداب في بلادهم.

كما ظهر في ظل الانتداب الفرنسي في سوريا أسلوب جديد للاستقلال فرضته أولاً بريطانيا على العراق والمعروف بمعاهدة ١٩٣٠م، وعلى الرغم ما تحتويه هذه المعاهدة من قيود، فقد طالب بمثلها الشعب السوري واللبناني، فما كان من فرنسا أن تمنح سوريا ولبنان معاهدات تقيد حريتهم أكثر من الاستعمار نفسه فهي بهذه المعاهدات تسخر الحكومات لخدمة المستعمر دون الشعب، فمعاهدتي عام ١٩٣٦م التي وقعها الفرنسيون مع سوريا ثم لبنان، والتي فرح بها بعض القوميون العرب لم تكن سوى وثيقتي احتلال من نوع مختلف. فهي لم تعط الحكومات أي سلطة لا داخلية ولا خارجية وظلت كل أمور الدولة ومواردها في يد المستعمر، ومع هذا لم توافق عليها الحكومة الفرنسية، لأنها لم تكن تريد أن تعطي الشعب العربي في سوريا ولبنان الاستقلال حتى ولو كان اسمياً. وفي هذا قمة الظلم والإستغلال الفرنسي، الذي استنكره حتى الموارنة المؤيدون للانتداب الفرنسي.

ونظراً لهذا الظلم الذي مارسه الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، ولاختلال الأمن والأمان في زمن الانتداب، قامت العديد من الثورات والمظاهرات، التي جسدت الكفاح الوطني في أعظم صورة، وذلك لدفع قوى الشر الذي فرضه الانتداب الفرنسي على البلاد، ويتضح لنا من خلال سرد بعض أحداث الكفاح الوطني في بلاد الشام أن المسلمين السنة قاموا بالمشاركة في كل ثورة تقوم سواء في سوريا ولبنان، أو حتى في فلسطين، ويتضح ذلك من خلال مشاركة سعيد العاص وفوزي القاوقجي في الثورتين السورية الكبرى، والعربية الكبرى في فلسطين، فشعورهم الإسلامي طغى على الشعور القومي المحدود، فاعتبروا أن هذه الحرب جهادية مقدسة لتحرير بلاد المسلمين من أيدي الأجانب الغاصبين، فخاضوا غمار ثورتين عظيمتين بإمكانياتهم البسيطة المتواضعة ضد أكبر قوتين في العالم في ذلك الوقت (فرنسا وبريطانيا).

ولا يفوتنا أن نوضح هنا الفرق بين الثورتين، فالثورة السورية قامت على أساس قومي، وكان شعارها (الدين لله والوطن للجميع)، واشترك فيها جميع فئات الشعب لمواجهة الخطر الاستعماري الصليبي الموجه ضدهم والمتمثل في فرنسا. أما الثورة العربية في فلسطين فقامت على أساس إسلامي وهو حماية المقدسات الإسلامية من اعتداءات البريطانيين والصهاينة، والذي أشعل نار هذه الثورة المجاهد الكبير عز الدين القسام الذي ترك أثراً لا يمحى في نفوس المسلمين على اختلاف جنسياتهم، لأنه دخل حربه ضد المستعمر البريطاني والصهيوني وهو لا يملك أي من مقومات الثورة ضد هذين السفاكين للدماء.

وإنه نتيجة لتقسيم منطقة بلاد الشام بين فرنسا وبريطانيا أدى إلي قيام دول صغيرة غير مترابطة فيما بينها، وأوجد الكثير من المشاكل الحدودية، جعلها تهمل قضيتها الرئيسية في محاربة المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين والكيان الصهيوني، وتتجه إلى مهاترات حدودية لا فائدة من ورائها، حتى أننا نجد في لبنان الكبير الذي أوجدته فرنسا قيام الكثير من الحروب

الأهلية، وفي هذا دليل على أن الدول المنتدبة لم تهتم لرغبات الشعوب التي كانت تسيطر عليها. مما أوجد الخلاف والنزاع بين هذه الشعوب، فالمسلمين في المناطق التي ضمت لدولـــة لبنـــان الكبير يشعرون بأنهم أقلية، بعد أن كانوا أكثرية في سوريا. وهذا التقسيم الجغرافي أدى إلى عدم الاستقرار في المنطقة العربية كلها وليس في بلاد الشام فحسب.

أما الفصل الثاني فإننا قمنا فيه بمقارنة الوضع الاقتصادي في سوريا مـــع لبنـــان الكبيـــر فوجدنا أن سوريا كانت أكثر تضرراً من لبنان في ظل الانتداب الفرنسي ؛ نظراً لفصل الـــداخل عن الساحل؛ حيث انتعشت الحياة الاقتصادية في لبنان وخاصة في بيروت التي أصبحت البوابـــة الرئيسية على أوربا. أما دمشق فقد أصبحت مدينة داخلية منعزلة ؛ بسبب الحـــواجز الجمركيـــة وتسلط الاستعمار الفرنسي عليها أكثر من لبنان، لأن أغلب سكانها من المسلمين. مما أدى إلـــى خنق الاقتصاد السوري وتراجعه وكساد المنتجات السورية التي كانت توزع عن طريق الـــدول العربية المجاورة لسوريا، وعن طريق المناطق الساحلية الملحقة بلبنـــان (بيـــروت وطـــرابلس وصور وصيدا) وعلى الرغم من هذه المحاباة الواضحة من الانتداب الفرنسي للبنان، فقـــد ثـــار الشعب اللبناني بمافيهم الموارنة على الانتداب الفرنسي ؛ لأن الانتداب كـــان يعمـــل لمصـــلحته الخاصة، دون التفكير في مصلحة الشعوب الواقعة تحت سيطرته. فقد كان الفرنسيون يوزعـــون ثروات البلاد(سوريا ولبنان) على فرنسا أولاً، ثم على بعض الموارنة فـــي لبنـــان، ومـــا تبقـــى فيجودون به على السوريين المسلمين في سوريا ولبنان الكبير والمناطق الملحقة بلبنان.

وإن هذه التفرقة في المعاملة أدت إلى ثراء بعض التجار النصارى فـــي لبنـــان، مقارنـــة بالتجار المسلمين، يرجع ذلك إلى التسهيلات التي تمنحها سلطات الانتداب لهـــم، وبســـبب تعلـــم الكثير من الموارنة في المدارس الأجنبية وخاصة الفرنسية، مما جعل لهم مقربين لديهم. وهـــذا بالطبع أثر على الوضع الثقافي في بلاد الشام ؛ حيث أصبح الطلاب الذين يدرسون في المدارس الأجنبية تكثر لديهم فرص التوظيف، أما من يدرس في المدارس العربية "الحكومية"، فلا يجد من يوظفه بسهولة، لذلك توجه الكثير من المسلمين إلى المدارس الأجنبية، مما أثـــر علـــى ديـــنهم وأخلاقهم وعاداتهم الاجتماعية.

أما عن أثر الانتداب الفرنسي على الحالة الاجتماعية في سوريا ولبنان، فإننا نلاحظ كيـــف أثر الانتداب على الحياة العامة والأخلاق في سوريا ولبنان، ومما يؤسف له هو موقـــف بعـــض المسلمين من عدم الأخذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإننا نجـــد البطريـــرك المـــاوني أنطوان عريضة الذي دخل في صراع مع سلطات الانتداب من أجل القضاء على انتشار الفســـاد طالب بغلق الملاهي الليلية وأماكن الفساد الاجتماعي والأخلاقي، بينما نجد سعد الله الجابر مـــن أعضاء الكتلة الوطنية يأمر بالقضاء على جماعة الأمر بالمعروف والنهي على المنكر وســـجنهم بل وقطع ألسنتهم. أليس هذا من الأشياء المحزنة التي يدمي لها القلب. إن هذا الفساد الذي حـــل

بسوريا ولبنان وبلاد الشام بصفة عامة كان نتيجة لوجود الانتداب الأجنبي، كمـا أنـه السـبب الرئيسي في ضياع هذه المنطقة وتفرق أهلها، وتكالب أعدائها عليها، وتمزيقها شر تمزق، حتـى أصبحت هذه الدول الإسلامية العربية صاغرة ضعيفة أمام الأقليات النصرانية الموجودة فيها.

وبما أن الفصل الثالث هو بالطبع متمم للفصلين السابقين فإننا نلاحظ من خلاله أنه لا فـرق بين الانتداب الفرنسي لبلاد الشام ، وبين الانتداب البريطاني لبلاد الشام، فالأولى حاولت فـرض سيطرتها السياسية والعسكرية الثقافية بالقوة، والثانية عملـت علـى طمـس الهويـة العربيـة والإسلامية في فلسطين بزرعها للكيان الصهيوني في قلب العالم العربي والإسلامي. وأن معظم القيادات الفلسطينية التي كانت تسعى للحل السلمي عن طريق المفاوضات مع سلطات الانتـداب البريطانية كانت من كبار العائلات وأصحاب الأملاك، فجميع المؤتمرات الفلسطينية التي تحـدثنا عنها في المبحث الأول من هذا الفصل لم تدعوا إلى المقاومة المسلحة في مواجهـة الاسـتعمار البريطاني والتوسع الصهيوني، حيث تركزت جميع مطالبهم حول طلـب الوحـدة والاسـتقلال ومعارضة أو شجب واستنكار وعد بلفور.

وعندما لم تفلح الحلول السلمية قام الشعب العربي الفلسطيني بالعديد من الثورات، والتـي من أهمها بطبيعة الحال ثورة القسام التي فجرت الثورة العربية الكبرى في فلسطين، فقامت على أكتاف الطبقة العاملة الكادحة من الفلاحين والحمالين والباعة المتجولين، والشيوخ والأئمة. ومـا أشبه اليوم بالبارحة، فإننا نجد في الوقت الحاضر أن أصحاب المفاوضات هم أنفسـهم أصـحاب الطبقة البرجوازية، وأصحاب الثورات والانتفاضات هم الطبقة الكادحة العاملـة. لكـن التحـول الخطير الذي حدث بعد ثورة (١٣٥٥ـ١٣٥٨هـ/١٩٣٦ـ١٩٣٩م) هو خـروج قـادة الثـورة وعلى رأسهم الشيخ أمين الحسيني، الذي أجبر على مغادرة البلاد هو ومن معه بحجة تهديد أمن البلاد، ومن ذلك الوقت أخذت القضية الفلسطينية تدار من الخارج، بعد أن كانـت منـذ دخـول الاستعمار البريطاني تدار من الداخل عن طريق عقد المؤتمرات وتأليف الأحـزاب، التـي لـم تحدث تأثيراً يذكر، وعدم الخروج بقرارات فعالة في نهاية تلك المؤتمرات واللقاءات، أضف إلى ذلك التنافس والتناحر بين قادة الأحزاب واستمر ذلك فترة مـن الـزمن. حتـى توحـدت هـذه الأحزاب تحت قيادة اللجنة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني، ممـا أدى إلـى تخلـص البريطانيين منه بإبعاده خارج البلاد. فانفرط عقد اللجنة العربية خاصة بعد قيام الحرب العالميـة الثانية١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

كذلك نجد أن في رفض العرب لمبدأ التقسيم كان منطلقاً من اعتقادهم اليقين بـأن وجـود الكيان الصهيوني في قلب العالم العربي سوف يؤدي إلى بابتلاع الدويلات الصغيرة المحيطة به، وأن قيام الدولة الفلسطينية في حدودها الضيقة بجانب دولة صهيونية لـن يسـتمر طـويلاً، لأن للصهاينة أطماع واسعة ونواياهم سيئة مهما أعطوا من وعود وعهود، فهم الذين نقضوا عهـدهم

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هم نفسهم يهود وصهاينة اليوم، لذلك رفض الفلسطينيين هــذا الاقتراح الذي يدعو لتقسيم بلادهم بينهم وبين الصهاينة المغتصبين، في وقت هــم أحــوج فيــه للوحدة من أي وقت آخر، فموقف الفلسطينيين هنا يختلف عــن موقــف أميــر شــرق الأردن والسوريين واللبنانيين الذين وافقوا على عقد معاهدات منفصلة مع سلطات الانتــداب البريطــاني والفرنسي تمنح كل دولة الاستقلال الاسمي، وكما لاحظنا في الفصــل الأول تنــازل الســوريين واللبنانيين عن الوحدة في مقابل الاستقلال. فقد عمل الانتداب على تفريق شمل الأمة الإســلامية في المنطقة فأصبحت كل دولة تبحث عن مصالحها القومية الضيقة الأفق، وقد انتقلت هذه العدو إلى فلسطين مع الوقت وبالتحديد بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حيــث أصــبح الفلســطينيون أيضاً يبحثون عن قيام دولة فلسطينية أسوة بجيرانها الذين تخلوا عنهــا وعــن سياســة الوحــدة برمتها.

أما عن السياسة البريطانية في منطقة الشام فقد اختلفت اختلافاً كبيراً بين فلسطين وشــرق الأردن، فقد كانت ترمي السياسة البريطانية إلى خلق الكيان الصهيوني وتهجير الفلسطينيين إلــى شرق الأردن، لذلك أنشؤوا فيه الحكومة العربية. وحتى تداري الحكومة البريطانية فشل سياستها أخذت ترسل الوفود تلو الوفود، وتصدر الكتب البيضاء، في محاولة منها لكسب الوقت خاصــة مع قرب اندلاع الحرب العالمية الثانية وفشــل مــؤتمر المائــدة المســتديرة فــي لنــدن ســنة ١٣٥٨هــ/١٩٣٩م.

ومن النتائج التي توصلنا إليها في الفصل الرابع أننا عندما نتحدث عن الانتداب البريطاني على فلسطين خاصة، نجد أننا نتحدث عن شعبين مختلفين تمام الاختلاف، وموجــودين قصــرياً تحت ظل الانتداب البريطاني الذي عمل على إبادة شعب وتهجيره من بلاده حتــى يقــيم مكانــه شعب آخر لا حق له في فلسطين، ففلسطين بلد عربي إسلامي فيه مقدسات إسلامية قائمة، بينمــا اليهود الصهاينة الذين جاءبهم البريطانيون من جميع أنحاء العالم؛ ليبحثوا لهم عن أثار دفنت منذ آلاف السنين، ولم يكن بينهم ما يربطهم ببعض لا من الناحية الثقافية ولا من الناحية الحضارية، ولم يكن بينهم وبين الدول المحيطة بهم غير العداوة والبغضاء، نظراً لوجودهم في وسط إسلامي عربي، وهم ليسوا بمسلمين ولا بعرب ولن تكون فلسطين هي موطنهم أو محيطهم الطبيعي الذي يمكن أن يعيشوا فيه. فلا اللغة ولا الثقافة ولا الحضارة ولا حتى المحيط الإقليمي لهم يتناسب مع وجودهم. ففلسطين هي أرض الحضارات والرسالات السماوية، ومسرى الرسول محمــد عليــه الصلاة والسلام، فهي أرض مقدسة طال الزمان أو قصر فسوف يأتي مــن يعيــدها للمســلمين ويجلي عنها اليهود الصهاينة الغاصبين، حتى أننا نجد من خلال دراســتنا للحالــة الاجتماعيــة لسكان فلسطين أنه على الرغم من وجود المسلمين والمسيحيين واليهود مــن ســفاراديم(اليهــود العرب المقيمين في فلسطين منذ القديم)، اليهود الأشكناز(القادمين من وشرق ووسط أوربا) فــان

اليهود العرب كانوا متجانسين مع المجتمع الفلسطيني يتشبهون بهم في الكثير من عاداتهم ، بينما اليهود الأوربيون الدخلاء الغزاة الذين أجلوا وطردوا سواء من أوربا أو حتى من بعض الـــبلاد العربية والإسلامية فإنهم لم يستطيعوا أن يندمجوا في النسيج الفلسطيني، لأنه لا يمكن بأي حـــال من الأحوال تطبيع العلاقات بينهم والمساواة بين الجاني والمجني عليه، فالشعب الفلسطيني الذي سرقت أرضه وعرضه وطرد من بيته لا يمكن أن ينظر إلى السارق بعين الرأفـــة والاحتـــرام، قبل أن ترد حقوقه المسلوبة إليه.